

الجزء الأول

الـــتزام

علي محمد عبد اللطيف

صاحب المكتبة الحسينية المصرية بالأزهر

الطبعـــة الأولى

١٣٥١ هجرية — ١٩٣٢ ميلادية

المطبعة المصرية
إدارة محمد عبد اللطيف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأول الأزلى قبل الكون والمكان من غير أول ولا بداية ، الآخر الأبدى بعد فناء المكونات والأزمان بغير آخر ولا غاية ، الظاهر فى علوه بقهره من غير بعد ، والباطن فى دنوه بقربه من دون مس ، الذى أحسن بلطفه كل شىء بدأه ، وأتقن صنع كل شىء أنشأه ، ودبرت الأحكام حكمته ، وصرفت المحكومات مشيئته ، فاظهر فى الغيب والشهادة لطيف قدرته ، وعم فى العاجل والآجل خلقه بنعمته ، ونشر على من أحب منهم فضله ، وبسط لجميعهم عدله ، وأنعم عليهم بتعريفهم اياه سبحانه وتعالى به عز وجل وأحسن اليهم باجتبائه اياهم اليه وأفضل عليهم بتيسير كلامه لهم ومن عليهم ببعثه رسولا من أنفسهم اليهم فنسأله الصلاة على النبي وآله وأن يوزعنا بفضله شكر نعمه ، ويعرفنا خفى قدره ، وصلى الله تبارك وتعالى على سيد الأولين والآخرين ، رسوله المفضل بالشفاعة والحوض المورود ، المخصوص بالوسيلة والمقام المحمود ، وعلى اخوانه السالفين فى الأزمان ، وأنصاره والتابعين باحسان

وبعد : فهذا كتاب قوت القلوب فى معاملة المحبوب ، ووصف طريق المريد الى مقام التوحيد(1) تصنيف الشيخ أبى طالب محمد بن على بن عطية الحارثى المكى رضى الله عنه يشتمل على ثمانية وأربعين فصلا هذا ذكرها :—

﴿الفصل الأول﴾ فى ذكر الآى التى فيها المعاملات ﴿الفصل الثانى﴾ فى الآى التى فيها ذكر أوراد الليل والنهار ﴿الفصل الثالث﴾ فى ذكر عمل المريد فى اليوم والليلة ﴿الفصل الرابع﴾ فى ذكر ما يستحب من الذكر وقراءة الآى المندوب اليها بعد التسليم من صلاة الصبح ﴿الفصل الخامس﴾ فى ذكر الادعية المختارة بعد صلاة الصبح ﴿الفصل السادس﴾ فى ذكر عمل المريد بعد صلاة الصبح ﴿الفصل السابع﴾ فى ذكر أوراد

---

(1) قال فى كشف الظنون: مؤلف فى التصوف واشتهر اسمه بطريق المريد للوصول الى مقام التوحيد تأليف الفاضل أبى طالب المكى محمد بن على المتوفى سنة ست وثمانين وثلثمائة ببغداد حتى قال جل علماء عصره فى الأقطار لم يؤلف فى هذا الباب مثله ولم يسمع به فى الأمصار ثم نسى ذلك الاسم واشتهر الآن بدقائق الطريقة واختصره زين الدين الشيخ محمد بن خلف الأموى المتوفى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة بمحروسة دمشق الشام وسماه الوصول الى الغرض المطلوب من جواهر قوت القلوب

وفى شرح الشفاء للخفاجي : هو أبو محمد بن أبى طالب شيخ الصوفية وأهل السنة المتبحر فى التفسير وغيره من العلوم وله تفسير كبير وكتابه القوت كتاب جليل .

النهار وهى سبعة أوراد ﴿الفصل الثامن﴾ فى ذكر أوراد الليل وهى خمسة أوراد ﴿الفصل التاسع﴾ فى ذكر وقت الفجر ﴿الفصل العاشر﴾ فيه كتاب معرفة الزوال و زيادة الظل و نقصانه بالاقدام ﴿الفصل الحادى عشر﴾ فيه كتاب فضل الصلاة فى الأيام والليالى ﴿الفصل الثانى عشر﴾ فى ذكر الوتر وفضل الصلاة فى الليل ﴿الفصل الثالث عشر﴾ فيه كتاب جامع ما يستحب أن يقول العبد اذا استيقظ من نومه و فى يقظته عند الصباح ﴿الفصل الرابع عشر﴾ فى تقسيم قيام الليل و وصف القائمين ﴿الفصل الخامس عشر﴾ فى ذكر ورد العبد من التسبيح والذكر والصلاة فى اليوم والليلة وفضل صلاة الجماعة وذكر فضل الاوقات المرجو فيها الاجابة وذكر صلاة التسبيح ﴿الفصل السادس عشر﴾ فى ذكر معاملة العبد فى التلاوة و وصف التالين حق تلاوته بقيام الشهادة ﴿الفصل السابع عشر﴾ فيه كتاب ذكر نوع من المفصل والموصل من الكلم ومدح العاملين به وذم الغافلين عنه وهو من تفسير غريب القرآن ﴿الفصل الثامن عشر﴾ فيه كتاب ذكر الوصف المكروه من نعت الغافلين ﴿الفصل التاسع عشر﴾ فيه كتاب ذكر الجهر بالقرآن وما فى ذلك من النيات وتفصيل حكم الجهر والاخفات ﴿الفصل العشرون﴾ فى ذكر الليالى المرجو فيها الفضل المستحب احياؤها و ذكر مواصلة الأوراد فى الأيام الفاضلة ﴿الفصل الحادى والعشرون﴾ فى كتاب الجمعة وهيئة آدابها و ذكر المريد فى يوم الجمعة و ليلتها ﴿الفصل الثانى والعشرون﴾ فيه كتاب الصوم وترتيبه و وصف الصائمين ﴿الفصل الثالث والعشرون﴾ فى ذكر محاسبة النفس ومراعاة الوقت ﴿الفصل الرابع والعشرون﴾ فى ذكر ماهية الورد للمريد و وصف حال العارف بالمريد ﴿الفصل الخامس والعشرون﴾ فيه كتاب تعريف النفس وتصريف مواجيد العارفين ﴿الفصل السادس والعشرون﴾ فيه كتاب ذكر مشاهدة أهل المراقبة ﴿الفصل السابع والعشرون﴾ فيه كتاب أساس المريدين ﴿الفصل الثامن والعشرون﴾ فيه كتاب مراقبة المقربين ﴿الفصل التاسع والعشرون﴾ فيه ذكر أهل المقامات من المقربين وتمييزهم ونعت حال المتعبدين الموقنين وتمييز حال أهل الغفلة المبعدين ﴿الفصل الثلاثون﴾ فيه كتاب ذكر خواطر القلب لأهل معاملات القلوب ﴿الفصل الحادى والثلاثون﴾ فيه كتاب العلم وتفضيله وأوصاف العلماء وذكر فضل علم المعرفة على سائر العلوم و كشف طريق العلماء من السلف الصالح و ذكر بيان فضل علم الباطن على علم الظاهر والفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة وذكر علماء السوء الآكلين بعلومهم الدنيا وذكر وصف العلم وطريق السلف وما أحدث المتأخرون من القصص والكلام وباب ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف و باب من تفضيل علم الايمان واليقين على سائر العلوم

والتحذير من الزلل فيه و بيان ماذكرناه و باب تفصيل الأخبار و بيان طريق الآثار ﴿ الفصل الثانى والثلاثون ﴾ فى شرح مقامات اليقين وأحكام الموقنين وأصل مقامات اليقين التى تردإليهافروع أحوال المتقين وهى تسعة أولها التوبة ثم الصبر ثم الشكر ثم الرجاء ثم الخوف ثم الزهد ثم التوكل ثم الرضا ثم المحبة ﴿ الفصل الثالث والثلاثون ﴾ فيه شرح مبانى الاسلام وهى خمسة فالأول فرض شهادة التوحيد للمؤمنين و وصف فضائلها وهى شهادة المقربين و ذكر شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم وفضلها للموقنين والثانى شرح الصلاة فأولها فرض الاستنجاء وسننه وفرائض الوضوء وسننه وفضائله وفرائض الصلاة وسننها وأحكام المصلى فى فوت الصلاة ودركها وما يتعلق بها وهيئة الصلاة وآداب المصلى فيها والثالث شرح الزكاة ووقت أدائها وذكر فضائل الصدقة وآداب العطاء و وصف أحوال الفقراء والرابع شرح صوم شهر رمضان والخامس شرح كتاب الحج الذى به كمال الشريعة وتمام الملة ﴿ الفصل الرابع والثلاثون ﴾ فيه كتاب تفصيل الاسلام والايمان وعقود السنة واعتقادالقلوب وشرح معاملة الناس من العلم الظاهر وذكر دعائم الاسلام وأركان الايمان واتصال الايمان بالاسلام واقتران القلوب بالعمل و ذكر بيان التفرقة بين الايمان والاسلام والاستثناء فى الايمان والاشفاق من النفاق وطريقة السلف فى ذلك ﴿ الفصل الخامس والثلاثون ﴾ فيه كتاب السنة وشرح فضائلها وجمل من آداب الشريعة و ذكر عقود القلوب من علم الظاهر وهى ستة عشر خصلة أولها أن تعتقد أن الايمان قول وعمل وان القرآن كلام الله تبارك وتعالى غير مخلوق وأن تسلم أخبار الصفات وأن تعتقد و تعلم تفضيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تقدم من قدمه الله عز وجل و رسوله صلى الله عليه وسلم وأن تعتقد ان الامامة فى قريش عامة الى أن تقوم الساعة وأن لا تكفر أحدا من أهل القبلة وأن تصدق بجميع أقدار الله عز وجل خيرها وشرها وأن مسالة منكر ونكير حق وأن عذاب القبر حق وأن تؤمن بالميزان وأن تعتقد أن الصراط حق وأن تؤمن بالحوض المورود حوض محمد صلى الله عليه وسلم وأن تؤمن بالنظر الى الله سبحانه وتعالى وأن تعتقد اخراج الموحدين من النار وأن تؤمن بوقوع الحساب وفيه فصل مستنبط من معنى الاجماع بذكر أهل البدع واخراجهم من الجماعة و ذكر فضائل السنة و وصف طرائق السلف الصالح التابعين باحسان ﴿ الفصل السادس والثلاثون ﴾ فيه ذكر جمل الشريعة وعرا الايمان وذكر شرط المسلم الذى يكون به مسلما وذكر حسن اسلام المرء وعلامة محبة الله عز وجل له وذكر حق المسلم على المسلم وهو وجوب حرمة الاسلام على المسلمين و ذكر سنن الجسد وذكر ما فى اللحية من المعاصى والبدع و ذكر ماجاء فى فضل بعض ذلك

واستحسانه وكتاب ما ذكر من نوافل الركوع وما يكره من النقصان منه ﴿ الفصل السابع والثلاثون ﴾ فيه كتاب شرح الكبائر وتفصيلها ومسألة فى محاسبة الكفار ﴿ الفصل الثامن والثلاثون ﴾ فيه كتاب الاخلاص وشرح البيان والأمر بتحسينها فى تصرف الأحوال والتحذير من دخول الآفات عليها فى الأفعال ﴿ الفصل التاسع والثلاثون ﴾ فيه كتاب ترتيب الأقوات بالنقصان منها أو بزيادة الأقوات ﴿ الفصل الاربعون ﴾ فيه كتاب الأطعمة وما يجمع الأكل من السنن والآداب وما يشتمل على الطعام من الكراهية والاستحباب ﴿ الفصل الحادى والاربعون ﴾ فيه كتاب فرائض الفقر وفضائله ونعت عموم الفقراء وخصوصهم وتفصيل قبول العطاء ورده وطريق السلف فيه ﴿ الفصل الثانى والأربعون ﴾ فيه كتاب حكم المسافر والمقاصد فى الأسفار ﴿ الفصل الثالث والأربعون ﴾ فيه كتاب حكم الامام ووصف الامامة والمأموم ﴿ الفصل الرابع والأربعون ﴾ فيه كتاب الاخوة فى الله عز وجل والصحبة ومحبة الاخوان فيه تبارك وتعالى وأحكام المؤاخاة وأوصاف المحبين ﴿ الفصل الخامس والاربعون ﴾ فيه كتاب ذكر التزويج فى فعله وتركه أيهما أفضل ومختصر أحكام النساء فى ذلك ﴿ الفصل السادس والاربعون ﴾ فيه كتاب ذكر دخول الحمام ﴿ الفصل السابع والاربعون ﴾ فيه كتاب الصنائع والمعايش والبيع والشراء وما يجب على التاجر والصانع من شروط العلم فى أحكام التصرف ﴿ الفصل الثامن والأربعون ﴾ فيه كتاب تفصيل الحلال والحرام وما بينهما من الشبهات وفضل الحلال وذم الشبهة وتمثيل ذلك بصور الألوان

الفصل الأول

فى ذكر الآى التى فيها ذكر المعاملة

قال الله تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا وقال عز وجل من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب وقال سبحانه و تعالى وأن ليس للانسان الا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وقال جلت قدرته كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية وقال عز من قائل ولكل درجات مما عملوا وقال تبارك و تعالى وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وقال سبحانه وتعالى ونودوا أن تلكموا الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون وقال سبحانه وتعالى فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين جزاء بما

كانوا يعملون وقال سبحانه وتعالى نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون وقال سبحانه لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون

الفصل الثانى

فى ذكر الآى التى فيها أوراد الليل والنهار

قال الله تعالى وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا وقال جل ثناؤه ان لك فى النهار سبحا طويلا واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا وقال سبحانه واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا وقال تعالى وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وادبار السجود وقال تعالى وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم وقال تعالى ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا وقال تعالى ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى وقال تعالى أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقال تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا وقال عز اسمه والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما وقال سبحانه وتعالى كانوا قليلا من الليل مايهجعون وبالاسحارهم يستغفرون وقال تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد بهنافلة لك وقال وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيآت ذلك ذكرى للذاكرين وقال سبحانه وتعالى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون

الفصل الثالث

فى ذكر عمل المريد فى اليوم والليلةمن فرائض الاوامر وفضائل النوادب

فمن ذلك يستحب عند طلوع الفجر وهو البياض المشتق من سواد الليل المعترض فى قطر السماء الشرقى عند ادبار النجوم وادبارها افتراقها وذهاب ضوءها لغلبة ضوء الفجر عليها وهو الوقت الذى أمر الله تعالى فيه بذكره اذ يقول تعالى ومن الليل فسبحه وادبار النجوم فليصل العبد ركعتى الفجر يقرأ فيهما قل ياأيها الكافرون وقل هو الله أحد فهو أكثر ماروى ان النبى صلى الله عليه وسلم قرأهما فيهما فان شاء خافت وان شاء جهر . فقد روى حديثان أحدهما يدل على

المخافتة وهو حديث عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفف ركعتى الفجر حتى أقول قرأ فيهما بفاتحة الكتاب أم لا والآخر يدل على الجهر وهو حديث ابن عمر رمقت النبى صلى الله عليه وسلم عشرين يوما فسمعته يقرأ فى ركعتى الفجر قل ياأيها الكافرون وقل هو الله أحد وفى حديث أبى هريرة وابن عباس انه قرأ صلى الله عليه وسلم فى الركعة الأولى الآية التى فى سورة البقرة قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل الى آخرها وفى الركعة الثانية ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين فليقرأ بذلك أحيانا ثم يستغفر الله تعالى سبعين مرة يقول فى كل مرة أستغفر الله العظيم الذى لا اله الا هو الحى القيوم وأسأله التوبة ثم يسبح الله و يهلله مائة مرة بالكلمات الاربع الجامعات المختصرات التى هى فى القرآن وليست بقرآن سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وأستغفر الله وتبارك الله مرة واحدة وليدع بهذا الدعاء فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو به بعد ركعتى الفجر . روينا عن ابن أبى ليلى عن داود بن على عن أبيه عن ابن عباس قال بعثنى العباس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله فأتيته ممسيا وهو فى بيت خالتى ميمونة فقام يصلى من الليل فلما صلى الركعتين قبل صلاة الفجر قال اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعثى وترد بها ألفتى وتصلح بها علانيتى وتقضى بها دينى وتحفظ بها غائبى وترفع بها شاهدى وتزكى بها عملى وتبيض بها وجهى وتلقنى بها رشدى وتعصمنى بها من كل سوء اللهم اعطنى ايمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة اللهم انى أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء ومرافقة الانبياء والنصر على الأعداء اللهم انى أنزل بك حاجتى وان قصر رأيى وضعف عملى وافتقرت الى رحمتك فاسألك ياقاضى الأمور و ياشافى الصدور كما تجير بين البحور أن بجيرنى من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور اللهم ماقصر عنه رأيى وضعف عنه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته أحدا من خلقك أو خير أنت معطيه أحدا من عبادك فانى أرغب اليك فيه وأسألكه يارب العالمين اللهم اجعلنا هادين مهديين غير ضالين ولا مضلين حربا لاعدائك وسلما لاوليائك نحب بحبك الناس ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك اللهم هذا الدعاء وعليك الاجابة وهذا الجهد وعليك التكلان فانا لله وانا اليه راجعون لاحول ولا قوة الا بالله ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد أسالك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود والموفين بالعهود انك رحيم ودود أنت تفعل ماتريد سبحان الذى تعطف (١) بالعز

(١) هكذا بالأصل ولعلها تمنطق

وقال به سبحان الذى لبس المجد وتكرم به سبحان الذى لا ينبغى التسبيح الا له سبحان ذى الفضل والنعم سبحان ذى القدرة والكرم سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه اللهم اجعل لى نورا فى قلبى ونورا فى قبرى ونورا فى سمعى ونورا فى بصرى ونورا فى شعرى ونورا فى بشرى ونورا فى لحمى ونورا فى دمى ونورا فى عظامى ونورا من بين يدى ونورا من خلفى ونورا عن يمينى ونورا عن شمالى ونورا من فوقى ونورا من تحتى اللهم زدنى نورا واعطنى نورا واجعل لى نورا هذه الأنوار التى سألها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله فى كل جزء من أجزائه انما هو دوام النظر من نور النور يشاهد القيومية فى كل سكون وحركة منه يكلؤه بنظره ويتولاه بحيطته فينظر اليه بدوام نظره ليستقيم له بتولى حفظه فلا يزيغ بصره ولا يطغى ولا تستهويه النفس بهوى فليدع العبد بهذا الدعاء بعد ركعتى الفجر لكن يقدم على دعائه المسئلة لله تبارك وتعالى فى الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله فيستجيب سبحانه وتعالى دعوته ولا يرده لقول الرسول صلى الله عليه وسلم اذا سألتم الله تعالى حاجة فابدؤا بالصلاة على فان الله تعالى أكرم من أن يسأل فى حاجتين فيعطى احداهما ويرد الأخرى ثم ليصل العبد صلاة الغداة فى جماعة ليكون فى ذمة الله وجواره وفى الحديث صلاة الغداة فى جماعة أفضل من قيام ليلة وصلاة العشاء الآخرة فى جماعة أفضل من قيام نصف ليلة وليكن قائما فى صلاته بالقاء سمع وشهود قلب وحضور عقل وجمع هم وصحة تيقظ وحسن اقبال وتدبر للكلام وترتيل وتفهم بالتماس غرائب التنزيل فاذا سلم من صلاته قال ما يستحب من الذكر

الفصل الرابع

فى ذكر ما يستحب من الذكر وقراءة الآى المندوب اليها بعد التسليم من صلاة الصبح استخرجناها من الآثار

اللهم صل على محمد وآله اللهم أنت السلام ومنك السلام واليك يعود السلام فحينا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام ثم ليقل سبحان الله العظيم وبحمده ثلاثا ثم يستغفر الله ثلاثا ثم يقول اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد ثم ليقل وهو ثان رجله من قبل أن يتكلم هذه الكلمات عشر مرات لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير كله وهو على كل شىء قدير ثم ليقرأ وهو كذلك قل هو الله أحد عشرا ويقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون عشر مرات وليقل سبحان ربك

رب العزة عما يصفون الى آخر السورة ثلاث مرات وليقل فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الى آخر الثلاث آيات ثلاث مرات ثم يسبح ثلاثا وثلاثين ويحمد كذلك ويكبر أربعا وثلاثين فتلك مائة مرة وان أحب جعلها خمسا وعشرين زاد فيها التهليل وان قال سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر خمسا وعشرين مرة استوعب ذلك مائة تسبيحة وكان أيسر عليه لأجل المداومة ثم يقرأ سورة الحمد وآية الكرسى وخاتمة البقرة من قوله آمن الرسول وشهد الله الآية وقل اللهم مالك الملك الآيتين ثم يقرأ لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى آخرها ثم يقرأ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا الآية ثم يقرأ لقد صدق الله رسوله الرؤيا الى آخر السورة ثم يقرأ خمسا من أول سورة الحديد وثلاثا من آخر سورة الحشر ثم ليقل اللهم انى أسألك بكرم وجهك الصلاة على محمد وآله وأسألك الجنة وأعوذ بك من النار سبع مرات وقال قبيصة بن مخارق للنبى صلى الله عليه وسلم علمنى كلمات ينفعنى الله بها وأوجز فقد كبر سنى وعجزت عن أشياء كنت أعملها فقال اما الدنياك فاذا صليت الغداة فقل ثلاث مرات سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده لاحول ولا قوة الا بالله فانك اذا قلتهن أمنت من عمى وجذام وبرص وفالج وأما الآخرتك فقل اللهم صل على محمد وآل محمد واهدنى من عندك وأفض على من فضلك وانشر على من رحمتك وأنزل على من بركاتك ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما انه اذا وافى بهن يوم القيامة لم يدعهن فتح له أربعة أبواب من الجنة يدخل من أيها شاء وان قال المسبعات العشر التى أهداها الخضر عليه السلام الى ابراهيم التيمى ووصاه ان يقولها غدوة وعشية وقال له الخضر أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم وذكر من فضلها وعظم شأنها مايجل عن الوصف وانه لايداوم على ذلك الا عبد سعيد قد سبقت له من الله عز وجل الحسنى وحذفنا ذكر فضائلها اختصارا فان قال ذلك فقد استكمل الفضل والمداومة عليهن تجمع له جميع مافرقناه من الادعية روى ذلك سعيد بن سعيد عن أبى طيبة عن كرز بن وبرة قال وكان من الابدال قال أتانى أخ لى من الشام فأهدى لى هدية وقال يا كرز اقبل منى هذه الهدية فانها نعم الهدية فقلت يا أخى من أهدى لك هذه الهدية قال أعطانيها ابراهيم التيمى قلت أفلم تسأل ابراهيم من أعطاه قال بلى قال كنت جالسا فى فناء الكعبة وأنا فى التهليل والتسبيح والتحميد فجاءنى رجل فسلم على وجلس عن يمينى فلم أر فى زمانى أحسن منه وجها ولا أحسن منه ثيابا ولا أشد بياضا ولا أطيب ريحا فقلت ياعبد الله من أنت ومن أين جئت فقال أنا الخضر فقلت فى أى شىء جئتنى قال جئتك للسلام عليك وحبا لك فى الله عز وجل وعندى هدية أريد ان أهديها اليك فقلت ماهى قال هى ان تقرأ قبل طلوع الشمس وتبسط على الأرض وقبل ان تغرب سورة

الحمد سبع مرات وقل أعوذ برب الناس سبع مرات وقل أعوذ برب الفلق سبع مرات وقل هو الله احد سبع مرات وقل يا أيها الكافرون سبع مرات وآية الكرسى سبع مرات وتقول سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر سبع مرات وتصلى على النبي صلى الله عليه وسلم سبع مرات وتستغفر لنفسك ولوالديك وما توالدا ولاهلك وللمؤمنين والمؤمنات الاحياء منهم والاموات سبع مرات وتقول اللهم يارب افعل بى و بهم عاجلا وآجلا فى الدين والدنيا والآخرة ماأنت له أهل ولا تفعل بنا يامولاى مانحن له أهل انك غفور رحليم جواد كريم رؤف رحيم سبع مرات وانظر ألاتدع ذلك غدوة وعشية فقلت أحب ان تخبرنى من أعطاك هذه العطية فقال أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم فقلت أخبرنى بثواب ذلك فقال لى اذا لقيت محمدا صلى الله عليه وسلم فسله عن ثوابه فانه سيخبرك فذكر ابراهيم التيمى رحمه الله انه رأى ذات ليلة فى منامه ان الملائكة جاءته فاحتملته حتى أدخلوه الجنة فرأى مافيها ووصف وصفا عظيما مما رأى فى صفة الجنة قال فسألت الملائكة فقلت لمن هذا كله فقالوا للذى يعمل مثل عملك وذكر انه أكل من ثمرها وسقوه من شرابها فاتانى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه سبعون نبيا وسبعون صفا من الملائكة كل صف مثل مابين المشرق والمغرب فسلم على وأخذ بيدى فقلت يارسول الله ان الخضر أخبرنى انه سمع منك هذا الحديث فقال صدق الخضر صدق الخضر وكل ما يحكيه فهو حق وهو عالم أهل الأرض وهو رئيس الابدال وهو من جنود الله عزوجل فى الارض فقلت يارسول الله فمن فعل هذا ولم ير مثل الذى رأيت فى منامى هل يعطى مما أعطيته قال والذى بعثنى بالحق انه ليعطى العامل بهذا وان لم يرنى ولم ير الجنة انه ليغفر له جميع الكبائر التى عملها ويرفع الله عز وجل عنه غضبه ومقته ويؤمر صاحب الشمال الايكتب عليه شيئاً من السيآت الى سنة والذى بعثنى بالحق نبيا مايعمل بهذا الا من خلقه الله تعالى سعيدا ولا يتركه الا من خلقه شقيا وقد كان ابراهيم التيمى رحمه الله مكث أربعة أشهر لم يطعم طعاما ولم يشرب شرابا فلعله بعد الرؤيا والله تعالى أعلم ذكره الاعمش عنه فهذا من جمل ما أتى مما يستحب ان يقرأ ويقال بعد صلاة الغداة ولذلك فضائل جمة وردت بها الاخبار حذفنا ذكرها للاختصار

الفصل الخامس

فى كر الأدعية المختارة بعد صلاة الصبح الجامعة المختصرة المأثورة فى الأخبار المتفرقة

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا افتتح دعاء افتتحه بقوله سبحان ربى العلى الأعلى

الوهاب وانه كان يقول لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ورويناان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها عليك بالجوامع الكوامل قولى اللهم انى أسألك الصلاة على محمد وآله وأسالك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأسالك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل وأسألك من الخير ماسالك به عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأسألك ماقضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين . وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يافاطمة مايمنعك ان تسمعى ما أوصيك به أن تقولى ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث فأغثنى ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين واصلح لى شانى كله وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه هذا الدعاء فقال قل اللهم انى اسالك بمحمد نبيك وابراهيم خليلك وموسى نجيك وكليمك وعيسى روحك وكلمتك وبكلام موسى وانجيل عيسى وزبور داود وفرقان محمد صلى الله عليه وسلم وكل وحى أوحيته أو قضاء قضيته أو سائل أعطيته أو غنى أفقرته أو فقير أغنيته أو ضال هديته وأسالك باسمك الذى أنزلته على موسى وأسالك باسمك الذى ثبت به أرزاق العباد وأسألك باسمك الذى وضعته على الأرض فاستقرت وأسالك باسمك الذى وضعته على السموات فاستقلت وأسالك باسمك الذى وضعته على الجبال فارست وأسالك باسمك الذى استقل به عرشك وأسالك باسمك الطهر الطاهر الاحد الصمد الوتر المنزل فى كتابك من لدنك من النور المبين وأسألك باسمك الذى وضعته على النهار فاستنار وعلى الليل فاظلم وبعظمتك وكبريائك وبنور وجهك ان تصلى على محمد نبيك وعلى آله وان ترزقنى القرآن والعلم وتخلطه بلحمى ودمى وسمعى وبصرى وتستعمل به جسدى بحولك وقوتك فانه لاحول ولا قوة الا بك يا أرحم الراحمين وروينا عن ابن عمر أن جبريل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم فعلمه هذا الدعاء يانور السموات والارض ياجمال السموات والأرض ياعماد السموات والأرض يابديع السموات والأرض ياذا الجلال والاكرام ياصريخ المستصرخين ياغوث المستغيثين يامنتهى رغبة الراغبين والمفرج عن المكروبين والمروح عن المغمومين ومجيب دعوة المضطرين وكاشف السوء وأرحم الراحمين واله العالمين منزول بك كل حاجة يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال لم يكن النبى صلى الله

عليه وسلم يدع ان يدعو بهؤلاء الكلمات حين يصبح وحين يمسى اللهم انى أسألك العافيـة فى الدنيا والآخرة وأسالك العفو والعافية فى دينى ودنياى وفى أهـلى ومالى اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى وأقلنى عثراتى اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بك أن أغتال من تحتى وقال بريد الاسلمى قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يابريد ألا أعلمك كلمات من أراد الله عز وجل به خيرا علمهن اياه ثم لم ينسهن اياه أبدا قال قلت بلى يارسول الله صلى الله عليك قال قل اللهم انى ضعيف فقونى فى رضاك ضعفى وخـذ الى الخير بناصيتى واجعل الاسـلام منتهى رضاى اللهم انى ضعيف فقونى وانى ذليـل فأعزنى وانى فقير فاغننى برحمتـك يا أرحم الراحمين وروينا عن أبى مالك الاشجعى قال حدثنى أبى قال كنا نغدو الى النبى صلى الله عليه وسلم فيجىء الرجل أو تجىء المرأة فيقول كيف أقول يارسول الله اذا أصبحت قال تقول للهم صـل على محمـد وآله واغفرلى وارحمنى واهدنى وارزقنى وعافنى واجبرنى فقد جمعن لك خير دنياك وآخرتك وروينا عن أبى زرعة قال كتب الى أبو هريرة فيما أكاتبه وشافهنى به فيما ألقاه أن الشيطان لايطيف بانسان يقول حين يصبح وحين يمسى اللهم انى أعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر السامة والهامة وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر عذابك وشر عبادك وأعوذ باسمك وكلمتـك التامة من شر الشيطان الرجيم اللهم انى اسالك باسمائك وكلمتك التامة ان تصلى على نبيك محمد وآله وأسألك من خيرما تعطى وما تسال ومن خير ماتخفى وخيرماتبدى اللهم انى أعوذ باسمك، كلمتك التامة من شر مايجرى به النهاران ربى الله الذى لا إله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم وان كان مساء قال ومن شر ماجاء به الليل يقول ذلك ثلاثا . وروينا عن عمر بن عبد العزيز عن محمد بن عبيد الله قال أتى أبو الدرداء فقيل له احترقت دارك فقال ما كان الله عز وجل ليفعل ثم أتاه آت فقال ياأبا الدرداء ان النار حيث دنت من دارك طفئت فقال قد علمت فقيل له ماندرى أى قوليك أعجب قال انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قال هؤلاء الكلمات فى ليل أو نهـار لم يضره شىء وقد قلتهن وهى اللهم أنت ربى لااله الا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم لاحول ولا قوة الا بالله العـلى العظيم ماشاء الله عز وجـل ربى كان ومالم يشأ لم يكن أعلم ان الله على كل شىء قدير وان الله قد أحاط بكل شىء علماً اللهم انى أعوذ بك من شر نفسى ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم وقد روينا عن أبى الدرداء أنه قال من قال فى كل يوم سبع مرات فان تولوا فقل حسبى الله لااله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم كفاه الله عز وجل ماأهمه من أمر آخرته صادقا كان أو كاذبا وروينا عن النبى صلى الله

عليه وسلم أنه قال ماأصاب أحداهم ولا حزن فقال اللهم انى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تصلى على نبيك وحبيبك محمد وآله وان تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى وغمى الا أذهب الله عز وجل همه وحزنه وأبدله مكانه فرحا قال قيل يارسول الله الا نتعلمها فقال صلى الله عليه وسلم بلى ينبغى لمن سمعها ان يتعلمها وروينا فى الاخبار ان ابراهيم الخليل كان يقول اذا أصبح اللهم هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك واختمه لى بمغفرتك ورضوانك وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى وزكها وضعفها لى وما عملت فيه من سيئة فاغفرها لى انك غفور رحيم ودود كريم قال ومن دعا بهذا الدعاء اذا أصبح أدى شكر يومه وكذلك اذا أمسى وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال اذا أصبح واذا أمسى ثلاث مرات رضيت بالله عز وجل ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً كان حقاً على الله ان يرضيه يوم القيامة وروينا عن معمر عن جعفر بن برقان أن عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم كان يقول اللهم انى أصبحت لاأستطيع دفع ماأكره ولا أملك نفع ماأرجو وأصبح الأمر بيدك لابيد غيرك وأصبحت مرتهنا بعملى فلا فقير أفقر منى اللهم لاتشمت بى عدوى ولا تسئ بى صديقى ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولا مبلغ علمى ولا غاية أملى ولاتسلط على من لايرحمنى وروينا عن عطاء عن ابن عباس قال يلتقى الخضر والياس فى كل موسم فيفترقان عن هذه الكلمات بسم الله ماشاء الله لاقوة الا بالله ماشاء الله كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله عز وجل ماشاء الله لايصرف السوء الا الله ماشاء الله لاحول ولا قوة الا بالله فمن قالها اذا أصبح ثلاث مرات أمن الحرق والغرق والسرق ويقال ان هذا من استغفار الخضر عليه السلام اللهم انى أستغفرك من كل ذنب تبت اليك منه ثم عدت فيه اللهم انى أستغفرك من كل عقد عقدته لك ثم لم أوف لك به اللهم انى أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فقويت بها على معصيتك اللهم انى أستغفرك من كل عمل عملته لوجهك خالطه ماليس لك وحكى سعيد بن أبى الروحاء الجمال وكان من أهل الخير انه تواجد ذات ليلة فى أرض قفرة فاستوحش وفزع فظهر له شخص قال فاشتد جزعى منه حتى سمعته يقرأ القرآن ثم قال ألا أدلك على شىء اذا أنت قلته أنست اذا استوحشت واهتديت اذا ضللت ونمت اذا أرقت قلت علمنى رحمك الله قال قل بسم الله ذى الشان عظيم البرهان شديد السلطان كل يوم هو فى شان لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وحدثونا عن يعقوب بن عبد الرحمن الدعاء قال سمعت محمد ابن حسان يقول قال لى معروف الكرخي رحمه الله الا أعلمك عشر كلمات خمسة للدنيا وخمسة

للآخرة من دعا الله عز وجل بهن وجد الله سبحانه وتعالى عندهن قلت اكتبها قال لا ولكن أرددها عليك كما رددها على بكر بن حبيش حسبي الله تبارك وتعالى لديني حسبي الله عز وجل لدنياى حسبي الله الكريم لما أهمنى حسبي الله الحكيم القوى لمن بغى على حسبي الله الشديد لمن كادنى بسوء حسبي الله الرحيم عند الموت حسبي الله الرؤف عند المسألة فى القبر حسبي الله الكريم عند الحساب حسبي الله اللطيف عند الميزان حسبي الله القدير عند الصراط حسبي الله لااله هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم وادع بهؤلاء الكلمات اللهم ياهادى المضلين و راحم المذنبين ومقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا من الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين يقال ان عتبة الغلام رؤى فى المنام فقال دخلت الجنة بهذه الدعوات وليقل بعد ذلك هذا الدعاء اللهم عالم الخفيات رفيع الدرجات ذا العرش تلقى الروح من أمرك على من تشاء من عبادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذا الطول لااله الا أنت اليك المصير رؤى ابراهيم الصائغ فى النوم فقيل له بأى شىء نجوت فقال بهذه الدعوات وليقل هذا الدعاء يامن لايشغله سمع عن سمع ولا تشتبه عليه الأصوات يامن لاتغلطه المسائل ولاتختلف عليه اللغات يامن لايتبرم بالحاح الملحين أذقنى برد عفوك وحلاوة رحمتك يقال ان الخضر عليه السلام علم على بن أبى طالب عليه السلام هذا الدعاء وليسبح تسبيحات أبى المعتمر وهو سليمان التيمى فقد روى من فضلها ان يونس بن عبيد رأى رجلا كان قد قتل شهيداً ببلاد الروم فقال له ماأفضل مارأيت ثم من الأعمال قال رأيت تسبيحات أبى المعتمر من الله سبحانه وتعالى بمكان وقال المعتمر بن سليمان رأيت عبد الملك بن خالد بعد موته فقلت ماصنعت قال خيراً قلت نرجو للخاطىء شيئا قال يلتمس تسبيحات أبى المعتمر فانها نعم الشىء وهذه هى التسبيحات سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله عدد ماخلق الله وعدد ما هو خالق وزنة ماخلق وزنة ماهو خالق وملء ماخلق وملء ماهو خالق وملء سمواته وملء أرضه ومثل ذلك وأضعاف ذلك وعدد خلقه وزنة عرشه ومنتهى رحمته ومداد كلماته ومبلغ علمه ورضاه وحتى يرضى واذا رضى وعدد ماذكره به خلقه فى جميع ما مضى وعدد ماهم ذاكروه فيما بقى فى كل سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات ونسمة وشم ونفس ولمحة وطرفة من الأبد الى الأبد أبد الدنيا وأبد الآخرة وأكثر من ذلك لاينقطع أولاه ولا ينفد أخراه وليدع بهذا الدعاء فانه دعاء التوبة مرجو فيه الاجابة روينا عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت لما أراد الله عز وجل ان يتوب على آدم طاف سبعا بالبيت

وهو يومئذ ليس بمبنى ربوة حمراء ثم قام فصلى ركعتين ثم قال اللهم انك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم حاجتى فاعطنى سؤلى وتعلم مافى نفسى فاغفرلى ذنوبى اللهم انى أسألك ايمانا يباشر قلبى ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لا يصيبنى الا ما كتبت لى والرضا بما قسمت لى ياذا الجلال والاكرام فاوحى الله عز وجل اليه انى قد غفرت لك ولن يأتينى أحد من ذريتك فيدعونى بمثل الذى دعوتنى به الا غفرت له وكشفت غمومه وهمومه ونزعت الفقر من بين عينيه واتجرت له من وراء كل تاجر وجاءته الدنيا وهى راغمة وان كان لا يريدها وليقل هذه الكلمات المنثورة فانها مما روى فى اسم الله سبحانه وتعالى الاعظم باخبار فى ذلك مأثورة اللهم انى أسألك بأن الحمد لك لا اله الا أنت الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والاكرام أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ياحى ياقيوم ياحى حين لا حى فى ديمومية ملكه وبقائه ياحى محيى الموتى ياحى مميت الأحياء ووارث أهل الأرض والسماء اللهم انى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الذى لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم اللهم انى أسألك باسمك الأعظم الأجل الأعز الأكرم الذى اذا دعيت به اجبت واذا سئلت به أعطيت يانور النور يامدبر الامور ياعالم مافى الصدور ياسميع ياقريب يامجيب الدعاء يالطيفا لما يشاء يارؤف يارحيم ياكبير ياعظيم ياالله يارحمن ياذا الجلال والاكرام الم الله لا اله الاهو الحى القيوم وعنت الوجوه للحى القيوم يا الهى واله كل شىء الها واحدا لا اله الا أنت اللهم انى أسألك باسمك الله الله الله الله الذى لا اله الا هو رب العرش العظيم فتعالى الله الملك الحق لا اله الاهو رب العرش الكريم أنت الأول الآخر الظاهر الباطن وسعت كل شىء رحمة وعلما كهيعص حمعسق الرحمن ياواحد ياقهار ياعزيز ياجبار يا أحد يا صمد يا ودود ياغفور هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين اللهم إنى أدعوك باسمك المكنون المخزون المنزل السلام الطهر الطاهر القدس المقدس يادهر ياديهور ياديهار ياأبد ياأزل يامن لم يزل ولا يزول هو ياهو لا اله الا هو يامن لاهو الا هو يامن لايعلم ماهو الا هو ياكان ياكينان ياروح ياكائن قبل كل كون ياكائن بعد كل كون يامكنون لكل كون اهيا شراهيا أدناى اصباؤت يامجلى عظائم الأمور فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ليس كمثله شىء وهو السميع البصير اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما بركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وليقل هذه الأدعية المأثورة اللهم انى أسألك الثبات فى الأمر والعزيمة على الرشد وأسالك شكر نعمتك وحسن عبادتك وأسالك اللهم يارب قلبا سليما ولسانا

صادقا وعملا متقبلا وأسالك من خير ماتعلم وأعوذ بك من شر ماتعلم وأستغفرك لما تعلم فانت تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واغفرلى ماقدمت وما أخرت وما أعلنت وما أسررت فانك انت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير وعلى كل غيب شهيد اللهم انى أسالك ايمانا لايرتد ونعيما لا ينفد وقرة عين الا بدومرافقة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم فى أعلى جنة الخلد اللهم انى اسالك الطيبات وفعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين أسالك اللهم يارب الصلاة على محمد وعلى آله أجمعين واسالك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقرب الى حبك وان تتوب على وتغفرلى وترحمنى واذا أردت بقوم فتنة فاقبضنى اليك غير مفتون يا أرحم الراحمين اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق احينى ماكانت الحياة خير الى وتوفنى اذا كانت الوفاة خير الى اسالك اللهم يارب خشيتك فى الغيب والشهادة وكلمة العدل فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر ولذة النظر الى وجهك والشوق الى لقائك وأعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة اللهم يارب زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا و بين معصيتك ومن طاعتك ماتدخلنا به جنتك ومن اليقين ماتهون به علينا مصائب الدنيا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارزقنا حزن خوف الوعيد وسرور رجاء الموعود حتى نجد لذة مانطلب وغم مامنه نهرب اللهم صل على محمد وعلى آل محمد سيد الأولين والآخرين وصل على محمد وعلى آله أجمعين وألبس وجوهنا منك الحياء واملأ قلوبنا بك فرحا واسكن فى نفوسنا من عظمتك وذلل جوارحنا لخدمتك واجعلك أحب الينا مما سواك واجعلنا أخشى لك مما سواك اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأسألك تمام النعمة بتمام التوبه ودوام العافية بدوام العصمة وأداء الشكر بحسن العبادة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك من فتنة الغنى وفتنة الفقر وأعوذ بك من ضيق الصدر وشتات الأمر وعذاب القبر وأعوذ بك من غنى مطغى ومن فقر منسى ومن هوى مردى وقرين مغوى اللهم انى اسألك الصلاة على محمد وعلى آله وأسالك الهدى والتقى والعفاف والغنى اللهم صل على محمد نبيك وصفيك ولا تقدمنى لعذاب ولا تؤخرنى لسيء الفتن أعوذ بك ياالله من الفتن ماظهر منها وما بطن وأعوذ بك من المحن ماخفى منها وما علن اللهم انى أسالك الصلاة على نبيك محمد وعلى آله وأسالك خير هذا اليوم وخير مافيه وأعوذ بك من شره وشر مافيه أعوذ بك اللهم يارب من شر طوارق الليل والنهار ومن بغتات الامور وفجاة الاقدار ومن شر كل طارق يطرق الا طارقا يطرق منك بخير يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما اللهم صل على محمد وعلى آله واجعل يومنا هذا أوله صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعل

أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة اللهم صل على محمد نبيك وعلى آله وأعوذ بك أن أزل او أزل أو أضل أو أضل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على عز جارك وجل ثناؤك وتباركت أسماؤك ولا اله غيرك اللهم صل على محمد وعلى آله وأعوذ بك من عذاب جهنم وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال واذا أردت بقوم سوأ أو فتنة فاقبضنى اليك غير مبدل ولا مفتون اللهم صل على محمد وعلى آله اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لى وأسالك خير الحياة وبركة الحياة وأعوذ بك من شر الوفاة واسالك خيرمابينهما وخير مابعدذلك أحينى حياة السعداء حياة من تحب بقاءه وتوفنى وفاة الشهداء وفاة من تحب لقاءه ياخير الرازقين و ياأحسن التوابين و ياأحكم الحاكمين و ياأرحم الراحمين و يارب العالمين أعوذ بك من شر مايلج فى الأرض ومايخرج منها ومن شر ماينزل من السماء وما يعرج فيها الحمد لله الذى تواضع كل شىء لعظمته وذل كل شىء لعزته وخضع كل شىء لملكه واستسلم كل شىء لقدرته والحمد لله الذى سكن كل شىء لهيبته والحمد لله الذى أظهر كل شىء بحكمته وتصاغر كل شىء لكبريائه اللهم صل على نبيك محمد وعلى آل محمد وأزواجه وذريته فى العالمين انك حميد مجيد كريم اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمى الرسول الأمين واعطه المقام المحمود يوم الدين اللهم انى أعوذ بك من حدة الحرص وشدة الطمع وسورة الغضب وسنة الغفلة وتعاطى الذلة أعوذ بك من مباهاة المكثرين والازراء على المقلين وأن أنصر ظالما أو أخذل مظلوما وأن أقول فى العلم بغير العلم وأعمل فى الدين بغير يقين اللهم انى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم واستغفرك لمالا أعلم اللهم انى أعوذ بك من اتباع خطوات الشيطان وشركه فى المال والأهل وقبول أمره فى السوء والفحشاء اللهم انى أسالك الصلاة على نبيك محمد وعلى آله وأسألك حسن الاختيار وصحة الاعتبار وصدق الافتقار اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وافتح بخير واختم بخير وأنت الفتاح العليم اللهم صل على نبيك محمد وعلى آل محمد وارحم ماخلقت واغفر ماقدرت وطيب مارزقت وتمم ماأنعمت وتقبل مااستعملت واحفظ مااستحفظت ولاتهتك ماسترت فانه لا إله لنا الا أنت أستغفرك من كل لذة بغير ذكرك ومن كل راحة بغير خدمتك ومن كل سرور بغير قربك ومن كل فرح بغير مجالسك ومن كل شغل بغير معاملتك اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين وعبادك الصالحين اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واستعملنا بمرضاتك عناووفقنا لمحابك مناوصرفنا بحسن اختيارك لنا اللهم صل على نبيك محمد وعلى آله ونسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه ونعوذبك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واحفظنا فيما أمرتنا واحفظنا عما نهيتنا واحفظ لنا

ما أعطيتنا ياحافظ الحافظين و ياذاكر الذاكرين و ياشاكر الشاكرين بحفظك حفظوا وبذكرك ذكروا و بفضلك شكروا ياغوث يامغيث يامستغاث ياغياث المستغيثين لاتكلني الى نفسي يارب طرفة عين فأهلك ولا تكلني الى الخلق فاضيع اكلانى كلاءة الوليد ولا تخل عنى وتولنى بما تتولى به عبادك الصالحين اللهم صل على نبيك محمد وعلى آله وبقدرتك على تب على انك انت التواب الرحيم وبحلمك عنى اعف عنى انك أنت الغفار وبعلمك بى ارفق بى انك انت الرحمن الرحيم وبملكك لى ملكنى نفسى ولا تسلطها على انك أنت الملك الجبار سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوأ وظلمت نفسى فاغفرلى ذنبي انك أنت ربى لا إله إلا أنت انه لايغفر الذنوب الا أنت اللهم صل على محمد وعلى آل محمد والهمنى رشدى وقنى شر نفسى اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارزقنى حلالا لاتعاقبنى عليه وقنعنى بما رزقتنى واستعملنى به صالحا تقبله منى اللهم انى أسالك ان تصلى على نبيك محمد وعلى آل محمد وأسالك العفو والعافية وحسن اليقين والمعافاة فى الدنيا والآخرة اللهم صل على نبيك محمد وعلى آل محمد وأعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك أبوء بنعمتك اليك وأبوء بذنوبى اليك هذه يداى بما كسبت أنا عبدك ابن عبدك ناصيتى بيدك جارفى حكمك نافذ فى قضاؤك عدل فى مشيئتك ان تعذب فأهل ذلك أنا وان ترحم فاهل ذلك أنت فافعل اللهم يامولاى ياالله يارب افعل بى ماأنت له أهل ولا تفعل اللهم يارب ياالله بى ماأنا له أهل فانك أهل التقوى وأهل المغفرة يامن لاتضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لى اللهم يارب مالايضرك واعطنى مالاينقصك افرغ اللهم علينا يارب صبرا وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة انا هدنا اليك ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار اللهم انى أسألك أن تصلى على نبيك محمد وعلى آل محمد وأسالك الصيانة والعون على الطاعة والعصمة من المعصية وافراغ الصبر فى الخدمة وايزاع الشكر على النعمة وأسألك يامولاى ياالله يارب الصلاة على نبيك محمد وعلى آل محمد وحسن الخاتمة اللهم انى أسألك أن تصلى على نبيك محمد وعلى آل محمد وأسالك اليقين وحسن المعرفة بك وأسالك المحبة وحسن التوكل عليك وأسالك الرضا وحسن المنقلب اليك ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا

بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا الى آخرها اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وطهر قلوبنا فى قلوب الأبرار وزك أعمالنا فى عمل الأخيار وصل على أرواحنا فى أرواح الشهداء يا أكرم الأكرمين ويا أجود الأجودين ويا أرحم الراحمين ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وعلما وزهدا وعبادة وأمنا ورزقا من حلال وفى الآخرة حسنة رضوانك والجنة وقنا برحمتك عذاب النار وعذاب القبر وقنا سخطك وغضبك وعذابك وأهواله عاجلا وآجلا فى الدين والدنيا والآخرة برحمتك يا أرحم الراحمين وأن تمجد الله تعالى غدوة وعشية بما مجد به نفسه عز وجل فقد روى من ثواب ذلك ماهو غاية الطالبين روينا عن على عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله تبارك وتعالى يمجد نفسه فى كل يوم يقول سبحانه وتعالى انى أنا الله رب العالمين انى أنا الله لا اله الا أنا الحى القيوم انى أنا الله لا اله الا أنا العلى العظيم انى أنا الله لا اله الا أنا العفو الغفور انى أنا الله لا اله الا أنا مبدىء كل شىء والى يعود انى أنا الله لا اله الا أنا لم ألد ولم أولد انى أنا الله لا اله الا أنا العزيز الحكيم انى أنا الله لا اله الا أنا مالك يوم الدين انى أنا الله لا اله الا أنا الرحمن الرحيم انى أنا الله لا اله الا أنا خالق الخير والشر انى أنا الله لا اله الا أنا خالق الجنة والنار انى أنا الله الذى لا اله الا أنا الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا انى أنا الله لا اله الا أنا الفرد الوتر انى أنا الله لا اله الا أنا عالم الغيب والشهادة انى أنا الله لا اله الا أنا الملك القدوس انى أنا الله لا اله الا انا السلام المؤمن المهيمن انى أنا الله لا اله الا أنا العزيز الجبار المتكبر انى أنا الله لا اله الا انا الخالق البارىء انى أنا الله لا اله الا أنا الأحد المصور انى أنا الله لا اله الا أنا الكبير المتعال انى أنا الله لا اله الا أنا المقتدر القهار انى أنا الله لا اله الا أنا الحكيم الكبير انى أنا الله لا اله الا أنا القادر الرزاق انى أنا الله لا اله الا أنا أهل الثناء والمجد انى أنا الله لا اله الا أنا أعلم السر وأخفى انى أنا الله لا اله الا أنا فوق الخلق والخليقة انى أنا الله لا اله الا أنا الجبار المتكبر فيختم ويقول فسبحان الله رب العرش العظيم فمن دعا بهذه الكلمات فليقل أنت الله كذا وأنت الله كذا ومن دعا بهذه الاسماء كتب من الشاكرين الساجدين المخبتين الذين يجاورن محمدا صلى الله عليه وسلم وابراهيم وموسى وعيسى والنبيين صلوات الله عليهم أجمعين فى دار الجلال وله ثواب العابدين فى السموات والأرضين وليقل اللهم صل على محمد وآل محمد صلاة تكون لك رضاء ولحقه أداء واعطه الوسيلة والفضيلة والثواب والمقام المحمود الذى وعدته واجزه عنا ماهو أهله واجزه أفضل ما جازيت نبيا عن أمته واعطه

الشرف والشفاعة يوم الدين اللهم صل على محمد نبي الرحمة وسيد الأمة وعلى جميع اخوانه النبيين وصل على أبينا آدم وأمنا حواء ومن ولد بينهما من الصالحين والمسلمين وصل على ملائكتك أجمعين من أهل السموات والأرضين وصل علينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين واغفر لي ولوالدي وما توالدا وارحمهما كما ربياني صغيرا واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وخير الغافرين وانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل وحسبنا الله وحده لا شريك له فهذا جامع ما جاء من فضائل ما يقال من الدعاء عن المصطفى صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة وعن أئمة الهدى وحذفنا ذكر فضائل ذلك وما جاء فيه من الروايات ايجازا يقول هذا الدعاء بعد صلاة الغداة وقبل غروب الشمس فى كل يوم فان قاله بعد صلاة مكتوبة فقد استكمل الفضل بفضل الله عز وجل ورحمته

الفصل السادس

فى ذكر عمل المريد بعد صلاة الغداة

وهو أنه يأخذ فى تلاوة القرآن وفى أنواع الذكر من التسبيح والحمد والثناء وفى التفكر فى عظمة الله سبحانه وتعالى وآلائه وفى تواتر احسانه ونعمائه من حيث يحتسب العبد ومن حيث لا يحتسب وفيما يعلم العبد وفيما لا يعلم ويتفكر فى تقصيره عن الشكر فى ظواهر النعم وبواطنها وعجزه عن القيام بما أمره به من حسن الطاعة ودوام الشكر على النعمة أو يتفكر فيما عليه من الأوامر والنوادب فيما يستقبل أو يتفكر فى كثيف ستر الله تبارك وتعالى عليه ولطيف صنعه به وخفى لطفه له وفيما اقترف وفرط فيه من الزلل وفى فوت الأوقات الخالية من صالح العمل أو يتفكر فى حكم الله تعالى فى الملك وقدرته فى الملكوت وآياته وآلائه فيهما أو يتفكر فى عقوبات الله عز وجل وبلائه الظاهرة والباطنة فيهما ومن ذلك قوله عز وجل وذكرهم بأيام الله قيل بنعمه وقيل بعقوباته ومنه قوله عز وجل فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ومثله فبأى آلاء ربكما تكذبان أى بأى نعمة تكذبان يامعشر الجن والانس ان استطعتم وهما الثقلان ففى أى نوع من هذه المعانى أخذ فيه فهو ذكر والذكر عبادة وهو يخرج الى الفكر والفكر يدخل فى الخوف والرجاء والذكر اذا قوى صار مشاهدة كما قال عز وجل يذكرون الله قياما ثم قال ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ثم قال سبحانك فقنا

عذاب النار ولا يكون مشاهدة الا عن يقين واليقين روح الايمان ومزيده وفن المؤمن وقال بعض العلماء فى تفسير الخبر تفكر ساعة خير من عبادة سنة وهو التفكر الذى ينقل أى من المكاره الى المحاب ومن الرغبة والحرص الى القناعة والزهد وقيل هو التفكر الذى يظهر مشاهدة وتقوى و يحدث ذكرا وهدى كقوله تعالى واذكروا مافيه لعلكم تتقون ولقوله تعالى لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكر ومثله يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة أى يفعلون لما يبقى و يرغبون فيما يدوم و يزهدون فيما يفنى وقد جعل الله عز وجل البيان يعلمنا اقتضاء الشكر عليه فقال يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون و كما قال تعالى واذكروا ما فيه لعلكم تتقون وقد وصف أعداءه بعد ذلك فقال الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وقالت أم الدرداء كانت أكثر عبادة أبى الدرداء التفكر وقد كان يقول ما يسرنى أن أربح فى كل يوم ثلثمائة دينار أنفقها فى سبيل الله عز وجل قيل و لم ذلك قال يشغلنى ذلك عن التفكر أو يعتقد حسن النيات و ينوى جميل الطويات فيما بينه وبين الخالق تعالى وفيما بينه وبين الخلق أو يستغفر الله تعالى و يجدد التوبة لما مضى من عمره ولما يأتنف من مستقبله أو يخلص الدعاء بتمسكن وتضرع وتملق وتخشع و وجل واخبات الى أن يعصمه من جميع المنهى وأن يوفقه لصالح الأعمال ويتفضل عليه برغائب الافضال وهو فى ذلك فارغ القلب مجرد الهم موقن بالاجابة راض بالقسم أو يتكلم بمعروف وخير ويدعو به الى الله تعالى و ينفع به أخاه و يعلم من هو دونه فى العلم فهذه كانت اذكار المتقدمين وأفكار السالفين وقد كان الذكر والفكر من أفضل عبادة العابدين وهو طريق مختصر الى رب العالمين فبى أى هذه المعانى أخذ فهو ذاكر لله عز وجل فلا يزال كذلك وهو فى جميع ذلك مستقبل القبلة فى مصلاه ولا يستحب له أن يتكلم أو يعمل غير ما ذكرناه من الأذكار وقد كانوا يكرهون الكلام بغير معروف وتقوى من طلوع الفجر الى طلوع الشمس ومنهم من شدد فى ذم الكلام من الفجر الى صلاة الغداة بغير ذكر وبر وهذه سنة قد خملت فمن عمل بها فقد ذكرها

الفصل السابع

فى ذكر أوراد النهار وهى سبعة أوراد

وهذا هو الورد الأول من النهار وفى النهار سبعة أوراد أولها من طلوع الفجر الثانى الى طلوع الشمس وهو كما ذكرناه من الاذكار وهو الذى أقسم الله عز وجل به فقال والصبح اذا تنفس فتنفسه

من طلوع الفجر الى طلوع الشمس وهو الظل الذى أمده الله تعالى لعباده ثم قبضه اليه بيسطه الشمس عليه وأظهر من آياته وجعل الشمس كشفاً له ودليلا عليه فقال سبحانه ألم تر الى ربك كيف مد الظل يعنى بسطه ولو شاء لجعله ساكناً يعنى مقيما على حاله لايتحول ثم جعلنا الشمس عليه دليلا يقول كشفناه بها ففيه ان الدليل هو الذى يكشف المشكل ويرفع المشتبه ثم قبضناه الينا قبضاً يسيراً يعنى ان الظل من تحت الشمس قبض قبضاً يسيراً أى خفياً لايفطن له ولا يرى فاندرج الظل فى الشمس بقدرته اندراج الظلمة فى النور اذا دخل عليها بحكمته وهو الاصباح والفلق الذى تمدح الله عز وجل بخلقه وأمرنا بالتنزيه له عنده والاستعاذة من شر ماخاق فيه فقال عز وجل فالق الاصباح وقال فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون أى فسبحوه بالصلاة عندهما وقال قل أعوذ برب الفلق من شر ماخاق يعنى فلق الصبح فاذا أمن العبد الفتنة والكلام فيما لا يعنيه والاستماع الى شبهة من القول وأمن النظر الى مايكره أو يشغله عن الذكر أو يذكره الدنيا أمن من دخول الآفة عليه من التزين والتصنع للناس ورزق الشغل بمولاه والاخلاص له بالاعراض عمن سواه فقال ماذكرناه من الذكر فى مصلاه فى مسجد الجماعة فهو أفضل فلذلك أمر الله برفع المساجد فى قوله عز وجل فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه وان لم يأمن الفتنة وخشى دخول الآفة عليه من لقاء من يكره ومن يلجئه الى تقية ومداراة أو خاف الكلام فيما لايعنيه أو الاستماع الى مالا يندب اليه انصرف اذا صلى الغداة الى منزله أو الى موضع خلوة بعد ان يقول لااله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير عشر مرات فى مصلاه وهو ثان رجله قبل أن يقوم ويقرأ بعدها قل هو الله أحد عشراً قبل أن يتكلم فقد اشترط ترك الكلام فى هذين الحديثين اللذين وردا فيهما ثم أتى بقية ورده فى بيته أو فى خلوته وهو فى ذلك مستقبل القبلة وهذا حينئذ أفضل له وأجمع لقلبه ولا يقدم على التسبيح لله عزوجل والذكر له بعد صلاة الغداة وقبل طلوع الشمس الا أحد معنيين معاونة على بر وتقوى فرض عليه أو ندب اليه مايختص به لنفسه أو يعود نفعه على غيره ويكون ذلك أيضاً مما يخاف فوته بفوت وقته والمعنى الآخر يكون الى تعلم علم أو استماعه مما يقربه الى الله تعالى فى دينه وآخرته ويزهده فى الدنيا والهوى من العلماء بالله عز وجل الموثوق بعلمهم وهم علماء الآخرة أولو اليقين والهدى الزاهدون فى فضول الدنيا ويكون فى طريقه ذاكر الله عزوجل أو متفكراً فى أفكار العقلاء عن الله عز وجل فان اتفق له هذان فالغدو اليهما أفضل من جلوسه فى مصلاه لانهما ذكر الله عز وجل وعمل له وطريق اليه على وصف مخصوص مندوب اليه قال الله عز وجل ولا تطرد

الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وقال النبي صلى الله عليه وسلم من غدا من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع وقال ابن مسعود اغد عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن الرابع فتهلك والغدو والغداة تكون قبل طلوع الشمس وفى الخبر من خرج من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل الله عز وجل حتى يرجع ومن خرج من منزله يلتمس علما وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما صنع واستغفر له دواب الارض وملائكة السماء وطير الهواء وحيتان الماء وفى حديث أبى ذر الغفارى رحمه الله حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة وأفضل من شهود الف جنازة ومن عيادة الف مريض قيل ومن قراءة القرآن فقال وهل تنفع قراءة القرآن الا بعلم فان لم يتفق له أحد هذين المعنيين فقعوده فى مصلاه أو فى مسجد جماعته أو فى بيته أو فى خلوته ذاكر الله عز وجل بأنواع الاذكار أو متفكرا فيما فتح له بمشاهدة هذه الافكار فى مثل هذه الساعة أفضل له مما سواها روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن أقعد فى مسجد أذكر الله عز وجل فيه من صلاة الغداة الى طلوع الشمس أحب الى من أن أعتق أربع رقاب وروينا ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا صلى الغداة قعد فى مصلاه حتى تطلع الشمس وفى بعضها ويصلى ركعتين وقد ندب الى ذلك فى غير حديث وجاء من فضل الجلوس به لمصلاة الصبح الى طلوع الشمس وفى صلاة ركعتين بعد ذلك ما يجل وصفه اختصرناه روينا عن الحسن ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يذكر من رحمة ربه انه قال يا ابن آدم اذكرنى من بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة اكفك ما بينهما فاذا ارتفعت الشمس وابيضت صلى الضحى ثمان ركعات وهذا الوقت هو الذى ذكره الله عز وجل فى قوله يسبحن بالعشى والاشراق ثم ينظر فان علم مريضا عاده وان حضرت جنازة شيعها وان كانت معونة على بر وتقوى سعى فيها وان كانت حاجة لاخ من اخوانه قضاها وان كانت فرضا يلزمه القيام به سارع اليه وان لاح له فضل ندب اليه انتهزه قبل فوته فهذا أفضل شيء يعمله بعد الاذكار والافكار من بعد طلوع الشمس فاذا فرغ من ذلك ولم يتفق له ما ذكرناه من القربات أخذ فى الصلاة وتلاوة القرآن أو صنوف الاذكار مما أمر به أو ندب اليه أو المحاسبة لنفسه فيما سلف أو المطالبة لها والاستخراج منها فيما يأتنف أو المراقبة لربه فى كل حال الى أن تنبسط الشمس وترمض الفصال ويرتفع النهار هذا هو الورد الثانى من النهار وهو الضحى الاعلى الذى أقسم الله تعالى به فقال والضحى أى اذا أضحت الاقدام بحر الشمس واذا كان العبد على ذلك فقد اتبع ما أنزل اليه ربه عز وجل وقد سمع قوله عز وجل اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم لانه قال انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ثم قال وأن أتلو القرآن وكما قال تعالى اتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم

الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر وصلاة الضحى في هذا الوقت أفضل وهو حقيقة وقتها لوجود اسمها قال النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الضحى اذا رمضت الفصال وخرج على أصحابه عليه الصلاة والسلام يوما وهم يصلون عند الاشراق فنادى بأعلى صوته ألا ان صلاة الاوابين اذا رمضت الفصال وقوله الاوابين يعني التوابين الى الله عز وجل في كل وقت ثم ليأخذ العبد بعد ذلك فيما ندب اليه وأبيح له من التصرف في معاش ان كان ممن تجارة بصدق أو صناعة بنصح ان أحوج الى ذلك وليكتف ان كفي وأدنى أحواله الصمت والنوم ففيهما سلامة من الآثام ومخالطة الأنام فقد جاء في العلم يأتي على الناس زمان يكون أفضل عليهم الصمت وأفضل أعمالهم النوم ومن الناس من يكون أحسن أحواله النوم وليت العبد يكون في اليقظة كالنوم إذ في نومه سلامة والسلامة متعذرة في يقظته وانما الفضائل للافاضل الذين زادوا على السلامة والعدل بالاحسان والفضل هذا لدخول المشكلات في الكلام ووجود الآفات في الاحوال وخروج الاخلاص من الاعمال وكان سفيان الثوري يقول كان يعجبهم اذا تفرغوا أن يناموا طلبا للسلامة فمن الناس من يكون أحسن أحواله النوم وليت العبد يكون يقظته كالنوم اذ في نومه السلامة وأفضل أعماله في هذا الوقت السلامة وانما الفضائل لاهل الافضال الذين زادوا على السلامة والعدل بالاحسان والفضل فان نام في هذا الوقت فهو حينئذ نوم القائلة وما تسبب فيه من المعايش يصنعه في هذا الوقت من الضحى الاعلى الى زوال الشمس وهذا هو الورد الثالث من النهار ثم يتوضأ للصلاة قبل دخول وقتها وكذلك ويستحب وهو من المحافظة عليها والاقامة لها فان حصلت كفايته في نومه وقوته في وقت من النهار ترك السوق ودخل بيته أو قعد في بيت مولاه تعالى واشتغل بخدمته متزودا لعاقبته وقد كان الصالحون كذلك يفعلون كان يقال لا يوجد المؤمن الا في ثلاث مواطن مسجد يعمره أو بيت يستره أو حاجة لا بد له منها فاذا زالت الشمس فان أبواب السماء تفتح للمصلين والذاكرين ويستجاب الدعاء للمؤمنين فهذا هو الورد الرابع من النهار فليصل بعد الزوال أربع ركعات يقرأ فيهن بمقدار سورة البقرة أو سورتين من المائتين أو أربع من المثاني يطيلهن ويحسنهن ولا يفصل بينهن بتسليم هذه الصلاة وحدها من بين صلاة النهار أربع ركعات بتسليمة واحدة وهذا الورد هو الاظهار الذي ذكر الله عز وجل الحمد فيه فقال وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون وليتق العبد الصلاة عند استواء الشمس في كبد السماء وهو قبل زوالها عند تقلص الظل وقيام ظل كل شيء تحته فاذا زال الظل فقد زالت وقد خفي استواؤها في الشتاء لقصر النهار ولعدول الشمس في سيرها عن وسط الفلك فتقطع عرضا فيكون أقرب لغروبها فليقدر ذلك تقريبا ومقدار استوائها قبل

الز والنحو أربع ركعات بجزء من القرآن أو قدر جزء وهو آخر الورد الثالث وانما فيه وردالقراءة والتسبيح والتفكر وهو أحد الأوقات الخمسة التى نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فيهن والاربعة الاخر عند طلوع الشمس حتى ترتفع قيد رمحين فى عين الناظر وعند تدليها للغروب حتى تحتجب وبعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر وأحب له الاحياء مابين الاذان والاقامة بالركوع لانها ساعة مستجاب فيها الدعاء وتفتح فيها أبواب السماء وتزكو فيها الاعمال وأفضل أوقات النهار أوقات الفرائض فان لم يقرأ بين الاذانين من درسه فاستحب له أن يقرأ فى تنفله الآى التى فيها الدعاء مثل آخر سورة البقرة وآخر سورة آل عمران ومن تضاعيف السور الاثنين والثلاث مثل قوله تعالى أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ومثل قوله ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وقوله ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير وان قرأ الآى التى فيها التعظيم والتسبيح والاسماء الحسنى فحسن مثل أول سورة الحديد وآخر سورة الحشر ومثل آية الكرسى وقل هو الله أحد ليكون بذلك جامعاً بين التلاوة والدعاء وبين الصلاة والتعظيم والمدح بالاسماء ثم ليصل الظهر فى جماعة ولا يدع أن يصلى قبلها أربعا وبعدها أربعاً بعد ركعتين وهذا آخر الورد الرابع من النهار وهو أقصر الاوراد وأفضلها فان كان قد رقد قبل الزوال فلا يرقد فى هذا الورد فانه يكره له نومتان فى يوم كما يكره له نوم النهار من غير سهر بالليل وروينا عن بعض العلماء ثلاث يمقت الله عليها الضحك من غير عجب والاكل من غير جوع ونوم النهار من غير سهر بالليل وان لم يكن قد رقد فاحب أن ينام بين الظهر والعصر ليتقوى بذلك على قيام الليل فليتم فان نومه بعد الظهر لليلة المستقبلة ونومه قبل الظهر لليلة الماضية فان دام سهره بالليل واتصلت أوراده بالنهار حسن أن ينام قبل الظهر لما سلف من ليله وينام بعد الظهر لما غبر من الاخرى الا انه لا يستحب له أن يزيد فى اليوم والليلة أكثر من نوم ثمان ساعات ومن الناس من يقول انه ان نقص من نوم هذا المقدار فى اليوم والليلة اضطرب بدنه لان النوم قوت الجسم وراحته قال الله تعالى وجعلنا نومكم سباتا أى راحة كما قال وجعلنا النهار معاشا الا أن يكون السهر عادة فان العادة قد تعمل عمل الطبع وتنقل عن العرف فلا يقاس عليها واحياء مابين الظهر والعصر وهو صلاة الغفلة وهو يشبه بقيام الليل ويستحب العكوف فى المسجد بين الاولى والعصر للصلاة والذكر ليجمع بين الاعتكاف والانتظار للصلاة فقد كان ذلك من سنة السلف قال كان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للمصلين دويا كدوى النحل من التلاوة الا أن يكون بيته أسلم لدينه وأجمع لقلبه فالاسلم هو الافضل وكذلك احياء الورد الثالث الذى هو بين الضحى الاعلى الى زوال الشمس فوق هذا الفضل يدرك به العبد فوت قيام الليل لان الناس فى هذين الوقتين مشغولون بطلب الدنيا وخدمة الهوى والقلب المتيقظ لربه عز وجل يفرغ

فى هذين الوقتين و يسكن و يجد العامل للعمل حلاوة و للاقبال والتفرغ لذة و يكون لفراغه من الخلق وشغله بالخالق تعالى مزيد و بركة وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد ان يذكر أو أراد شكورا أى جعلهما خلفتين يتعاقبان فى الفضل فيخاف أحدهما الآخر فمن فاته شىء من الليل قضاه فى هذين الوردين من النهار أحدهما من الضحى الاعلى الى الزوال والثانى مابين الاولى والعصر والوجه الثانى ان النهار كله خلفة من الليل فمن فاته شىء من عمل الليل قضاه بالنهار فكان منه بدلا و من فاته شىء من أوراد النهار كان الليل خلفا اذ كل واحد منهما خلف من صاحبه ففيه درك مافات وخلف ماسلف من الذكر والشكر و الذكر اسم جامع لاعمال القلوب كلها من مقامات اليقين ومشاهدة العلوم ومن الغيب والشكر أيضا يستعمل على جمل أعمال الجوارح من شرائع الاسلام وهذان جملة عمل العبد وكنه خدمته وهذان المعنيان اللذان هما ذكرهما الكليم للجليل فى قوله تعالى كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً انتظم التسبيح والذكر فى جمل تصرف الجسم وتصرف القلب وهذا الوردالخامس الذى هو مابين العصرين من أطول الاوراد وأمتعها للعبادة وهو يضاهى الوردالثالث فى الطول وهو أصيل النهار وأحد الآصال التى ذكر الله عزوجل فيه سجود كل شىء و قرنه بالغدو فقال ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال فما أقبح أن تكون الأشياء الموات لربها ساجدات ذاكرات و المؤمن الحى عن ربه معرض ذو غفلات ثم ليصل قبل صلاة العصر أربعا و يغتنم الصلاة بين الاذان و الاقامة كما ذكرنا آنفا فانها ساعة مرجو فيها الاجابة فاذا دخل وقت العصر دخل العبد فى الوردالسادس من النهار وقد أقسم الله عز وجل به فى قوله و العصر وهذا أحد المعنيين فى الآية وهو أحد الوجهين من الوقت فى الآصال الذى ذكره الله عز وجل وهو العشى الذى ذكر الله عز وجل التسبيح فيه و التنزيه و الحمد له فقال وعشيا وحين تظهرون و قال بالعشى و الاشراق وليس فى هذا الوردصلاة الاما كان بين الاذانين ثم ينتقل بعدالعصر فيما شاء من ذكر أو فكر من أعمال القلوب والجوارح فيما فرض عليه أو ندب اليه وأفضل ذلك تلاوة القرآن بتدبر و ترتيل و تفهم وحسن تأويل فاذا اصفرت الشمس ومات حرها وارتفعت الى أطراف الجدر و رؤس الشجر فكانت مثلها حين تطلع دخل فى الوردالسابع من النهار فهذا للتسبيح و الذكر و التلاوة و الاستغفار الى غروب الشمس و من أفضل ماقيل فى هذا الوقت و فى مثله من أول النهار أن يقال أستغفر الله لذنبى و سبحان الله بحمد ربى لجمعه بين الاستغفار و التسبيح فى الكلام بلفظ الأمر بهما فى القرآن لقوله تعالى و استغفر لذنبك و سبح بحمد ربك بالعشى و الابكار و ان قال استغفر الله الحى القيوم و أسأله التوبة سبحان الله العظيم و بحمده فقد جاء فضل ذلك فى الأثر

والأفضل الاستغفار على الاسماء كما في القرآن مثل أن يقول أستغفر الله انه كان غفارا أستغفر الله انه كان توابا أستغفر الله ان الله غفور رحيم استغفر الله التواب الرحيم رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين وهذا الورد في الفضل مثل الورد الاول من طلوع الفجر الى طلوع الشمس وهو المساء الذي ذكر الله تعالى التنزيه فيه فقال فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون أي سبحوا الله عز وجل فأقام الاسم مقام الفعل وهو الطرف الثاني من النهار الذي أمر الله عز وجل فيه بالتسبيح بقوله عز وجل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس والشمس وضحاها والليل اذا يغشى والمعوذتين وأن تغرب الشمس عليه وهو في الاستغفار فذلك مما أمر به في هذا الوقت من الاذكار وكلما يستحب من التسبيح والحمد والدعاء والذكر في أول النهار قبل طلوع الشمس فانه يستحب في هذا الورد قبل غروب الشمس لان الله تعالى قرنهما في الذكر فقال تعالى وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب وقال تعالى وأطراف النهار لعلك ترضى وقال تعالى بالعشي والابكار وقال تعالى قل أعوذ برب الفلق من شر ماخلق ومن شر غاسق اذا وقب أي شر الليل اذا دخل فليعد العبد ماذكرناه في الورد الاول من الادعية والتسبيح وليقل عند أذان المغرب اللهم هذا اقبال ليلك وادبار نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلاتك وشهود ملائكتك صل على محمد وعلى آله واعطه الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته ثم ليقل رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ثلاثا ففي هذا أثر وفضل وكذلك فليقل مثله اذا سمع أذان الفجر الا أنه يقول عند ادبار ليلك واقبال نهارك والنص بهذا في صلاة المغرب وكان الحسن البصري يقول كانوا أشد تعظيما للعشي منهم لاول النهار وقال بعض السلف كانوا يجعلون أول النهار للدنيا وآخره للآخرة فاذا توارت بالحجاب انقضت أوراد النهار السبعة فانظر أيها المسكين ماذا انقضى لك معها وماذا انقضى منك عندها وماذا قضى عليك فيها فقد قطعت من عمرك مرحلة ونقصت من أيامك يوما فماذا قطعت في سفرك بقطع مرحلتك وماذا ازددت في غدك بما نقصت من يومك قال النبي صلى الله عليه وسلم الناس غاديان فغاد لنفسه فمعتقها أو راهن نفسه فموبقها وقد قال الله عز وجل في تصديق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ان سعيكم لشتى وقال في معناه كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين وجاء في الخبر لا بورك لي في يوم لا أزداد فيه خيرا وجاء في الأثر من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو محروم ثم دخلت أوراد الليل الخمس فتدارك الآن رحمك الله تعالى فيما يستقبل من الليل مافات فيما مضى من النهار فقد روى أبو هريرة

رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل يبغض كل جعظرى جواظ أى سمين كثير الأكل سخاب بالاسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم بامر الدنيا جاهل بأمر الآخرة

الفصل الثامن

فى ذكر أوراد الليل الخمسة

وفى الليل خمسة أوراد أولها أن يصلى بعد المغرب ست ركعات ويستحب ذلك قبل أن يكلم أحدا يقرأ فى الأوليين قل ياأيها الكافرون وقل هو الله أحد وليسرع بهما بعد صلاة المغرب من قبل أن يتكلم و يشتغل بشىء وفى الخبر اسرعوا بركعتين بعد المغرب فانهما يرفعان معها فان كان منزله قريبا من مسجده فلا بأس أن يركعهما فى بيته وليطل الأربعة الأخر وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يستحب أن يصليهما الرجل فى بيته وكذلك كان يفعل ويقول هو سنة لأنه روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصليهما فى بيته ولكن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى مؤخر المسجد وقد صلاهما فى المسجد ثم ليصل بين العشاءين ما تيسر الى أن يغيب الشفق الثانى وهو البياض الذى يكون بعد ذهاب الحمرة وبعد غسق الليل وظلمته لأنه آخر ما بقى من شعاع الشمس فى القطر الغربى اذا قطعت الأرض العليا ودارت من وراء جبل قاف حص عدة تطلب المشرق فهذا هو الوقت المستحب لصلاة العشاء الآخرة وهذا آخر الورد الأول من أوراد الليل والصلاة فيه ناشئة الليل أى ساعاته لأنه أول نشو ساعاته وهو آن من الآناء التى ذكرها الله عز وجل فى قوله ومن آناء الليل فسبح فالآناء جمع آن أى وقت منه فصل وقيل ناشئة الليل قيام الليل هذا وافق لسان الحبشة تقول نشا اذا قام وقد أقسم الله تعالى به فقال فلا أقسم بالشفق والشفق ما بين العشاءين وهى صلاة الأوابين ويقال أيضا صلاة الغفلة قال يونس بن عبيد عن الحسن فى قوله عز وجل تتجافى جنوبهم عن المضاجع قال الصلاة بين العشاءين حتى قال أنس بن مالك رضى الله عنه وقد سئل عمن نام بين المغرب والعشاء فقال لا تفعل فانها هى الساعة التى وصف الله عز وجل المؤمنين بالقيام فيها فقال عز وجل تتجافى جنوبهم عن المضاجع يعنى الصلاة بين المغرب والعشاء وقد أسند ابن أبى الدنيا الى النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن هذه الآية تتجافى جنوبهم عن المضاجع قال الصلاة فيما بين العشاءين ثم قال عليكم بالصلاة فيما بين العشاءين فانها تذهب بملاغاة أول النهار وتهذب آخره قوله الملاغاة جمع ملغاة من اللغو أى تسقط اللغو أى تطرح المطرح عن العبد من الباطل واللهو وتهذب له آخره أى تصفيه

وتجوده ويستحب العكوف فى المسجد بين العشاءين للصلاة وتلاوة القرآن فقد روى فضل ذلك الا أن يكون بيته أسلم له لدخول آفة عليه فما سلم فيه فضل به ثم ليصل قبل العشاء الآخرة أربعا وبعدها ركعتين ثم أربعا ويقال أن الاربع بعد صلاة العشاء فى بيته يعدلن مثلهن من ليلة القدر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصليهن فى بيته أول ما يدخل قبل أن يجلس وكان ابن مسعود يكره أن يصلى بعد كل صلاة مثلها وكانوا يستحبون أن يصلى بعد المكتوبة ركعتين ثم أربعا وان قرأ فى الاربع فى الاولى آية الكرسى والآيتين اللتين بعدها وفى الثانية آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والآية قبلها وفى الثالثة أول الحديد الى قوله عز وجل وهو عليم بذات الصدور وفى الرابعة آخر الحشر من قوله تعالى هو الله الذى لااله الاهو عالم الغيب والشهادة فقد أحسن وأصاب فان صلى بعد الاربع ثلاث عشرة ركعة آخرهن الوتر ان أحب فان هذا العدد أكثر ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى به من الليل الا فى خبر متطوع وهو سبعة عشر ركعة والمشهور أنه كان يصلى أحد عشر ركعة وثلاث عشرة ركعة وربما حسبوا فيها ركعتى الفجر واستحب له أن يقرأ فى ركوعه هذا ثلثمائة آية فصاعدا فاذا فعل ذلك لم يكتب من الغافلين ودخل فى أحوال العابدين فقد قيل ان الاكياس يأخذون أوقاتهم من أول الليل والاقوياء يأخذون أورادهم من آخر الليل فان قرأ فى ركوعه هذا سورة الفرقان وسورة الشعراء ففيهما ثلثمائة آية فان لم يحسنهما قرأ خمسا من المفصل فيهن ثلثمائة آية سورة الواقعة وسورة نون وسورة الحاقة وسورة المدثر وسورة سأل سائل فان لم يحسنهن قرأ من سورة الطارق الى آخر القرآن ثلثمائة آية ولا يستحب للعبد أن ينام حتى يقرأ هذا المقدار من الآى فى هذا العدد من الركوع بعد صلاة العشاء الآخرة فان قرأ فى هذا الورد الثانى أعنى بعد صلاة العشاء الآخرة وقبل أن ينام ألف آية فقد استكمل الفضل وكتب له قنطار من الأجر وكتب من القانتين وأفضل الآى أطولها لكثرة الحروف وان اقتصر على قصار الآى عند فتوره أدرك الفضل لحصول العدد ومن سورة الملك الى آخر القرآن ألف آية فان لم يحسن ذلك قرأ قل هو الله أحد مائتى وخمسين مرة فى ثلاث عشرة ركعة فان فيها ألف آية فهذا فضل عظيم وفى الخبر من قرأها عشر مرات بنى الله عز وجل له قصرا فى الجنة وروينا عن النبى صلى الله عليه وسلم فى السور التى لم يكن يدعها فى كل ليلة ثلاثة أحاديث أشهرها أنه لم يكن ينام حتى يقرأ سورة السجدة وتبارك الملك والذى بعده أنه كان يقرأ فى كل ليلة بنى اسرائيل والزمر والقريب منها أنه كان يقرأ المسبحات فى كل ليلة ويقول فيها انه أفضل من ألف آية قال وكان العلماء يجعلونها ستاً ويزيدون فيها سبح اسم ربك الأعلى وفى الخبر كان رسول

الله صلى الله عليه وسلم يحب سبح اسم ربك الأعلى فهذا يدل على أنه كان يكثر قراءتها ولا يدع أن يقرأ هذه الأربع سور فى كل ليلة سورة يس وسورة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك فان ضم اليها سورة الواقعة وسورة الصف والحاقة والزمر فقد أكثر وأحسن فان لم يكن من عبادته القيام من الليل قدم الوتر بنية الخبر المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أنام الا على وتر وان كان معتاداً لصلاة الليل فالأفضل تأخير الوتر الى آخر صلاته من تهجده أو الى السحر على حديث ابن عمر رضى الله عنه صلاة الليل مثنى مثنى فاذا خفت الصبح فاوتر بركعة وفى حديث عائشة رضى الله عنها أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول الليل ومن أوسطه ومن آخره وانتهى وتره الى السحر فان نام على وتر ورزق القيام لم يوتر بعده يكفاه وتره الأول على الخبر الذى جاء لا وتران فى ليلة وقد قال بعض العلماء يصلى ركعة واحدة يشفع بها وتره من أول الليل ثم يصلى صلاته من الليل ويوتر آخر صلاته وقد روى فى هذا أثر عن عثمان وعلى رضى الله عنهما وان كان قد صلى ركعتين من جلوس بعد وتره الأول ثم استيقظ للصلاة شفعتا وتره الركعة الواحدة لأنهما بمنزلة ركعة واحدة يشفع بها ركعة الوتر التى صلاها قبلها ثم ليصل من الليل مستأنفا مابداله ثم يوتره بركعة واحدة فى آخر صلاته فيكون له فى ذلك ثلاثة أعمال قصر الأمل وتحصيل الوتر والوتر من آخر الليل وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ركعتين جالسا بعد وتره والله تعالى أعلم فليقرأ فيهما جالسا بسورة الزلزلة وسورة ألهاكم التكاثر فقد جاء ذلك فى حديثين أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فيهما بذلك لما فى الزلزلة والتكاثر من التخويف والوعظ وفى رواية قل ياأيها الكافرون لما فى سورة الكافرون من التنزيه من عبادة سوى المعبود وافراد العبادة لله سبحانه فيها بالتوحيد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأبها عند النوم وأوصى رجلا بقراءتها عند منامه وتقديم الوتر مستحب لمن لم يكن عادته قيام الليل ولمن كان الأغلب عليه النوم وتأخير الوتر يكون لمن أخر صلاته قبل طلوع الفجر أفضل وليقل بعد التسليم من الوتر سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات والأرض بالعظمة والجبروت وتعززت بالقدرة وقهرت العباد بالموت يقول هذا ثلاث مرات وهذا هو الورد الثانى من الليل اعنى الصلاة بعد العشاء الآخرة الى حد نومة الناس فقد أقسم الله عز وجل فى قوله والليل وما وسق أى وما جمع من ظلمته وذكره الله عز وجل فى قوله الى غسق الليل فهناك يغسق الليل وتستوسق ظلمته ثم ينام ان أحب وهو على طهارة وعن ذكر وقد كان الصالحون لا ينامون الا عن غلبة ويكرهون التعمد للنوم وهو التهيؤ للعادة وقد كان منهم من يمهد لنفسه بالنوم ليتقوى بذلك على صلاة أوسط الليل وآخره للفضل فى ذلك

ومن غلبه النوم حتى شغله عن الصلاة والذكر فان السنة أن ينام حتى يعقل ما يقول و ينشط في خدمته وقدكان ابن عباس يكره النوم قاعدا وفي الخبر لا تكابدوا الليل وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانة تصلي من الليل فاذا غلبها النوم تعلقت بحبل فنهى عن ذلك وقال ليصل أحدكم من الليل ما تيسر فاذا غلبه النوم فليرقد وقال اكفلوا من العمل ما تطيقون فان الله تعالى لا يمل حتى تملوا ! وقيل له ان فلانا يصلي الليل لا ينام و يصوم الدهر لا يفطر فقال صلى الله عليه وسلم خير هذا الدين أيسره ثم قال لكنى أنا أصلي وأنام وأصوم وأفطر فهذه سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني وقال صلى الله عليه وسلم لا تشادوا هذا الدين فانه متين فمن يشاده يغلبه ولا تبغض الى نفسك عبادة الله عز وجل والورد الثالث يكون بعد نومة الناس وهو التهجد الذي ذكره الله في قوله ومن الليل فتهجد به نافلة لك ولا يكون التهجد الا بعد النوم وتلك النومة هي الهجوع الذي قال الله عز وجل في القائمين آناء الليل فقال تعالى كانوا قليلا من الليل ما يهجعون فالهجوع النوم والتهجد القيام وقد يقال الهجود أيضا وهذا يكون نصف الليل فهذا أوسط الاوراد وهو يشبه الورد الأوسط من النهار في افضل أوراده وهو أفضل الأوراد وأمتعها للعبادة وقد أقسم الله عزوجل به في قوله تعالى والليل اذا سجى قيل اذا سكن وسكونه هدوه وسنة كل عين فيه وغفلتها الا عين الله تبارك وتعالى فانه الحي الذي لا تأخذه سنة ولا نوم وقيل اذا سجى اذا امتد وطال و يقال اذا أظلم وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الليل اسمع فقال جوف الليل الغابر و روينا في أخبار داود عليه السلام الهي انى أحب أن أتعبد لك فاى وقت تقبل فاوحى الله عز وجل اليه ياداود لا تقم أول الليل ولا آخره فانه من نام أوله قام آخره ومن قام آخره لم يقم أوله ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك وارفع الى حوائجك والورد الرابع يكون بين الفجرين أحدهما الفجر الأول وهو بدو سلطان شعاع الشمس اذا ظهرت من وراء الأرض الخامسة وسطع ضوؤها في وسط السماء حتى يقطعها بمقدار طلوع الفجر الأول ثم تغرب في الفلك الأسفل المتجانف وتحجبها الأرض السادسة فيذهب الضوء و يعود سواد الليل كما كان لغيبة الشمس وهو الثلث الأخير وفيه وردت الأخبار باهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن ومن نزول الجبار الى سماء الدنيا وفيه الخبر الذي جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أي الليل أفضل فقال نصف الليل الغابر يعني الباقي وهذا هو الورد الرابع من نصف الليل الى وقت السحر الأول ثم يدخل الورد الخامس وهو السحر الأخير وفيه يستحب السحور فمن لم يتسحر في أوله بغته الفجر وهو قبل طلوع الفجر الثاني بمقدار قراءة جزء من القرآن وفي هذا الورد

الخامس الاستغفار وقراءة القرآن وقد ذكره الله عز وجل فى قوله وقرآن الفجر انقرآنالفجر كان مشهوداقيل تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار لتوسط هذا الورد بينهما ومن ذلكذهب أهل الحجاز الى أن الصلاة الوسطى التى نص الله تعالى على المحافظة عليهاهى صلاةالفجر تعظيمالهذا الوقت وتشريفا له لتوسطه بين آخر الليل وأول النهار فهذا الورد هوأقصر الأوراد ومن أفضلها وهو من السحر الأول الى طلوع الفجر الثانى الا ما كان من صلاة نصف الليل فذلك هو أفضل شيء من الليل وهو أوسط الأوراد لأنه هو الورد الثالث و يصلح فى هذا الورد الخامس من السحر الأخير الصلاة لمن استيقظ من ساعته أو لمن تم به صلاته فالصلاة فيه لها فضل وشرف وهو بمنزلة الصلاة فى أول الليل بين العشاءين ولان معنى قوله عز و جل عند بعض المفسرين و بالأسحار هم يستغفرون أى يصلون وكذلك قوله عز وجل وقرآن الفجر يعنى به الصلاة فكنى بذلك القرآن والاستغفار عن الصلاة لأنهما وصفان منها كما قيل للصلاة تسبيح وسبحة لأن فيها التسبيح وكذلك يقال للصلاة استغفار لأنه يطلب بها المغفرة وتكون هذه الصلاة فى السحر بدلا من السحور الى طلوع الفجر الثانى وقد أمر بها سلمان أخاه أبا الدرداء ليلة زاره فى حديث طويل قال فى آخره فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان نم فنام ثم ذهب ليقوم فقال له نم فنام فلما كان عند الصبح قال له سلمان قم الآن فقاما فصليا فقال ان لنفسك عليك حقا وان لأهلك عليك حقا وان لربك عليك حقا وان لضيفك عليك حقا فاعط كل ذى حق حقه وذلك ان امرأة أبى الدرداء أخبرت سلمان أنه لاينام الليل قال فاتيا النبي صلى الله عليه وسلم فذكرا ذلك له فقال صدق سلمان وهذا الورد الخامس يشبه الورد السابع من النهار قبل الغروب فى فضل وقتيهما وهذا قبل الفجر الثانى والفجر الثانى هو انشقاق شفق الشمس وهو بدو بياضها الذى تحته الحمرة وهو الشفق الثانى على ضد غروبها لأن شفقها الأول من العشاء وهو الحمرة بعد الغروب و بعد الحمرة البياض وهو الشفق الثانى من أول الليل وهو آخر سلطان الشمس و بعد البياض سواد الليل وغسقه ثم ينقلب ذلك الى الضد فيكون بدو طلوعها الشفق الأول وهو البياض و بعده الحمرة وهو شفقها الثانى وهو أول سلطانها من آخر الليل و بعده طلوع قرص الشمس والفجر هو انفجار شعاع الشمس من الفلك الأسفل اذا ظهرت على وجه الأرض الدنيا يستر عينها الجبال والبحار والأقاليم المشرفة العالية ويظهر شعاعها منتشرا الى وسط السماء عرضا مستطيرا فهذا آخر الورد الخامس وعنده يكون الوتر فاذا طلع الفجر فقد انقضت أوراد الليل الخمسة ودخلت أوراد النهار فانظر هل دخلت فى دخوله عليك فى جملة العابدين أم خرج عنك وأنت فيه من الغافلين وتفكر أى لبسة البسك فان الليل

جعل لباسا هل ألبست فيه حلة النور بتيقظك فتربح تجارة لن تبور أم ألبسك الليل ثوب ظلمته فتكون ممن مات قلبه بموت جسده بغفلتك ثم يقوم العبد حينئذ فيصلي ركعتي الفجر وهما معنى قوله تعالى ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم قبل ركعتي الفجر ثم يقرأ نعوذ بالله من سخطه وبعده شهد الله أنه لا اله الا هو الى آخرها ويقول أنا أشهد بما شهد الله به لنفسه وشهدت به ملائكته وأولوا العلم من خلقه وأستودع الله العظيم هذه الشهادة وهي لى عند الله وديعة حتى يؤديها وأسأله حفظها حتى يتوفانى الله عليها اللهم احطط بها عنى وزرا واجعل لى بها عندك ذخرا واحفظنى بها واحفظها على وتوفنى عليها حتى ألقاك بها غير مبدل تبديلا وأفضل ماعمل العبد فى ورد من أوراد الليل والنهار بعد القيام بفرض يلزمه أو قضاء حاجة لأخيه المؤمن يعينه الصلاة بتدبر الخطاب ومشاهدة المخاطب فان ذلك يجمع العبادة كلها ثم بعد ذلك التلاوة بتيقظ عقل وفراغ هم ثم أى عمل فتح له فيه من فكر أو ذكر برقة قلب وخشوع جوارح ومشاهدة غيب فان ذلك أفضل أعماله فى وقته

الفصل التاسع

فيه ذكر وقت الفجر وحكم ركعتيه الاداء والقضاء وحكم الوتر ووقت القضاء له والاداء

وفى الشهر ليلتان يعتبر بهما وقت الفجر احداهما يطلع القمر فيها عند طلوع الفجر الأول وهى ليلة ست وعشرين والأخرى يغيب القمر فيها عند طلوع الفجر وهى ليلة اثنتى عشرة من الشهر ومن طلوع الفجر الى طلوع الشمس مقدار ثلثى سبع تلك الليلة وهذا يكون فى الصيف ويكون فى الشتاء أقل من ذلك لانه يكون نصف سدس تلك الليلة وهذا الورد الأول من النهار ووقت الأداء للوتر من بعد صلاة العشاء الآخرة الى طلوع الفجر الثانى فاذا طلع الفجر الثانى فقد ذهب وقت الأداء وهو وقت القضاء للوتر فليصل الوتر حينئذ من لم يكن أداه الى قبل صلاة الصبح فاذا صلى الصبح ذهب وقت قضاء الوتر أيضا ووقت الأداء لركعتى الفجر اذا طلع الفجر الثانى فالمستحب له أن يصليهما فى منزله وقبل صلاة الغداة والسنة أن يخففهما فاذا صلى الصبح ولم يكن صلاهما فقد ذهب وقت الأداء وبقى له وقت القضاء فليمهل حتى تطلع الشمس وتحل الصلاة فليقدمها على سبحة الضحى وهذا وقت القضاء لركعتى الفجر الى صلاة الظهر فاذا صلى الظهر ولم يكن صلاهما فقد ذهب وقت قضائهما أيضا ومن فاته ورد من الأوراد فاستحب له فعل مثله فى وقته أو قبله اذا ذكره لا على وجه القضاء فانه لا يقضى الا الفرائض ولكن على وجه التدارك ورياضة النفس بذلك ليأخذ بالعزائم كيلا يعتاد التراخى والترخص ولأجل الخبر

المأثور أحب الأعمال الى الله عز وجل أدومها وان قل كيف وفى حديث عائشة رضى الله عنها الوعيد على ترك العادة فى العبادة روت عن النبي صلى الله عليه وسلم من عبد الله تعالى عبادة ثم تركها ملالة مقته الله تعالى وقالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غلبه النوم أو عاقه مرض فلم يقم فى تلك الليلة صلى من النهار اثنتى عشرة ركعة ومن دخل المسجد لصلاة الصبح ولم يكن صلى ركعتى الفجر فى منزله صلاهما و أجزأتاعنه تحية المسجد ومن كان قد صلاهما فى بيته نظر فان كان دخوله المسجد بغلس عند طلوع الفجر واشتباك النجوم صلى ركعتين تحية المسجد وان كان دخوله عند انمحاق النجوم ومسفرا عند الاقامة قعد ولم يصل ركعتين لئلا يكون جامعا بين صلاة الصبح وبين صلاة قبلها ولا يصلى بعد طلوع الفجر الثانى شيئا الا ركعتى الفجر فقط ومن دخل المسجد ولم يكن صلى ركعتى الفجر فان كان قبل الاقامة صلاهما او ان دخل وقت الاقامة وقد افتتح الامام الصلاة فلا يصليهما وليدخل فى الصلاة المكتوبة فانه أفضل والنهى فيه روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أقيمت الصلاة فلا صلاة الا المكتوبة وليقل من قعد فى المسجد من غير صلاة ركعتين تحية المسجد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر هذه الاربع كلمات يقولها أربع مرات فانها عدل ركعتين فى الفضل وكذلك من دخله وكان على غير وضوء أو مر فى المسجد عابر طريق ومن دخل مسجداً فلا يقعد حتى يصلى ركعتين وكره له دخول المسجد والقعود فيه على غير وضوء

الفصل العاشر

فيه كتاب معرفة الزوال وزيادة الظل ونقصانه بالاقدام واختلاف ذلك فى الصيف والشتاء

قال الله جلت قدرته ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا وقال تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين الآية الى قوله عدد السنين والحساب وقال سبحانه الشمس والقمر بحسبان وفى حديث أبى الدرداء وكعب الاحبار فى صفة هذه الامة يراعون الظلال لاقامة الصلاة وأحب عباد الله الى الله عز وجل الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله عز وجل وقال بعض العلماء بالحساب والاثر من اهل الحديث ان الليل والنهار أربع وعشرون ساعة وان الساعة ثلاثون شعيرة يأخذ كل واحد منهما من صاحبه فى كل يوم شعيرة حتى تستكمل الساعة فى شهر وبين أول الشهر وآخره ثلاثون درجة الشمس كل يوم فى درجة قال وتفسير ذلك انه اذا مضى من أيلول سبعة عشر يوما استوى الليل والنهار ثم يأخذ الليل من النهار من ذلك اليوم فى كل يوم شعيرة حتى يستكمل ثلاثين

يوما فيزيد ساعة حتى يصير سبعة عشر يوما من كانون الاول فينتهي طول الليل وقصر النهار وكانت تلك الليلة أطول ليلة في السنة وهي خمسة عشر ساعة وكان ذلك اليوم أقصر يوم في السنة وهو تسع ساعات ثم يأخذ النهار من الليل كل يوم شعيرة حتى اذا مضى سبع عشرة ليلة من آذار استوى الليل والنهار وكان كل واحد منهما اثنى عشر ساعة ثم يأخذ النهار من الليل كل يوم شعيرة حتى اذا مضى سبعة عشر يوما من حزيران كان نهاية طول النهار وقصر الليل فيكون النهار يومئذ خمسة عشر ساعة والليل تسع ساعات ثم ينقص من النهار كل يوم شعيرة حتى اذا مضى سبع عشرة ليلة من ايلول استوى الليل والنهار ثم يعود الحساب على ذلك قال فمواقيت الصلاة من ذلك ان الشمس اذا وقفت فهو قبل الزوال فاذا زالت باقل القليل فذلك أول وقت الظهر فاذا زادت على سبعة أقدام بعد الزوال فذلك أول وقت العصر وهو آخر وقت الظهر قال والذي جاء في الحديث ان الشمس اذا زالت بمقدار شراك فذلك وقت الظهر الى أن يصير ظل كل شيء مثله فذلك آخر وقت الظهر وأول وقت العصر وهكذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول يوم ثم صلى من الغد الظهر حين صار ظل كل شيء مثله فذلك آخر وقت الظهر وأول وقت العصر ثم صلى العصر حين صار ظل كل شيء مثليه وقال ما بين هذين وقت فاذا أردت أن تقيس الظل حتى تعرف ذلك فانصب عودا أو قم قائما في موضع من الارض مستو ثم اعرف موضع الظل ومنتهاه فخط على موضع الظل خطا ثم انظر أينقص الظل أم يزيد فان كان الظل ينقص فان الشمس لم تزل بعد مادام الظل ينقص فاذا قام الظل فذلك نصف النهار ولا يجوز في هذا الوقت الصلاة فاذا زاد الظل فذلك زوال الشمس الى طول ذلك الشيء الذي قست به طول الظل وذلك آخر وقت الظهر فاذا زاد الظل بعد ذلك قدما فقد دخل وقت العصر حتى يزيد الظل طول ذلك الشيء مرة أخرى فذلك وقت العصر الثاني فاذا قمت قائما تريد أن تقيس الظل بطولك فان طولك سبعة أقدام بقدمك سوى قدمك التي تقوم عليها فاذا قام الظل فاستقبل الشمس بوجهك ثم مر انسانا يعلم طرف ذلك بعلامة ثم قس من عقبك الى تلك العلامة فان كان بينهما أقل من سبعة أقدام سوى ما زالت عليه الشمس من الظل فانك في وقت الظهر ولم يدخل وقت العصر حتى يزيد الظل على سبعة أقدام سوى ما تزول الشمس عليه من الظل فذلك وقت العصر ثم ان الاقدام تختلف في الشتاء والصيف فيزيد الظل وينقص في الأيام فمعرفة ذلك ان استواء الليل والنهار في سبعة عشر يوما من آذار فان الشمس تزول يومئذ وظل الانسان ثلاثة أقدام وكذلك ظل كل شيء تنصبه فان الشمس تزول يومئذ وظل كل شيء ثلاثة أسباعه ثم ينقص الظل وكلما مضى ستة وثلاثون يوما نقص الظل قدما حتى ينتهي طول النهار وقصر الليل في سبعة عشر يوما من حزيران فتزول الشمس يومئذ وظل الانسان نصف قدم وذلك أقل ما تزول عليه الشمس ثم يزيد الظل فكلما مضت ستة وثلاثون يوما زاد الظل قدما حتى

يستوى الليل والنهار فى سبعة عشر يوما من أيلول فتزول الشمس يومئذ والظل على ثلاثة أقدام ثم يزيد الظل وكلما مضى أربعة عشر يوما زاد الظل قدما حتى ينتهى طول الليل وقصر النهار وذلك فى سبعة عشر يوما من كانون الاول فتزول الشمس يومئذ على تسعة أقدام ونصف قدم وذلك أكثر ما تزول الشمس يومئذ عليه ٧ ثم كلما مضى أربعة عشر يوما زاد الظل قدما حتى ينتهى الى سبعة عشر يوما من آذار فذلك استواء الليل والنهار وتزول الشمس على ثلاثة أقدام وذلك دخول الصيف وزيادة الظل ونقصانه الذى ذكرناه فى كل ستة وثلاثين يوما قدم فى الصيف والقيظ وزيادته فى كل أربعة عشر يوما قدم فى الربيع والشتاء وهذا ذكره بعض علماء المتأخرين من أهل العلم بالنجوم وقد ذكر غيره من القدماء قريبا من هذا وذكر زوال الشمس بالاقدام فى شهر تشرين وخالف هذا فى حدين من نهاية الطول والقصر قدمين فذكر ان أقل ما تزول عليه الشمس فى حزيران على قدمين وان أكثر ما تزول عليه الشمس فى كانون ثمانية أقدام فكان الاول هو أدق تحديدا وأقوم تحريرا وذكر أن الشمس تزول فى أيلول على خمسة أقدام وفى تشرين الاول على ستة وفى تشرين الاخير على سبعة وفى كانون على ثمانية قال وذلك منتهى قصر النهار وطول الليل وهو أكثر ما تزول عليه الشمس قال ثم ينقص الظل ويزيد النهار فتزول الشمس فى كانون الاخير على سبعة أقدام وتزول فى شباط على ستة أقدام وفى آذار على خمسة وذلك استواء الليل والنهار وتزول فى نيسان على أربعة أقدام وتزول فى أيار على ثلاثة أقدام وتزول فى حزيران على قدمين فذلك منتهى طول النهار وقصر الليل وهو أقل ما تزول الشمس عليه فيكون النهار حينئذ خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات وتزول الشمس فى تموز على ثلاثة أقدام وفى آب على أربعة أقدام وفى ايلول على خمسة أقدام وفيه يستوى الليل والنهار وقد روينا عن سفيان الثورى رحمه الله أكثر ما تزول عليه الشمس تسعة أقدام وأقل ما تزول عليه قدم وهذا أقرب الى القول الاول فى التحديد وقد جاء فى ذكر الاقدام لوقت الصلاة أثر من سنة فلذلك ذكرنا منها ما شرحه من عرفه روينا عن أبى مالك سعد بن طارق الاشعرى عن الاسود بن زيد عن ابن مسعود قال كان قدر صلاة الظهر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصيف ثلاثة أقدام الى خمسة أقدام وفى الشتاء خمسة أقدام الى ستة أقدام وفصل الخطاب ان معرفة الزوال بهذا التحديد ليس بفرض ولكن صلاة الظهر بعد تيقن زوال الشمس فرض متى زالت الشمس مبلغ علمك ويقين قلبك ومنظر عينك فكانت الشمس على حاجبك الايمن فى الصيف اذا استقبلت القبلة فقد زالت لاشك فيه فصل الى أن يكون ظل كل شىء مثله فهذا آخر وقت الظهر وأول وقت العصر ثم صل العصر الى أن يسير ظل كل شىء مثليه فهذا آخر وقت العصر المستحب ثم الى أن تصفر الشمس وتتدلى للغروب فهذا وقت الضرورات وهو مكروه الا لمريض أو معذور وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أدرك من

العصر ركعة قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر ومن أدرك من الصبح ركعة قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح فاذا كانت الشمس على حاجبك الايسر وأنت مستقبل القبلة فى الصيف فان الشمس لم تزل مبلغ علك ومنظر عينك فاذا كانت بين عينيك فهو استواؤها فى كبد السماء نظر عينك ويصلح أن تكون قد زالت لقصر النهار وفى أول الشتاء وقد لا تكون زالت اذا طال النهار وتوسط الصيف فاذا صارت الى حاجبك الايمن فقد زالت فى أى وقت كان ثم ان هذا يختلف فى الشتاء فاذا كانت على حاجبك الايسر فى الشتاء وأنت مستقبل القبلة فيصلح أن تكون زالت لقصر النهار فى أول الشتاء وقد لا تكون زالت اذا امتد النهار وفى أول الصيف فاذا كانت الشمس بين عينيك فى الشتاء فقد زالت لا شك فيه فصل الظهر فاذا صارت الى حاجبك الايمن فهذا آخر وقت الظهر فى الشتاء وهو أول وقت الظهر فى الصيف وهذا التقدير انما هو لاهل اقليم العراق وخراسان لانهم يصلون الى الحجر الاسود وتلقاء الباب من وجهة الكعبة فأما اقليم أهل الحجاز واليمن فان تقديرهم على ضد ذلك وقبلتهم الى الركن اليمانى والى مؤخر الكعبة فلذلك اختلف التقدير وتضاد الاختلاف للتوجه الى شطر البيت وتفاوت الامصار فى الاقاليم المستديرة حوله فهذا كان تقدير المتقدمين وما سوى ذلك من التدقيق والتحرير فحدث الا أنه علم لا اهله ومن أشكل عليه الوقت لجهل بالأدلة أو لغيم اعترض فليتحر بقلبه ويجتهد بعلمه ولا يصلى صلاة الا بعد تيقن دخول وقتها وان تأخر ذلك فهذا أفضل حينئذ ولكن قد جاء فى الخبر ثلاث من مناقب الايمان الصيام فى الصيف واسباغ الوضوء فى الشتاء وتعجيل الصلاة فى يوم دجن ومن أمثال العرب يوم الدجن يضرب فيه عبد السوء هذا لان الوقت فى الغيم كأنه يقصر لغيبة الشمس فيغفل الانسان عن مراعاة الوقت أو يتشاغل عنه لان الفرائض لا تقبل الا عن يقين فأداؤها بعد دخول الوقت على اليقين أفضل من أدائها فى الوقت على الشك ألم تسمع الى قوله صلى الله عليه وسلم فان غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين فترك الاحتياط لليقين ومن صلى وهو يرى أنه الوقت أو توجه الى القبلة فيما يعلم ثم تبين له بعد أنه صلى قبل الوقت أو صلى لغير القبلة نظر فان كان فى الوقت أو بعده قليلا أعاد الصلاة احتياطا وان كان الوقت قد خرج فلا شىء عليه وهو معفو الخطأ وأحب أن يعيد تلك الصلاة متى ذكرها وقال بعض العلماء للشمس سبعة أزولة ثلاثة منها لا يعلمها البشر الزوال الاول نزوله عن قطب الفلك الاعلى لا يشهده ولا يعلمه الا الله عز وجل والزوال الثانى عن وسط الفلك لا يعلمه من خلق الله تعالى الا خزان الشمس الموكلون بها الذين يرمونها بجبال الثلج ليسكن حرها ويجنبوا شعاعها عن العالمين ويسوقونها على العجلة المركبة فى الفلك والزوال الثالث يعلمه ملائكة الارض ثم ان الزوال الرابع يكون على ثلاثة دقائق وهو ربع شعيرة والشعيرة جزء من اثنى عشر جزءا من ساعة فهذا الزوال تعرفه الفلاسفة من

المنجمين أهل العلم بمساحة الفلك و تركيب الافلاك فيه و تقدير سير الشمس فى الشتاء و الصيف فى فلكها منه فيقومون ذلك بالنظر فى المرتجلات الطالعة على التقويم فاذا زالت الشمس الزوال الخامس نصف شعيرة وهي ست دقائق عرف زوالها أهل الحساب و التقاويم بالاسطرلاب الطالع فاذا زالت شعيرة وهو زوال السادس المشترك وهو جزء من اثنى عشر جزأ من ساعة عرف زوالها علماء المؤذنين و أصحاب مراعاة الاوقات فاذا زالت ثلاث شعيرات فهو الزوال السابع وهو ربع ساعة عرف الناس كلهم زوالها وعند هذا الوقت صلاة الكافة وهو أوسط الوقت ، أوسعه و ذلك واسع برخصة الله سبحانه و تعالى و رحمته و هذا كله لبعد منصب السماء و لاستواء تقويم صنعتها فى الأفق الأعلى و لاتقان صنعتها فى الجو المتخرق علوا و فى الأقطار المتسعة المستديرة استواءا و متناسبا و قد روى فى الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عليه السلام فقال هل زالت الشمس فقال لا نعم فقال كيف هذا فقال بين قولى لك لا نعم قطعت فى الفلك خمسين الف فرسخ فكان النبي صلى الله عليه وسلم سأله عن زوالها على علم الله سبحانه و تعالى به وقد قال بعض الفلاسفة ان السماء تدور كما ندور الرحا فتدير الافلاك بدورانها على القطب و لكن لا يرى ذلك منها لبعدها و علوها و تقويم استدارتها و قد ذكره بعض العلماء من السلف فتبارك الله أحسن الخالقين و ذكر بعض العارفين أعجب من هذا و ألطف من قدرة الله عز وجل و خفى صنعه ذكر أن الليل والنهار أربعة و عشرون ساعة وان الساعة اثنا عشر دقيقة كل دقيقة اثنا عشر شعيرة وكل شعيرة أربعة و عشرون نفسا فتظهر الانفاس من خزانة الجسم فتنشىء الشعائر و تنشأ الشعائر فتظهر الدقائق فتنتج الساعات و تتحرك الساعات فتدير الافلاك و تدور الافلاك فتنشر الليل و النهار فى الجو والاقطار و ينشر الليل و النهار فتدير السماء فى الآفاق و ينعقد الحسبان بالتفصيل فاذا خفى الاحساس انقطعت الانفاس فانفكت الافلاك فعندها تنتشر النجوم و تنشق السماء و تخرب الديار و تظهر دار القرار فسبحان الله ألطف الصانعين و أقهر القادرين و قد قال سبحانه و تعالى اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت و قال سبحانه و تعالى يوم تمور السماء مورا يعنى تدور دورا فسبحان اللطيف الحكيم أدار تلك الأفلاك الكثاف بهذه الانفاس اللطاف كما حجب الفلك الكثيف بستر الفضاء اللطيف فالفلك العظيم لا يحجب السماء و الفضاء الرقيق يحجب الفلك لانه أراد سبحانه و تعالى أن يرينا السماء و أحب أن يخفى عنا الفلك فلم نر الا ما أرانا فالعبد هو سبب لذلك و محرك لذلك و لا يشعر بذلك فمداره أنفاسه و أنفاسه ساعاته و ساعاته عمره و عمره أجله و أجله آخرته وهو فى غفلة بدنياه و فى لعب بما يهواه فان نظرت الى السماء رأيتها تنشىء الانفاس و ان نظرت الى الأنفاس رأيتها تدير الافلاك و ان نظرت الى الفوق الفوق عميت عما سواه فلا اله الا هو رب العرش العظيم صنع الله الذى أتقن كل شئ ان ربى لطيف لما يشاء سنريهم آياتنا فى الآفاق و فى أنفسهم و فى

الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون سيذكر من يخشى ويتجنبها الاشقى فاما صلاة المغرب فأفضل ماصليت فيه اذا تدلى حاجب الشمس الأعلى وهو غيبتها عن الابصار روى عن عمر رضى الله عنه انه أخر صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم فاعتق رقبة وروينا عن ابن عمر رضى الله عنهما انه أخر المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين وأفضل ماصليت فيه عشاء الآخرة اذا غاب البياض الغربى وأظلم مكانه وهو الشفق الثانى الى ما بعد ذلك فتأخيرها أفضل الى ربع الليل مالم تنم والنوم قبلها مكروه شديد ووقت حسن فى سنة أن يصلى بمقدار غيبة القمر ليلة ثلاث من الشهر وهذا يكون بعد سبع ونصف من الليل لأ ما روينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى العشاء الآخرة لسقوط القمر ليلة ثلاث وأفضل ماصليت فيه صلاة الصبح اذا طلع الفجر الثانى وهى الصلاة الوسطى التى أفرد الله تبارك وتعالى بمحافظتها لانها تختص بمعان ثلاث من التوسط لا توجد فى سائر الصلوات منها انها بين الليل والنهار والثانى انها بين صلاتين من صلاة الليل وصلاتين من صلاة النهار والثالث انها متوسطة بين صلاتى جهر وصلاتى مخافتة وأيضا فانها أقصر الصلاة عددا لا ثلاثا ولا أربعا فلما اختصت بتوسط هذه المعانى دون غيرها كانت هى الوسطى وايضا فان الله تعالى نص على ذكر الفجر فى قوله عز وجل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا وقيل فى تفسير ذلك تشهده ملائكة الليل والنهار فكان هذا ذكرا لها بوصف آخر توكيدا للمحافظة عليها فان صح الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر بطل ماقلناه وثبت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه هو الحق وبه نقول ولا أحسب الخبر الا ثابتا فقد جاء بأشد اليقين أخبرنا أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال هى التى شغل عنها أخى سليمان حتى توارت بالحجاب والسنة ان تقرأ فى صلاة الصبح بسورة من المثانى أو بطوال المفصل لانها قصرت وعوض عنها طول القيام فان كان أجمع للمصلين وأكثر لعددهم اذا توسط الوقت فحسن قبل أن تمحق النجوم فاما أن يسفر حتى ينتشر البياض تحت الحمرة وذلك هو شىء من شعاع الشمس فلا وان كثروا فصلاتها بغلس فى القليل أفضل والمحافظة على أوائل الاوقات من كل صلاة من أفضل الاعمال الا ما ذكرناه من تأخير صلاة العشاء الآخرة للاثر فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل الصلاة فى أول الوقت على الصلاة فى آخر الوقت كفضل الآخرة على الدنيا وفى الخبر ان العبد ليصلى الصلاة فى آخر وقتها ولما فاته من الوقت الاول خير له من الدنيا وما فيها والخبر المشهور ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل أى الاعمال أفضل فقال الصلاة لوقتها وقد جاء فى الأثر الوقت الأول رضوان الله عز وجل والوقت الاخير عفو الله تبارك وتعالى قيل فرضوان الله عز وجل يكون للمحسنين وعفو الله سبحانه وتعالى يكون عن المقصرين والوقت الاول من كل

صلاة من عزيمة الدين وطريقة المقيمين للصلاة المحافظين والوقت الثانى رخصة فى الدين وسعة من الله عز وجل و رحمة للغافلين

الفصل الحادى عشر

فيه كتاب فضل الصلاة فى الأيام والليالى

﴿ذكر ما جاء فى صلاة النهار من الفضائل﴾ روينا عن أبى سلمة وعن أبى هريرة قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خرجت من منزلك فصل ركعتين يمنعانك مخرج السوء واذا دخلت الى منزلك فصل ركعتين يمنعانك مدخل السوء عن سعيد بن أبى سعيد الطويل سمع أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى صلاة الصبح من توضأ ثم توجه الى مسجد يصلى فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها فاذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة فى جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فان جلس حتى يركع كتب الله له بكل جلسة ألف ألف حسنة ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بحجة وعمرة مبرورة عن عطاء ابن يسار عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن وركوعهن وسجودهن صلى معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى الليل ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع أربعا بعد الزوال يطيلهن و يقول ان أبواب السماء تفتح فى هذه الساعة وأحب أن يرفع لى فيها عمل قيل يا رسول الله فيهن سلام فاصل قال لا وروى عنه صلى الله عليه وسلم رحم الله عبدا صلى أربعا قبل العصر

﴿ذكر صلاة يوم الأحد﴾ وروى عن سعيد بن جبير عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم من صلى يوم الاحد أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآمن الرسول مرة كتب الله عز وجل له بعدد كل نصرانى ونصرانية حسنات وأعطاه ثواب نبي وكتب له حجة وعمرة وكتب له بكل ركعة ألف صلاة وأعطاه الله عز وجل فى الجنة بكل حرف مدينة من مسك أذفر وروينا عن على عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم قال وحدوا الله تبارك وتعالى بكثرة الصلاة فى يوم الاحد فانه سبحانه وتعالى واحد أحد لاشريك له فمن صلى يوم الاحد بعد صلاة الظهر أربع ركعات بعد الفريضة والسنة قرأ فى الركعة الاولى فاتحة الكتاب وتنزيل السجدة وفى الثانية فاتحة الكتاب وتبارك الملك ثم تشهد وسلم ثم قام فصلى ركعتين أخريين قرأ فيهما فاتحة الكتاب وسورة الجمعة

وسأل الله تبارك وتعالى حاجته كان حقا على الله سبحانه وتعالى ان يقضى حاجته و يبرئه مما كانت النصارى عليه

﴿ذكر صلاة يوم الاثنين﴾ روينا عن أبى الزبير عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وآية الكرسى مرة وقل هو الله أحد مرة والمعوذتين مرة فاذا سلم استغفر الله عز وجل عشر مرات وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم عشر مرات غفر الله عز وجل له ذنوبه كلها . ثابت البنانى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى يوم الاثنين اثنتى عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى مرة فاذا فرغ من صلاته قرأ اثنتى عشرة مرة قل هو الله أحد واستغفر الله اثنتى عشرة مرة ينادى به يوم القيامة أين فلان ابن فلان ليقم فيأخذ ثوابه من الله عز وجل فأول ما يعطى من الثواب ألف حلة و يتوج و يقال له ادخل الجنة فيستقبله مائة ألف ملك مع كل ملك هدية يسعون به حتى يدور على ألف قصر من نور يتلألأ

﴿ذكر صلاة يوم الثلاثاء﴾ يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات لم يكتب عليه خطيئة الى سبعين يوما فان مات الى سبعين يوما مات شهيدا وغفر له ذنوب سبعين سنة

﴿ذكر صلاة يوم الأربعاء﴾ أبو ادريس الخولانى عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى يوم الأربعاء اثنتى عشرة ركعة عند ارتفاع النهار يقرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثلاث مرات والمعوذتين ثلاث مرات نادى به ملك عند العرش ياعبد الله استأنف العمل فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك ودفع الله عز وجل عنه عذاب القبر وضيقه وظلمته ودفع عنه شدائد القيامة ورفع له من يومه عمل نبى

﴿ذكر صلاة يوم الخميس﴾ روينا عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى يوم الخميس ما بين الظهر والعصر ركعتين يقرأ فى الركعة الاولى فاتحة الكتاب مرة ومائة مره آية الكرسى وفى الركعة الثانية فاتحة الكتاب مرة ومائة مرة قل هو الله أحد و يصلى على النبى مائة مرة أعطاه الله عز وجل ثواب من صام رجب وشعبان ورمضان و كان له من الثواب مثل حاج البيت و كتب له بعدد كل من آمن بالله عز وجل وتوكل عليه

﴿ذكر صلاة يوم الجمعة﴾ روينا عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن أبيه عن جده قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم الجمعة صلاة كله مامن عبد مؤمن قام اذا استقلت الشمس وارتفعت قيد رمح أو أكثر من ذلك فتوضأ ثم أسبغ الوضوء فصلى تسبيحة الضحى ركعتين ايمانا واحتسابا كتب الله له مائتي حسنة ومحا عنه مائتي سيئة ومن صلى أربع ركعات رفع الله تبارك وتعالى له فى الجنة أربعمائة درجة ومن صلى ثمان ركعات رفع الله له فى الجنة ثمانمائة درجة وغفر الله له ذنوبه كلها ومن صلى اثنتي عشرة ركعة كتب الله عز وجل له ألفا ومائتي حسنة ومحا عنه ألفا ومائتي سيئة ورفع له فى الجنة ألفا ومائتي درجة أبو صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى الصبح يوم الجمعة فى جماعة ثم جلس فى المسجد يذكر الله سبحانه وتعالى حتى تطلع الشمس كان له فى الفردوس الأعلى سبعون درجة بعد ما بين الدرجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة ومن صلى صلاة الجمعة فى جماعة كان له فى الفردوس خمسون درجة حضر الجواد خمسين سنة ومن صلى العصر فى جماعة فكانما أعتق ثمانية من ولد اسمعيل كلهم رب بيت ومن صلى المغرب فى جماعة فكانما حج حجة مبرورة وعمرة متقبلة نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخل الجامع يوم الجمعة فصلى أربع ركعات قبل صلاة الجمعة قرا فى كل ركعة الحمد مرة وقل هو الله أحد خمسين مرة فانه لم يمت حتى يرى مقعده فى الجنة أو يرى له

﴿ذكر صلاة يوم السبت﴾ سعيد عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى يوم السبت أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل يا أيها الكافرون ثلاث مرات فاذا فرغ وسلم قرأ آية الكرسى كتب الله له بكل حرف حجة وعمرة ورفع له بكل حرف أجر سنة صيام نهارها وقيام ليلها وأعطاه الله عز وجل بكل حرف ثواب شهيد وكان تحت ظل عرشه مع النبيين و الشهداء

﴿فضل صلاة الجماعة﴾ أبو كامل عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من صلى أربعين يوما فى جماعة لا تفوته التكبيرة الأولى مع الامام كتب الله عز وجل له براءتين براءة من النار وبراءة من النفاق

ذكر ما جاء فى صلوات الليل وما دخل فيه من الصلاة بين العشاءين

﴿صلاة ليلة الأحد﴾ عن مختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة قرأ فى كل ركعة الحمد لله مرة وقل هو الله أحد خمسين مرة والمعوذتين مرة ثم استغفر الله عز وجل مائة مرة واستغفر لنفسه ولوالديه مائة مرة وصلى على النبي

وتبرأ من حوله وقوته و التجأ الى حول الله عز و جل وقوته وقال أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن آدم صفوة الله تبارك وتعالى وفطرته وابراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى روح الله ومحمد صلى الله عليه وسلم حبيب الله تبارك وتعالى كان له من الثواب بعدد من دعا لله عز وجل ولدا ومن لم يدع لله عز وجل ولدا و بعثه الله تبارك وتعالى يوم القيامة مع الآمنين وكان حقا على الله سبحانه وتعالى يوم القيامة أن يدخله الجنة مع النبيين

﴿فضل صلاة ليلة الاثنين﴾ روينا عن الأعمش عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات قرأ فى الركعة الأولى الحمد لله وقل هو الله أحد عشرات مرات وفى الركعة الثانية الحمد لله وقل هو الله أحد عشرين مرة وفى الركعة الثالثة الحمد مرة وقل هو الله أحد ثلاثين مرة و فى الركعة الرابعة الحمد مرة وقل هو الله أحد أربعين مرة ثم تشهد وسلم وقرأ قل هو الله أحد خمسا وسبعين مرة واستغفر الله لنفسه ولوالديه خمسا وسبعين مرة وصلى على محمد خمسا وسبعين مرة ثم سأل الله سبحانه وتعالى حاجته كان حقا على الله عز وجل أن يؤتيه سؤله ماسأل وهى تسمى صلاة الحاجة القاسم بن عبدالرحمن عن أبى امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى ليلة الاثنين ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة وقل أعوذ برب الفلق خمس عشرة مرة وقل أعوذ برب الناس خمس عشرة مرة و يقرأ بعد التسليم خمس عشرة مرة آية الكرسى و يستغفر الله سبحانه وتعالى خمس عشرة مرة جعل الله عز وجل اسمه فى أصحاب الجنة وان كان من أصحاب النار وغفر له ذنوب السر وذنوب العلانية وكتب له بكل آية قرأها حجة وعمرة وان مات ما بين الاثنين الى الاثنين مات شهيدا

﴿ذكر صلاة ليلة الثلاثاء﴾ فى الخبر من صلى ليلة الثلاثاء اثنتى عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة واذا جاء نصر الله خمس عشرة مرة بنى الله له بيتا فى الجنة عرضه وطوله وسع الدنيا سبع مرات

﴿صلاة ليلة الأربعاء﴾ فى الخبر من صلى ليلة الاربعاء ركعتين يقرأ فى أول ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل أعوذ برب الفلق عشر مرات وفى الركعة الثانية فاتحة الكتاب مرة وقل أعوذ برب الناس عشر مرات نزل من كل سماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه الى يوم القيامة

﴿فضل صلاة ليلة الخميس﴾ أبو صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى خمس

مرات وقل هو الله أحد خمس مرات والمعوذتين خمس مرات فاذا فرغ من صلاته استغفر الله تبارك وتعالى خمس عشرة مرة وجعل ثوابه لوالديه فقد أدى حقهما وان كان عاقا لهما وأعطاه الله تعالى ما يعطى الصديقين والشهداء

﴿فضل صلاة ليلة الجمعة﴾ أبو جعفر محمد بن على عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد عشر مرات فكانما عبد الله سبحانه وتعالى اثنتى عشرة سنة صيام نهارها وقيام ليلها وروينا عن كثير بن سليم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى ليلة الجمعة العشاء الآخرة فى جماعة وصلى ركعتى السنة ثم صلى بعدهما عشر ركعات قرأ فى كل ركعة الحمد مرة وقل هو الله أحد مرة والمعوذتين مرة ثم أوتر بثلاث ركعات ونام على جنبه الأيمن ووجهه الى القبلة فكانما أحيا ليلة القدر وقال النبي صلى الله عليه وسلم أكثروا على من الصلاة فى الليلة الغراء واليوم الأزهر يعنى ليلة الجمعة ويوم الجمعة

﴿فضل صلاة ليلة السبت﴾ عن كثير بن شنظير عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة بنى الله له قصرا فى الجنة وكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة وتبرأ من اليهودية وكان حقا على الله عز وجل أن يغفر له

ذكر فضل الصلاة بين العشاءين وما يختص به ذلك الوقت فى كل ليلة

روينا عن سليمان التيمى أن رجلا حدثه قال قيل لعبيد، ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالصلاة غير المكتوبة قال ما بين المغرب والعشاء. أبو صخر سمع محمد بن المنكدر يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من يصلى ما بين المغرب والعشاء فانها من صلاة الأوابين. عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال ما أتيت عبد الله بن مسعود فى تلك الساعة الا وجدته يصلى فقلت له فى ذلك فقال نعم ساعة الغفلة يعنى بين المغرب والعشاء. وسئل مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى شىء كان يصنع النبي صلى الله عليه وسلم بين المغرب والعشاء اذا دخل منزله قال يصلى. ثابت البنانى قال كان أنس بن مالك يصلى بين المغرب والعشاء ويقول هى ناشئة الليل حدثنا عن فضيل بن عياض عن ابان بن أبى عياش قال سألت امرأة انس بن مالك فقالت انى أرقد قبل العشاء فنهاها وقال نزلت هذه الآية فيما بينهما تتجافى جنوبهم عن المضاجع حدثنا أحمد بن أبى الحوارى قال قلت لأبى سليمان الدارانى أصوم النهار وأقعد

آنعشى بين المغرب والعشاء أحب اليك أو أفطر النهار وأحيي ما بينهما فقال ان جمعتهما فهو افضل قلت فان لم يتيسر لى قال فأفطر بالنهار وصل بين المغرب والعشاء هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أفضل الصلوات عند الله عز وجل صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا مقيم فتح بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار فمن صلى المغرب وصلى بعدها ركعتين بنى الله له قصرين فى الجنة لا ادرى من ذهب أو فضة ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر الله له ذنوب عشرين سنة أو قال اربعين سنة او سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة أو كأنه أحيا ليلة القدر. سعيد بن جبير عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من عكف نفسه ما بين المغرب والعشاء فى مسجد جماعة لم يتكلم الا بصلاة أو قرآن كان حقا على الله سبحانه وتعالى أن يبنى له قصرين فى الجنة مسيرة كل قصر منهما مائة عام و يغرس له بينهما غراسا لو طافه أهل الدنيا لوسعهم محمد بن الحجاج سمع عبد الكريم بن الحرث يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من ركع عشر ركعات ما بين المغرب والعشاء بنى له قصر فى الجنة فقال عمر اذا تكثر قصورنا يارسول الله قال الله أكبر وأفضل أو قال وأطيب أبو عائشة السعدى وأبو حفص العوفى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى المغرب فى جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولم يتكلم بشىء فيما بين ذلك من أمر الدنيا يقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وعشر آيات من أول البقرة وآيتين من وسطها وهى والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم الى آخر الآيتين وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة ثم يركع و يسجد فاذا قام الى الركعة الثانية قرأ بفاتحة الكتاب وآية الكرسى وآيتين بعدها الى قوله تعالى أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون وثلاث آيات من آخر البقرة من قوله عز وجل لله مافى السموات الى آخرها وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة بنى له فى جنات عدن ألف مدينة من الدر والياقوت فى كل مدينة ألف قصر فى كل قصر ألف دار فى كل دار ألف حجرة فى كل حجرة ألف صفة فى كل صفة منها ألف خيمة فى كل خيمة ألف سرير من أصناف الجواهر على كل سرير ألف فراش بطائنها من استبرق وظواهرها من نور منضد وألف مرفقة من هذا الطرف من السرير وألف مرفقة من الطرف الآخر فوق تلك الفرش زوجة من الحور العين لاتوصف بشىء الا زادت عليه جمالا وكمالا لايراها ملك مقرب ولا نبى مرسل الا افتتن بحسنها قد ملأ ما كمتاها ما بين طرفى السرير على كل زوجة منهن ألف حلة لا توارى حلة حلة ولا توارى الحلل كلها الجلد يرى بعضها من تحت بعض كما يرى السلك من

الياقوتة وكما يرى الشراب الأحمر من الزجاجة البيضاء لكل زوجة منهن مائة ألف وصيف ومائة ألف جارية ومائة ألف قهرمان على قصورها وضياعها هذا لها خاصة سوى خدم زوجها فى كل خيمة منهن نهر من التسنيم ونهر من الكوثر وعين من الكافور وعين من الزنجبيل وعين من السلسبيل وغصن من شجرة طوبى وغصن من سدرة المنتهى فى كل خيمة ألف مائدة من الدر والياقوت أدنى مائدة منها مثل استدارة الدنيا مرتين على كل مائدة منها ألف صحفة صحاف من ذهب مكللة بالدر والجوهر فى كل صحفة منها مائة ألف لون من طعام مختلف طعمه ولونه وريحه يعطى الله سبحانه وتعالى وليه المؤمن من القوة ما يأتى على تلك الأطعمة ومثلها من الأشربة ويأتى على أولئك الأزواج كلهن فى مقدار يوم من أيام الدنيا فسبحان الملك الوهاب القادر على مايشاء رب العالمين . عبد الرحمن بن منصور عن سعد بن سعيد عن كرز بن وبرة قال وكان وبرة من الابدال قال قلت للخضر عليه السلام علمنى شيئا أعمله فى ليلى فقال اذا صليت المغرب فقم الى صلاة العشاء الآخرة مصليا من غير أن تكلم أحدا واقبل على صلاتك التى أنت فيها وسلم فى كل ركعتين واقرأ فى ركعة بفاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد سبع مرات فاذا فرغت من صلاتك انصرف الى منزلك ولا تكلم أحدا وصل ركعتين واقرأ بفاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد سبع مرات فى كل ركعة ثم اسجد بعد تسليمك واستغفر الله سبحانه وتعالى سبع مرات وصل على النبى صلى الله عليه وسلم سبع مرات وقل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم سبع مرات ثم ارفع رأسك من السجود واستو جالسا وارفع يديك وقل ياحى ياقيوم ياذا الجلال والاكرام يااله الأولين والآخرين يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما يارب يارب يارب ياالله يا الله ياالله ثم قم وأنت رافع يديك وادع بهذا الدعاء ثم نم حيث شئت مستقبل القبلة على يمينك وصل على النبي صلى الله عليه وسلم وادم الصلاة عليه حتى يذهب بك النوم فقلت له أحب أن تعلمنى ممن سمعت هذا الدعاء فقال انى حضرت محمدا صلى الله عليه وسلم حيث علم هذا الدعاء وأوحى اليه به وكنت عنده وكان ذلك بمحضر منى فتعلمته ممن علمه اياه ويقال ان هذه الصلاة وهذا الدعا من داوم عليه بحسن يقين وصدق نية رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه قبل أن يخرج من الدنيا وقد فعل ذلك بعض الناس فرأى أنه دخل الجنة ورأى فيها الانبياء ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه وعلمه ولهذا فضائل كثيرة اختصرناها للايجاز

الفصل الثانى عشر

فى ذكر الوتر وفضل الصلاة بالليل

عن مبارك بن عوف الاحسى عن عمر بن الخطاب قال ان الاكياس الذين يوترون أول الليل وان الاقوياء يوترون آخر الليل وهو أفضل وقد يروى فى خبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضى الله عنه متى توتر فقال من أول الليل قبل أن أنام وقال لعمر رضى الله عنه متى توتر فقال من آخر الليل فقال لأبى بكر حذر هذا وقال لعمر قوى هذا وفى بعض الأخبار انه قال لأبى بكر مثلك كالذى قال أحرزت نهبى وابتغى النوافل وقال لعمر انك لقوى مكين وروينا عن عثمان رضى الله عنه انه قال أما أنا فأوتر أول الليل فاذا استيقظت صليت ركعة شفعت بها وترى فما شبهتهما الا كالغريبة من الابل ضممتها الى اخواتها ثم أوترت من آخر صلاتى والمشهور عنه من فعله انه كان يحيي الليل كله بركعة واحدة يختم فيها القرآن وهى وتره وروينا عن على عليه السلام انه قال الوتر على ثلاثة أنحاء ان شئت أوترت أول الليل ثم صليت ركعتين ركعتين وان شئت أوترت بركعة فاذا استيقظت شفعت اليها أخرى ثم أوترت من آخر الليل وان شئت أخرت الوتر حتى يكون آخر صلاتك وفى حديث ابن عمر صلاة الليل مثنى مثنى فاذا خفت الصبح فاوتر بركعة وهذا أحب الوجوه الى وقال مجاهد قال عبد الله بن عمر من صلى أربعا بعد العشاء كن كمثلهن من ليلة القدر قال حصين فذكرت ذلك لابراهيم فقال كان عبد الله بن مسعود يكره ان تتبع كل صلاة بمثلها وكانوا يصلون العشاء ثم يصلون ركعتين ثم أربعا فمن بداله أن يوتر أوتر ومن اراد ان ينام نام وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتروا يا أهل القرآن من كل الليل وقالت عائشة رضى الله عنها قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم من اوله وأوسطه وانتهى وتره الى السحر وفى الخبر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر عند الاذان ويصلى ركعتين عند الاقامة وسأل رجل عليا عليه السلام عن وقت الوتر فسكت عنه ثم خرج اليهم عند الاذان لصلاة الفجر فقال أين السائل عن الوتر هذا وقت وتر حسن أبو امامة عن عمرو بن عنبسة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أقرب ما يكون الرب عز وجل من العبد جوف الليل الاخير فان استطعت أن تكون ممن يذكر الله سبحانه وتعالى فى تلك الساعة فكن أبو ذر الغفارى قال قلت يارسول الله أى الليل الصلاة فيه أفضل قال نصف الليل الغابر يعنى الباقى وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام أى الليل أسمع فقال ان العرش يهتز من السحر وقد روى فى الخبر أن فى الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيرا الا أعطاه وروى فى خبر آخر يصلى أو يدعو الا استجاب له وهى فى كل ليلة ويقال ان فى الليل وقتا لابد أن ينام فيه أو تغفل كل ذى عين الا الحى الذى

لايموت فلعلها هذه الساعة وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم اذا مضى نصف الليل وفي لفظ آخر اذا بقي ثلث الليل الآخير نزل الجبار سبحانه وتعالى الى السماء الدنيا فقال لايسأل عن عبادي غيري هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فأغفر له هل من داع فأستجيب له هل من سائل فأعطيه كذلك حتى يطلع الفجر وفي حديث عمرو بن عنبسة عليك بصلاة آخر الليل فانها مشهودة محضورة يعني يحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار

الفصل الثالث عشر

فيه كتاب جامع مايستحب أن يقول العبد اذا استيقظ من نومه للتهجد وفي يقظته عند الصباح

ليقل اذا استيقظ من منامه بكرة أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة لله والسلطان لله والبهاء لله والقدرة لله والعزة لله والتسبيح لله أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملة أبينا ابراهيم حنيفا وماكان من المشركين الحمدلله الذى أحيانا بعد ماأماتنا واليه النشور اللهم إنا نسألك أن تبعثنا في يومنا هذا الى كل خير ونعوذبك أن نجترح فيه سوأ أو نجره الى مسلم فانك قلت وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى اللهم فالق الاصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذبك من شره وشر مافيه بسم الله ماشاء الله لاقوة الا بالله ماشاء الله كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله بسم الله لايصرف السوء الا الله رضيت بالله عز وجل ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير وليقرأ المعوذتين فاذا أمسى قال مثل ذلك كله الا أنه يقول أمسينا وأمسى الملك لله عز وجل أسألك خير هذه الليلة ولايدع أن يقول فى كل ليلة بسم الله الذى لايضر مع اسمه شيء فى الارض ولا فى السماء وهو السميع العليم أعوذبكلمات الله التامات واسمائه كلها من شر ما ذرأ وبرأ ومن شر كل ذى شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم وان يقل دخوله من الخلاء عند وقت السحر كان أفضل كيلا يشغله عن الذكر يجعل ذلك فى آخر النهار أو من أول الليل فقد فعل ذلك كثير من الصالحين وهو حسن الا أن دخول الخلاء عند الصباح أصلح للجسد من جهة الطب وأنظف للطهارة سيما لمن يأكل بالنهار

ذكر مايستحب من القول اذا أخذ العبد مضجعه للنوم

ليقل باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه اللهم ان أمسكت نفسي فاغفر لها وارحمها وان أرسلتها

فاعصمها واحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن عازب أن يقول اذا أخذ مضجعه ليلا اللهم انى وجهت وجهى اليك وفوضت أمرى اليك وألجأت ظهرى اليك رهبة و رغبة اليك لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك آمنت بكتابك الذى أنزلت و برسولك الذى أرسلت و روى عن النبي صلى الله عليه و سلم انه كان يقول عند النوم اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك وانه أمر أن يقال الحمد لله الذى علا فقهر الحمد لله الذى بطن فخبر الحمد لله الذى ملك فقدر الحمد لله الذى هو يحيي الموتى وهو على كل شىء قدير وليقل بعد ذلك اللهم انى أسألك الراحة بعد الموت والعفو عند الحساب اللهم انى أعوذ بك من غضبك وسوء عقابك وشر عبادك وشر الشياطين وشركهم و ليقرأ خمساً من أول سورة البقرة و ثلاثا من آخرها وآية الكرسى والآيتين اللتين بعدها وليقرأ قوله عز وجل والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم والآية التى بعدها الى قوله تعالى لقوم يعقلون ويقال من قرأ هذه الآية عند منامه حفظ عليه القرآن فلم ينسه ولا يدع أن يقرأ آخر بنى اسرائيل الآيتين قل ادعو الله أو ادعو الرحمن وهذه الآية من سورة الأعراف ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام فانه يدخل فى شعاره ملك يوكل بحفظه و يستغفر له و ليقرأ الخمس الآيات من أول سورة الحديد والثلاث من آخر سورة الحشر وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد والمعوذتين و ينفث بهن فى يديه و يمسح بهما وجهه وسائر جسده كذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله وفعله وليقرأ عشراً من أول الكهف وعشراً من آخرها وهذه الآى لقيام الليل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقراءة قل يا أيها الكافرون عند النوم وكان عليه السلام يقول ما أرى أن رجلا مستكمل عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من سورة البقرة آمن الرسول وليقل اللهم أيقظنى فى أحب الساعات اليك واستعملنى بأحب الاعمال لديك التى تقربنى اليك زلفى و تبعدنى من سخطك بعداً أسألك فتعطينى و أستغفرك فتغفر لى وأدعوك فتستجيب لى اللهم لا تؤمنى مكرك ولا تولنى غيرك ولا ترفع عنى سترك ولا تنسنى ذكرك ولا تجعلنى من الغافلين يقال من قال هذه الكلمات عند نومه أهبط الله سبحانه وتعالى ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة فان صلى و دعا أمنوا على دعائه وان لم يقم تعبدت الأملاك فى الهواء وكتب له ثواب عبادتهم ثم ليسبح ثلاثا وثلاثين مرة وليحمد ثلاثا وثلاثين مرة وليكبر ثلاثا وثلاثين مرة وان أحب ربعها خمسا وعشرين مرة فقال سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر خمسا وعشرين مرة فهن يجمعن له مائة كلمة وهو أخف عليه للمداومة وروينا عن مطرف عن الشعبي عن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى وهو يرى أنه مقبوض فى تلك الليلة اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شىء منزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان فالق الحب والنوى أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها اللهم أنت الاول فليس قبلك شىء

وأنت الآخر فليس بعدك شئ وأنت الظاهر فليس فوقك شئ وأنت الباطن فليس دونك شئ اقض عنى الدين وأغنى من الفقر وليسبح ثلاثا وثلاثين مرة وليحمد ثلاثا وثلاثين مرة وليكبر أربعا وثلاثين مرة وان شاء ربعها خمسا وعشرين مرة وزاد فيها التهليل فهن يجمعن له مائة كلمة وهو أخف عليه للمداومة وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وندب اليه فى أدبار الصلوات الخمس وعند النوم فهذا جامع ما يستحب من قراءة الآى والدعاء عند النوم

ذكر هيئة العبد عند النوم وأهبته للمضجع ومعنى الاعتبار بذلك لذوى الابصار

يستحب للعبد أن ينام على طهارة سابغة والا مسح أعضاءه بالماء مسحا وقد كانوا يستحبون السواك عند النوم فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله وكان بعض السلف يجعل عند رأسه سواكه وطهوره فاذا انتبه من الليل استاك ومسح أعضاءه بالماء مسحا وكانوا يذكرون الله عز وجل بالتلاوة والتسبيح فى تقلبهم ويعدون هذا يعدل قيام الليل وقد روى هذا الخبر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعن غيره وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه وانه كان يستاك فى كل ليلة مرارا عند كل قومة من نومه فليعد العبد طهوره وسواكه عند رأسه وينوى قيام الليل فاى وقت استيقظ توضأ وصلى أوقعد فقرأ أودعا وذكر الله عز وجل واستغفره أو تفكر فى آلائه وعظمته ومعانى قدرته ففى أى وجه أخذ من هذه المعانى فهو ذكر وقد استعمل بذلك وفيه قربة الى الله عز وجل وهو فضل من الله تعالى ورحمته عليه ولا ينبغى للعبد أن يبيت وله شئ يوصى فيه الا ووصيته مكتوبة عنده فانه لا يأمن القبض بالوفاة وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ذلك فى قوله لا ينبغى لعبد ان ينام ليلتين وله شئ يوصى فيه الا ووصيته مكتوبة عنده ويقال من مات عن غير وصية لم يؤذن فى الكلام فى البرزخ الى يوم القيامة تتزاور الاموات ويتحدثون وهو لا يتكلم فيما بينهم الى يوم القيامة فيقول بعضهم لبعض هذا المسكين مات عن غير وصية فيكون ذلك حسرة عليه بينهم وموت الفجأة تخفيف ومستحب للمؤمن الفقير للثواب الذى لا مال له ولا دين عليه فاما المثقل بالدين والمخالط فى الدين ومن له مال أو هو مصر على مطل فان موت الفجأة لهؤلاء عقوبة ومكروه ولا ينبغى للعبد أن يبيت الا تائبا من كل ذنب سليم القلب لجميع المسلمين لا يحدث نفسه بظلم أحد ولا يعقد على خطيئة ان استيقظ وقد جاء فى الخبر من آوى الى فراشه لا ينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما اجترم وليستقبل فى نومه القبلة واستقبال القبلة على ضربين ان كان مستلقيا فاستقباله القبلة أن يكون وجهه اليها مع اخمص قدميه كحال الميت المسجى وان كان نائما على

جنب فاستقباله القبلة أن يكون وجهه اليها مع شقه الأيمن كهيئة الملحد فى قبره فسيصير اليه عن قريب وليذكر بنومه على هذين الحالين عند موته وحين اضطجاعه فى قبره وقد قال الله عز وجل ألم نجعل الارض كفاتا أحياء وأمواتا فى أحد الوجهين وهو مذهب أهل التفسير أى يكفتهم ويجمعهم أحياء على ظهرها وأمواتا فى بطنها وقد جعل الله سبحانه وتعالى النوم من آياته الدالة عليه لاهل السمع منه وهو سمع اليقين وقرنه بالابتغاء من فضله فقال عز وجل ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون وكان فقراء أهل الصفة وبعض زهاد التابعين اذا رقدوا لا يجعلون بينهم وبين الارض شيأ كان أحدهم يباشر التراب بجلده ويطرح ثوبه فوقه ويقول منها خلقناكم وفيها نعيدكم كأنهم كرهوا الترفع عليها والوقاية منها يجدون ذلك أرق لقلوبهم وأبلغ فى تواضعهم ومثل النوم عند أهل الاعتبار مثل البرزخ هو بين الدنيا والآخرة كذلك النوم بين الحياة والموت فاذا كشف حجاب النوم ظهرت الدنيا بالحكمة وكذلك اذا كشف الغطاء ظهرت الآخرة بالقدرة فصارت الدنيا كالاحلام فى النوم وقد قال الله عز وجل وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه وكان بعضهم يقول عجبا لمن يعصى الله عز وجل ثم ينام بعد ذلك . وذكر بعض العلماء عن الله عز وجل ان كنتم تعصونى فاخرجوا من بساطى ولا تناموا فى قبضتى وقال لقمان لابنه يابنى ان كنت تشك فى الموت فلا تنم فكما انك تنام فكذلك تموت وان كنت تشك فى البعث فاذا نمت فلا تنتبه فكما انك تنتبه بعد نومك فكذلك تبعث بعد موتك فليتذكر العبد عند نومه حين موته وليعلم أن الله تعالى يكون له بعد موته كما كان العبد له قبل نومه فلينظر على اى حال نام وعلى أى هم توفاه الله عليه وليتذكر بانتباهه البعث فان العبد يبعث على ما مات عليه فى الدنيا فيبعث بهمه ويحشر مع محبوبه كما ينتبه النائم عن همه الى محبوبه الذى نام عنه وفى الخبر ان المرء مع من أحب وله ما احتسب وروى عنه صلى الله عليه وسلم من مات على مرتبة من المراتب بعث عليها يوم القيامة وروينا عن كعب الأحبار قال اذا نمت فاضطجع على شقك الأيمن واستقبل القبلة بوجهك فانها وفاة

بيان آخر من الاعتبار لاهل التبصرة والتذكار

وليعلم العبد أن الله عز وجل يكون له بعد بعثه من قبره كما كان العبد له بعد بعثه من نومه فلينظر الى أى حال يبعث وان كان العبد لنظر مولاه مكرما ولشأنه معظما ولحرماته معظما والى محبوبه ومرضاته ومسرته من النعيم المقيم مسرعا كان الله تعالى فى آخرته لوجهه مكرما وان كان العبد فى حق مولاه متهاونا وبأمره مستخفا ولشعائره مستصغرا كان الله تعالى له مهينا وبشأنه متهاونا قال الله تعالى وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء ثم قال قليلا ما

تتذكرون موبخا لهم بذلك وقال فى مثله أفنجعل المسلمين كالمجرمين ثم قال ما لكم كيف تحكمون ذاماً عائبا لحكمهم ثم أخبر بحكمه فيهم فقال أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون هكذا تقدير الكلام وهو من المقدم والمؤخر فرفع حسناتهم وأخبر بسوء حكمهم ثم ذكر حكمهم عنده فى المحيا والممات فقال سواء محياهم ومماتهم أى كما كانوا فى الحياة كذلك يكونون بعد الوفاة ثم عقب ذلك بذكر عدله فى خلقه فقال وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون فكان هذا فصل الخطاب وتذكار أولى الألباب وقال فى معناه وأمر بتدبر كلامه وأمر بتذكر العقلاء عن خطابه فقال كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب هل يتدبرون فيجدون أنا نجعل المفسدين كالمصلحين أو نجعل المتقين كالفاسقين وهو قوله تعالى أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار فالتدبر التفهم والتذكر التقوى والعمل وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب أن يعلم منزلته عند الله عز وجل فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه فان الله عز وجل ينزل العبد عنده بحيث نزله العبد من نفسه فاذا نام العبد على طهارة وذكر وعن مثل هذه المشاهدة والفكر فان مضطجعه يكون مسجداً وأنه يكتب مصليا حتى يستيقظ ويدخل فى شعاره ملك فان تحرك فى نومه فذكر الله عز وجل دعا له الملك واستغفر له وفى الخبر اذا نام العبد على طهارة عرج بروحه الى العرش فكانت رؤياه صادقة وان لم ينم على طهارة تصرت روحه عن البلوغ فتلك المنامات أضغاث أحلام لا تصدق فان غلبه النوم حتى يصبح حسب له قيام ليلة وكان نومه عليه صدقة ومن كان هذا وصفه فى منامه يسبق كثيرا من العباد فى قيامهم عن شهود غفلة وسهوه وقد روينا فى خبر نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح

ذكر مايستحب من القول عند القيام الى التهجد

فاذا قام من الليل متهجدا فليقل الحمد لله الذى أحيانى بعد اذ توفانى واليه النشور وليقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران وليستك وليتوضأ ويقول سبحانك بحمدك لا اله الا أنت أستغفرك وأسألك التوبة فاغفرلى وتب على انك انت التواب الرحيم اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين واجعلنى صبورا شكورا واجعلنى أذكرك كثيرا وأسبحك بكرة وأصيلا ثم يرفع رأسه الى السماء فيقول أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وأعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك أنا عبدك ابن عبدك ناصيتى بيدك جار فى حكمك عدل فى قضاؤك هذه يدى بما كسبت وهذه نفسى بما اجترحت لا اله الا

أنت سبحانك انى كنت من الظالمين عملت سوأ وظلمت نفسى فاغفر لى ذنبى انك أنت ربى انه لا يغفر الذنوب الا أنت فلا اله الا أنت لا اله الا انت فاذا قام الى الصلاة متوجها فليقل الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثم ليسبح عشرا وليحمد عشرا وليهلل عشرا وليكبر عشرا وليقل الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والجلال والعظمة والقدرة وليقل هذه الكلمات فانها مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيامه للتهجد اللهم لك الحمد أنت نور السموات والارض ولك الحمد أنت بهاء السموات والارض ولك الحمد أنت زين السموات والارض ولك الحمد أنت قيام السموات والارض ومن فيهن ومن عليهن أنت الحق ومنك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد صلى الله عليه وسلم حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وبك خاصمت واليك حاكمت فاغفر اللهم يارب لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا اله الا أنت اللهم آت نفسى تقواها اللهم زكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم اهدنى لاحسن الاعمال لا يهدى لاحسنها الا أنت واصرف عنى سيئها لايصرف عنى سيئها الا أنت أسألك مسئلة البائس المسكين وأدعوك دعاء المفتقر الذليل فلا تجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رؤفا رحيما ياخير المسؤلين ويا أكرم المعطين ويستحب أن يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين ويستحب له أن لا يأكل شيأ ولا يشرب ماء حتى يقضى همته من صلاته فان العبد اذا استيقظ من نومه يكون جام القلب فارغ الهم فاذا أكل أو شرب تغير قلبه عن هيئته فليغيب أكله الا أن يخاف أن يفجأه الفجر ان لم يتسحر أو يشرب فليبدأ حينئذ بذلك ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

الفصل الرابع عشر

فى ذكر تقسيم الليل ونومه ووصف القائمين والمتهجدين

قد قرن الله سبحانه وتعالى قوام الليل برسوله المصطفى وجمعهم معه فى شكر المعاملة وحسن الجزاء فقال تعالى ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك وقد أخبر الله سبحانه ان قراءة الليل أشد وطأ للقلب وأقوم قيلا للحفظ والذكر أى يواطىء القلب اللسان بالفهم والحفظ وقد سمى الله تعالى أهل الليل علماء وجعلهم أهل الخوف والرجاء وأخفى لهم قرة العين من الجزاء فقال أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ثم قال قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وهذا من المحذوف ضده لدلالة الكلام عليه والمعنى أمن هو

هكذا عالم قانت مطيع لا يستوى مع من هو غافل نائم ليله أجمع فهو غير عالم بما يحذر وبما يرجو من ربه عز وجل فى وصفهم فى الدنيا و وصف ما أعد لهم فى الآخرة والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا أى تنبو عن الفراش فلا تطمئن لما فيها من خوف الوعيد و رجاء الموعود ثم قال فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة عين جزاء بما كانوا يعملون قيل كان عملهم قيام الليل وقيل بل كانوا أهل خوف ورجاء وهذان من أعمال القلوب عن مشاهدة الغيوب فلما أخفوا له الاخلاص باعمال السرائر أخفى لهم من الجزاء نفيس الذخائر ولا تقر أعين هؤلاء المحبين الا بوجهه كما لم يعملوا الا لوجه الله تعالى وقال بعض العلماء فى قوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة قال هى صلاة الليل استعينوا بها على مجاهدة النفس ومصابرة العدو ثم قال وانها لكبيرة الا على الخاشعين يعنى الخائفين المتواضعين لا تثقل عليهم ولا تجفو بل تخف وتحلو وفى الخبر قيل يارسول الله ان فلانا يصلى من الليل فاذا أصبح سرق فقال سينهاه ما تقول وقال صلى الله عليه وسلم نعم الرجل عبد الله بن عمر لو كان يصلى من الليل قال فما فاته بعد ذلك ليلة حتى يقوم فيها وفى الخبر عليكم بقيام الليل فانه مرضاة لربكم ومكفر لسيآتكم وهو دأب الصالحين قبلكم ومنهاة عن الاثم وملقاة للوزر ومذهبة لكيد الشيطان ومطردة للداء عن الجسد وقد جعل الله سبحانه قيام الليل من أوصاف الصالحين بقوله يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون الى قوله وأولئك من الصالحين فيستحب من قيام الليل ثلثاه وأقل الاستحباب من القيام سدسه لانا روينا أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقم ليلة قط حتى أصبح بل كان ينام منها ولم ينم ليلة حتى يصبح بل كان يقوم منها و يقال ان الصلاة أول الليل للمتهجدين وقيام أوسطه للقانتين وقيام آخره للمصلين والقيام من الفجر للغافلين وحدثنا عن عبد الله بن عمر قال حدثنا يوسف بن مهران قال بلغنى أن تحت العرش ملكا فى صورة ديك براثنه من لؤلؤ وصئصئتاه من زبرجد أخضر فاذا مضى نصف الليل الاول ضرب بجناحه وزقى وقال ليقم القائمون فاذا مضى نصف الليل ضرب بجناحه وزقى وقال ليقم المتهجدون فاذا مضى ثلث الليل ضرب بجناحه وزقى وقال ليقم المصلون فاذا طلع الفجر ضرب بجناحه وزقى وقال ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم وقال بعض العلماء أهل الليل على ثلاثة أصناف قوم قطعهم الليل فكان هؤلاء المريدون ذوو الأوراد والاجزاء كابدوا الليل فغلبهم قال وقوم قطعوا الليل فكان هؤلاء العاملون الذين صبروا وصابروا الليل فغلبوه وقال قوم قطع بهم الليل فكان هؤلاء المحبون والعلماء أهل الفكر والمحادثة وأهل الانس والمجالسة وأهل الذكر والمناجاة وأهل التملق والملاقاة نغص عليهم الليل حالهم وقصر النعيم عليهم ليلهم ورفع الحبيب عنهم نومهم وخفف الفهم عليهم قيامهم وأذهب مزيد الوصل

عنهم مللهم وأوصل العتاب لهم سهرهم وقيل لبعض أهل الليل كيف أنت والليل فقال ما رعيته قط يريني وجهه ثم ينصرف وما تأملته وقال آخر أنا والليل فرسا رهان مرة يسبقني الى الفجر ومرة يقطعني عن الفكر وقيل لبعضهم كيف الليل عليك فقال هو ساعة أنا فيها بين حالين أفرح بظلمته اذا جاء وأغتم بفجره اذا طلع ما تم فرحي به قط ولا اشتفيت منه قط وقيل لبعض المحبين كيف الليل عليك فقال والله ما أدرى كيف أنا فيه الا أنا بين نظرة ووقفة يقبل بظلامه فأتدرعه ثم يسفر قبل أن أتلبسه ثم أنشد

لم أستتم عناقه لقدومه حتى بدا تسليمه لوداع

وقال بعضهم

وزارني طيفك حتى اذا أراد أن يمضى تعلقت به
فليت ليلي لم يزل سرمدا والصبح لم أنظر الى كوكبه

وشكا بعض المريدين الى أستاذه طول سهره بالليل وأن السهر قد أضر به ثم قال أخبرني بشيء أجتلب به النوم فقال له أستاذه يابني ان الله نفحات في الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطىء بالقلوب النائمة فتعرض لتلك النفحات ففيها الخيرة فقال يا أستاذ تركتني لا أنام بالليل ولا بالنهار وتذاكر قوم قصر الليل عليهم فقال بعضهم أما أنا فان الليل يزورني قائما ثم ينصرف قبل أن أجلس وقال على بن بكار منذ أربعين سنة ما أحزنني شيء الا طلوع الفجر وقال الفضيل بن عياض اذا غربت الشمس فرحت بدخول الظلام لخلوتي فيه بربي فاذا طلع الفجر حزنت لدخول الناس على وقال أبو سليمان أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا وقال أيضا لو عوض الله عز وجل أهل الليل من ثواب أعمالهم ما يجدونه في قلوبهم من اللذة لكان ذلك أكبر من أعمالهم وقال بعض العلماء ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة الا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة وقال بعضهم قيام الليل والتملق للحبيب والمناجاة للقريب في الدنيا ليس من الدنيا هو من الجنة أظهر لاهل الله تعالى في الدنيا لا يعرفه الا هم ولا يجده سواهم روحا لقلوبهم وقال عتبة الغلام كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة وقال يوسف بن اسباط قيام ليلة أسهل على من عمل قفة وكان يعمل كل يوم عشر قفاف وقال غيره ما رأيت أعجب من الليل اذا اضطربت تحته غلبك وان ثبت له لم يقف وبكى عامر بن عبد الله حين حضرته الوفاة فقيل له في ذلك فقال والله ما أبكى حبا للبقاء ولكن ذكرت ظمأ الهواجر في الصيف وقيام الليل في الشتاء وقال ابن المنكدر ما بقى من لذات الدنيا الا ثلاث قيام الليل ولقاء الاخوان والصلاة في جماعة وقال بعض العارفين ان الله عز وجل ينظر بالاسحار الى قلوب المتيقظين فيملؤها أنوارا فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم العوافي الا قلوب الغافلين وقال بعض العلماء ان الله عز وجل ينظر الى الجنان عند السحر

نظرة فتشرق وتضيء وتهتز وتربو وتزداد جمالا وحسنا وطيبا ألف ألف ضعف فى جميع معانيها ثم تقول قد أفلح المؤمنون فيقول الله عز وجل هنيأ لك منازل الملوك وعزتى وجلالى وارتفاع مكانى لا أسكنك جبارا ولا بخيلا ولا متكبرا ولا فخورا وينظر الى العرش نظرة فيتسع ألف ألف سعة ويزداد بكل سعة ألف ألف عالم منها كل عالم لا يعلم وسعه الا الله عز وجل ثم يهتز فيثقل على الحملة حتى يموج بعضهم فى بعض ويحطم بعضهم بعضا وهم بعدد جميع ما خلق الله عز وجل وأضعاف ما خلق الله عز وجل فيقول العرش سبحانك أينما كنت وأينما تكون فينادى حملة العرش سبحان من لا يعلم أين هو الا هو سبحان من لا يعلم ما هو الا هو وروينا عن بعض العلماء من القدماء ان الله عز وجل أوحى الى بعض الصديقين ان لى عبادا من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون الى وأشتاق اليهم ويذكرونى وأذكرهم وينظرون الى وأنظر اليهم فان حذوت طريقهم أحببتك وان عدلت عنهم مقتك قال يارب وما علامتهم قال يراعون الظلام بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ويحنون الى غروب الشمس كما تحن الطير الى أوكارها عند الغروب فاذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الاسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا الى أقدامهم وافترشوا الى وجوههم وناجونى بكلامى وتملقوا الى بانعامى فبين صارخ وباكى ومتأوه وشاكى وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد بعينى ما يتحملون لاجلى وبسمعى ما يشتكون من حبي أول ما أعطيهم أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم والثانية لو كانت السموات السبع والارض وما فيهما من موازينهم لاستقللتها لهم والثالثة أقبل بوجهى عليهم فترى من أقبلت بوجهى عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه وقال مالك بن دينار اذا قام العبد يتهجد من الليل ورتل القرآن كما أمر قرب الجبار تعالى منه قال وكانوا يرون أن ما يجدون فى قلوبهم من الرقة والحلاوة والفتوح والانوار من قرب الرب تعالى من القلب وفى الاخبار عن الجبار عز وجل أى عبدى أنا الله الذى اقتربت لقلبك وبالغيب رأيت نورى وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أذن الله لشيء اذنه لحسن الصوت بالقرآن يعنى ما استمع الى شيء كاستماعه اليه وفى الحديث الآخر لله أشد أذنا الى قارىء القرآن من صاحب القينة الى قينته وأهل اللهو فى غفلة عما أهل الآخرة فيه وفى عمى عما ينظر هؤلاء الحاضرون اليه وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون بل قلوبهم فى غمرة من هذا وطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون يقال ان وهب بن منبه اليمانى ما وضع جنبه الى الارض ثلاثين سنة كانت له مسورة من أدم اذا غلبه النوم وضع صدره عليها وخفق خفقات ثم يفزع الى القيام وكان يقول لأن أرى فى بيتى شيطانا أحب الى من أن أرى فيه وسادة يعنى لانها تدعو الى النوم وقال رقبة بن مسقلة رأيت رب العزة تعالى فى النوم

فسمعته يقول وعزتى وجلالى لأكرمن مثوى سليمان التيمى فانه صلى الغداة بوضوء العشاء الآخرة أربعين سنة ويقال انه كان مذهبه أن النوم اذا خامر القلب وجب الوضوء

ذكر من روى عنه انه أحيا الليل كله ومن اشتهر باحياء الليل كله وصلى الغداة بوضوء العشاء الآخرة أربعين سنة أو ثلاثين سنة حتى نقل عنه ذلك أربعون من التابعين منهم سعيد بن المسيب وصفوان بن سليم المدنيان وفضيل بن عياض ووهيب بن الورد المكيان وطاوس ووهب بن منبه اليمانيان والربيع بن خيثم والحكم بن عيينة الكوفيان وأبو سليمان الدارانى وعلى بن بكار الشاميان وأبو عبدالله الخواص وأبو عاصم العباديان وحبيب أبو محمد وأبو جابر السلمانى الفارسيان ومالك بن دينار وسليمان التيمى ويزيد الرقاشى وحبيب بن أبى ثابت ويحيى البكاء البصريون وكهمس بن المنهال وكان يختم فى الشهر تسعين ختمة ومالم يفهم رجع فقرأه مرة أخرى وأيضا من أهل المدينة أبو حازم ومحمد بن المنكدر فى جماعة يكثر عددهم هؤلاء المشهورون منهم فان أحب المريد نام ثلث الليل الاول وقام نصفه ونام سدسه الاخير وان أراد نام نصف الليل وقام ثلثه ونام سدسه فقد روى انهذا من أفضل القيام وأنه كان قيام نبي الله عز وجل داود عليه السلام جاء فى ذلك روايتين وان أحب العبد قدم القيام فيهما وأخر وتره الى السحر فان قام نصف الليل قسم نومه فى أول الليل وآخره فان قام ثلث الليل نام سدسه الأخير وان اختار أن يقوم من أول الليل حتى يغلبه النوم ثم ينام ثم يقوم متى استيقظ ثم ينام متى غلبه النوم ثم يقوم آخر الليل فيكون له فى الليل نومتان وقومتان فهذا من مكابدة الليل وهو من أشد الاعمال وهذه طريقة أهل الحضور واليقظة وأهل التذكار والتذكرة فقد كان هذا من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنس بن مالك ما كنت تريد أن ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم نائما الا رأيته ولا كنت تريد أن تراه قائما الا رأيته وكان هذا مذهب ابن عمر وأولى العزم من الصحابة فى قيام الليل وفعله جماعة من التابعين وقد رأينا من كان له فى الليل قومات ونومات فى تضاعيف ذلك فاما أن يكون المنام والقيام موزونا عدلا فليس ذلك الا لنبى بقلب دائم اليقظة وبوحى من الله عز وجل ولا يسلك هذا الطريق الا بأسباب هى زاده لان كل طريق يقطع بزاد مثله فمن أراده احتقب وأخذ من زاده فالاسباب أحدها هم يلزم القلب وحزن يسكن فيه أو يقظة دائمة يحيا بها القلب وفكر فى الملكوت متصل وخلو المعدة من الطعام وقلة الشرب وأن يقيل بالنهار ولا يكثر تعب جوارحه فى أمر الدنيا فهذه رياضة المريد الى أن يألف القيام وليستوطن حينئذ فيتجافى جنبه لما فى قلبه من الخوف والرجاء الذى قد استكن فيه

وروى عن الله سبحانه وتعالى ان عبدى الذى هو عبدى حقا الذى لا ينتظر بقيامه صياح الديك

فى هذا حث على القيام قبل السحر ونوم آخر الليل يستحبه لمعنيين أحدهما انه يذهب بالنعاس بالغداة وقد كانوا يكرهون النعاس بالغداة و يأمرون الناعس بعد صلاة الصبح بالنوم والمعنى الثانى انه يقل صفرة الوجه فلو قام العبد أكثر الليل ونام سحرا ذهب نعاسه بالغداة وقلت صفرة وجهه ولو نام أكثر الليل وسهر من السحر جلب عليه النعاس بالغداة وصفرة الوجه فليتق العبدذلك فانه باب غامض من الشهرة والشهوة الخفية وليقل شرب الماء بالليل فقد يكون منه الصفرة سيما فى آخر الليل و بعد الانتباه من النوم وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسون الله صلى الله عليه وسلم اذا أوتر من آخر الليل فان كانت له حاجة الى أهله دنامنهن والا اضطجع فى مصلاه حتى يأتيه بلال فيأذنه بالصلاة وقالت أيضا ما ألفيته السحر الأعلى الا نائما تعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الخبر الآخر كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا أوتر من آخر الليل اضطجع على شقه الأيمن ضجعة حتى يأتيه بلال فيخرج معه الى الصلاة فقد كان السلف يستحبون هذه الضجعة بعد الوتر وقبل صلاة الصبح حتى قال بعضهم فهى سنة منهم أبو هريرة ومروان والنوم من آخر الليل وفى الثلث الأخير مزيد لأهل المشاهدة والحضور لانه كشف لهم عن الملكوت واستماع العلوم من الجبرت وهو راحة وسكن للعمال وأهل المجاهدة ولذلك حظرت الصلاة بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر ليستريح عمال الله عز وجل وأهل أوراد الليل والنهار فيهما والنوم من آخر الليل هو نقصان لاهل السهو والغفلة من حيث كان مزيداً لاهل الشهود واليقظة لانه آخر خدمة أولئك ففيه راحتهم وهو تطاول النوم والغفلة بهؤلاء فهو نقصهم وليفصل العبد فى تضاعيف صلاة الليل بجلوس يسبح فيه مائة تسبيحة فذلك ترويح له وعون على الصلاة وهو داخل فى قوله تعالى «ومن الليل فسبحه وأدبار السجود» أى اعقاب الصلاة فى أحد الوجهين على قراءة من نصب وان أراد المزيد احيا الوردين اللذين من أول الليل أحدهما بين العشاءين والثانى قبل نومة الناس فان احياء هذين الوردين عند بعض العلماء أفضل من صيام يوم ثم ليقم الورد الرابع وهو مابين الفجرين وهو أول ثلث الليل الاخير أو الورد الخامس وهو السحر الأخير قبل طلوع الفجر الثانى وهو يصلح للقراءة والاستغفار ان كان لم يعتد القيام فى جوف الليل وفى خبر أبى موسى ومعاذ لما التقيا قال معاذ لأبى موسى كيف تصنع فى قيام الليل قال أقومه أجمع لا أنام منه شيئا و أتفوق القرآن فيه تفوقا قال معاذ لكنى أنام ثم أقوم واحتسب فى نومتى ما احتسب فى قومتى فذ كرا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأبى موسى معاذ أفقه منك وقد كان بعضهم لاينام حتى يغلبه النوم و كان بعض السلف يقول هى أول نومة فان انتبهت ثم عدت الى نومة أخرى فلا أنام الله عينى وسئل فزارة الشامي عن وصف الابدال وكانوا يظهرون له فقال أكلهم فاقة ونومهم

غلبة وكلامهم ضرورة وصمتهم حكمة وعلمهم قدرة وقيل لآخر صف لنا الخائفين فقال أكلهم أكل المرضى ونومهم نوم الغرقى ولا يدع العبد أن يقوم مقدار خمس الليل أوسدسه وهو ورد من أوراد الليل أو وردان على اختلافهما فى الطول والقصر متفرقا كان قيامه أو متصلا وأى ورد أحياه من الليل بأى نوع من الأذكار فقد دخل فى أهل الليل وله معهم نصيب ومن أحيا اكثر ليلته أو نصفها كتب له احياء جميعها وتصدق عليه بما بقى منها ومن صلى فى ليلة عشرين ركعة وأوتر بعدها بثلاث حسب له كأنه أحياها بفضل الله ورحمته وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم ليلة نصف الليل وليلة ثلثه وليلة ثلثيه وذلك مذكور فى أول الآيتين من قيام الليل فى سورة المزمل وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم ليلة نصف الليل ونصف سدسه معه ويقوم ليلة ربعه ويقوم ليلة سدس الليل حسب وذلك مذكور فى آخر الآيتين من قيام الليل وهذا على قراءة من كسر «ونصفه وثلثه» فأما من نصب فقال «ونصفه وثلثه» فانه يعنى يقوم النصف مع نصف السدس والنصف وحده والثلث وحده وهو الذى ذكرناه من الآية الاولى وقد جاء فى التفسير نحو هذا وهو صلى الله عليه وسلم مفترض عليه صلاة الليل فالآية الاولى أمره تعالى بقيام الليل فيها والأخرى أخبر عنه بقيامه كيف هو فالأجود أن يكون ما أخبر عنه مواظبا لما أمره به فالذى أمره به أنه قال تعالى قم الليل ثم استثنى القليل منه فقال الا قليلا ثم فسر امره فقال نصفه أو انقص منه قليلا يعنى والله أعلم انقص نصف السدس أو نصف الثلث هذا ان أقل أسماء النقصان عند العرب ثم قال أو زد عليه يعنى زد على النصف كأنه رد عليه نصف سدس الليل لأنه أخبر عنه فى الآية الأخرى بأقل من الثلثين فقال ان ربك يعلم انك تقوم أدنى من ثلثى الليل يكون هذا نصفا ونصف سدس وهو أقل التسمية عندهم ثم قال ونصفه أى ويعلم انك تقوم نصفه ايضا وثلثه أى وتقوم ثلثه فهذه الأخبار أشبه بوطء الأمر من قراءة من كسر فقال ونصفه وثلثه يريد وتقوم أدنى من نصفه وهو الربع أو الثلث وأدنى من ثلثه وهو السدس أو نصف السدس وقد قالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل اذا سمع الصارخ يعنى الديك فهذا يكون من السحر فقط فكان هذا يكون سدس الليل أو نصف سدسه ففيه رخصة وسعة لقوام الليل قلنا هذا تقريب لاتحديد والله أعلم والنصب اختيارنا فى القراءة على معنى كثرة القيام ولمواطأة الخبر عنه للأمر وقد جاء فى الأثر صل من الليل ولو قدر حلب شاة فهذا قد يكون أربع ركعات وقد يكون ركعتين وقال أبو سليمان من أحسن فى نهاره كوفى فى ليله ومن أحسن فى ليله كوفى فى نهاره وكان يقول أهل الليل على ثلاث طبقات منهم اذا قرأ متفكرا بكى ومنهم اذا تفكر صاح وراحته فى صياحه ومنهم من اذا قرأ وتفكر بهت فلم يبك ولم يصح قلت له من أى شىء صاح هذا ومن أى شىء

بهت هذا فقال لأقوى على التفسير وقال رجل للحسن ياأبا سعيد انى أبيت معافى وأحب قيام الليل واتخذ طهورى فما بالى لاأقوم فقال ذنوبك قيدتك ياابن أخى وكان الحسن اذا دخل السوق فسمع لغطهم ولغوهم قال أظن ليل هؤلاء ليل سوء مايقيلون وقال بعض السلف كيف ينجو التاجر من سوء الحساب وهو يلغو بالنهار وينام بالليل وقال الثورى حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته قيل له وما هو قال رأيت رجلا بكى فقلت فى نفسى هذا مراء وقال بعضهم دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكى فقلت مابالك أتاك نعى بعض أهلك فقال أشد فقلت وجع يؤلمك قال أشد قلت فما ذاك قال بابى مغلق وسترى مسبل ولم أقرأ حزبى البارحة وماذاك الا بذنب أحدثته وقال محمد بن شبانة سمعت بعض الشيوخ الثقات المستورين ببغداد يقول سمعت ابن الصافى البقال بدينور يقول كان بدينور سجان قال انى بقيت على باب السجن نيفا وثلاثين سنة فما من أحد حمل الى السجن من الذين أخذهم الطوف بالليل الا سألته فقلت له هل صليت صلاة العشاء الآخرة فى جماعة الا قال لا وقال أبو سليمان لا يفوت أحدا صلاة فى جماعة الا بذنب وكان يقول الاحتلام بالليل عقوبة والجنابة البعد فكانه بعد من الصلاة والتلاوة اذ فى ذلك قرب ومن هذا قوله تعالى فبصرت به عن جنب وكان الحسن يقول ان العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل وصيام النهار وقال بعض العلماء اذا صمت يا مسكين فانظر عند من تفطر وعلى أى شىء تفطر فان العبد ليأكل الأكلة فينقلب قلبه عما كان عليه فلا يعود الى حاله الأول وقال آخر كم من أكلة منعت قيام الليل وكم من نظرة حرمت قراءة سورة وان العبد ليأكل الأكلة أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة فبحسن التفقد تعرف المزيد من النقصان وبقلة الذنوب يوقف على التفقد وكان الفضيل يقول لو رزقت من فهم القرآن وقيام الليل فى أول أمرى ما رزقت الآن ما كتبت حديثا قط ولا اشتغلت بغير القرآن ويقال ان طول القيام راحات القيامة وان صلاة الليل كفارات الكبائر وقيل انه جبران لما نقص من الفرائض من صلاة الليل وقد كانوا يستحبون فى صلاة النهار كثرة الركوع والسجود وفى صلاة الليل طول القيام واعلم أن صلاة الليل نافلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان متمما لفرائضه وصلاة الليل تكملة لفرائضنا وفى الخبر اذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد فان قعد وذكر الله انحلت عقدة واذا توضأ انحلت عقدة وان صلى ركعتين انحلت العقد كلها فاصبح نشيطا طيب النفس والا أصبح كسلانا خبيث النفس وفى الخبر أن الرجل اذا نام حتى يصبح بال الشيطان فى أذنه وقد روينا فى الخبر الآخر ان للشيطان سعوطا ولعوقا وذرورا فاذا أسعط العبد ساء خلقه واذا العقه ذرب لسانه بالشر واذا ذره نام بالليل حتى يصبح ويستعان على قيام الليل بثلاث أكل الحلال والاستتمامة على التوبة وغم خوف الوعيد أو شوق رجاء الموعود والذى

يحرم العبد به قيام الليل أو يعاقب معه بطول الغفلة ثلاث أكل الشبهات واصرار على الذنب وغلبة هم الدنيا على القلب

الفصل الخامس عشر

فى ذكر ورد العبد من التسبيح والذكر والصلاة فى اليوم والليلة وفضل صلاة الجماعة وذكر أفضل الأوقات المرجو فيها الاجابة وذكر صلاة التسبيح ومايستحب أن يكون شعاره

ليكن للعبد فى كل يوم وليلة ورد من التسبيح وأقل ذلك تسعمائة مرة من أنواع الأذكار التى وردت بها الأخبار فليقل لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير مائة مرة فاذا قال ذلك مائتى مرة لم يعمل أحد فى يومه أفضل من عمله بأثر فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وليقل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وتبارك الله مائة مرة وليقل اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى مائة مرة وليقل استغفر الله الحى القيوم وأسأله التوبة مائة مرة وليقل سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة وليقل لااله الا الله الملك الحق المبين مائة مرة وليقل ماشاء الله لاقوة الا بالله مائة مرة يقول هذا فى كل يوم وفى كل ليلة فان رزق مزيدا عليه فهو فضل والا كان هذا معلومه وقد كان فى الصحابة من ورده فى كل يوم اثنا عشر ألف تسبيحة وكان من التابعين من ورده كل يوم ثلاثون ألفا وحدثونا عن ابراهيم بن أدهم عن بعض الابدال أنه قام ذات ليلة يصلى على شاطىء البحر فسمع صوتا عاليا بالتسبيح ولم ير أحدا فقال من أنت أسمع صوتك ولا أرى شخصك فقال أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أسبح الله عز وجل هذا التسبيح منذ خلقت قلت فما اسمك قال مهيائيل قلت فما ثواب من قاله قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له وهو هذا التسبيح سبحان الله العلى الديان سبحان الله شديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار سبحان من لا يشغله شأن عن شان سبحان الله الحنان المنان سبحان الله المسبح فى كل مكان وان كان للعبد من الصلاة أورادمعلومة فحسن قد فعل كان من التابعين من ورده فى كل يوم ثلثمائة ركعة وأربعمائة ركعة وكان منهم من ورده ستمائة ركعة الى ألف ركعة وأقل مانقل عنه من الاوراد مائة ركعة فى اليوم وكان كرز بن وبرة مقيما بمكة وكان يطوف فى كل يوم سبعين أسبوعا وفى كل ليلة سبعين اسبوعا قال فحسبنا ذلك فكان عشرة فراسخ فلهذه الاسابيع مائتان وثمانون ركعة قال وكان يختم مع ذلك القرآن فى اليوم والليلة مرتين وقال هشام بن عروة كان أبى يواظب على ورده من التسبيح

كما يواظب على جزئه من القرآن وروى عنه أيضا كان يواظب على جزئه من الدعاء كما يواظب على جزئه من القرآن ولا يدع العبد أن يسبح أدبار الصلوات الخمس مائة تسبيحة عند كل صلاة مكتوبة وكذلك عند النوم مائة وليواظب على أن يقول إذا أصبح وإذا أمسى ما جاء في تفسير قوله عز وجل له مقاليد السموات والارض فان لذلك ثوابا عظيما وروينا عن عثمان رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن تفسير هذه الآية له مقاليد السموات والارض فقال لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك هو لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده ولا حول ولا قوة الا بالله واستغفر الله الاول والآخر والظاهر والباطن له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير من قالها عشرا حين يصبح وحين يمسي أعطي بها ست خصال فأول خصلة يحرس من ابليس وجنوده والثانية يعطى قنطارا من الأجر والثالثة يرفع له درجة في الجنة والرابعة يزوجه الله عز وجل من الحور العين والخامسة يحضرها اثنا عشر ملكا والسادسة يكون له من الأجر كمن حج واعتمر وقد روينا في تفسيرها قولا آخر من رواية أخرى واتصل به ذكر كنز أهل الجنة ما هو فانضم هذا اليه فقد جمع الروايتين واستوعب الفضيلتين رواه عبد الرحمن ابن أبي ليلى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه انه سأل النبي صلى الله عليه وسلم مسائل فأجابه عنها فقال ما مقاليد السموات والارض فقال أن يقول العبد لا اله الا الله محمد رسول الله وأما كنز أهل الجنة فيقول سبحان من في السماء عرشه سبحان من في السماء موضع أثره سبحان من سبقت رحمته غضبه سبحان من لا ملجأ ولا مهرب الا اليه يا عثمان من قالها كل يوم عشر مرات كتب له بها ست خصال ينجيه الله من ابليس وجنوده وان مات مات شهيدا وبنى له قصرا في الجنة وكأنما قرأ التوراة والانجيل والزبور والفرقان وكأنما اشترى ثمانية من ولد اسماعيل واعتقهم ولا يدع قراءة هذه الآيات الست عند كل صلاة يصليها فريضة أو تطوع ففي ذلك ثواب عظيم سبحان ربك رب العزة عما يصفون الى آخر السورة وقوله فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الى قوله وكذلك تخرجون واستغفر للمؤمنين والمؤمنات في كل يوم خمسين مرة خمسا وعشرين اذا أصبح وخمسا وعشرين اذا أمسى فانه يكتب من الابدال بأثر في ذلك روينا من ذلك ولفظ الاستغفار الذي جاء في الخبر أن يقول اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات حيهم وميتهم شاهدهم وغائبهم قريبهم وبعيدهم انك تعلم متقلبهم ومثواهم وليقل هذا الاستغفار في تشهده أيضا فقد جاء ذلك وليقل في كل عشر مرات اللهم اصلح أمة محمد اللهم ارحم أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقال من قاله في كل يوم كتب له ثواب بدل من الأبدال وليقل اذا أصبح ثلاثا واذا أمسى ثلاثا اللهم أنت خلقتني وأنت هديتني وأنت تطعمني وأنت تسقيني وأنت تميتني وأنت تحييني أنت ربي لا رب لي سواك ولا اله الا أنت وحدك لا شريك لك فان في ذلك شكر نعمة يومه ولا يدع أن يقول

كلما استيقظ من نومه وكلما أراد المنام هذه الكلمات بسم الله ماشاء الله لاقوة الا بالله ماشاء الله كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لا يصرف السوء الا الله ففى هذا عصمة من الله عز وجل وحرز له من الشيطان وقد جاء فى الخبر من قال من مائة مرة يوم عرفة قبل غروب الشمس ناداه الله عز وجل من فوق عرشه قد أرضيتنى وعلى رضاك سلنى ماشئت ولا يدع أن يقول كل غداة وكل عشية فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات وكذلك يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار سبعا وكلما سمع الأذان قال كما يقول المؤذن فاذا فرغ فليقل رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا اللهم بهذه الدعوة التامة والكلمة الصادقة والصلاة القائمة صل على محمد وآله وأعطه الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته فان كان الأذان لصلاة الصبح أو صلاة المغرب زاد فى ذلك اللهم هذا ادبار ليلك واقبال نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلاتك وشهود ملائكتك صل على محمد وآله ثم ليدع بما أحب وليغتنم الصلاة والدعاء بين الأذان والاقامة فانه يستحب ولتكن هذه الكلمة هجيره وشعاره فى الأوقات فانها من دعاء الابدال فيما بينهم وشعارهم فى أوقاتهم ماشاء الله لاقوة الا بالله العفو الغفور ياسلام سلم يارب يارب ياذا الجلال والاكرام افتح بخير واختم بخير فلا اله الا الله الحى القيوم سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا يارب يارب ياالله ياالله ياعزيز ياعزيز ياقريب ياقريب ياحليم ياستار سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ياالله ياالله ياعزيز ياعزيز ياقريب ياقريب يا كريم ياغفار ياواسع المغفرة اغفرلى عافنا واعف عنا نسألك العفو والعافية ياغياث المستغيثين وفى جميع ماذكرنا فضائل وردت بها الآثار عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين لهم باحسان طوينا نشر ذلك اذلم يكن قصدنا ذكر فضائل الاعمال وانما أردنا شرح أوراد العمال ولا يدع السواك كلما استيقظ من نوم النهار وبالليل فانه يقال من خير خصال الصائم الا بعد العصر فقد كره للصائم وفى الخبر طيبوا طرق القرآن من أفواهكم بالسواك وفى الحديث السواك مطهرة للفم مرضاة للرب عزوجل ويقال ان الصلاة بعد السواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفا وأوكد ما استعمل فيه السواك أربعة أوقات قبل الزوال للصائم ويوم الجمعة مع الغسل لها وفى قيام الليل وبالغداة عند الاستيقاظ من النوم وقد كانوا يستحبون أن لا يأتى على العبد يوم وليلة الا تصدق فيه بصدقة وان قل مثل لقمة أو تمرة حتى كان بعضهم يتصدق ببصلة وبخيط لانه جاء فى الاثر كل امرىء يوم القيامة فى ظل صدقته والله سبحانه يشكر القليل الدائم وهو أحب اليه من الكثير المنقطع ألم تر كيف ذم من أعطى وقطع فى قوله تعالى وأعطى قليلا وأكدى أى قطع ومدح فواكه الجنة يعيب بذلك فواكه الدنيا فى تدبر الخطاب فقال وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولا ممنوعة أى فازهدوا من فواكه الدنيا فانها

مقطوعة ممنوعة رغبة فى هذه الدائمة وكان من أخلاق السلف أن لا يردوا سائلا الا بشيء وانقل لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا النار ولو بشق تمرة ولقوله صلى الله عليه وسلم للسائل حق ولو جاء على فرس مطوق بفضة ولقوله صلى الله عليه وسلم لا تردالسائل ولو بظلف محترق ودفعت عائشة رضى الله عنها الى السائل عنبة واحدة فقال فنظر بعضنا الى بعض فقالت مالكم ان فيها لمثاقيل ذرة كثيرة وقد كان من أخلاقهم ان لا يسأل أحد شيئا أو يراد بأمر مباح فيقول لا لكراهتهم الخلاف ومحبتهم الائتلاف وكان ذلك من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ماسئل شيأ قط فقال لا فان لم يقدر عليه سكت[1] وقد كانوا يجتمعون على الأمر الواحد بقلب واحد ولا يستبد بعضهم بأمر دون بعض ولا يستأثر أحدهم بشيء دون أخيه وبذلك وصفهم الله عز وجل فى قوله تعالى وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون أى أمورهم مشاعة فيما بينهم غير مقسومة هم فيها سواء ويستحب للعبد أن يجمع بين هذه الاعمال الاربعة صوم وصدقة وعيادة مريض وشهود جنازة وقد كان هذا طريق المريدين يسارعون اليه ويحرصون عليه وفى الخبر من جمع بين هذه الاربع فى يوم غفر له وفى بعضها دخل الجنة فان اتفق له منها ثلاث أو اثنان فاعجزه ما بقى حسب له تمامها لحسن نيته ولا يدعن الجماعة سيما اذا سمع التأذين أو كان فى جوار المسجد وحد الجوار أن يكون بينه وبين المسجد ثلاث دور وأولى المساجد أن يصلى فيه أقربها منه الا أن يكون له نية فى الابعد لكثرة الخطا أو لفضل الامام فيه والصلاة خلف العالم الفاضل أفضل أو يريد ان يعمر بيتا من بيوت الله عز وجل بالصلاة فيه وان بعد وقال سعيد بن المسيب من صلى الخمس فى جماعة فقد ملأ البرين والبحرين عبادة وليتوضأ لكل صلاة قبل دخول وقتها فانه من المحافظة عليها ومن حسن معاملتها وقال أبو الدرداء وحلف بالله وما سمعته حالفا بالله قط قال من أحب الأعمال الى الله عز وجل ثلاث أمر بصدقة وخطوة الى صلاة جماعة أو اصلاح بين الناس ويستحب له كلما دخل المسجد أو منزله أن يصلى ركعتين فان ذلك من عمل الأبرار وكلما خرج منه صلى ركعتين وقد كان السلف لا يخرجون من منازلهم حتى يتوضؤا ويستحب له كلما أحدث أن يتوضأ وكلما توضأ أن يصلى ركعتين فان ذلك من عمل الأبرار وهو لمن مات على هذا العمل شهادة واذا خرج من منزله قال بسم الله ما شاء الله حسبي الله توكلت على الله لا قوة الا بالله اللهم اليك خرجت وأنت أخرجتنى اللهم سلمنى وسلم منى فى دينى كما أخرجتنى اللهم انى أعوذ بك ان أزل أو أضل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك وليقرأ سورة الحمد والمعوذتين ولا يدع صلاة الضحى أربع ركعات ويزيد ماشاء الله الى ثمان ركعات الى اثنى عشر ركعة ولا يزيد على ذلك ان نشط أطالهن وان فتر قصرهن وليجعل من قراءته فيهن والشمس

(١) ماقال لا قط الا فى تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

وضحاها وسورة والضحى وآخر سورة البقرة وآخر سورة الحشر ثم ليتنفل بعد ذلك بما شاء من غير أن تكون ورد الضحى فيلزمه المواظبة عليه وفى حديث عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلى الضحى أربعا ويزيد ماشاء الله وفى خبر عن الله عز وجل يا ابن آدم صل لى أربع ركعات فى أول النهار أكفك آخره وفى حديث أم هانىء بنت أبى طالب أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الضحى ثمان ركعات وفى الخبر يصبح ابن آدم وعلى كل سلامى من جسده صدقة يعنى فى كل مفصل وفى جسده ثلاثمائة وستون مفصلا فامرك بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة وحملك عن الضعيف صدقة وهدايتك الى الطريق صدقة واماطتك الأذى صدقة حتى ذكر التسبيح والتهليل ثم قال وركعتا الضحى تأتى على ذلك كله أو قال تجمعن لك ذلك وقد كان من سيرة المتقدمين دخول المسجد سحرا قبل طلوع الفجر والقعود فيه الى صلاة الصبح ويفضلون هذا الفعل حدثونا عن رجل من التابعين قال دخلت المسجد قبل طلوع الفجر فالفيت أبا هريرة قد سبقنى فقال يا ابن أخى لأى شىء خرجت من منزلك هذه الساعة فقلت لصلاة الغداة فقال أبشر فانا كنا نعد خروجنا وقعودنا فى هذا المسجد هذه الساعة ننتظر الصلاة بمنزلة غزوة فى سبيل الله عز وجل أو قال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فانضل الأوقات المرجو فيها الاجابة أربعة عند السحر وعند طلوع الشمس وعند غروبها وبين الأذان والاقامة وأفضل أوقات الليل والنهار أوقات الصلاة المكتوبات واذا دعا الله سبحانه وتعالى فليدعه بمعانى أسمائه فانها صفاته وهو يحب ذلك وانما أظهرها ليعرف بها الداعى وليدعو بها مثل أن يقول ياجبار اجبر قلبى ياغفار اغفر ذنبى يارحمن أصلحنى يارحيم ارحمنى ياتواب تب على ياسلام سلمنى واستحب أن يدعو الله عز وجل باسمائه التسعة والتسعين فى كل يوم وليلة مرة فانه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أحصاها دخل الجنة وهى متفرقة فى جميع القرآن فمن دعا الله عز وجل بها موقتا كان كمن ختمه فان تعذر عليه حفظها فانها منشورة على غير ترتيب فليتطرق اليها من حروف المعجم فليذكر من كل حرف ما فيه كان يبتدىء بالألف فينسق ما عليه من الاسماء ثم بالباء ثم بالتاء فيقول ياالله ياأول يا آخر يابارىء ياباطن ياتواب وقد يتعذر عليه وجود بعضها فى بعض الحروف كغيرها الا أنها تخرج فى سائر الحروف المتيسرة بالأسماء الظاهرة فاذا عد من الاحرف تسعة وتسعين اسما أجزأه لأنه يجد فى الحرف الواحد العشرة فاكثر ودون ذلك فلا يضره ان لم يعرف فى بعض الحروف اسما اذا أحصى العدد فقد حصل له الفضل للاثر فى ذلك

ذكر صلاة التسبيح

استحب له أن يصلي صلاة التسبيح فى الجمعة مرتين مرة نهارا ومرة ليلا وهي ثلثمائة تسبيحة فى أربع ركعات ان صلاها نهارا لم يفصل بينهن بتسليم وان صلاها ليلا سلم فيها سلامين فقد كان الصالحون يصلونها ويتعرفون بركتها ويتذاكرون فضلها وقد روينا فيها روايتين احداهما حديث الحكم بن ابان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس بن عبد المطلب ألا أعطيك ألا أمنحك ألا أحبوك بشيء اذا أنت فعلته غفر الله لك ذنبك أوله وآخره قديمه وحديثه وخطأه وعمده سره وعلانيته تصلي أربع ركعات تقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة فاذا فرغت من القراءة فى أول ركعة وأنت قائم قلت سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر خمس عشرة مرة ثم تركع فتقولها عشرا ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشرا ثم تسجد فتقولها عشرا ثم ترفع من السجود فتقولها عشرا ثم تسجد الثانية فتقولها عشرا ثم ترفع من السجود ثم تجلس فتقولها عشرا ثم تقوم فنلك خمسة وسبعون فى كل ركعة تفعل ذلك فى أربع ركعات ان استطعت أن تصليها فى كل يوم مرة فافعل فان لم تفعل ففي كل جمعة مرة فان لم تفعل ففي كل شهر مرة فان لم تفعل ففي كل سنة مرة وان لم تفعل ففي عمرك مرة حدثناه عن أبي داود السجستاني فقال ليس فى صلاة التسبيح حديث أصح من هذا فذكر فى هذه الرواية أنه يسبح فى القيام خمس عشرة مرة بعد القراءة وأنه يسبح عشرا بعد السجدة الثانية فى الركعة الأولى قبل القيام كأنه يجلس جلسة قبل أن ينهض وفى الركعة الثانية أيضا كذلك قبل التشهد وروينا فى الخبر الآخر أنه يفتتح الصلاة فيتوجه ويقول سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة ثم يقرأ الحمد وسورة ثم يسبح عشرا ثم يركع فيكون له فى قيامه خمس وعشرون تسبيحة ولا يسبح بعد السجود فى الجلسة الأولى بين الركعتين ولا فى جلسة التشهد شيئا وكذلك روينا فى حديث عبد الله بن زياد بن سمعان عن معاوية بن عبد الله بن جعفر عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه صلاة التسبيح قال فيها يفتتح الصلاة مكبرا ثم يقول فذكر الكلمات وزاد فيها ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وقال فيه يقول ذلك خمس عشرة مرة ولم يذكر بعد السجدة الثانية عند القيام أن يقولها وهذه الرواية أحب الوجهين الي وهو اختيار عبد الله بن المبارك حدثونا عن سهل بن عاصم عن ابن وهب قال سألت ابن المبارك عن الصلاة التي يسبح فيها فقال يقول سبحان الله والحمد لله الكلمات خمس عشرة مرة ثم يتعوذ و يقرأ فاتحة الكتاب وسورة ثم يقولها عشرا ثم يركع وذكرها قال فذلك خمس وسبعون يصلي أربع ركعات علي هذا ان صليت ليلا فاحب أن يسلم فى

الركعتين وان صليت نهارا صليت أربعا وان شئت سلمت واذا عد فى الركوع فعد باصبعه على ركبتيه وفى السجود باصبعه على الأرض وحدثونا عن محمد بن جابر قال قلت لابن المبارك فى صلاة التسبيح اذا رفعت رأسى للقيام من آخر السجدتين أسبح قبل أن أقوم قال لا تلك القعدة ليست من سنة الصلاة وقال ابن أبى رزمة عن ابن المبارك قلت له يقول سبحان ربى العظيم ثلاث مرات سبحان ربى الأعلى ثلاث مرات قال نعم قلت فان سها يسبح فى السهو عشرا قال لا انما هى ثلثمائة تسبيحة واحب أن تكون السورة التى يقرأها فى صلاة التسبيح مع الحمد فوق العشرين آية فقد روينا فى حديث عبد الله بن جعفر الذى رواه اسماعيل بن رافع أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى السورة التى بعد أم القرآن عشرين آية فصاعدا وكذلك أحب زيادة لا حول ولا قوة الا بالله لما ذكرناه فى الخبر الآخر فان قرأ مع فاتحة الكتاب فى كل ركعة عشر مرات قل هو الله أحد فقد ضاعف العدد واستكمل الأجر

الفصل السادس عشر

فى ذكر معاملة العبد فى التلاوة ووصف التالين للقرآن حق تلاوته بقيام الشهادة

استحب للمريد أن يختم القرآن فى كل اسبوع ختمتين ختمة بالنهار وختمة بالليل ويجعل ختمة النهار يوم الاثنين فى ركعتى الفجر أو بعدهما ويختم ختمة الليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما ليستقبل بختمته أول النهار وأول الليل فان الملائكة تصلى عليه ان كانت ختمته ليلا حتى يصبح وتصلى عليه ان كان ختمه نهارا حتى يمسى فهذان الوقتان يستوعبان كلية الليل والنهار وفى الخبر لم يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمران يقرأ القرآن فى كل سبع وكذلك جماعة من الصحابة يختمون القرآن فى كل جمعة وروينا عن يحيى بن الحارث الذيناري عن القاسم بن عبد الرحمن قال كان عثمان بن عفان رضى الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة الى المائدة وليلة السبت بالانعام الى هود وليلة الأحد بيوسف الى مريم وليلة الاثنين بطه الى طسم موسى وفرعون وليلة الثلاثاء بالعنكبوت الى صاد وليلة الاربعاء بتنزيل الى الرحمن ويختم ليلة الخميس وكذلك كان زيد بن ثابت وأبى يختمان القرآن فى كل سبع روينا عن ابن مسعود انه سبع القرآن فى سبع ليال فكان يقرأ فى كل ليلة بسبعه الا أن تأليفه على غير ترتيب مصحفنا هذا فلم يذكره لان الاعتبار لا يتبين به وجماعة يذكر عنهم ختم القرآن فى كل يوم وليلة وقد كره ختمه فى أقل من ثلاث طائفة والتوسط من ذلك ما ذكرناه وهو أن يختم فى كل ثلاثة أيام

ذكر أحزاب القرآن وكيف حزبه الصحابة رضى الله عنهم

وان قرأ القرآن أحزابا فى كل يوم وليلة حزبا فحسن وهو سنة فذلك أشد لمواطأة القلب وأقوم للترتيب وأدنى الى الفهم وان أحب قرأ فى كل ركعة ثلث عشر القرآن أو نصف ذلك

يكون الجزء من الأجزاء الثلاثين فى كل ركعة أو ركعتين فان قرأ فى كل ورد حزبا أو حزبين أو دون ذلك فحسن وأحزاب القرآن سبعة فالحزب الأول ثلاث سور والحزب الثانى خمس سور والحزب الثالث سبع سور والرابع تسع سور والخامس احدى عشرة سورة والسادس ثلاث عشرة سورة والمفصل من ق فهذه كانت أحزاب القرآن ولذلك حزبه الصحابة رضى الله عنهم أجمعين وكانوا يقرؤنه كذلك وفى ذلك خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانه حزبه على عدد هذه الآى اذ عددها ستة آلاف وماثتان وست وثلاثون آية وقد اعتبرت ذلك فى كل حزب فرأيته يتقارب وهذا قبل أن تعمل الأخماس والعواشر والأجزاء فما سوى هذا محدث يقال ان الحجاج جمع قراء البصرة والكوفة منهم عاصم الجحدرى ومطر الوراق وشهاب بن شريفة فأمرهم بذلك وقد كان الحسن وابن سيرين ينكران هذه الاخماس والعواشر والأجزاء وروى عن الشعبى وابراهيم كراهية النقط بالحمرة وأخذ الأجر على ذلك وكانوا يقولون جردوا القرآن وقال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير كان القرآن مجردا فى المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء وقالوا لا بأس به فانه نور له ثم أحدثوا بعده نقطا كبارا عند منتهى الآى فقالوا لا بأس به يعرف به رأس الآى ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتم والفواتح وقالوا لا بأس به لانها علامة تعرف بها واعلم انه لا يجد فهم القرآن الفهم الذى يكشف بمشاهدته ويظهر من الملكوت قدره عبد فيه احدى هذه الخصال أدنى بدعة أو مصر على ذنب أو عبد فى قلبه كبر أو مقارف لهوى قد استكن فى قلبه أو محب الدنيا أو عبد غير متحقق بالايمان أو ضعيف اليقين ولا من هو واقف مع مقراه ولا عبد مهتم يتبع حروفه واختياره ولا ناظر الى قول مفسر ساكن الى علمه الظاهر ولا راجع الى معقوله ولا قاض بمذاهب أهل العربية واللغة فى باطن الخطاب وسر المرو هؤلاء كلهم محجوبون بعقولهم مردودون الى ما يقدر فى علومهم موقوفون مع ما تقرر فى عقولهم مزيدهم على مقدار علومهم وغرائز عقولهم وهؤلاء مشركون بعقولهم ومعلومهم عند الموحدين فهذا داخل فى الشرك الخفى الذى أخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء قال محمد بن على بن سنانة اذ معقوله وعلمه عن عقل غير كامل لان العقل الكامل ما عقل عن الله عز وجل وفهم حكمه وكلامه ويعقل به كلامه وقد قال الرسول صلوات الله عليه فى صفة كمال العقل العاقل من عقل عن الله سبحانه وتعالى أمره ونهيه وفى الخبر أكثر منافقى أمتى قراؤها فهذا نفاق الوقوف مع سوى الله تعالى والنظر الى غيره لا نفاق الشرك والانكار لقدرة الله عز وجل فهو لا ينتقل عن التوحيد ولكنه لا ينتقل الى مقام المزيد فاذا كان العبد ملقيا السمع بين يدى سميعه مصغيا الى سر كلامه شهيد القلب لمعانى صفات شهيده ناظرا الى قدرته تاركا لمعقوله ومعهود علمه متبرئا من حوله وقوته معظما للمتكلم واقفا على حضوره مفتقرا الى الفهم بحال مستقيم وقلب سليم وصفاء يقين وقوة علم وتمكين سمع فصل الخطاب

و شهد علم غيب الجواب وأفضل القراءة الترتيل لانه يجمع الامر والندب وفيه التدبر والتذكر روى عن على رضى الله عنه لاخير فى عبادة لافقه فيها ولا فى قراءة لاتدبر فيها وعن ابن عباس لأن أقرأ البقرة وآل عمران ارتلهما وأتدبرهما أحب الى من أن أقرأ القرآن كله هذرمة وروى عنه أيضا لان أقرأ اذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب الى من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذرا وسئل مجاهد عن رجلين دخلا فى صلاة فكان قيامهما واحدا الا أن أحدهما قرأ البقرة والآخر قرأ القرآن كله فقال هما فى الاجر سواء لان قيامهما كان واحدا وأفضل الترتيل والتدبر فى القرآن ماكان فى صلاة ويقال ان التفكر فى الصلاة أفضل منه فى غير الصلاة لأنهما عملان وهذا هو التفكر فى معانى التدبر والفهم بخطاب الوعد والوعيد والزجر والامر تعظيما للمتوعد واجلالا للآمر وسئل النبى صلى الله عليه وسلم أى الصلاة أفضل فقال طول القنوت وروى فى خبر آخر من سجد لله عز وجل سجدة رفعه الله عز وجل بها درجة وانه قال لابى فاطمة خادمه وقد سأله مرافقته فى الجنة فقال أعنى بكثرة السجود وروينا عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه انه قال انه كثرة السجود بالنهار وانه طول القيام بالليل ويقال ان العبد يحشر عند الموت من قبره على هيئته فى صلاته من السكون والطمأنينة وتكون راحته فى الموقف على قدر راحته وتنعمه بالصلاة وروينا معنى هذا عن أبى هريرة وعلى هذا الذى تأويل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال أرحنا بالصلاة أى روحنا اليها نعمنا بها من الروح والراحة اليها ويقال أرحنا بالشىء أى روحنا وأرحنا منه أى أسقطه عنا وخفف عنا منه ولم يقل أرحنا منها كيف وقرة عينه فيها وقال بعضهم انى لافتتح السورة فيوقفنى بعض ماأشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر وماقضيت منها وطرى وقال سليمان بن أبى سليمان الدارانى انه وعد ابن ثوبان أخا له أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع الفجر فلقيه أخوه من الغد قال وعدتنى ان تفطر عندى فأخلفت فقال لولا ميعادك ماأخبرتك بالذى حبسنى عنك انى لما صليت العتمة قلت أوتر قبل أن أجيئك لانى لا آمن مايحدث من الموت فلما كنت فى الدعاء من الوتر رفعت لى روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة فما زلت أنظر اليها حتى أصبحت وقال عز وجل كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه قيل القرآن قوى ايمانهم بعلم القرآن فالقرآن روح الايمان وتقويتهم استعمالهم به وفى التفسير يايحيى خذ الكتاب بقوة قيل بجد واجتهاد ومثله خذوا ما آتيناكم بقوة قيل بعمل به وقيل لبعضهم اذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشىء فقال أوشىء أحب الى من القرآن أحدث نفسى به وهذه صفة قوى مكين ويقال ان فى القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياضا وخانات فالميمات ميادين القرآن والراآت بساتين القرآن والحاآت مقاصيره والمسبحات عرائس القرآن والحواميم ديباج القرآن والمفصل رياضه والخانات ماسوى ذلك فاذا جال المريد فى الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد

العرائس ولبس الديباج و تنزه في الرياض وسكن غرف الخانات اقتطعه وأوقفه مايراد وشغله الشاهد به عما سواه وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فردد ها عشرين مرة و كان له صلى الله عليه وسلم في كل ردد فهم و من كل كلمة علم فينبغي أن يكون قلب التالي بوصف كل كلمة يتلوها مشاهدا لمعناها الى ما يفتح الله عز وجل له من المزيد عليها من مجاورتها ومع ما يفهم بها من غيرها و يشهد غيرها منها فقد كان بعضهم يقول كل آية لا أتفهمها ولا يكون قلبي فيها لم أعد لها ثوابا وكان بعض السلف اذا قرأ السورة و لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية فاذا مر بتسبيح و تكبير سبح و بر وان مر بدعاء و استغفار دعا و استغفر و ان مر بخوف و مرجو استعاذ و سأل فذلك معنى قوله عز وجل يتلونه حق تلاوته و كذلك كان رسول الله صلى الله عليه و سلم في تلاوته و على هذا المعنى ما روى في الخبر من أراد ان يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد أي على معنى تلاوته لانه كان يقرأ بقلب شهيد وسمع عتيد وبصر حديد فكان يتلو القرآن على معاني الكلام وعلى شهادة وصف المتكلم الوعيد منه بالتحزين و الوعد بالتشويق و الوعظ بالتخويف والانذار بالتشديد والتفسير بالترقيق والتبشير بالتوفيق لانه كان عالما بصفات المتكلم واجدا لذوق الكلم فمثل هذا العبد أحسن الناس صوتا بالقرآن كما جاء في الخبر أحسن الناس صوتا بالقرآن من اذا قرأ رأيت انه يخشى الله ومن هذا قيل اذا قرأتم القرآن فابكوا وان لم تبكوا فتباكوا ومثل هذا ان القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فتحازنوا أي ان القرآن لما فيه من التهديد والوعيد والوثائق والعهود يوجب البكاء والحزن فان لم تحزنوا وجدا ولم تبكوا نفسا يقينا فتباكوا وتحازنوا لفظا لاجل التصديق والاقرار به فندبهم الى التحازن في التلاوة والتباكي ليجتمع هم العبد في المتلو فيتدبر الكلام عسى ان يكون قلبه بمعناه فيكون التباكي والتحزين سببا لجمع همه وفراغ قلبه لان المتباكي الصادق مجتمع الهم فيما يبكيه والحزين حاضر القلب مجموع الفكر مشغول عن سوى مبكيه من ذلك ما روينا عن ابن عباس اذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه فبكاء القلب حزنه وخشيته أي فان لم تبكوا بكاء العلماء عن الفهم فتحزن قلوبكم على فقد البكاء وليخش كيف لم يوجد فيكم وصف أهل العلم وقد روينا في غرائب التفسير من معنى قوله تعالى وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار قال هي العين الكثيرة البكاء وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء قال هي العين القليلة البكاء وان منها لما يهبط من خشية الله قال هو بكاء القلب من غير دموع عين قال ثابت البناني رأيت في النوم كاني أقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فلما فرغت قال هذه القراءة فاين البكاء وكان الحسن يقول والله ما أصبح اليوم عبد يتلو هذا القرآن يؤمن به الا كثر حزنه وقل فرحه و كثر بكاؤه وقل ضحكه و كبر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته والناس في التلاوة على ثلاث

مقامات أعلاهم من شهد أوصاف المتكلم فى كلامه و يعرف أخلاقه بمعانى خطابه وهذا مقام العارفين من المقربين ومنهم من يشهد ربه تعالى يناجيه بالطافه ويخاطبه بانعامه واحسانه فمقام هذا الحياء والتعظيم وحاله الاصغاء والفهم وهذا للابرار من اصحاب اليمين ومنهم من يرى انه يناجي ربه عز وجل فمقامه السؤال والتملق وحاله الطلب والتعلق وهذا للمعترفين والمريدين وهم من خصوص أصحاب اليمين وينبغي للعبد أن يشهد فى التلاوة ان مولاه يخاطبه بالكلام لأنه سبحانه متكلم بكلام نفسه وليس للعبد فى كلامه كلام وانما جعل له حركة اللسان بوصفه وتيسير الذكر بلسانه بحكم ربه عز وجل حدا للعبد ومكانا له كما كانت الشجرة وجهة لموسى عليه السلام وكلمه الله عز وجل منها ويقال ان كل حرف من كلام الله عز وجل فى اللوح المحفوظ أعظم من جبل قاف وان الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يتلوه ما أطاقوه حتى يأتى اسرافيل وهو ملك اللوح المحفوظ فيرفعه فيقله باذن الله عز وجل ورحمته اذ كان الله تعالى أطاقه ذلك لما استعمله به وقال جعفر بن محمد الصادق والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه فى كلامه ولكن لا يبصرون وقال أيضا وقد سألوه عن شىء لحقه فى الصلاة حتى خر مغشيا عليه فلما سرى عنه قيل له فى ذلك فقال مازلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته تعالى وكذلك الخصوص يرددون الآية بقلوبهم على قلوبهم و يتحققون بها فى مشاهدتهم بمدد من شهيدهم وسيدهم حتى يستغرقهم الفهم فيغرقون فى بحر العلم فان قصرت مشاهدة التالى عن هذا المقام فيشهد أنه يناجيه بكلامه و يتملقه بمناجاته فان الله عز وجل انما خاطبه بلسانه وكلمه بحركته وصوته ليفهم عنه بعلمه الذى جعل له ويعقل عنه بفهمه الذى قسم له حكمة منه ورحمة اذ لو تكلم الجبار عز وجل بوصفه الذى يدركه سمعه لما ثبت للكلام عرش ولا ثرى ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات أنواره فحجب ذلك فى غيب علمه عن العقول وستر بصنع قدرته عن القلوب وأظهر للقلوب علوم عقولها وأشهد للعقول عرف معقولها بلطفه وحنانه ورحمته واحسانه وبلغنا فى الاخبار السالفة ان وليا من أولياء الله عز وجل من الصديقين ابتعثه فى الفترة الى ملك من الجبابرة يدعوه الى التوحيد والى شريعة الانبياء فسأله الملك عن اشياء من معانى التوحيد فجعل الصديق يجيبه عنها بما يقرب من فهمه و يدركه عقله من ضرب الامثال بما يستعمله الناس بينهم و يتعارفونه عندهم الى ان قال له الملك أفرأيت ما يأتى الانبياء اذا ادعيت انه ليس بكلام الناس ولا رأيهم أمن كلام الله هو قال الحكيم نعم قال الملك فكيف يطيق الناس حمله قال الصديق انا رأينا الناس لما أرادوا ان يفهموا بعض الدواب والطير ما يريدون من تقديمها وتأخيرها واقبالها وادبارها لم يجدوا الدواب والطير تحمل كلامهم فوضعوا لها من النقر والصفير والزجر ما عرفوا انها تطيق حمله وكذلك الناس يعجزون

أن يحملوا كلام الله ككنهه بكماله وصفته فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات التى سمعوا بها الحكمة كصوت الزجر والنقر الذى سمعت به الدواب من الناس ولم يمنع ذلك معانى الحكمة المخبواة فى تلك الاصوات من أن شرف الكلام بشرفها وعظم بتعظيمها فكان الصوت للحكمة جسدا ومسكنا والحكمة للصوت نفسا وروحا فكما ان أجساد البشر تكرم وتعز لمكان الروح التى فيها وكذلك أصوات الكلام تشرف وتكرم للحكمة التى فيها والكلام على المنزلة رفيع الدرجة قاهر السلطان نافذ الحكم فى الحق والباطل وهو القاضى العادل والشاهد المرتضى يأمر و ينهى ولاطاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة كما لا يستطيع الظل أن يقوم قدام شعاع الشمس ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة كما لا طاقة لهم ان ينفذوا بابصارهم ضوء عين الشمس ولكنهم ينالون من شعاع الشمس ما تحيا به أبصارهم ويستدلون به على حوائجهم فالكلام كالملك المحجوب الغائب وجهه الشاهد أمره كالشمس الغزيرة الظاهرة مكنون عنصرها وكالنجوم الزاهرة التى قد يهتدى بها من لا يقع على سرها فالكلام أعظم وأشرف من ذلك هو مفتاح الخزائن النفسية وباب المنازل العالية ومراقى الدرجات الشريفة وشراب الحياة الذى من شرب منه لم يمت ودواء الاسقام التى من سقى منه لم يسقم اذالبسه من لم يتسلح به أبدى عورته واذا تسامح به غير أهله لم يخرج الاعنهم نقلت هذا نقلا من كلام الصديق الحكيم الذى خاطب به الملك فاستجاب له باذن الله عز وجل فهذا وصف كلام الله عز وجل الذى جعل الله لنا آية وعبرة ونعمة علينا ورحمة فانظر الى الحكيم كيف جعل عقول البشر فى فهم كلام الله العظيم بمنزلة فهم البهائم والطير بالنقر والصفير الى عقول البشر وجعل النقر والصفير والافهام من الناس للانعام وللهوام مثلا لما أفهم الله تعالى به الانام من معانى كلامه الجليل بما ألهم به من الكلام ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم فهذه قدرة لطيفة من قدرته التى لاتتناهى وحكمة محكمة من حكمه التى لا تضاهى انه حكيم عليم ثم ليشهد العبد أنه مقصود بجميع القرآن من فاتحته الى خاتمته مراد معنى به له ضربت الامثال به وفيه جميع ذكره وأوصافه لان الله سبحانه وتعالى لما تكلم بهذا الكلام وخاطب به المؤمنين كان هو واجدهم وكان حاضرا معهم وقد سوى الله عز وجل بين المؤمنين فى تنزيل القرآن عليهم و بين النبى صلى الله عليه وسلم بمعنى من المعانى فقال واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به كما قال لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم وكذلك قال وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون وقال كذلك يضرب الله للناس أمثالهم يعنى صفاتهم وقال ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات كما قال ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وقال عز وجل واتبع ما يوحى اليك واصبر ثم قال اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم وقال فاستقم كما

أمرت ومن تاب معـك غير أنه سبحانه عم الجلة بالبصائر والبيان وخص بالهدى والرحمة أولى التقى والايمان فمن ذلك قوله عز وجل هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين فالموقنون هم المتقون والمهديون هم المرحومون وقد أمرنا بطلب فهم القرآن كما أمرنا بتلاوته وروينا عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال اقرؤا القرآن والتمسوا غرائبه وقال ابن مسعود من أراد علم الاولين والآخرين فليثور القرآن ومن حديث على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم والذى بعثنى بالحق نبيا لتفترقن أمتى على أصل دينها وجماعتها على اثنين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون الى النار فاذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل فان فيه نبأ ما كان قبلكم ونبأ ما يأتى بعدكم وحكم ما بينكم وبين من خالفه من الجبابرة قصمه الله ومن ابتغى العلم من غيره أضله الله وهو حبل الله المتين ونوره المبين وشفاؤه النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقام ولا يزيغ فيستقيم ولا تنقضى عجائبه ولا يخلقه كثرة الرد هو الذى سمعته الجن فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين فقالوا ياقومنا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن تمسك به هدى الى صراط مستقيم وروينا معناه فى حديث حذيفة لما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده قال فقلت يارسول الله فما تأمرنى ان أدركت ذلك فقال تعلم كتاب الله عز وجل واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك قال فاعدت عليه فقال تعلم كتاب الله عز وجل واعمل بمـا فيه فهو المخرج من ذلك قال فاعدت عليه فقال تعلم كتاب الله واعمل بمـا فيه ففيه النجاة ثلاثا وعن على رضى الله عنه قال ما أسر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ كتمه الناس الا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه وعنه رضى الله عنه انه قال ومن فهم فسر جمل العلم وعن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره فى قوله عز وجل ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا قال الفهم فى كتاب الله عز وجل وقال أحسن القائلين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما فرفع الفهم مقاما فوق الحكم والعلم وأضافه اليه للتخصيص وجعله مقاما عاما فيهما فاذا فهم العبد الـكلام وعامل به المولى تحقق بمـا يقول وكان من أصحابه ولم يكن حاكيا لقائله مثل أن يتلو منه انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم ومثل أن يقول عليك توكلنا واليك أنبنا ومثل قوله ولنصبرن على ما آذيتمونا فيكون هو الخائف لليوم العظيم ويكون هو المتوكل المنيب وهو الصابر على الاذى متوكل على المولى ولا يكون مخبرا عن قائل قاله فلا يجد حلاوة ذلك ولا ميراثه فاذا كان هو كذلك وجد حلاوة التلاوة وتحقق جزاء الولاية وكذلك اذا تلا الآى المذموم أهلها الممقوت فاعلها مثل قوله تعالى وهم فى غفلة معرضون وقوله فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ومثل قوله عز وجل ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون فما أقبح من يعيب ذلك وهو من أهله وما أعظم أن يذم أهل ذلك وهو بوصفه فهذا من حجج القرآن عليه فلا يجد

مع ذلك حلاوة المناجاة ولا يسمع خطاب المناجي لان وصفه المذموم قد حجبه وهواه المردى عن حقيقة الفهم قد حرمه ولانقسوة قلبه عن الفهم صرفه و كذبه في حاله عن البيان وأخرسه فاذا كان هو المتيقظ المقبل فهو التائب الصادق سمع فصل الخطاب و نظر الى الداعي و له استجاب و قد اشترط الله عز وجل للانابة التبصرة و حضور القلب للتذكرة فقال عز وجل تبصرة وذكرى لكل عبد منيب و قال وما يتذكر الا من ينيب و قال عز وجل انما يتذكر أولو الالباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق فالاستقامة على التوبة من الوفاء بالعهد وتعدى الحدود من نقض الميثاق وقلة الصدق و الانابة هي التوبة والاقبال على الله عز وجل و الالباب هي العقول الزاكية و القلوب الطاهرة و ينبغي للتالى الخائف الناصح لنفسه وللخالق السليم القلب اذا تلا آى الوعد و المدح ومحاسن الوصف و مقامات المقربين أن لا يشهد نفسه هنالك و لا يراها مكانا لذلك بل يشهد للؤمنين فيها و ينظر الى الصديقين منها سلامة و نصحا فاذا تلا الآى الممقوت أهلها المتهدد عليها المذموم وصفها من مقامات الغافلين وأحوال الخاطئين شهد نفسه هناك و انه هو المخاطب المقصود بذلك خوفا منه و شفقا فبهذه المشاهدة يرجو للخلق ويخاف على نفسه و من هذه الملاحظة يسلم قلبه للعباد و يمقت نفسه و روينا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه كان يقول اللهم انى أستغفرك لظلمى وكفرى قال فقلت ياأمير المؤمنين هذا الظلم فما بال الكفر فتلا قوله ان الانسان لظلوم كفار فانقلب هذان المعنيان على عبد حتى يشهد نفسه فى المدح والوصف و يشهد غيره فى الذم و المقت انقلب قلبه عن وجهة الصادقين و تنكب بقصده عن صراط الخائفين فهلك و أهلك لان من شهد البعد فى القرب لطف به بالخوف و من شهد القرب فى البعد مكر به فى الامن و قال بعض العلماء كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأنى أسمعه من رسول الله صلى الله عليه و سلم يتلوه على أصحابه ثم رفعت الى مقام فوقه فكنت أتلوه كأنى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم عز من قائل فعندها وجدت له نعيما و لذة لا أصبر عنها و قال عثمان رضى الله عنه أو حذيفة لو طهرت القلوب لم تشبع من تلاوة القرآن و قال ثابت البنانى كابدت القرآن عشرين سنة و تنعمت به عشرين سنة و قال بعض علمائنا لكل آية ستون ألف فهم و ما بقى من فهمها أكثر و عن على رضى الله عنه لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب و عن أبى سليمان الدارانى انى لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال و ذكر خمس ليال ولولا انى أقطع الفكر فيها لما جاوزتها الى غيرها و روينا عن بعض السلف أنه بقى فى سورة هود ستة أشهر يكررها و لا يفرغ منها و حدثنا عن بعض العارفين قال لى فى كل جمعة ختمة و فى كل شهر ختمة و فى كل سنة ختمة ولى ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد يعنى ختمة التفهم و المشاهدة و كان هذا يقول أقمت نفسي فى العبودية مقام الاجراء فأنا أعمل مياومة

و مجامعة و مشاهرة و مسانهة و انما حجب الخلق عن فهم كنه الكلام ومعرفةسر المرادلانه حجبهم عن حقيقة كنه معرفته و انما أعطاهم من معرفة الكلام بقدر ماأعطاهم من معرفة المتكلم اذ بمعانى كلامه تعرف معانى صفاته و أفعاله و أحكامه ولان معانى كلامه من معانى أوصافه و أخلاقه فلذلك جاء فيه السهل اللطيف و الشديد العسوف و المرجو والمخوف لأن من أوصافه الرحمة و اللطف و الانتقام و البطش فلما لم يصلح أن يعرفوه كعلمه بنفسه لم يصلح أن يعلم كنه كلامه الا هو و يعرف كنه صفاته الاهو فاعلم الخلق لمعانى كلامه اعرفهم لمعانى الصفات و أعرف العباد بمعانى الأوصاف و الاخلاق وغوامض الاحكام اعرفهم بسرائر الخطاب و وجه الحروف و معانى باطن الكلام و أحقهم بذلك أخشاهم له و اخشاهم له أقربهم منه وأقربهم منه من خصه باثرته وشمله بعنايته فقد جاء فى الخبر أحسن الناس صوتا بالقرآن من اذا قرأ رأيت أنه يخشى الله ولا يخشاه حتى يعرفه و لا يعرفه حتى يعامله و لا يعامله حتى يقربه و لا يقربه حتى يعنى به و ينظر اليه فعندها يعرف سر الخطاب و يطلع على باطن الكتاب فاذا سجد العبد سجود القرآن فليدع فى سجدته بمعانى الآية من الخير و ليستعذ من معانى شرها فان ذلك فعل العلماء بالقرآن و الله يحب ذلك و لتلك المعانى أسجدهم له مثل أن يقرأ قوله عز و جل خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون فيقول اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك و أعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك و مثل هذا قوله عز وجل و يخرون للاذقان يبكون و يزيدهم خشوعا فليقل اللهم اجعلنى من الباكين اليك الخاشعين لك وعلى هذه المعانى ونحوها و ليكن القرآن هو علمه وعمله وذكره و دعاؤه و همه و شغله فعنه يسأل وعليه يثاب ومقامه منه و ذكره فيه وأحواله فيه مجموع له ذلك كله فيه فبكلامه عرفه العارفون بمخاطبته شهد أوصافه الموقنون فعلومهم من كلامه ومواجيدهم عن علومهم و مشاهدتهم عن معانى أوصافه و كلامهم عن مشاهدتهم لان ضروب الكلام عن الله هى معانى الصفات فمنه كلام راض و منه كلام غضبان و منه كلام منعم و كلام منتقم و كلام جبار متكبر و حنان متعطف فاذا كان العبد من أهل العلم بالله والفهم عنه و السمع من الله عز وجل و المشاهد لله شهد ماغاب عن غيره وأبصر ماعمى عنه سواه وقد قال سبحانه و تعالى فلا أقسم بما تبصرون و ما لا تبصرون وقال عز وجل فاعتبروا يا اولى الأبصار معناه فى الفهم اعبروا الى فقد أبصرتم فالتاء قد تكون بمعنى تاء التفعل تدخل للتحقيق والوصول بالوصف و المبالغة فى الفعل فلما أعطاهم الأيدى و الأبصار عبروا ابقواهم الى ما أبصروا ففروا الى الله عز وجل من الخلق حين ذكروه بما خلق فخرجوا على معيار حسن الابتلاء و لم ينقصهم البلاء شيأ فكانوا كما أخبروا كالذى أمر فى قوله عز و جل و من كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ففروا الى الله ثم قال و لا تجعلوا مع الله الها آخر فكانوا هم الموحدون المخلصون له و كان هو المنفرد المستخلص لهم ثم

جاوزوا التذكرة بالاشياء اليه فذكروه عنده به فحينئذ هربوا اليه منه حين هللوه به فلم يتألهوا الى ماسواه كما لم يعبدوا الا اياه وكذلك رأيتها فى مصحف عبد الله ففروا الى الله منه انى لكم منه نذير مبين وفى الخبر عن ابن مسعود و بعض الرواة يرفعه وقد روينا مسندا من طريق وهم خصوص العارفين من المحبين والخالصين اطلعوا على السر وأوقفوا على الخبر فكانوا مقربين شاهدين ان للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا فنقول فظهره لأهل العربية وباطنه لأهل اليقين وحده لأهل الظاهر ومطلعه لأهل الاشراف وهم العارفون المحبون والخائفون اطلعوا على [illegible] المطلع بعد أن خافوا هول المطلع فاودعوا السر عند مقام أمين وأوقفوا على الخبر فى حال مكين فكانوا لديه مقربين اذ كانوا به شاهدين وقال النبي صلى الله عليه وسلم يرى الشاهد مالا يرى الغائب فمن حضر شهد ومن شهد وجد ومن وجد وحد ومن وحد عزز ومن غاب عمى ومن عمى فقد ومن فقد نسى ومن نسى فقد نسى وقد قال الله عزوجل كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى أى تركتها فلم تعبأ بها ولم تنظر اليها وهكذا اليوم تترك فلا ينظر اليك برحمة ولا تكلم بلطف ولا تزلف بقرب

الفصل السابع عشر

فيه كتاب ذكر نوع من المفصل والموصل من الكلام وفيه مدح العالمين وذم الغافلين عنه وتفسير الغريب والمشكل من القرآن باختصار الاصول الدالة على المعنى

فأما ظاهر الكلام فعلى معنيين عجيبين وهو مجمل مختصر وموصل مكرر فاجماله واختصاره للبلاغة والايجاز قال الله تعالى ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين ومكرره وتفصيله للافهام والتذكار قال الله تعالى ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون وقال عز وجل فى المبهم المجمل والتوحيد المفصل الر فهذه ثلاثة أسماء الله لطيف رحيم وقيل بل هى حروف من اسم وهو الرحمن ثم أظهر السبب فقال كتاب أحكمت آياته يعنى بالتوحيد ثم فصلت أى بالوعد والوعيد ثم قال من لدن حكيم أى للاحكام خبير أى بالاحكام خبير بالتفصيل للحلال والحرام ألا تعبدوا الا الله هذا هو التوحيد الذى أحكمه انني لكم منه نذير و بشير هذا هو الوعد والوعيد الذى أعلمه فمن المختصر للايجاز قوله تعالى وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ففى هذا مضمر ومحذوفان فالمضمر قوله مبصرة المعنى آية مبصرة فاضمر ومحذوفاه قوله فظلموا بها المعنى ظلموا أنفسهم بالتكذيب بها فاختصرت كلمتان من كلمتين للايجاز ومثله قوله وهى خاوية على عروشها الخواء الخلاء والعروش السقوف وهو جمع عرش فكيف تكون خاوية من العروش والعروش موجودة فيها فهذا من المختصر المحذوف ومعناه وهى خاوية من ثمرها أومن أهلها واقعة على عروشها ومثله قوله تعالى ولكن

البر من آمن بالله واليوم الآخر حذف الفعل وأقيم الاسم مقامه فالمعنى فيه ولكن البر بر من آمن بالله وقد يكون من المبدل فيكون المحذوف هو اسم أبدل الفعل مكانه ولكن البر من آمن بالله فلما كان البر وصفه أقيم مكانه وبمثل معنى الأول قوله عز وجل وأشربوا فى قلوبهم العجل أى حب العجل ومن ذلك قوله عز وجل أقتلت نفسا زكية بغير نفس ولم يذكر قتله والمعنى بغير نفس قتلها فحذف الفعل ومثله أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض أضمر قوله بغير نفس قتلها أو بغير فساد فى الأرض فاكتفى عنه بذكر غير الاولى وكذلك قوله من فى السموات والأرض معناه ومن فى الارض وكذلك قوله فما يكذبك بعد بالدين هو متصل بقوله سبحانه لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم وفصل بينهما النعت والاستثناء والمعنى فما يكذبك بعد هذا البيان أيها الانسان بالديانة فاى شيء يحملك على التكذيب بأن تدين الله تعالى وهو أحكم الحاكمين ومن المبدل المضمر أيضا اذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات المعنى ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى فاضمر ذكر العذاب وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة فاقام الوصف مقام الاسم ويصلح أيضا أن يترك الوصف على لفظه ويضمر أهل فيكون ضعف عذاب أهل الحياة وضعف عذاب أهل الممات كما أضمر أهل فى ذكر القرية وذكر العير فقال واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها والمعنى واسأل أهل القرية واسأل أهل العير ومن هذا المعنى قوله تعالى ثقلت فى السموات والأرض هو من المبدل المضمر فبدله ثقلت ومعناه خفيت أبدل بدلالة المعنى عليه لأن الشيء اذا خفي علمه ثقل وكذلك قوله فى السموات معناه على وضمر أهل والمعنى خفيت على أهل السموات وأهل الأرض لا تأتيكم الا بغتة يعنى فجأة ومنه قوله عز وجل تفتؤ تذكر يوسف فيه مضمر ومحذوف فمحذوفه تزال ومضمره لا التى هى جواب القسم والمعنى قالوا تالله لا تزال تفتؤ تذكر يوسف فاضمرت لا وأبدلت تزال بقوله تفتؤ وهى من مختصر الكلام وفصيحه وبليغه وهى لغة لبعض العرب وفى القرآن من كل لغة ومن هذا قوله عز وجل وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون وقوله سبحانه بدلوا نعمة الله كفرا معناه تجعلون شكر رزقكم انكم تكذبون وكذلك بدلوا شكر نعمة الله كفرا بها ومثله وكأين من قرية أهلكناها وكأين من قرية أمليت لها معناه أهل قرية مثل قوله واسأل العير المعنى أهل العير والعير هى الابل المجهولة وهذا الذى تسميه النحويون المجاز وهكذا قوله ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم معناه للطريقة التى هى أقوم ومثل هذا قوله عز وجل وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن أى يقولوا الكلمة التى هى أحسن ومثل هذا قوله ادفع بالتى هى أحسن السيئة أى بالكلمة أو بالفعلة التى هى أحسن ومثل قوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أى الكلمة الحسنى والوجه الآخر أن الحسنى اسم لا نعت فمعناه الجنة وهكذا قوله على ملك

سليمان أى على عهد مالك سليمان فأضمر قوله عهد ومثل قوله وآتنا ماوعدتنا على رسالك أى على ألسنة رسلك فاضمر ألسنة ومن المكنى المضمر قوله تعالى وما أنسانيه الا الشيطان أضمر الحوت وذكره واسم موسى للاختصار والمعنى وما أنسانى ذكر الحوت لك الا الشيطان ومثله قوله انا أنزلناه فى ليلة القدر أى أنزلنا القرآن فكنى عنه ولم يتقدمله ذكر و كذلك قوله حتى توارت بالحجاب يعنى توارت الشمس بحجاب الليل فكنى عنها ولم يجر لها ذكر ومثله قوله عز وجل وما يلقاها الا الذين صبروا أى الكلمة الطيبة أو الفعلة التى هى أحسن و بمعناه قوله تعالى ولا يلقاها الا الصابرون يعنى كلمة الزهد فى الدنيا ومقالة الترغيب والرغبة فى الآخرة عائدعلى قوله تعالى و يلكم ثواب الله خيرأى هذه المقالة ومن المبدل المختصر قوله عز وجل واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم معناه حملته العزة على الاثم أى حمله التعزز والانفة على الاثم و لم يبال فأخذته بمعنى حملته و بالاثم بمعنى على الاثم ومن هذاقوله لاتأخذه سنة ولانوم أى لاتحمله سنة ولا نوم لأن السنة تحمل العبد أى تذهب به عن التيقظ ومن المنقول المنقلب قوله عز وجل يدعو لمن ضره أقرب من نفعه اللام فى لمن منقولة والمعنى يدعو من لضره أقرب من نفعه ومثله لتنوء بالعصبة معناه لتنوء العصبة بها أى لتثقل بحملها لثقلها عليهم ومثله قوله وطورسينين سلام على آل ياسين وهو مما قلب اسمه لازدواج الكلم المعنى طورسينا وسلام على الياسين قيل ادريس لأن فى حرف ابن مسعود سلام على ادريس ونحوه وجعلوا القرآن عضين أى أعضاء كأنهم عضوه فآمنوا ببعض وكفروا ببعض و بمعناه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت المعنى وجعل منهم من عبد الطاغوت و يصلح أن يكون معطوفا على قوله من لعنه الله وغضب عليه ومن عبد الطاغوت ومن قرأ الطاغوت بالكسر فانه يجعل عبدا اسما وأضافه الى الطاغوت بمعنى وعبدة وعباد وفيه خمس لغات أخرى عباد الطاغوت وعبد الطاغوت وعبدة الطاغوت وعباد الطاغوت وعبد الطاغوت وأما عبد الطاغوت نصبا فهو بمعنى الفعل من العبادة ومن المضمر المختصر أيضا قوله عز وجل ألا ان عادا كفروا ربهم ضميره احدى كلمتين كفروا نعمة ربهم كفروا توحيد ربهم فأضمر للاختصار وانتصاب الاسم لسقوط الخافض وفيها وجه غريب الا أنه محمول على المعنى لأنه أى غطوا ربهم التغطية أى غطوا آياته وما دعا اليه من الحق والمعنى كفرهم أى غطى عليهم بما غطوا ربهم هكذا حقيقة فى التوحيد اذ الأولية فى كل فعل منه وهم ثوان فيما بعد فهو بمعنى قوله وللبسنا عليهم ما يلبسون اللبس التغطية ومنه قوله والذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم مضمره يقولون ما نعبدهم ومثله فظلتم تفكهون انا لمغرمون أى يقولون انا لمغرمون وعلى هذا المعنى وجه قوله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك المعنى فيه يقولون ما أصابك على

معنى الاخبار عنهم والذم لهم فهلكت بذلك القدرية لجهلهم بعلم العربية فظنوا أنه ابتداء شرع وبيان من الله عز وجل وقد أحكم الله عز وجل ابتداء شرعه و بيانه بأول الآية فى قوله قل كل من عند الله وقد كان ابن عباس يقول اذا اشتبه عليكم شيء من القرآن فالتمسوه فى كلام العرب فان الرجل يتلو الآية فيعيا بوجهها فيكفره وقرأتها فى مصحف عبد الله بن مسعود فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا قالوا ما أصابك من حسنة فهذا كما أنبأتك وقد رأيت فى مصحف عبد الله والذين اتخذوا من دونه أولياء قالوا ما نعبدهم فهذا من ذلك ومن المضمر قوله تعالى ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الارض يخلفون ليس انه يجعل من البشر ملائكة ولكن معناه لجعلنا بدلا منكم ملائكة و يصلح لجعلنا بدلكم بمعنى منكم ومن المبدل له قوله عز وجل وهم لها سابقون اللام بدل من الباء المعنى وهم بها سابقون لانهم لو سبقوها لفاتتهم وعلى هذا المعنى قال بعضهم ان قوله عز وجل فلما تجلى ربه للجبل أى بالجبل كان الجبل حجابا لموسى فكشفه عنه فتجلى به كما قال من الشجرة أن ياموسى انى أنا الله فكانت الشجرة وجهة لموسى كلمه الله عز وجل منها ومثله ولأصلبنكم فى جزوع النخل معناه على جذوع وكذلك فلا تجعلنى فى القوم الظالمين معناه أى مع القوم و بمعناه أم لهم سلم يستمعون فيه أى عليه و يصلح به وكذلك قوله مستكبرين به أى عنه يعنى عن القرآن فعلى هذا مجاز قوله تعالى فاسأل به خبيرا أى سل عنه لحروف العوامل يقوم بعضها مقام بعض ومثله قوله السماء منفطر به اى فيه يعنى فى اليوم ومثله لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا معناه ولا الذين ظلموا فأبدلت الا بقوله ولا ويجوز ان تكون الا مستأنفة بمعنى لكن الذين ظلموا متصلة بخبرها من قوله فلا تخشوهم فهو بمعنى قوله لا يخاف لدى المرسلون الا من ظلم أى لكن من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فيكون مبتدأ لذكر خبرها بعدو بمعناه قوله تعالى ولا تأكلوا أموالهم الى اموالكم أى مع أموالكم وكذلك قوله وايديكم الى المرافق اى مع المرافق لانها داخلة فى الغسل والحروف العوامل تنوب بعضها عن بعض ولو اظهر مثل هذا المضمر ووصل مثل هذا المحذوف لكانت القراءة ضعيفة ومن الموصول المكرر للبيان والتوكيد قوله عز وجل وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن قوله ان يتبعون مردود رده للتوكيد والافهام كأنه لما طال الكلام أعيد ليقرب من الفهم والمعنى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء الا الظن أى اتباعهم الشركاء ظن منهم غير يقين ونحوه من المكرر المؤكد قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم اختصاره الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا فلما قدم الذين استضعفوا وكان المراد بعضهم كرر المراد باعادة ذكر من آمن منهم للبيان ومثله الا آل لوط انا لمنجوهم أجمعين الا امرأته فادخل الاستثناء على الاستثناء وهو يطول فى كلامهم

لانه أراد بالنجاة بعض الآل فلما أجملهم أخرج مستثنى من مستثنى وفى هذا دليل ان الازواج من الآل لانه استثنى امرأته من آله ومن المكرر للتوكيد قوله تعالى فلما أن أراد أن يبطش مختصر مفلما أراد يبطش وقد قيل ان هذا من المختصر المضمر بما أضمر فيه الاسم وحذف منه الفعل وهو غريب فيكون تقديره فلما أن أراد الاسرائيلى أن يبطش موسى بالذى هو عدو لهما فلم يفعل قال ياموسى أتريد أن تقتلنى فهذا حينئذ من أخصر الكلام وأوجزه ومن المكرر المؤكد قوله عز وجل فلينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة مفهومه وجائزه فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة فوصل بمن ووكد فكان هم أشد وقراءتها فى مصحف ابن مسعود عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد قوة ليس فيها كانوا ولا قوله هم وبمعناه وانقصر قوله تعالى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة هذا مما طول للبيان والمعنى لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن فلما قدم من وهى اسماء من يكفر أعيد ذكر البيوت مؤخرا ومن المكنى المبهم المشتبه قوله عز وجل ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء الشىء فى هذا الموضع الانفاق مما رزق الله وقوله تعالى بعده وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء فالشىء فى هذا الموضع الامر بالعدل والاستقامة على الهدى وكذلك قوله فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء الشىء فى هذا الموضع وصف مخصوص من وصف الربوبية من العلم الذى علمه الخضر عليه السلام من لدنه لا يصلح أن يسأل عنه حتى يبتدىء به فلذلك كنى عنه وكذلك العلم على ضربين ضرب لا يصلح أن يبتدأ به حتى يسأل عنه وهو مما لا يضيق علمه فلذلك وسع جهله وحسن كتمه وعلم لا ينبغى أن يسئل عنه من معنى صفات التوحيد ونعوت الوحدانية لا يوكل الى العقول بل يخص بها المراد المحمول فعلم الخضر الذى شرط على موسى عليهما السلام أن لا يسأل عنه حتى يبادئه به من هذا النوع والله غالب على أمره وقوله عز وجل أم خلقوا من غير شىء يعنى الله تعالى أى كيف يكون خلق من غير خالق فى وجودهم ثبوت خالق فهم دلالة عليه انه خلقهم وروينا ذلك عن ابن عباس وعن زيد بن على رضى الله عنهما قالا فى قوله عز وجل من غير شىء أى من غير رب كيف يكون خلق من غير خالق وقوله عز وجل والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فالبعض الاول المفضل فى الرزق هم الاحرار والبعض الآخر المفضول هم المماليك ومثله قوله تعالى وقال قرينه هذا مالدى عتيد قرينه هذا هو الملك الموكل بعلمه أحضر ما عنده مما علمه من فعله وقوله عز وجل قال قرينه ربنا ما أطغيته قرينه هذا هو شيطانه المقرون به ومثله قوله تعالى واخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون الهاء والميم المتصلة باخوان أسماء الشياطين والهاء والميم المتصلة يمدون أسماء المشركين أى الشياطين اخوان المشركين يمدون المشركين فى الغى ولا يقصرون عنهم فى الامداد وبمعنى هذا قوله تعالى انما

سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون الهاء الاولى المتصلة بيتولون كناية عن ابليس والهاء المتصلة بالباء من قوله هم به هى اسم الله عز وجل وقد قيل أيضا انها عائدة على ابليس أيضا فيكون المعنى هم به قد أشركوا فى التوحيد أى أشركوه بعبادة الله عز وجل ومثل هذا قوله عز وجل فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا الهاء الاولى كناية عن الحوافر وهن الموريات قدحا يعنى الخيل تقدح بحوافرها فتورى النار فأثرن به أى بالحوافر النقع يعنى التراب والهاء الثانية كناية عن الاغارة فوسطن أى توسطن به بالاغارة وهن المغيرات صبحا وسطن جمع المشركين أغاروا عليهم بجمعهم والمشركون غارون وبهذا المعنى قوله عز وجل فانزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات الهاء الاولى عائدة على السحاب أى أنزلنا بالسحاب الماء وفى قوله به مبدل ومكنى فالمكنى هو ما ذكرناه من أسماء السحاب والمبدل ان به بمعنى منه ومثل هذا قوله يشرب بها عباد الله أى منها وهو صريح قوله فى المفسر وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا يعنى السحاب وهو قوله سقناه لبلد ميت وقوله فى الهاء الثانية أخرجنا به من كل الثمرات يعنى بالماء لجمع بين اسم السحاب والماء بالهاء فأشكل ومن البيان الثانى والثالث للخطاب المجمل قوله تعالى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن فلم يفهم منه الا أن القرآن أنزل فى شهر رمضان ولم يدر أنهارا أنزل فيه أو ليلا فقال فى البيان الثانى انا أنزلناه فى ليلة مباركة فلم يفهم منه الا أنه أنزل منه ليلا فى ليلة مباركة ولم يدر أى ليلة هى فقال فى البيان الثالث انا أنزلناه فى ليلة القدر فهذا غاية البيان وبمعناه قوله تعالى ولما بلغ أشده واستوى آتيناه فهذا البيان الاول زيادة على الاشد وهو الوصف الا أنه غير مفسر ثم قال فى البيان الثانى حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ففسر الاشد بالاربعين اذا كانت الواو للمدح والوصف فى أحد الوجهين ومن الموحد ومعناه الجمع قوله تعالى والعصر ان الانسان لفى خسر معناه ان الناس لفى خسر أى لفى خسران لقوله الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا يستثنى جماعة من واحد وانما يستثنى جماعة من جماعة أكثر منهم وانما وحد الاسم للجنس وكذلك قوله تعالى يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا معناه يا أيها الناس انكم كادحون دل عليه قوله عز وجل فأما من أوتى كتابه بيمينه وأما من أوتى كتابه وراء ظهره وانما وحد النعت لتوحيد الاسم وكذلك قوله عز وجل وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا معناه حملها الناس كلهم وهذا أحب الوجهين الى لقوله عز وجل عقبيه ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ومثله قوله عز وجل وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها معناه وانا اذا أذقنا الناس منا رحمة فرحوا بها فلما وحد الاسم وحد نعته دل عليه قوله تعالى وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فأظهر الجمع ومن الجمع المراد به الواحد قوله عز وجل كذبت قوم نوح المرسلين يعنى نوحا وحده لانه لم يرسل الى قوم نوح غيره

ودل عليه قوله تعالى اذ قال لهم أخوهم نوح فوحد الجمع ومثله فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء يعنى بذلك النبي صلى الله عليه وسلم وحده يوم خيبر ومن الجمع المكنى قوله عز وجل لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس يعنى فى هذا الموضع الدجال ونزل ذلك فى ذكر الدجال واستعظامهم لوصفه وكذلك قوله تعالى الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم يعنى رجلا واحدا قاله لهم وهو عروة بن مسعود الثقفى فجمع لفظه لاجل جنسه والعرب بجمع الواحد للجنس وكذلك قيل فى احد الوجوه ان قوله عز وجل ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس يعنى آدم صلى الله عليه وسلم وحده وهو أول من طاف بالبيت وأتاه جبريل وأشعر له المناسك وقد قرأت فى بعض حروف السلف من حيث أفاض آدم فهذا شاهد له ومن المقدم والمؤخر لحسن تأليف الكلم ومزيد البيان والاظهار قوله عز وجل من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا اختصاره ومؤخره من كفر بالله بعد ايمانه وشرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن وكد بقوله ولكن من شرح بالكفر صدرا لما استثنى المكره وقلبه مطمئن بايمانه ولم يحمل المكره آخر الكلام لئلا يليه قوله فعليهم غضب من الله فيتوهم انه خبره وجعل آخر الكلام فعليهم غضب من الله وهو فى المعنى مقدم خبر الاول من قوله من كفر بالله من بعد ايمانه فاخر ليليه قوله تعالى ذلك بانهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة لانه من وصفهم فيكون هذا أحسن فى تأليف الكلام وسياق المعنى وكذلك قوله تعالى وقيله يارب ان هؤلاء قوم هذا من المعطوف المضمر ومن المقدم والمؤخر فعاطفة قوله وعنده علم الساعة وضميره قوله وعلم قيله والمعنى وعنده علم الساعة وعلم قيله يارب هذا على حرف كسر اللام فاما من نصبها فانه مقدم أيضا ومحمول على ان المعنى أى وعنده علم الساعة يعلم قيله يا رب فاما من رفع اللام فقرأ وقيله فتكون مستأنفة على الخبر وجوابها الفاء من قوله فاصفح عنهم أى قوله ان هؤلاء قوم لا يؤمنون فاصفح عنهم وقد تكون الواو فى قوله وقيله للجمع مضمومة الى علم الساعة والمعنى وعنده علم الساعة وعنده قيله يا رب جمع بينهما بعند فهذا مجاز هذه المقارى الثلاث فى العربية ومما حمل على المعنى قوله عز وجل فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا ثم قال والشمس والقمر حسبانا فلو لم يحمل على المعنى لكانت والشمس والقمر خفضا اتباعا للفظ قوله فالق وجاعل ولكن معناه وجعل الشمس والقمر حسبانا وهى على قراءة من قرأ وجعل الليل سكنا متبعة لجعل ظاهرا وبمعناه قوله تعالى وامسحوا برؤسكم وأرجلكم فى قراءة من نصب اللام محمولا على معنى الغسل من قوله عز وجل فاغسلوا وجوهكم وأرجلكم أيضا ومن قرأ وأرجلكم خفضا حمله على اتباع الاعراب من قوله عز

وجل برؤسكم وأرجلكم فأتبع الاعراب بالاعراب قبله لان مذهبه الغسل لاالمسح واختيارنا نصب اللام فى المقروء على نصب الغسل واتباع الوجه واليدين الا أنه روى عن ابن‌عباس وأنس بن‌مالك نزل القرآن بغسلين ومسحين وسن رسول الله صلى الله عليه وسلم غسل الاقدام فنحن نفعل كما فعل وقوله عز وجل ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى من المقدم والمؤخر فالمعنى فيه ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما وبه ارتفاع الاجل ولولا ذلك لكان نصبا كاللزام فأخر لتحسين اللفظ وبمعناه قوله عز وجل يسألونك كأنك حفى عنها المعنى يسألونك عنها كأنك حفى بها أى ضنين بعلمها ومثله قوله تعالى أو ننسها نأت بخير منها أومثلها أى نأت منها بخير فقدم بخير وأخر منها فاشكل ومن المؤخر بعد توسط الكلام قوله عز وجل لتركبن طبقا عن طبق فى قراءة من وحد الفعل هو متصل بقوله عز وجل يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا لتركبن طبقا عن طبق أى حالا بعد حال فى البرزخ فأخر الاحوال للقرار فى الدار وكذلك هو فى قراءة من جمع فقال لتركبن أيها الناس فيكون الانسان فى معنى الناس كما ذكرناه آنفا ويكون الجمع عطفا على المعنى وانما وحد للجنس فكانه قال يا أيها الناس لتركبن طبقا عن طبق فاخر هذا الخبر لما توسطه من الكلام المتصل بالقصة ومعناه التقديم ومثل هذا قوله عز وجل ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان وقوله الا قليلا هو متصل بقوله لعلمه الذين يستنبطونه منهم الاقليلا وآخر الكلام لاتبعتم الشيطان وقد قيل ان قوله الا قليلا مستثنى من الاول فى قوله واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به الا قليلا منهم وفى هذا بعد والاول أحب الى وعلى هذا المعنى قرأ ابن عباس فى رواية عنه لايحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم جعله متصلا بقوله تعالى ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم الا من ظلم وصار آخر الكلام لا يحب الله الجهر بالسوء من القول فاصلا ومثل هذا قوله تعالى والذين كفروا بعضهم أولياء بعض الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض انما هو من صلة قوله وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وكذلك قوله فى أول السورة لهم مغفرة ورزق كريم كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ليس هذا من صلة الكلام انما هو مقدم ومتصل فى المعنى بقوله قل الانفال لله والرسول كما أخرجك ربك من بيتك بالحق أى فصارت أنفال الغنائم لك اذ أنت راض باخراجك وهم كارهون فاعترض بينهما الامر بالتقوى والاصلاح والوصف بحقيقة الايمان والصلاح فاشكل فهمه وعلى هذا قوله عز وجل حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك انما هو موصول بقوله تعالى قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك لانها نزلت فى قولهم فقد استغفر ابراهيم لابيه وهو مشرك عند

قوله لاستغفر لك ربى فقالوا فهلا نستغفر لآبائنا المشركين فنزلت هذه الآية ليستثنى القدرة فى ابراهيم فى هذا ثم نزلت الآية الاخرى معذرة له أوعده اياه الى أن علم موته على الكفر فقال وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه الآية وكذلك قوله عز وجل ورضيت لكم الاسلام دينا فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لاثم وهذا متصل بقوله حرمت عليكم الميتة والدم الى آخر المحرمات ثم قال فمن اضطر فى مخمصة يعنى مجاعة ومثل ما ذكرناه من علم القرآن كثير وانما نبهنا بيسير على كثير ودللنا بنكت على جم غفير ليستدل بما ذكرناه على نحوه ويتطرق به الى مثله وهذا كله على ضروب كلام العرب، ومعانى استعمالهم ووجوه استحسانهم انه فى كلامهم المطول للبيان والمختصر للحفظ والمقدم والمؤخر للتحسين وكله فصيح بليغ لان وصف البلاغة عندهم رد الكثير المنثور الى القليل المجمل وبسط القليل المجمل الى المبثوث المفسر فالمقصر من الكلام عندهم مع الحاجة الى المعانى المتفرقه عجز والمطول منهم مع الاكتفاء بالمعنى الجامع منه عى فلما خاطبهم بكلامهم أفهمهم بعقولهم ومستعملاتهم ليحسن ذلك عندهم فيكون حجة عليهم من حيث يعقلون لانه أمرهم بما يعلمون وما يستحسنون حكمة منه ولطفا فذلك أيضا على هذه المعانى يفهم الخصوص من مكانهم ومشهدهم على علو مقامهم فى مكان ما أظهر لهم من العلم به ونصيب ماقسم لهم من العقل عنه فهم متفاوتون فى الاشهاد والفهوم حسب تفاوتهم فى الانصبة من العقول والعلوم اذ القرآن عموم وخصوص ومحكم ومتشابه وظاهر وباطن فعمومه لعموم الخلق وخصوصه لخصوصهم وظاهره لاهل الظاهر وباطنه لاهل الباطن والله واسع عليم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه فاذا صفا القلب بنور اليقين وأيد العقل بالتوفيق والتمكين وتجرد الهم من التعلق بالخلق وتأله السر بالعكوف على الخالق وخلت النفس من الهوى سرت الروح فجالت فى الملكوت الاعلى كشف القلب بنور اليقين الثاقب ملكوت العرش عن معانى صفات موصوف وأحكام خلاق مألوف وباطن أسماء معروف وغرائب علم رحيم رؤف فشهد عن الكشف أوصاف ما عرف فقام حينئذ بشهادة ما عرف فكان ممن قال سبحانه يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به فحق التلاوة للمؤمنين لانه اذا أعطاه حقيقة من الايمان أعطاه مثلها من معناه ومعدنها حقيقة من مشاهدة فكانت تلاوته عن مشاهدة وكان مزيده عن معنى تلاوته وكان ذلك على معيار حقيقة من ايمانه كما قال واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا أولئك هم المؤمنون حقا فيكون العبد بوصف من نعت بالحضور والانذار وخص بالمزيد والاستبشار فى قوله عز وجل فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين وفى قوله عز وجل فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون ويكون من نعت من مدحه بالعلم وأثنى عليه بالرجاء ووصفه بالخوف فى قوله تعالى يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل

هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقال عز وجل يدعون ربهم خوفا وطمعا فكان هذا من أهل الله وخاصته ومن محبيه وخالصته كما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل القرآن أهل الله وخاصته من خلقه وقال ابن مسعود لا على أحدكم أن يسأل عن نفسه الا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله وان لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله وهذا كما قال لانك اذا أحببت متكلما أحببت كلامه واذا كرهته كرهت مقاله وقال أبو محمد سهل من علامة الايمان حب الله عز وجل ومن علامة حب الله حب القرآن ومن علامة حب القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم اتباعه وعلامة اتباعه الزهد فى الدنيا وحدثونا عن بعض المريدين قال كنت فى جدة ارادتى قد لهجت بتلاوة القرآن ثم رهقتنى فترة فبقيت أياما لا أقرأ فهتف بى هاتف من قبل الله عز وجل ان كنت تحبنى فلم جفوت كتابى أما ترى ما فيه من لطيف عتابى وقال بعض العارفين لا يكون المريد مريدا حتى يجد فى القرآن كل ما يريد و يعرف منه النقصان والمزيد و يستغنى بالمولى عن العبيد وأقل ما قيل فى العلوم التى يحويها القرآن من ظواهر المعانى المجموعة فيه أربعة وعشرون الف علم وثمانمائة علم اذ لكل آية علوم أربعة ظاهر وباطن وحد ومطلع وقد يقال انه يحوى سبعة وسبعين الف علم ومائتين من علوم اذ لكل كلمة علم وكل علم عن وصف فكل كلمة تقتضى صفة وكل صفة موجبة أفعالا حسنة وغيرها على معانيها فسبحان الفتاح العليم

الفصل الثامن عشر

فيه كتاب ذكر الوصف المكروه من نعت الغافلين

فاذا خالف التالى هذا الوصف الذى شرحناه أو كان على ضد ذلك من السهو والغفلة والعمى والحيرة محدثا لنفسه مصغيا الى هواه ووسوسة عدوه متوهما للظنون عاكفا على الامانى حقت عليه أن يكون بمعانى ما قال الله عز وجل ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى يعنى الا تلاوة القرآن لا غير وان هم الا يظنون فوصفهم بالظن وهو ضد اليقين كما أخبر عن الظانين فى قولهم ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين و بمعنى ما قال وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون فالقرآن من أجل آيات الارضين والسموات الدالة على فاطرها ومنزله وكان بوصف من يهدده بعلمه فيه عند استماعه لكلامه العزيز متهاونا به مناجيا لغيره ان يقول تعالى نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى و بمثل من يسمع وقلبه مشغول عن المسموع بما يضره عما ينفعه حتى اذا خرج عن الكلام سأل من حضر بقلبه ماذا فهم من الخطاب الذى كان هو عنه بغفلته قد غاب وقد كان حاضرا

بحسمه حجة عليه فمن ذلك قوله عز وجل ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا قال الله تعالى أولئك الذين طبع الله على قلوبهم أى عن فقه الخطاب فلم تسمعه القلوب ولم تعه واتبعوا أهواءهم يعنى أباطيلهم وظنونهم الكاذبة ويقال ان العبد اذا تلا القرآن واستقام نظر الله اليه برحمته فاذا قرأ القرآن وخلط ناداه الله عز وجل مالك ولكلامى وأنت معرض عنى دع عنك كلامى ان لم تتب الى وروينا فى الاسرائيليات أوحى الله عز وجل الى نبيه موسى وداود عليهما السلام مر عصاة بنى اسرائيل أن لا يذكرونى فانى آليت على نفسى أن أذكر من ذكرنى وانى أذكرهم بلعنة وكان بوصف من أخبر عنه اذ يقول تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا الآية وهذا وصفهم الظن الكاذب والرجاء المختلف اللذان لم يفترقا الى خوف واشفاق عصوا خالقهم عاجلا وتمنوا عليه المغفرة آجلا جهلا منهم بحكمته واعراضا عن أحكامه قال الله عز وجل ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه ثم أخبر عن علمهم بذلك علم قول وخبر لا علم يقين ومعاينة قال سبحانه ودرسوا ما فيه أى قرءوا هذا وعلموه ولم يعملوا به فلم ينتفعوا بشىء منه فكان هذا توبيخا لهم وتقريعا كقوله تعالى قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين وفيها وجه غريب ودرسوا ما فيه أى محوه بترك العمل به والفهم له من قولك درست الريح الآثار اذا محتها وخط دارس وربع دارس اذا محى وعفى أثره وهذا المعنى مواطىء لقوله تعالى نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلوا الشياطين أى ما تتبع وتهوى ومواطىء لقوله تعالى فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئسما يشترون فسمى ترك العمل منهم به فى كل حالة طرحا له والقاءو نفيا له وبيعا له وبالدنيا اشتراء وكل آية فى التهديد والوعيد فللخائفين منها وعظ وتخويف وللغافلين عنها وصف وتعريف عليه من علمه كقوله تعالى فى ذكر النار ذلك يخوف الله به عباده ياعبادى فاتقون وقال فى خبرها أعدت للكافرين وقال بعض السلف ان العبد ليفتتح سورة فتصلى عليه الملائكة حتى يفرغ منها وان العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها فقيل وكيف ذلك قال اذا أحل حلالها وحرم حرامها صلت عليه والا لعنته وقال بعض العلماء ان العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم يقول ألا لعنة على الظالمين وهو ظالم ألا لعنة على الكاذبين وهو منهم وقال سفيان فى قوله تعالى سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق قال أصرف عنهم فهم القرآن وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا عظمت أمتى الدنيا والدرهم نزع منها هيبة الاسلام واذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حرموا بركة الوحى قال الفضيل حرموا فهم القرآن وفى الاخبار من ذم قراءة البطالين أكثر من أن تذكر فمنها ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أكثر منافقى أمتى قراؤها

وكان الحسن يقول انكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جملا فانتم تركبونه فتقطعون به مراحله وان من كان قبلكم رأوه رسائل أتتهم من ربهم فكانوا يتدبرنها بالليل وينفذونها بالنهار وكان ابن مسعود من قبله يقول أنزل عليهم القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا ان أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته الى خاتمته ما يسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به وفى حديث ابن عمر وحديث جندب لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يؤتى الايمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فنتعلم حلالها وحرامها وأمرها وزجرها وما ينبغى ان يقف عليه منها كما تعلمون أنتم القرآن ثم بعد لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الايمان فيقرأ ما بين فاتحته الى خاتمته لا يدرى ما أمره ولا زجره ولا ما ينبغى ان يقف عنده منه فينثره نثر الدقل وهذا كما قال لان المراد والمقصود بالقرآن الائتمار لاوامره والانتهاء عن زواجره اذ حفظ حدوده مفترض ومسؤل عنه العبد ومعاقب عليه وليس حفظ حروفه فريضة ولا عقاب على العبد اذا لم يحفظ ما وسعه منه قال الله عز وجل انا سنلقى عليك قولا ثقيلا أى العمل به ثقيل والا فقد يسره للذكر ومن ذلك الخبر المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرؤا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم فاذا اختلفتم فلستم تقرؤنه وفى بعضها فاذا اختلفتم فقوموا عنه وحدثنى شيخ فاضل قرأت عليه القرآن قال قرأت القرآن على شيخ لى فلما ختمت رجعت اليه لاقرأ فانتهرنى وقال جعلت القرآن على عملا اذهب فاقرأ على الله عز وجل فانظر ماذا يسمعك منه ويفهمك عنه وقد كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يحفظ الا الجزء والجزأين والسور المعدودة وسورتين وكان من يحفظ الحزب منه وهو السبع أو البقرة والانعام علما فيهم وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألف صحابى لم يقرؤا القرآن غير نظر فلم يحفظ القرآن كله منهم الا ستة اختلف منهم فى اثنين وقال بعضهم ولم يكن جمعه من الخلفاء الاربعة أحد وختم ابن عباس على أبى بن كعب وقرأ عبد الرحمن بن عوف على ابن عباس وقرأ عثمان بن عفان على زيد بن ثابت وقرأ أهل الصفة على أبى هريرة وكلهم كان متبعا لاوامره مجتنبا لزواجره عالما به فقيها فيه وقال يوسف ابن اسباط وقد قيل له اذا ختمت القرآن باى شىء تدعو فقال بأى شىء أدعو استغفر الله عز وجل مائة مرة من تلاوتى وكان يقول انى لأهم بقراءة القرآن فاذا ذكرت مافيه خشيت المقت فاعدل الى التسبيح والاستغفار واعلم ان للعبد فى قراءة القرآن بحسب ماله من تعظيمه والفهم له والمشاهدة منه والمعاملة به لأنه من أكبر شعائر الله فى خلقه وأعظم آياته فى أرضه الدالات عليه وأسبغ نعمه الكاملة علينا وللعبد من التعظيم له بقدر تقواه وله من فهم الخطاب وتعظيم الكلام على نحو ما أعطى من معرفة المتكلم وهيبته واجلاله فاذا عظم المتكلم فى قلبه وكبر فى فهمه أنعم تدبر كلامه وأطال الفكر فى خطابه وأكثر ترداده وتكريره

على قلبه وأسرع بذكره عند النازلة به والحاجة اليه فاتقى وحذر ولذلك قال سبحانه واذكروا مافيه لعلكم تتقون وقال كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ولعلهم يتذكرون لأن كل كلام موقوف على قائله يعظم بتعظيمه ويقع فى القلب بعلو مكانه أو يهون بسهولة شأنه قال الله عز وجل ليس كمثله شيء فى العظمة والسلطان وليس ككلامه كلام فى الاحكام والبيان وقرأت فى سورة الحنين من التوراة ياعبدى أما تستحي منى يأتيك كتاب من بعض اخوانك وأنت فى الطريق تمشى فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرؤه وتتدبره حرفا حرفا حتى لايفوتك شيء منه وهذا كتابى أنزلته اليك أنظركم وصلت لك فيه من القول وكم كررت عليك فيه فتأملت طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه أفكنت أهون عليك من بعض اخوانك أى عبدى يقعد اليك بعض اخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتصغى الى حديثه بكل قلبك فان تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت اليه أن كف وها أناذا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عنى فجعلتنى أهون عندك من بعض اخوانك أو كما قال وانما خف القيام على أهل الليل لفهم الخطاب وثقل على أهل النوم لانفصام القلوب عن الفقه وشدة الحجاب كما قال تعالى ثقلت فى السموات والأرض أى خفى علمها يعنى الساعة فثقلت عليهم فسمى ما خفى علمه ثقيلا والله أعلم

الفصل التاسع عشر

فيه كتاب ذكر الجهر بالقرآن وما فى ذلك من النيات وتفصيل حكم الجهر والاخفات

روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية وفى لفظ آخر الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر به كالمسر بالصدقة وفى الخبر العام يفضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفا وفى مثله من العموم خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى وفى الخبر لا يجهر بعضكم على بعض فى القراءة بين المغرب والعشاء وسمع سعيد ابن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهر بالقرآن فى صلاته وكان حسن الصوت فقال لغلامه برد اذهب الى هذا المصلى فمره أن يخفض من صوته فقال الغلام ان المسجد ليس لنا وان للرجل فيه نصيبا فرفع سعيد صوته فقال ياأيها المصلى ان كنت تريد الله عز وجل بصلاتك فاخفض صوتك وان كنت تريد الناس فانهم لن يغنوا عنك من الله شيئا قال فسكت عمر وخفف ركعته فلما سلم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة وعلى ذلك فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع جماعة من أصحابه يجهرون بالقراءة فى صلاة الليل فيصوب ذلك لهم ويسمع

اليهم وقد أمر بالجهر فيما روى عنه اذا قام أحدكم من الليل يصلى فليجهر بقراءته فان الملائكة وعمار الدار يستمعون الى قراءته و يصلون بصلاته ومر رسول الله صلى الله عليه و سلم على ثلاثة من أصحابه فى الليل مختلفى الأحوال منهم من كان يخافت وهو أبو بكر رضى الله عنه فسأله عن ذلك فقال ان الذى أناجيه هو يسمعنى ومنهم من كان يجهر وهو عمر رضى الله عنه فسأله عن ذلك فقال أوقظ الوسنان وازجر الشيطان ومنهم من كان يقرأ آيا من هذه السورة ومن هذه السورة وهو بلال فسأله عن ذلك فقال اخلط الطيب بالطيب فقال كلكم قد أحسن وأصاب فنقول والله أعلم ان المخافتة بالقراءة أفضل اذا لم تكن للعبد نية فى الجهر أو كان ذاهبا عن الهمة والمعامله بذلك لأنه أقرب الى السلامة وأبعد من دخول الآفة وان الجهر أفضل لمن كان له نية فى الجهر ومعاملته مولاه به لأنه قد قام بسنة قراءة الليل ولأن المخافت نفعه لنفسه والجاهر نفعه له ولغيره وخير الناس من ينفع الناس والنفع بكلام الله عز وجل أفضل المنافع ولأنه قد ادخل عملا ثانيا يرجو به قربة ثانية على عمله الاول فكان فى ذلك أفضل وليجعل العبد مفتاح درسه أن يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون وليقرأ قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد قبلها وليقل عند فراغه من كل سورة صدق الله و بلغ رسول الله اللهم انفعنا به و بارك لنا فيه الحمد لله رب العالمين أستغفر الله الحى القيوم ومن حفظ جوارحه وقلبه عن المنهى فقد عمل بالقرآن الى خاتمته لأنه مقسط على جملة العبد وجوارحه جملة وفى الجهر بالقراءة سبع نيات منها الترتيل الذى أمر به ومنها تحسين الصوت بالقرآن الذى ندب اليه فى قوله صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن باصواتكم وفى قوله ليس منا من لم يتغن بالقرآن أى يحسن به صوته وهو أحد الوجهين وأحبهما الى أهل العربية والوجه الآخر أى من لم يستغن به من الغنية والا كتفاء وقد يقال من هذا الوجه يتغانى به ومنها أن يسمع أذنيه ويوقظ قلبه ليتدبر الكلام ويتفهم المعانى ولايكون ذلك كله الا فى الجهر ومنها أن يطرد الشيطان والنوم عنه برفع صوته ومنها أن يرجو بجهره يقظة نائم فيذكر الله عز وجل فيكون هو سبب احيائه ومنها أن يراه بطال غافل فينشط للقيام ويشتاق الى الخدمة فيكون معاونا له على البر والتقوى ومنها أن يكثر بجهره تلاوته و يدوم قيامه على حسب عادته للجهر ففى ذلك كثرة عمله فاذا كان العبد معتقدا لهذه النيات طالبا لها ومتقربا الى الله سبحانه وتعالى عالما بنفسه مصححا لقصده ناظرا الى مولاه الذى استعمله فيما يرضاه فجهره أفضل لأن له فيه أعمالا وانما يفضل العمل بكثرة النيات فيه وارتفع العلماء وفضلت أعمالهم بحسن معرفتهم بنيات العمل واعتقادهم لها فقد يكون فى العمل الواحد عشر نيات يعلم ذلك العلماء فيعملون بها فيعطون عشرة أجور وأفضل الناس فى العمل أكثرهم نية فيه وأحسنهم

قصدا وأدبا وفى بعض التفاسير فى قوله عز وجل وأما بنعمة ربك فحدث قال قراءة القرآن وفى الخبر من استمع الى آية من كتاب الله عز وجل كانت له نورا يوم القيامة وفى خبر آخر كتب له عشر حسنات والتالى شريك المستمع فى الأجر لأنه أكسبه ذلك وقال بعضهم للقارىء أجر وللمستمع أجران وقال آخر للمستمع تسعة اجور وكلاهما صحيح لأن كل واحد منهما على قدر انصاته ونيته فاذا كان التالى مكسبا لغيره هذه الاجور فان له بكل أجر أكسبه اياه أجرا يكتسبه لقوله صلى الله عليه وسلم الدال على الخير كفاعله سيما اذا كان عالما بالقرآن فقيها فيه فيكون مقراه ووقوفه حجة وعلما لسامعه وفى الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينتظر عائشة رضى الله عنها فابطأت عليه فقال ماحبسك فقالت يارسول الله كنت استمع قراءة رجل ما سمعت صوتا أحسن منه فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع اليه طويلا ثم رجع فقال هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله واستمع أيضا ذات ليلة الى قراءة عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهم فوقفوا طويلا ثم قال من أراد أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود اقرأ فقال يارسول الله اقرأ وعليك أنزل فقال انى أحب أن أسمعه من غيرى فكان يقرأ وعينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيضان وذلك عند قوله فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا واستمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قراءة أبى موسى فقال لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير داود فبلغ ذلك أبا موسى فقال يا رسول الله لو علمت أنك تسمع الى لحبرت لك تحبيرا وكان ابن مسعود يأمر علقمة بن قيس أن يقرأ بين يديه فيقول له رتل فداك أبى وأمى وكان حسن الصوت بالقرآن وفى الخبر كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن وقد كان عمر يقول لأبى مسعود رضى الله عنهما ذكرنا ربنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة ان يتوسط فيقال يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة فيقول أولسنا فى صلاة فكأنه يتأول قوله عز وجل ولذكر الله أكبر وقال بعض عباد البصريين لما وضع بعض البغداديين كتابا فى معانى الرياء ودقائق آفات النفوس قال لقد كنت أمشى بالليل أسمع أصوات المتهجدين كانها أصوات الميازيب فكان فى ذلك أنس وحث على الصلاة والتلاوة حتى جاء البغداديون بدقائق الرياء وخفايا الآفات فسكت المتهجدون فلم يزل ذلك ينقص حتى ذهب وانقطع وترك الى اليوم فان لم يكن للتالى نية فى شىء مما ذكرناه وكان ساهيا غافلا عن ذلك وكان واقفا مع شىء من الآفات أو لمح فى قلبه شخص أوساكن ذكر هوى فقد اعتل فعليه أن يحتمى الجهر فان جهر على ثقل قلبه فسد عمله لاستكنان الداء فيه وكان الى النقصان أقرب ومن

الاخلاص أبعد فعليه حينئذ بالاخلاص فهو دواؤه يعالج به حاله فانه أصلح لقلبه وأسلم لعمله وأحد فى عاقبته وقد يكون العبد واجد الحلاوة الهوى فى الصلاة والتلاوة وهو يظن أن ذلك حلاوة الاخلاص وهذا من دقيق شأن الشهوة الخفية ولطيف الانتقاص وقد يلتبس ذلك على الضعفاء ولا يفطن له الا العلماء وانما يجد حلاوة الاخلاص الزاهدون فى الدنيا وفى مدح الناس لهم به ويتلذذون بنصح المعاملة وصدق الخدمة المحبون لله عز وجل الخائفون منه واعتبار فقد ذلك باحد شيئين سقوط النفس باستواء المدح والذم وهذا حال فى مقام الزهد أو الخلو من القلب بشهادة اليقين وهذا فى مقام المعرفة وفى هذين المقامين يستوى السر والعلانية وقد تكون العلانية أفضل لأئمة التقوى والعدل وحدثت عن رجل من أهل الخير قال كنت أقرأ فى السحر فى غرفة لى شارعة سورة طه فلما ختمتها غفوت بعدها غفوة فرأيت شخصا نزل من السماء بيده صحيفة بيضاء فنشرها بين يدى فاذا فيها سورة طه واذا تحت كل كلمة عشر حسنات مثبتة الا كلمة واحدة فانى رأيت مكانها محوا ولم أر تحتها شيئا فغمنى ذلك فقلت قد والله قرأت هذه الكلمة ولم أر لها ثوابا ولا أراها أثبتت فقال الشخص صدقت قد قرأتها وكتبناها لك الا أنا سمعنا مناديا ينادى امحوها واسقطوا ثوابها فمحوناها فبكيت فى منامى وقلت لم فعلتم ذلك قالوا مر رجل فرفعت صوتك بها لأجله فمحوناها وقد روينا أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يجهر بقراءته فناداه يافلان أسمع الله ولا تسمعنى واعلم أن السمعة مقرونة بالرياء ومحكوم لها بحكمه من فساد العمل ونقصان العامل وهى مأخوذة من السمع كان العبد يسمع بعمله غير الله عز وجل ويحب أن يسمع به مخلوقا ليمدحه به لغلبة هواه وضعف نفسه فيكون قد أشرك فى عمله غير الله عز وجل فيبطل عمله لجهله بالتوحيد اذ لو علم يقينا ان لا نافع الا الله عز وجل ولا ضار ولا معطى ولا مانع الا اياه خلص له توحيد من الشرك فخلص له عمله من الرياء وكذلك الرياء مأخوذ من رأى العين فالسمعة هى بمعناه وفى الخبر لايقبل الله عز وجل من مسمع ولا مراء وفى خبر آخر من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به وصغره وحقره فاما من كانت له نية صالحة فى أن يسمع أخاه كلام الله ليتعظ به ويتدبره أو ينتفع باستماعه ويتذكر به فليس داخلا فى السمعة لوجود حسن النية وصحة القصد ولفقد اقتران الآفة لارادة طمع عاجل من مدح أو غرض دنيا كما قال أبو موسى لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا فلم ينكر عليه لأنه ذو نية فى الخير وحسن قصد به وقال للآخر الذى رفع صوته بالآية أسمع الله عز وجل ولا تسمعنى فانكر عليه لما شهد السمعة فيه وقد روينا أنه صلى الله عليه وسلم مر برجل يظهر التأوه والوجل فقال من كان معه يارسول الله أتراه مرائيا فقال لا بل أواه منيب واعلم أن الأكل والنوم على السلامة والصدق أفضل

فى الحال وأرفع فى المقام وأحمد فى المآل من القيام والصيام على يسير من التصنع والتزين للخلق ومعرفة هذا والقيام به هو موضع علم العلماء بالله عز وجل وحدثنا عن الحسن البصرى قال تفقدا الحلاوة فى ثلاث فان وجدتها فابشر وامض لقصدك وان لم تجدها فاعلم ان بابك مغلق عند تلاوة القرآن وعند الذكر وفى السجود وزاد غيره وعند الصدقة و بالاسحار وقراءة القرآن فى المصحف أفضل من قراءته عن ظهر قلب يقال الختمة بسبع ختم لأن النظر فى المصحف عبادة و كان كثير من الصحابة والتابعين يقرؤن فى المصحف و يستحبون أنلا يخرجوا يوما الا نظروا فيه وخرق عثمان مصحفين من كثرة درسه فيهما

الفصل العشرون

فى ذكر احياء الليالى المرجو فيها الفضل المستحب احياؤها وذكر مواصلة الأوراد فى الأيام الفاضلة

و يستحب احياء خمس عشرة ليلة فى السنة خمس منها فى شهر رمضان وهى وتر ليالى العشر الأخير منه وليلة سبع عشرة من رمضان هى صبيحة يوم الفرقان يوم التقى الجمعان فيه كانت وقعة بدر و كان ابن الزبير يذهب الى انها ليلة القدر وأما التسعة الأخر فأول ليلة من شهر المحرم وليلة عاشوراء وأول ليلة من شهر رجب وليلة النصف منه وليلة سبع وعشرين منه وفيها أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وليلة عرفة وليلة العيدين وليلة النصف من شعبان وقد كانوا يصلون فى هذه الليلة مائة ركعة بألف مرة قل هو الله أحد عشرا فى كل ركعة و يسمون هذه الصلاة صلاة الخير ويتعرفون بركتها و يجتمعون فيها وربما صلوها جماعة وروينا عن الحسن قال حدثنى ثلاثون من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ان من صلى هذه الصلاة فى هذه الليلة نظر الله عز وجل اليه سبعين نظرة وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة وقد قيل ان هذه الليلة هى التى قال الله عز وجل فيها فيها يفرق كل أمر حكيم وأنه ينسخ فيها أمر السنة وتدبير الأحكام الى مثلها من قابل والله أعلم والصحيح من ذلك عندى أنه فى ليلة القدر وبذلك سميت لأن التنزيل يشهد له اذ فى أول الآية انا نزلناه فى ليلة مباركة ثم وصفها فقال فيها يفرق كل أمر حكيم فالقرآن انما أنزل فى ليلة القدر فكانت هذه الآية بهذا الوصف فى هذه الليلة مواطئة لقوله عز وجل انا أنزلناه فى ليلة القدر

ذكر مواصلة الأوراد فى الأيام الفاضلة

وهى تسعة عشر يوما تستحب فيها مواصلة الأوراد والدأب فى العبادة يوم عاشوراء و يوم عرفة و يوم سبعة وعشرين من رجب و يوم سبعة عشر من شهر رمضان ويوم النصف من شعبان و يوم الجمعة و يوم العيد

والأيام المعلومات وهى عشر ذى الحجة والأيام المعدودات وهى أيام التشريق وفى الخبر صوم يوم عرفة يكفر سنتين سنة ماضية وسنة مستقبلة وصوم يوم عاشوراء كفارة سنة وقد روينا عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سلم يوم الجمعه سلمت الأيام واذا سلم شهر رمضان سلمت السنة وقال بعض علمائنا من أخذ مهناه فى هذه الأيام الخمسة فى الدنيا لم ينل مهناه فى الآخرة وقال هذه الأيام يرجى فيها الفضل من الله عز وجل والمزيد فاذا اشتغلت فيها بهواك وعاجل الدنيا فمتى ترجو الفضل والمزيد يعنى بالأيام الخمسة العيدين ويوم الجمعة ويوم عرفة ويوم عاشوراء ومن فواضل الأيام بعد هذه يوم الاثنين ويوم الخميس يومان ترفع فيهما الأعمال الى الله عز وجل ومن الفاضل الشهور الاربعة الحرم وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب خصهن الله عز وجل بالنهى عن الظلم فيهن لعظم حرمتهن فكذلك الأعمال لها فيهن فضل على غيرها وأفضلها ذو الحجة لوقوع الحج فيه ولما خص به من الأيام المعلومات والايام المعدودات ثم ذو القعدة لجمعه الوصفين معا وهو من الأشهر الحرم ومن أشهر الحج فاما المحرم ورجب فليسا من أشهر الحج وأما شوال فليس من أشهر الحرم ولكنه من أشهر الحج وأفضل الأيام فى الشهر العشران العشر الآخر والعشر الأول من ذى الحجة وبعدهما عشر المحرم من أوله فالأعمال فى هذه الأيام لها فضل ومزيد على سائر الشهور وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من صام ثلاثة أيام من شهر حرام بعده الله من النار سبعمائة عام يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت وفى خبر آخر صوم يوم من شهر حرام يعدل صوم ثلاثين يوما من غيره وصوم يوم من شهر رمضان يعدل صوم ثلاثين يوما من شهر حرام ثم ان أفضل الأوقات فى جملة الايام أوقات الصلوات الخمس وروينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا دخلت العشر الاواخر من شهر رمضان طوى الفراش وشد المئزر وفى حديث آخر اذا دخلت العشر الاواخر دأب وأدأب أهله يعنى أدام وأداموا التعب والنصب فى العبادة وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أيام العمل فيهن أفضل وأحب الى الله عز وجل من أيام عشر ذى الحجة ان صوم يوم منه يعدل صيام سنة وقيام ليلة منه يعدل قيام ليلة القدر قيل ولا الجهاد فى سبيل الله قال ولا الجهاد فى سبيل الله الا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع منهما بشىء وفى لفظ آخر الامن عقر جواده وأهريق دمه واذا أحب الله عز وجل عبدا استعمله فى الاوقات الفاضلة بأفضل الاعمال ليثيبه أفضل الثواب واذا مقت عبدا استعمله باسوأ الاعمال فى أفاضل الاوقات ليضاعف له السيآت بانتقاص حرمات الشعائر وانتهاك المحرمات فى الحرمات ويقال من علامات التوفيق ثلاث دخول أعمال البر عليك من غير قصد لها وصرف المعاصى عنك مع الطلب لها وفتح باب اللجا والافتقار الى الله عز وجل فى الشدة

والرخاء ومن علامات الخذلان ثلاث تعسر الخيرات عليك مع الطلب لها وتيسر المعاصى لك مع الرهب منها وغلق باب اللجا والافتقار الى الله عز وجل فى كل حال فنسأل الله تعالى بفضله حسن التوفيق والاختيار ونعوذ به من سوء القضاء والاقدار

الفصل الحادى والعشرون

فيه كتاب الجمعة وذكر هيآتها وآدابها وما يستحب من العمل فيها للمريد يومها وليلتها

صلاة الجمعة واجبة باوصاف وساقطة باوصاف فوجوبها يكون بالاقامة والاستطاعة وحضور وقت الظهر وتكملة عدة أربعين رجلا أحرارا وسقوطها بالسفر ودخول وقت العصر ونقصان العدد ووقوع العذر وهى من اعمال الامراء تصلى خلف كل من أقام بها منهم الا انى أحب اعادتها ظهرا اذا صليت خلف مبتدع فان اجتمع فى بلد كبير جامعان صليت خلف الافضل من امامیهما فان استويا فى الفضل صليت فى القديم من الجامعين فان تساويا صليت فى الاقرب منهما الا ان تكون له نية فى الابعد لاستماع علم أو نشره أو تعلمه فصلاتها فى الجامع الاعظم وحيث يكون المسلمون أكثر أفضل ومن صلى فى أيهما أحب حسبت صلاته قال ابن جريج قلت لعطاء اذا كان فى المصر جامعان أو ثلاثة فى أيها أصلي قال صل حيث جمع المسلمون فانها جمعة وهو يوم عظم الله تعالى به الاسلام وزينه وشرف به المسلمين وفضلهم قال الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع الآية فالبيع والشراء محرم بعد الاذان للجمعة عند طائفة من العلماء لعموم النهى عنه ومنهم من قال يرد البيع لانه فاسد الا انى أحسب ان ذلك يحرم عند الاذان الثانى وهو مع خروج الامام اذا قعد على المنبر لان هذا كان هو الأذان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد ابى بكر وعمر رضى الله عنهما والاذان الاول أحدثه عثمان رضى الله عنه لما كثر الناس وقال الله عز وجل فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله الآية فامر عباده المؤمنين فى يوم الجمعة بالذكر له ونهاهم عن البيع وأمرهم فيه بطلب الفضل منه ووعدهم الخير والفلاح وهما اسمان جامعان لغنيمة الدنيا والآخرة وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل فرض عليكم الجمعة فى يومى هذا فى مقامى هذا وروى عنه صلى الله عليه وسلم من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر طبع الله على قلبه وفى لفظ حديث آخر فقد نبذ الاسلام وراء ظهره واختلف رجل الى ابن عباس فسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة فقال فى النار فلم يزل يتردد اليه شهرا يسأل عنه كل ذلك يقول فى النار وتقصد الجمعة من فرسخين أو ثلاثة واستحب لمن بكر اليها من اهل

القرى فادركها وأدركه الليل فآواه الى أهله اذا رجع أن يشهدها الا انها ساقطة عن خمسة الصبي والمملوك والمرأة والمسافر والمريض فمن شهدها من هؤلاء فصلاها أجزأت عنه وكان مؤديا لفرضه وفى الخبر ان أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصرفوا عنه وهدانا الله عز وجل برحمته له ادخره لهذه الامة جعله عيدا لهم فهم أول الناس به سبقا وأهل الكتابين لهم تبع وفى حديث أنس ابن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أتانى جبريل عليه السلام وفى كفه مرآة بيضاء فقال هذه الجمعة يفرضها عليك ربك لتكون لك عيدا ولامتك من بعدك قلت فما لنا فيها قال لكم فيها خير ساعة من دعا فيها بخير هو له قسم أعطاه الله عز وجل او ليس من قسم ادخر له ما هو أعظم أو يتعوذ من شر هو عليه مكتوب الا أعاذه الله تعالى من أعظم منه وهو سيد الايام عندنا ونحن ندعوه فى الآخرة يوم المزيد قلت ولم قال ان ربك عز وجل اتخذ فى الجنة واديا أفيح من مسك أبيض فاذا كان يوم الجمعة نزل من عليين على كرسيه وذكر الحديث قال فيه ويتجلى لهم حتى ينظروا الى وجهه ذكرناه بتمامه فى مسند الالف وروى عنه صلى الله عليه وسلم خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط الى الارض وفيه تقوم الساعة وهو عند الله يوم المزيد كذلك تسميه الملائكة فى السماء وهو يوم النظر الى الله عز وجل فى الجنة فى أخبار يطول ذكرها وفى الحديث ما من دابة الا وهى قائمة على ساق يوم الجمعة مصيخة أى مصغية تتوقع مشفقة من قيام الساعة الا الشياطين وشقى بنى آدم ويقال ان الطير والهوام يلقى بعضها بعضا فى يوم الجمعة فتقول سلام سلام يوم صالح وفى الخبر ان لله عز وجل فى كل يوم جمعة ستمائة ألف عتيق من النار وفى حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم اذا سلم يوم الجمعة سلم الايام وقال كعب فى الخبر ان الله عز وجل فضل من كل شيء من خلقه شيأ ففضل من البلدان مكة ومن الشهور رمضان ومن الايام الجمعة وفى الخبر ان جهنم تسعر فى كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس فى كبد السماء فلا تصلوا فى هذه الساعة الا يوم الجمعة فانه صلاة كله وان جهنم لا تسعر فيه فافضل ما يعمله العبد فى يوم الجمعة البكور الى الجامع فى الساعة الاولى فان لم يفعل ففى الساعة الثانية فان لم يفعل ففى الساعة الثالثة لان النبي صلى الله عليه وسلم قال من راح الى الجمعة فى الساعة الاولى فكأنما قرب بدنة ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما أهدى دجاجة ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما أهدى بيضة فاذا خرج الامام طويت الصحف ورفعت الاقلام واجتمعت الملائكة عند المنبر يسمعون الذكر فمن جاء بعد ذلك فكأنما جاء لحق الصلاة وليس من الفضل فى شيء فالساعة الاولى تكون بعد صلاة الصبح والساعة الثانية تكون عند ارتفاع

الشمس والثالثة تكون عند انبساطها وهى الضحى الاعلى اذا رمضت الاقدام بحر الشمس والساعة الرابعة تكون قبل الزوال والساعة الخامسة اذا زالت الشمس أو مع استوائها وليس الساعة الرابعة والخامسة مستحبتين للبكور ولا فضل لمصلى الجمعة بعد الساعة الخامسة لان الامام يخرج فى آخرها فلا يبقى الا فريضة الجمعة ويقال ان الناس يكونون فى قربهم من الله عز وجل عند الزيارة للنظر اليه تعالى على قدر بكورهم الى الجمعة ودخل ابن مسعود يوم الجمعة بكرة فرأى ثلاثة نفر وقد سبقوه بالبكور فوجم لذلك وجعل يقول رابع أربعة يعنى نفسه وما رابع أربعة من الله ببعيد وهذا من اليقين فى هذه المشاهدة للخبر وقد جاء فى الأثر ان الملائكة يفتقدون العبد اذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضا عنه ما فعل فلان وما الذى أخره عن وقته فيقولون اللهم ان كان أخره فقر فاغنه وان كان أخره مرض فاشفه وان كان أخره شغل عنه ففرغه لعبادتك وان كان أخره لهو فاقبل بقلبه على طاعتك ولا تقعد الى القصاص يوم الجمعة فقد كره ذلك ولا فى حلقة قبل الصلاة وروينا فى خبر مقطوع عن النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركضوا الابل فى طلبهن الاذان والصف الاول والغدو الى الجمعة قال احمد بن حنبل وقد ذكر هذا الحديث أفضلهن الغدو الى الجمعة وقد يروى فى خبر آخر اذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على ابواب المسجد بايديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب يكتبون الاول فالاول على مراتبهم وروينا فى خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة الا ان يكون عالما بالله تعالى يذكر بايام الله عز وجل ويفقه فى دين الله عز وجل يتكلم فى الجامع بالغداة فيجلس اليه فيكون جامعا بين البكور الى الجمعة والاستماع الى العلم ولا يدع الغسل لها يوم الجمعة الا من ضرورة فانه عند بعض العلماء فرض والاغتسال فى البيت أفضل وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غسل الجمعة واجب على كل محتلم والمشهور من حديث نافع عن ابن عمر من أتى الجمعة فليغتسل وكان أهل المدينة يتسابون بينهم فيقولون لأنت شر من لا يغتسل يوم الجمعة وقد قال عمر لعثمان رضى عنهما لما دخل وهو يخطب أهذه الساعة فقال ما زدت بعد أن سمعت الاذان ان توضأت وخرجت فقال عمر والوضوء أيضا وقد علمت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل ولكن فى ترك الغسل رخصة لوضوء عثمان مع علمه ويسند ذلك الى الخبر المسند من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل وروينا عن الصحابه أمرنا بالغسل يوم الجمعة فى الصيف فلما جاء الشتاء كان من شاء اغتسل ومن لم يشأ ترك الغسل وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل فلذلك قال مالك بن أنس ان النساء اذا حضرن الجمعة اغتسلن لها ومن اغتسل من جنابة أجزأه لغسل الجمعة اذا نوى ولا بد من النية لغسل الجنابة لاجل الجمعة فهو أفضل ويكون الغسل للجمعة

داخلا فيه فاذا أفاض عليه الماء ثانية بعد غسله للجنابة لاجل الجمعة فهوأفضل . دخل بعض الصحابة على ابنه يوم الجمعة وهو يغتسل فقال للجمعة غسلك هذا قال لا بل من الجنابة قال فاعد غسلا ثانيا فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول واجب على كل مسلم أن يغتسل يوم الجمعة ومن اغتسل بعد طلوع الفجر للجمعة أجزأه ولكن أفضل الغسل لها عند الرواح الى الجامع وأحب ان لا يحدث وضوأ بعد الغسل حتى يفرغ من صلاة الجمعة فمن العلماء من كره ذلك ولكن ان بكر الى الجامع فتوضأ هناك من حدث لحقه لامتداد الوقت فانه على غسل الجمعة و يستحب ان يستاك وان يلبس من صالح ثيابه ويجتنب الشهرة من الثياب ومن أفضل ما لبس البياض أو بردين يمانيين ولبس السواد يوم الجمعة ليس من السنة ولا من الفضل ان ينظر الى لابسه وليقلم أظفاره و يأخذ من شاربه فقد روى فضل ذلك من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أمره وقد روينا عن ابن مسعود وغيره من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عز وجل منها داء وادخل شفاء وليتطيب باطيب طيبه مما ظهر ريحه وخفي لونه فذلك طيب الرجال وطيب النساء مما ظهر لونه وخفي ريحه روينا ذلك فى الاثر وتستحب العمامة يوم الجمعة وقد روينا فيها حديثا شاذا عن واثلة بن الاسقع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل وملائكته يصلون على أصحاب العمائم يوم الجمعة فان أكربه الحر فلا بأس أن ينزعها قبل الصلاة وبعدها ولكن يخرج من منزله الى الجامع وهو لابسها ولا يصلى الا معتما لتحصل له فضيلة العمة فان نزعها فليلبسها حينئذ عند صعود الامام المنبر ثم ليصل وهى عليه فان شاء نزعها بعد ذلك وليخرج الى الله عز وجل خاشعا متواضعا ذا سكينة ووقار واخبات وافتقار وليكثر من الدعاء والاستغفار و ينوى فى خروجه زيارة مولاه فى بيته والتقرب اليه باداء فريضته والعكوف فى المسجد الى حيث انقلابه ثم لينو كف جوارحه عن اللهو واللغو ويتق الشغل حين يخدم مولاه وليترك راحته فى ذلك اليوم فى مهناه من عاجل حظ دنياه وليواصل الاوراد فيه فيجعل أوله الى انقضاء صلاة الجمعة للخدمة بالصلاةوأوسطه الى صلاة العصر لاستماع العلم ومجالس الذكر وآخره الى غروب الشمس للتسبيح والاستغفار فكذلك كان المتقدمون يقسمون يوم الجمعة هذه الاقسام الثلاثة وان صامه فحسن يضم اليه يوم الخميس أو يضيف اليه يوم السبت وقد كره افراده بصوم ومن لم يصمه وكان له أهل فالمستحب ان يجامع فيه فقد روى فضل ذلك وكان بعض السلف يفعله وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غسل واغتسل وغدا وبكر ودنا من الامام ولم يلغ كان له بكل خطوة صيام سنة وقيامها وفى خبر آخر ودنا من الامام واستمع كان له ذلك كفارة لما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام وفى لفظ آخر غفر له الى الجمعة الأخرى وقد اشترط فى بعضها ولم يتخط

رقاب الناس فمعنى قوله من غسل بالتشديد أى غسل أهله كناية عن الجماع وبعض الرواة يخففه فيقول غسل واغتسل فيكون معناه غسل رأسه واغتسل جسده وليتق أن يتخطى رقاب الناس فان ذلك مكروه جدا وقد جاء فيه وعيد شديد ان من فعل ذلك جعل جسرا يوم القيامة على جهنم تتخطاه الناس وقال ابن جريج حديثا مرسلا ان النبي صلى الله عليه وسلم بينما هو يخطب يوم الجمعة اذ رأى رجلا يتخطى رقاب الناس حتى تقدم وجلس فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته عارض الرجل حتى لقيه فقال يافلان ما منعك ان تجمع اليوم معنا فقال يا نبي الله قد جمعت فقال أو لم أرك تتخطى رقاب الناس وفى حديث مسند ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له ما منعك ان تصلى معنا الجمعة فقال أولم ترنى قال قد رأيتك تأنيت وآذيت أى تأخرت عن البكور وآذيت بالحضور ولا يقعد الى القصاص فى يوم الجمعة فقد كره ذلك ولا فى حلقة قبل الصلاة فقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن عبد الله بن عمر ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة الا ان يكون عالما بالله عز وجل يذكر بايام الله ويفقه فى الدين يتكلم فى الجامع بالغداه فيجلس اليه فيكون جامعا بين البكور الى الجمعة و بين الاستماع الى العلم وقد روينا عن بعض علماء السلف قال ان لله تعالى فضلا من الرزق سوى أرزاق العباد لا يعطى من ذلك الفضل الا من سأله عشية الخميس ويوم الجمعة وفى الخبر المشهور ان فى الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله عز وجل فيها شيأ الا أعطاه وفى لفظ آخر لا يصادفها عبد يصلى واختلف فى وقت هذه الساعة فقيل أنها عند طلوع الشمس وقيل اذا قام الناس الى الصلاة وقيل عند الزوال ويقال مع الاذان وقيل هى اذا صعد الامام المنبر وأخذ فى الذكر وقيل بعد العصر من آخر أوقاتها وقيل عند غروب الشمس اذا تدلى حاجبها الاسفل كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تراعى ذلك الوقت وتأمر خادمها أن ينظر الى الشمس فيؤذنها بسقوطها فتأخذ فى الدعاء والاستغفار فى ذلك الوقت الى أن تغرب الشمس وتخبر أن تلك الساعة هى المنتظرة وتؤثره عن أبيها صلى الله عليه وسلم فهذا جمل ماقيل فى هذه الساعة بروايات جاءت فى ذلك متفرقة حذفنا ذكرها للاختصار فليتوخ هذه الاوقات وليتعهد الدعاء فيها والصلاة فيما صلح منها وقد قال بعض العلماء ان هذه الساعة مبهمة فى جميع اليوم لايعلمها الا الله عز وجل كانها بمنزلة ليلة القدر مبهمة فى جميع شهر رمضان وكانها مثل الصلاة الوسطى فى جملة الصلوات الخمس وقد قيل أنها تنتقل فى ساعات يوم الجمعة كتنقل ليلة القدر عند بعضهم فى ليالى الشهر ذلك ليكون العبد طالبا الى الله عز وجل وراغبا متضرعا مفتقرا فى جميع ذلك اليوم فمن واصل الاوراد فيه وعمر بالذكر كل ساعة صادفها باذن الله عز وجل فان لم يواصل الساعة فى يوم واحد فليواصلها فى جمع شتى وقتا على وقت

على ترتيب أوقات يوم فانها تقع فى جميع الاوقات لا محالة وليكثر الدعاء والتضرع فى وقتين خاصة عند صعود الامام المنبر الى ان تقام الصلاة ويدخل فيها وعند آخر ساعة وقت تدلى الشمس للغروب فهذان الوقتان من أفضل أوقات الجمعة و يقوى فى نفسى ان فى أحدهما الساعة المرجوة وقد اجتمع كعب الاحبار مع أبى هريرة واجتمع رأى كعب أنها فى آخر ساعة من يوم الجمعة فقال أبو هريرة كيف تكون آخر ساعة وقد سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لا يوافقها عبد يصلى ولات حين صلاة فقال كعب ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من قعد ينتظر الصلاة فهو فى صلاة قال بلى قال فذلك صلاة فسكت أبو هريرة فكأنه وافقه وليكثر من الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى يوم الجمعة وليلتها وأقل ذلك ان يصلى عليه صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة مرة وقد جاء فى الخبر من صلى على فى يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله لهذنوب ثمانين سنة قيل يارسول الله كيف الصلاة عليك قال تقول اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الامى وتعقدها واحدة فكيف ماصلى عليه بعد ان يأتى بلفظ ذكر الصلاة عليه فهى صلاة والصلاة المشهورة هى التى رويت فى التشهد وان جعلت من صلاته عليه ان يقول اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون لك رضاء ولحقه أداء واعطه الوسيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته واجزه عنا ما هو أهله واجزه أفضل ما جزيت نبيا عن أمته وصل على جميع اخوانه من النبيين والصالحين يا أرحم الراحمين تقول هذا سبع مرات ففى هذا فضل عظيم و يقال من قاله سبع جمع فى كل جمعة سبع مرات وجبت له شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وان زاد هذه الصلاة فهى مأثورة اللهم اجعل فضائل صلواتك وشرائف زكواتك ونوامى بركاتك ورأفتك ورحمتك وتحيتك على محمد سيد المرسلين وامام المتقين وخاتم النبيين و رسول رب العالمين قائد الخير وفاتح البر ونبى الرحمة وسيد الامة اللهم ابعثه مقاما محمودا تزلف به قربه وتقر به عينه يغبطه به الاولون والآخرون اللهم اعطه الفضل والفضيلة والشرف والوسيلة والدرجة الرفيعة والمنزلة الشامخة المنيفة اللهم أعط محمدا سؤله و بلغه مأموله واجعله أول شافع وأول مشفع اللهم عظم برهانه وثقل ميزانه وأبلج حجته وارفع فى أعلى المقربين درجته اللهم احشرنا فى زمرته واجعلنا من أهل شفاعته وأحينا على سنته وتوفنا على ملته وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه غير خزايا ولا نادمين ولا شاكين ولا مبدلين و لا فاتنين و لا مفتونين آمين رب العالمين وليكثر من الاستغفار يوم الجمعة وليلتها و أى لفظ ذكر فيه سؤال المغفرة فهو مستغفر وان قال اللهم اغفرلى وتب على انك أنت التواب الرحيم فهو أفضل وان قال رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت خير الراحمين فحسن واستحب له أن يقرأ ختمة يوم الجمعة فان ضاق عليه ذلك فليشفع اليه ليلتها ليكون ابتداؤه من ليلة الجمعة وان جعل ختمه للقرآن فى

ركعتى الفجر من يوم الجمعة أو فى ركعتى المغرب ليلة الجمعة فحسن ليستوعب بذلك كله اليوم والليلة وان جعل ختمه بين الاذان للجمعة والاقامة للصلاة ففيه فضل عظيم ويستحب أن يصلى قبل الجمعة اثنى عشر ركعة وبعدها ست ركعات واذا دخل الجامع فليصل أربع ركعات يقرأ فيهن قل هو الله أحد مائتى مرة فى كل ركعة خمسين مرة ففيه أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعله لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له واذا دخل الجامع فلا يقعدن حتى يصلى ركعتين قبل أن يجلس وكذلك ان دخل والامام يخطب صلاهما خفيفتين وان سمعه لأمر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك لانه قد جاء فى حديث غريب أن النبى صلى الله عليه وسلم سكت له حتى صلاهما فقال الكوفيون ان سكت له الامام صلاهما ولعل سكوت رسول الله صلى الله عليه وسلم مخصوص له لوجوب قوله وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وأبى هريرة قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعطى نورا من حيث يقرأها الى مكة وغفر له الى الجمعة الاخرى وفضل ثلاثة أيام وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح وعوفى من الداء والدبيلة وذات الجنب والبرص والجذام وفتنة الدجال واستحب أن يصلى يوم الجمعة أربع ركعات بأربع سور سورة الانعام وسورة الكهف وسورة طه ويس فان لم يحسن ذلك قرأ سورة يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وسورة الملك ولا يدع قراءة هذه الاربع سور فى كل ليلة جمعة فى ذلك أثر وفضل كبير فان لم يحسن جميع القرآن قرأ ما يحسن منه فذلك له ختمة فقيل ختمة من حيث علمه وقد كان العابدون يستحبون أن يقرؤا يوم الجمعة ألف مرة قل هو الله أحد فان قرأها فى عشر ركعات او عشرين فهو أنفضل من ختمة وقد كانوا يصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ألف مرة ومن التسبيح والتهليل بالكلمات الاربع ألف مرة وهذه ثلاثة أوراد حسنة فى يوم الجمعة أعنى قراءة قل هو الله أحد والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم والتسبيح والتهليل ألفا ألفا فلا بد عن ذلك من رزقها أو أحدها فانه من أفضل الاعمال فى هذا اليوم وان صلى يوم الجمعة قبل الزوال صلاة التسبيح وهى ثلثمائة تسبيحة فى أربع ركعات فقد أكثر واطاب وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال صلها فى كل جمعة مرة وذكر أبو الجوزاء عن ابن عباس أنه لم يكن يدع هذه الصلاة كل يوم بعد الزوال وأخبر عن فضلها ما يجل وصفه وان قرأ المسبحات الست فى يوم الجمعة أو ليلتها فحسن وليس يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ السور باعيانها الا يوم الجمعة وليلتها فانا روينا أنه كان يقرأ فى صلاة المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد وكان يقرأ فى صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة بسورة الجمعة وسورة المنافقين وقد روى أنه كان يقرأ بهاتين السورتين فى صلاة الجمعة وكان يقرأ فى صلاة الغداة يوم الجمعة بسورة سجدة لقمان وسورة هل أتى على

الانسان واستماعه الى علم اليقين والمعرفة وحضور مجالس الذكر أفضل من صلاته وصلاته أفضل من حضوره مجالس القصاص وروينا فى حديث أبى ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة وفى خبر آخر لأن يتعلم أحدكم بابا من العلم أو يعلمه خير له من صلاة ألف ركعة وفى خبر قيل يا رسول الله ومن قراءة القرآن فقال وهل ينفع القرآن الا بعلم والصلاة اذا عدم مجلس العلم بالله والتفقه فى دين الله عز وجل أزكى من حضور مجلس القصص ومن الاستماع الى القصاص فان القصص كان عندهم بدعة وكانوا يخرجون القصاص من الجامع روى أن ابن عمر جاء ذات يوم الى مجلسه فى المسجد فاذا قصاص يقص فقال له قم من مجلسى فقال لا أقوم وقد جلست فيه أو قال قد سبقتك اليه قال فارسل ابن عمر الى صاحب الشرطة فاقامه فلو كان ذلك من السنة لما حل لابن عمر أن يقيمه من مجلسه سيما وقد سبقه الى الموضع كيف وهو الذى روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقيم أحدكم أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا قال فكان ابن عمر اذا قام له الرجل من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود اليه وروينا ثم يجلس فيه وقد روينا أن قاصا كان يجلس بفناء حجرة عائشة يقص فارسلت الى ابن عمر ان هذا قد آذانى بقصصه وشغلنى عن سبحتى قال فضربه ابن عمر حتى كسر عصا على ظهره ثم طرده وليحذر أن يمر بين يدى المصلى وان كان مروره لا يقطع الصلاة ففى الخبر لأن يقف أربعين سنة خير له من أن يمر بين يدى المصلى وقد جاء فيه وعيد شديد لأن يكون الرجل رمادا تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدى المصلى وقد سوى فى ذلك بين المار والمصلى فى الوعيد ففى حديث زيد بن خالد الجهنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يعلم المار بين يدى المصلى والمصلى ما عليهما فى ذلك لكان أن يقف أربعين خير له من أن يمر بين يديه وليدن المصلى من اسطوانة أو جدار فاذا فعل ذلك فلا يدعن أحدا أن يمر بين يديه وليدفعه ما استطاع وفى حديث عبد الرحمن ابن أبى سعيد الخدرى عن أبيه قال فان أبى فليقاتله فانما هو شيطان وكان أبو سعيد يدفع من يمر بين يديه حتى يصرعه فربما تعلق به الرجل فاستعدى عليه مروان فيخبره أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره بذلك فان لم يتفق له اسطوانة فليجعل شيئا بين يديه يكون طوله عظم الذراع وقد قيل ان كان حبلا ممدودا فحاجز بينه وبين المارة وقد قيل أربع من الجفاء أن يبول الرجل قائما أو يصلى فى الصف الثانى ويترك الأول فارغا أو يمسح جبهته فى صلاته أو يصلى بسبيل من يمر بين يديه وقد كان الحسن يقول تخطوا رقاب الذين يقعدون على أبواب الجامع يوم الجمعة فانه لا حرمة لهم وليقرب من الامام وينصت ويسمع ويستقبله بوجهه كذلك السنة الا أن يخاف أن يسمع أو يرى منكرا من لبس نقش سواد أو حرير أو ديباج أو حمل سلاح ثقيل ولا يستطيع تغييره فليبعد حينئذ فهو

أسلم ولا يلغو ولا يتكلم فى خطبة الامام وان بعد ولا يجلس فى حلقة من يتكلم والامام يخطب ولا يقول لآخر اسكت ولكن يومىء اليه ايماء أو يحصبه بحصاة فان لغا والامام يخطب بطلت جمعته ولا يتكلم فى العلم فى خطبة الامام ومن لم يقرب من الامام ولم يستمع فلينصت وان بعد كذلك المستحب وقد روينا عن عثمان وعلى رضوان الله عليهما من استمع وأنصت فله أجران ومن لم يستمع وأنصت فله أجر ومن سمع ولغا فعليه وزران ومن لم يستمع ولغا فعليه وزر واحد وفى حديث أبى ذر لما سأل أبيا والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقال متى أنزلت هذه السورة فأومأ اليه أن اسكت فلما نزل النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أبى اذهب فلا جمعة لك فشكاه أبو ذر الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال صدق أبى وكذلك جاء فى الخبر من قال لصاحبه والامام يخطب أنصت أو مه فقد لغا ومن لغا والامام يخطب فلا جمعة له وليقطع الصلاة اذا قام المؤذنون للاذان بين يدى الامام فقد روى أبو اسحق عن الحرث عن على رضوان الله عليهم تكره الصلاة فى أربع ساعات بعد الفجر وبعد العصر ونصف النهار والصلاة والامام يخطب وقد جاء فى الاثر خروج الامام يقطع الصلاة وكلامه يقطع الكلام وسجود العامة عند قيام المؤذنين للاذان قبل الخطبة ليس بسنة فان وافق ذلك سجوده فى صلاته أو سجود قرآن فلا بأس أن يمتد فى الدعاء الى فراغهم لانه وقت مفضل ولا أعرف فى ذلك أثرا غير أنه مباح ومن العلماء من كره الصلاة فى المقصورة لاجل أنها قصرت على السلطان وأوليائه وذلك بدعة عند أهل الورع ابتدعت فى المساجد لانها غير مطلقة لجملة الناس. فلذلك نقل فى الخبر كان الحسن وبكر المزنى لا يصليان فى المقصورة وروى رأيت أنس بن مالك يصلى فى المقصورة وعمران بن حصين أيضا ومنهم من لم يكره ذلك ورأيت فيه فضلا لاجل السنة فى الدنو من الامام واستماع الذكر فان اطلقت للعامة زالت الكراهة عنها وان خص بها أولياء السلطان تركت عليهم فان صلى يصلى فيها فان بعض العلماء كره الصلاة فى فناء المنبر من قبل أن المنبر يقطع الصفوف وكان عندهم ان تقدمة الصفوف الى فناء المنبر بدعة وكان الثورى يقول الصف الاول هو الخارج من بين يدى المنبر ومن خشى الفتنة والآفة فى قربه من الامام بان يسمع ما يجب عليه انكاره أو يرى ما يلزم الامر فيه أو النهى عنه من لبس حرير أو لبس ديباج أو الصلاة فى السلاح الثقيل للشغل كان بعده من الصفوف المقدمة أصلح لقلبه وأجمع لهمه لقلة ملاقاة الناس ولترك النظر اليهم فالاصلح للقلب والأجمع للهم هو الافضل حينئذ وقد كان جماعة من العلماء والعباد يصلون فى أواخر الصفوف ايثارا للسلامة وقيل لبشر بن الحرث نراك تبكر يوم الجمعة وتصلى فى أواخر الصفوف فقال يا هنا انما نريد قرب القلوب لاقرب الاجساد ونظر سفيان الثورى الى شعيب بن حرب عند المنبر يستمع

الى خطبة أبى جعفر فلما جاءه بعد الصلاة قال شغل قلبي قربك من هذا هل أمنت أن تسمع كلاما يجب عليك انكاره فلا تقوم به ثم ذكر ما أحدثوا من لبس السواد قلت يا أبا عبد الله أليس فى الخبر ادن واستمع فقال ويحك ذاك للخلفاء الراشدين المهديين فاما هؤلاء فكلما بعدت عنهم ولم تنظر اليهم كان أقرب لك الى الله عز وجل وقد روينا عن أبى الدرداء فضيلة فى الصف المؤخر قال سعيد ابن عامر صليت الى جنبه فجعل يتأخر فى الصفوف حتى كنا فى آخر صف فلما صلينا قلت له أليس يقال خير الصفوف أولها قال نعم الا أن هذه أمة مرحومة منظور اليها من بين الأمم وان الله عز وجل اذا نظر الى عبد منهم فى الصلاة غفر لمن وراءه من الناس فانما تأخرت رجاء ان يغفر لى بواحد منهم ينظر الله اليه وقد رفعه بعض الرواة ان أبا الدرداء سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذلك والصدقة مستحبة مفضلة يوم الجمعة خاصة فانها تضاعف الاعلى من سأل والامام يخطب وكان يتكلم فى كلام الامام فهذا مكروه قال صالح بن أحمد سأل مسكين يوم الجمعة والامام يخطب وكان بجنب أبى فاعطاه رجل قطعة ولم يعرفه ليناوله اياها فلم يأخذها منه أبى وقال ابن مسعود اذا سأل الرجل فى المسجد فقد استحق أن لا يعطى واذا سأل على القرآن فلا تعطوه ومن العلماء من كره الصدقة على سؤال الجامع الذين يتخطون رقاب الناس الا ان يسأل قائما من غير ان يتخطى المسلمين أو قاعدا فى مكان وروينا عن كعب الاحبار من شهد الجمعة ثم انصرف يتصدق بشيئين مختلفين من الصدقة ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما وخشوعهما وسجودهما ثم يقول اللهم انى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الذى لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم لم يسأل الله عز وجل شيأ الا اعطاه وقد روينا عن بعض السلف على غير هذا الوصف قال من أطعم مسكينا فى يوم الجمعة ثم غدا وابتكر ولم يؤذ أحدا ثم قال حين يسلم الامام اللهم انى أسألك ببسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم أن تغفر لى وترحمنى وان تعافينى من النار ثم دعا بما بدا له استجيب له وان سمع قراءة الامام لم يقرأ فى صلاته الا سورة الحمد لا غير وان لم يسمع قراءته قرأ سورة مع الحمد ان أحب فاما من سمع قراءة الامام وقرأ معه سورة الجمعة أو غيرها من السور فقد خالف الامة وعصى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أعلمه مذهب أحد من المسلمين فاذا سلم من صلاة الجمعة قرأ وهو ثان رجله قبل ان يتكلم الحمد سبع مرات وقل هو الله أحد سبعا والمعوذتين سبعا سبعا ففى ذلك أثر عن بعض السلف ان من فعله عصم من الجمعة الى الجمعة وكان ذلك حرزا له من الشيطان واستحب له أن يقول بعد صلاة الجمعة اللهم ياغنى يا حميد يا مبدىء يا معيد يا رحيم يا ودود اغننى بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك يقال من داوم على هذا الدعاء أغناه الله عز وجل عن خلقه ورزقه من حيث لا يحتسب وقد روى ابن عمر ان النبي صلى الله عليه وسلم

كان يصلى بعد الجمعة ركعتين وروى أبو هريرة أنه كان يصلى بعدها أربعا وروى على وعبد الله رضى الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلى بعدها ستا فاذا صلى العبد ست ركعات فقد استوعب جميع الروايات وأكره شراء الماء فى المسجد للشرب أو لتسبيله لئلا يكون مبتاعا فى المسجد فقد كره الشراء والبيع فى المسجد فان بايعه أو دفع اليه القطعة خارجا من المسجد وشرب أوسبل فى المسجد فلا بأس وقد جاء عن بعض السلف انه كره الصلاة فى رحاب الجامع عن بعض الصحابة انه كان يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب ويقول لا تجوز الصلاة فى الرحاب فهذا عندى على ضربين وهو ان الصلاة فى رحاب الجامع الزوائد فيه المتصلة بالصفوف المحيط بها حائط الجامع الاعظم كالصلاة فى وسطه غير مكروهة والصلاة فى رحابه المتفرقة فى أفنيته التى هى من وراء جدر الجامع كله مكروهة وكذلك الصلاة فى الطرقات المنفردة عن الجامع غير المتصلة بالصفوف لحجز طريق أو بعد مكان فلا يجوز وهذا الذى كرهه من كان ينهى عن الصلاة فيه فاذا صلى الجمعة انتشر فى أرض الله عز وجل يطلب من فضل الله عز وجل ومن الفضل طلب العلم واستماعه ويقال هو مزيد يوم الجمعة للعالم والمتعلم قال الله عز وجل وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما قال الله تعالى ولقد آتينا داود منا فضلا يعنى العلم بدليل نظيرها من الآية الاخرى فى قوله تعالى ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا وروينا عن أنس بن مالك فى قوله عز وجل فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله قال أما انه ليس بطلب دنيا ولكنه عيادة مريض وشهود جنازة وتعلم علم وزيارة أخ فى الله عز وجل فان الذكر بالعلم وتعليم الناس اياه والتذكير بالله عز وجل والدعوة اليه فى يوم الجمعة له فضل على سائر الايام لانه يوم المزيد فللقلوب فيه اقبال وتحديد وكذلك السعى اليه والاستماع له وحضور مجالس الذكر يوم الجمعة لامجالس القصاص أفضل من سائر الايام والمستمع شريك القائل فى الاجر وقد قيل انه أقرب للرحمة وقد كره العلماء الجلوس الى القصاص سيما يوم الجمعة خاصة لانهم يثبطون عن الغدو الى الجامع فى الساعة الاولى والثانية لان الكتاب وردبالفضل فيهما فمن اتفق له عالم بالله عز وجل يذكره به ويدله عليه من علماء الآخرة الزاهدين فى الدنيا يوم الجمعة غدوة فى الجامع أو بعد صلاة الجمعة جاس اليه واستمع منه وان حضر مفت يتكلم بعلم الدين وكان العبد محتاجا الى ذلك وجالسه فهو الأفضل فان مجالس العلماء فى الجامع من زين يوم الجمعة ومن تمام فضله قال الحسن الدنيا ظلمة الا مجالس العلماء فان لم يتفق له ذلك أحيا ما بين الصلاتين وهو الورد الخامس من النهار ويستحب صلاة العصر فى الجامع الا لسبب لابد منه مانع وان قعد الى غروب الشمس فهو أثوب للساعة المنتظرة من آخر النهار اذا أمن الفتنة والتصنع والكلام فيما لايعنيه ويقال من صلى العصر فى الجامع كان له ثواب حجة ومن صلى المغرب كان له ثواب عمرة فان خشى دخول

الآفة عليه أو لم يأمن التصنع والخوض فيما لا يعنيه انصرف الى منزله ذاكرا الله عز وجل مفكرا فى آلائه وحسن نعمائه فراعى غروب الشمس بالاذكار والتسبيح والاستغفار فى منزله أو مسجد حيه فذلك حينئذ أفضل له وقال بعض السلف أوفر الناس نصيبا يوم الجمعة من راعاها وانتظرها من الامس وأخس الناس منها نصيبا من يصبح يوم الجمعة فيقول ايش اليوم وقد كان بعضهم يبيت ليلة الجمعة فى الجامع لاجل صلاة الجمعة ومنهم من كان يبيت ليلة السبت فى الجامع لمزيد الجمعة وكثير من السلف من كان يصلى الغداة يوم الجمعة فى الجامع ويقعد ينتظر صلاة الجمعة لاجل البكور ليستوعب فضل الساعة الاولى ولاجل ختم القرآن وعامة المؤمنين كانوا ينحرفون من صلاة الغداة فى مساجدهم فيتوجهون الى جوامعهم ويقال أول بدعة حدثت فى الاسلام ترك البكور الى الجوامع قال وكنت ترى يوم الجمعة سحرا وبعد صلاة الفجر الطرقات مملواة من الناس يمشون فى السرج ويزدحمون فيها الى الجامع كما ترون اليوم فى الاعياد حتى درس ذلك وقل وجهل وترك أولا يستحيي المؤمن ان أهل الذمة يبكرون الى كنائسهم وبيعهم قبل خروجه الى جامعه أولا يعتبر بأهل الاطعمة المباعة فى رحاب الجامع انهم يغدون الى الدنيا والناس قبل غدوه وهو الى الله تعالى والى الآخرة فينبغى ان يسابقهم الى مولاه ويسارعهم الى ما عنده من زلفاه ويجب ان يكون للمؤمن يوم الجمعة مزيد فى الاوراد والاعمال وليتفرغ فيه لربه عز وجل ويجعله يوم آخرة ان لم يكن له يوم السبت فيوم الجمعة فى الاوراد المتصلة والمزيد من الاذكار على المعلوم منها فلا يكون الجمعة كالسبت فى تجارة الدنيا والشغل باسبابها وأكره له التأهب ليوم الجمعة فى باب الدنيا من يوم الخميس من اعداد المأكول والترفه من النعمة والاكل والشرب فقد روينا حديثا من طريق أهل البيت فيه نظر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يأتى على أمتى زمان يتأهبون لجمعتهم فى أمر دنياهم عشية الخميس كما يتأهب اليهود لسبتها عشية الجمعة وانما كان المؤمنون يتأهبون فيه للآخرة بالأوراد الحسنة ويزدادون من الاوراد المتصلة وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول من أخذ مهنأه من الدنيا فى هذه الأيام لم ينل مهنأه فى الآخرة منها يوم الجمعة وقال أيضا يوم الجمعة من الآخرة ليس هو من الدنيا وقال بعضهم لولا يوم الجمعة ما أحببت البقاء فى الدنيا فهو عند الخصوص يوم العلوم والانوار ويوم الخدمة والأذكار لأنه عند الله عز وجل يوم المزيد بالنظر اليه فى المزار وروينا حديثا غريبا عن مجاهد عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوا أشغالكم يوم الجمعة فانه يوم صلاة وتهجد وروينا عن جعفر الصادق قال يوم الجمعة لله عز وجل ليس فيه سفر قال الله تعالى وابتغوا من فضل الله وما ذكرناه من الصلاة والسور المقروأة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وجميع الذكر فى يوم الجمعة فانه يستحب فى ليلتها وهى من أفضل الليالى فلا يدعن ذلك من وجد

اليه سبيلا فان للصادق المريد فى كل وقت مفضل من الله عز وجل مزيدا فاذا أحب الله تعالى عبدا استعمله فى الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال واذا مقت عبدا استعمله فى الاوقات المفضلة بسيء الأعمال ليكون أوجع فى عقابه وأشد لمقته لحرمانه بركة الوقت وانتهاكه حرمة الوقت ومما يختص به يوم الجمعة من الذكر والتمجيد بالاسماء فصول أربعة . أولها الأربعون اسما التى دعا بها ادريس صلى الله عليه وسلم خصه الله تعالى بها وذكر الحسن البصرى أن موسى صلى الله عليه وسلم قد كان دعا بهن وانها كانت من دعاء محمد صلى الله عليه وسلم . والفصل الثانى كان ابراهيم بن أدهم الزاهد يدعو بها كل يوم جمعة عشر مرات اذا أصبح واذا أمسى فكان ذلك من عمله فى يومه . والفصل الثالث روينا عن على رضى الله عنه رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل يمجد نفسه فى كل يوم وليلة . والفصل الرابع تسبيحات أبى المعتمر وهو سليمان التيمى الذى كان رأى الشهيد بعد قتله فى المنام فقيل له ما أفضل ما رأيت هناك من الأعمال فقال رأيت تسبيحات أبى المعتمر من الله عز وجل بمكان فأما هذان الفصلان من تمجيد الرب سبحانه وتعالى نفسه وتسبيحات أبى المعتمر فقد ذكرناهما فى أول الكتاب فيما اخترنا من الأدعية المختارة بعد صلاة الغداة وقبل غروب الشمس فى كل يوم فاستثقلنا اعادتها ههنا وأما الفصلان الآخران فنحن ذاكروهما

ذكر دعاء ادريس النبى صلى الله عليه وسلم

حدثنا الحسن بن يحيي الشاهد حدثنا القاسم بن داود القراطيسى حدثنا عبد الله بن محمد القرشى حدثنا محمد بن سعيد المؤذن حدثنا سلام الطويل عن الحسن البصرى قال لما بعث الله عز وجل ادريس الى قومه علمه هذه الاسماء فاوحى الله اليه قلهن سرا فى نفسك ولا تبدهن للقوم فيدعونى بهن قال وبهن دعا فرفعه الله عز وجل مكانا عليا ثم علمهن الله عز وجل موسى عليه السلام ثم علمهن الله عز وجل محمدا صلى الله عليه وسلم وبهن دعا فى غزوة الاحزاب قال الحسن وكنت مستخفيا من الحجاج فدعوت الله بهن فحبسه عنى ولقد دخل على ست مرات فادعو الله بهن فأخذ الله عز وجل بابصارهم عنى فادع الله عز وجل بهن لالتماس المغفرة لجميع الذنوب ثم سل حاجتك من أمر آخرتك ودنياك فانك تعطاه ان شاء الله تعالى فانهن أربعون اسما عدد أيام التوبة سبحانك لا اله الا أنت يارب كل شيء ووارثه ورازقه وراحمه ياإله الآلهة الرفيع جلاله يا الله المحمود فى كل فعاله يا رحمن كل شيء وراحمه ياحى حين لا حى فى ديمومة ملكه وبقائه ياقيوم فلا يفوت شيء من علمه ولا يؤده ياواحد الباقى فى أول كل شيء وآخره يادائم فلا فناء ولا زوال لملكه يا صمد من غير شبيه ولا شيء كمثله ياباريء فلا شيء كفؤه ولا مكان لوصفه يا كبير أنت الذي لاتهتدي القلوب لوصف عظمته

ياباریء النفوس بلا مثال خلا من غيره يازا كي الطاهر من كل آفة تقدسه يا كافى الموسع لما خلق من عطايا فضله يانقيا من كل جور لم يرضه و لم يخالطه فعاله ياحنان أنت الذى وسعت كل شيء رحمة وعلما يامنان ذا الاحسان قد عم كل الخلائق منه يا ديان العباد كل يقوم خاضعا لرهبته ياخالق من فى السموات والارض وكل اليه معاده يارحيم كل صريخ ومكروب وغياثه ومعاده ياتام فلا تصف الالسن كل جلال ملكه وعزه يامبدع البدائع لم يبغ فى انشائها عونا من خلقه ياعلام الغيوب فلا يفوته شيء من خلقه ولا يؤده يا حليم ذا الاناة فلا يعادله شيء من خلقه يامعيد ماأفناه اذابرز الخلائق لدعوته من مخافته ياحميد الفعال ذا المن على جميع خلقه بلطفه ياعزيز المنيع الغالب على أمره فلا شيء يعادله ياقاهر ذا البطش الشديد أنت الذى لايطاق انتقامه ياقريب المتعالى فوق كل شيء علو ارتفاعه يامذل كل جبار عنيد بقهر عزيز سلطانه يا نور كل شيء وهداه أنت الذى فلق الظلمات بنوره ياعالى الشامخ فوق كل شيء علو ارتفاعه ياقدوس الطاهر من كل سوء فلاشيء يعادله من خلقه يامبدیء البرايا ومعيدها بعد فنائها بقدرته ياجليل المتكبر عن كل شيء فالعدل أمره والصدق وعده يامحمود فلاتبلغ الاوهام كنه ثنائه ومجده يا كريم العفو ذا العدل أنت الذى ملأ كل شيء عدله ياعظيم ذا الثناء الفاخر وذا العز والمجد والكبر يافلا يذل عزه ياعجيب فلاتنطق الالسن بكنه آلائه وثنائه ياغياثي عند كل كربة ويامجيبي عند كل دعوة أسألك اللهم يارب الصلاة على نبيك محمد صلى الله عليه وسلم وأمانا من عقوبات الدنيا والآخرة وأن تحبس عنى أبصار الظالمين المريدين بي السوء وأن تصرف قلوبهم عن شر مايضمرون بى الى خير مالا يملكه غيرك اللهم هذا الدعاء ومنك الاجابة وهذا الجهد وعليك التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

ذكر دعاء ابراهيم بن أدهم

حدثنا أحمد بن الموصلى الوكيل بن الموكل حدثنا جعفر بن نصير الخواص الخراسانى حدثنى ابراهيم بن بشار خادم ابراهيم بن أدهم قال كان ابراهيم بن أدهم يقول هذا الدعاء فى يوم الجمعة اذا أصبح ويقوله اذا أمسى مثل ذلك مرحبا بيوم المزيد والصبح الجديد والكاتب الشهيد يومنا هذا يوم عيد اكتب لنا مانقول بسم الله الحميد المجيد الرفيع الودود الفعال فى خلقه مايريد أصبحت بالله مؤمنا وبلقائه مصدقا وبحجته معترفا ومن ذنبي مستغفرا ولربوبية الله خاضعا ولسوى الله عز وجل فى الالهية جاحدا والى الله فقيرا وعلى الله متوكلا والى الله منيبا أشهد الله وأشهد ملائكته وأنبياءه ورسله وحملة عرشه ومن خلق ومن هو خالقه بانه هو الله لااله الا هو وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وأن الجنة حق والنار حق والحوض حق والشفاعة حق ومنكرا ونكيرا

حق ولقاءك حق و وعدك حق والساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور على ذلك أحيا وعليه أموت وعليه أبعث ان شاء الله اللهم أنت ربى لااله الاأنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك و وعدك ما استطعت أعوذ بك اللهم من شر كل ذى شر اللهم انى ظلمت نفسى فاغفرلى ذنوبى فانه لا يغفر الذنوب الا أنت واهدنى لاحسن الاخلاق فانه لا يهدى لأحسنها الا أنت واصرف اللهم يارب عنى سيئها فانه لا يصرف سيئها الا أنت لبيك وسعديك والخير كله بيديك أنالك واليك أستغفرك وأتوب اليك آمنت اللهم بما أرسلت من رسول وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب وصلى الله على سيدنا محمد النبي وعلى آله وسلم كثيرا خاتم كلامى ومفتاحه وعلى أنبيائه و رسله أجمعين آمين يارب العالمين اللهم أوردنا حوضه واسقنا بكأسه مشربا رويا سائغا هنيأ لا نظمأ بعده أبدا واحشرنا فى زمرته غير خزايا ولا نادمين ولا ناكثين ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مغضوبا علينا ولا ضالين اللهم اعصمنى من فتن الدنيا ووفقنى لما تحب وترضى من العمل واصلح لى شأنى كله وثبتنى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولا تضلنى وان كنت ظالما سبحانك سبحانك ياعلى ياعظيم يا بار يارحيم ياعزيز ياجبار سبحان من سبحت له السموات باكنافها وسبحان من سبحت له الجبال بأصواتها وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها وسبحان من سبحت له الحيتان بلغاتها وسبحان من سبحت له النجوم فى السماء بأبراجها وسبحان من سبحت له الشجر بأصولها ونضارتها وسبحان من سبحت له السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن سبحانك سبحانك ياحى ياحليم سبحانك لا اله الا أنت وحدك لا شريك لك تحيي وتميت وأنت حى لا تموت بيدك الخير وأنت على كل شيء قدير فاذا دعا بهذه الأدعية الاربع يوم الجمعة فقد كمل الله عز وجل عمله وتمم عليه فضله فاذا عمل بخير ما ذكرناه من الاعمال والاذكار واجتنب سيء ما ذكرناه من الاقوال والافعال فهو من أهل الجمعة وممن له المزيد بها نصيبا موفورا وكان عمله الخالص وذكره الصادق عند الله عز وجل مشكورا وهذا آخر كتاب الجمعة وهيآتها وآدابها

الفصل الثانى والعشرون

فيه كتاب الصيام وترتيبه ووصف الصائمين وذكر ما يستحب للعبد من الصيام وطرقات الصائمين فى الصوم ووصف صوم الخصوص

قال الله عز وجل واستعينوا بالصبر والصلاة جاء فى التفسير الصبر يعنى الصوم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى رمضان شهر الصبر لان الصبر حبس النفس عن الهوى وايقافها وحبسها على أمر المولى وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الصبر نصف الايمان والصوم نصف

الصبر وقال الله تعالى واستعينوا بالصبر قيل معناه على مجاهدة النفس وقيل على مصابرة العدو وقال بعض العلماء استعينوا بالصبر على الزهادة فى الدنيا بالصوم لان الصائم كالزاهد العابد فالصوم مفتاح الزهد فى الدنيا و باب العبادة للمولى لانه منع النفس عن ملاذها وشهواتها من الطعام والشراب كما منعها الزاهد العابد بدخوله فى الزهد وشغله بالعبادة ولذلك جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فى المعنى فقال ان الله عز وجل يباهى ملائكته بالشاب العابد فيقول أيها الشاب التارك شهوته من أجلى المبتذل شبابه لى أنت عندى كبعض ملائكتى وقال فى الصائم مثل ذلك يقول عز وجل ياملائكتى انظروا الى عبدى ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلى ففى الصوم عون على مجاهدة النفس وقطع حظوظها ومنع عادتها وفيه اضعاف لها ونقصان لهواها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل كل عمل ابن آدم له الا الصوم فانه لى وأنا أجزى به فأضافه عز وجل اليه تفضيلا له وتخصيصا كما قال تعالى وان المساجد لله فلاتدعوا مع الله أحدا وكما قال انما أمرت أن أعبدرب هذه البلدة الذى حرمها فلما كانت المساجد أحب بيوت الدنيا اليه وكانت مكة أشرف البلاد عنده أضافها الى ذكره وله كل شىء كذلك لما كان الصيام أفضل الاعمال عنده وأحبها اليه لان فيه خلقا من أخلاق الصمدية ولانه من أعمال السر بحيث لا يطلع عليه الا هو أضافه لنفسه وقيل مافى عمل ابن آدم شىء الا ويقع فيه قصاص ويذهب برد المظالم الا الصوم فانه لا يدخله قصاص و يقول الله عز وجل يوم القيامة هذا لى فلا يقتص منه أحد شيأ يقال ما من عمل الا وله جزاء معلوم الا الصوم فانه لا تعلم نفس ما جزاؤه ويكون أجره بغير حساب يفرغ له افراغا و يجازف مجازفة وهو أحد الوجوه فى قوله عز وجل فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون قيل كان عملهم الصيام وكذلك فى تأويل قوله عز وجل السائحون قيل هم الصائمون كأنهم ساحوا الى ربهم عز وجل بجوعهم وعطشهم وتركوا قرة أعين أبناء الدنيا من أكلهم وشربهم فآواهم مولاهم فيما اخفى لهم من قرة أعين جزاء لعملهم وقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب قيل الصائمون والصبر اسم من اسماء الصوم فلما أخفى ذكره بالصوم فى نفسه اخفى الله عز وجل جزاءه اياه عن غير نفسه وفى الحديث من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى فالصوم ذكر الله عز وجل وهو سر وليس أستحب للعبد أن يزيد على افطار أربعة أيام نسقا فان ذلك يقسى القلب و يغير الحال و يولد العادات و يفتق الشهوات ولانه لم يؤمر ولم يندب الى أن يوالى بين افطار أكثر من أربعة أيام متوالية وهى النحر وأيام التشريق و يستحب له أن يصوم يوما و يفطر يوما أو يصوم يومين و يفطر يومين وذلك صوم نصف الدهر وان أحب فليصم يومين و يفطر يوما وذلك صوم ثلثى الدهر فان أحب فليصم يوما و يفطر يومين

وهذا صيام ثلث الدهر هذه طريق الصائمين وفيها روايات حذفنا ذكر فضائلها للاختصار فان صام ثلاثا من أول الشهر وثلاثا من وسطه وثلاثا من آخره فحسن فان صام الأثانين والأخمسة والجمع فذلك خير كبير وأقل من ذلك أن يصوم الايام البيض وأول يوم من الشهر وآخر يوم منه وأفضل الصيام ما كان فى الاشهر الحرم وأفضل ذلك ما وقع فى العشرين منها وهو المحرم وذو الحجة وبعد ذلك ما كان فى شعبان فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر الصيام فيه حتى يصله بشهر رمضان ولايدع أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وليواظب على صوم الاثنين والخميس وفى الخبر أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وصوم النصف الاول من شهر شعبان مستحب وقد كانوا يفطرون النصف الاخير منه وقد روينا خبر اذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى يدخل رمضان وليفطر قبل رمضان اياما فان وصل شعبان برمضان فجائز ولا يجوز أن يستقبل رمضان بيومين أو ثلاثة الا ان يوافق ذلك يوم اثنين او خميس قد كان يصومه وقد كان بعض الصحابة يكره ان يصام رجب كله لئلا يضاهى به شهر رمضان وكانوا يستحبون ان يفطروا منه أياما وقد كره قوم صيام الدهر كله وردت اخبار فى كراهته وقد تاول ذلك بانهم كانوا يصومون السنة كلها مع يوم العيد وايام التشريق فوردت الكراهة لذلك وان كان يريد صلاح قلبه وانكسار نفسه واستقامة حاله فى صوم الدهر فليصمه فهو حينئذ كالواجب عليه اذا كان تقواه وصلاحه فيه فقد روينا عن سعيد عن قتادة عن ابى تميمة الهجيمى عن ابى موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صام الدهر ضيقت عليه جهنم وعقد تسعين معناه لم يكن له فيها موضع وقد دلت الاصول على فضل صوم الدهر وقد صامه طبقات من السلف الصالح من الصحابة والتابعين باحسان الا ان يكون الرجل يرغب عن السنة ولا يرى الرخصة فى الافطار فيكره له صوم الدهر المعاندة لان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالسعة فى الدين واخبر الله عز وجل بانه يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه وفى لفظ آخر يحب ان يؤخذ برخصه كما يكره ان تؤتى معصيته وقد دلت الاخبار على فضل صوم نصف الدهر بان يصوم يوما ويفطر يوما وذلك ليكون العبد بين حالين حال صبر وحال شكر ومن ذلك ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا وكنوز الأرض فرددتها فقلت اجوع يوما واشبع يوما أحمدك اذا شبعت واتضرع اليك اذا جعت ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم افضل الصيام صيام اخى داود عليه السلام كان يصوم يوما و يفطر يوما ومن ذلك منازلته عليه السلام لعبد الله بن عمرو فى الصوم وهو يقول انى أريد أفضل من ذلك حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم صم يوما وافطر يوما قال اريد افضل من ذلك قال لا أفضل من

ذلك وروى فى الخبر صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين يوما من غيره وصوم يوم من رمضان أفضل من صوم ثلاثين يوما من شهر حرام وفى حديث من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب الله تعالى له عبادة سبعمائة عام وقد روينا ان النبي صلى الله عليه وسلم ما صام شهرا كاملا قط الا رمضان بل كان يفطر منه وقد وصل مرة شعبان برمضان وفصل صوم رمضان مرارا من شعبان وما ذكرنا من انواع الصوم فهو صيام جماعة من السلف الصالح وفى كل منه و ردفيه فضائل يكثر ذكرها وكذلك فى جميع ما نذكره من أعمال القلوب والجوارح فى الايام والليالى وكذلك فيما نذكره من اخلاق الايمان وأوصاف الموقنين وقد جاءت فى أكثر ذلك فضائل ومثوبات الا أنا لم نقصد تعديد ذلك وليس مذهبنا الاشتغال بذكر فضائل الاعمال انما طريقنا تهذيب قلوب العمال فبطهارة القلوب وحقيقة الايمان تزكو الاعمال وتقرب العاملون من ذى الجلال ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

ذكر صوم الخصوص من الموقنين

اعلم وفقك الله تعالى ان الصوم عند الصائمين هو صوم القالب فأما صوم الخصوص من الموقنين فان الصوم عندهم هو صوم القلب عن الهمم الدنية والافكار الدنيوية ثم صوم السمع والبصر واللسان عن تعدى الحدود وصوم اليد والرجل عن البطش والسعى فى أسباب النهى فمن صام بهذا الوصف فقد أدرك وقته فى جملة يومه وصار له فى كل ساعة من نهاره وقت وقد عمر يومه كله بالذكر ولمثل هذا قيل نوم الصائم عبادة ونفسه تسبيح وقد قرن الله عز وجل الاستماع الى الباطل والقول بالاثم الى أكل الحرام ولولا ان فى المسموعات والمقولات حراما على المستمع والاصغاء اليه وحراما على القائل النطق به ما قرنهما الى أكل الحرام وهو من الكبائر فقال تعالى سماعون للكذب أكالون للسحت وقال سبحانه وتعالى لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت فالعبد الحافظ لحدود الله عز وجل ان أفطر بالاكل والجماع فهو صائم عند الله فى الفضل للاتباع ومن صام من الاكل والجماع وتعدى الحدود وأضاع فهو مفطر عند الله عز وجل صائم عند نفسه لان ما أضاع أحب الى الله عز وجل وأكثر مما حفظ ومثل من صام من الاكل وأفطر بمخالفة الامر بسائر الجوارح مثل من مسح كل عضو من أعضائه فى وضوئه ثلاثا ثلاثا ثم صلى فقد وافق الفضل فى العدد الا أنه تارك للفرض من الغسل فصلاته مردودة عليه لجهله وهو مغتر بفعله ومثل من أفطر بالاكل وصام بجوارحه عن النهى مثل من غسل كل عضو من أعضائه فى وضوئه مرة مرة فهو تارك للفضل فى العدد الا أنه مكمل للفرض محسن فى العمل فصلاته متقبلة لاحكامه للاصل ولعمله بالعلم ومثل من صام من الاكل والجماع وحفظ

جوارحه عن الآثام كمثل من غسل كل عضو ثلاثا ثلاثا فقد تم الفرض وأحسن بتكملة الفضل فهذا كما قال تعالى تماما على الذى أحسن وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الوضوء كذلك هذا وضوئى ووضوء الانبياء من قبلى ووضوء أبى ابراهيم عليه السلام وقد قال الله تعالى ملة أبيكم ابراهيم أى عليكم بها فاتتموا واقتدوا به فيها وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر وجاء فى الخبر ان امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجهدهما الجوع والعطش فى آخر النهار حتى كادتا أن تتلفا فبعثتا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذناه فى الافطار فارسل اليهما قدحا وقال قل لهما قيآ فيه ماأكلتما قال فقامت احداهما نصفه دما عبيطا ولحما عريضا وقامت الاخرى مثل ذلك حتى ملأتاه فعجب الناس من ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتان صامتا عما أحل الله عز وجل لهما وأفطرتا على ما حرم الله عز وجل عليهما قعدت احداهما الى الاخرى فجعلا يغتابان الناس فهذا ما أكلا من لحومهم وكان أبو الدرداء يقول ياحبذا نوم الاكياس وفطرهم يعيبون صوم الحمقى وسهرهم ولذرة من ذى يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترين وكل محظور عليك أن تتفوه به فمحظور عليك أن تستمع اليه وكل حرام عليك أن تفعله فمكروه أن تنظر اليه أو يخطر ببالك وقد سوى الله عز وجل بين المستمع والقائل فى قوله تعالى انكم اذا مثلهم ومثل الصائم مثل التوبة لان الصبر من أوصافها وانما كانت التوبة مكفرة لما سلف من السيآت لاجل أنه صبر عما سلف من سيء العادات ثم اعتقد ترك العود الى مثل ما سلف بصيانة جوارحه التى كانت طرائق المكروهات كذلك كان الصيام جنة من النار وفضيلة من درجات الأبرار اذا صبر عليه الصائم لحفظ جوارحه فيه من المآثم فاذا أمرحها فى الآثام كان كالتائب المتردد الناقض للميثاق لم تكن توبته نصوحا ولا كان صوم هذا صالحا وصحيحا ألا ترى الى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الصوم جنة من النار مالم يخرقها بكذب أو غيبة وأمره فى قوله عليه السلام اذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل وان امرؤ شاتمه فليقل انى صائم وفى لفظ آخر لا يجعل يوم صومه ويوم فطره سواء أى يتحفظ فى صومه لحرمته وفى خبر آخر الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته لحفظ الامانة من صيانة الجوارح لقول النبي صلى الله عليه وسلم لما تلا هذه الآية ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها وضع يده على سمعه وبصره فقال السمع أمانة والبصر أمانة فذلك مجاز قوله فليقل انى صائم أى يذكر الامانة التى حمل فيؤديها الى أهلها ومن حفظ الامانة أن يكتمها فان أفشاها من غير حاجة فهى خيانة لان مودعها قد لا يحب أن يظهرها وحقيقة حفظ السر نسيانه وضياع السر أن يكثر خزانه لحقيقة الصائم أن يكون ناسيا لصومه لا ينتظر الوقت شغلا عنه بالمؤقت

الفصل الثالث والعشرون

فيه كتاب محاسبة النفس ومراعاة الوقت

قال الله عز وجل ونضع الموازين القسط ليوم القيامة الى قوله أتينا بها و كفى بنا حاسبين وقرئت آتينا بها ممدودة أى جازينا بها فالتخويف بهذا الحرف أشد وأبلغ وقال تعالى يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم الاية وأوصى أبو بكر عمر رضى الله عنهما عند موته فقال ان الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء وان الباطل خفيف وهو مع خفته وبىء وان لله عز وجل حقا بالنهار لا يقبله بالليل وحقا بالليل لا يقبله بالنهار وانك لو عدلت على الناس كلهم وجرت على واحد منهم لمال جورك بعدلك فان حفظت وصيتى لم يكن شيء أحب اليك من الموت وهو مدركك وان ضيعت وصايتى لم يكن شيء أبغض اليك من الموت ولن تعجزه وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر على الله تعالى يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية وانما خف الحساب فى الآخرة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا وثقلت موازين قوم فى الآخرة وزنوا أنفسهم فى الدنيا وحق لميزان لايوضع فيه الا الحق أن يكون ثقيلا فمحاسبة النفس تكون بالورع والموازنة تكون بمشاهدة اليقين والتزين للعرض الأكبر يكون بمخافة الملك الأكبر وهو حقيقة الزهد وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر فقال له اتق الله أينما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن ووجدت هذه الوصية فى كتاب الله عز وجل لعباده بقوله عز وجل ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وايا كم أن اتقوا الله والكلمة الثانية فى قوله تعالى ويدرؤن بالحسنة السيئة أى يدفعون بعمل الحسنة ويتبعونها السيئة المتقدمة تكفرها والكلمة الثالثة فى قوله تعالى وقولوا للناس حسنا وقد أخبر الله عز وجل عن وصية عباده الصالحين بثلاث فقال ان الانسان لفى خسر أى لفى خسران ونقص بفوت أوقاته وفقد أرباحه ثم استثنى فقال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وقال فى الوصف الثالث وتواصوا بالمرحمة واتباع الحق بمخالفة الهوى فيه الصلاح اذ فى موافقة الهوى الفساد والصبر قوام الأمر و بمقداره يكون الربح والرحمة للخلق باب الرحمة من الخالق ومفتاح حسن الخلق ومعها حسن الظن وسلامة القلب وعندها ينتفى الحسد والغل و يوجد التواضع والذل وهذا وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين اختارهم لصحبة نبيه عليه السلام وأنزل عليهم السكينة وأيدهم بروح منه فقال رحماء بينهم وقال تعالى فى حقيقة الرحمة واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقال فى مثله عن وصف أحبابه لاخوانهم أذلة على المؤمنين فهذه الثلاثة مفاتيح رقة القلب ومغالق القسوة وفى الرقة الاقبال على الله عز وجل وعلى الدار الآخرة

والتيقظ لأمره والتفكر فى وعده ووعيده وفى القسوة الاعراض وطول الغفلة فمحاسبة النفس تكون بالورع وموازنتها تكون بمشاهدة عين اليقين والتزين للعرض الأكبر يكون بمخافة الملك الأكبر وهو حقيقة الزهد وروينا عن على رضى الله عنه أما بعد فان المرء يسره درك مالم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحا وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفا وليكن سرورك بما قدمت واسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت وقال أيضا الهوى شريك العمى ومن التوفيق الوقوف عند الحيرة ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب الذم وفى الصدق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصديق من صدق غيبه ولا يعدمك من حبيب سوء الظن نعم الخلق التكرم والحياء سبب الى كل جميل وأوثق السرا التقوى وأوثق سبب أخذت به نفسك سبب بينك وبين الله عز وجل انما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فان لم تأته أتاك وان كنت جازعا على ما أتلفت من يديك فلا تجزعن على مالم يصل اليك واستدلل على ما لم يكن بما كان فان الأمور أشباه وقال عبد الله بن عباس لكل شيء آفة وآفة العلم النسيان وآفة العبادة الكسل وآفة اللب العجب وآفة الظرف الصلف وآفة التجارة الكذب وآفة السخاء التبذير وآفة الجمال الخيلاء وآفة الدين الرياء وآفة الاسلام الهوى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آفة أمتى الدينار والدرهم وروينا عن وبرة السلمى عن مجاهد قال أوصانى ابن عباس بخمس لهن أحسن من الدرهم الموقوف ومن الذهب الموصوف قال لا تتكلمن فيما لا يعنيك فانه أقرب لك من السلامة ولا آمن عليك الخطأ ولا تتكلمن فيما يعنيك حتى ترى له موضعا فرب متكلم فيما يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فلق عنتا ولا تمارين حليما ولا سفيها أما الحليم فيقليك وأما السفيه فيؤذيك واخلف أخاك اذا غاب عنك بمثل ما تحب أن يخلفك به اذا غبت عنه واعفه مما تحب أن يعفيك منه واعمل بعمل رجل يعلم انه مكافأ بالاحسان مأخوذ بالاساءة وفى وصية العباس لابنه عبد الله قال يابنى انى أرى هذا الرجل يقدمك على الاشياخ ويكرمك فاحفظ عنى هذه الخصال لاتفشين له سرا ولا تعصين له أمرا ولا تغتابن عنده أحدا ولا يطلعن منك على خيانة ولا يجربن عليك كذبة هذا فى روايتين دخلت احداهما فى الأخرى قال فى احداهما قلت للشعبى كل واحدة منهن خير من ألف فقال كل واحدة منهن خير من عشرة آلاف وقال يوسف ابن أسباط كان يقال ثلاث من كن فيه فقد استكمل ايمانه من اذا رضى لم يخرج رضاه الى باطل واذا غضب لم يخرج غضبه عن حق واذا قدر لم يأخذ ماليس له وقد روينا مسندا من طريق وقال سرى بن المغلس ثلاث يستبين بهن اليقين القيام بالحق فى مواطن الهلكة والتسليم لامر الله عز وجل عند نزول البلاء والرضا بالقضاء عند زوال النعمة نعوذ بالله منه وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه استكمل ايمانه لايخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشيء من عمله واذا عرض عليه أمران

أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا وفى الخبر المشهور ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فأما المنجيات فخشية الله فى السر و العلانية و كلمة العدل فى الرضا والغضب و القصد فى الغنى و الفقر وأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع و اعجاب المرء بنفسه و روينا فى الخبر التكرم التقوى والشرف التواضع والغنى اليقين وفى الحديث الآخر الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم وفى حديث عمار أسنده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كفى بالموت واعظا وكفى بالخشية علما وكفى باليقين غنى وكفى بالعبادة شغلا روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الخطباء وخطيب الخطباء وحكيم الحكماء فى خطبة الوداع كلمات جامعات موجزات فى الوعظ والتذكرة والتزهد والتبصرة وينتظم جميع معانى ماقيل فى معناها رواه أبان بن عياش عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب على ناقته فقال ياأيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب وكان الحق فيها على غيرنا وجب وكان من نشيع من الأموات سفر عما قليل الينا راجعون نبوئهم أجداثهم ونأكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظة وأمنا كل جائحة طوبى لمن شغله عيب نفسه عن عيوب الناس وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة طوبى لمن أذل نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته وعزل عن الناس شره طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدها الى بدعة وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم حديث جامع لهذه المعانى المبثوثة مختصر فى اللفظ والمعنى يقال انه نصف العلم وهو قوله من حسن اسلام المرء تركه مالايعنيه ومالم يؤمر به العبد فرضا ولم يندب اليه نضلا ولا يحتاج اليه مباحا فهو مما لايعنيه وفى حديث آخر هو نصف الورع قوله صلى الله عليه وسلم دع مايريبك الى مالايريبك فان الاثم جوار القلوب أى دع ماتشكن فيه من قول أو فعل فان فيه غنيمة أو سلامة الى شىء أنت على يقين من الفضيلة فيه أو السلامة معه وماحز فى قلبك ولم ينشرح له فدعه فان ذلك اثم وان قل ودق وقد روينا عنه صلى الله عليه وسلم فى الوصف المبسوط من أوصاف المؤمنين كوصف الله تعالى أو ليامعنى الكلام المشروح انه بينا هو جالس صلى الله عليه وسلم بين أصحابه إذ سجد فأطال ثم رفع رأسه مادأ يديه فقال اللهم أكرمنا ولا تهنا وزدنا ولا تنقصنا وأعزنا ولا تذلنا قلنا وماذاك يارسول الله قال أنزلت على آيات من أقامها دخل الجنة ثم تلا علينا قد أفلح المؤمنون الى آخر العشر وروينا عنه فى حديث مجمل ان رجلا سأله فقال يارسول الله متى أعلم انى من أهل الجنة وفى لفظ آخر انى مؤمن حقا فقال اذا كنت بهذه الاوصاف ثم تلا عليه قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم الى آخر النعوت وروينا عنه صلى الله عليه وسلم فى الوصف الجامع المختصر كوصف الحكيم الاكبر من صلح له من عباده بالاخلاص فى التوحيد والعمل فقال صلى الله عليه وسلم لو لم

تنزل على الا هذه الآية كانت تكفى ثم قرأ آخر سورة الكهف فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا الى آخرها فكانهذا فصل الخطاب و بلاغا لاولى الالباب فالعمل الصالح الاخلاص فى العبادة ونفى الشرك بالخلق هو اليقين بتوحيد الخالق وقد قال الله وهو أحسن القائلين فى وصف أوليائه الخائفين ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون الى قوله وهم لها سابقون فوصفهم بسبع مقامات جامعات بالغات تنتظم بمقامات أهل المحاسبة و تستحوذ على معانى أحوال أهل المراقبة افتتحها بالخشية والاشفاق وختمها بالوجل والانفاق وجعل موجبها اليقين وهو الذى رجحت به موازين المتقين صيره آخر وصفهم ونهاية نعتهم وهو قوله تعالى انهم الى ربهم راجعون أى لأجل يقينهم بمرجعهم اليه خافوه وأشفقوا وآمنوا به وأخلصوا وآتوه نفوسهم وأموالهم فهذا كقوله فى الكلام المختصر واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين فللخائفين الأمن من الخوف عند اللقاء وحسن المنقلب والبشرى بالقرب لديه والزلفى فصورة المحاسبة أن يقف العبد وقفة عند ظهور الهمة وابتداء الحركة ثم يميز الخاطر وهو حركة القلب والاضطراب وهو تصرف الجسم فانكان ماخطر به الخاطر من الهمة التى تقتضى نية أو عقدا او عزما أو فعلا أو سعياً ان كان لله عز وجل وبه وفيه معنى لله عز وجل أى خالصا لاجله ومعنى به أى بمشاهدة قربه لا بمقاربة نفسه وهواه ومعنى فيه أى فى سبيله وطلب رضاه عنه وماندب عنده أمضاه وسارع فى تنفيذه وان كان لعاجل دنيا أو عارض هوى أو لهو وغفلة سرى بطبع البشرية ووصف الجبلية نفاه وسارع فى نفيه ولم يمكن الخاطر من قلبه بالاصغاء اليه والمحادثة له فيولد فيه همارديا يصعب عليه بعد حين طرحه وينتج منه فكرا دنيا يعسر بعد وقت نفيه ويؤثر ذلك فى قلبه أثرا يستبين له بعد حين فعله معنى قولنا ان كان لله تعالى أى خالصا لاجله ومعنى قولنا به أى بمشاهدة قربه لا بمقارنة نفسه ووصفه وهواه ومعنى قولنا فيه أى فى سبيله وطلب ماعنده لا لأجل عاجل حظه فان اشتبه عليه الخاطر فلم ينكشف له ماورد به أمحمود هو لله عز وجل فيه رضاه وعلى العبد فيه سبق وتنفيذ أم مكروه وليس لله فيه محبة وللعبد فى نفيه مزيد وقربة فيكون اشكال ذلك لاحد معان ثلاث ضعف يقين عن نقص معرفة بالمبتلى أو قلة علم عن جهل بغامض الحكم الباطل أو لغلبة هوى كامن فى النفس متولد من طبائع الحس وقد قال بعض العلماء ليس العالم الذى يعرف الخير من الشر هذا العاقل يعرفه ولكن العالم من يعرف خير الشرين يعنى يفعله اذا اضطر اليه وعرف شر الخيرين يعنى فاجتنبه لما يؤول اليه واعلم أن حكم الله فيما اشتبه من الأمور الامساك والوقوف وأن لا يقدم العبد على ذلك بعقد ولا عزم ان كان من اعمال القلوب ولا يمضى ذلك بفعل ولا سعى ان كان من عمل الجوارح بل يقف ويوقف الأمر حتى يتبين له وهو

صورة الورع لان الورع هو الجبن والتأخر عن الاقدام على المشكلات وعن الهجوم فى الشبهات لا بقول ولا بفعل ولا بعقد حتى تنكشف وانكشافها بغامض العلم لغموضها وتدقيق معرفة المعانى لدقتها وخفائها كما جاء فى الخبر أعلم الناس أعرفهم بالحق اذا اختلف الناس وعن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل يحب البصير الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات وجاء عن ابن مسعود فى وصف كثرة الشبهات أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان يكون خيركم فيه المثبت كما وقف طائفة من الصحابة عن القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليه الحال منهم سعد وابن عمر وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم فمن لم يتوقف عند الشبهات وأقدم عليها كان متبعا لهواه معجبا برأيه وهذا من معنى الخبر الذى جاء فى ذم من كان هذا وصفه فاذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعاً واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك فلم يذم بوجود الشح لانه صفة النفس وانما ذم من أطاع النفس فى شحها بامساك محبوبها على ايثار محبة الله عز وجل من الانفاق ومثله وهوى متبع فلم يعب بوجود الهوى لانه روح النفس مستكن فيها وانما عيب باتباعه وكذلك قوله واعجاب كل ذى رأى برأيه لم ينقصه بوجود رأيه بما رآه من الأمر لانه نتيجة عقله وثمرة فهمه وانما نقصه بنظره اليه وادلاله به دون سبق نظره الى من أراه وبنوره داه وبايثار رأيه على رأى من هو أعلم منه أو بأن يزرى على رأى غيره افتخارا برأيه وقد قال الله عز وجل فلا تزكوا انفسكم وقد وصف أهل الرأى من اوليائه فى قوله عز وجل ان فى ذلك لآيات للمتوسمين وقال تعالى على بصيرة أنا ومن اتبعنى وجاء فى الاثر ما رآه المؤمنون حسنا فهو عند الله حسن وما رآه المؤمنون قبيحا فهو عند الله قبيح وجاء أنتم شهداء الله فى ارضه وعن بعض السلف افضل العبادة الرأى الحسن فاما ما أشكل لتجاذب الامثال ولم يتبين لك الى أى مثل ترده فالورع أن تقف ولا تمضى حتى ينكشف وأما ما اشتبه لقصور العلم بالاستدلال فالعلم فيه أن تعرف الاصلين من الحرام والحلال ثم ترده الى أشبههما به وهذا ظاهر مثل ما أحاطت طائفة النظر الى الغلام الجميل لانه ذكر فتحتاج الى أن ترده الى أحد الاصلين لأنه مشتبه قال الله عز وجل أنظروا الى ثمره اذا أثمر وقال قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم فكان هذا الاصل أشبه لوجود الجنس ومثله الاستماع الى القصائد أى انشاد الشعر المباح فكان الاستماع الى القرآن حلالا والاستماع الى الغناء حراما وكانت القصائد بالغناء أشبه فكرهناه لغير أهله وكذلك القول فى تلحين القرآن اذا جاوز الحد فى مد المقصور وقصر الممدود مكروه لشبهه بالاغانى ومثل لبس القطن ولبس الحرير فكرهنا لبس الملحم والعمل به لانه بالحرير أشبه لما فيه منه فاما الاقدام على الامور الغامضة مما لم ينكشف للاسماع فلم يظهر للابصار فان القلوب تسأل عن عقود سوء الظن بها والقطع بظاهر الامر عليها وهو معنى قول الله عز وجل عن قفو ما لم يبين علمه اذ لم يجعل من علم العبد وتهدده عليه بمسائلة الجوارح عنه فى قوله تعالى ولا

تقف ما ليس لك به علم أى لا تتبع ولا تجسس أثر ما لم تعلم فتشهد عليه بسمع أو رؤية أو عقد قلب اذ حقيقة العلم السمع والمشاهدة فلذلك قال ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث فمن اشتبه عليه الامر فقطع به فهو متبع للهوى ومن تفرس فى فعل أوأمر غاب عنه حقيقة فاخبر به وأظهره على صاحبه فقد أساء كيف وقد جاء فى الخبر من حدث بما رأته عيناه أو سمعت أذناه كتبه الله عز وجل من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا هذا لكشف ستر الله على عباده ومحبته للساترين منهم ولذلك كان من دعاء أبى بكر الصديق رضى الله عنه اللهم أرنا الحق حقا فنتبعه والباطل باطلا فنجتنبه ولا تجعل ذلك علينا متشابها فنتبع الهوى وكذلك روينا عن عيسى عليه السلام انما الامور ثلاثة أمر استبان لك رشده فاتبعه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله الى عالمه وقد كان من دعاء على رضى الله عنه اللهم انى أعوذ بك ان أقول فى العلم بغير علم فنعمة الله سبحانه وتعالى فى كشف الباطل باطلا وبيان الضلال ضلالا مثل نعمه فى اظهار الحق وبيان الصدق لانه باب من اليقين ولذلك تجمل الله به على نبيه صلى الله عليه وسلم وجعله من تفصيل آياته فى قوله سبحانه وتعالى وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين فنصب سبيل على اضمار اسمه ورفعه على كشف دلالاته وتبيان طرقه وقد وعد الله ذلك للمتقين وقدمه على تكفير السيآت والمغفرة وأخبر ان ذلك من الفضل العظيم فى قوله عز وجل يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيآتكم أى نورا فى قلوبكم تفرقون به بين الشبهات ومثله ومن يتق الله يجعل له مخرجا أى من كل أمر أشكل على الناس ورزقه من حيث لا يحتسب علم بغير تعليم بل الهام وتوفيق من لدن الخبير العليم وقد وعد ذلك المؤمنين عند اختلاف العلماء للبغى بينهم وهو الكبر والحسد وحرم ذلك المنافقين الذين لا يصدقون بالآيات والقدر الغائبات فقال عز وجل فى ذلك وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعدما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه فصنع الهداية للحق ان يكشف الحق اذا هدى المتقى له ما يبدئ الباطل للابتلاء وما يعيد على العبد من الاحكام وقد يكون الباطل اسما للعدو ويكون وصفا للنفس ألم تسمع قوله عز وجل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد أى لما جاء الحق أبدى الباطل وأعاده فاظهر حقيقة الامر بدءاً وعودا وقد قيل ان الباطل يعنى به ابليس ههنا فتدبروا وقال ان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله وكما أن لله عز وجل فى البيان نعمة لانه لا تقع الا بقدرة كما قال فلما تبين له قال أعلم ان الله على كل شىء قدير فكذلك على العبد فيه شكر وقد يكون سببا للانعام بالبيان وعلى الله المزيد على الشكر كما قال كذلك يبين الله

لكم آياته لعلكم تشكرون وقال فى تحقيق الشكر بالمزيد للشاكرين على التصريف كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون فاذا وقف العبد فى الشبهات عن الامضاء وأوقف الخاطر على الابتداء حتى يكشفه الله عز وجل له بمزيد علم أو قوة يقين أو كشف حجاب الهوى فقد وفق للصواب وهو من معنى قوله عز وجل وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب وداخل فى قوله ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا هذا اذا لم يرد بالطلب ولم يجعل لعالم آخر فيه مكان كشفه للعبد بوصفه فاذا أراده بالطلب لاوليائه وجعل للعلماء مكانا للدلالة عليه اضطره ان يسأل عالما بالله و بباطن أحكامه عارفا بلطيف حجابه وخفى كشفه فيكشف له على لسانه اذا لم يكن العبد ممن يكاشف بقلبه لتحقيق قوله فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ولتصديق قوله الرحمن فاسأل به خبيرا والله تعالى هو المسير الاول والمبين الآخر الا ان السير والسؤال على العبد والهدى والبيان على الهادى المبين كما قال سيروا فى الارض فانظروا وقال تعالى فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب الآية ثم قال ان علينا بيانه ان علينا للهدى وعلى الله قصد السبيل كذلك سنته التى قد خلت من قبل ولا تبديل لها ولا تحويل ألم تسمع قول الله تعالى وعلم آدم الأسماء كلها فهذا هو المجتبى للتعليم الآخذ نصيبه من الله عز وجل بتفهيم المصطفى لمكان التخصيص ثم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم ترك آدم ورد اليه وذكر نفسه بالعلم منه بعد أن دل بالواسطة عليه فقال ألم أقل لكم انى أعلم ولم يقل ان آدم يعلم فاخذ آدم نصيبه من رازقه بقلبه لمكان رتبته وأخذت الملائكة أنصبتها من الله عز وجل من نصيب آدم بواسطته والله هو الرزاق ذو القوة المتين كما هو الخلاق هل من خالق غير الله يرزقكم والعبيد يأخذون أنصبتهم باقسامهم من حيث هى طرق وسبب لهم وهذا حينئذ أول المحاسبة عن مشاهدة حسيب والتحقيق بالمحاسبة هو أول المراقبة عن رؤية رقيب والمقام من المراقبة هو حال من أحوال الموقنين وعلم اليقين هو آخر علم الايمان وآخر نصيب العبد من علم اليقين أعنى نهايته أول عين اليقين وهو شهادة المعرفة والمعرفة على هذا الوصف أول المشاهدة وهذا هو مقام المقربين أعنى بمشاهدة وصف قريب يحيط ببعد النفس فيستولى عليها فيغيب بعدها فى قربه و ينتبه عقله تحت ظله وتنطوى حكمته فى قدرته كمحو نور القمر فى ضياء الشمس والله غالب على أمره وعلم معانى الاسماء والصفات وتعريف الاخلاق وباطن أحكام الذات يكون فى مقامات القرب بمرآة نور الوجه فيرفع نه رحكم المكان و يشهد كأن رفع كون المرآة ويشهد الوجه بنورها وتغيب المرآة عن كونها فيكون العبد قائما بقهر قيوميته فيصير العبد شبه ميتة مشاهدا بحيطة قربه لا بكونه كما يشهد الوجه بنور المرآة لا بجسمها ولا يكون هذا الا بعد معاينة وصف وبعد حسن المراقبة فى جميع المعاملة وحسن الادب فى محاضرة الرب بتنفيذ خواطر الخير وسرعة نفى خواطر السر حتى لا يبقى شىء منها وهذا حال

المشاهدة والقرب وذلك يخرج العبد الى صفاء القلب بعلم اليقين وصفاء القلب يرفعه مقامات فى مشاهدة العين حتى لا يخطر بقلبه الا خاطر حق فان عصاه عصى الحق وفى ترك هذا والغض عنه كدر القلب وفى كدره ظلمته وذلك مقامات فى القسوة وهى أول البعد وبلغنى ان ما من فعلة وان صغرت الا وينشر لها ثلاثة دواوين الديوان الاول لم والثانى كيف والثالث لمن فمعنى لم أى لم فعلت وهذا موضع الابتلاء عن وصف الربوبية بحكم العبودية أى أكان عليك ان تعمل لمولاك أم كان ذلك منك بهواك فان سلم من هذا الديوان بأن كان عليه أن يعمل كما أمر به سئل عن الديوان الثانى فقيل له كيف فعلت هذا وهو مكان المطالبة بالعلم وهو البلاء الثانى أى قد عملته بان كان عليك عمله فكيف عملته أبعلم ام بجهل فان الله تعالى لا يقبل عملا الا على طريقته وطريقه العلم فان سلم من هذا نشر عليه الديوان الثالث فقيل لمن وهذا طريق التعبد بالاخلاص لوجه الربوبية وهو البلاء الثالث وهو بغية الله عز وجل من خلقه الذين قال فى حقهم الا عبادك منهم المخلصين وهذا مقتضى كلمة الاخلاص من نفى ماسواه وهى لا اله الا الله وليس بعده الا الاشفاق الى وقت التلاق أى قد عملته بعلم فلمن عملته لوجه الله عز وجل خالصا فأجرك عليه أم لشخص مثلك فخذ أجرك منه أم عملته لتناول عاجل دنياك فقد وفينا اليك عملك فيها أم عملته لنفسك بسهوك وغفلتك فقد سقط أجرك وحبط عملك لذهابك عن القصد وعدم النية فى الفعل فجميع ماأردت به سواه فقد تعرضت للمقت واستوجبت العقاب بترك ما عليك وجهل مالمولاك اذ كنت عبدا لى تتولى غيرى واذا أنت تأكل رزقى وتعمل لسواى واذا كان الدين قد جعلته لنفسى فقصدت به من دونى ويلك أما سمعتنى أقول ألا لله الدين الخالص ويلك ماقبلت أمرى اذ قلت وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقول له ويلك أما سمعتنى أقول ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه فهذه أمثال القرآن يشهد منها العلماء أمثالهم وهى اذا كان الخطاب عند تدبره يفهم بها العارفون أذكارهم فيكون توبيخ الله عز وجل للغافلين بعزائم كلامه وغليظ خطابه أشد عليهم وأوجع لهم من أليم عقابه وذلك أن الله تعالى استخلص الدين لنفسه ولم يشرك فيه أحدا من خلقه فقال ألا لله الدين الخالص يعنى الطريق الموحد غير المشترك الصافى غير الكدر لأن الاخلاص التصفية من اكدار الهوى والشهوة وضده الشرك وهو الخلط بغيره من النفس والناس كما أنعم علينا بالرزق الخالص من بين الفرث والدم فتمت به النعمة فقال نسقيكم مما فى بطونها من بين فرث ودم لبنا خالصا فلو وجد فيه خلط من أحدهما لم تتم به النعمة علينا فكذلك ينبغى أن يكون عملنا له خالصا من الهوى والشهوة لنستحق به الاجر والحظوة منه مع القيام بواجب الحق علينا فكما انا لو رأينا فى اللبن الذى أنعم به علينا فرثا أو دما عافته أنفسنا فلم نأكله فكذلك الحكيم الخبير اذا رأى فى عملنا خلطا من

رياء أو شهوة رده علينا فلم يقبله وكما عمل لنا مما عملت يده بقدرته أنعاما ذللها لنا منها ركوبنا ومنها أكلنا فينبغى أن نشكره فنعمل له بعد الأكل عملا صالحا كما أمرنا بعد اذ أنعم الله علينا فقال كلوا من الطيبات واعملوا صالحا فمن جهل ما جعل الله لنفسه وترك ما أمر به من الاخلاص بالدين لوجهه استوجب المقت لجهله واستحق العقاب لمخالفته وفى تدبر ما قلناه الهرب من الخلق والبكاء على النفس الى لقاء الحق لمن أشهد ووقف وأريد بالحضور فلم يصرف

الفصل الرابع والعشرون

فى ذكر ماهية الورد للمريد ووصف حال العارف بالمزيد

اعلم أن الورد اسم لوقت من ليل أو نهار يرد على العبد مكررا فيقطعه فى قربة الى الله ويوردفيه محبوبا يرد عليه فى الآخرة والقربة اسم لأحد معنيين أمر فرض عليه أو فضل ندب اليه فاذا فعل ذلك فى وقت من ليل أو نهار وداوم عليه فهو ورد قدمه يرد عليه غدا اذا قدم وأيسر الأوراد صلاة أربع ركعات أو قراءة سورة من المثانى أو سعى فى معاونة على بر أو تقوى قال أنس بن سيرين كان لمحمد ابن سيرين فى كل ليلة سبعة أوراد فكان اذا فاته منها شىء قضاه بالنهار فسمى العمل الموظف المؤقت وردا وقال المعتمر بن سليمان ذهبت ألقن أبى عند الموت فأومأ الى بيده دعنى فانى فى وردى الرابع فسمى الحزب من أحزاب القرآن لوقت ما وردا فمن العمال من كان يجعل الأوراد من أجزاء القرآن ومنهم من كان يجعله من أعداد الركوع وفوق هؤلاء من العلماء كانوا يجعلون الأوراد من أوقات الليل والنهار فان قطع الوقت بآية أو ركعة أو فكرة أو شهادة فذلك ورده وأما العارفون فانهم لم يوقتوا الاوراد ولم يقسموا الاوقات بل جعلوا الورد واحدا لمولاهم وجعلوا حاجاتهم من الدنيا ضرورتهم وصيروا الوقت متساويا لسيدهم وتصريفهم لمصالحهم يدخل عليهم فوضعوا رقابهم فى رق العبودية وصفوا أقدامهم فى مصاف الخدمة فكانوا فى كل وقت بحكم ما يستعملون وبوصف ما به يطالبون ذلك وردهم وتلك علامتهم عن حسن اختيار الله عز وجل لهم وجميل توليه اياهم لايكلهم الى نفوسهم ولا يوليهم بعضهم وهو يتولى الصالحين مشاهدتهم ذكرهم وقرب الحبيب حبهم ليس يشهدون فضيلة فى غير محبوبهم ولا يرجون قربة بغير معروفهم به يتقربون اليه واليه به يسبحون له وعليه يتوكلون له ومنه يخافون عنه واياه يحبون منه لو اسقطوا الاعمال كلها غير ما تعلق بالتوحيد ثبوته ما نقص من توحيدهم ذرة ولو تركوا أوراد المريدين كلهم ما أثر فى قلوبهم بقسوة ولا فترة لأنهم لا يزيدون بالأعمال فينقصون بها ولا يتفقدون قلوبهم وأحوالهم بالأوراد فيعرفون النقصان والمزيد منها

ولا تجتمع قلوبهم بسبب ولا تقوى نفوسهم بطلب فتتشتت لفقد سبب ويضعف يقينهم لطلب هذه المعانى هى أحوال المريدين وجملة تغييرهم فى شيئين ضيقهم بالخالق فهربوا منه واتساعهم بالخلق فاستراحوا اليه ولو دام قربهم منه لدامت راحتهم به ولو وقفت شهادتهم عليه لما نظروا الى سواه وأما العارفون فقد فرغ لهم من قلوبهم واجتمعت المتفرقات بمجامعها لهم واقامهم القائم لهم بشهادتهم له فلهم بكل شىء مزيد ومن كل شىء توحيد كل خاطر بهم يردهم اليه وكل منظور اليه يدلهم عليه وكل نظرة وحركة طريق لهم اليه فتوحيدهم فى مزيد ويقينهم فى تجديد بغير تغيير ولا تصريد ولا ايقاف ولا تحديد ولربما طلب أحدهم التسبب بالاسباب فيجمعه بها رب الارباب لأنه مراد بالاجتماع وانما استروح بالشتات لاستجمام ماهو فى قلبه آت ثقة منه بحبيبه وتمكنا عند محبوبه اذ قد علم أنه طالب فطرح نفسه ليحمله فحمله بما تولاه ولم يكله الى نفسه وهواه فهذه مقامات لأهلها لا يعرفها سواهم ولا تصلح الا لهم ولا تليق الا بهم ولا يقاس عليها ولا يدعى مكانها ولا تنتظر فتترك لها الأوراد ولا تتوقع فيقصر لأجلها فى الاجتهاد والمرادون بها محمولون بها مواجهون بعلمها مسلوك بهم طريقها مزودون زادها وهى محبوسة عليهم مقصورة لهم فهم لها سابقون فاولياء الله عابدوه وقد عكفوا بقلوبهم لمن عبدوه ونظروا الى معبودهم الذى عكفوا عليه ففهموا عنه فصل الخطاب بما آتاهم من شهادة حكمه حكم الكتاب اذ يقول وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا بعد قوله للغافلين فصيرهم معرضا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين مع قوله ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشىء يراد الى قوله فاصبر لحكم ربك فانك باعيننا فعلموا ان الاخلاص الذى أمروا به هو العبادة ولا عبادة الا بمجانبة الهوى وبعدها الانابة الى المولى أما سمعت قوله عز وجل والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى وأيقنوا ان الصلاة عماد الدين ولا صلاة الا للمتقين ولا تقوى الا بانابة كما قال الله تعالى منيبين اليه واتقوه ثم قال وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين فهذه عبادة العارفين على سنة النبيين فانابتهم مشاهدتهم لمذكورهم كقوله فى وصف ضدهم كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى فهم عن كشف من ذكره اذ كانت بضدوصفهم وحقيقة ذكرهم نسيانهم لسوى مذكورهم بمعنى قوله واذكر ربك اذا نسيت فاخرجهم الذكر له الى الفرار اليه كما فهموا عنه اذ يقول لعلكم تذكرون ففروا الى الله فلما هربوا اليه آواهم بقربه ووهب لهم هداية الى حبه ونشر لهم من رحمته وطواهم فى قبضته فلم يرهم الاهم ولم يعرفهم سواهم وقد قال تعالى واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته وقال تعالى انى ذاهب الى ربى سيهدين

ذكر الأوراد وما يرجى بها من الازدياد

ولكن بمواصلة الأوراد المرسومة والأعمال المؤقتة المعلومة يستبين للمريد النقصان من المزيد ويعرف قوة العزم والشره من وهن العادة والفترة وفى الأوراد أيضا فضيلة وهو أن العامل اذا شغل عنها بمرض أو سفر كتب له الملك مثل ثواب ما كان يعمل فى الصحة وقد يكون نوم العارف أفضل من صلاة الجاهل لأن هذا النائم سالم وهو ذلك الزاهد العالم اذا استيقظ وجد وهذا الصائم القائم لا يؤمن عليه الآفات وتطرقه الأعداء فى العبادات وهو ذلك الجاهل المغتر اذا وجد فقد وقد روينا فى خبر نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح وفى الحديث عالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد وروينا فى خبر مقطوع لو وقعت هذه على هذه يعنى السماء على الأرض ماترك العالم عمله لشىء ولو فتحت الدنيا على عابد ترك عبادة ربه ولان العالم قد يكاشف فى نومه بالآيات والعبر ويكشف له الملكوت الأعلى والأسفل ويخاطب بالعلوم ويشاهد القدرة من معنى ماتشهده الانبياء فى يقظتهم فيكون نوم العارف يقظة لان قلبه حياة ويكون يقظة الغافل نوما لان قلبه موات فيعدل نوم العالم يقظة الجاهل وتقرب يقظة الجاهل الغافل من نوم العالم كيف وقد جاء فى خبر أبى موسى ان النبي صلى الله عليه وسلم نظر الى أحد فقال هذا جبل أحد ولا يعلم خلق ماوزنه وان من أمتى من تكون التسبيحة منه والتهليلة أوزن عند الله عز وجل منه وفى حديث ابن مسعود اذ قال لعمر ماأنكرت أن يكون عمل عبد فى يوم واحد أثقل من فى السموات والارض ثم وصف ذلك بأنه هو العاقل عن الله عز وجل الموقن العالم به وقد سئلت عائشة رضى الله عنها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان فقالت ماكان يخص رمضان بشىء دون غيره ولا كان يزيد فى رمضان على سائر السنة شيأ وقال أنس بن مالك ماكنت تريد أن ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم نائما من الليل الا رأيته ولاتريد أن تراه قائما الا رأيته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام ثم يقوم قدر مانام ثم ينام قدر ماقام ثم يقوم قدر مانام ثم ينام ثم يخرج الى الصلاة وقالت عائشة رضى الله عنها ماصام رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرا كاملا قط الا رمضان ولا قام ليلة الى الصبح حتى ينام منها قالت وكان يصوم من الشهر ويفطر ويقوم من الليل وينام وفى الخبر الآخر كان يصوم حتى تقول لايفطر ويفطر حتى تقول لايصوم وكان يصبح صائما ثم يفطر ويصبح مفطرا ثم يصوم وفى الخبر الآخر كان يدخل من الضحى فيقول هل عندكم من شىء فان قدم اليه شىء أكل والا قال انى صائم وخرج يوما فقال انى صائم ثم دخل فقلنا يارسول الله أهدى لنا حيس فقال أما انى كنت أردت الصوم ولكن قربيه وكان ورده صلى الله عليه وسلم حكم ماورد عليه فمن هذا المعدن يكون تصريف العارفين ومن هذا المعنى تكون مشاهدة الموقنين ليسوا مع الله بايراد توقيت ولا يقطع

على تحديد كما قيل لبعضهم بأى شىء عرفت الله عز وجل فقال بفسخ العزائم وحل العقد ولكن الأوراد طريق العمال والوظف أحوال العباد منها دخلوا وفيها يرفعون الى أن يشهدوا الواحد فتكون الاوراد كلها وردا واحدا ويكونون بشهادتهم قائمين قال بعض العلماء من السلف الايمان ثلاثمائة خلق وثلاثة عشر على أعداد الانبياء المرسلين كل مؤمن على خلق منها هو طريقه الى الله عز وجل ووجهته من الله عز وجل ونصيبه وفى كل طريقة من المؤمنين طبقة وبعضهم أعلى مقاما من بعض وقال عالم آخر الطرق الى الله عز وجل بعدد المؤمنين وقال بعض العارفين الطرق الى الله بعدد الخليقة يعنى ان للشهيد بكل خلق طريقا فقد صارت المكونات للمكون طرقات وروينا فى الخبر الايمان ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون طريقة من لقى الله عز وجل بالشهادة على طريقة منها دخل الجنة ومن هذا قوله عز وجل قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا فدل أنهم كلهم مهتدون وبعضهم أهدى من بعض بمعنى انه أقرب الى الله عز وجل وأفضل وقد ندب الى القرب فى الامر بطلبه وأخبر عن المقربين بالمنافسة فى طلب القرب فقال يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة يعنى القرب وقال تعالى فيما أخبر أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب فأقرب الخلق من الله عز وجل أعلاهم عند الله عز وجل وأعلاهم عنده أعرفهم به وأفضلهم لديه وروينا فى التفسير قل كل يعمل على شاكلته قال على وحدانيته يعنى بذلك على توحيده الذى يوحد الله عز وجل به ويعرفه منه والشاكلة الطريقة والخلق قد شاكله وقد شكل فيه ومن ذلك قول على رضى الله عنه لكل مؤمن سيد من عمله فهذا السيد من العمل هو الذى يرجو به المؤمن النجاة ويفضل به عند مولاه وقال بعض العلماء كان عباد الكوفة أربعة أحدهم صاحب ليل ولم يكن صاحب نهار والآخر صاحب نهار ولم يكن صاحب ليل وبعضهم صاحب سر ولم يكن صاحب علانية والآخر صاحب علانية ولم يكن صاحب سر وقد كان بعضهم يفضل عبادة النهار على عبادة الليل لما فيها من مجاهدة النفس وكف الجوارح لأن النهار مكان حركة الغافلين وموضع ظهور الجاهلين فاذا سكن العبد عند حركة الغافلين وموضع ظهور الجاهلين فاذا سكن العبد عند حركة الغافلين وموضع ظهور الجاهلين كان هو التقى المجاهد والفاضل العابد وقد قيل ان العبادة ليست الصوم والصلاة حسب بل أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم وتقوى الله عز وجل عند اكتساب الدراهم وهذا من أعمال النهار وقد قال الله عز وجل وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار أى ما كسبت جوارحكم فعلق الاجتراح بالنهار ثم يبعثكم فيه فاذا لم يعلم من عبد اجتراحا بالنهار ولم يبعثه فيه فى مخالفة فمن أفضل منه وكان الحسن يقول

أشد الأعمال قيام الليل بالمداومة على ذلك ومداومة الاوراد من أخلاق المؤمنين وطرائق العابدين وهي مزيد الايمان وعلامة الايقان وسئلت عائشة رضى الله عنها عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان عمله ديمة وكان اذا عمل عملا أتقنه وهذا كان سبب مانقل عنه صلى الله عليه وسلم من صلاته بعد العصر ركعتين انه كان ترك مرة ركعتى النافلة بعد الظهر شغله الوفد عن ذلك فصلاهما بعد العصر ثم لم يزل يصليهما بعد العصر كلما دخل منزله روت ذلك عنه عائشة وأم سلمة ولم يكن يصليهما فى المسجد لئلا يستن الناس به وفى الخبر المشهور كلفوا من الأعمال ماتطيقون فان الله عز وجل لايمل حتى تملوا وفى الحديث الآخر أحب الأعمال الى الله عز وجل ماديم عليه وان قل وقد روينا فى خبر من عوده الله عز وجل عبادة فتركها ملالة مقته الله تعالى وفى خبر عن عائشة رضى الله عنها وقد أسنده بعض الرواة من طريق كل يوم لاازداد فيه علما فلا بورك لى فى صباح ذلك اليوم وقد جاء فى الخبر كلام تارة يروى عن الحسن بن على وتارة يروى عن الحسن البصرى ومرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع يقول من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو محروم ومن لم يكن فى مزيد فهو فى النقصان وفى لفظ آخر من لم يتفقد النقصان من نفسه فهو فى نقصان ومن كان فى نقصان فالموت خير له ولعمرى ان المؤمن شكور والشاكر على مزيد

الفصل الخامس والعشرون

فى ذكر تعريف النفس وتصريف مواجيد العارفين

اعلم ان النقصان يبدو من الغفلة والغفلة تنشأ من آفات النفس والنفس مجبولة على الحركة وقد أمرت بالسكون وهو ابتلاؤها لتفتقر الى مولاها وتبرأ من حولها وقواها ومثل ذلك قوله تعالى ولا تموتن الا وأنتم مسلمون لتفزعوا اليه فتقولوا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين وكما قال وكان الانسان عجولا خلق الانسان من عجل ثم قال سأريكم آياتى فلا تستعجلون وقال أتى أمر الله فلا تستعجلوه فاخبر عن وصفه بالعجلة ثم أمره بتركها للبلوى فان نزلت السكينة وهى مزيد الايمان سكنت النفس عن الهوى باذن منفسها وان حجب القلب بالغفلة وهى علامة على الافتقار والتضرع تحركت النفس بطبعها فان سكنت عن حركتها فبالمنة والفضل وان تحركت بوصفها فبالابتلاء والعدل فأول البلاء اختلافها وأول اختلافها خلافها ومقدمته الهمة وبابه السمع وهو طريق الى الكلام والنظر والقول طريق الى الشهوة والشهوة مفتاح الخطيئة والخطيئة مقام من النار حتى يزحزح عنها الجبار بالتوبة فى الدنيا والعفو فى العقبى وقد تكون المخالفة على المحب العارف

أشد من النار كما حدثت عن بعضهم قال لان ابتلى بدخول النار أحب الى من أن أبتلى بمعصية قيل ولم قال لان فى المعصية خلاف ربى تعالى وسخطه وفى النار اظهار قدرته وانتقامه لنفسه قال فسخطه أعز على وأعظم من تعذيب نفسى وكذلك حدثونا فى معناه عن بعض الموقنين من العمال انه قال ركعتان تتقبل منى أحب الى من دخول الجنة قيل وكيف قال لأن فى الركعتين رضا ربى عزوجل ومحبته وفى الجنة رضاى وشهوتى فرضا ربى عز وجل أحب الى من محبتى وقد قال وهيب بن الورد المكى فى لبن سئل أن يشربه فلم يفعل لأنه سأل عن أصله فلم يستطبه فقالت له أمه اشرب فانى أرجو ان شربته أن يغفر الله لك فقال ما أحب انى شربته وان الله غفر لى قالت ولم قال لا أحب أن أنال مغفرته بمعصيته فجملة وصف النفس معنيان الطيش والشره فالطيش عن الجهل والشره عن الحرص وهما فطرة النفس فمثلها فى الطيش كمثل كرة أو جوزة فى مكان أملس مصوب سكونها بالمنة فان أشرت اليها أو حركتها أدنى حركة تحركت بوصفها وهو خفتها واستدارتها وصورتها فى الشره المتولدة من الحرص انها على صورة الفراشة انها تقع فى النار جاهلة شرهة تطلب بجهلها الضوء وفيه هلاكها فاذا وصلت الى شئ منه لم تقتنع بيسيره لشرهها فتحرص على الغاية منه وتطلب عين الضوء وجملته وهو نفس المصباح فتحرق ولو قنعت بقليل الضوء عن بعد سلمت فكذلك النفس فى طيشها الذى يتولد من العجلة وفى شرهها الذى ينتج من الحرص والطمع والحرص والطمع هما اللذان كانا سبب اخراج آدم عليه السلام من الجنة لانه طمع فى الخلود فحرص على الاكل وكان ذلك عن الجهل والشره فكانت معصيته سبب عمارة الدنيا فصارت الطاعة سبب عمارة الآخرة فلذلك قيل حب الدنيا رأس كل خطيئة فصار الزهد أصل كل طاعة فانظر كيف أخرج من الجنة بعد ان جعل فيها بذنب واحد وأنت تريد ان تدخلها ولم تملك النظر اليها بذنوب كثيرة وفى الحديث الآخر الايمان عريان فلباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم ومن ثم قيل ان الجنة طيبة لا يسكنها الا الطيب فمتى طابوا لها دخلوها ألم تسمع الى وفاقه بين ذلك فى قوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم وقال تعالى وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين لانه قال ومساكن طيبة فى جنات عدن والذنوب خبائث كما قال ويحرم عليهم الخبائث فلما طابوا لها طابت لهم وقد اجمل ذلك بقوله تعالى الخبيثات للخبيثين وبقوله الطيبات للطيبين وقد مثل بعضهم النفس فى شرهها بمثل ذباب مر على رغيف عليه عسل فوقع فيه يطلب الكلية فعلق بجناحه فقتله وآخر مربه فدنا من بعضه فنال حاجته فرجع الى ورائه سالما وقد مثل بعض الحكماء ابن آدم مثل دود القز لا يزال ينسج على نفسه لجهله حتى لا يكون له مخلص فيقتل نفسه ويصير القز لغيره وربما قتلوه اذا فرغ من نسجه لان القز يلتف عليه فيروم الخروج منه فيشمس وربما غمزوه بالايدى حتى يموت لئلا يقطع القز

وليخرج القز صحيحا فهذه صورة المكتسب الجاهل الذى أهلكه أهله وماله فتنعم ورثته بما شقى به فان أطاعوا به كان أجره لهم وحسابه عليه وان عصوا به كان شريكهم فى المعصية لانه أكسبهم اياها به فلا يدرى أى الحسرتين عليه أعظم اذهابه عمره لغيره أو نظره الى ماله فى ميزان غيره ومما سمعت فى علم شره النفس ما حدثنى بعض اخوانى عن بعض هذه الطائفة قال قدم علينا بعض الفقراء فاشترينا من جارلنا جملا مشويا ودعوناه عليه فى جماعة من أصحابنا فلما مد يده ليأكل وأخذ لقمة وجعلها فى فيه لفظها ثم اعتزل وقال كلوا أنتم فانه قد عرض لى عارض منعنى من الأكل فقلنا لا نأكل ان لم تأكل معنا فقال أنتم أعلم أما أنا فغير آكل ثم انصرف قال فكرهنا أن نأكل دونه فقلنا لو دعونا الشواء فسألناه عن أصل هذا الجمل فلعل له سببا مكروها فدعوناه فلم نزل به نسأل عنه حتى أقر انه كان ميتة وان نفسه شرهت الى بيعه حرصا على ثمنه فشواه فوافق انكم اشتريتموه قال فمزقناه للكلاب قال ثم انى لقيت الرجل بعد وقت فسألته لأى معنى تركت أكله وباى عارض فقال أخبرك ماشرهت نفسى الى طعام منذ عشرين سنة بالرياضة التى رضتها به فلما قدمتم الى هذا شرهت نفسى اليه شرها ما عهدته قبل ذلك فعلمت ان فى ذلك الطعام علة فتركت أكله لاجل شره النفس اليه فانظر رحمك الله كيف اتفقا فى شره النفس عن قصد واحد ثم اختلفا فى التوفيق والخذلان فعصم العالم بالورع والمحاسبة وترك الجاهل مع شره النفس بالحرص وتركه المراقبة أعنى البائع للجمل ثم عصم الآخرون للتوفيق بحسن الأدب وهو قمع شره النفس عن الاكل بعد صاحبهم ثم تدارك البائع بعد وقوعه لصدق المشترى وحسن نيته

وجبلات النفس الاربعة هى اصول لما تفرع من هواها وهى مقتضى مافطرها عليه مولاها أولها الضعف وهو مقتضى فطرة التراب ثم البخل وهو مقتضى جبلة الطين ثم الشهوة وموجبها الحمأ ثم الجهل وهو ما اقتضاه موجب الصلصال وهذه الصفات على معانى تلك الجبلات للابتلاء بالامشاج ففيه بدء الامت والاعوجاج ذلك تقدير العزيز العليم ثم أن النفس مبتلاة باوصاف أربعة متفاوتة أولها معانى صفات الربوبية نحو الكبر والجبرية وحب المدح والعز والغنى ومبتلاة باخلاق الشياطين مثل الخداع والحيلة والحسد والظنة ومبتلاة بطبائع البهائم وهو حب الأكل والشرب والنكاح وهى مع ذلك كله مطالبة باوصاف العبودية مثل الخوف والتواضع والذل بمعنى ما قلناه قيل انها خلقت متحركة وأمرت بالسكون وأنى لها بذلك ان لم يتداركها المالك وكيف تسكن بالامر ان لم يسكنها محركها بالخير فلا يكون العبد عبدا مخلصا حتى يكون للمعانى الثلاث مخلصا فاذا تحقق باوصاف العبودية كان خالصا من المعانى التى هى بلاؤه من صفات الربوبية فاخلاص العبودية للوحدانية عند العلماء الموحدين أشد من الاخلاص فى المعاملة

عند العاملين وبذلك رفعوا الى مقامات القرب وذلك انه لا يكون عندهم عبدا حتى يكون مما سوى الله عز وجل حرا فكيف يكون عبد رب وهو عبد عبد لان ما قاده اليه فهو الهه وماترتب عليه فهو ربه وهذا شرك فى الالهية عند المتألهين ومرج بالربوبية عند الربانيين فهو متعوس منكوس بدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم اذ يقول تعس عبد الدينار تعس عبدالدرهم تعس عبد الزوجة تعس عبد الحلة فهؤلاء عبيد العدد الذين قال مولاهم ان كل من فى السموات والارض الا آت الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا أصحاب النفوس الامارة بالسوء المسولة الموافقة للهوى المخالفة للمولى وعبادالرحمن الذين يمشون على الأرض هونا الى آخر وصفهم أولوا النفس المرحومة المطمئنة المرضية هم عباد الرحمن أهل العلم والحكمة علمهم من لدنه واختارهم لنفسه ولايكون المريد بدلا حتى يبدل بمعانى صفات الربوبية صفات العبودية وباخلاق الشياطين أوصاف المؤمنين وبطبائع البهائم أوصاف الروحانيين من الاذكار والعلوم فعندها كان بدلا مقربا والطريق الى هذا بان يملك نفسه فيملكها وتسخر له فيسلط عليها فان أردت أن تملك نفسك فلا تملكها وضيق عليها ولا توسع لها فان ملكتها ملكتك وان لم تضيق عليها اتسعت عليك فان أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها واحتبسها عن معتاد بلاها فان لم تمسكها انطلقت بك وان أردت أن تقوى عليها فاضعفها بقطع أسباب هواها وحبس مواد شهواتها والا قويت عليك فصرعتك فاول الملكة لهاان تحاسبها فى كل ساعة وتراقب حسبتها فى كل وقت وتقف عند كل همة من خواطرها فان كانت الهمة لله عز وجل سابقت الموت وبادرت الفوت فى امضائها وان كانت الهمة لغير الله تعالى سابقت وبادرت فى محوها لئلا تثبت وعملت فى الاستبدال بها كيلا تستبدل بك وفى تأويل الخبر المروى البر يزيد فى العمر وهو معنى الدعاء المشهور من قول الناس جعل الله فى عمرك البركة وقد بورك له فى عمره فان البركة فى العمر أن تدرك فى عمرك القصير بيقظتك ما فات غيرك من عمره الطويل بغفلته فيرتفع لك فى سنة ما لم يرتفع له فى عشرين سنة وللخصوص من المقربين فى مقامات القرب عند التجلى بصفات الرب الحاق برفيع الدرجات وتدارك ما فات عند اذكارهم وأعمال قلوبهم اليسيرة فى هذه الاوقات فكل ذرة من ذكر بتسبيح أو تهليل أو حمد أو تدبر وتبصرة وتفكر وتذكرة بمشاهدة قرب ووجد برب ونظرة الى حبيب ودنو الى قريب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغافلين الذين هم بنفوسهم واجدون وللخلق مشاهدون مثل العارفين فيما ذكرته من قيامهم بمشاهدتهم ورعايتهم لاماناتهم وعهدهم فى وقت قربهم وحضورهم مثل العامل فى ليلة القدر العمل فيها لمن وافقها خير من ألف شهر وقد قال بعض العلماء كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر وروينا عن على رضى الله عنه انه قال كل يوم لا يعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد وكان الحسن اذا

تلا قوله تعالى كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الايام الخالية قال يا اخوانى هى والله ايامكم هذه فاقطعوها بالجد والاجتهاد ولا تضيعوها فخلوها فراغا من حسن المعاملة وبطالتك فيها عن الشغل بمعادك المحصول عليك منها كما قال المبطلون يا حسرتنا على ما فرطنا فيها يعنى فى الايام الخالية التى هى محصولهم ومرجعهم ومثواهم وكما قالت النفس الامارة بالسوء يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله يعنى أيام الدنيا التى ضيعت العمر فيها فخلت من الثواب والجزاء غدا وهذا أحد الوجهين فى قوله الايام الخالية والوجه الآخر الخالية أى الماضية خلت أوقاتها وخلدت أحكامها وذهبت شهواتها وبقيت عقوباتها فان قصرت عن هذه المحاسبة للحسيب ولم يكن لك مقام المراقبة للرقيب ولامكان المحاسبة للحبيب فلا يفوتنك مقام الورعين ولا تبن عن حال التائبين وهو أن تجعل لك وردين فى اليوم والليلة لمحاسبة النفس وموافقتها مرة بعد صلاة الضحى لما مضى من ليلتك وما سلف من غفلتك فان رأيت نعمة شكرت الله وان رأيت بلية استغفرت فان وجدت فى حالك أوصاف المؤمنين التى وصفهم الله عز وجل ومدحهم عليها رجوت وطمعت واستبشرت وان وجدت من قلبك وحالك وصفا من أوصاف المنافقين أو خلقا من أخلاق الجاهلين التى ذمهم الله عز وجل بها ومقتهم عليها حزنت وأشفقت وتبت من ذلك واستغفرت والمرة الثانية أن تحاسب نفسك بعد الوتر وقبل النوم لما مضى من يومك من طول غفلتك وسوء معاملتك وما فعلته من أعمالك كيف فعلتها ولمن فعلتها وما تركته من سكوتك وصمتك لم تركته ولمن تركته فتنعقد الزيادة والنقصان وتعرف بذلك التكلف والاخلاص من حركتك وسكونك فما تحركت فيه وسكنت لأجل الله عز وجل به فهو الأخلاص ثوابك فيه على الله عز وجل عند مرجعك اليه فاعمل فى الشكر على نعمة التوفيق وحسن العصمة من التهلكة وما سكنت فيه أو تحركت لهواك وعاجل دنياك فهو التكلف الذى أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه هو والاتقياء من أمته برآء من التكلف وقد استوجبت فيه العقاب عند نشر الحساب الا أن يغفر المولى الكريم الوهاب فاعمل حينئذ فى الاستغفار بعد حسن التوبة وجميل الاعتذار وخف أن يكون قد وكلك الى نفسك فتهلك فلعل مشاهدة هذين المعنيين من خوف ما سلف منك والطمع فى قبول ما أسلفت يمنعك من المنام ويطرد عنك الغفلة فتحيي ليلتك بالقيام فتكون ممن وصف الله عز وجل فى قوله تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا وقد قال بعض السلف كان أحدهم يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك لشريكه وقد قال بعض العلماء من علامة المقت أن يكون العبد ذاكرا لعيوب غيره ناسيا لعيوب نفسه ماقتا للناس على الظن محبا لنفسه على اليقين وترك محاسبة النفس ومراقبة الرقيب من طول الغفلة عن الله عز وجل والغافلون فى الدنيا هم الخاسرون

فى العقبى لأن العاقبة للمتقين قال الله عز وجل وأولئك هم الغافلون لا جرم انهم فى الآخرة هم الخاسرون وطول الغفلة من العبد عن طبائع القلب من المعبود والغفلة فى الظاهر غلاف القلب فى الباطن تقول العرب غفله وغلفه بمعنى كما تقول جذب وجبذ وخشاف وخفاش وطبائع القلب عن ترادف الذنب بعضه فوق بعض وهو الران الذى يتعقب الكسب فيكون عقوبة له قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون قيل المكاسب الخبيثة وأكل الحرام وفى التفسير هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب وأصل الرين الميل والغلبة وهو التغطية أيضا يقال ران عليه النعاس اذا غلبه ورانت الخمر على عقله أى غطته ومن هذا قول عمر رضى الله عنه فى سابق الحاج فادان معرضا فاصبح وقدرين به أى مال به الدين فغلبه وأصل ترادف الذنوب من اغفال المراقبة واهمال المحاسبة وتأخير التوبة والتسويف بالاستقامة وترك الاستغفار والندم وأصل ذلك كله هو حب الدنيا وايثارها على أمر الله عز وجل وغلبة الهوى على القلب ألم تسمع الى قوله عز وجل ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة الى قوله عز وجل أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وقال فى دليل الخطاب ونهى النفس عن الهوى يعنى عن ايثار الدنيا لأن صريح الكلام وقع فى وصفهم بالطغيان وايثار الحياة الدنيا ثم قال طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم فاتباع الهوى عن طبائع القلب وطبائع القلب عن عقوبة الذنب وميراث العقاب الصمم عن فهم الخطاب اما سمعته يقول لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون وقد جعل على رضى الله عنه الغفلة مقاما من مقامات الكفر فقال فى حديثه الطويل فقام اليه سلمان فقال اخبرنا عن الكفر على مابنى فقال على أربع مقامات على الشك والجفاء والغفلة والعمى فاذا كثرت غفلة القلب قل الهام الملك للعبد وهو سمع القلب لأن طول الغفلة يصممه عن السمع وعدم سمع الكلام من الملك عقوبة الخطايا وتثبيت الملك للعبد على الخير والطاعة وحى من الله عز وجل اليهم وتفضيل للعبد أما سمعت قول الله عز وجل اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا وفى الخبر ان آدم عليه السلام حجب عن سمع كلام الملائكة فاستوحش بذلك فقال يارب مالى لا أسمع كلام الملائكة فقال خطيئتك يا آدم فاذا لم يسمع العبد كلام الملائكة لم يفهم كلام الملك واذا لم يسمع الكلام لم يستجب للمتكلم انما يستجيب الذين يسمعون وقال الحسن ان بين العبد وبين الله عز وجل حدا محدودا من الذنوب فاذا بلغه العبد طبع على قلبه فلم يوفقه للخير أبدا فبادر أيها المجاوز للحدود بالتوبة والرجوع قبل أن تبلغ الحد فتلقى عيا وجهدا وفى حديث ابن عمر الطابع معلق بقائم عرش الرحمن فاذا انتهكت المحارم بعث الله عز وجل بالطابع على القلوب فاعماها وهذا هو القفل الذى قال الله عز وجل أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها واعلم أن القسوة التى يهدد الله عز وجل عليها بالويل المتولدة من طول الغفلة فى قوله عز وجل فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله

وقد قرنها الله عز وجل بالنفاق وأخبر أنه يجعل القاء الشيطان فتنة لأهل النفاق والقسوة فالقاء الشيطان يكثر عند قلة الهام الملك كما ذكرنا آنفا ينتظم ذلك قوله عز وجل ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم أى وللقاسية قلوبهم أيضا والقسوة ثمرة البعد والبعد عقوبة الخيانة والله لا يحب الخائنين فذلك من تدبر الخطاب من قوله فبما نقضهم ميثاقهم أى فبنقضهم الميثاق وما صلة فى الكلام فهذا هو الخيانة لعناهم أى أبعدناهم وجعلنا قلوبهم قاسية بترادف الذنوب بعد القسوة من الكذب والنسيان وكثرة الاطلاع على الخيانة منهم والبهتان فأصيبوا بالذنوب فوقع الطابع على القلوب فصمت عن سمع كلام المحبوب كما قال اصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فجلاء هذا الطابع التقوى فهو مفتاح السمع كما قال اتقوا الله واسمعوا والله تعالى الموفق

الفصل السادس والعشرون

فيه كتاب ذكر مشاهدة أهل المراقبة

اعلم أن مشاهدة المراقبين هى أول مراقبة المشاهدين وذلك ان من كان مقامه المراقبة كان حاله المحاسبة ومن كان مقامه المشاهدة كان وصفه المراقبة فأول شهادة المراقب هو أن يعلم يقينا أن لا يخلو فى كل وقت وان قصر من أحد ثلاثة معان أن يكون لله عز وجل عليه فرض والفرض على ضربين شىء أمر بفعله أو شىء أمر بتركه وهو اجتناب المنهى والمعنى الثانى ندب حث عليه وهو المسابقة بخير يقربه الى الله عز وجل والمسارعة بعمل بر يبتدره قبل فوته والمعنى الثالث شىء مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وليس للمؤمن وقت رابع فان أحدث وقتا رابعا فقد تعدى حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه وقد أحدث فى دين الله سبحانه وتعالى ومن أحدث فى دين الله فقد سلك غير طريق المتقين ألم تسمع الى قوله عز وجل وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا فهل ترى بين هذين وقتا يجهل أو هوى كما لا ترى بين الليل والنهار وقتا ثالثا فالذكر الايمان والعلم فهذان ينتظمان جهل أعمال القلوب والشكر والعمل باخلاق الايمان وأحكام العلوم وهذان يشتملان على جميع أعمال الجوارح قال الله عز وجل اعملوا آل داود شكرا وقال واتقوا الله لعلكم تشكرون وقال كما أرسلنا فيكم رسولا منكم الى قوله فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون وقال الله تعالى ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عوتب فى طول قيامه حتى تورمت قدماه فقال أفلا أكون عبدا شكورا ففسر الشكر بالعمل كما فسر الله عز وجل العمل بالشكر والوقت الثالث هو المباح داخل فيهما لأنه معين عليهما وبه استقامة العبد فيهما وقد كان بعض العلماء يقول لنا فى معاصى الطاعات هم وشغل عن معاصى المخالفات فيبتدىء العبد المراقب فينظر بيقظته

فى أدنى وقت هل لله عز وجل فيه فرض من أمر أو نهى فيبدأ بذلك حتى يفرغ منه فان لم يجد فانه لا يخلو من نوادب وفضائل فيبتدىء بالافضل فان لم يمكن عمل فى أدنى الفضيلتين فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن يومه لامسه ومن ساعته ليومه ومن دنياه لآخرته كما أمره مولاه فى قوله سبحانه وتعالى ولا تنس نصيبك من الدنيا أى لا تترك أن تأخذ نصيبك من الدنيا ولا تترك أن تأخذ نصيبك للآخرة من دنياك وهو ان تحسن كما أحسن الله اليك ولا تطلب الفساد فى الدنيا فتكون قد نسيت نصيبك من الآخرة فيتركك الله من جزيل ثوابه الذى أعد لاحبابه كما قال نسوا الله فنسيهم أى تركوه فتركهم وتركهم له ترك نصيبهم منه وتركه عز وجل لهم ترك محابهم من الآخرة فيبتدئ العبد الفطن فيأخذ من عمره وقته فيجعله لآخرته التى أيقن بها ثم يأخذ من وقته اعلى ما فيه مما يختص به الوقت ولا يوجد الافيه ويفوت دركه بفوت وقته وهو أفضل ما يقدر عليه مما اداه علمه اليه فيجعله لمولاه ثم ان العبد لايخلو فى كل وقت وان قل من أحد مقامين مقام نعمة أو مقام بلية فحاله عن مقام النعمة الشكر وحاله عن مقام البلية الصبر ثم ليس يفقد أحد مشاهدتين شهود نعمة أو شهود منعم من حيث لايخلو من وجود مالك وحضور مملوك فعليه الخدمة للموجود وعليه الحضور فى خدمة المعبود والمراقبة علامة الحضور والمحاسبة دليل المراقبة ويكون له أيضا فى أدنى أوقاته وهو الوقت الثالث الذى هو لمباحه وهو أدنى أحوال المؤمن يكون له فيه مشاهدة منعم أو شهود نعمة لئلا يذهب وقته هذا أيضا فارغا من دنياه ولا يعود عليه شئ من ذكر مولاه أو يذكر نعمة تدله على منعم أو تخرجه اليه فينفعه ذلك فى عقباه اذ العاقبة للمتقين فان شهد منعما انتطعه الحياء بالسكينة والوقار للهيبة وهذا مخصوص بخصوص وان شهد نعمة استغرقه بالشكر والاعتبار فكان لديه تبصرة وتذكار وهذا لعموم الخصوص قال الله عز وجل فى وصف الاولين ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ففروا الى الله وقال فى المقام الثانى ولا تجعلوا مع الله الها آخر وقال فى مقام الاولين قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه الى قوله أفلا تتقون وقال فى وصف الآخرين قل لمن الارض ومن فيها الى قوله أفلا تذكرون وقد روينا فى الاثر من صفات العاقل وحال المراقب وحشو الاوقات بما ينبغى ان تملأ به جمل ما ذكرناه من حديث أبى ذر الطويل ولا يكون المؤمن ظاعنا الا فى ثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة فى غير محرم وبمعناه وعلى العاقل ان يكون له أربع ساعات ساعة يناجى فيها ربه عز وجل وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفكر فى صنع الله عز وجل وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب فان فى هذه الساعة عونا له على الساعات وفيه أيضا ثلاث بجملات من صفة العاقل ومن علامة العاقل ان يكون مقبلا على شأنه حافظا للسانه عارفا بزمانه وفى بعضها مكرما لاخوانه فأول وقت المباح من الاوقات فالنوائب والحاجات تطرقه به والفاقات تدخله عليه فلا يتكلفه قبل وقته فيشغله عن وقته

ثم ان العباد فى مشاهدة الملك على أربع مقامات كل عبد يشهد الملك من مقامه بعين حاله فمنهم من ينظر الى الملك بعين التبصرة والعبرة فهؤلاء أولو الالباب الذين كشف عن قلوبهم الحجاب وهم اولو الايدى والابصار الذين أقامهم مقام الاعتبار وهذا مقام العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ومنهم من ينظر الى الملك واهله بعين الرحمة والحكمة وهذا مقام الخائفين ومنهم من ينظر الى الملك وأهله بعين المقت والبغضة وهذا مقام الزاهدين ومنهم من ينظر الى الملك بعين الشهوة والغبطة وهذا مقام الهالكين وهم أبناء الدنيا الذين لها يسعون وعلى فوتها يتحسرون فان أعطى العبد النظر الى الملك بعين العبرة والحكمة أدخله الملك على الملك فاستغنى به عما سواه وان أعطى الخائف النظر الى الملك بعين الرحمة اغتبط بمقامه وعظمت لربه تعالى عليه النعمة وان أعطى الزاهد النظر الى الملك بعين البغضة أخرجه الملك عن الملك بالزهد فيه فعوضه من فوت الملك الصغير درك الملك الكبير ومن ابتلى بالنظر الى الملك بعين الغبطة والحسرة أوقعه الملك فى الهالك فسلك طريق المهالك ومن شاهد معنى خلق من أخلاق الذوات أو معنى وصف من الصفات كان مقتضاه ما يوجب الخلق أو الوصف من شهود نعيم أو عذاب وهو مقام له فى التعريف يرفعه الى مقام التعرف وهذه شهادة العارفين من كل ما شهدوه من الافعال التى تدل على معانى الاخلاق والاوصاف لانه أظهرها عنه ليستدل عليه بها وينظر اليه منها فاما من شهد شهوة من شهوات النفس بعين الهوى أخرجته الى الاهوا فتخطفه الشياطين وهوت به الريح فى مكان سحيق وتنكب طريق المسالك الى المولى التى تخرجه الى القريب وتقعده عند الحبيب فى مقعد صدق عند مليك مقتدر فمن فاته القرب وقع فى التيه والبعد فهو اليائس المغبون الخائن المفتون الذى يكون أبدا يومه شرا من أمسه وغده شرا من يومه فالموت خير له من حياته لان حياته عن الحبيب تبعده وبقاءه عن السبيل يصده ووجده لهواه يفقده، وظهور نفسه عليه من السوابق يقعده لانه اذا كان فى ادبار وكان ادباره فى اقبال فقد فاته عمره عن آخره كفوت وقت واحد وفوت شيء واحد لان العمر ليس مما يتأتى فوته دفعة واحدة كشيء واحد لانه ينشأ وقتا بعد وقت وانما يفوت جزأ جزأ على حكمة من الله عز وجل وتمهل واستدراج منه وقتا بعد وقت ويوما بعد يوم يستدرجه فى ذلك كما يصعد الدراج فى الدرج مرقاة مرقاة كذلك يشغله فى وقت عنه ويفرغه وقتا آخر لغيره ويذكره فى وقت سواه وينسيه وقتا آخر اياه فشغله حينئذ كفراغه وذكره يومئذ كنسيانه وعلى هذا سائر أوقاته تارة يقطعه عنه وتارة يصله بغيره حتى تفنى الايام بالفوت وتنقضى الاوقات الى الموت وفى ذلك يسبل عليه الستر ليغتر ويسبغ عليه النعم كيلا يعلم ويديم له العوافى ائلا يفطن ويبسط له الامل ليزداد من سوء العمل ويقبض عنه الاجل ليقبض منه الوجل وينشر له الرجاء ويطوى عنه الخوف حتي يبغتهم فجأة من حيث أمنهم ويأخذهم بغتة فى حال

غمرتهم كما قال ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ومن معنى ذلك ما ذكرناه قوله تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء أي لما تركوا ما وعظوا به وخوفوا أسبغنا عليهم النعم وأنسيناهم الشكر فترادفت منهم الذنوب وأنسيناهم الاستغفار ثم قال حتى اذا فرحوا بما أوتوا أي سكنوا الى ذلك وأطمأنوا ولم يريدوا التحويل عنه ولا الاستعتاب منه اخذناهم بغتة أي فجأة في حين أمنهم وقيل بغتة بعد أربعين سنة فاذا هم مبلسون متحيرون باهتون آيسون من كل خير واعلم ان العبد اذا كان بعد ساعة شرا منه قبلها وبعد يوم شرا منه قبله ثم لم يستعتب ولم يتدارك كانت أوقاته كلها وايامه كيوم واحد في الشر ووقت سرمد في السوء فكان كمن فات عمره كله كفوت وقت واحد منه لانه على هذا الوصف يكون فوت العمر لتراخيه وقتا بعد وقت وبنساه شيأ بعد شيء ولتربية العبد بأوقاته وقتا بعد وقت الا أنها في آخر الحساب وبجمله كيوم واحد اضاعة فكان مثله كما قال تعالى ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا وكمن كان حاله الغفلة عن الوعد والوعيد فلما كشف عنه الغطاء حار بصره وبهت واحتد وبرق لمعاينة ما كان عنه غفل وحسرة على ما فيه فرط لقوله تعالى لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد قيل محدد الى أعمالك السيئة أو ثقتك وقيل حديد الى لسان الميزان يتوقع النقص والرجحان وكان كمن قال تعالى في قوله وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الامر وهم في غفلة قيل جاءهم الموت وهم مشغولون بأمور الدنيا وقيل كانوا متشاغلين في شأن النساء وبوصف من قيل له وغرتكم الأماني يعني أماني الهوى حتى جاء أمر الله أي قدم الموت ولم تقدموا له شيأ يقدموا به عليه فمثلهم كمن وصفه بالافلاس وأخبر عنه بالاياس في قوله عز وجل حتى اذا جاءه لم يجده شيأ ووجد الله عنده فوفاه حسابه وقد كان أبو محمد يقول لا يبلغ العبد منازل الصديقين حقيقة من هذا الأمر حتى يكون فيه هذه الأربع أداء الفرائض بالسنة وأكل الحلال بالورع واجتناب النهي في الظاهر والباطن والصبر على ذلك الى الممات وكان الحسن يقول والله ما العمل المؤمن انتهاء دون الموت والله ما المؤمن الذي يعمل الشهر والشهرين والسنة والسنتين انما المؤمن المداوم على أمر الله الخائف من مكر الله انما الايمان شدة في لين وعزم في يقين واجتهاد في صبر وعلم في زهد وكان عمر رضي الله عنه اذا تلا قوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا يقول قد قالها الناس ثم رجعوا فمن استقام على أمر الله في السر والعلانية والعسر واليسر ولم يخف في الله لومة لائم وقال مرة استقاموا والله لربهم ولم يراوغوا روغان الثعالب وقال بعض العلماء من كان طلب الفضائل أهم اليه من أداء الفرائض فهو مخدوع ومن شغل بغيره عن نفسه فقد مكر به وقال سفيان الثوري وغيره انما حرموا الوصول بتضييع الاصول فأفضل شيء للعبد معرفته بنفسه ووقوفه على حده واحكامه لحاله التي أقيم فيها فابتداؤه بالعمل بما افترض عليه بعد اجتنابه ما نهي

عنه بعلم يدبره فى جميع ذلك وورع يحجزه عن الهوى فى ذلك ولا يشتغل بطلب فضل حتى يفرغ من فرض لان الفضل لا يصح الا بعد حوز السلامة كالا يخلص الربح للتاجر الا بعد حصول راس المال فمن تعذرت عليه السلامة كان من الفضل أبعد والى الاغترار أقرب وقد تلتبس الفضائل بالفرائض لدقة معانيها وخفى علومها فيقدم العبد النفل وهو يحسب أنه الواجب فمن ذلك ان أباسعيد رافع بن المعلى كان قائما يصلى فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبه فظن أن وقوفه بين يدى الله عز وجل بالغيب أفضل له فلما سلم جاءه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنعك أن تجيبنى حين دعوتك فقال كنت أصلى فقال ألم تسمع الله عز وجل يقول استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه وهو فى الصلاة ليفيده باطن العلم أو لينظر مبلغ علمه كيف يعمل وكان اجابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل له من صلاته لان صلاته نافلة له فهو مطيع لله عز وجل فى الغيب باختياره واجابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من صلاته لأنها فريضة عليه فهو مطيع لله تعالى فى الشهادة بايجابه ففضل استجابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم على صلاته لنفسه كفضل الفرض على النفل وقد قال سبحانه وتعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله وقال تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله والله تعالى معه فى المكانين معا وهو عند الرسول عليه السلام على يقين فعبادة الله عز وجل ههنا أبلغ فى مرضاته وأثوب له فى آخرته وفى هذا الحديث دليل ان الخبر اذا ورد فى أمر كان على جملة عمومه وكلية ماتعلق به حتى تخص السنة أو الاجماع بعض شأنه ومن ذلك ان قول الله عز وجل استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ان ظاهره مقصور على الاستجابة للرسول صلى الله عليه وسلم بالايمان وبالطاعة فى أوامر القرآن لا الاجابة له فى التصويت خاصة فى الصلاة وهذا هو الذى حمله أبو سعيد بن المعلى عليه وتأوله من الآية فاشكل عليه ومثل هذا فعل عمار فى التيمم لما نزلت آية الاباحة للتيمم فى صلاة الفجر وهم فى سفر فقال عز وجل فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ولم يكن يسمع من النبى صلى الله عليه وسلم فى تخصيص بعض اليد شيأ قال فتيممنا الى المناكب واستوعب جملة اليد لعموم الخطاب حتى أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فأمرهم بالتيمم الى المرفقين وفى خبر الى الزندين باختلاف الروايتين فخص بعض اليد فلذلك اختلف العلماء فى تبعيض اليد فى المسح وكذلك العمل فيما ورد مجملا أن يستعمل فى الجملة حتى تخصه السنة فمن ذلك ماروى أن رجلين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تآخيا فى العبادة فاعتزلا الناس فقال أحدهما لصاحبه هلم اليوم فلننفرد عن الناس ونلزم الصمت فلانكلم من يكلمنا فانه أبلغ فى عبادتنا قال فاعتزلا فى خلوة وصمتا فمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهما فلم يردا عليه السلام قال فسمعناه يقول حين جاوزنا هلك المتعمقون المتنطعون فاعتذرا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابا من ذلك الى الله عز

وجل ومثل ذلك ماروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يعس ذات ليلة فنظر الى مصباح أبيض فى خلل باب فاطلع فاذا قوم على شراب لهم فلم يدر كيف يصنع فدخل المسجد فأخرج عبد الرحمن بن عوف فجاء به الى الباب فنظر و قال له كيف ترى أن نعمل فقال أرى و الله أنا قد أتينا مانهانا الله عنه لانا تجسسنا على عورة فاطلعنا عليها وقد سترها الله دوننا وماكان لنا أن نكشف ستر الله عز وجل فقال ما أراك إلا قد صدقت أنفذ عنك فانصرفنا وفى لفظ آخر انه قال له أرى اناقد عصينا الله و رسوله و نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التجسس فقال صدقت فأخذ بيده وانصرف و روينا نحو هذا أن عمر رضي الله عنه كان يعس ليلة مع ابن مسعود فاطلع من خلل الباب فاذا شيخ بين زق خمر وقينة تغنيه فتسور عليه و قال ماأقبح بشيخ مثلك أن يكون على مثل هذه الحال فقام اليه الرجل فقال ياأمير المؤمنين أنشدك الله الا أنصفتنى حتى أتكلم فقال له قل فقال ان كنت قد عصيت الله عز وجل فى واحدة فقد عصيته أنت فى ثلاث قال و ماهى قال قد تجسست و قد نهاك الله عز وجل عن ذلك و تسورت وقد قال الله عز وجل وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ودخلت بغير اذن وقد قال الله عز وجل لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا و تسلموا على أهلها فقال عمر صدقت فهل أنت غافر لى ذلك فقال غفر الله لك فخرج عمر وهو يبكى حتى علا نشيجه وهو يقول ويل لعمر ان لم يغفر الله له تجد الرجل كان يتخفى بهذا عن ولده وجاره فالآن يقول رآنى أمير المؤمنين ونحو ذلك وجاء فى الخبر اذا دعى أحدكم الى طعام فان كان مفطرا فليجب وان كان صائما فليقل انى صائم فأمره باظهار عمله وهو يعلم ان الاخفاء أفضل ولكن اظهار عمله من حيث لايؤثر فى قلب أخيه وجدا أفضل من اخفائه لنفسه مع تاثير ذلك فى قلب أخيه لتفضيل المؤمن وحرمته على الاعمال اذ الاعمال موقوفة على العامل وانما يعطى الثواب على قدر العامل لا على قدر العمل لتضعيف الجزاء لمن يشاء على غيره فى العمل الواحد فدل ذلك ان المؤمن أفضل من العمل فقيل له ارفع التأثير والكراهة عن قلب أخيك باظهار عملك فهو خير لك من اخفاء العمل مع وجد أخيك عليك لأن أخاك اذا دعاك الى طعام صنعه لك فلم تجبه ولم تعتذر اليه عذرا بينا يقبله منك ويعرفه شق عليه ان كان صادقا فى دعائك وبمعنى هذا من خفى الاعمال ما يحكى عن بعض السلف أنه كان يكون فى الجماعة فيقرأ فى نفسه سرا لئلا يطلع على أعماله أحد فاذا مر بآية فيها سجدة سجد بين الملا فكنا نعرف بسجوده أنه يقرأ فلعل فارغا قليل الفقه يقول انهذا قد أظهر عمله اذ فعل ما يدل عليه فلو ترك السجود ليخفى عمله كان أفضل لأنه قد أظهر ما أخفاه فهذا يدل على جهله بالمعاملة وقد سمعت بعض العلماء يطعن على هذا بفعله بمعنى ما ذكرناه من القول وهكذا يكون علم المريدين القصيرين العلم وليس الامر كما قدره هذا المنكر بسجوده بل القائل المنكر لفعله

قليل الفقه بدقائق الاخلاص جاهل بطريقة العاملين من العارفين والعامل الذى نقل عنه هذا الفعل فقيه مخلص وذلك لانه قد حاز الفضلين معا لأنه كان فاضلا فيما أخفى اذ ابتدأ عمله بالخفية فلما جاء السجود الذى لا يكون الا ظاهرا لم يصلح أن يترك قربة الى الله عز وجل من أجل الناس فكان يسجد كما أمر به ويقرأ كما ندب اليه فصار فاضلا فى الحال الثانى لأنه أظهر لاجل الله عز وجل كما أخفى لاجله ولانه ترك مراقبة الناس ولم يترك عمله لاجلهم ولو كان الفضل فى ترك السجود لاخفاء العمل كان الأفضل لمن دخل عليه فى منزله وهو يصلى أن يقعد لاجلهم وقد وردت السنة فى ذلك ان له أجرين أجر السر وأجر العلانية كيف وقد كانوا يعدون ان الرياء ترك العمل لاجل الناس فاما العمل لاجلهم فشرك وقد قيل لا تعمل للرياء ولا تترك العمل للحياء فالحياء من الخلق شرك كما ان الحياء من الخالق ايمان وأيضا لو أنه أطاع العدو فى ترك العمل لاجل الناس أطاعه مرة أخرى فى العمل لاجلهم ومثل هذا كمثل من كان يصوم ويصلى يومه أجمع فى منزله لا يعلم به مخلوق فلو نوى الاعتكاف ليضمه الى صومه خرج الى المسجد فكان يصلى مقيما فيه فظهر الناس على عمله فلم يكن ليدع ما نواه من العكوف فى المسجد لاجل نظرهم اليه ولم يضره ظهور عمله لثباته على نيته ولمزيد الاعتكاف اذا كان عالما متمكنا وأيضا فان الامام المتمكن المقتدى به لايضره ظهور الناس على أعماله اذا لم يقصد ذلك ولم يحب مدحهم وربما كان له أجران فى ذلك لتنبيه الغافلين عن الذكر وتشويق العاملين الى البر كيف وعند بعض العلماء ان سجود القرآن فرض وان على من سمع آية سجدة أو تلاها وكان على غير وضوء أن يسجد لها اذا توضأ ونحو هذه المعانى ما هو حال للعبد وأولى به من حال غيره ما رواه أبو نصر التمار أن رجلا جاء يودع بشر بن الحرث وقال قد عزمت على الحج أفتأمرنى بشىء فقال بشر كم أعددت للنفقة قال الفى درهم قال فأى شىء تبتغى بحجك نزهة أو اشتياقا الى البيت أو ابتغاء مرضاة الله عز وجل قال ابتغاء مرضاة الله عز وجل قال فان أصبت رضا الله وأنت فى منزلك وتنفق الفى درهم وتكون على يقين من مرضاة الله عز وجل أتفعل ذلك قال نعم قال اذهب فاعطها عشرة أنفس مدين يقضى بها دينه وفقير يرم شعثه ومعيل يحيي عياله ومربى يتيم يفرحه وان قوى قلبك أن تعطيها لواحد فافعل فان ادخالك السرور على قلب امرىء مسلم وتغيث لهفان وتكشف ضر محتاج وتعين رجلا ضعيف اليقين أفضل من مائة حجة بعد حجة الاسلام قم فاخرجها كما أمرناك والا فقل لنا ما فى قلبك فقال يا أبا نصر سفرى أقوى فى قلبى فتبسم بشر وأقبل عليه وقال له المال اذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس الى أن تقضى به وطرا يشرع اليه فظاهرت أعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل الا عمل المتقين وفى نحوه قيل لبشر أيضا ان فلانا الغنى كثير الصوم والصلاة فقال المسكين ترك حاله

ودخل فى حال غيره انما حال هذا اطعام الطعام للجياع والانفاق على المساكين فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء وقد يكون اختفاء الاوجب من الفرائض والتباسه بالفضائل محنة من الله عزوجل لعباده وحكمة له فيهم فيرتكبون التأويل للسعة ويتركون الضيق لخفائه عليهم لينفذ فيهم العلم ويجرى عليهم الحكم ويكون ذلك تأديبا لهم وتعريفا ومزيدا فى التسليم وتوفيقا وقد قال الله تعالى فيما عتب على نبيه صلى الله عليه وسلم ووعظه وزجره فقوله تعالى عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى يقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يغتم فى عمره كغمه حين أنزل عليه سورة عبس لان فيها عتبا شديدا على مثله لانه الحبيب الرشيد ومع ذلك لم يقصده فى الخطاب فيكون أيسر للعتاب بل كشف ذلك للمؤمنين ونبه على فعله عباده المتقين لان معنى قوله عبس وتولى أى انظروا أيها المؤمنون أو اعجبوا الى الذى عبس وتولى أن جاءه الأعمى ولذلك روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلغه ان بعض المنافقين يؤم قومه فكان لا يقرأ بهم الا بسورة عبس فارسل فضرب عنقه يستدل بذلك على كفره ليضع من الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك عنده وعند قومه ومثله قوله عزوجل عاتبا على رسوله صلى الله عليه وسلم عفا الله عنك لم أذنت لهم ونحوه لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك وبمعناه قوله عزوجل وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه حتى قالت عائشة رضى الله عنها لو كتم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ من القرآن كتم هذه الآية ومن أعجب ما سمعت فى هذا المعنى ما حدثونا فى الاسرائيليات عن وهب بن منبه اليمانى ان سليمان بن داود عليهما السلام لما قبضه الله عزوجل خاف رجالا من ولده يعمرون بيت المقدس و يعظمونه برهة من الدهر حتى خالفه بعدهم رجل من ولد سليمان فخالف طريقة آبائه وترك شريعتهم وتكبر فى الارض وطغى وقال بنى جدى داود وأبى سليمان مسجدا فمالى لا أبنى مسجدا مثل ما بنوا وأدعو الناس الى شريعتى كما دعوا فبنى مسجدا يضاهى به بيت المقدس وادعى على الله عز وجل انه أمره بذلك وصرف الناس اليه و بذل لهم الاموال وأخرب مسجد بيت المقدس وهجره فدخل الناس فى دينه رغبة ورهبة قال فابتعث الله اليه نبيا من بعض أهل القرى فقال اركب اتانك هذه وأت هؤلاء القوم أحفل ما يكونون فناد فى مسجدهم وبجمعهم بأعلى صوتك يا مسجد الضرار ان الله عزوجل حلف باسمه ليوحشنك من عمارك وليقتلن أهلك فيك وليشدخنهم بخشبك وجندلك ولتلغن الكلاب دماءهم وتأكل لحومهم فيك وناد فى المدينة بأعلى صوتك بمثل ذلك ولا تأكل ولا تشرب ولا تستظل ولا تنزل عن اتانك هذه حتى ترجع الى قريتك التى خرجت منها قال ففعل ذلك فثار الناس اليه يضربونه بالخشب ويشجونه بالحجارة وهو على أتانه

لايترل عنها فناله على ذلك أذى كثير وضرب عظيم ثم كر راجعا فى آخر النهار يؤم قريته التى خرج منها وقد أدى الرسالة وصبر على الضرب والبلاء لله عزوجل فلما كان ببعض الطريق سمع به نبي آخر كان فى بعض القرى استقبله وسلم عليه فقال انك قد أديت رسالة ربك وانك أمضيت أمره وانك قد نصبت ولقيت عناء من هؤلاء القوم وأنت جائع عطشان تسيل دماؤك على جسدك وثيابك فاخذ الى منزلى فكل واشرب واسترح واغسل جسدك وثيابك فقال ان الله عزوجل لما أرسلنى قد كان عهد الى أن لا آكل ولا أشرب ولا أستظل حتى أرجع الى أهلى فقال له النبى صلى الله عليه وسلم فانى من أهلك لانى نبي مثلك وأخوك فى الدين فلا أرى الله عزوجل عنى بذلك الا القوم الذين بعثك اليهم لانهم أعداؤه فنهاك أن تأكل من طعامهم وتستظل عندهم ولا أحسب حرم عليك دخول منزلى ولا الا كل من طعامى لانى شريكك فى الاخوة والنبوة قال فصدقه وانصرف معه الى منزله فلما وضع الطعام بين يديه وأهوى لياكل عن جوع شديد قد أضر به أوحى الله عزوجل الى ذلك النبي الذى دعاه الى منزله قل له آثرت شهوتك وبطنك على أمرى ألم أعهد اليك أن لاتنزل ولا تستظل ولا تأكل حتى ترجع الى قريتك التى خرجت منها ولولا انك اجتهدت برأيك وقلت بمبلغ علمك لعمكما العقاب وهو أقل عندى عذرا منك لانى عهدت اليه فآثر هواه وشهوته وترك عهدى فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما أمر فوثب مذعورا يجر ازاره وجعل يرحل اتانه ويعجل ولا يعقل ماهو فيه فركبها طاردا لها على وجهه لجوعه وعطشه ودماؤه على ثيابه وجسده لاينثنى فلما هبط عن عقبة تحتها غيضة عارضه سبع فافترسه وانتصب السبع مقعيا على قارعة الطريق يزأر يحرس أتانه ورحله كلما أقبل انسان زأر عليه الأسد حتى يطرده فسمع بخبره ذاك النبي فأقبل نحوه فلما نظر اليه الأسد انصرف عنه وخلى بينه وبينه قال فكفنه وواراه وانصرف برحله وأتانه الى أهله فقال يارب عبدك هذا الذى بلغ رسالتك وأمضى أمرك وقد كان أجهده البلاء فخالف ماأردت فلم يعلم فعاقبته بهذه العقوبة فأوحى الله عز وجل اليه ليست هذه عقوبة ولم أفعل ذلك لهوانه على ولكن هذه مغفرة ورحمة أنه خالف أمرى وكان قد اقترب أجله فكرهت له أن يلقانى على المخالفة فألقاه بما يكره فقيضت له كلبا من كلابى فطهره للقائى فكان ذلك له عندى شهادة ودرجة فوق نبوته فقال سبحانك وبحمدك أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين فالعالم عند العلماء من علم خير الخيرين فسبق اليه قبل فوته وعلم شر الخيرين فأعرض عنه لئلا يشغله عن الأخير منهما وعلم أيضا خير الشرين ففعله اذا اضطر اليه وابتلى به وعلم شر الشرين فأمعن فى الهرب منه واحتجب بحجابين عنه وفى هذه المعانى دقائق العلوم وغرائب الفهوم وأدلة للسائلين وعبرة وآيات للعالمين فأما شر الشرين ومعرفة الخير من الشر فهو معروف بأدلة العقول وظاهر العلوم

الفصل السابع والعشرون

كتاب أساس المريدين

قال بعض العلماء الخلق محجوبون بثلاث حجب الدرهم وطلب الرياسة وطاعة النساء وقال بعض العارفين الذى قطع العباد عن الله عز وجل ثلاثة أشياء قلة الصدق فى الارادة والجهل بالطريق ونطق علماء السوء بالهوى وقال بعض علمائنا اذا كان المطلوب محجوبا والدليل مفقودا والاختلاف موجودا لم ينكشف الحق واذا لم ينكشف الحق تحير المريد واعلم أن المريد لابدله من خصال سبع الصدق فى الارادة وعلامته اعداد العدة ولابد له من التسبب الى الطاعة وعلامة ذلك هجر قرناء السوء ولابد له من المعرفة بحال نفسه وعلامة ذلك استكشاف آفات النفس ولابد له من مجالسة عالم بالله وعلامة ذلك إيثاره على ماسواه ولابدله من توبة نصوح فبذلك يجد حلاوة الطاعة ويثبت على المداومة وعلامة التوبة قطع أسباب الهوى والزهد فيما كانت النفس راغبة فيه ولابدله من طعمة حلال لايذمها العلم وعلامة ذلك الحلال المطالبة عنه وحلول العلم فيه يكون بسبب مباح وافق فيه حكم الشرع ولابدله من قرين صالح يؤازره على ذلك وعلامة القرين الصالح معاونته على البر والتقوى ونهيه اياه عن الاثم والعدوان فهذه الخصال السبع قوت الارادة لاقوام لها الابها ويستعين على هذه السبع بأربع هن أساس بنيانه وبها قوة أركانه أولها الجوع ثم السهر ثم الصمت ثم الخلوة فهذه الاربع سجن النفس وضيقها وضرب النفس وتقييدها بهن يضعف صفاتها وعليهن تحسن معاملاتها ولكل واحدة من الاربع صنعة حسنة فى القلب فأما الجوع فانه ينقص من دم القلب فيبيض وفى بياضه نوره ويذيب شحم الفؤاد وفى ذوبه رقته ورقته مفتاح كل خير لان فى القسوة مفتاح كل شر واذا نقص دم القلب ضاق مسلك العدو منه لان دم القلب مكانه فاذا رق القلب ضعف سلطان العدو منه لان فى غلظ القلب سلطانه والفلاسفة يقولون ان النفس كلية الدم وحجتهم فى ذلك ان الانسان اذا مات لم يفقد من جسمه الادمه مع روحه والعلماء منهم قالوا الدم هو مكان النفس وهذا هو الصحيح لانه مواطىء لما فى التوراة سمعت ان فى التوراة مكتوبا ياموسى لاتأكل العروق فانها مأوى كل نفس وهذا مصدق للحديث الذى روى ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش وقد عبر علماء الكوفة عن الدم بالنفس فقالوا اذا مات فى الماء من الهوام ما ليس له نفس سائلة لم ينجس يعنون الخنافس والصراصر والعناكب ففى الجوع نقصان الدم ونقصانه ضيق مسلك العدو وضعف مسكن النفس لسقوط مكانها وفى خبر عن عيسى عليه السلام يا معشر

الحواريين جوعوا بطونكم وعطشوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل يعني بحقيقة الزهد وصفاء القلب فالجوع مفتاح الزهد وباب الآخرة وفيه ذل النفس واستكانتها وضعفها وانكسارها وفي ذلك حياة القلب وصلاحه وأقل مافي الجوع ايثار الصمت وفي الصمت السلامة وهي غاية للعقلاء وقال سهل رحمه الله اجتمع الخير كله في هذه الاربع خصال وبها صار الابدال ابدالا اخماص البطون والصمت والسهر والاعتزال عن الناس وقال من لم يصبر على الجوع والضر لم يتحقق بهذا الامر وكان عبد الواحد بن زيد يحلف بالله ماتحول الصديقون صديقين الا بالجوع والسهر فانه ينير القلب ويجلوه وفي استنارته معاينة الغيب وفي جلائه صفاء اليقين فتدخل الاستنارة والجلاء على البياض والرقة فيصير القلب كأنه كوكب درى في مرآة مجلوة ويشهد الغيب بالغيب فيزهد في الفاني لما عاين من الباقي وتقل رغبته في عاجل حظوظ هواه لما أبصر من وبال العقاب ويرغب في الطاعات لمشاهدة الآخرة ورفيع الدرجات فيصير الآجل عاجلا ويكون العاجل غائبا ويصير الغائب حاضرا والحاضر آفلا فيطلبه ويرغب فيه فلا يحب الآفل ولا يبتغيه ويطلب الآجل ويرغب فيه وينكشف له عوار الدار ويظهر له بواطن الأسرار ويزول عنه كامن الاغترار فهناك صار العبد مؤمنا حقا بوصف حارثة الأنصاري اذ يقول عزفت نفسي عن الدنيا وكأني أنظر الى عرش ربي تعالى بارزا وكأني أنظر الى أهل الجنة يتزاورون والى أهل النار يتعادون وكذلك وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم قلب المؤمن في قوله القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وانجراد القلب بالزهد في الدنيا وتجرده من الهوى وسراجه الذي يزهر فيه هو نور اليقين به يبصر الغيب وقال بعض علمائنا من سهر أربعين ليلة خالصا كوشف بملكوت السماء وكان يقول اجتمع الخير كله في أربع ذكر منها سهر الليل واعلم أن نوم العلماء عن غلبة المنام بعد طول السهر بالقيام مكاشفة لهم وشهود وتقريب لهم منه وورود ومن صفة الابدال أن يكون أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة ومن سهر بالليل لأجل الحبيب لم يخالفه بالنهار فانه أسهره بالليل في خدمته ودخل الحسن ذات يوم الى السوق فسمع لغطهم وكثرة كلامهم فقال أظن ليل هؤلاء ليل سوء مايقيلون وفي الخبر قيلوا فان الشياطين لاتقيل واستعينوا على قيام الليل بقائلة النهار وقد قيل في قوله عز وجل واستعينوا بالصبر والصلاة قيل بالصوم على قيام الليل وقيل استعينوا بالجوع وصلاة الليل على مجاهدة النفس وقيل استعينوا بالصبر والصلاة على اجتناب النهي وأما الصمت فانه يلقح العقل ويعلم الورع ويجلب التقوى ويجعل الله عز وجل به للعبد بالتأويل الصحيح والعلم الرجيح مخرجا ويوفقه بايثار الصمت للقول السديد والعمل الرشيد وقد قال بعض السلف تعلمت الصمت بحصاة جعلتها في فمي ثلاثين سنة كنت اذا هممت

بالكلمة تلجلج بها لسانى فيسكت وقال بعضهم جعلت على نفسى بكل كلمة اتكلم بهافيما لا يعنينى صلاة ركعتين فسهل ذلك على فجعلت على نفسى بكل كلمة صوم يوم فسهل على فلم أنته حتى جعلت على نفسى بكل كلمة ان أتصدق بدرهم فصعب ذلك فانتهيت وقال عقبة بن عامر يارسول الله فيم النجاة قال أملك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك وقال صلى الله عليه وسلم فى الخبر الجامع المختصر من سره أن يسلم فليلزم الصمت وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا بالصلاة والصيام وغير ذلك ثم قال فى آخر وصيته ألا أدلك على ما هو أملك لك من ذلك كله هذا وأومأ بيده الى لسانه فقلت يارسول الله وانا لمؤاخذون بما تتكلم به ألسنتنا فقال ثكلتك أمك يامعاذ وهل يكب الناس على مناخرهم فى جهنم الا حصائد ألسنتهم انك ما سكت فانك سالم فاذا تكلمت فانما هو لك أو عليك وقال عبد الله بن سفيان عن أبيه قال قلت يارسول الله أوصنى بشىء فى الاسلام لا أسأل عنه أحدا بعدك فقال قل ربى الله ثم استقم قال قلت فما أتقى بعد ذلك وفى لفظ آخر فاخبرنى باضر شىء على فقال هذا وأومأ الى لسانه وفى الخبر لا يتقى العبد ربه تعالى حق تقاته حتى يخزن من لسانه وفى الحديث لا يصلح العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه وقال ابن مسعود ليس شىء أحق بطول سجن من لسان وقال بعض السلف فتشت الورع فما وجدت فى شىء أقل منه فى اللسان وقال بعض العلماء ما استقام لسان عبد الا عرفت الصلاح فى سائر عمله وما اختلف لسانه الا عرفت الفساد فى سائر عمله وقال بعض الحكماء اذا كثر العقل قل الكلام واذا قل العقل كثر الكلام وقال أحمد بن حنبل علماء أهل الكلام زنادقة وقال بعض هذه الطائفة من تكلم فاحسن كثير ولكن الشأن فيمن يحسن أن يسكت وقال ذو النون المصرى الخوف يقلق والحياء يسكت وقال بعض العارفين قد جزىء هذا العلم على قسمين نصفه سكوت ونصفه أن تدرى أين تضعه وقال الضحاك بن مزاحم أدركتهم وما يتعلمون الا الصمت والورع وهم اليوم يتعلمون الكلام وقال الحسن عن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع لا يصبن الا بعجب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله عز وجل وقلة الشىء وقال حماد بن زيد قلت لايوب العلم اليوم أكثر أو فيما مضى فقال يابنى الكلام اليوم أكثر والعلم فيما مضى كان أكثر وقيل كانوا ينتفعون بصمت العالم مثل ما ينتفعون بكلامه وقد قيل من لم ينتفع بسكوت المتكلم لم ينتفع بكلامه وقيل لبعض العلماء فلان أعلم أم فلان فقال فلان اعلم وفلان أكثر كلاما ففرق بين العلم والكلام وقيل لبعض علماء خراسان عند وفاته دلنا على رجل نجلس اليه بعدك فقال لهم فلان فذكر لهم رجلا صموتا متعبدا لا يعرف بكثير علم فقيل له ان فلانا ليس عنده من العلم ما يجيب عن كل ما نسأله عنه من العلم فقال قد علمت ولكن عنده من الورع ما لا يتكلم بما لا يعلم وكان الاعمش يقول من الكلام كلام جوابه السكوت وقال بعض السلف الصمت زين العالم وستر الجاهل

وقال غيره الصمت جوابه وفى الخبر الصمت زين للعالم وشين للجاهل وقال بعضهم ليس شيء أشد على الشيطان من عالم حليم ان تكلم تكلم بعلم وان سكت سكت بحلم يقول الشيطان انظروا اليه سكوته أشد على من كلامه وقال بعض السلف تعلم الصمت كما تتعلم الكلام فان يكن الكلام يهديك فان الصمت يقيك ولك فى الصمت خصلتان تدفع به جهل من هو أجهل منك وتعلم به علم من هو أعلم منك وقال بعض العلماء تعلم لا أدرى ولا تتعلم أدرى فان قلت لا أدرى علموك حتى تدرى وان قلت أدرى سألوك حتى لا تدرى وقد قال العلماء اذا أخطأ العالم قول لا أدرى أصيبت مقاتله وقال عيسى عليه السلام الخير كله فى ثلاثة فى الصمت والكلام والنظر فمن لم يكن صمته تفكرا فهو فى سهو ومن لم يكن كلامه ذكرا فهو لغو ومن لم يكن نظره عبرا فهو لهو وقال بعضهم يأتى على الناس زمان يكون أفضل أعمالهم النوم وأفضل علومهم الصمت يعنى لفساد الأعمال ولاشتباه العلم ويقول أيضا مع ذلك وأفضل أحوالهم الجوع لانتشار الحرام وغموض الحلال وقال بعض العلماء الصمت نوم العقل والنطق يقظته وكل يقظة تحتاج الى نوم وما صمت عاقل قط الا اجتمع عقله وحضر لبه وفى وصية ابن عباس مجاهدا لا تتكلمن فيما لا يعنيك فانه أسلم ولا آمن عليك الخطا ولا تتكلم فيما يعنيك حتى ترى له موضعا فرب متكلم فيما يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فعنت وقال بعض العلماء يستبين ورع الرجل فى منطقه وفى الخبر من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه مات قلبه ويقال اذا قل الكلام كثر الصواب وعن جماعة من السلف ان تسعة أعشار السلامة فى الصمت ويقال كل كلمة من هزل أو مزح أو لغو يوقف العبد عليها خمس مواقف بتوبيخ وتقرير أولها أن يقال لم قلت كلمة كذا أكانت فيما يعنيك والثانية هل نفعتك اذ قلتها والثالثة هل ضرتك لو لم تقلها والرابع ألا سكت فربحت السلامة من عاقبتها والخامسة هلا جعلت مكانها قول سبحان الله والحمد لله فغنمت ثوابها ويقال ما من كلمة الا وينشر لها ثلاثة دواوين الديوان الاول لم والثانى كيف والثالث لمن فان نجا من الثلاث والا طال وقوفه للحساب وقال الحسن لسان المؤمن وراء قلبه اذا أراد أن يتكلم تفكر فان كان له تكلم وان كان عليه أمسك وقلب المنافق على طرف لسانه أى كل شيء خطر بقلبه تكلم به ولا يتوقف ولا يتثنى وفى الخبر من آفة العالم أن يكون الكلام أعجب اليه من الصمت وفى الكلام تنميق وزيادة وفى الصمت سلامة وغنم وفى موعظة النبى صلى الله عليه وسلم طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله والاخبار فى الصمت وفى جميع ما ذكرناه من المعانى تكثر ولم نقصد جمعها وأما الخلوة فانها تفرغ القلب من الخلق وتجمع الهم بامر الخالق وتقوى العزم على الثبات اذ فى مخالطة الناس وهن العزم وشتات الهم وضعف النية والخلوة تقل الافكار فى عاجل حظوظ النفس لفقد مشاهدتها بالابصار لأن العين باب القلب ومنها يدخل آفاته وعندها توجد شهواته ولذاته وقد قال بعض العلماء من كثرت لحظاته دامت حسراته

والخلوة تجلب أفكار الآخرةوتجدد الاهتمام بها لما شهد به الايقان وتنسي ادكار العباد وتواصل ذكر المعبود والخلوة من أكبر العوافى وذلك أنه قد جاء فى الحديث سلوا الله العافية فما أعطى عبد بعد اليقين أفضل من العافية ثم قد روى فى الخبر العزلة عن الناس عافية فدخل ذلك فى معنى ما ندب اليه من السؤال وفيما فضل بعد اليقين على جميع الاحوال ولا يكون المريد صادقا حتى يجد فى الخلوة من اللذة والحلاوة والمزيد مالا يجده فى الجماعة ويجد فى السر من النشاط والقوة مالا يجده فى العلانية ويكون أنسه فى الوحدة وروحه فى الخلوة وأحسن أعماله فى السر ومثل الخلوة فى الاحوال من المخالطة للناس مثل الخوف فى المقامات من المحبة الخوف يصلح لجميع العابدين والمحبة مزيد لاهلها المخصوصين كذلك الخلوة والانفراد يصلح لجميع المريدين والانس بالناس مزيد لأهله خاصة من الائمةالعالمين الا أن الخلوة تحتاج الى عقل آخر والوحدة والانفراد يحتاج الى ايمان ثان وقدروينا عن سفيان الثورى وعن بشر بن الحرث اذا استوحشت من الوحدة واستأنست بالخلق لم آمن عليك الرياء وكان أبو محمد يقول اجتمع الخير كله فى هذه الخصال الاربع وبها صار الابدال ابدالا اخماص البطون والصمت واعتزال الخلق وسهر الليل وحدثت عن عبد العزيز عن سهل رحمه الله قال مخالطة الولى للناس ذل وتفرده عز وقل ما رأيت وليا لله عز وجل الا منفردا وقال بعض العارفين الانس بالوحدة علامة وجود الطريق فمن علامة الصدق الارادة بعد صحة التوبة وقوة العزم على الاستقامة ايثار هذه الاربع التى ذكرناها على اضدادها ووجود القلب عندها وانشراح الصدر بها وحسن الخلق معها لان ضدها هو أبواب الدنيا ومفاتيح الغفلة وطرقات الهوى من ذلك فان فى الشبع قسوة القلب وظلمته وفى ذلك قوة صفات النفس وانتشار حظوظها وفى قوتها وبسطها ضعف الايمان وخمود انواره وفى ضعف النفس وخمود طبعها قوة الايمان واتساع شعاع أنوار اليقين وفى ذلك قرب العبد من القريب ومجالسته للحبيب والشبع مفتاح الرغبة فى الدنيا وقال بعض الصحابة أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع اذ القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم شهواتهم وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يجوعون من غير اعواز أى مختارين لذلك وقال ابن عمر ما شبعت منذ قتل عثمان رضى الله عنه وقال هذا فى زمن الحجاج وفى حديث أبى جحيفة لما تجشأ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له اكفف عنا جشاءك فان أطولكم شبعا فى الدنيا أكثركم جوعا فى الآخرة فقال والله ما تمليت طعاما من يومئذ الى يومى هذا وأرجو أن يعصمنى الله عز وجل فيما بقى ويستحب على هذا أن يكون جوع العبد فى الدنيا أكثر من شبعه وهى علامة الاولياء فمن كان له أكلة بين جوعتين الى منتهاهما لجوعه حينئذ أكثر من شبعه

ومن كان له بعد جوعة بالغة شبعة متوسطة فقد اعتدل شبعه وأكله وجوعه ومن أكل فى يوم مرتين أو أكل من غير جوع ثم شبع فشبعه أكثر من جوعه وهذا مكروه وكل من أكل بعد الجوع ورفع يده قبل الشبع فجوعه أكثر من شبعه وهذا أوسط الاحوال وقال هشام عن الحسن والله لقد أدركت أقواما كانوا لا يشبعون يأكل أحدهم حتى اذا رد نفسه أمسك ذائبا ناحلا مقبلا على نية يعيش عمره كله ما طوى له ثوب قط ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ولاجعل بينه وبين الأرض شيأ قط وقال جعفر بن حيان عن الحسن المؤمن لا يأكل فى كل بطنه ولا تزال وصيته تحت جنبه وروينا عن الثورى خصلتان تقسيان القلب طول الشبع وكثرة الكلام وروينا عن مكحول خصال ثلاث يحبها الله عز وجل وثلاث يبغضها الله عز وجل فاما اللاتى يحبها فقلة الاكل وقلة النوم وقلة الكلام وأما اللاتى يبغض فكثرة الاكل وكثرة الكلام وكثرة النوم فاما النوم فان فى مداومته طول الغفلة وقلة العقل ونقصان الفطنة وسهوة القلب وفى هذه الاشياء الفوت وفى الفوت الحسرة بعد الموت وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قالت أم سليمان بن داود لابنها يابنى لاتكثر النوم بالليل فان كثرة النوم تترك العبد فقيرا يوم القيامة وقيل كان شبان يتعبدون فى بنى اسرائيل فكانوا اذا حضر عشاؤهم قام فيهم عالمهم فقال يامعشر المريدين لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتخسروا كثيرا وكان بعض السلف يقول أدنى أحوال المؤمن الاكل والنوم وأفضل أحوال المنافق الاكل والنوم وقال بعض الناس لفيلسوف من الحكماء صف لى شيأ استعمله حتى أكون أنام النهار فقال يا هذا ماأضعف عقلك ان نصف عمرك نوم والنوم من الموت تريد أن تجعل ثلاثة أرباعه نوما وربعه حياة قال وكيف قال أنت اذا عشت أربعين سنة فانما هى عشرون سنة أفتريد أن تجعلها عشر سنين وأما كثرة الكلام فان فيه قلة الورع وعدم التقوى وطول الحساب وكثرة المطالبين وتعلق المظلومين وكثرة الاشهاد من الاملاك الكاتبين ودوام الاعراض من الملك الكريم لأن الكلام مفتاح كبائر اللسان فيه الكذب والغيبة والنميمة والبهتان وفيه شهادة الزور وفيه قذف المحصن والافتراء على الله تعالى والايمان وفيه القول فيما لا يعنى والخوض فيما لا ينفع وقد جاء فى الخبر أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه وأكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم خوضا فيما لا يعنيه وفى اللسان التزين والتصنع للخلق والتحريف والاحالة لمعانى الصدق وفيه المداهنة والمواراة والتملق لأهل الاهواء وفى اجتماع هذا على العبد شتات قلبه وفى شتاته تفريق همه وفى تفريق همه سقوطه من مقام المقربين وفى وصية ابن عباس لمجاهد لا تمارين حليما ولا سفيها فان الحليم يقلاك وان السفيه يؤذيك وفى الخبر ان العبد ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالا يهوى بها أبعد مابين السماء والأرض وفى لفظ آخر ليتكلم بها فيهوى فى جهنم

سبعين خريفا وقال لقمان لابنه لأن تعيش أخرس يسيل لعابك على صدرك خيرلك من أن تنطق فى نادى القوم بما لا يعنيك وفى خبر من افتتح بكلمة سوء ثم خاض الناس فى مثلها كان عليه مثل أوزارهم وفى الخبر لا يأتى بخبر السوء الا رجل السوء وحدثونا عن ابراهيم بن أدهم أنه كان اذا صحبه رجل فجاء بخبر سوء فارقه و، ويذاق الحديث من حدث بما سمعت أذناه ورأت عيناه كتبه الله تعالى من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا وروينا عن على رضى الله عنه مذيع الفاحشة فى الناس كفاعلها وفى الخبر ان بعض فقراء أهل الصفة استشهد فى سبيل الله عز وجل فقالت أمه هنيأ لك الجنة جاهدت فى سبيل الله وهاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت شهيدا طوبى لك الجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريك أنه فى الجنة فلعله كان يتكلم فيما لاينفعه أو يبخل بما لا يضره وفى لفظ آخر لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه وفى الخبر أن بعض الصحابة قال لرجل انه لنؤوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتبتم أخاكم سلوه أن يستغفر لكم وفى خبر آخر انهم قالوا ماأعجز فلانا فقال أكلتموه وفى حديث عائشة رضى الله عنها انها قالت لامرأة ماأطول ذيلها وفى لفظ آخر قالت انها القصيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتبتها وفى خبر آخر أن ، سول الله صلى الله عليه وسلم قال لها لقد تكلمت بكلمة لو مزج بها ماء البحر لامتزج فهذا من وصف المبالغة فى الشدة وفى الخبر الجامع لهذه المعانى فى وصف الغيبة ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال فى أخيه مافيه فقد اغتابه وفى حديث ابان عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من ذلك انه قال الغيبة ماان قلت فى أخيك لم تزكه به فهذا نهاية القول من الشدة وغاية التشديد فى الغيبة والغيبة اسم لغوى معنا شرعى مشتق من غيب الانسان وفسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم انها ان يقول العبد فى أخيه مافيه وعظمها بقوله هى أشد من الزنا فمتى قال العبد لأخيه فى غيبته مايعلمه يقينا فيه مما لا يقوله بمحضره أو مما ينقصه به أولا يزكيه فيه فقد اغتابه فلو لم يكن فى الصمت الا السلامة من الغيبة لكان ذلك غنيمة موفورة كيف وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل كلام ابن آدم عليه لا له الا ثلاثة أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله عز وجل وأما مخالطة الناس فانها تضعف العزم الذى كان قويا فى أعمال البر وتحل العقد المبرم الذى استوطنه العبد فى الخلوة لقلة المتعاونين على البر والتقوى وكثرة المتعاونين على الاثم والعدوان وفى مخالطة الناس قوة الطلب والحرص على عاجل الدنيا لما يعاين من اقبال أهلها عليه وفيه الفتور عن الخدمة بالنظر الى أهل الغفلة والملل للطاعة بمجالسة أهل البطالة ونقصان حلاوة المعاملة وذهاب نور العلم وسرعة خروج الوجد بالفهم لاستماع كلام أهل الجهالة والنظر الى الموتى من أبناء الدنيا كما روى عن عيسى عليه السلام لاتجالسوا الموتى فتموت قلوبكم قيل ومن الموتى قال المحبون للدنيا الراغبون فيها وقد

كان الحسن يقول فى قوله عز وجل وما يستوى الأحياء ولا الأموات قال الفقراء والاغنياء كان الفقراء حيوا بذكر الله عز وجل والاغنياء ماتوا على الدنيا وأعظم مافى مخالطة الناس ومجالسة أهل البطالة وذوى غفلتهم ضعف اليقين برؤيتهم وأضر ماابتلى به العبد وأعمله فى هلاكه وأشده لحجبه وابعاده ضعف يقينه بما وعدبه بالغيب وتوعد عليه فى الشهادة وهذا أخوف ماخافه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته فيما روينا عنه انه قال أخوف ماأخاف على أمتى ضعف اليقين وذلك ان ضعف اليقين هو أصل الرغبة فى الدنيا والحرص على التكاثر منها والتضرع الى أبنائها والطمع فيهم كما قال ابن مسعود ان الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه فيرجع الى بيته ومامعه من دينه شىء يلقى هذا فيقول انك لذيت وذيت ويلقى هذا فيقول أنت كيت وكيت ولعله لايخلى منهم بشىء ويرجع الى بيته وقد أسخط الله عز وجل وقد قال بعض التابعين ان العبد ليقعد فى الخلوة على خصال من الخير فيخرج الى الناس فيحلون ماعقده عقدة عقدة حتى يرجع وقد انحلت العقد كلها وقوة اليقين أصل كل عمل صالح لأن فى قوة يقينه سرعة منقلبه وطول مثواه فى دار اقامته إيثار التقلل من الفانى وتقديمه للباقى وضعف حرصه وقلة طلبه وفقد طمعه وفراغه من الاشتغال بعاجله واقباله وشغله بما ندب اليه من مستقره وفى جميع ذلك اخلاصه فى أعماله وحقيقة زهده فى تصرف أحواله وفى قصر أمله وتحسين عمله ألم تسمع الى وصف من أخبر الله عزوجل عنه بالتكاثر الذى ألهاه حتى زار برزخه ومثواه كيف تهدده حتى يعلم يقينا وتوعده اذا رأى آخرته عيانا فقال سبحانه ألهاكم التكاثر أى شغلكم الجمع للمكاثرة حتى زرتم المقابر ثم قال كلا لو تعلمون علم اليقين أى لشغلكم العمل الصالح للآخرة عن اللعب واللهو الذى هو مقتضى الشك اذ هو ضد اليقين فاشتغلتم بالآخرة عن التكاثر من الدنيا كما شغلكم التكاثر باللهو واللعب لعدم علم اليقين كما قال أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون بعد أن قال بل هم فى شك يلعبون ثم توعدهم على ذلك مرتين وتهددهم بالسؤال عن النعيم الذى شغلهم وهو التكاثر فى فضول العاجل وقيل هو الجمع والمنع فاعلم ان الذى قطع العباد عن التوبة وعرج بالتائبين عن الاستقامة ثلاثة أشياء الكسب والانفاق والجمع وهذه الاسباب متعلقة بالخلق وموجودة بوجودهم ومفقودة بالانفراد عنهم فمن زهد فى هذه الثلاثة فقد زهد فى الخلق ومن رغب فى الخلق فقد رغب فى هذه الثلاث وقال الثورى من خالط الناس داراهم ومن داراهم راياهم ومن راياهم وقع فيما وقعوا فيه فهلك كما هلكوا وقد قال بعض هذه الطائفة من الصالحين قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق كيف الطريق الى التحقيق وقال مرة قلت له دلنى على عمل أعمله أجد فيه قلبى مع الله تعالى فى كل وقت مع الدوام فقال لاتنظر الى الخلق فان النظر اليهم ظلمة قلت لابدلى من ذلك قال فلا تسمع كلامهم فان كلامهم قسوة قلت لابدلى من ذلك قال فلا تعاملهم فان معاملتهم وحشة

قلت أنا بين أظهرهم لابدمن معاملتهم قال فلا تسكن اليهم فان السكون اليهم هلكة قلت هذهالعلة فقال ياهذا أتنظر الى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك معالله عزوجل على الدوام هذا مالا يكون وقد جاء فيفضل العزلة والانفراد وفى فضل الصمت وفيجيع ماذكرناه من الجوع والسهر ومن مكابدة الليل مايكثرجمعه وفيما نبهنا عليه وأشرنا اليه بلاغ وغنية لمن أراد الآخرةوسعى لهـا سعيها وهو مؤمن ولمن أريد بالمعاملة والمتاجرة ولاحول ولاقوة الا بالله

الفصل الثامن والعشرون

فيه كتاب مراقبة المقربين ومقامات الموقنين

العبد اذا قوى يقينه علم علم يقين ان أوقاته هذه التى وكل تربيته اليها وجعل سبب نمـائه وحياته منها وهى مكررة عليه فى البرزخ ومردودة اليه يوم القيامة ومعادة عليه فىالجنةان دخلهاليس يجازى هناك الا بمقدار ما أعطى من المعاملة ههنا ولا يعطى ثم الا بقدر ماوفق ههنا لايسئل الاعن أوقاته ولا يحاسب الا بساعاته ولا يجازى الا عليها ولا ترد عليه أوقات غيره كما لا يعاد هو فى صورة غيره ولا يعطى جزاء سواه كما لم يعامل ههنا معاملة سواه ولـكن الله يبدىء و يعيد فمن ذلك قوله تعالى كما بدأكم تعودون وقال الله تعـالى أفنجعل المسـلمين كالمجرمين كتاب أنزلناه اليـك مبارك ليدبروا آياته من تدبره أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارضأم نجعل المتقين كالفجار أى تدبروا آياته هل ترون جزاء هؤلاء لوصف هؤلاء أم هل تجدون وصف هؤلاء لهجزاء أولا ومثله قوله تعالى ليس بأمانيكم ولا أمانى أهلالـكتاب فنفى أمانيهم بليس وأثبت حكمه بلـكن وهى مضمرة فى الـكلام المعنى لـكنمن يعمل سوأ يجز به وفسره رسول الله صلى اللهعليه وسلم فقال المؤمن يجزىبسيئتهفى الدنيا منالمصائب والجوعوالعرى والمنافقتبقى ذنوبهعليهحتى يوفىيومالقيامة كأنه حمار يجازىبهافىالآخرة وكانالحسن يقول عبادالله اتقواهذه الأمانى فانها أودية النوكى يحلون فيها والله ماأتىعبدالله بأمنيتهخيرا مندنياه ولا آخرته وقالبعض العلمـاء كلماقل العقل كثرت الأمانى وكتب بعض السلف الىبعض اخوانهمنأبناء الدنيا يعظه أخبرنى عن هذا الذى تكدح فيه وتحرص عليه منأمر الدنيا هل بلغت فيهماتريد وأدركتماتمنى فقال لا والله فقال أرأيتك هـذا الذى أنت حريص عليهلمتنل منهماتريدفكيف تنالمنالآخرة وقدأعرضتعنهاوصرفتعنها فما أراكتضرب الا فىحديد باردوقال بعضالعلماء منظنأنهيدخل الجنة بغيرعمل فهومتمن ومنقال أدخلها بعملفهومتعن وقال بعضهم الامانىتنقص العقلوفى الخبرليس الايمانبالتحلىولابالتمنى ولـكنماوقر فىالقلب وصدقه

العمل ومن هذا قول الله عز وجل هل جزاء الاحسان الا الاحسان وقال فى ضده من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها وقال فى معناه أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وكذلك قوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم وقال فى مثله أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم قال ساء ما يحكمون فابطل حسبانهم وأدحض حكمهم ثم أحكم ما عنده بقوله سواء محياهم ومماتهم أى هم كما كانوا فى المحيا محسنين يعملون الصالحات كانت لهم الحسنى فى الممات وكما كانوا فى المحيا مفسدين يعملون السيآت كانت لهم السوأى والمكروهات وقيل كانت هذه الآية مبكاة للعابدين لأنها محكمة غير متشابهة وكذلك جميع ما ذكرنا من نظائرها هو من المحكم الذى هو أم الكتاب غير منسوخ ولا متشابه وهذه الآى من عزائم القرآن وهو من أحسن ما أنزل علينا من ربنا الذى أمر الله سبحانه وتعالى باتباعه ووصف أهل الهدى وأولى الألباب باستماعه فى قوله تعالى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه قيل عزائمه ووعيده وقد قيل فى قوله تعالى وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون قيل الرجاء الخائب بالاغترار والظن الكاذب وقيل عملوا أعمالا ظنوا أنها حسنات فوجدوها عند المحاسبة سيآت والصحيح ما صح بعد الحساب والحق ما ثقل عند الميزان كما قال الله تعالى والوزن يومئذ الحق قيل العلم والعمل كما قال تعالى ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ثم قال فلنقصن عليهم بعلم ثم قال تعالى وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن قيل كانوا يقدمون الذنب و يؤخرون التوبة و يسوفون بالمغفرة وكانت هذه الآية محزنة للخائفين ومخافة للعارفين وقد أخبر الله سبحانه وتعالى انه أعد النار للكافرين ثم أمر المؤمنين باتقائها ثم وصف الكافرين فيها وخوف عباده بها فقال تعالى واتقوا النار التى أعدت للكافرين وقال سبحانه لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون و يقال ان العبد يستحق النار بأول معصية عصى مولاه بها بعد المعرفة ثم هو بعد ذلك فى المشيئة وان فى كل عبد خصلة كريهة يخاف عليه منها وكان عبدالواحد ابن زيد يقول ما صح خوف خائف قط ظن انه لا يدخل النار وما صدق خوف من ظن انه يدخل النار فظن انه يخرج منها أى ان حقيقة الخوف خشية دخول النار ثم الخلود فيها وقد روينا مثل ذلك عن الحسن وقد ذكر له الرجل الذى يخرج من النار بعد ألف عام فبكى ثم قال ياليتنى مثل ذلك الرجل وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال انى فى الجنة فهو فى النار ومن قال انى عالم فهو جاهل وروى عنه صلى الله عليه وسلم من أراد ان يعلم كيف منزلته من الله تعالى فلينظر كيف منزلة الله فى قلبه فان الله ينزل العبد منه بحسب ما أنزله من نفسه

المقام الثانى من المراقبة

ثم يعلم العبد يقينا ان لكل عمل صالح نعيما فى الجنة وروحا فى البرزخ ولكل عمل حسن ومعرفة خالصة مقاما فى الجنة وقد قسم جزء هناك لعطاء معاملة ههنا وان لكل عمل سيء وجهل قبيح عذابا فى الآخرة وكربا فى البرزخ ومقاما من النار قد قسم جزء هناك لعمل ههنا ثم قد أخفى الله ذلك الجزء من الخير والشر وأظهر أعمالها للحكمين وأبان لها طريقين يجريان الى دارين حكمة منه ثم قدم المعاملات من المعنيين وأخر المثوبات من النوعين احكاما منه للافعال واستسعاء للعبد بالاعمال ابتلاء منه لتجزى كل نفس بما تسعى منة منه ورحمة وقدرة منه ومحبة لا يسئل عما يفعل لانه ملك قهار عزيز جبار وهم يسئلون لانهم عبيد مقهورون وذلل مجبورون ولا تضرب لهم الامثال لانه قد جاوز الاحتجاج والاعتدال ولا يسوى بالعبيد لانه قد فات التقدير والتحديد فله الحجة البالغة والقدرة النافذة فى كل شيء ليس كمثله شيء فى جميع ذلك كله وقد أحكم الله تعالى ماذكرناه فى توحيد نفسه بالمشيئة والافعال ونهيه عن الشرك به وضرب الامثال وعجب ممن يسوى بينه وبين خلقه فى الاحكام وجعل ذلك جحوداً لنعمه وشركا فى ملكه وأخبر به عن المشركين واضلالهم اتباعهم بعد ضلالهم المبين واضلالهم بتسويتهم بينه وبين عباده فى الاحكام فى قوله تعالى قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا الا المجرمون قيل أنزلت فى القدرية لانهم أضافوا الحول والقوة فى الشر الى الخلق فسووا بينهم وبين الخالق وقد قال الله تعالى والله خلقكم وما تعملون فأضاف الأعمال الى انه خلقها كخلقه اياهم فهم المجرمون الذين أنزلت فيهم هذه الآية التى ذكر فيها القدرية فوصفوا بانكارهم فى قوله تعالى ان المجرمين فى ضلال وسعر يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر انا كل شيء خلقناه بقدر هم المجرمون الذين أضلوا أتباعهم وهم الغاوون الذين كبكبوا فى النار مع أشياعهم وقد أحكم الله تعالى تفصيل ماذكرناه آنفا فى خمس آيات محكمات تنظم جمل معانى ماذكرناه تركنا شرح ذلك وبسطه خشية الاطالة لانا لم نقصد الاحتجاج فى الاستدلال من ذلك قوله تعالى والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق يعنى فضل الموالى على العبيد فما الذين فضلوا يعنى الموالى برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون والآية الثانية قوله تعالى ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء أى فكذلك أنا لاشريك لى من عبيدى فلا تجعلوا لى مالم أجعل أحدا لاخلقى ولا عبيدى عليكم اذ لم أسو بينكم وبين عبيدكم فلا تشركوا عبيدى فى حكمى والثالثة قوله تعالى ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء يعنى الانفاق ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه فجعلهما على وصفين أحدهما

بخيل لم يقدره على الانفاق ثم ذم بالبخل والعجز وهو الذى أعجزه ومنعه وجعل الآخر جوادا اذ أقدره وأعطاه الانفاق ثم مدحه بالجود وقال فى الآية الرابعة وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء هو الحكمة والعلم ثم قال هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل فجعل له عبدين أحدهما سفيه جاهل أبكم عن الحكمة ولم يقدره على علم ولم يعطه استقامة ثم ذمه بوصفه ومقته لمنعه وجعل الآخر آمرا بالعدل عن أمره مستقيما على صراطه المستقيم الذى هو عليه وهو أقامه كما قال هذا صراط على مستقيم فهل يسلك أحد طريقه الا به وهل يجوز عبد على سبيله الا بحوله ثم مدحه باعطائه اياه ووصفه بوصفه ثم علم سبحانه ان للعقل فى هذا تشبيها وتمثيلا بخلقه وتجويزا وتظليما من خالقه على قياس العقول ان من فعل بعبدين لمثل هذا ثم مدح أحدهما وهو أعطاه وأقدره وذم الآخر وهو الذى منعه وأعجزه انه قد ظلمه فحسم ذلك عز وجل بنهيه وأحكم النهى عن التمثيل به فى الآية الخامسة الفاصلة القاضية التى نهانا فيها أن نضرب له بنا الأمثال مثل ما أجرى علينا من الافعال فقال سبحانه و تعالى فلا تضربوا لله الأمثال ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون فوكد ذلك بتحقيق علمه وغاية جهلنا ثم أيد هذا بقوله سبحانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فسلم الراسخون فى العلم الأحكام كلها للحاكم فسلموا من عذابه وآمن المؤمنون بجميع الأقدار انها عدل وحكمة من حاكم عادل حكيم فأمنوا من عقابه لأنهم آمنوا بالمتشابه وأعطاهم بفضله من فضله جزيل ثوابه فهلك الزائغون بالاقاويل تتبعا للشبهات وابتغاء للتأويل فوقعوا فى الضلال وهلكوا غدا فى المآل وقد روى الضحاك عن ابن عباس تصديق ماذكرناه قبيل قوله عز وجل لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم قال ابن عباس طبق أسفل من طبق سبع دركات على قدر أعمالهم كذلك يقتسمون الدركات بقدر ما اجترموا كما اقتسم أهل الجنة الدرجات بالفضائل لكل باب منهم جزء مقسوم يعنى نصيبا معلوما مفروضا لكل طبقة سكان وقال بعض العلماء تالله ما فى الجنة قصر ولا نهر ولا نعيم الا عليه اسم صاحبه مكتوب واسم ذلك العمل الذى هو جزاؤه مكتوب وكذلك جهنم ما فيها غل ولا قيد ولا شعب ولا عذاب الا وعليه وصف ذلك العمل الذى هو جزاؤه واسم صاحبه مكتوب وقال قد أدخلهم الجنة قبل أن يطيعوه وأدخلهم النار قبل أن يعصوه وقال بعض العارفين أيضا الخالق أهون من أن يعصوه عز وجل بما لم يرد والله أعز من أن يرضيه الا من أحب لكنه غضب على قوم فى العدم فلما أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الغضب ليحلهم دار الغضب ورضى عن قوم فى القدم فلما أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الرضا ليحلهم دار الرضا وقال بعض أهل المعرفة أظهر الخلق فى العدم وأوجدهم اياهم اقتدارا ثم أظهر لهم أعمالهم وخيرهم الاعمال منه اختيارا فاختار كل عبد منهم عملا بعينه ثم طوى الأعمال فيهم وطواهم فى الغيب فلما أظهرهم الآن فى الوجود حجبهم بالعقول وأجرى كل عبد منهم اختياره لنفسه فبذلك وقعت الحجة عليهم

اذا كشف لهم غدا ماحجبه عنهم اليوم وحدثت عن بعض هذه الطائفة قال كان قد بقى فى نفسى شىء من القدر وكنت أستكشفه من العلماء فلا ينكشف حتى قيض الله تعالى لى بعض الأبدال فاستكشفته اياه فقال ويحك ماتصنع بالاحتجاج نحن يكشف لنا عن سر الملكوت فننظر الى الطاعات تنزل صورا من السماء حتى تقع على جوارح قوم فتتحرك الجوارح بها وننظر الى المعاصى صورا مصورة تنزل من السماء فتقع على جوارح قوم فتتحرك بها قال فكشف عن قلبى القدر وأوقع لى العلم بمشاهدة القدرة وكنت أنا مرة خاطبت بعض اخواننا فى شىء من الاستطاعة مع الفعل لأنه قبله ولابعده فتكلمت فى ذلك بمذهب المثبتة من أهل الكلام قبل ان يكشف لى بمشاهدة علم اليقين فرأيت فى النوم كان قائلا يقول القدر من القدرة والقدر صفة القادر فيقع القدر على الحركة ولا يتبين فتظهر الافعال من الجوارح أو قال فتتحرك الجوارح الافعال ولاتتبين فكيف يتكلم فى شىء لايتبين فجعلت على نفسى انى لا أناظر أحدا منهم بعد ذلك فى شىء من هذا الباب وقد حدثونا عن بعض العابدين قال صليت من السحر ركعتين ثم غفوت بعدهما فرأيت قصرا عاليا ذا شرف بيض كانها الكواكب فاستحسنته فقلت لمن هذا القصر فقيل لى هذا ثواب هاتين الركعتين ففرحت فجعلت أطوف حوله فرأيت شرافة من ركنه قد وقعت فشانه ذلك فاغتممت وقلت لو كانت هذه الشرافة فى أعلاه فى هذا الموضع لتم حسن هذا القصر فان ثلمها قد شانه فقال لى غلام هناك قد كانت هذه الشرافة فى مكانها من القصر الا انك التفت فى صلاتك فسقطت وحدثونا عن بعض الزهاد أنه كوشف مقامه من الجنة فرأى الحور العين وقلن نحن أزواجك فلما خرجت تعلقت بى الحور وقلن ننشدك الله الا ما حسنت أعمالك فانك كلما حسنتها ازددنا لك حسنا وازددت بنا نعيما وحدثونا عن رابعة العدوية رحمها الله تعالى قالت سبحت ذات ليلة تسبيحات من السحر ثم نمت فرأيت شجرة خضرة نضرة لا توصف عظما وحسنا واذا عليها ثلاثة أنواع من الثمر لا أعرفه من ثمار الدنيا كثدى الابكار ثمرة بيضاء وثمرة حمراء وثمرة صفراء فهن يلمعن كالاقمار والشموس فى خلال خضرة الشجر قالت فاستحسنتها فقلت لمن هذه فقال لى قائل هذه لك بتسبيحاتك آنفا قالت فجعلت أطوف حولها فاذا تحتها ثمرة منتشرة على الأرض فى لون الذهب فقلت لو كانت هذه الثمرة مع هذه الثمار على هذه الشجرة لكان أحسن فقال لى الشخص قد كانت هناك الا انك حين سبحت تفكرت هل اختمر العجين أم لا فانتثرت هذه الثمرة فهذه عبرة لاولى الابصار ومواعظ لاهل التقوى والاذكار

ذكر المقام الثالث من المراقبة

روى ان كعب الاحبار قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه لو لقيت الله تعالى بعمل سبعين نبيا لخشيت انك لا تنجو من هول ذلك اليوم وقال بعض السلف لو أن العبد كان يجر على وجهه من أول الدنيا الى قيام الساعة فى طاعة الله وعبادته لاحتقره يوم القيامة لما يرى

من الزلازل والاهوال وفى الحديث معالجة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف وأن ألم شعرة من الموت لو وضع على جميع الخلائق لماتوا وان بين الخلائق وبين الموت وبين دخول الجنة مائة ألف هول كل هول منها يزيد على ألم الموت مائة ألف ضعف لاينجو العبد من كل هول منها الا برحمة فيحتاج العبد الى مائة ألف رحمة تنجيه من تلك الاهوال يكون ذلك العدد من الرحمة مقسوما على مائة الف حسنة أعطيها من حسناته فى الدنيا التى أحسن بها اليه يكون مكانا لظهور الرحمة وطريقا لعطائها غدا حكمة من الحكيم وقسما مدبرا من الرحيم لان الصالحات طرق الجزاء والحسنات كلها عن الرحمة الواحدة التى سبقت له بها النجاة ثم سقطت فى طرقات الاعمال اماكن الثواب فيعطى ذلك هاهنا اليوم وهو العطاء الاول بحسن توفيقه ولطف عنايته ويعطى الجزاء هناك غدا بفضل رحمته وتمام نعمته ذلك تقدير العزيز العليم كما قال تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان قيل فى الخبر ما جزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد الا الجنة وقال بعض العلماء وليس اقول لا اله الا الله جزاء الا النظر لوجه الله تعالى والجنة جزاء الاعمال ألم تر أنه لو حرم التوحيد اليوم لحرم الجنة ولو منع الاسلام اليوم لم يغفر الله له أبدا كما قال عز وجل انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وقال ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم فهذا مما لا حيلة فيه ولا سبيل اليه وقد قال هو أهل التقوى وأهل المغفرة قيل هو أهل أن يعطى التقوى ومن أعطاه التقوى فهو أهل أن يعطيه المغفرة كقوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وقال واتقوا الله لعلكم ترحمون وقال ان رحمة الله قريب من المحسنين وقال سبحانه تماما على الذى أحسن وقال تعالى سنزيد المحسنين الى قوله ما على المحسنين من سبيل وقال تعالى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا فمن كانت أعماله الحسنات فهو من المحسنين ومن كانت أعماله سيئة فهو من المسيئين فاشتقاق الحسنة من الحسن وجزاؤها الحسنى وهى الجنة واشتقاق السيئة من السوء وجزاؤها السوأى وهى النار وقد سبق خلقهما قبل خلق الخلائق وفرغ من نصيب العباد من الجنة والنار وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاحسان فقال أن تعبد الله كانك تراه فهذا أول المراقبة لانها عن غير المشاهدة ترى الرقيب ثم تراقب وقد خص الله تعالى بالطيبات من الاعمال الطيبين من العمال وابتلى بالخبيثات من الاعمال الخبيثين من العمال وفرغ من ذلك بعلمه وقدره بحكمه واخفاه بلطفه فقال تعالى الخبيثات للخبيثين قيل الخبيثات من الافعال والاقوال للخبيثين من الرجال وقال الطيبات للطيبين وقيل الطيبات من الاعمال والمقال للطيبين من الرجال ثم أخبر بحسن خاتمة أوليائه وسوء خاتمة أعدائه فقال تعالى الذى تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون قيل طابت حياتهم فطابت وفاتهم وطابت أعمالهم

فطاب الموت لهم وقال فى وصف الظالمين الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيهافأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا أظلمت حياتهم وأعمالهم فأظلمت قبورهم ومثواهم فمن شهد ما ذكرناه يقينا دامت مراقبته وحسنت معاملته فاتصلت أوراده وكثر من الخير ازدياده ونفذت مشاهدته لصفاء يقينه ودوام مزيده فكان ممن ندب الله عز وجل فى قوله تعالى لمثل هذا فليعمل العاملون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون وكان ممن وصف اذ يقول يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون أى يسارعون الموت ويسابقون الفوت ويسارعون الغافلين ويسابقون البطالين ولعل بطالا من الشاطحين جاهلا بحكمة الحكيم يتوهم علينا بظنه انا نقول انه لا يعطى الا شيأ بشىء ولسنا نقول ذلك انما نقول انه يعطى شيئين بلا شىء فهو المعطى الاول للشىء الذى هو الظرف والمكان من العبادة والايمان وهو الذى يعطى الشىء الذى هو النعيم والجنان الا أنه أجرى ذلك بتقديره فى مجارى حكمته كما سبق ذلك فى علمه ثم أنشأه فى معلومه لانه حكيم عليم

ذكر المقام الرابع من مراقبة الموقنين

ثم يعلم العبد يقينا انه ينشر له سنوه فى الآخرة شهورا وتبسط شهوره اياما وتفترش ايامه ساعات وتكشف ساعاته انفاسا ثم يسئل عن كل نفس وينشر له بكل فعلة فعلها وان صغرت ثلاثة دواوين الاول لم فعلت وهذا مكان الابتلاء بالاحكام فان سلم له نشر له الديوان الثانى وهو كيف فعلت وهو موضع المطالبة بصحة العلم فان صح له هذا نشر عليه الديوان الثالث وهو لمن فعلت وهذا مكان المطالبة فى الاخلاص فان اعتل بكيف أو بلم أو بلمن خيف عليه الهلكة الا ان يتعطف عليه الكريم المنان بحيث لا يحتسب فيستنقذه ويسمح له وقد قال تعالى وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها أى جئنا بها أى أحضرناها وقرئت بالمد آتينا بها بمعنى جازينا بها وقال عز وجل فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وقيل هذه أحكم آية فى كتاب الله عز وجل وهى بجملة مبهمة عامة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سئل عن شىء لم يوح اليه فيه بشىء يقول ما عندى فيه الا هذه الآية الجامعة الفذة فمن يعمل مثقال ذرة الآية ولما تعلم صعصعة جد الفرزدق من أسفل القرآن الى هذه الصورة قال حسبى حسبى قد عرفت الخير والشر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف الرجل فقيها وقيل الذرة قشرة الهباء الذى يظهر فى شعاع الشمس مثل رؤس الابر وروى عن ابن عباس انه قال اذا وضعت كفك على التراب ثم رفعتها فكل شىء تعلق بها من التراب فهو ذرة وقد قيل أربع ذرات خردلة وذكر بعض العلماء أن الذرة جزء من ألف جزء من شعيرة ففى الاعمال ما يزن هذا الشبح وما يثقل به هذا الخفاء فلذلك أخبر به الخبير وحذرمنه الرؤف وفى معنى ما ذكرنا آنفا من حسب انه يدخل الجنة بعمل فهو متعن ومن

حسب انه يدخلها بغير عمل فهو متمن يعنى انه ينبغى ان يعمل ما عليه ولا ينظر اليه ثم يتوكل فى ذلك على الله عز وجل ويرجو قبوله بكرمه ويخاف رده بعدله ولذلك مدح الله سبحانه وتعالى عباده الصابرين له المتوكلين فى أعمالهم عليه فانعم أجرهم فقال نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون فالمزيد فى الجنة بفضل الله ورحمته هو تأييد جزاء المعاملة الموهوبة اليوم ودوام خلود العامل فى تأييد جزائه ألم تسمع قوله تعالى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا مع قوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة الى قوله فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ومثله ولكل درجات مما عملوا ونحوه أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة أى وبما يدرؤن بالحسنة الحديثة السيئة القديمة فلما استعملهم فى الدنيا بعملين بالصبر وبدرء السيئة الماضية بالحسنة المستأنفة اعطاهم فى الآخرة أجرين وهذا من الكلام المحذوف الموجز فمحذوفه وبما يدرؤن أى وبما يدفعون أيضا فلما حذفت بما أشكل الكلام فأشبهت الواو واو النسق ومؤخر السيئة والمعنى يدفعون السيئة التى تقدمت منهم بالحسنة التى يعملونها بعدها فتكون الحسنة المستقبلة رافعة لعقاب السيئة الفارطة منهم ومن أحسن الصبر الصبر على المصيبة ومن أحسن الحسنات التوبة النصوح بعد ما سلف من الذنوب والفضوح فكانهم قد عملوا عملين صبروا عن الشهوة ودفعوا بالتوبة ماسلف من السيئة فاعطاهم أجرين لما استعملهم بعملين اذ لا صبر الا به ولا توبة لهم الا منه كما قال تعالى وماصبرك الا بالله وقال توبة من الله وليس من العبد أو اليه فيما من الله والا كان مشركا فى اسم أول ومن أحسن الحسنات مراقبة الرقيب عند خطرات القلوب ومن أفضل القربات محاسبة النفس للحسيب واستجابتها بطاعة الحبيب وكذلك حكمته فى مزيد أهل النار ودركات بعضهم على بعض فى العتو والفساد فقال تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب أى زدناهم عذابا فوق عذاب الذين كفروا ولم يصدوا عن سبيل الله وبمعناه قوله تعالى ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا فلم يغفر لهم بكفرهم ولم ينور لهم طريق الهداية بظلمهم وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الظلم ظلمات يوم القيامة ومثل ذلك قوله تعالى ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق فصار عليهم عذابان عذاب جهنم بما لم يتوبوا وعذاب الحريق بما فتنوا المؤمنين ومثله قوله تعالى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون أى يريد أن يعذبهم بها فى الدنيا ويريد أيضا أن تزهق أنفسهم على الكفر ليعذبهم بها فى الآخرة وهذا نص صريح ان الله تعالى يريد الكفر من الكافر لان تزهق انتصب بالعطف على يريد الاول والواو فيه للجمع وقد قيل ان فى هذه الآية تقديما وتأخيرا فيكون المعنى ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة فأراد أن يجمع

العذابين عليهم فى جهنم أحدهما الأموال والأولاد والثانى لارادته تعالى أن تخرج نفوسهم على الكفر فمن لا مال له ولا ولد له منهم كان عليه عذاب واحد فى جهنم لأجل قوله تعالى بها أى بسببها وهذا •واصل للخبر الذى جاء ان فقراء الكفار يدخلون النار بعد أغنيائهم بخمسمائة عام لاجل الفقر الذى كانوا فيه فى الدنيا كما ان الفقراء من المؤمنين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام لأجل غنى أولئك وفى الخبر أيضا وتدخل المرضى الى الجنة قبل الاصحاء باربعين خريفا ويدخل المقتول فى سبيل الله مقبلا قبل المقتول فى سبيل الله مدبرا باربعين خريفا وتدخل المماليك قبل الموالى باربعين خريفا ويدخل سليمان بن داود الجنة بعد الانبياء بأربعين خريفا لمكان ملكه فالحسرة العظمى والفوت الأكبر الذى لا درك له وهو تأبيد حرمان ما أعطى غيرك من المزيد هناك لفوت أوقاتك فى الدنيا ههنا ثم درك ذلك بأوقاته العامرة ههنا تأبيده زيد جزائه ثم وهذا هو التغابن غبن العاملون البطالين وغبن السابقون المخلفين وغبن المسارعون المثبطين ثم خلود العبد البطال المغبون فى الدنيا فى تأبيد حرمان مزيد الغابن العامل ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم مامن ساعة تأتى على ابن آدم لا يذكر الله تعالى فيها الا كانت عليه حسرة وان دخل الجنة وفى لفظ آخر وهو أشد الا كانت عليه ترة يوم القيامة أى مطالبة ومؤاخذة فالحسرة فى الجنة بعد دخولها والظفر بنعيمها هو ما ذكرناه من حرمان مزيد العاملين فيها ثم دوام الحرمان مؤيد بها وهو كون العبد فى نقصان درجة غيره ثم هو مخلد فى النقصان سرمدا ومع ذلك فلا يؤبه له ولا يفطن به كيلا ينقص عليه نعيمه والطرفة والنفس اذا خلتا من اليقظة والذكر فهما بمنزلة الساعة الخالية الا ان النبي صلى الله عليه وسلم نص على الساعة ولم يذكر مادونها لأن اسم الساعة أقل الزمان المستعملة عند العرب ليواطئ بقوله قول الله سبحانه وتعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ومعلوم أنه اذا جاء الاجل لا يستأخرون نفسا ولا طرفة عين وكذلك لا يستقدمون طرفة ولا نفسا فذكرت الساعة دون ما نقص منها لئلا يخرج الكلام عن حد استعمالهم وعرفهم وليستدل بها على ما دونها فى القلة من النفس والطرفة وكذلك دل رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصه على الساعة على ما دونها لأن حكمته من حكمة مولاه وكلامه على معانى كلامه وقد دخلت الساعة فما دونها فى الأيام التى قال الله تعالى كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية قيل هى والله أيامكم هذه وستخلو فاشغلوها بالأعمال الصالحة قبل خلوها منكم وانقضائها عنكم وكان الحسن يقول ياابن آدم انما أنت مراحل كلما مضى منك يوم أو ليلة قطعت مرحلة فاذا فنيت المراحل بلغت المنزل الى الجنة أو النار فالساعات تنقلنا والأيام تطوينا كما قال بعض الحكماء مثل العبد فى عمره مثل رجل فى سفينة تسير وهو قاعد كذلك العبد يدنو من الآخرة وهو غافل ويقال أن العبد تعرض عليه ساعاته فى اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة أربعة وعشرين خزنة فيرى فى كل خزانة نعيما ولذة وعطاء وجزاء لما كان أودع

خزانته من ساعاته فى الدنيا من الحسنات فيسره ذلك و يغتبط به فاذا مرت به فى الدنيا ساعة لم يذكر الله تعالى فيها رآها فى الآخرة خزائن فرغا لاعطاء فيها ولا جزاء عليها فيسوءه ذلك و يتحسر كيف فانه ان لم يدخر فيها شيئا فيرى جزاءه مدخرا ثم يلقى فى نفسه الرضا والسكون فلو لم يتحسر العبد الاعلى فوت الفضائل والمندوب اليه من الخيرات لكان فى فوت المسابقة والمسارعة حسرات فكيف بمن فاته أوقاته فى السيآت وفرطت منه فى الخسارات و لو لم يشتغل العبد فى عمره الا بالحلال والمباحات لكان ذلك نقصانا من الدرجات له فكيف بمن شغل بالمحظورات فسبحان الله ما أعظم الخطار وأصعب الأمر وأقل المشاهدين لذلك وأغفل البطالين وقد قال بعض العلماء هب ان المسيء قد غفر له أليس قد فاته ثواب المحسنين وقد جاء فى الأثر ان بعض أهل الجنة بيناهم فى نعيم اذ سطع لهم نور من فوقهم أضاءت منه منازلهم كما تضيء الشمس لأهل الدنيا فنظروا الى رجال من فوقهم أهل عليين يرونهم كما يرى الكوكب الدرى فى أفق السماء قد فضلوا عليهم فى الأنوار والنعيم والجمال كما فضل القمر على سائر الكواكب فينظرون اليهم يطيرون على نجب تسرح بهم فى الهواء حيث شاؤا ويتزاورون بعضهم بعضا يزورون ذا الجلال والاكرام فينادون هؤلاء ياإخواننا ماأنصفتمونا كنا نصلى كما تصلون ونصوم كما تصومون فما هذا الذى فضلتم به علينا قال فاذا النداء من الله عز وجل انهم كانوا يجوعون حين تشبعون ويعطشون حين تروون ويعرون حين تكتسون ويبكون حين تضحكون ويقومون حين تنامون ويخافون حين تأمنون فلذلك فضلوا عليكم اليوم فذلك قوله تعالى فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون وقد جاء فى الخبر أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الالباب

ذكر المقام الخامس من مراقبة الموقنين من المقربين

قال الله تعالى مخوفا للمكافة حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ثم أجابه فقال كلا وحقق قوله تعالى فقال انها كلمة هو قائلها ثم نهى المؤمنين نهيا صريحا عن مثل هذه الحال وأخبر بنقصان من فعل ذلك فقال يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله أى لاتشغلكم عن الطاعة لله تعالى ثم قال ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون أى المغبونون المنقوصون فى الآخرة لانهم آثروا المال والولد على الخالق الرازق ثم أمر بالانفاق مما رزق وقرنه بالايمان واخبر أنه استخلفنا فى ملكه اختبارا لنا فقال آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فسمع الغافلون نصف الكلام فآمنوا ولم ينفقوا وعقل العاملون كل الكلام فآمنوا وأنفقوا وما يعقلها الا العالمون وقال سبحانه وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق أى بالمال وأكن من الصالحين أى بالاعمال وكان ابن عباس يقول هذه الآية من أشد شيء على أهل التوحيد لأنه لايتمنى التأخير والرجوع الى

الدنيا أحد له عند الله خير فى الآخرة ومثل هذا قوله سبحانه أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله الحسرة هى أعظم الندامة وهى اسم لفوت شىء لا تدارك فيه فرطت أى ضيعت ووبيت وفرط منى أى ذهب وفات وجنب الله قيل على مافاتنى من الجزاء منه فى الآخرة وقيل ما فات من النصيب فى أيام الدنيا الى قوله أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة يعنى الى الدنيا يعنى عودة أخرى فأكون من المحسنين و قوله أن تقول نفس من الكلام المضمر المعطوف وضمره من قبل أن تقول أو خشية أن تقول ومعطوفه هو قوله وأنيبوا الى ربكم و أسلموا له أى اقبلوا اليه و توبوا واستسلموا و سلموا اقلوبكم ونفوسكم وأموالكم فى طاعته و عبادته واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم أى اتبعوا العزائم من الأمور و الفواضل من الأعمال فهو أحسن من الرخص و المباحات مثل الزهد و الورع والخوف و الايقان فهذا من أحسن ما أنزل الينا من ربنا ثم قال تعالى أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله فلما طال الكلام و أضمر معطوفه و بعد عاطفه للاختصار أشكل فهمه وفى القرآن ماهو أشد اختصارا وأبعد من هذا اضمارا كقوله تعالى فما يكذبك بعد بالدين المعنى فما الذى يحملك على التكذيب أيها الانسان الذى خلقناه فى أحسن تقويم بعد هذا البيان والبرهان بالدين بالغائبات و الكائنات من أمور الدين والحسنات والجزاء ثم أحكم ذلك بردماليه فقال أليس الله بأحكم الحاكمين و كذلك قوله و لاتنس نصيبك من الدنيا المعنى لاتترك أن تعمل فى الدنيا بأيامك هذه فتدرك نصيبك غدا من الآخرة فى الدنيا فانك لاتدركه الا فيها ثم أحكمه بقوله وأحسن كما أحسن الله اليك أى أحسن الى نفسك والى اخوانك الفقراء كالذى أحسن اليك به من المال و الغنى فبذلك تدرك نصيبك من الدنيا فى الآخرة ثم أخبر الله سبحانه الكل وحذرهم فقال حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها أى ياندامتنا على ماضيعنا فى الدنيا وفاتنا فى الآخرة و فى الخبر لايموت أحد الا بحسرة و ندامة ان كان مسيئا كيف لم يحسن و ان كان محسنا كيف لم يزدد وذلك ان الله تعالى جعل أهل السلامة و النجاة طبقتين بعضهم أعلى من بعض و جعل أهل الهلكة طبقة واحدة بعضهم أسفل من بعض فكان صاحب الشمال يتحسر كيف لم يكن من أصحاب اليمين لقوله تعالى كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين وصاحب اليمين يتحسر كيف لم يكن من المقربين و الصالح من المقربين يتمنى أن يكون من الشهداء و الشهيد يود أنه من الصديقين فهو يوم الحسرة الذى أنذر به أهل الغفلة فكيف بهم فى ذلك اليوم اذا كانوا اليوم أمواتا و لم يكن له حسنة فانى لهم النذارة والتذكر كما قال وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الأمر وهم فى غفلة و قد قال لينذر من كان حيا كما قال انما أنت منذر من يخشاها انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب و قال تعالى فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد يعنى الى ماقدمت و قيل حديد الى لسان الميزان تخاف النقصان وقال تعالى وجاءت سكرة الموت بالحق قيل بالسابقة لهم وعليهم فهو الحق سبقت لهم منا الحسنى حقت عليهم كلمة ربك

لايؤمنون وسقط مادونها وقدقيل انما يوزن من الاعمال خواتيمها والخواتم من السوابق ومابينهما زاهق والوزن يومئذ الحق ماسبق من العدل والصدق وتمت كلمة ربك صدقا لأوليائه وعدلا على أعدائه ألا له الخلق والأمر

ذكر المقام السادس من مشاهدة المقربين

الخيرات هى من ثمرات الايمان والصالحات هى مقتضى اليقين واللعب مقتضى الشك والسمع والبصر وصفان للمتقين والعمى والصمم وصفان للشك تنتظم هذه المعانى فى قول الله تعالى قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين فدل ان الايمان يأمر المؤمنين بالبر والتقوى وقوله تعالى مخبرا عمن أيقن فسمع وأبصر فينال العمل الصالح ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون وقوله تعالى فى وصف اللاعبين بل هم فى شك يلعبون ثم ذكر حالهم لعدم اليقين فقال تعالى ماكانوا يستطيعون السمع وماكانوا يبصرون لانهم لم يكونوا موقنين فلما جاءهم اليقين وهو المعاينة أبصروا وسمعوا فقالوا وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين فوصفهم بشدة السمع والبصر حينئذ لما أيقنوا فقال عزوجل أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا أى ماأسمعهم وأبصرهم اليوم لماجاؤنا فرأوا ماعندنا وهذا للمبالغة فى الوصف كما تقول أكرم وأعظم به أى ماأكرمه وأعظمه فكذلك اذا أتيته اليوم وأنت موقن سمعت مالم تسمع وأبصرت مالم ترقبل ذلك ولكن شغلتك الازواج التى خلق والأشكال والأشباه التى أظهر فتألهت اليها ووقفت معها ولو فررت منها الى الله تعالى لفررت الى خير مفر ولآواك عنده فى أحسن مقر وقد أمرك بالفرار منها اليه لو قبلت ونهاك عن التأله اليها لو سمعت وبين لك النذارة لو فهمت وجعل ما خلق من الازواج تذكرة به لو عرفت ورادة اليه لو انك للذكر اتبعت ومشوقة اليه لو كنت لقربه أحببت أما سمعته يقول ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون أى مثلين وشكلين لكى تذكروا الله بها وتشتاقون اليه منها ثم قال ففروا الى الله أى عنها بالزهد ثم قال ولا تجعلوا مع الله الها آخر أى لا تألهوا معه الها ولا تشركوا بتألهكم اليه اياها فهذا فهم المقربين عن سمعهم بشهادة أبصار قلوبهم فعندها كان استجابتهم له كما قال انما يستجيب الذين يسمعون وقال ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ولكن كيف يسمع من ينادى من مكان بعيد وكيف يبصر من القفل على قلبه عتيد وكيف يستجيب من لا يسمع وكيف يشهد من لا يبصر وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم حبك للشىء يعمى ويصم فالهوى يعمى عن الحق والشهوة تصم عن النصح والصدق وكذلك لو أحببته لنظرت اليه ولو نظرت اليه لعميت عمن سواه ولو أقبلت عليه لاستمعت اليه ولو سمعت لصممت عن غيره ولو أحبك لكان سمعك وبصرك وقلبك ويدك وناصرك ومؤيدك تدعوه

فيجيبك وتسأله فيعطيك وتنصح له فينصح لك كذلك جاء الخبر بذلك فشغلك به عنك وفرغك له منك فكيف تسمع عنه وتنظر اليه وتتقلب عنده وتتحرك به لا بنفسك وهواك ولا بشهوتك ودنياك فهذا وصف حبيب عن تقلب حبيب وخبر محبوب عن تثبيت محبوب فاذا تيقن العبد يقين عين لا يقين ظن وسمع بما ذكرناه من سرعة فوت الوقت وفوت دركه شغله الغم والحزن على مافات عن مثل ما سلف مما ندم عليه فى مستقبل الأوقات فلم يضم الى الفوت الاول فوتا ثانيا لحزنه وندمه عليه فكيف يردفه فى الحال بما يشبه ماندم عليه من سوء الاعمال ومالا يحمد عاقبته ولا يغتبط به فى المآل فمثل العبد المتيقظ فى آخر غفلته مثل عبد كان عليه عمل لابد أن يعمله فى يومه ذلك الا أنه لهى عنه لغفلة ملهية أو نومة منسية فلم يفق لعمله ذلك الذى لا بد منه الا بعد العصر فلا يسأل عن حرصه وانكماشه وتشميره وبداره فى بقية نهاره ليدرك به مافاته من أول النهار فهو يود أن وقته ذلك الى الليل مدله أضعافه أورد الى أول النهار ليدرك مافاته فهذا حال التائب المتيقظ من رقدته وهذا لا يستبين له الا بعد الموت لمعاينة تقضى الاوقات ولليقين بعدم درك مافات فهناك وقعت الندامة الكبرى وحينئذ حلت الحسرة العظمى فالحزم عند العقلاء الموقنين هو الانكماش والتشمير فيما بقى من العمر القصير لأن الاشتغال بما فات فى وقت درك مثله فى المستقبل هو اضاعة ثانية لما هو آت فحرص هذا المتيقظ واجتهاده أن يكون له فى كل وقت وقت ومن كل ساعة نصيب فأودع فى كل خزانة من ساعاته التى هى خزائن أعماله شيئا فشيئا لئلا يرى خزائنه فارغة غدا فيتحسر على فراغه منها وهذا طريق أهل الرجاء الذين تمنوا زيادة الأعمال ورغبوا فى طول البقاء بحسن خدمة المولى وهو مقام التائب المستقيم ليتدارك بحديث الأوقات مافرط منه من الغفلة فى القديم فهذا هو الحزم والاحتياط عند العلماء فان يكن الأمر صعبا شديدا كما يحدث عنه كان قد سلم بحسن توفيق الله تعالى من صعوبته وان كان الأمر سهلا قريبا كما يرجوه كانت الأعمال درجات والفضائل مقامات

ذكر المقام السابع من مشاهدة الموقنين

اعلم أن ماذكرناه من تدارك الأوقات خوف فوتها ليس هو بتمنى مكان دون مكان ولا هو بانتظار وقت ثان الذى هو فى الأصل فكر الوقت الذى هو فيه ولا توقع حال سوى الحال الذى هو يليه انما هو صوم يوم أو قيام ليلة أو ذكر فى ساعة أو جمع هم عن شتات قلب أو قطع لأثر فى خطار ويكون ذلك أيضا غض طرفه وصون سمعه وكف يده وحبس قدمه وصمتا عن كلمة دنية وترك لقمة شهية ونقصانا من قوت وزيادة جوع للمقيت وأمرا بكلمات رشيدة ونهيا عن فعلة دنية وعقد نية حميدة وحل نية ذميمة وتجديد توبة واعمال قلب فى فكرة واخراج سوء ظن واعتقاد حسن ظن واستقامة وصحة عزم فى قصد وتسببا الى مايقوى العزم ومعاونة على بر وتقوى وهذا كله يكون فى الوقت ويحدث فى الحال لا يسوف به ولا ينتظر منه ولا يتوقعه فى وقت ثان ولا يؤخر الى زمان دون وقته ولا يتربص به فى مكان دون مكان فهذا هو التدارك

للاوقات فى وقتك الذى أنت فيه خشية فوت الوقت فيحصل على التسويف والتمنى أو فى الانتظار والتراخى فهذه من جنود ابليس يقطع بها المريدين وهو مقام المغترين وأحوال البطالين الذين وكلوا الى أنفسهم وتركوا مع هواهم ولم يتداركوا فى أحوالهم ولم يقدموا لغدهم نسوا الله فنسيهم والوقت اذا انقضى فقد ولم يوجد الى يوم القضاء والساعة اذا مرت طويت فلم تنشر الى يوم النشور وانما ينشر مثلها ويخلق شبهها فاذا أيقن العبد علم ان عمره كله يوم وان يومه كله ساعة وان ساعته كلها وقته الآن وان وقته حاله وان حاله قلبه فأخذ من حاله لقلبه مايقربه الى مقلبه بنهاية عمله فعمل أفضل مادل علمه عليه وما ندبه مولاه اليه ومما يحب ان يفجأه الموت عليه فيكون ذلك خاتمة عمله الذى يلقى مولاه به ثم أخذ من وقته لحاله مايصلح حاله لقلبه ويقوى قلبه ويخلصه لربه وأخذ من ساعته لوقته مايزين به حاله عند ربه وأخذ من يومه لساعته صلاحه فيها وحاجته اليها وأخذ من شهره ليومه فكان شهره يومه وكان يومه ساعته فشغله وقته عن ساعته وشغله حاله عن وقته فكان على هذا مراعيا لوقته محافظا على حاله قائما على نفسه جامعا لهمه محصيا لانفاسه مراقبا لرقيبه مجالسا لحبيبه لايخرج عنه نفس فى أدنى وقت الافى ذكر لمذكور أوشكر على نعمة لمنعم أوصبر فى محبة عتيدة أو رضا عند شدة شديدة ويكون فى ذلك كله ناظرا الى الرقيب مصغيا الى القريب سائحا الى الحبيب لاينظر الا اليه ولايعكف الا عليه وقد جعل العمر يوما واليوم ساعة والساعة وقتا والوقت حالا والحال نفسا والنفس مراقبة والمراقبة مواجهة فتوجه فى وجهته فلم ينثن وساح فى قربه فلم ين فكان من الايمان على مزيد ومن اليقين فى تجديد وأعطى من الحياة الطيبة بغير حساب وكشف له عن قلبه الحجاب فكانت المعرفة مقامه وقصرت عليه أيامه فكان وقته وقتا واحداً لواحد وكان قلبه واحداً لواحد وهمه منفرداً لمنفرد وهذا حال الابدال الذين هم من الرسل أمثال وعددهم فى الموقنين قليل ونصيبهم من اليقين وافر جليل وهم المقربون والصديقون ومن علم ماذكرناه على يقين فهو من الصالحين ومن آمن به ولم يشك فيه لاهله ايمان تصديق فهو من الموقنين ومن شهد منه شهادة يكون له منها مطالعات وزيادة فهو من الشاهدين وجميع ما ذكرناه من مراقبة المؤمنين وشهادة المقربين يدرك باحد مقامين من أقيم فى احدهما جمع له ذلك استقامة فى توبة وعمل بعلم فمن كان مقامه التوبة وحاله الاستقامة رفع الى شهادة المحبين ومن كان مقامه العلم وحاله العمل بعلمه تحقق بنعت الخائفين وهما حالا العارف الدائم الوجد بقرب القريب القائم بالشهادة بحضور الشهيد فانفاسه وطرفاته صالحات وتصرفاته وآثاره حسنات وأفكاره وأذكاره مشاهدات فهو حاضر فى تصريفه متيقظ فى تقلبه وبهذا وصف العارف والدائم الوجد وحدث عن بعض هذه الطائفة انه دخل على بعض المنقطعين الى الله تعالى من أهل المراقبة فقال له

أحصيت من نعم الله تعالى على فى نوع واحد أربعة وعشرين ألف نعمة قلت وكيف ذلك قال حسبت أنفاسى فى اليوم والليلة فوجدتها أربعة وعشرين ألف نفس ويقال ان الطرفات ضعف ذلك لان كل نفس طرفتان وسمعت أن الله عز وجل أوحى الى بعض الأنبياء كيف تؤدى شكر نعمتى عليك ولى فى كل شعرة نعمتان أن لينت أصلها وأن طمنت رأسها وقال بعض العلماء روى ذلك أيضا عن على عليه السلام ليس شيء أعز من الكبريت الاحمر الا ما بقى من عمر العبد قال ولا يعرف مقدار ما بقى من عمره الا نبى أوصديق وقال بعضهم لا يعرف قدر ما بقى من عمره فى العزة الا من عرف ينبوع الكبريت الاحمر فانه يقال أنه عيون تنبع فى الظلمات لا يعرفها الا الابدال والكبريت الاحمر هو كيمياء الذهب الذى يعمل منه الذهب الخالص واذا ألقى منه اليسير على كيمياء الذهب المستعمل ثبت على حاله والا استحال وتغير بعد سنين ولا أعلم ذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم الكبريت الاحمر الا فى حديث على عليه السلام الذى وصف فيه الابدال فذكر عدتهم ونعتهم وقال فى آخر وصفهم هم فى أمتى أعز من الكبريت الاحمر ولا ذكر الذهب الابريز الا فى حديث الابتلاء ان الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب الابريز ومنهم من يخرج أسود محترقا ومنهم من يخرج بين ذلك

الفصل التاسع والعشرون

فيه ذكر أهل المقامات من المقربين وتمييز أهل الغفلة المبعدين

فاذا كان العبد بوصف ماذكرنا كان كما قال الله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون وقال بعض العارفين عمر العبد أمانة الله تعالى عنده يسأله عند موته فان كان فرط فيه ضيع أمانة الله تعالى وترك عهده وان راعى أوقاته فلم تخرج ساعة الا فى طاعة الله حفظ أمانته ووفى بعهده فله الوفاء من الله على الوفاء كما قال سبحانه وتعالى وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبون أى فى تضييع العهد وفى ترك الوفاء وكما قال تعالى أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه أى شهد مقام الله تعالى منه بالبيان فقام بشهادة الايقان فليس هذا كمن زين له سوء عمله واتبع هواه فآثره على طاعة مولاه بل هذا قائم بشهادته متبع لشهيده مستقيم على محبة معبوده وكان كمن وصف فى قوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه وكمن مدحه بحقيقة الايمان فى قوله تعالى واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا أى علامته ودلائله وعلى ربهم يتوكلون أى به يثقون واليه ينظرون وعليه فى كل حال يعتمدون ولديه من كل شيء يطمئنون وعنده دون كل شيء يوجدون ثم قال سبحانه أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات

عند ربهم الآية وليس أهل الحقائق من المتوكلين الذين مدحهم الحق بالحق وأعد لهم الدرجات العلى والكريم من الرزق كمن ذكره بعدهم فقال وان فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك فى الحق بعد ماتبين لهم مع قوله مايجادل فى آيات الله الا الذين كفروا فجعل حال هؤلاء وصفا مشبها لمقام أعدائه لما بقى عليهم من أهوائهم وجعل مقام الصالحين بمعنى من وصفهم فى الآية بحقيقة زهدهم فقال تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فاولئك لهم الدرجات العلى فهو العلى وأحباؤه الاعلون وانما كانوا أعلين لان الاعلى معهم وكنا نحن الادنين لان الدنيا عندنا قال الله سبحانه فى وصف من أعرض عن ذكره ولم يرد الا الحياة الدنيا اذا أمر الحبيب بالاعراض عنه لانه طلب الادنى عاجلا أو سوف بالمغفرة آجلا لقوة جهله وضعف يقينه فقال تعالى يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وقال فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا وقال فى وصف الصادقين المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقال فى نعت غيرهم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله فشتان بين من وصف بصدق العهد و بين من ذكر بالخلف وعرض للمقت وقال فى وصف طائفة ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين فخص أولياءه بترك اتباعه وأدخل بعض المؤمنين فى تصديق ظنه واتباعه الا فريقا فهم الصديقون والشهداء والصالحون وحسن أولئك رفيقا وهم المتوكلون المؤمنون حقا الذين قال انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون وليس من باع ماله ونفسه محبة لمولاه كمن لم يسأله مولاه دون نفسه لئلا يحفيه فيخرج ضغنه عليه كما قال لطائفة من المؤمنين يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم الاحفاء الاستقصاء أى ان سألكم سأل الجملة كلها وأحب منكم الزهد فى نفوسكم بعدها والاضغان جمع ضغن وهو الحقد تقول فلستم فى مكان سؤال اذ لا يكون البخيل زاهدا لان أول الزهد الجود فمن لم يجد لم يزهد ومن لم يزهد فى الدنيا لم يحبه المولى لانه محب لما يبغض ومريد لما لايحب فلم يعامل مولاه باخلاقه ولم يوافقه فى مرضاته فباعده وحجبه عن مشاهدة أوصافه كما قال تعالى تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المبلغ عن المآل اذا أردت ان يحبك الله فازهد فى الدنيا ولا تقدر أن تصف حشو قلوب هذه الطائفة من المؤمنين الذين وصفهم المؤمن ان لو سألهم أموالهم ظهرت عليهم أضغانهم لانهم من الله فى اغترار بما ألبسهم من الاظهار فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا الا ان الله تعالى لا يسأل الا من يحبه اكراما له ممن يعلم انه يسارع اليه بجملة ما سأله لانه كريم جواد لا يكبر عنده شيء ان سأل سأل الكلية وهو المال والنفس الا انه لا يسأل الا من خلقه بخلق من أخلاقه فمتى لم يكن على العبد سواه شيء سأله محبوبه

كل شيء ومتى عظم فى قلبه العرض الفانى وهو ضغين لم يسأله شيئا فاذا لم يبق للعبد فى نفسه نفسا ولا من ماله ملكا كان الجواد عوضا له من ماله وكان الجبار عوضا له من نفسه الا ان الله سبحانه لم يذكر اياه فى العوض من النفس وذكر الجنة فى البدل عن المال لئلا يدخل تحت حكم وهو الحاكم وكيلا ينضم الى عوض فيكون شفعا وهو الفرد فاخفى نفسه وهو الدليل وذكر خلقه وهو اليه السبيل فهذا فهم أوليائه عنه وهذه علامة المحبة الخالصة التى لا شرك فيها لسواه ولا دخل عليهامن غيره اياه ولا يصلح أيضا أن يكشف عن وصف هؤلاء المحبين لان حالهم يجل عن الوصف ومقامهم يجاوز علوم العقل والوقت الا أن الله تعالى قد أحكم ذلك بقوله عز وجل وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الأعين و بقوله تحيتهم يوم يلقونه سلام مع قوله ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم وقوله فاما ان كان من المقربين فروح و ريحان وأحكم ذلك بقوله تعالى وهو وليهم بما كانوا يعملون و بقوله تعالى هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون ففيه وصف لأهل الولايات والحب ومدح لأهل الدرجات والقرب بقوله بصير بما يعملون أى لذلك جعلهم درجات عنده ولقوله وليهم بما كانوا يعملون بما تولاهم به قربهم منه وفيه أيضا ذم المنافقين على القراءة الأخرى والله بصير بما تعملون فقد أبصر أعمالكم أنتم فلم يجعلكم مثلهم اذ لم تكن أعمالكم كاعمالهم فهذا كما قال فعلم ما فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ثم قال فى وصف قلوبنا والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حكيما ثم قال فى فصل من القول ليس بهزل سوى بين هؤلاء وهؤلاء ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا ثم قال فى ضد أولئك كلاما فاصلا لمفصل مفسر للمجمل ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم بعد أن لا يجعل فيهم خيرا لتولوا وهم معرضون أى ليس لهم فيه شيء ولا لهم منه نصيب لانه لم يجعل عندهم مكان الخير فيوجد فيه خير فكان هذا فصل الخطاب و بلاغا لاولى الالباب شهد لهم بذلك اذ قال أفلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا فآيس المؤمنين من هداية هؤلاء فلم يرج منهم مجاهدة فيه أبدا لان الله تعالى لا يهدى من يضل وقيل ييأس لغة بمعنى يعلم أى فقد علموا مما أعلمهم الله تعالى ويشهد لهذا المعنى الحرف الآخر لأنه بمعناه أفلم يتبين الذين آمنوا فبين لهم بما بين المبين فسلموا الله وأقبلوا عليه وأعرضوا عنهم فسلوا منهم فكذلك قال الولى الحميد وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا وقال تشابهت قلوبهم فيتبعون ما تشابه منه فكم بين من ثبت قلبه فرسخ العلم فيه و بين من أزاغه فمال الى فتنة التأويل يبتغيه وشتان بين من تولاه بنفسه اذ صلح له و بين من ولاه نفسه اذا اعرض عنه فهذه مقامات المبعدين كما تلك مقامات المقربين فقد دخلوا تحت حكمين لم يخرجوا منهما أعلاهم دخل تحت فضله وأدناهم لم يخرج من عدله وقد أجمل سبحانه وصفهم بقوله ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله وقال فى ذكر العموم ليجزى الذين

آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط فخص أولياءه بالفضل وعم خلقه بالعدل فكم من قلب لا يشهد الا الله ولا يسمع الا منه ولا يتأله الا اليه والله هو الاغلب على همه والاقرب الى قلبه وبين قلب حشوه الخلق وهمه الرزق لاينظر الا اليهم ولايطمع الا فيهم ولاينظر الاهم الخلق أغلب شيء عليه والخلق أقرب شيء اليه فهذا من المبعدين بهم لان البعد صفتهم وظهور النفس عليه وتحكم سلطانها فيه مكان البعد الذى يوجد العبد معه والاول من المقربين به لان القرب صفته وخنوس نفسه عنه وتسخيرها له مكان القرب الذى يوجد القرب عنده فذلك من السابقين الى ربه والمبعد مثبط بنفسه عن ربه وقد قال تعالى فلاتدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين فالبعد حجاب والمبعد فى عذاب والقرب نعيم والمقرب على مزيد ألم تسمع قوله تعالى فى تعذيب المحجوب كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم وقال فى ترويح المقربين فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم روح بقريب وريحان من حبيب وجنة نعيم بقرب منعم وقال المروح بالقرب المحيا بالحضور

فروحى وريحانى اذا كنت حاضرا وان غبت فالدنيا على محابس
اذا لم آنافس فى هواك ولم أغر عليك ففيمن ليت شعرى أنافس

وقال المكروب بالبعد المغصص بالفقد

فكيف يصنع من أقصاه مالكه فليس ينفعه طب الأطباء
من غص داوى بشرب الماء غصته فكيف يصنع من قد غص بالماء

وشتان بين عبد منقطع الى ربه يخدمه وآخر منقطع لخدمة الخلق يعبدهم وكم بين عبد منقطع عن الناس وبين عبد موصول به الوسواس وشتان بين عبد منقطع بالشوق الى المولى وبين عبد منقطع بالهوى معانق للدنيا فهذه مقامات المقربين بالحسنى واضدادها مقامات المبعدين بالسوء فاذا كان العبد على وصف من الحقيقة وفى مقام من التقوى استحق الثناء من مولاه لتحققه بالوصف ونال القرب من القريب لتبعده عن حظوظ النفس وفى حسن الثناء من العظيم الأعظم غاية الطالبين ونهاية رغبة الراغبين ولايكون ذلك الا لاوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين وهم أهل القلوب السليمة الطاهرة وذوو الجوارح الخاشعة الذاكرة وأولو الألباب الراجحة الفاخرة وهم ثلاث طبقات من مقربى أصحاب اليمين أهل العلم بالله تعالى وأهل الحب لله تعالى وأهل الخوف من الله تعالى فهؤلاء خصوص أوليائه المقربين استحضرهم فحضروا واستحفظهم العلم فحفظوا واستشهدهم عليه فشهدوا فهم الادلة منه عليه وهو دليلهم اليه وهم جامعو العباد به وهو جامعهم عنده لديه ابدال الانبياء والربانيون من العلماء أئمة المتقين وأركان الدين أولوا القوة والتمكين الذين كشف لهم الكتاب المستبين وهداهم اليه

الطريق المستقيم عليه وهم المنظور الى قلوبهم كفاحا والمقصودون بالمزيد والتحف مساء وصباحا ومن سواهم من عموم المؤمنين من القراء والعباد وأهل المجاهدة والزهد والاوراد قد أعطاهم الولايات وفرقهم فى الاعمال والسياحات وأظهرلهم الآيات تسكينا لقلوبهم بها وطمأنينة منهم اليها لئلا تدخل عليهم الشبهات فيهلكون ولا تجذبهم الشهوات فيرجعوا فشغلوا بالأظهار عن الظاهر وحجبوا بالظواهر عن الباطن واغتبطوا بالحجاب وسكنوا الى الاسباب وعكفوا على المقامات واستتروا بالملكوت والآيات فهم مغبوطوا الاموات من أهل الدنيا وهم مرحوموا الاحياء من أهل العلى الاعلى لان قربهم بعد عند المقربين وكشفهم حجب عند المشاهدين وعطاءهم رد عند المواجهين الا ان الله تعالى نظر اليهم لما نظروا لنفوسهم حكمة ورحمة منه لهم فسكنهم فى حالهم ورضاهم بمقامهم كيلا تشتت قلوبهم ولا تتحير عقولهم والسابقون الاولون هم الوجهة العليا والمتمسكون بالعروة الوثقى نظروا اليه سبحانه وتعالى به فنظر اليهم منه فهم كما وصفهم ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله لا يرجعون الى مال ولا ينظرون الى حال يحبهم ويحبونه رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه فهم كما وصفوا فى الكتب السالفة قال الحواريون يا روح الله صف لنا أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون فقال هم الذين نطق بهم الكتاب وبه نطقوا وبهم علم الكتاب وبه علموا وبهم قام الكتاب وبه قاموا نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها وعاينوا آجل الدنيا حين عاين الناس عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا ان سيتركهم فصار دركهم منها فواتا وفرحهم بها حرمانا ما عارضهم منها رفضوه وما أشرف لهم بغير الحق وضعوه خلقت الدنيا عندهم فلم يجددوها وخربت فيما بينهم فلم يعمروها وماتت فى صدورهم فلم يحيوها هدموها فبنوا بها آخرتهم أحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة يحبون الله ويحبون ذكره ويستضيؤن بنوره ويضيؤن به لهم خبر عجيب وعندهم أعجب الخبر العجيب وقال عزوجل فى وصفهم ومن أحسن من الله حديثا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء وقال تعالى شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط وفيها مقرأ غريب بمعنى الجمع للشهداء وكانه جعل وصفا لما تقدم من ذكرهم فى قوله تعالى الصابرين والصادقين الى قوله والمستغفرين بالاسحار شهد الله أنه لا اله الا هو وقال كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب فهذا وصف يزيد على كل وصف ويستغرق نعت الواصفين ويجمع هذه المقامات السبعة من المراقبة والمشاهدة حالان عن مقامين مدار المقامات كلها عليهما ومستخرج المزيد من الكرامات منهما فأحدهما الخوف عن مقام العلم والحال الثانى الرجاء عن مقام العمل فمن كان مقامه العلم بالله كان حاله الخوف منه ومن كان مقامه الرجاء لله تعالى كانت حاله المعاملة له ألم

تسمع الى قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقوله فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا

الفصل الثلاثون

فيه كتاب ذكر تفصيل الخواطر لأهل القلوب

وصفة القلب وتمثيله بالأنوار والجواهر

قال الله سبحانه وتعالى ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها أى ألقى فيها وقذف فيها وقال عز وجل ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه وقال فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله وقال تعالى من شر الوسواس الخناس الآية وقال ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه وقال تعالى استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله وقال عز وجل الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء وقال سبحانه مخبرا عن العدو لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم الى آخر الآية وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعد له بطريق الاسلام فقال أتسلم وتذر دينك ودين آبائك فعصاه فأسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر فتذر أرضك وسماءك فعصاه فهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال أتجاهد وهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسم مالك فعصاه فجاهد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك فمات كان حقا على الله تعالى أن يدخله الجنه وقد أخبر الله تعالى عنه انه قال ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم الى آخر الآية وروينا ان عثمان بن أبي العاص قال يارسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال ذلك الشيطان يقال له خنزب اذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فاذهبه الله تعالى عني وفي الخبر ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه وقد روينا ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم والحديث المشهور مامنكم من أحد الا وله شيطان قالوا وأنت يارسول الله قال وأنا الا ان الله تعالى أعانني عليه فأسلم وقال ابن مسعود رضي الله عنه وقد روينا من طريق مسند في القلب لمتان لمة من الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق ولمة من العدو ايعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير وروينا عن الحسن رحمه الله انه قال انما هما همان يجولان في القلب هم من الله تعالى وهم من عدوه فرحم الله عبدا وقف عند همه فما كان لله أمضاه وما كان من عدوه يجاهده وقال مجاهد في قوله تعالى من شر الوسواس الخناس قال هو منبسط على قلب الانسان فاذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض واذا غفل انبسط على قلبه وقال عكرمة الوسواس محله في الرجل في فؤاده وعينيه ومحله في المرأة في عينيها اذا أقبلت وفي عجيزتها اذا أدبرت وقال جرير بن عبدة العدوي شكوت الى

العلاء بن زياد ماأجد فى صدرى من الوسوسة فقال انما مثل ذلك مثل النقب الذى تمر به اللصوص فان كان فيه شىء عالجوه والا مضوا وتركوه وقد روى أبو صالح عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا أخطأ خطيئة نكت فى قلبه نكتة فان هو نزع واستغفر وتاب صقل وان عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فهو الران الذى ذكره الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وروينا عن جعفر بن برقان قال سمعت ميمون بن مهران يقول ان العبد اذا أذنب ذنبا نكت فى قلبه بذلك نكتة سوداء فان تاب محيت من قلبه فترى قلب المؤمن مجلوا مثل المرآة ما يأتيه الشيطان من ناحية الا أبصره وأما الذى يتتابع فى الذنوب كلما أذنب نكت فى قلبه نكتة سوداء فلا يزال ينكت فى قلبه حتى يسود قلبه فلا يبصر الشيطان من حيث يأتيه وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر فى تقسيمه القلوب روينا عن أبى سعيد الخدرى وأبى كبشة الانمارى وبعضه أيضا عن حذيفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال القلوب أربعة قلب فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب اسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأى المدتين غلبت عليه حكم لها وفى لفظ بعضهم غلبت عليه ذهبت به وقال الله تعالى ومن أحسن من الله قيلا ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون فأخبر أن جلاء القلوب الذكر به يبصر القلب وان باب الذكر التقوى به يذكر العبد فالتقوى باب الآخرة كما ان الهوى باب الدنيا وأمر الله تعالى بالذكر وأخبر انه مفتاح التقوى لأنه سبب الاتقاء وهو الاجتناب والورع فقال تعالى واذكروا ما فيه لعلكم تتقون وأخبر انه أظهر البيان للتقوى فى قوله كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون وقال تعالى يا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك وقال تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم وقال ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون فمن السواء والتعديل والازدواج والتقويم أدوات الظاهر وأعراض الباطن وهى حواس الجسم والقلب فأدوات الجسم هى الصفات الظاهرة واعراض القلب هى المعانى الباطنة قد عدلها الله تعالى بحكمته وسواها على مشيئته وقومها اتقانا بصنعته واحكاما بصنعه أولها النفس والروح وهما مكانان للقاء العدو والملك وهما شخصان ملقيان للفجور والتقوى ومنها غرضان متمكنان فى مكانين وهما العقل والهوى عن حكمين فى مشيئة حاكم وهما التوفيق والاغواء ومنها نوران ساطعان فى القلب عن تخصيص من رحمة راحم وهما العلم والايمان فهذه أدوات القلب وحواسه ومعانيه الغائبة وآلاته والقلب فى وسط هذه الادوات كالملك وهذه جنوده تؤدى اليه أو كالمرآة المجلوة وهذه الآلة حوله تظهر فيراها ويقدح فيه فيجدها فتفصيل ذلك على الايجاز ان جمل الخواطر ستة هى

حدود القلب وفوادحهمن وراتهاخزائن الغيب وملكوت القدرةوهى جنود الله تعالى عتيدةوسلطان منه مبين والقلب خزانة من خزائن الملكوت قد أودعه ءقلبه من لطائف الرغبوت والرهوت وشعشع فيه من انوار العظمة والجبروت ماشاء لاهل الرفيق الاعلى وذوى الملكوت الادنى فاول التفصيل خاطر النفس وخاطر العدو وهذان لايعدمهما عموم المؤمنين وهما مذمومان محكوم لهما بالسوء لايردان الا بالهوى وضد العلم وخاطر الروح وخاطر الملك وهذان لايعدمهما خصوص المؤمنين وهما محمودان لايردان الا بحق وبما دل عليه العلم وخاطر العقل وهو متوسط بين هذه الاربعة يصلح للمذمومين فيكون حجة على العبد لمكان تمييز العقل وتقسيم المعقول لان العبد يدخل فى هواه بشهوة جعلت له واختيار لايعسر عليه من حيث لا يعقل ولا اجبار ويصلح أيضا للمحمودين فيكون شاهدا للملك ومؤيدا لخاطر الروح ويثاب العبد فى حسن النية وصدق المقصد وانما كان خاطر العقل تارة مع النفس والعدو وتارة مع الروح والملك حكمة من الله تعالى لصنعته واتقانا لصنعه ليدخل العبد فى الخير والشر بوجود معقول وصحة شهود وتمييز فيكون عاقبة ذلك من الجزاء والعقاب عائدا له وعليه اذ قد جعل سبحانه هذا الجسم مكانا لجريان أحكامه ومحلا لنفاذ مشيئته فى مبانى حكمته كذلك جعل العقل مطية للخير والشر يجرى معهما فى خزانة الجسم اذ كان مكانا للتكليف وموضعا للتصريف وسببا للتعريف العائد من معانى ذلك على صورة العبد من لذة النعيم أو عذاب أليم فلم يكن العقل غائبا فيكون العبد عن العقل ذاهبا ولم تكن الشهوة عازبة فتكون النفس مفقودة اذ فى ذلك تضعيف لحجة الله تعالى عليه ووهن لبرهانه لان العقل شاهد الحجة والشهوة فى النفس مكان البلوى والنية فى القلب طريق الحجة وذلك أصل سبب عود جزاء الأمر والنهى فالعقل مطبوع على التمييز مجبول على التحسين والتقبيح والنفس مجبولة على الشهوة مطبوعة على الأمر بالهوى وهذا نصيبهما من عطائه وهداه لهما الى رشاده واغوائه وحظهما من الكتاب وقسمهما من ولى الاسباب كما قال تعالى فى أحكام ماذكرناه تكملة لما أخبرنا عما سبق فى علمه أعطى كل شىء خلقه ثم هدى وقال تعالى أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب وقال تعالى كتب عليه أنه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير والخاطر السادس هو خاطر اليقين وهو روح الايمان ومزيد العلم يردان اليه ويصدران عنه وهذا الخاطر مخصوص بخصوص لا يجده الا الموقنون وهم الشهداء والصديقون لايرد الا بحق وان خفى وروده ودق ولا يقدح الا بعلم اختيار لمراد مختار وان لطفت أدلته وبطن وجه الاستدلال به ولكن ليس يخفى هذا الخاطر على مقصود به ومراد له وهم الذين وصفهم الله تعالى بالذكرى ورد الرسول صلى الله عليه وسلم اليهم الفتيا فقال سبحانه ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أى من تولى الله حفظ قلبه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماحاك فى صدرك فدعه والاثم حزاز

القلوب يعنى ما يؤثر فيها فيحزها لرقتها وصفائها و لينها ولطفها وقال للرجل الذى سأله عن البر والاثم وهما أصلا أعمال الخير والشر استفت قلبك وان أفتاك المفتون أى ان المتقين يعلمون معانى التأويل والرخصة عن علمهم العلانية وأنت على علم فوقهم مطالب بالتحقيق والعزيمة عن علمك السر وأهل الظاهر أيضا يعلمون حكم الله تعالى الظاهر عن علم اللسان الظاهر الذى هو حجة على أهل العلم الظاهر وقلبك فقيه منور بالايمان تنظر به أو ينطق به حكم الله تعالى الباطن عن علم القلب الباطن الذى هو حقيقة الايمان ومنفعته لأهل العلم الباطن ولا يصلح أن يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم سائلا الا الى فقيه فلولا ان علم القلب هو حقيقة الفقه ما رد صاحبه من فتيا أهل الظاهر اليه ولا حكم على المفتين به فقد صار علم القلب هو علم العلم اذ جعله الرسول صلى الله عليه وسلم قاضيا على المفتين بالحكم وصار عالم الباطن هو عالم العلماء اذ لم يسعه تقليد العلماء وفى الحديث الآخر البر ما اطمأن اليه القلب وسكنت اليه النفس وان أفتوك وأفتوك فهذا وصف قلب مكاشف بالذكر ونعت نفس ساكنة بمزيد السكينة والبر كما وصف من قلوب المؤمنين فى صريح الكلام وفى دليل الخطاب فاما صريحه فقوله تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب وقوله تعالى هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم وأما دليل الكلام الذى يشهد بالتدبر فقوله تعالى فى وصف قلوب أعدائه المحجوبين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ومثله عنده علم الغيب فهو يرى ففى تدبر معناه ان أولياءه المستجيبين له سامعون منه مكاشفون بذكره ناظرون الى غيبه وقال تعالى فى مثله مثل الفريقين كالاعمى والاصم هذا فريق المتبعين للسبل المتفرقة عن سواء السبيل بهم الضالين عن سواء الصراط والبصير والسميع هو فريق المهتدين المتبعين للصراط المستقيم وقال تعالى ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون أو ألقى السمع وهو شهيد ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وقال صلى الله عليه وسلم فى مجمل صفة القلب التقوى ههنا وأشار الى القلب وقال الله سبحانه وتعالى فى ذكر القلوب المقفلة بالذنوب لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون وقال تعالى فى فض طابعها بالتقوى واتقوا الله واسمعوا واتقوا الله ويعلمكم الله وفى الخبر اذا أراد الله بعبد خيرا جعل الله له زاجرا من نفسه وواعظا من قلبه وفى الخبر الآخر من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ وروينا فى تفسير قوله تعالى ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان قال سمعناه من قلوبنا وقال فى ضده لاعدائه أولئك ينادون من مكان بعيد أى بعيد عن قلوبهم وقال الله تعالى فى التوبة من ميل القلوب وهمها ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما وبمعناه وهموا بما لم ينالوا فان يتوبوا يك خيرا لهم وقال فى تحقيق العمى للقلب فانها لا تعمى

الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ،أهل القلوب يتعظون بلا واعظ من خلق ويزدجرون بلا زاجر فى ظاهر وسائر ما ذكرناه من الخواطر لا تعدمه المؤمنون والقلب خزانة الله تعالى من خزائن الغيب وهذه المعانى جنود الله تعالى مقيمة حول القلب يخفى منها ما يشاء ويظهر ويبدىء منها ما يريد ويعيد ويبسط القلب بما يشاء منها ويقبضه فيما شاء عنها وكل قلب اجتمع فيه ثلاثة معان لم تفارقه خواطر اليقين ولكن يضعف الخاطر ويخفى لضعف المعانى ودقتها ويقوى اليقين ويظهر بقوتها لأن هذه الثلاثة مكان اليقين أحدها الايمان وموضعه من اليقين مكان حجر النار والثانى العلم ومكانه موضع الزناد والثالث العقل وهو مكان الحراق فاذا اجتمعت هذه الأسباب قدح خاطر اليقين فى القلب ومثل القلب فى قوته بقوة مدده وفى صفائه بجودة عدده مثل المصباح فى القنديل الى مكان العقل منه والزيت موضع العلم به وهو روح المصباح وبمدده يكون ظهور اليقين والفتيلة مكان الايمان منه وهى أصله وقوامه الذى يظهر بها فعلى قدر قوة الفتيلة وجودة جوهرها يقوى اليقين وهو مثل الايمان فى قوته بالورع وكماله بالخوف وعلى مقدار صفاء الزيت ورقته واتساعه تضىء النار التى هو اليقين وهو مثل العلم فى مدد الزهد وفقد الهوى فصار العلم مكانا للتوحيد فتمكن الموحد فى التوحيد على قدر المكان وقد قال الله تعالى فاعلم أنه لا اله الا الله وقال تعالى فاعلموا أن ما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو فقدم العلم على التوحيد فصار أوله فكلما اتسع القلب بالعلم بالله وزهد فى الدنيا ازداد ايمانا وعلا لأنه يرى فى علوه ما لا يراه غيره ويعلم فى اتساعه ما لا يعلمه سواه فيكبر المؤمن به فيكون ذلك مزيدا ايمانه وقوته ثم يشهد كل ما آمن به فيكون بذلك قوة نفسه وسعة مشاهدته وكلما قصر علم القلب بالله تعالى وبمعانى صفاته وأحكام ملكوته قل ايمان هذا العبد ثم أشهد ما آمن به من وراء حجاب لما غلب عليه من حب الاسباب وسمع الكلام من خلف ستر لعجزه عن المسارعة الى البر فيضعف بذلك ايمانه ويتخيل مشاهدته ولا يتحقق فليس من علم من صفات الله سبحانه وتعالى وقدرة آياته مائة ألف معنى ثم شهدها كلها من قرب عن كشف مثل من علم منها عشرة معان ثم شهدها من بعد عن حجاب وهما مؤمنان معا لكن بين ايمانهما فى القرب والعلو والزيادة والنقصان كما بين العشرة الى مائة ألف فيكون ايمان قلب المسلم مشار معشار عشر ايمان قلب الموقن والمشار هو عشر العشر جزء من مائة جزء ويكون ايمان قلب المؤمن فيما بين ذلك من الزيادة على العشر والنقصان من مائة ألف على قدر قسمه ومثل ذلك فيما نعقله مثل رجل قال لك ان عندى فلانا فقد حصل لك علم أنه عنده غير ان هذا العلم غير يقين لانه يجوز أن يكون قد اشتبه عليه أو يكون قد كان عنده ثم خرج وليس هو الآن عنده وهذا مثل ايمان المسلم هو على علم خبر لا خبر ثم انك تأتى الى فتسمع كلامه من وراء حجاب فقد علمت الآن انه عندى لانك سمعت كلامه واستدللت به على كونه الا ان هذا العلم أيضا غير تحقيق لان الاصوات تشتبه والاجرام تتقارب ولو قلت لك بعد ذلك لم يكن عندى وانما كان ذلك غيره أشبه صوته تشككت

فيه لاحتمال ذلك ولم يكن عندك يقين عين تدفع به قولى ولا شهادة نظر تنكر بها على وهذا مثل لايمان عموم المؤمنين فهو ايمان خبر لعمرى وفيه يقين استدلال ممتزج بظن الا انه غير مشاهدة العارفين لأنه قد يدخل عليهم التخييل والتشبيه فلا يدفعونه بشهادة يقين ثم انك تدخل الى الآن بعد أن قيل لك هو عندى أو بعد أن سمعت كلامه فتشهده جالسا لاحجاب بينك و بينه فهذا هو يقين المعرفة وهذه شهادة الموقن وعندها انتفى كل شك وتحقق خبر العلم وهذا مثل لعلم ايمان الموقنين الذى قد اندرج فيه ايمان عموم المؤمنين من علم الخبر المحتمل ومن سماع الكلام المشتبه من وراء حجاب واسم الايمان واقع على جميعهم ولكن الاول علم انه عندى بما قيل له فصدق والثانى علم بما سمع فاستدل ولم يشهد فيقطع والثالث هو الذى عاين فقطع فقد شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالمزيد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الخبر كالمعاينة وقال وليس المخبر كالمعاين ومثل هذا أيضا ان ترى الشىء بالنهار فتعرفه معرفة عين وتعرف مكانه بنظر لاتخطئه ثم انك تحتاج اليه ليلا فلست تعرف مكانه رأى عين وانما تقصده بمعرفة استدلال عليه وحسن ظن انه موجود على حاله أو يعرف بشىء معهود انه لايتحول وكذلك الادلة هى الغائبات وسقوطها مع المشاهدات وبمعناها رؤية الشىء بنور القمر فانه يشبح وبلوح المشكلات ورؤيته فى ضياء الشمس فانها تكشف الامر على ما هو به فهذا مثل نور اليقين الى نور الايمان ومثل رابع فى تفاوت المؤمنين فى حقيقة الكمال ودخولهم فى الاسم والمعنى مثل صلاة رباعية أقيمت فجاء رجل فأدرك تكبيرة الاحرام ثم جاء آخر فأدرك الركوع ثم جاء آخر فأدرك الركعة الثانية ثم جاء ثالث فادرك الركعة الثالثة ثم جاء رجل رابع فأدرك الركعة الآخرة فكلهم قد صلوا وأدركوا الصلاة فى جماعة ونال فضلها لقوله صلى الله عليه وسلم من أدرك من الصلاة ركعة فقد أدرك الصلاة ولكن ليس من أدرك الركعة الاولى فى كمال الصلاة وادراك حقيقها كمن أدرك الثالثة والرابعة ولا يكون أيضا من أدرك التكبيرة للاحرام فى الفضل كمن لم يدرك شيأ من القيام وهما مدركان معا فكذلك المؤمنون فى كمال الايمان وحقائقه لايستوون وان استووا فى الاسم والمعنى وكذلك فى تفاوتهم فى الآخرة فقد جاء فى الخبر انه يقال أخرجوا من فى قلبه مثقال ذرة من ايمان ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة من ايمان فقد حصلوا متفاوتين فى الايمان ما بين الذرة الى المثقال وكلهم قد دخل النار الا أنهم على مقامات فيها وفيه دليل ان من كان فى قلبه وزن دينار من ايمان لم يمنعه ذلك من دخول النار لعظم ما اقترف من الاوزار وان من كان فى قلبه وزن ذرة من ايمان لم يحق عليه الخلود فى دار الهوان لتعلقه بيسير الايقان وان من زاد ايمانه على وزن دينار ولم يكن للنار عليه سلطان فكان من الابرار وان من نقص ايمانه عن ذرة لم يخرج من النار وان كانت سيماه واسمه فى الظاهر فى المؤمنين لانه فى علم الله من المنافقين الفجار وقد قال الله تعالى فى وصفهم وان الفجار لفى جحيم ثم قال وماهم

عنها بغائبين ثم صار صاحب المثقال والذرة فى الجنة على تفاوت درجات وكان الزائد ايمانه على مثقال فى أعلى عليين على هؤلاء وترفع أهل الدرجات العلى على أهل عليين ارتفاع الكوكب الذى فى أفق السماء وكلهم قد اجتمع فى الجنة على تفاوت مقامات وتعالى درجات وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس شىء خيرا من ألف مثله الا الانسان فلعمرى ان قلب الموقن خير من ألف قلب مسلم لان ايمانه فوق مائة ايمان مؤمن وعلمه بالله تعالى أضعاف علم مائة مسلم ويقال ان واحدا من الابدال الثلاثمائة قيمته قيمة ثلاثمائة مؤمن وكان أبو محمد يقول يعطى الله تعالى بعض المؤمنين من الايمان بوزن جبل أحد و يعطى بعضهم مثل ذرة وقد قال الله تعالى وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين بالعلو ولانهاية لعلو الايمان فصار علو كل قلب على قدر ايمانه ولذلك رفع العلماء على المؤمنين درجات فى قوله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ففسرها ابن عباس رضى الله عنه فقال الذين أوتوا العلم فوق المؤمنين بسبعمائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض وفى الخبر أكثر أهل الجنة البله وعليون لأولى الألباب وعن النبي صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب و روينا فى لفظ أبلغ من هذا كفضلى على أمتى فالموقنون من المؤمنين أعلى ايمانا والعالمون من الموقنين أرفع مقاما ثم على قدر بياض الماء يستبين من القنديل حسنه وصفاؤه ومثل هذا العقل فى صحته من الاعتلال وصفائه من كدر الاحوال والأهوال ويجمع ذلك كله القنديل وهو القلب فعلى قدر رقة القلب ولطف جوهره وصفائه من كدره وحسن طهارته عن الآثار تكون هذه العلوم فيه والأنوار وجوهر الزجاجة فى الصفاء محتاج الى صفاء الماء كما ان صفاء الماء محتاج الى صفاء الجوهر وبمعيارهما يكون القلب والعقل ووقود النور محتاج الى قوة الفتيلة ومدد الزيت فبموضعها فى القوة والمدد يكون العلم بالله تعالى واليقين ذلك تقدير العزيز العليم وكل قلب اجتمع فيه ثلاثة معان لم يفارقه خواطر الهوى الجهل والطمع وحب الدنيا ثم يضعف خاطر الهوى و يقوى على قدر تمكن هذه الثلاثة من النفس وحقائقها على مثل ماذكرناه من تمكن خواطر اليقين وضعفها لوجود مكانها وهو العلم والايمان والعقل وفى القلب يظهر سلطان ذلك أجمع فأى جند كانت المشيئة معه غلب وروينا عن على عليه السلام ان لله فى أرضه آنية وهى القلوب فأحبها اليه أرقها وأصفاها وأصلبها ثم فسره فقال أصلبها فى الدين وأصفاها فى اليقين وأرقها على الاخوان فمثل القلوب مثل الأوانى فى تقارب جوهرها فأرقها وأصفاها وأعلاها يصلح للملك والوجه والطيب واكثفها وأرداها يصلح للادناس وما بين ذلك يصلح لمابينهما ومثلها أيضا مثل الموازين الطيار اللطيف والمعيار يصلح لوزن الذهب بالتحرير والمعيار والكثيف الجافى يصلح للقت والانعام وما بينهما يصلح لما بين ذلك فيوزن بكل ميزان ما يصلح له من كل شىء موزون كما يجعل فى كل اناء مايليق به من كل

شيء مرذول أومصون كذلك الحكم والحكمة فى الملكوت الباطن كالحكمة والحكم فى الملكوت الظاهر بتعديل الظاهر الباطن وفى تفسير قوله عزوجل مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة فسره أبى بن كعب قال مثل نور المؤمن وكذلك كان يقرأه قال فقلب المؤمن هو المشكاة فيها مصباح فكلامه نور وعمله نور ويتقلب فى نور ثم قال فى قوله تعالى أو كظلمات فى بحر لجى قال قلب المنافق فكلامه ظلمة وعمله ظلمة ويتقلب فى ظلمة وكان زيد بن أسلم يقول فى قوله تعالى فى لوح محفوظ قال قلب المؤمن وقال أبو محمد سهل مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسى وروينا فى حديث ابن عمر قال قيل يارسول الله أين الله فى الأرض قال فى قلوب عباده المؤمنين وفى الخبر المأثور عن الله تعالى لم يسعنى سمائى ولا أرضى ووسعنى قلب عبدى المؤمن وفى بعضها اللين الوادع فاللين يعنى السهل الرقيق القريب والوادع يعنى الساكن المطمئن وفى الخبر ما ألبس العبد لبسة أحسن من خشوع فى سكينة فهذه لبسة المتقين وصبغة الله تعالى للعارفين وفى الحديث قيل يارسول الله من خير الناس قال كل مؤمن محموم القلب ثم فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هو التقى النقى الذى لاغش فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد وقال بعض العارفين فى معنى قوله تعالى الا من أتى الله بقلب سليم أى مما سوى الله ليس فيه غير الله وفى قول أهل التفسير سليم من الشرك والنفاق وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك فى أمتى أخفى من دبيب النمل وهذا لا يعدمه المؤمنون الا الصديقين وقال أكثر منافقى أمتى قراؤها وهذا لا يعدمه العابدون الا العارفين ومن خواطر اليقين مايرد بشيء لاتظهر دلائله فى الظاهر لخفائه وغموض شواهده فليس يعلم الا بباطن العلم وغامض الفهم والغوص على لطائف معانى التبيين وباطن الاستنباط من فهم التنزيل وتعليم التأويل كما قال الحبيب الخليل رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل وكما قال على بن أبى طالب ماعندنا شيء اسره الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى كتاب الله تعالى الا أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما فى كتابه وكما جاء فى تفسير قوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء قال الفهم فى كتاب الله وقال أصدق القائلين ففهمناها سليمان فخصه بفهم منه زاده به فوق الحكم والعلم الذى شرك فيه أباه فزاده على فتيا أبيه وروينا عن على عليه السلام فى الحديث الطويل الذى يقول فيه واليقين على أربع شعب على تبصرة الفطنة وتأول الحكمة و موعظة العبرة وسنة الأولين فمن تبصر الفطنة تأول الحكمة ومن تأول الحكمة عرف العبرة ومن عرف العبرة كان فى الاولين الا أن أهل اليقين المرادين به العارفين بأحكام الله تعالى الباطنة يعلمون تفصيل خواطر اليقين ومقتضاها من حيث أشهدوا مطلعها من الغيب وبحيث عرفوا موجبها من الوصف بنور الله الثاقب وقربه الحاضر وسلطانه النافذ كما جاء فى الخبر اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله تعالى أى باليقين وفى لفظ آخر اتقوا فراسة العالم فكأنه مفسر له ومنه قوله تعالى ان فى ذلك لآيات للمتوسمين وقوله قد

بينا الآيات لقوم يوقنون أى بنور اليقين وكان أبو الدرداء يقول المؤمن ينظر الى الغيب من وراء ستر رقيق والله انه للحق يقذفه الله تعالى فى قلوبهم ويجريه على ألسنتهم و قال بعض العلماء ظن المؤمن كهانة أى كأنه سحر من نفاذه وصحة وقوعه وقال بعض العلماء يد الله تعالى على أفواه الحكماء لا ينطقون الا بما هيأ الله عز وجل لهم من الحق وقال آخر لو شئت لقلت ان الله يطلع الخاشعين على بعض سره وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أمراء الأجناد احفظوا ما تسمعون من المتعظين فانهم ينجلى لهم أمور صادقة وقال الله تعالى ومن أصدق من الله قيلا يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا قيل نور تفرقون به بين الشبهات ويقين تفرقون به المشكلات ومن هذا قوله سبحانه وتعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا قيل مخرجا من كل أمر ضاق على الناس ويرزقه من حيث لا يحتسب يعلمه علما بغير تعليم ويفطنه بغير تجربة أى بالشاهد الصحيح والحق الصريح ومثله له قوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا قيل الذين يعملون بما يعلمون قال يوفقهم ويهديهم الى ما لا يعلمون حتى يكونوا علماء حكماء وقال بعض السلف نزلت هذه الآية فى المتعبدين المنقطعين الى الله سبحانه وتعالى المستوحشين من الناس فيسوق الله تعالى اليهم من يعلمهم أو يلهمهم التوفيق والعصمة وفى الخبر من عمل بما علم أورثه الله تعالى علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار فمعنى أورثه علم ما لم يعلم أى من علوم المعارف التى هى مواريث أعمال القلوب مثل الفرق بين الاختبار والاختيار والابتلاء والاجتباء والمثوبة والعقوبة ومعرفة النقص من المزيد والقبض والبسط والحل والعقد والجمع والتفرقة الى غير ذلك من علوم العارفين بعد حسن التفقه والادب عن مشاهدة الرقيب والقرب لصحة المواجيد والقلوب وقال بعض التابعين من عمل بعشر ما يعلم علمه الله تعالى ما يجهل وقد قال حذيفة أنتم اليوم فى زمان من ترك عشر ما يعلم هلك وسيأتى بعدكم زمان من عمل بعشر ما يعلم نجا وقال بعضهم كلما ازداد العبد عبادة واجتهادا ازداد القلب قوة ونشاط وكلما مل العبد وفتر ازداد القلب ضعفا ووهنا وليس يكاد علم اليقين يقدح فى معدن العقل لان علوم العقل مخلوقات ولا يكاد ينتجه الفكر ولا يخرجه التدبر فما أنتجته الافكار واستخرجته الفطرة من الخواطر والعلوم فتلك علوم العقل وهى كشوف المؤمنين ومحمودات لأهل الدين فاما خاطر اليقين فانه يظهر من عين اليقين ينادى به العبد مناداة و يبغته مفاجأة لانه مخصوص بمراد مقصود به محبوب متولى به مطلوب لا يجده الا عارف أو خائف أو محب ومن سوى هؤلاء فبحاله محجوب و بعاداته مطلوب و الى مقامه ناظر وفى طريقه بمعقوله سائر فاما العارفون المواجهون بعين اليقين المكاشفون بعلم الصديقين فانهم مسيرون محمولون سابقون مستهترون قد وضعت الاذكار عنهم الاوزار كما جاء فى الخبر سيروا سبق المفردون بالفتح والمفردون أيضا بالكسر فهم مفردون لله تعالى بما أفردهم الله تعالى كما قال جل ذكره

حافظات للغيب بما حفظ الله قيل ومن المفردون قال المستهترون بذكر الله وضع الذكر أو زارهم فوردوا القيامة خفافا فلما أفردهم الله تعالى عمن سواهم له أفردوه عما سواه به فذكرهم فاستولى عليهم ذكره فاصطلم قلوبهم نوره تعالى فاندرج ذكرهم فى ذكره فكان هو الذاكر لهم وكانوا هم المكان لمجارى قدرته عز وجل فلا يوزن مقدار هذا الذكر ولا يكتب كيفية هذا البر فلو وضعت السموات والارض فى كفة لرجح ذكره تعالى لهم بهما وهم الذين قال لهم فترى من واجهته بوجهى لعلم أحد أى شىء أريد أن أعطيه لوكانت السموات والأرض فى موازينهم لاستقللنها لهم أول ماأعطيهم أن أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم وهذا هو ظاهر أوصافهم وأول عطاياهم فطلب هؤلاء لايعرف و نصيبهم لايكيف ومطلوبهم كنه قدره لايوصف عطاؤهم غير مخلوق ومشاهدتهم وصف التحقيق بعين اليقين الى حق اليقين فأول نصيبهم من مطلوبهم علم اليقين وهو صفاء المعرفة بالله تعالى وآخر علم الايمان أول عين اليقين وهو مشاهدة وصف معروف وهذه وجهة التوحيد ولا آخر لأول علم اليقين ولا انقطاع لآخر نصيبهم من مشاهدتهم فظاهر التوحيد توحيد الله تعالى فى كل شىء وتوحيده بكل شىء ومشاهدة ايجاده قبل كل شىء ولانهاية لعلم التوحيد ولا غاية لمزيد عطاء الموحدين ولكن لهم نهايات يوقفون تحتها وغايات يصدرون عنها تجعل أماكن لمزيدهم و يزدادون فى وسعها ويمدون بعلوم يطلبون بها ما يكاشفون به لما وراءها أبد الأبد بلا آخر ولا أمد ولا يصل العبد الى مشاهدة علم التوحيد الا بعلم المعرفة وهو نور اليقين ولا يعطى نور اليقين حتى تمحض الجوارح بالأعمال الصالحات كما يمحض الزق باللبن حتى تظهر الزبدة وهى علم اليقين وليست هذه الزبدة غاية الطالبين ولا بغية الصديقين لان وراءها صفوها وخالصها ثم تذاب هذه الزبدة حتى يخاص سمنها وهو صفوها ونهايتها وهذا مثل لعين اليقين بعد علمه و بعده شاهدة الوجه بمرآة القرب وهى نوره فحينئذ لايفارقه وجدو حضوره فيرفع العبد من خواطر اليقين الى مشاهدة الصفات بعد ذوب علم الخواطر يتجوهر نور شعاع وجه الذات وهذا مقام الاحسان وان الله لمع المحسنين بعد مجاهدتهم النفوس فيه وبيعها مع الأموال منه فاحسن اليهم باشترائها منهم وكان معهم كما قال سيجزيهم وصفهم فانما كانوا محسنين لان المحسن معهم كما كانوا أعاين اذ الاعلى معهم فقد قال وأنتم الاعلون والله معكم وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاحسان فقال ان تعبد الله كانك تراه و ينتقل العبد من أعمال الجوارح وهى المجاهدة التى طرح عليه ثقلها فحملها فتحمل فيما حمل وتحفظ له ما استحفظ الى علم اليقين وهو الروح والرضا وهذا هو هداية السبيل وأول هذا كله أن يدخل العبد بعد التوبة النصوحة فى أحوال المريدين وأعمال المجاهدين للنفس والعدو ثم ينتقل الى خواطر اليقين فهذا ميراث المجاهدين كما قال والذين جاهدوا فينا يعنى

نفوسهم وأموالهم وجاهدوا عدوهم اذ يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء فصابرهم فغلبوه فباعوا النفوس والاموال فأعتقوا من رق الهوى ونجوا من أهوال الحساب لنهدينهم سبلنا أى لنطرقنهم الى مكاشفات العلوم ولنسمعنهم غرائب الفهوم ولنوصلنهم الى أقرب الطرق الينا بحسن مجاهدتهم فينا ثم ختم الأمر بقوله تعالى وان الله لمع المحسنين هذا مقام مشاهدة الصفات فكان المجاهد فيه معهم أولا بالتوفيق فيه صبروا له بالتأييد وكان المحسن معهم آخر اليوم فيه أحسنوا الى نفوسهم غدا وروينا عن الحسن البصرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم علمان فعلم باطن فى القلب فذاك هو النافع وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى قوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ما هذا الشرح قال هو التوسعة يعنى ان النور اذا قذف فى القلب اتسع له الصدر وانشرح وقال بعض العارفين لى قلب اذا عصيته عصيت الله تعالى يعنى انه لا يقذف فيه الا طاعة ولا يقر فيه الا حق فقد صار رسوله اليه فاذا عصاه فقد عصا المرسل بمعنى الخبر الايمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل وبقوله صلى الله عليه وسلم المؤمن ينظر بنور الله فمن نظر بنور الله كان على بصيرة من الله تعالى وكان عمله بنوره طاعة لله تعالى وقال بعض العارفين منذ عشرين سنة ماسكن قلبي الى نفسى ساعة وما ساكنته طرفة عين وسئل بعض العلماء عن علم الباطن أى شىء هو فقال سر من سر الله تعالى يقذفه فى قلوب احبابه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا وقد روينا فيه خبرا مسندا أحببنا أن نسنده وقد جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال علمنى من غرائب العلم فقال هل عرفت الرب فاخبر أن غرائب العلوم فى المعرفة وقد أمر صلى الله عليه وسلم بأصل العلوم الذى فيه غرائب الفهوم فقال اقرأوا القرآن والتمسوا غرائبه يعنى تدبر معانيه واستنباط بواطنه اذ بكلامه عرفه أولياؤه وقد قيل تكلموا تعرفوا فمن عرف معانى الكلام ووجوه الخطاب عرف به معانى الصفات و غرائب علوم أسماء الذات وقال ابن مسعود من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن وقال بعض أهل المعرفة فى فهم هذه الآية ان الله يأمر بالعدل والاحسان قال العدل تدبر القرآن و فهمه والاحسان مشاهدة الفهم وفى تأويل قوله عليه الصلاة والسلام فى صفة العدل شاهد لقوله هذا فى حديثه الذى وصف فيه شعب الايمان فقال الايمان على أربع دعائم على الصبر واليقين والعدل والجهاد ثم قال والعدل على أربع شعب غائص الفهم وزهرة العلم وروضة الحلم وشرائع الحكم فمن فهم فسر جمل العلم ومن علم عرف شرائع الحكم ومن حلم لم يفرط فى أمره وعاش فى الناس حميدا وقال بعض المكاشفين ظهر لى الملك فسألنى أن أملى عليه شيأ من ذكرى الخفى من مشاهدتى من التوحيد وقال ما نكتب لك عملا ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به الى الله تعالى فقلت أليس يكتبان الفرائض قال بلى قلت فيكفيهما ذلك وقال بعض العارفين قال سألت بعض الابدال عن

مسألة من مشاهدة اليقين فالتفت الى شماله وقال ماتقول رحمك الله ثم التفت الى يمينه فقال ماتقول رحمك الله ثم أطرق الى صدره وقال ماتقول رحمك الله ثم أجابني بأغرب جواب ماسمعته قط وأعلا فقلت رأيتك التفت عن شمالك ويمينك ثم أقبلت على صدرك فماذا فقال سألتنى عن مسئلة لم يكن عندى فيها علم عتيد فالتفت الى صاحب الشمال فسألته عنها وظننت أن عنده منها علما فقال لاأدرى فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لاأدرى فنظرت الى قلبي فسألته فحدثني بما أجبتك واذا هو أعلم منهما وقد كان أبو يزيد وغيره يقولون ليس العالم الذى يحفظ من كتاب الله فاذا نسى ما حفظ صار جاهلا انما العالم الذى يأخذ علمه من ربه عز وجل أى وقت شاء بلا تحفظ ولا درس فهذا لعمرى لا ينسى علمه وهو ذاكر أبدا لايحتاج الى كتاب وهو العالم الربانى وهذا هو وصف قلوب الابدال من الموقنين ليسوا واقفين مع حفظ انما هم قائمون بحافظ وقد روينا فى الخبر أن من أمتى محدثين ومكلمين وان عمر منهم وقرأ ابن عباس وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث يعنى الصديقين وهذا كان طريق السلف من الصحابة وخيار التابعين اذا سئلوا وفقوا وألهموا الصواب لقربهم من حسن التوفيق وسلوكهم حقيقة محجة الطريق فخاطر اليقين اذا ورد على قلب مؤمن اضطرته مشاهدته الى القيام به وان خفى على غيره وحكم عليه بيانه وبرهانه بصحة دليله وان التبس على من سواه وقد قال الله تعالى فى تخصيص الموقنين قد بينا الآيات لقوم يوقنون هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون وقال فى نعت المتقين وما خلق الله فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون وقال تعالى هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين وقال فى فضل العلماء بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وقال قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون فحقيقة العلم انما هو من التقوى واليقين وهذا هو علم المعرفة المخصوص به المقربون وهب لهم الآيات وخصهم بالبيان والدلالات بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فهذه الخواطر تبدو فى القلوب عن هذه الاواسط التى هى خزائن الله تعالى من خزائن الارض ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون والفقه صفة القلب لا لسان العرب تقول فقهت بمعنى فهمت وابن عباس يفسر قول الله عز وجل لهم قلوب لا يفقهون بها يقول لا يفهمون بها ويجعل الفقه الفهم فخاطر اليقين والروح والملك من خزائن الله وخاطر العقل والنفس والعدو من خزائن الارض كما قيل النفس ترابية خلقت من الأرض فهى تميل الى التراب والروح روحانى خلق من الملكوت فهى ترتاح الى العلو والقلب خزانة من خزائن الملكوت مثله كالمرآة تقدح هذه الخواطر عن أوساطها من خزائن الغيب فتوقد فى القلب فيتلألأ فيه للتأثير فمنها ما يقع فى سمع القلب فيكون فهما ومنها مايقع فى بصر القلب فيكون نظرا وهو المشاهدة ومنها ما يقع

فى لسان القلب فيكون كلاما وهو الذوق ومنها ما يقع فى شم القلب فيكون علما وهو الفكر وهو العقل المكتسب بتلقيح العقل الغريزى وهذا أقلها لبثا وأيسرها عناء وما وقع فى ناظر القلب وحسه فخرق شغافه ووصل الى سويدائه وهو المباشرة كان وجدا وهذا هو الحال عن مقام مشاهدة ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم أسألك ايمانا يباشر قلبي وقال بعض العارفين اذا كان الايمان فى ظاهر القلب كان العبد محبا للآخرة وللدنيا وكان مرة مع الله تعالى ومرة مع نفسه فاذا دخل الايمان الى باطن القلب أبغض العبد الدنيا وهجر هواه وقد قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله للقلب تجويفان أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وكان يسمى هذا قلب القلب والتجويف الآخر ظاهر القلب وفيه العقل ومثل العقل فى القلب مثل النظر فى العين هو صقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذى فى سواد العين فاذا كانت هذه الخواطر عن أواسط الهداة به وهى الملك والروح كانت تقوى وهدى ورشدا وكانت من خزائن الخير ومفتاح الرحمة قدحت فى قلب العبد نورا وطيبا أدركه الحفظة وهم املاك اليمين فاثبتوها حسنات وان كانت الخواطر عن أواسط الغواة وهم العدو والنفس كانت فجورا وضلالا وهى من خزائن الشر ومعالق الاعراض قدحت فى القلب ظلمة ونتنا أدرك ذلك الحفظة من أملاك الشمال فكتبوها سيآت وكل هذا الهام والقاء من خالق النفس ومسويها وجبار القلوب ومقلبها حكمة منه وعدلا لمن شاء ومنة وفضلا لمن أحب كما قال وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا أى بالهداية صدقا لاوليائه ما وعدهم من ثوابه وبالضلال عدلا على أعدائه ما أعد لهم من عقابه ثم قال تعالى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فهذه جنود منقادة لأمره وهو ملك جبار عزيز قهار تعالى عن مباشرة الاشياء اذا كانت تنقاد لمشيئته وتطوع لقدرته فتنفذ قدرته ارادته وتظهر حكمته أفعاله اذا أراد شيأ قال له كن بخفى قدرته فكان بظاهر حكمته والرب سبحانه قادر على كل شىء بيده ملكوت كل شىء حكيم فى كل شىء والعبد ضعيف عاجز جاهل لا يقدر على شىء قد ابتلى بالاسباب ووقع عليه الحجاب وجعل مكانا للاحكام بالعقاب والثواب فالاسباب أواسط البلاء والعبد موضع الابتلاء والاول سبحانه وتعالى هو المبلى المريد المبدىء المعيد وينشئكم فيما لا تعلمون وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا وليس يشهد العبد الا ما أشهد فكذلك تفاوت العباد فى المشاهدة ولا يستبين له الا ما أبين له وأريد به فعن ذلك اختلفوا فى الادلة فاذا أراد الله عزوجل اظهار شىء من خزائن الغيب حرك النفس بلطيف القدرة فتحركت باذنه فقدح من جوهرها بحركتها ظلمة تكتب فى القلب همة سوء فينظر العدو الى القلب وهو مراصد ينتظر والقلوب له مبسوطة والنفوس لديه منشورة يرى ما فيها ما كان من عمله المبتلي به المصرف فيه فاذا رأي همة قد قدحت فى النفس فأثرت ظلمة فى القلب ظهر مكانه

فقوى بذلك سلطانه والهمة ترد على أحد ثلاث معان لاتحصى فروعها لأن همة كل عبد على قدر بغيته أحدها هوى وهو عاجل حظ النفس أو أمنيته وهذا عن الجهل الغريزى أودعوى حركة أو سكون وهو آفة العقل ومحبة القلب فأى هذه الثلاث قدح فى القلب فهو وسوسة نفس وحضور عدو ومنسوب اليه محكوم عليه بالذم ليست تصدر الا باحد ثلاثة أصول بجهل أوغفلة أو طلب فضول دنيا وهن مما لا يعنى ومضافات الى الدنيا وأعمالها والأفضل مجاهدة النفس والعدو عن امضائها وحبس الجوارح عن السعى فيها ان كن من فضول الدنيا المباحات فان كن هذه الثلاث وردن بمحرمات ففرض عليه كف الجوارح عن السعى فيها فان أمرح قلبه فى ذكرها أونشر خطواته فى طلبها كن حجابا بين قلبه وبين اليقين وان كن وردن بمباحات ففضل له بنفيها عن قلبه كيلا يكون قلبه موطنا للغفلات وأصلهن الابتلاء من الله تعالى بالتقليب والامتحان منه فى التصريف ولذلك خلق النفس والروح والموت والحياة وجعل ما على الارض زينة لها ليظهر أحسن العمل بالزهد فيها وينظر كيف تعملون فاذا أراد الله تعالى سلامة هذا العبد بعد أن أشرف على الهلاك والبعد بتسليط العدو عليه وتسويل النفس له نظر القلب عند الابتلاء فهدى النفس بنور ايمانه الى الله تعالى فاسر الالتجاء اليه وأخفى التوكل عليه عائذا لائذاً به واضطر مخلصا له فهناك توكل عليه فكان حسبه وعندها فوض اليه أمره فوقاه مكر عدوه وحينئذ اضطر اليه واتقاه فجعل له مخرجا ونجاه فينظر الله تعالى الى القلب نظرة تخمد النفس وتمحق الهمة وتخنس العدو لسقوط مكانه وتذهب لخنوسه شدة سلطانه فيصفو القلب من التأثير بنور السراج المنير ويعلس من التحرير بقوة القهار العزيز فيخاف العبد مقام الرب لصفاء القلب عن نظر الرب تعالى فيفزع من الخطيئة ويهرب أو يستغفر منها ويتوب ويظهر عليه شعار تقواه وان أراد الله تعالى بعبد هلكة وكان قد حكم بوقوع الشر نظر القلب بعد الهمة بهوى النفس الى العقل فرجع العقل الى النفس فسولت وطوعت فسكن العقل واطمأن الى تسويل النفس وطوعها فانشرح الصدر بالهوى لسكون العقل وانتشر الهوى فى القلب لشرح الصدر وتوسعته فقوى سلطان العدو لاتساع مكانه فأقبل بتزيينه وغروره وأمانيه ووعده يوحى بذلك زخرفا من القول وغرورا فيضعف سلطان الايمان لقوة سلطان العدو وخفاء نور اليقين فغلب الهوى لقوة الشهوة فأحرقت الشهوة العلم والبيان فارتفع الحياء واستتر الايمان بالشهوة فظهرت المعصية لغلبة الهوى وارتفاع الحياء وهذان المعنيان من ظهور الخير والشر والطاعة والمعصية بهذه الاسباب يوجدان فى طرفة عين فتصير أجزاء العبد جزأ واحدا ومفصلاته تعود بالمراد منه فصلا واحدا كالبرق فى السرعة بتغليب القدرة على المشيئة اذا قال جل وعلا له كن فيكون وان أراد الله تعالى اظهار خير والهام تقوى من خزائن الملكوت حرك الروح بخفي

اللطف فتحركت بامره جلت قدرته فقدحمنجوهرهانورسطع فى القلب همة عالية وهمة الخيرترى بأحد ثلاثةمعان لاتحصى فروعها لأن كل عبدهمته فى الخير مبلغ علمه ومنتهى مقامه فاحدالاصول مسارعة الى أمر بفرض أو ندب لفضل يكون عن عمل حال العبد أو علم يكون فطنة له أظهر عليه من مكاشفة غيب من ملك أو ملكوت والمعنى الثالث بتحمل مباح من تصرف فيما يعنى مما يعود صلاحه عليه واستراحة النفس بما أبيح له يكون نفعه لغيره أو ترويحات من الافكار لقلبه الغائص فى البحار يكون حملا لكربه وتخفيفا لثقله فهذه مرافق للعبد باختيار من المعبود وحكمة من الحكيم وفى كلها رضاه سبحانه وتعالى فامضاؤها أفضل للعبد و بعضها أفضل من بعض وهذه الاصول الستة من الخير والشر هى الفرق بين لمة الملك وبين لمة العدو وبين الهام التقوى والهام الفجور التى هى النية والوسوسة وهما الاختيار أو الاختبار وقد تكون هذه المعانى مكاشفات مزيد للعبد ينظر الى الله تعالى منها ويجد الله تعالى بما أوجده منه عندها ويكون تعريفا من الله يتعرف اليه بها و يفتح له باب الانس والشوق منها ثم تتفاوت العباد فى مشاهدتها على حسب علومهم فى اليقين وعلى قدر قوتهم ومكانهم من التمكين الا أن أصول معانى الخير وأواسطها الهام الملك والالقاء فى الروح وقوادح الانوار فى كتب الايمان وفروعها الآخرة والعلم بما أمر به أو ندب اليه والمباح وأصول معانى الشر أضدادها اواسطها النفس والعدو وأسبابها الشهوة والهوى يظهرن عن الجهل ويوقعن الحجاب ويصدرن الى عقاب فاذا أراد الله تعالى اظهار خير من خزانة الروح حركها فسطعت نورا فى القلب فأثرت فينظر الملك الى القلب فيرى ما أحدث الله تعالى فيه فيظهر مكانه فيتمكن على مثال فعل العدو فى خزانة الشر وهى النفس والملك مجبول على الهداية مطبوع على حب الطاعة كما ان العدو مجبول على الغواية مطبوع على حب المعصية فيلقى الملك الالهام وهو خطوره على القلب بقدح خواطره يأمر بتمييد ذلك ويحسنه له ويحثه عليه وهذا هو الهام التقوى والرشد وينظر الملك الى اليقين كما نظر العدو الى النفس فيشهد اليقين للملك بذلك فيطمئن العقل و يسكن الى شهادة اليقين ويصير العقل الآن باذن الله تعالى مع الملك بتأييد الله تعالى كما كان مع النفس أول مرة مطمئنا اليها فينشرح الصدر لطمأنينة العقل فتظهر أدلة العلم لانشراح الصدر فيقوى سلطان اليقين لصفاء الايمان وتندرج ظلمة الهوى فى نور اليقين وتنطفىء شعلة الشهوة لظهور نور الايمان ويزين الايمان بزينة الحياء فتضعف صفات النفس لسقوط الشهوة ويقوى القلب لضعف النفس و يزيد الايمان بقوة اليقين وظهور أدلة العلم فتغلب الهداية لمزيد الايمان ولبسة الحياء فتظهر الطاعة لغلبة الحق و الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون

ذكر نوع آخر من البيان

وقد تختلف اللمتان من الملك والعدو ويتفاوت الالهام والوسوسة فى المعانى من الخير والشر فربما تقدمت لمة العدو بالأمر بالشر وتقدح بعدها لمة الملك نصرة للعبد وتثبيتا على الخير وعناية من الرب تعالى فينهى عن ذلك فعلى العبد أن يعصى الخاطر الأول و يطيع الخاطر الثانى وقد يتقدم الهام الملك بالأمر بالخير ثم يقدح بعده خاطر العدو بالنهى عنه والتثبيط والاملاء فيه بالتأخير محنة من الله تعالى للعبد لينظر كيف يعمل وحسدا من العدو فعليه أن يطيع الخاطر الاول ويعصى الخاطر الثانى ثم تدق الخواطر من الهام الملك بالخير ومن وسوسة العدو بالشر وقد يتفاوت ذلك من ضعف خاطر الخير لقوة الرغبة فى الدنيا ومن قوة خاطر الشر لقوة الشهوة والهوى وفى المزيد والنقص منهما والتقديم والتأخير بهما لتفاوت الأحكام والارادة من الحاكم ومن قبل تقليب القدرة وغرائب الأحكام بالمشيئة لان لله فى خزانة الخير خزانة الشر اذا شاء وله فى خزانة الشر خزائن الخير اذا أحب لمن يحبه لئلا يسكن الى سواه ولا يدل العبد بما منه ابداء فاذا شهد العارف ذلك لم ينقطع بخير ولم يدل به أبدا لانه لا يامن مكر الله تعالى بتقليب خزائن الشر من خزائن الخير اذا عليه ابداه ولم ييأس من شر عليه ابداه لانه يرجو تقليب خزائن الخير من خزائن الشر فيكون بين الخوف والرجاء ولا يدرك ذلك الا بدقائق العلوم ولطائف الفهوم وغوامض الفطن وصفاء الانوار من تعليم الرحيم الجبار فما كان للعبد يجد بعد خطرة الشر خطرة خير منها تنهاه عنها فهو منظور اليه متدارك به وهذا هو الواعظ القائم فى القلب والزاجر المؤيد للعقل وقد تترادف خواطر الشر من النفس والهوى فلا يتعاقبها خاطر خير من الملك وهذا علامة البعد ونهاية قسوة القلب وقد تتتابع خواطر الخير والبر من الروح والملك ويعافى العبد من خاطر الهوى والنفس وهذا علامة القرب وهو حال المقربين وقد ترد خواطر العدو ووساوسه بالخير والبر ابتلاء من الله تعالى لعبده وحيلة من العدو ومكرا من النفس يريد العدو بذلك الشر أو يخرجه آخرا الى اثم أو خير ليقطعه بذلك عن واجب أو يشغله به عن الأفضل فى الحال فيكون ظاهره برا وباطنه اثما ويكون أوله خيرا وآخره اثما وبغية العدو من ذلك باطنه وآخره وشهوة النفس فى ذلك هواها ومناها قد لبسا ظاهره بالخير تزيينا وموها أوله بالبر تحسينا وهذا من أدق ما يبتلى به العاملون ولا يعرف بواطنه وسرائره الا العالمون فاما خاطر الملك فلا يرد الا بخير صريح وبر محض على كل حال اذا ورد لان الخداع والحيلة ليس من وصف الملائكة ولكن قد تنقطع خواطر الملك من القلب اذا اشتدت قسوته ودامت معصيته من المتعبدين فيخلى بين القلب وبين نوازع العدو اللعين ويتخلى العدو بهوى النفس فيستحوذ ويقترن بالعبد نعوذ بالله من ابعاده وعدم خيره وارشاده و لا يزال العبد مع الهام الملك فى مقام الايمان فاذا

رفع الى مقام اليقين تولاه الله تعالى بواسطة أنوار الروح فكان الروح مكان القاء الحق حتى يرد عليه من الله تعالى بواسطة أنوار الروح من السراء مالايطلع عليه الملك ولا يكون ذلك حتى تفنى خواطر النفس بالهوى ولا تبق منها باقية وتطوى النفس فتندج فى الروح فلا يظهر منها داعية ثم يتولاه الله تعالى بنور اليقين فيسطع له نور اليقين من خزانة الغيب المحجوب بمكاشفات الجبروت فيشهد العبد شهادة الحق بالحق معاينة الغيب بفقد كونه ووجد كينونته ومالا يصلح بعد ذلك كشفه الا لاهله أو لمن سأل عنه وهذا يكون فى مقام التوحيد وهذا أنصبة المقربين

ذكر بيان آخر من تفصيل المعانى

وكل عمل وان قل لابد فيه من ثلاثة معان قد استأثر الله تعالى بتوليها أولها التوفيق وهو الاتفاق أن يجمع بينك وبين الشىء ثم القوة وهو اسم لثبات الحركة التى هى أول العقل ثم الصبر وهو تمام الفعل الذى به يتم فقدر الله عز وجل هذه الأصول التى يظهر عنها كل عمل اليه فقال سبحانه وما توفيقى الا بالله وقال ماشاء الله لاقوة الا بالله وقال عز وجل واصبر وما صبرك الا بالله وقد أجمل الله عز وجل ذكر تقليب الكون بمشيئته فى قوله تعالى يقلب الله الليل والنهار والمعنى بما فيهما لانهما ظرفان للاشياء فعبر عنهما بهما كقوله تعالى بل مكر الليل والنهار والمعنى مكركم فى الليل والنهار فعبر بهما عن مكرهم لانهما مكان لمكرهم وكذلك قوله تعالى وله ما سكن فى الليل والنهار فيها وجهان أحدهما أى ما أقام من السكن والثانى ما سكن من السكون وانما ذكر السكون دون الحركة لأنه هو الأصل حتى تحرك وهو الأقرب الى العجز والعدم والتحريك حادث جار باحداث الله تعالى واجرائه ويجوز أيضا ذكر السكون ليستدل به على الحركة لأنه ضدها كما قال الله تعالى سرابيل تقيكم الحر وهى أيضا تقى البرد فذكر أحد الوصفين ليستدل به على الآخر وقال سبحانه ونقلب أفئدتهم وأبصارهم وكان قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ومقلب القلوب لما شهد من عظيم القدرة ولطيف الصنع فى التقليب ولما رأى من سرعة نفاذ القدرة بالمراد فى المقلبات مما لم يشهد سواه فجعله قسما له تعظيما لقدرة المحلوف به وخوفا من سابق العلم بالتقليب فكان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك قالوا له وتخاف يارسول الله قال وما يؤمننى والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء وفى لفظ حديث آخر انشاء أن يقيمه أقامه وان شاء أن يزيغه أزاغه وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم مثل القلب مثل العصفور فى تقلبه يتقلب فى كل ساعة وفى خبر آخر مثل القلب فى تقلبه كالقدر اذا استجمعت غليا والخبر المشتهر مثل القلب كمثل ريشة بارض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن فالقلب مكان للتقليب بما فيه من خزائن الغيب كالليل والنهار مكان للاحكام بالتصريف من اختلاف الأزمان فى الأوقات

والايمان بتقليب القلوب وبان المقلب يحول بين القلب وبين صاحبه واجب وقد قرن الله عز وجل الايمان بالبعث الأمر بهما فى قوله تعالى واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون وفسره ابن عباس فقال يحول بين المؤمن وبين الكفر ويحول بين الكافر وبين الايمان وقيل يحول بين العبد وبين الاستجابة لله تعالى والرسول وقيل يحول بين المؤمن وبين سوء الخاتمة وبين الكافر وبين حسن الخاتمة وقيل يحول بين المؤمن وبين أن يلقيه فى كبيرة يهلك فيها وبين المنافق وبين أن يوفقه لطاعة فينجو بها ويحول بين الموحد وبين الخاتمة بالتوحيد وهذه مخاوف للمؤمنين بتحقيق الوعيد وكذلك الكون بأسره عند الموحدين فى القدرة بالتقليب كمثل ريشة عاصفة تقلبه القدرة على مشيئة القادر وليس فى القدرة ترتيب ولا مسافة ولا بعد ولا يحتاج الى زمان ولا مكان فما ظهر من الملك وثبت للعيون بمكان وزمان فلاجل الحكمة والصنعة والاتقان وما خفى من الملكوت وتقلب بصائر القلوب فبلطف القدرة وقهر السلطان ونصيب كل عبد من مشاهدة القدرة بقدر نصيبه من التوحيد ونصيبه من التوحيد حسب قسمه من اليقين وقسمه من اليقين على قربه من القريب وقربه على حسب قرب الله تعالى من قلبه وقرب الله تعالى منه بقدر علمه بالله تعالى واتساعه فى العلم بالله عز وجل على نحو مكانه من مزيد الايمان ومزيد ايمانه على قدر احسان الله تعالى اليه واحسانه اليه على قدر عنايته به وايثاره له وعلم الله من وراء ذلك وذلك سر القدرة المحجوب المختزن ونصيب كل عبد من الجهل على قدر نصيبه من الغفلة ونصيبه من الغفلة على حسب حب الدنيا وحبه للدنيا على قدر قوة الهوى وقوة الهوى على قدر غلبة سلطان النفس ونشر صفاتها عليه وقوة صفات النفس على قدر ضعف اليقين وضعف يقينه على كثافة الحجاب والبعد بينه وبين الله عز وجل والحجاب والبعد ميراثه الكبر وقسوة القلب والقسوة تورث الانهماك فى المعاصى وادمان المعاصى عن الاعراض والمقت والاعراض والمقت من قلة عناية المولى بعبده وسوء نظره له ومن وراء ذلك سر القدر الذى به عن الخلق قد استأثره فهذه الاوصاف المذمومة العبد مبتلى بها على تضاد تلك الصفات المحمودة التى هى من المنعم بها ولكل وجهة هو موليها ومكان الهوى من القلب على قدر تزيين العدو له وتسليطه عليه فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله فاذا كان الهادى هو المضل فمن يهدى وقد قال تعالى فان الله لا يهدى من يضل أى فان الله من شأنه ان أحدا لا يهدى من أضله ومن كان أضله الله فى سابق علمه فكيف يهديه الآن كذلك قال على الحرف الآخر فان الله لا يهدى من يضل فاذا كان المعطى هو المانع فمن يعطى ولو كان الخير كله فى قلب عبد ما قدر أن يوصل الى

قلبه من قلبه ذرة ولا استطاع أن ينفع نفسه بنفسه خردلة لان قلبه وان كان جارحته فهو خزانته وله فيه مالا يعلم هو فهو لا يطلع على مافيه كما قال معجبا لمن جهله وأضله أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا فكيف به أن يملك ما فيه فيصرفه بما يحب وقد قال صلى الله عليه وسلم سبحان مصرف القلوب وقد خاطب الله تعالى سيد البشر وأمره ان يخبر فقال قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ثم قال بعد ذلك قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا قل انى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا واذا كان المالك عزيزا جبارا وكان كل شيء بيده لم يوصل الى ما عنده بقوة ولا حيلة فليس الطريق اليه الا الصدق والاخلاص والذل والافتقار وقد حجب العقل المكيد عن النظر الى المبدىء المعيد بما أظهر له من صورته وحركته فستره عن الاول المصور وعن القادر المحرك فادعى عن نظره الى حركته وسكونه التى هى حجبة له عن المحرك لغيب ادعاء الحركة والسكون بنفسه لوقوف نظره على نفسه اذ كان مشهودا وعمى عن النظر الى الشاهد المحرك المسكن لبعد مقامه لانه غيب من وراء الحركة والغيب لا يشهد الا بغيب وهو اليقين كما لا تدرك الشهادة الا بشهادة وهى العين فمن عمى بصره لم ير من الملك شيأ كذلك من حجب قلبه لم ير من الملك شيأ فليعدم اليقين عمى عن المشاهدة ولا يقاع الحجة والحجاب أدرك بالمعقول الشهادة ولو كان من أولى البصائر لاعتبر الحركة الغيبية بالمتحرك المشاهد كما ان الحركة غيب فى الجسم ظهر عنها المتحرك فاظهر سبحانه المتحرك وأخفى الحركة فيه وأظهر الصنعة وأخفى الصنع فيها لتفصيل حكمته كذلك الصانع ذو الصنعة الأول والحاكم الاعلى ذو الحكمة الاغاب غيب عن الحركة التى أخفاها هو من ورائها بلطائف القدرة فشهد المعقول ما اشهدها أظهر له ووجه به لأنه معقول عليه مجبول له وعمى عما غيب عنه لفقد اليقين منه فعندها ادعى الحركة والسكون للشاهد فحجبه ذلك عن الشهيد وشهد الموحد بشهادة التوحيد فوجد لما كشف له الملكوت بنور اليقين فافرد وقد قال بعض العارفين من نظر فى توحيده الى عقله لم ينجه توحيده من النار ومن كان توحيده فى الدنيا معلقا بمعقوله لم يحمل توحيده معه الى اليقين أحسب أن هذا ايمان الذى قال أخرجوا من النار من كان فى قلبه وزن مثقال من ايمان فما زاد على هذا المقدار فهو متصل باليقين وهو مؤيد بالروح يمده روح التأييد فلا ينطق فهو المزحزح عن النار وقد قال بعض علمائنا من ظن أنه يصل الى الله بغير الله تعالى قطع به ومن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه وكل الى نفسه ثم ان الخلق محجوبون بعد هذا الحجاب بثلاثة حجب بعضها أكثف من بعض أحدها أواسط وأسباب معترضة وشهوات جاذبة وعادات راجعة صادرة فالاسباب توقفهم عليها والشهوات تجذبهم اليها والعادات تردهم فيها فاى هذه الحجب ظهر فى القلب وبعضها أشد عليه من بعض فهو مكان للعدو أوسع من مكان فتمكن سلطانه على

قدر سعة مكانه فقويت النفس بتزيين العدو وسولت بتأميلها فملكت العبد ملكا أشد من ملك فاذا ملكت النفس العبد كان مملوكها وأسيرها وكانت بالهوى أميرة فاستهواه الشيطان حينئذ بالغواية والاضلال واستحوذ عليه بمعاني المشاركة في الاولاد والاموال فشغله بذلك عن الله سبحانه وتعالى وأنساه ذكر الله عز وجل وهذا هو الاقتران الذي ذمه الله تعالى في قوله ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا وهو فوق النزغ والهمز والخاطر بعد الهمة وهو خطور العدو على القلب بالوسوسة يزين الهمة ويملي للعبد ويرجيه ويفسح له في أمله ويمنيه التوبة حتى تهون عليه المعصية ويعده بعدها بالمغفرة حتى يجرئه على الخطيئة وهذا هو الوعد بالغرور ووعده الهلاك والثبور كما قال يعدهم أي التوبة ويمنيهم المغفرة وما يعدهم الشيطان الا غرورا وهذا كله تصديق ظن العدو بالعبد واتباع العبد له بالهوى عن مقام البعد وكشف لعلم الله تعالى باظهار الحكم وانفاذ المشيئة وهو الابتلاء بالأسباب فصار العدو سببا لقوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين ثم أحكم ذلك بسابق علمه فقال وما كان له عليهم من سلطان يعني بحوله وقوته وبقهره ومشيئته الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك أي لنرى وقيل لنعلم العلم الذي يجازي عليه بالثواب والعقاب وقيل لنختبر ونكشف وقيل لنعلم المؤمنين ذلك فيستبين لهم ويعلم من عمل تلك الأعمال التي ظهرت منه فتوقع عليه بذلك الحجة ويتبين له كذبه كما قال فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين فعلى هذه المعاني مجاز كل ما في كتاب الله عز وجل من قوله لنعلم وحتى نعلم اذ كان علمه تعالى قد سبق المعلومات واذا كانت الاشياء عن علمه بعلمه جاريات فجعل تسليط العدو بسلطانه كشفا واظهارا لما أخفاه من سابق علمه كما جعل أفعال العباد الظاهرة كشفا واظهارا لارادته الباطنة وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق العلم وجف القلم وقضى القضاء وتم القدر بالسعادة من الله تعالى لاهل طاعته وبالشقاء من الله تعالى لاهل معصيته

ذكر تقسيم الخواطر وتفصيل أسمائها

فاما تسمية جملة الخواطر فما وقع في القلب من عمل الخير فهو الهام وما وقع من عمل الشر فهو وسواس وما وقع في القلب من المخاوف فهو الحساس وما كان من تقدير الخير وتأميله فهو نية وما كان من تدبير الامور المباحات وترجيها والطمع فيها فهو أمنية وأمل وما كان من تذكرة الآخرة والوعد والوعيد فهو تذكر وتفكير وما كان من معاينة الغيب بعين اليقين فهو مشاهدة وما كان من تحدث النفس بمعاشها وتصريف أحوالها فهو هم وما كان من خواطر العادات ونوازع الشهوات فهو لم ويسمى جميع ذلك خواطر لانه خطور همة نفس أو خطور عدو بحسد أو خطرة ملك بهمس ثم ان ترتيب الخواطر المنشأة من خزائن الغيب القادحة في القلب على ستة معان وهذه حدود الشيء المظهر ثلاثة منها معفوة وثلاثة منها مطالب

بها فاول ذلك الهمة وهو ما يبدو من وسوسة النفس بالشيء يجده العبد بالحس كالبرقة فان صرفها بالذكر امتحت وان تركها بالغفلة كانت خطرة وهو خطور العدو بالتزيين وان نفى الخاطر ذهب وان ولى عنه قوى فصار وسوسة وهذا محادثة النفس للعدو واصغاؤها اليه وان نفى العبد هذه الوسوسة بذكر الله خنس العدو وصغت النفس وهذه الثلاث معفوة برحمة الله تعالى غير مؤاخذ بها العبد وان أمرج العبد النفس فى محادثة العدو وطاولت النفس العود بالاصغاء والمحادثة قويت الوسوسة فصارت نية فان أبدل العبد هذه النية بنية خير فاستغفر منها وتاب والاقويت فصارت عقدا فان حل هذا العقد بالتوبة وهو الاصرار والا قوى فصار عزما وهو القصد وهذه الثلاثة من أعمال القلب مأخوذ بها العبد ومسؤل عنها فان تداركه الله تعالى بعد العزم والا تمكن العزم فصار طلبا وسعيا وأظهر العمل على الجوارح من خزائن الغيب والملكوت فصار من اعمال الجسم فى خزانة الملك والشهادة فهذه الاعمال توجد من اعمال البر والاثم فما كان منها من البرهمة ونية وعزما كان محسوبا للعبد فى باب النيات مكتوبا له فى ديوان الارادة له به حسنات وما كان منها من الشرنية وعقدا وعزما فعلى العبد فيه مؤاخذة من باب أعمال القلوب ونيات السوء وعقود المعاصى وليس شيء مجانس للعدو مؤاخذ له الا النفس جمع الله تعالى بينهما فى الوسوسة بقوله الوسواس الخناس وقوله ونعلم ما توسوس به نفسه وكل شيء خلقه الله تعالى فله مثل وضد فمثل النفس الشيطان وضدهما الروح ثم ان أعمال الجوارح من النوعين الطاعة والمعصية أعظم فى الاجر والوزر معا الا ما لا يتأتى أن يعمله بظاهر الجسم من شهادة التوحيد أو وجود شك أو كفر أو اعتقاد بدعة

باب آخر من البيان والتفصيل

فاما ما كان من لائح يلوح فى القلب من معصية ثم ينقلب فلا يلبث فهذا نزع من قبيل العدو وما كان فى القلب من هوى ثابت أو حال مزعج دائم لابث فهو من قبل النفس الامارة بطبعها أو مطالبة منها بسوء عادتها وما ورد على العبد من همه بخطيئة ووجد العبد فيها كراهتها فالورود من قبل العدو والكراهة من قبل الايمان وما وجده العبد وجدا بهوى أو معصية ثم ورد عليه المنع من ذلك فالوجد من النفس والوارد بالمنع من الملك وما وجده العبد من فكر فى عاقبة الدنيا أو تدبير الحال ونظر الى معهود فهذا من قبل العقل وما وجد من خوف أو حياء أو ورع أو زهد أو من شأن الآخرة فهذا عن الايمان وما شهده القلب من تعظيم أو هيبة أو اجلال أو قرب فهذا من اليقين وهو من مزبد الايمان واليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه كما قال صاحب الامر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ

بك منك وإنما هذا تفصيل الحدود واظهار المكان واحكام العلم كما قال تعالى وكل شيء فصلناه تفصيلا وقال قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وليس فى التوحيد ولا فى المشاهدة تفكر ولا فى الاشارة عيان ولا فى القدرة ترتيب ولكن لابد من علم التفصيل لا عن التوحيد وهو التفرقة بلسان الشرع عن عين الجمع لاظهار الطرق واستنارة السبل وتطريق السالكين وترتيب العاملين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة والله غالب على أمره وقد فصل بعض العلماء أعمال العباد وفرق بين الأمر والارادة فقال ان أعمال العباد لاتخلو من ثلاثة أنواع فرض وفضل ومعصية قال فنقول ان الفرض بأمر الله تعالى ومحبة الله ومشيئة الله تجتمع هذه المعانى الثلاثة فى الفرائض قال ونقول ان النفل لابأمر الله لانه لم يوجبه ولم يعاقب على تركه ولكن بمحبة الله ومشيئته جل وعلا أى لانه شرعه وندب اليه فقال ونقول ان المعصية لا بأمر الله لانه لم يشرعها على ألسنة المرسلين ولابمحبة الله لانه قد كرهها اذ لم يأمر بها ولم يندب اليها ولكن بمشيئة الله جلت عظمته ان لا يخرج شيء من ارادته كما لم يخرج شيء من علمه والارادة والمشيئة اسمان بمعنى واحد فقد دخل كل شيء فيها كما دخل كل شيء فى العلم فالله سبحانه عالم بما أراده وقدسبق به علمه كذلك هو مريد لما علمه أظهرت ارادته سابق علمه وكشف علم الغيب بظهور ارادته الشهادة فهو عالم الغيب والشهادة فالغيب علمه والشهادة معلومه وكيف يخالف المعلوم العلم وهو اجراؤه والارادة نفذت العلم فى معلومات الخلق وهذا فرض التوحيد فخرجت النوافل عن الأمر وخرجت المعاصى عن المحبة فى تفصيل الاحكام وتبين الحلال والحرام ولم تخرج معصية عن مشيئة وقد قال الله جل ثناؤه وكل صغير وكبير مستطر وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس فذكر عرضين لطيفين هما سببا المنع والعطاء وقد فرق عالمنا بين الأمر والارادة فرقا لطيفا فحدثنى بعض أصحابنا أنه سئل عن قول الله عز وجل لما أمر ابليس بالسجود لآدم أراد منه ذلك أم لا فقال أراده ولم يرده منه يعنى أراده شرعا واظهارا وعليه ايجابا ولم يرده منه وقوعا ولا كونا اذ لايكون الا ما أراد الله تعالى اذ لو أراد كونه لكان ولو أراده فعلا لوقع لقوله تعالى انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فلما لم يكن علمت أنه لم يرده فقد كان الأمران معا ارادته بالتكليف والتعبد وارادته بان لايسجد فلم يقدر أن يمتنع من أن لايسجد كما لم يقدر من أن يمتنع من أن يؤمر فكذلك القول فى نهيه لآدم صلى الله عليه وسلم عن أكل الشجرة انه أراد الأكل منه ولم يرده له أى أراده وقوعا وكونا لانه قد وجد وكان كقوله اذا أردناه أن نقول له كن فيكون فلما كان علمت أنه أراده ولم يرده شرعا ولا أمرا لأنه لم يأمره به ولا شرعه له فقد كان الأمران جميعا ارادته أن يكون العبد مكلفا مأمورا وارادته

الا كل منه لأنه قدكان وكذلك القول فى كل ما أمر به وأراده أنه أراد الأمر والنهى لهم ليكونوا مكلفين متعبدين ولم يرده ممن لم يكن منه الائتمار والانتهاء لأنه قال تعالى انما أمرنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون فأخبر أنه اذا أراد شيئا كونه كما أنه اذا كون شيئا فقد أراده بدلالة كونه فلما لم يمكن الامر من العاصين علمنا أنه لم يرده اذ لو أراده كان ولما كان النهى من المأمورين علمنا أنه أراد كونه اذ لو لم يرده لم يكن فصار كون الشيء دليلا على ارادته وقد وقعت الارادة بالأمر والنهى فكان الكل مأمورين منتهين ولم يقع الفعل من الكل لأنه لم يرد وقوعه اذ لو أراده كان وهذا أصل الابتلاء وارادة ظهور البلاء يأمر الله تعالى بالشيء ويريد كون ضده وقد أراد الأمر به حسب و ينهى عن الشيء ويريد كونه وقد أراد النهى عنه فقط وقد كان عالمنا أبو الحسن رحمة الله عليه يتكلم فى علم الامر والخير وفى الابتلاء والقهر بمعان لايهتدى اليها اليوم ولا يسئل عنها أحد أى يظهر الأمر بالترك و يظهر النهى بالفعل و يظهر الأحكام لوقوع البلاء و يقهر الجوارح بالجبر على ارادته للابتلاء وقد فرق الحسن البصرى رحمه الله قبله وهو امامنا فى هذا العلم بين التعذيب على جريان العلم ومخالفة الأمر لما بلغه أن عمرو بن عبيد وهو امام المعتزلة اليوم واليه نسبوا لما اعتزل عن الحسن البصرى بعد أن صحبه ولم يختم له بصحبته بلغه أنه يقول ان الله لا يقضى بالشيء ثم يعذب عليه فقال له و يلك ان الله عزوجل لا يعذب على جريان حكمه و إنما يعذب على مخالفة أمره (تفسير ذلك) ان ماحكمه الله تعالى منفردا به لم يجعل فيه أمرا ولانهيا لا يعذب عليه لانه لم يجعل للعبد مدخلا فيه بشهوة ولافعل وان ماقضاه على العبد مما أدخله فيه بقصده وشهوته عذبه عليه وهذا من شؤم النفس وتكدير الخلق أنها اذا أدخلت فى شيء انقلب عليها شرها الأمة مجتمعة على قول ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن واجتمعت على قول لاحول ولا قوة الا بالله فهذا عام فى كل شيء ليس فى بعض الأشياء دون بعض والحول فى اللغة هو الحركة والعرب تقول للشخص يبدو من بعيد يظن أنه انسان أو شجرة أو صخرة انظروا اليه فان كان يحول فهو انسان أى يتحرك والقوة هو الثبات بعد الحركة وهو أول الصبر حتى يظهر الفعل بقوة الله تعالى وقد روينا فى تفسير ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحول عن معصية الله الا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله الا بعون الله وهذا التفصيل فى هذه المعانى من الأحكام هو ظاهر العلم وفرض القدر وفحوى التنزيل والشرع والجبر للملك الجبار يجبر خلقه على ماشاء كما خلقهم لما شاء ويردهم الى ماشاء كما ينشئهم فيما يشاء فالحكم لله العلى الكبير الواحد القهار يقهر عباده كيف شاء ويجرى عليهم ما يشاء وله الحجة البالغة والعزة القاهرة والقدرة النافذة والمشيئة السابقة بوصف الربوبية و بحكم الجبرية وعليهم الاستسلام والانقياد والطاعة والاجتهاد طوعا وكرها بوصف العبودية و بحق الملكة

ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم ان تعذبهم فانهم عبادك وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين لله الأمر من قبل ومن بعد

الفصل الحادى والثلاثون

فيه كتاب العلم وتفصيله وأوصاف العلماء وذكر فضل علم المعرفة على سائر العلوم وكشف طرق العلماء من السلف الصالح وذكر بيان تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين فى العلم والفرق بين العلم الظاهر والباطن وبين علماء الدنيا وعلماء الآخرة وفضل أهل المعرفة على علماء الظاهر وذكر علماء السوء الآكلين بعلومهم الدنيا ووصف العلم وطريق التعليم وذم ما أحدثه المتأخرون من القصص والكلام وباب ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف وبيان فضل الايمان واليقين على سائر العلوم والتحذير من الرأى وذكر معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وفى الحديث الآخر اطلبوا العلم ولو بالصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم

قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله أراد بذلك علم حال يعنى علم حال العبد من مقامه الذى أقيم فيه بأن يعلم أحدكم حاله الذى بينه و بين الله عز و جل فى دنياه وآخرته خاصة فيقوم باحكام الله تعالى عليه فى ذلك وقال بعض العارفين معناه طلب علم المعرفة وقيام العبد بحكم ساعته وما يقتضى منه فى كل ساعة من نهاره وقال بعض علماء الشام انما عنى به طلب علم الاخلاص ومعرفة آفات النفس ووساوسها ومعرفة مكايد العدو وخدعه وغروره وما يصلح الأعمال ويفسدها فريضة كله من حيث كان الاخلاص فى الأعمال فريضة ومن حيث أعلم بعداوة ابليس ثم أمر بمعاداته وذهب الى هذا القول عبد الرحيم بن يحيى الارموى ومن تابعه وقال بعض البصريين فى معناه طلب علم القلوب ومعرفة الخواطر وتفصيلها فريضة لانها رسل الله تعالى الى العبد ووسواس العدو والنفس فيستجيب لله تعالى بتنفيذ ما منه اليه ومنها ابتلاء الله تعالى للعبد واختبار تقتضيه مجاهدة نفسه فى نفيها ولانها أول النية التى هى أول كل عمل وعنها تظهر الأفعال وعلى قدرها تضاعف الاعمال فيحتاج أن يفرق بين لمة الملك ولمة العدو وبين خاطر الروح ووسوسة النفس وبين علم اليقين وقوادح العقل ليميز بذلك الاحكام وهذا عند هؤلاء فريضة وهو مذهب مالك بن دينار وفرقد السنجى وعبد الواحد بن زيد وأتباعهم من النساك وقد كان أستاذهم الحسن البصرى يتكلم فى ذلك وعنه حملوا علوم القلوب وقال عباد أهل الشام معناه طلب علم الحلال فريضة اذ قد أمر الله تعالى به وأجمع المسلمون على تفسيق آكل الحرام وقد جاء فى خبر مفسر طلب الحلال

فريضة بعد الفريضة ومال الى هذا القول ابراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط ووهيب بن الورد وحبيب ابن حرب وقال بعض هذه الطائفة من أهل المعرفة معناه طلب علم الباطن فريضة على أهله قالوا وهذا مخصوص لاهل القلوب ممن استعمل به واقتضى منه دون غيره من عوام المسلمين ولأنه جاء فى لفظ الحديث تعلموا اليقين فمعناه اطلبوا علم اليقين وعلم اليقين لا يوجد الا عند الموقنين وهو من أعمال الموقنين المخصوص فى قلوب العارفين وهو العلم النافع الذى هو حال العبد عند الله تعالى ومقامه من الله تعالى كما شهدله الخبر الآخر فى قوله صلى الله عليه وسلم وعلم باطن فى القلب وهو العلم النافع فهذا تفسير ما أجمل فى غيره وقال جندب كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلمنا الايمان ثم يعلمنا القرآن فازددنا ايمانا وسيأتى زمان قوم يتعلمون القرآن قبل الايمان يعنى تعلمنا علم الايمان وهذا مذهب نساك أهل البصرة وقال بعض السلف انما معناه طلب علم ما لم يسع جهله من علم التوحيد وأصول الأمر والنهى والفرق بين الحلال والحرام اذ لاغاية لسائر العلوم بعد ذلك وكلها يقع عليه اسم علم من حيث هى معلومات ثم قد أجمعوا ان ليس تعليم ما زاد على ماذكرناه فرضا وانما فيه فضل أو ندب وقال بعض فقهاء الكوفة معناه طلب علم البيع والشراء والنكاح والطلاق واذا اراد الدخول فيه افترض عليه مع دخوله ذلك طلب علمه لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يتجر فى سوقنا هذا الا من تفقه والا أكل الربا شاء أم أبى وكما قيل تفقه ثم اتجر ومال الى هذا سفيان الثورى وأبو حنيفة وأصحابهما وقال بعض المتقدمين من علماء خراسان هو أن يكون الرجل فى منزله فيريد أن يعمل شيئا من أمر الدين أو يخطر على قلبه مسئلة لله سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبد وعلى العبد فى ذلك اعتقاد أو عمل فلا يسعه أن يسكت على ذلك ولا يجوز له أن يعمل فيه برأيه ولا يحكم بهواه فعليه أن يلبس نعليه ويخرج فيسأل عن أعلم أهل بلده فيسأله عن ذلك عند النازلة فهذا فريضة وحكى هذا القول عن ابن المبارك وبعض أصحاب الحديث وقال آخرون يعنى طلب علم التوحيد فرض وانما اختلفوا فى كيفية الطلب وماهية الاصابة فمنهم من قال من طريق الاستدلال والاعتبار ومنهم من قال من طريق البحث والنظر ومنهم من قال من طريق التوقيف والأثر وقالت طائفة من هؤلاء انما أراد طلب علم الشبهات والمشكلات اذا سمعها العبد وابتلى بها وقد كان يسعه ترك الطلب اذا كان غافلا عنها على أصل التسليم ومعتقد جملة المسلمين لا يقع فى وهمه ولا يحيك فى صدره شىء من الشبهات فيسعه ترك البحث فاذا وقع فى سمعه شىء من ذلك ووقع فى قلبه ولم يكن عنده تفصيل ذلك وقطعه ومعرفة تمييز حقه من باطله لم يحل له أن يسكت عليه لئلا يعتقد باطلا أو ينفى حقا فافترض عليه طلب ذلك من العلماء به فيستكشفه حتى يكون على

اليقين من أمره فيعتقد من ذلك الحق وينفى الباطل ولا يقعد عن الطلب فيكون مقيما على شبهة فيتبع الهوى أو يكون شاكا فى الدين فيعدل عن طريق المؤمنين أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السنة ومذهب الجماعة وهو لا يعلم ولهذا المعنى كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول فى دعائه اللهم أرنا الحق حقا فنتبعه وأرنا الباطل باطلا فنجتنبه ولا تجعل ذلك متشابها علينا فنتبع الهوى وهذا مذهب أبى ثور ابراهيم بن خالد الكلبي وداود بن على والحسين الكرابيسى والحرث بن أسد المحاسبي ومن تابعهم من المتكلمين فهذه أقوال العلماء فى معنى هذا الخبر حكينا ذلك عن علمنا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة واحتججنا لكل قول فالالفاظ لنا والمعنى لهم وهذا كله حسن ومحتمل وهؤلاء كلهم وان اختلفوا فى تفسير الحديث بألفاظ فانهم متقاربون فى المعنى الاأهل الظاهر منهم فانهم حملوه على ما يعلمونه وأهل الباطن تأولوه على علمهم ولعمرى ان الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه بمنزلة الاسلام والايمان مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما عن صاحبه وهؤلاء المختلفون فى الأقوال مجمعون انه صلى الله عليه وسلم لم يرد بذلك طلب علم الاقضية والفتاوى ولا علم الاختلاف والمذاهب ولا كتب الاحاديث مما لا يتعين فرضه وان كان الله تعالى لا يخلى من ذلك من يقيمه بحفظه والذى عندنا فى حقيقة معنى هذا الخبر والله أعلم ان قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة يعنى علم هذه الفرائض الخمس التى بنى الاسلام عليها من حيث لم يفترض على المسلمين غيرها ثم ان العمل لا يصح الا بعلمه فاول العمل العلم به فصار علم العمل فرضا من حيث افترض العمل فلما لم يكن على المسلمين فرض من الاعمال الا هذه الخمس فصار طلب علم هذه الخمس فرضا لانه فرض الفرض وعلم التوحيد داخل فيها لانه فى أوله شهادة أن لا اله الا الله باثبات صفاته المتصلة بذاته ونفى صفات سواه المنفصلة عن اياه كله داخل فى علم شهادة أن لا اله الا الله وعلم الاخلاص داخل فى صحة الاسلام اذ لا يكون مسلما الا باخلاص العمل لقوله صلى الله عليه وسلم ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم اخلاص العمل لله فبدأ به واشترطه للاسلام والأصل فى هذا انه لم يرد صلى الله عليه وسلم علم كل ماجاز أن يكون معلوما باجماع الأمة انه لم يعن بذلك علم الطب أو علم النجوم ولا علم النحو أو الشعر أو المغازى وهذه تسمى علوما لانها تكون معلومة وأربابها علماء بها الاان الشرع لم يرد بالأمر بمقتضاها والأمة مجمعة أيضا انه لم يرد بذلك علم الفتيا والقضاء ولا علم افتراق المذاهب واختلاف الآراء وهذه تسمى علوما عند أهلها وبعضها فرض على الكفاية وكلها ساقطة عن الاعيان والخبر جاء بلفظ العموم بذكر الكلية وبمعنى الاسم فقال طلب العلم فريضة ثم قال على كل مسلم بعد قوله اطلبوا العلم فكان هذا على الاعيان فكأنه على ماوقع عليه اسم العلم ومعناه المعهود المعروف بادخال التعريف

عليه فاشير بالالف واللام اليه فاذا بطلت هـذه الوجوه صح أن قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم أى طلب علم مابنى الاسلام عليه فافترض على المسلمين علمه فريضة بدليل قوله صلى الله عليه وسلم للاعرابى حين سأله أخبرنى ماذا افترض الله تعالى على وفى لفظ آخر أخبرنا بالذى أرسلك الله تعالى الينا به فاخبره بالشهادتين والصلوات الخمس والزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت فقال هل على غيرها فقال لا الا ان تطوع فقال والله لاأزيد عليه شيأ ولاأنقص منه شيأ فقال أفلح ودخل الجنة ان صدق فكان علم هذه الخمس فريضة من حيث كان معلومه فريضة اذ لاعمل الابعلم وقد قال عزوجل الامن شهد بالحق وهم يعلمون وقال فى مثله حتى تعلموا ماتقولون وقال هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وقال بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وقال تعالى ولاتتبع أهواء الذين لايعلمون انهم لن يغنوا عنك من الله شيأ وقال سبحانه وتعالى فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لاإله إلا هو وقال فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون فهذه الآى افترض الله فيها طلب العلم وذلك الخبر الذى جاء فى أبنية الاسلام الخمسة افترض رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه هذه الاعمال ثم قال مجملا طلب العلم فريضة ثم وكده بقوله صلى الله عليه وسلم على كل مسلم فكان تفسير ذلك وتفصيله ان علم هذه الخمس التى هى بنية الاسلام فرض لاجل فرضها وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق مرسل انه مر برجل والناس مجتمعون عليه فقال ما هذا فقالوا رجل علامة فقال بماذا قالوا بالشعر والانساب وأيام العرب فقال هذا علم لايضر جهله وفى لفظ آخر علم لاينفع وجهل لايضر وروينا فى الخبر ان من العلم جهلا وان من القول عيا وفى الخبر الآخر قليل من التوفيق خير من كثير من العلم وفى خبر غريب كل شىء يحتاج الى العلم والعلم يحتاج الى التوفيق والخبر المشهور قوله صلى الله عليه وسلم أعوذ بك من علم لاينفع فسماه علما اذ له معلوم وان أصحابه علماء عند أصحابهم ثم رفع المنفعة عنهم واستعاذ بالله منه وقد روينا فى خبر ان الشيطان ربما سبقكم بالعلم قلنا يارسول الله كيف يسبقنا بالعلم قال يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم فلا يزال فى العلم قائلا والعمل مسوفا حتى يموت وماعمل ففى هذا الخبر دليلان أحدهما أنه أريد به طلب فضول العلم الذى لانفع له فى الآخرة ولاقربة فى طلبه من الله والثانى أن العلم المفضل المندوب اليه انما هو الذى يقتضى العمل لان النبى صلى الله عليه وسلم لايأمر بعمل بغير علم ولا يكره طلب علم للعمل به ألا تسمع الى قوله صلى الله عليه وسلم فى الخبر الآخر فضل من علم أحب الى من فضل من عمل وخير دينكم الورع

ذكر فضل علم المعرفة واليقين على سائر العلوم وكشف طريق علماء السلف الصالح من علماء الدنيا والآخرة

قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ألوف من صحابته كلهم علماء بالله فقهاء عن الله تعالى أهل رضوان من الله تعالى ولم ينصب نفسه الى الفتيا ولا حملت عنه الأحكام والقضايا الا بضعة عشر رجلا وكان ابن عمر اذا سئل عن الفتيا قال اذهب الى الأمير الذى تقلد أمور الناس فضعها فى عنقه وروى ذلك عن أنس ثم جماعة من الصحابة والتابعين باحسان وكان ابن مسعود يقول ان الذى يفتى الناس فى كل ما يستفتونه لمجنون وكان ابن عمر رضى الله عنهما يسأل عن عشر مسائل فيجيب عن مسئلة ويسكت عن تسعة وكان ابن عباس على ضد ذلك كان يسئل عن عشرة فيجيب فى تسعة ويسكت عن واحدة وكان من الفقهاء من يقول لاأدرى أكثر من أن يقول أدرى منهم سفيان الثورى ومالك بن أنس واحمد بن حنبل وفضيل بن عياض وبشر بن الحرث رضى الله عنهم وكانوا فى مجالسهم يجيبون عن بعض ويسكتون عن بعض ولم يكونوا يجيبون فى كل مايسئلون عنه وروينا عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال أدركت فى هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنهم من أحد يسئل عن حديث أوفتيا الاود أن أخاه كفاه ذلك وفى لفظ آخر كانت المسئلة تعرض على أحدهم فيردها الى الآخر ويردها الآخر للآخر حتى ترجع الى الذى سئل عنها أول مرة وروى عن ابن مسعود وابن عمر وغيرهما من التابعين وقد روينا مسندا لايفتى الناس الا ثلاثة أمير أو مأمور او متكلف تفصيل ذلك ان الامير هو الذى يتكلم فى علم الفتيا والاحكام كذلك كان الامراء يسئلون ويفتون والمأمور الذى يأمره الأمير بذلك فيقيمه مقامه ويستعين به لشغله بالرعية والمتكلف هو القاص الذى يتكلم فى القصص السالفة ويقص أخبار من مضى لان ذلك لايحتاج اليه فى الحال ولم يندب اليه من العلوم وقد تدخله الزيادة والنقصان والاختلاف فلذلك كره القصص فصار القاص من المتكلفين وقد جاء فى لفظ الحديث الآخر بتأويل معناه لايتكلم على الناس الاثلاثة أمير أومأمور أو مراء فكان قولهم أمير هو المفتى فى الاقضية والاحكام كما ذكرنا آنفا ومعنى مأمور هو العالم بالله عزوجل الزاهد فى الدنيا يتكلم فى علم الايمان واليقين وفى علم القرآن والحث على مصالح أعمال الدين بأمر من الله تعالى اذن الله تعالى له فى ذلك بقوله تعالى واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه وقد كان أبو هريرة وغيره يقولون لولا آيتان فى كتاب الله تعالى ماحدثنكم بحديث أبدا ثم يتلو هذه والآية التى قبلها ويقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما آتى الله تعالى عالما علما الا أخذ عليه من الميثاق ماأخذ على النبيين أن يبينه ولا يكتمه وأما المرائى فهو المتكلم

فى علوم الدنيا الناطق عن الهوى يستميل بذلك قلوب الناس ويجتلب بكلامه المزيد من الدنيا والرفعة فيها وقال بعض العلماء كان الصحابة والتابعون باحسان يتدافعون أربعة أشياء الامانة والوديعة والوصية والفتيا وقال بعضهم كان أسرعهم الى الفتيا أقلهم علما وأشدهم دفعا لها وتوقفا عنها أورعهم وقال بعض السلف كان شغل الصحابة والتابعين باحسان فى خمسة أشياء قراءة القرآن وعمارة المساجد وذكر الله تعالى والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل كلام ابن آدم عليه لا له الا ثلاثا أمر بمعروف أونهى عن منكر أو ذكر الله تعالى وقال الله أصدق القائلين لاخير فى كثير من نجواهم الامن أمر بصدقة أومعروف أواصلاح بين الناس ورأى بعض أصحاب الحديث بعض فقهاء الكوفة من أهل الرأى بعد موته فى المنام قال فقلت له مافعلت فيما كنت عليه من الفتيا والرأى قال فكره وجهه وأعرض عنى وقال ماوجدناه شيأ وماحمدنا عاقبته وحدثونا عن على بن نصر بن على الجهضمى عن أبيه قال رأيت الخليل بن أحمد فى النوم بعد موته فقلت ماأجد أعقل من الخليل لأسألنه فقال لى أرأيت ما كنافيه فانى لم أر شيأ مارأيت أنفع من قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وحدثونا عن بعض الأشياخ قال رأيت بعض العلماء فى المنام فقلت له مافعلت تلك العلوم التى كنا نجادل فيها ونناظر عليها قال فبسط يده ونفخ فيها وقال طاحت كلها هباء منثورا ما انتفعت الا بركعتين حصلتا لى فى جوف الليل وحدثت عن أبى داود السجستانى قال كان بعض أصحابنا كثير الطلب للحديث حسن المعرفة به فمات فرأيته فى المنام فقلت مافعل الله بك فسكت فأعدت عليه فسكت فقلت غفر الله لك قال لا قلت لم قال الذنوب كثيرة والمناقشة دقيقة ولكن قد وجدت بخير وأنا أرجو خيرا قلت أى الاعمال وجدتها فيماهناك أفضل قال قراءة القرآن والصلاة فى جوف الليل قلت فأيما أفضل ما كنت تقرأ أوتقرىء فقال ما كنت أقرأ قلت فكيف وجدت قولنا فلان ثقة وفلان ضعيف فقال ان خلصت فيه النية لم يكن لك ولا عليك وحدثت عن بعض الشيوخ قال حدثنى أحمد بن عمر الخاقانى قال رأيت فى منامى كأنى فى طريق أمضى اذ صادفنى رجل فأقبل على وهو يقول وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله فقلت له لى تعنى فقال لك ولذاك الذى خلفك فالتفت فاذا سرى رحمه الله فاعرضت عن الرجل وأقبلت على السرى وقلت هذا استاذنا ومؤدبنا الذى كان يؤدبنا فى الدنيا ثم قلت له ياأبا الحسن انك قد صرت الى الله تعالى فأخبرنا بأى عمل تقبله الله تعالى فأخذ بيدى ثم قال تعال فجئت أنا وهو الى بنية مثل الكعبة فوقفنا الى جانبها اذا أشرف علينا من البنية شخص فأضاء ذلك الموضع منه فأومأ سرى اليه وأشالنى نحوه وكان سرى قصيرا وأنا أيضا قصير فمد ذلك الشخص الذى كان فوق البنية يده فأخذنى

فشالني اليه فلم أقدر أفتح عيني من أنوار كانت في ذلك المكان ثم قال لي قد سمعت كلامك مع الشيخ كل خلق في القرآن محمود تفعله وكل خلق في القرآن مذموم تنتهي عنه وحسبك هذا وقد حدثونا عن سري السقطي قال كان شاب يطلب علم الظاهر ويواظب عليه ثم ترك ذلك وانفرد واشتغل بالعبادة فسألت عنه فاذا هو قد اعتزل الناس وقعد في بيته يتعبد فقلت له قد كنت حريصا على الطلب لعلم الظاهر فما بالك انقطعت قال رأيت في النوم قائلا يقول لي كم تضيع العلم ضيعك الله فقلت اني لأحفظه فقال ان حفظ العلم العمل به فتركت الطلب وأقبلت على النظر فيه للعمل وقد كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول ليس العلم بكثرة الرواية وانما العلم الخشية وقال غيره من الفقهاء انما العلم نور يقذفه الله تعالى في القلب وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول اعلموا ما شئتم أن تعملوا فوالله لا يؤجركم الله تعالى عليه حتى تعملوا فان السفهاء همتهم الرواية وان العلماء همتهم الرعاية وروينا عنه أيضا انه قال ان الله لا يعبأ بذي قول ورواية انما يعبأ بذي فهم ودراية وقال أبو حصين ان أحدهم ليفتي في مسئلة لو وردت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر وقال غيره يسئل أحدهم عن الشيء فيسرع للفتيا ولو سئل أهل بدر عنها لاعضلتهم وقال عبد الرحمن بن يحي الاسود وغيره من العلماء ان علم الاحكام والفتاوى كان الولاة والامراء يقومون به وترجع العامة اليهم فيه ثم ضعف الامر وعجزت الولاة عن ذلك لميلهم الى الدنيا وشغلهم بالحروب عنها فصاروا يستعينون على ذلك بعلماء الظاهر وبالمفتين في الجوامع فكان الامير اذا جلس للمظالم قعد عن يمينه وشماله مفتيان يرجع اليهما في القضاء والاحكام ويأمر الشرط بمثل ذلك فكان من الناس من يتعلم علم الفتيا والقضاء ليستعين بهم الولاة على الاحكام والقضاء حتى كثر المفتون رغبة في الدنيا وطلبا للرياسة ثم اختلف الامر بعد ذلك حتى تركت الولاة الاستعانة بالعلماء ومما يدلك على ذلك حديث عمر رضي الله عنه حيث كتب الى ابن مسعود عقبة بن عامر ألم أخبر أنك تفتي الناس ولست بامير ولا مأمور وفي حديث أبي عامر الهروي قال حججت مع معاوية فلما قدمنا مكة حدث عن رجل يقضي ويفتي الناس مولى لبني مخزوم فارسل اليه فقال أمرت بهذا قال لا قال فما حملك عليه قال نفتي وننشر علما عندنا فقال معاوية لو تقدمت اليك قبل يومي هذا لقطعت منك طابقا ثم نهاه ولم يكونوا يقولون ذلك في علم القلوب ولا علم الايمان واليقين بل قد كتب عمر الى أمراء الاجناد احفظوا ما تسمعون من المطيعين فانهم تجلى لهم أمور صادقة وقد كان عمر رضي الله عنه يجلس الى المريدين فيستمع اليهم وفي الخبر اذا رأيتم الرجل قد أوتي صمتا وزهدا فاقتربوا منه فانه تلقى الحكمة وقال بعض اصحاب الحديث رأيت سفيان الثوري حزينا فسألته فقال وهو برم ما صرنا الا متجرا لابناء الدنيا قلت وكيف قال يلزمنا أحدهم حتى اذا عرف

بنا وحمل عنا جعل عاملا أوجابيا أو قهرمانا وكان الحسن يقول يتعلم هذا العلم قوم لا نصيب لهم منه فى الآخرة يحفظ الله تعالى بهم العلم على الامة لئلا يضيع وقال المأمون رحمه الله لولا ثلاث لخربت الدنيا لولا الشهوة لانقطع النسل ولولا حب الجمع لبطلت المعايش ولولا حب الرياسة لذهب العلم فهذا كله وصف علماء الدنيا وأهل علم الالسنة وأما علماء الآخرة واهل المعرفة واليقين فانهم كانوا يهربون من الامراء ومن اتباعهم وأشياعهم من أهل الدنيا وكانوا ينتقصون علماء الدنيا ويطعنون عليهم ويتركون مجالستهم وقال ابن أبى ليلى أدركت فى هذا المسجد مائة وعشرين من الصحابة ما سئل أحدهم عن حديث ولا استفتى فى فتيا الا ودأن صاحبه قد كفاه ذلك وقال مرة أدركت ثلثمائة يسئل أحدهم عن الفتيا أو الحديث فيرد ذلك الى الآخر ويحيل الآخر على صاحبه وكانوا يتدافعون الفتيا ما بينهم ولم يكونوا اذا سئل أحدهم عن مسئلة من علم القرآن أو علم اليقين والايمان يحيل على صاحبه ولا يسكت عن الجواب وقد قال الله سبحانه فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون فهم أهل الذكر لله تعالى وأهل التوحيد والعقل عن الله تعالى ولم يكونوا يتلقنون هذا العلم دراسة من الكتب ولا يتلقاه بعضهم من بعض بالالسنة انما كانوا أهل عمل وحسن معاملات فكان أحدهم اذا انقطع الى الله تعالى واشتغل به واستعمله المولى بخدمته باعمال القلوب وكانوا عنده فى الخلوة بين يديه لايذكرون سواه ولا يشتغلون بغيره فاذا ظهروا للناس فسألوهم ألهمهم الله تعالى رشدهم ووفقهم لسديد قولهم وآتاهم الحكمة ميراثا لأعمالهم الباطنة عن قلوبهم الصافية وعقولهم الزاكية وهممهم العالية فآثرهم بحسن توفيقه ان ألهمهم حقيقة العلم وأطلعهم على مكنون السر حين آثروه بالخدمة وانقطعوا اليه بحسن المعاملة فكانوا يجيبون عما عنه يسألون بحسن اثرة الله تعالى لهم وبجميل أثره عندهم فتكلموا بعلم القدرة وأظهروا وصف الحكمة ونطقوا بعلوم الايمان وكشفوا بواطن القرآن وهذا هو العلم النافع الذى بين العبد وبين الله تعالى وهو الذى يلقاه به ويسأله عنه ويثيبه عليه وهو ميزان جميع الأعمال وعلى قدر علم العبد بربه تعالى ترجح أعماله وتضاعف حسناته وبه يكون عند الله تعالى من المقربين لانه لديه من الموقنين فهم أهل الحقائق الذين وصفهم على عليه السلام وفضلهم على الخلائق فقال فى وصفهم القلوب أوعية وخيرها أوعاها والناس ثلاثة عالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيؤا بنور العلم ولم يلجؤا الى ركن وثيق العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال والعلم يزكيه العمل والمال تنقصه النفقة محبة العلم دين يدان به يكسبه الطاعة فى حياته وجميل الاحدوثة بعد موته العلم حاكم والمال محكوم عليه ومنفعة المال تزول بزواله مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر ثم تنفس الصعداء فقال هاه ان ههنا علما

جمالو أجدله حملة بلى أجد لقنا غير مأمون يستعمل الدين فى طلب الدنيا و يستطيل بنعم الله تعالى على أوليائه ويستظهر بحججه على خلقه أو منقادا لاهل الحق ينزرع الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة لا بصيرة له وليس من رعاة الدين فى شيء الاذا ولا ذاك فنهوم باللذة سلس القياد فى طلب الشهوات أو مغرى بجمع الأموال والادخار منقاد لهواه أقرب شبها بهما الانعام السائمة اللهم هكذا يموت العلم اذا مات حاملوه بل لا تخلو الأرض من قائم لله تعالى بحجة لما ظاهر مكشوف واما خائف مقهور لئلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته وأين أولئك الاقلون عددا الاعظمون قدرا أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعها نظراءهم و يزرعوها فى قلوب أشباههم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الغافلون صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الاعلى أولئك أولياء الله من خلقه وعماله فى أرضه والدعاة الى دينه ثم بكى وقال واشوقاه الى رؤيتهم فهذه كلها أوصاف علماء الآخرة وهذه نعوت علم الباطن وعلم القلوب لا علم الالسنة وكذلك وصفهم معاذ بن جبل رضى الله عنه فى وصف العلم بالله تعالى فيما رويناه من حديث رجاء بن حيوة بن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ قال تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقه وبذله لاهله قربة وهو الانيس فى الوحدة والصاحب فى الخلوة والدليل على السراء والضراء والزين عند الاخلاء والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفع الله تعالى به أقواما فيجعلهم الله فى الخير قادة وهداة يقتدى بهم أدلة فى الخير تقتص آثارهم وترمق أعمالهم ويقتدى بفعالهم وينتهى الى رأيهم وترغب الملائكة فى خلتهم وباجنحتها تمسحهم حتى كل رطب ويابس لهم مستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر ونعامه والسماء ونجومها لان العلم حياة القلوب من العمى ونور الابصار من الظلم وقوة الابدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الابرار والدرجات العلى والتفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام به يطاع الله تعالى وبه يعبد وبه يوحد وبه يتورع وبه توصل الارحام العلم امام والعمل تابعه تلهمه السعداء وتحرمه الاشقياء فهذه أوصاف علماء الآخرة ونعت العلم الباطن وقد كان من أفضل الأمراء بعد الخلفاء الأربعة عمر بن عبد العزيز فحدثونا عن زكريا بن يحيى الطائى قال حدثنى عمى زحر ابن حصين ان عمر بن عبد العزيز كتب الى الحسن رحمهما الله أما بعد فأشر على بقوم استعين بهم على أمر الله تعالى فكتب اليه أما أهل الدين فلن يريدوك وأما أهل الدنيا فلن تريدهم ولكن عليك بالاشراف فانهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة وكان الحسن يتكلم فى بعض علماء البصرة ويذمهم وكان أبو حازم وربيعة المدنيان يذمان علماء بنى مروان وقد كان الثورى وابن المبارك وأيوب وابن

عون يتكلمون فى بعض علماء الدنيا من أهل الكوفة وكان الفضيل وابراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط يتكلمون فى بعض علماء الدنيا من أهل مكة والشام كرهنا تسمية المتكلم فيهم لان السكوت أقرب الى السلامة وكان بشر يقول حدثنا باب من أبواب الدنيا فاذا سمعت الرجل يقول حدثنا فانما يقول أوسعوا لى وقد كان سفيان الثورى امامه من قبله يقول لاهل علم الظاهر طلب هذا ليس من زاد الآخرة وقال ابن وهب ذكر طلب العلم عند مالك فقال ان طلب العلم لحسن وان نشره لحسن اذا صحت فيه النية ولكن انظر ماذا يلزمك من حين تصبح الى حين تمسى ومن حين تمسى الى حين تصبح فلا تؤثرن عليه شيئا وقال أبو سليمان الدارانى اذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر فى طلب المعاش فقد ركن الى الدنيا وأما علم الايمان والتوحيد وعلم المعرفة واليقين فهو مع كل مؤمن موقن حسن الاسلام وهو مقامه من الله وحاله بين يدى الله ونصيبه منه فى درجات الجنة به يكون من المقربين عنده والعلم بالله تعالى والايمان به قرينان لا يفترقان فالعلم بالله تعالى هو ميزان الايمان به يستبين المزيد من النقصان لأن العلم ظاهر الايمان يكشفه ويظهره والايمان باطن العلم يهيجه ويشغله فالايمان مدد العلم وبصره والعلم قوة الايمان ولسانه وضعف الايمان وقوته ومزيده ونقصه بمزيد العلم بالله عز وجل ونقصه وقوته وضعفه وفى وصية لقمان الحكيم لابنه يابنى كما لا يصلح الزرع الا بالماء والتراب كذلك لا يصلح الايمان الا بالعلم والعمل ومثل المشاهدة من المعرفة من اليقين من الايمان كمثل النشاء من الدقيق من السويق من الحنطة والحنطة تجمع ذلك كله كذلك الايمان أصل ذلك والمشاهدة أعلى فروعه كالحنطة أصل هذه المعانى والنشاء أعلى فروعها فهذه المقامات موجودة فى أنوار الايمان بعدها علم اليقين ثم ان المعرفة على مقامين معرفة سمع ومعرفة عيان فمعرفة السمع فى الاسلام وهو انهم سمعوا به فعرفوه وهذا هو التصديق من الايمان ومعرفة العيان فى المشاهدة وهو عين اليقين والمشاهدة أيضا على مقامين مشاهدة الاستدلال ومشاهدة الدليل عنها فمشاهدة الاستدلال قبل المعرفة وهذه معرفة الخبر وهو فى السمع لسانها القول والواجد بها واجد يعلم علم اليقين من قوله تعالى من سبأ بنبأ يقين انى وجدت فهذا العلم قبل الوجد وهو علم السمع وقد يكون سببه التعليم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا اليقين أى جالسوا الموقنين واسمعوا منهم علم اليقين لأنهم علماؤه وأما مشاهدة الدليل فهى بعد المعرفة التى هى العيان وهو اليقين لسانه الوجد والواجد بها واجد قرب وبعد هذا الوجد علم من عين اليقين وهذا يتولاه الله تعالى بنوره على يده بقدرته ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فوجدت بردها فعلمت فهذا التعليم بعد الوجد من عين اليقين باليقين وهذا من أعمال القلوب وهؤلاء علماء الآخرة وأهل الملكوت وأرباب القلوب وهم المقربون من أصحاب اليمين وعلم الظاهر من علم

الملك وهو من أعمال اللسان والعلماء به موصوفون بالدنيا وصالحوهم أصحاب اليمين وجاء رجل الى معاذ ابن جبل فقال اخبرني عن رجلين أحدهما مجتهد فى العبادة كثير العمل قليل الذنوب الا انه ضعيف اليقين يعتريه الشك فى أموره فقال معاذ ليحبطن شكه أعماله قال فأخبرنى عن رجل قليل العمل الا أنه قوى اليقين وهو فى ذلك كثير الذنوب فسكت معاذ فقال الرجل والله لئن أحبط شك الأول أعمال بره ليحبطن يقين هذا ذنوبه كلها قال فأخذ معاذ بيده وقام قائمـا ثم قال ما رأيت الذى هو أفقـه من هـذا وقد روينا معناه مسـندا قيل يا رسول الله رجل حسن اليقين كثير الذنوب ورجل مجتهد فى العبادة قليل اليقين فقال ما من آدمى الا وله ذنوب ولكن من كانت غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب لانه كلما أذنب تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة وروينا فى حديث أبى أمامة عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم ومن أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصـيام النهار وفى وصية لقمان لابنه يابنى لا يستطاع العمل الا باليقين ولا يعمل المرء الا بقدر يقينه ولا يقصر عامل حتى يقصر يقينه وقد يعمل العمل الضعيف اذا كان متيقنا أفضل من العمل القوى الضعيف فى يقينه ومن يضعف يقينه تغلبه المحقرات من الاثم وقد كان يحيى بن معاذ يقول ان للتوحيد نورا والشرك نارا وان نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين واليقـين على ثلاث مقامات يقين معاينة وهذا لايختلف خبره فالعالم به خبير وهو للصديقين والشهداء ويقين تصديق واستسلام وهذا فى الخبر والعالم بمخبر مسلم وهـذا يقين المؤمنين وهم الأبرار منهم الصالحون ومنهم دون ذلك كقوله تعالى جده وما زادهم الا إيمانا وتسليما وقد يضعف هؤلاء بعـدم الاسباب ونقصان المعتاد ويقوون بوجودها وجريان العادة ويحجبون بنظرهم الى الأواسط ويكاشفون بها ويجعلون مزيدهم وأنسهم بالخلق ويكون نقصهم ووحشتهم بفقدهم ويكون من هؤلاء الاختلاف ويتلونون بالخلاف لتلوين الاشياء وتغيرها عليهم

المقام الثالث من اليقين

وهو يقـين ظن يقوى بدلائل العلم والخبر وأقوال العلماء ويجد هؤلاء المزيد من الله تعالى والنصيب منه لهم ويضعف بفقد الأدلة وصمت القائلين وهذا يقين الاستدلال وعلوم هذا فى المعقول وهو يقين المتكلمين من عموم المسلمين من أهل الرأى وعلوم العقل والقياس والنظر وكل موقن بالله تعالى فهو على علم من التوحيد والمعرفة ولكن علمه ومعرفته على قدر يقينه ويقينه من نحو صفاء ايمانه

وقوته وايمانه على مقتضى معاملته ورعايتـه فاعلى العلوم علم المشاهدة عن عين اليقين وهذا مخصوص للمقربين فى مقامات قربهم ومحادثات مجالستهم ومأوى أنسهم ولطيف تملقهم وأدنى العلوم علم التسليم والقبول بعدم الانكار وفقد الشكوك وهذا لعموم المؤمنين وهو من علم الايمان ومزيد التصديق وهذا لأصحاب اليمين و بين هذين مقامات لطيفات من أعلى طبقات المقربين الى أوسط المقامات ومن أدنى طبقات أصحاب اليمين الى أعلى أواسط الاعلين

فهرس

كتاب قوت القلوب

لأبى طالب المكى

صفحة

صفحة

تم فهرس الجزء الأول



الجزء الثاني

التزام

علي محمد عبد اللطيف

صاحب المكتبة الحسينية المصرية بالأزهر

الطبعة الأولى

١٣٥١ هجرية — ١٩٣٢ ميلادية

المطبعة المصرية

أدارة محمد محمد عبد اللطيف



ذكر بيان تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين فى العلوم

ورويناً فى الخبر العلم ثلاثة كتاب ناطق وسنة قائمة ولاأدرى وعن الشعبي أنه قال لا أدرى نصف العلم يعنى انه من الورع وكان الثورى رضى الله عنه يقول انما العلم الرخصة من ثقة فاما التشديد فكل أحد يحسنه يعنى ان التورع والتوقف فى الأمور هو سيرة المؤمنين وان لم يكونوا علماء لان الورع هو الجبن عن الاقدام والهجوم على الشبهات والوقوف عند المشكلات بسكون أو سكوت واليقين هو الاقدام على الأشياء ببصيرة وتمكين والقطع بالأمر على علم وخبر فهذا صفة العلماء الموثوق بعلمهم لا يحسنه سواهم كما قال على عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية وقدمه أمامه يوم الجمل وجعل يقول له أقدم أقدم ومحمد يتأخر وهو يركزه بقائم رمحه فالتفت محمد ابنه فقال هذه والله الفتنة المظلمة العمياء فوكزه على برمحه ثم قال تقدم لا أم لك أتكون فتنة أبوك قائدها وسائقها والمرء اذا قال لا أدرى فقد عمل بعلمه وقام بحاله فله من الثواب بمنزلة من درى فقام بحاله وعمل بعلمه فاظهره فلذلك كان قول لا أدرى نصف العلم ولان حسن من سكت لاجل الله تعالى تورعا كحسن من نطق لاجله بالعلم تبرعا وقال على بن الحسين ومحمد بن عجلان اذا أخطأ العالم قول لا أدرى أصيبت مقاتله وقاله مالك والشافعى بعدهما واعلم أن مثل العلم والجهل فى تفاوت الناس فيهما مثل الجنون والعقل والمجانين طبقات كالعقلاء طبقات وكذلك الجهال طبقات كالعلماء فخصوص الجهال يشبهون عموم العلماء فهم يشتبهون على العامة حتى يحسبوهم علماء وهم مكشوفون عند العلماء بالله تعالى وكذلك العارفون يشتبهون على عموم العلماء وهم ظاهرون للموقنين وقال بعض العلماء العلم علمان علم الأمراء وعلم المتقين فاما علم الأمراء فهو علم القضايا وأما علم المتقين فهو علم اليقين والمعرفة وقد قال الله سبحانه فى وصف علم المؤمنين وذكر علم الايمان يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات فجعل المؤمنين علماء فدل على ان العلم والايمان لا يفترقان والواو هنا عند أهل اللغة للمدح لا للجمع العرب اذا مدحت بالاوصاف أدخلت الواو للمبالغة فقالوا فلان العاقل والعالم والأديب ومثل هذا قوله تعالى لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة كله نعت فالمؤمنون هم الراسخون فى العلم وهم المقيمون والمؤتون أيضا وكلهم وصف الراسخون فى العلم ولذلك

انتصب قوله والمقيمين الصلاة لانه مدح والعرب تنصب وترفع بالمدح و بمعناه قوله تعالى والراسخون فى العلم يقولون آمنا به فوصف العلماء بالايمان كما وصف المؤمنين بالعلم وكذلك قوله تعالى وقال الذين أوتوا العلم والايمان ومن هذا حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أمتى خمس طبقات كل طبقة أربعون عاما فطبقتى وطبقة أصحابى أهل العلم والايمان والذين يلونهم الى الثمانين أهل البر والتقوى والذين يلونهم الى مائة وعشرين أهل التواصل والتراحم فقرن العلم بالايمان وقدمهما على سائر الطبقات وقد قرن الله سبحانه الايمان بالقرآن وهو علم كما قرن القرآن بالايمان كما قال تعالى كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه قبل القرآن وتكون الهاء عائدة الى الله تعالى فى أكثر الوجوه كما قال ما كنت تدرى ماالكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا فأهل الايمان هم أهل القرآن وأهل القرآن أهل الله وخاصته وقال المهدى لسفيان بن الحسين لما دخل عليه وكان أحد العلماء أمن العلماء أنت فسكت فأعاد عليه فسكت فقيل ألا تجيب أمير المؤمنين فقال يسألنى عن مسئلة لاجواب لها ان قلت لست بعالم وقد قرأت كتاب الله تعالى كنت كاذبا وان قلت انى عالم كنت جاهلا وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أنس فى قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء قال من لم يخش الله تعالى فليس بعالم ألا ترى ان داود صلى الله عليه وسلم قال ذلك بانك جعلت العلم خشيتك والحكمة والايمان بك فما علم من لم يخشك وما حكم من لم يؤمن بك وقد سمى عبدالله بن رواحة العلم ايمانا فكان يقول لاصحابه اقعدوا بنا نؤمن ساعة فيتذاكرون علم الايمان وقد جعل الله للمؤمنين سمعا وبصرا وقلبا وهذه طرائق العلم التى يؤخذ العلم منها ويوجد بها وهى أصول العلم والنعم التى أنعم الله على الخلق بها وطالبهم بالشكر عليها فقال سبحانه والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيأ وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون فأثبت العلم بها بعد النفى بها له وقال تعالى فى وصف من لم يكن مؤمنا ونفى الغنية بالعلم بها وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء اذ كانوا يجحدون بآيات الله فمن آمن بآيات الله تعالى أغنى عنه سمعه وبصره وقلبه فكانت طرق العلم اليه . وقال عز وجل فى معنى ذلك أيضا ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا فلولا ان العلم يقع بالسمع والبصر والقلب مانهى عما لا يعلم هذه الأشياء فنى النهى عن قفو مالا يعلم هذه الاواسط و يتبعه اثبات العلم بها فكل مؤمن هو ذو سمع وبصر وقلب فهو عالم بفضل الله ورحمته . ومما فضل الله تعالى به هذه الأمة على سائر الأمم وخصها به ثلاثة أشياء تبقية الاسناد فيهم يأثره خاف عن سلف متصلا الى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والى من خلا من علمائنا وانما كانوا فيهم يستنسخون الصحف كلما اختلقت صحيفة جددت فكان ذلك

اثرة العلم فيهم والثانى حفظ كتاب الله تعالى المنزل عن ظهر غيب وانما كانوا يقرؤن كتبهم نظرا ولم يحفظ جميع كتاب أنزله الله تعالى قط غير كتابنا هذا الا ما ألهمه الله تعالى عزيرا من التوراة بعد أن كان بختنصر أحرق جميعها عند احراق بيت المقدس فلذلك قال سبط من اليهود أنه ابن الله تعالى عز عن ذلك علوا كبيرا لما خصه به وأفرده من حفظ جميع التوراة. والثالث أن كل مؤمن من هذه الامة يسئل عن علم الايمان ويسمع قوله ويؤخذ من رأيه وعلمه مع حداثة سنه ولم يكونوا فيما مضى يسمعون العلم الا من الاحبار والقسيسين والرهبان لا غير من الناس وزادها رابعة على أمة موسى صلى الله عليه وسلم ثبات الايمان فى قلوبهم لا يعتريه الشك ولا يختلجه الشرك مع تقليب القلوب فى المعاصى وكانت أمة موسى عليه السلام تتقلب قلوبهم فى الشك والشرك كما تتقلب جوارحهم فى المعاصى فلذلك قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة بعد أن رأوا الآيات العظيمة من انفلاق البحر وسلوكهم فيه طرائق وأنجاهم من الغرق وأهلك فرعون وروينا فى بعض الاخبار أن فى بعض الكتب المنزلة يابنى اسرائيل لا تقولوا العلم فى السماء من ينزل به ولا فى تخوم الارضين من يصعد به ولا من وراء البحار من يعبره يأتى به العلم مجعول فى قلوبكم تأدبوا بين يدى بآداب الروحانيين وتخلقوا الى باخلاق الصديقين أظهر العلم فى قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم وفى الانجيل مكتوب لا تطلبوا علم مالم تعلموا حتى تعملوا بما قد علمتم وفى اخبارنا نحن من عمل بما يعلم ورثه الله علم مالم يعلم حتى قيل من عمل بعشر مايعلم ورثه الله علم مايجهل وقد روينا عن حذيفة بن اليمان انكم اليوم فى زمان من ترك فيه عشر مايعلم هلك ويأتى بعدكم زمان من عمل منهم بعشر مايعلم نجا هذا لقلة العاملين وكثرة البطالين وفى كتابنا المجمل المختصر واتقوا الله ويعلمكم الله واتقوا الله واعلموا واتقوا الله واسمعوا واعلم أن من عمل بعلم أو نطق به فأصاب الحقيقة عند الله تعالى فله أجران أجر التوفيق وأجر العمل وهذا مقام العارفين ومن نطق بجهل أو عمل به وأخطأ الحقيقة فعليه وزران وهذا مقام الجهال ومن قال أوعمل بعلم وأخطأ الحقيقة فله أجر لاجل العلم وهذا مقام علماء الظاهر ومن قال بجهل أوعمل عملا وأصاب الحقيقة فعليه وزر لتركه طلب العلم وهذا مقام جهلة العابدين ومثل العالم مثل الحاكم وقد قسم النبى صلى الله عليه وسلم الحكام ثلاثة أقسام فقال صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة قاض قضى بالحق وهو يعلم فذاك فى الجنة وقاض قضى بالجور وهو يعلم أوقضى بالجور وهو لا يعلم فهما فى النار ومن أحسن ماسمعت فى قوله تعالى يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم قيل العلم وريشا قيل اليقين ولباس التقوى أى الحياء وروينا عن وهب بن منبه اليمانى فى معنى الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم وقد أسنده حمزة الخراسانى عن الثورى فرفعه الى عبد الله عن النبى صلى الله عليه

وسلم وقد رويناه أيضا مسندا قال مسعر عن سعد بن ابراهيم وسأله سائل أى أهل المدينة أفقه فقال أتقاهم لله عز وجل وقال بعض العلماء لو قال لى قائل أى الناس أعلم لقلت أورعهم ولو قال لى قائل أى أهل هذه المدينة خير لقلت تعرفون أنصحهم لهم فاذا قالوا نعم قلت هو خيرهم وقال آخر لو قيل لى من أحق الناس لأخذت بيد القاضى فقلت هذا وقال الله تعالى واتقوا الله واسمعوا واتقوا الله وقولوا قولا سديدا فجعل تعالى مفتاح القول السديد والعلم الرشيد والسمع المكين التقوى وهى وصية الله تعالى من قبلنا وايانا اذ يقول الله سبحانه وتعالى ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله وهذه الآية قطب القرآن ومداره عليها كمدار الرحى على الخشبان وروينا عن عيسى عليه السلام كيف يكون من أهل العلم من مسيره الى آخرته وهو مقبل على دنياه وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به وهو لا يطلبه ليعمل به وقال الضحاك بن مزاحم أدركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض الا الورع وهم اليوم يتعلمون الكلام وفى الحديث ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا اعطوا الجدل ثم قرأ ماضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون وفى الحديث فأما الذين فى قلوبهم زيغ الآية هم أهل الجدل الذين عنى الله تعالى فاحذروهم وعن بعض السلف يكون فى آخر الزمان علماء يغلق عنهم باب العمل ويفتح عليهم باب الجدل وفى بعض الاخبار انكم فى زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتى قوم يلهمون الجدل وعن ابن مسعود أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع ويأتى بعدكم زمان خيركم فيه المتبين يعنى الآن لبيان الحق واليقين فى القرن الأول وبعد ذلك فى زماننا هذا لكثرة الشبهات والالتباس ودخول المحدثات مداخل الليل فى السير فاشكل الامر الا على الفرد الذى يعرف طرائق السلف فيجتنب الحدث كله وروينا عن بعض العلماء اذا أراد الله بعبد خيرا فتح له باب العمل وأغلق عنه باب الجدل واذا أراد الله بعبد سوءا أغلق عنه باب العمل وفتح عليه باب الجدل وفى الخبر المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبغض الخلق الى الله عز وجل الالد الخصم وقد روينا فى خبر الحياء والعى شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق وفى بعضها مفسرا والعى عى اللسان لا عى القلب والخبر الآخر ماروى الحكم بن عيينة عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأوتى قوم المنطق الا منعوا العمل وفى الحديث ان الله تعالى ليبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل الكلام بلسانه كما تتخلل الباقرة الخلاء بلسانها والخلاء هو الحشيش الرطب وكان أحمد ابن حنبل يقول العلم انما هو ما جاء من فوق يعنى الهاما من غير تعليم وقال أيضا علماء أهل الكلام زنادقة وقال قبله أبو يوسف من طلب العلم بالكلام تزندق . بيان آخر فى فضل علم الباطن على الظاهر مما يدلك على ان العلم الذى فضله العلماء وأعظموا ذكره وخطره ووصفوا به العالم ومدحوه به وجاءت بفضله الآثار

وندب اليه وفضل فى الأخبار أهله انما هو العلم بالله تعالى الدال على الله تعالى الراد اليه الشاهد بالتوحيد فى علم الايمان واليقين وعلم المعرفة والمعاملة دون سائر علوم الفتيا والأحكام انهم يقولون من عمل بعلمه ويذكرون العمل بالعلم ويصفون جملته بالخشية والخشوع فهذا انما هو علم القلوب لا علم اللسان الذى يكون به العلم ولا تتأتى عنه المعاملات من أعمال الايمان مثل أعمال القلوب التى هى مقامات اليقين وصفات المتقين ومثل أعمال الجوارح من الصالحات التى هى مزيد الايمان والذين أربابها أهل الفقر والزهد وذو التوكل والخوف وأصحاب الشوق والمحبة وليس يعنون أن يكون الانسان اذا علم علم الأحكام والقضايا عمل بها والتزم الدخول فى أحكامها ليعامل منها مثل أن يطلب القضاء فيقضى بين الناس اذا كان عالما به أو يقتنى المال ويدخل فى البيع والشراء اذا كان عالما بالزكوات والبياعات أو يتزوج النساء ويطلق لأنه عالم بالنكاح والطلاق ليكون بهذه الأشياء عاملا بعلمه هذا ما قاله أحد بل قد روى فى كراهة ذلك وذمه ما يكثر ذكره وأهل هذه العلوم موصوفون بالرغبة فى الدنيا والحرص على جمعها وبلابسون الأمراء فيعاملون لهم فبطل انهم هم المعنيون بالعلم الموصوفون بالخشوع والزهد ومثل ذلك أيضا تفضيل الجمهور من السلف العلم على العمل وقولهم ذرة من علم أفضل من كذا من العمل وركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من عابد وحديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى والخبر المشهور كفضل القمر على سائر الكواكب وقول ابن عباس وسعد وقد رويناه مسندا عالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد وكذلك قيل فى موته أحب اليه من موت ألف عابد انما يعنون بذلك العلم بالله تعالى أفضل من العمل لان العلم بالله تعالى وصف من الايمان ومعنى من اليقين الذى لم ينزل من السماء أعز منه فهو لا يعادله شىء ولا يصح عمل ولا يقبل الا به ولانه معيار الأعمال كلها على وزنه تتقبل الأعمال قبولا حسنا بعضه أحسن من بعض ويثقل فى الميزان ثقلا فوق ثقل ويرفع به العاملون فى درجات عليين بعضها من بعض وقد قال تعالى ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ثم قال فلنقصن عليهم بعلم وقال تعالى والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فما كان العائد منه الى الربوبية أقرب كان أفضل والعمل وصف العامل وحكم العبودية لا أنهم يعنون العلم بالفتيا والاحكام والقضاء التى هى أماكن الخلق عائدة عليهم أفضل من معاملات الله سبحانه وتعالى بالقلوب من مقامات التوكل والرضا والمحبة التى هى معاينة اليقين الذى هو مقام المقربين هذا لا يقوله عالم وقد روينا عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم وأهل الجهاد اما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل وأما أهل الجهاد فجاهدوا باسيافهم على

ما جاءت به الرسل الا تراه كيف جعل العلم دالا على الله تعالى كالجهاد وكذلك جاء فى الخبر أول من يشفع الأنبياء ثم الشهداء وفى الخبر للانبياء على العلماء أفضل درجة وللعلماء على الشهداء فضل درجتين وقال ابن عباس فى معنى قوله عز وجل يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اتوا العلم درجات قال للعلماء درجات فوق الذين آمنوا بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين خمسمائة عام وقال ابن مسعود لما مات عمر رضى الله عنهما انى لاحسب انه ذهب بتسعة أعشار العلم فقيل تقول هذا وفينا جلة الصحابة فقال ليس أعنى العلم الذى تريدون انما أعنى العلم بالله تعالى فجمل العلم بالمعلومات غير حقيقة العلم وفضل العلم بالله تعالى بتسعة أعشارها وليس يزيد علم الظاهر على الاعمال كثير زيادة اذ هو من الاعمال الظاهرة لانه صفة اللسان ولانه للعموم من المسلمين فاعلى مقامته الاخلاص فان فاتهم فهو دنيا كسائر الشهوات والاخلاص هو أول حال العالم بالله تعالى بالعلم الباطن ولا نهاية لمقاماتهم الى أعلى مقامات العارفين ودرجات الصديقين.

باب ذكر الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة وذم علماء السوء

الآكلين بعلومهم الدنيا وقد فرقت العلماء بين العلم بالله تعالى وبين العلم بأمر الله تعالى وفرقوا بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة فقال سفيان العلماء ثلاثة عالم بالله وبأمر الله فذلك العالم الكامل وعالم بالله تعالى فذاك التقى الخائف وعالم بأمر الله تعالى غير عالم بالله تعالى فذاك العالم الفاجر وقيل أيضا عالم بالله تعالى وهو العامل بعلمه وعالم بأيام الله تعالى وهو الخائف الراجى وسئل سفيان عن العلم ما هو فقال هو الورع قيل وأى شىء هو الورع فقال طلب العلم الذى يعرف به الورع وهو عند قوم طول الصمت وقلة الكلام وما هو كذلك انما هو المتكلم العالم عندنا أفضل من الصامت وروينا عن لقمان فى وصيته للعلم ثلاث علامات العلم بالله وبما يحبه الله تعالى وبما يكره فجعل حقيقة العلم ودليل وجود هذه الثلاث ومما يدلك على الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ان كل عالم بعلم اذا رآه من لا يعرفه لم يتبين عليه أثر علمه ولا عرف انه عالم الا العلماء بالله عز وجل فانما يعرفون بسيماهم للخشوع والسكينة والتواضع والذلة فهذه صبغة الله تعالى لاوليائه ولبسته للعلماء به ومن أحسن من الله صبغة فمثلهم فى ذلك كمثل الصناع اذ كل صانع لو ظهر لمن لا يعرفه لم يعرف صنعه دون سائر الصنائع ولم يفرق بينه وبين الصناع الا الصناع فانه يعرف بصنعته لانها ظاهرة عليه اذ صارت له لبسة وصفة لالتباسها بمعاملته فكان سيماه كما قيل ما ألبس الله تعالى عبدا لبسة أحسن من خشوع فى سكينة هى لبسة الأنبياء وسيما الصديقين والعلماء فاعلم الناس بلطف ما يحب الله تعالى وخفى ما يكره أهل القلوب الفاقهة عن الله تعالى وهم العارفون به وقد كان سهل رحمه الله يقول العلماء ثلاثة عالم بالله تعالى

وعالم لله تعالى وعالم بحكم الله تعالى يعنى العالم بالله تعالى العارف الموقن والعالم لله تعالى عزوجل هو العالم بعلم الاخلاص والاحوال والمعاملات والعالم بحكم الله تعالى هو العالم بتفصيل الحلال والحرام فسرنا ذلك على معانى قوله ومعرفة مذهبه وقد قال مرة فى كلام أبسط من هذا عالم بالله لا بأمر الله ولا بأيام الله وهم المؤمنون وعالم بامر الله لا بأيام الله وهم المفتون فى الحلال والحرام وعالم بالله تعالى عالم بأيام الله وهم الصديقون يعنى قوله بايام الله أى بنعمته الباطنة وبعقوباته الغامضة ثم قال الناس كلهم موتى الا العلماء والعلماء نيام الا الخائفين والخائفون منقطعون الا المحبين والمحبون أحيا شهداء وهم المؤثرون لله تعالى على كل حال وقد كان يقول طلاب العلم ثلاثة واحد يطلبه للعمل به وآخر يطلبه ليعرف الاختلاف فيتورع ويأخذ بالاحتياط وآخر يطلبه ليعرف التأويل فيتناول الحرام فيجعل حلالا فهذا يكون هلاك الحق على يديه وقد حدثت عن أبى يوسف انه كان اذا صار رأس الحول وهب ماله لامرأته واستوهبها مالها فتسقط عنهما الزكاة فذكر ذلك لأبى حنيفة فقال ذلك من فقهه فانما يطلب العلم لمعرفة الورع والاحتياط للدين فهذا هو العلم النافع فاذا طلب لمثل هذا ولتأويل الهوى كان الجهل خيرا منه وصار هذا العلم هو الضار الذى استعاذ الرسول صلى الله عليه وسلم منه وروينا عن عمر وغيره كم من عالم فاجر وعابد جاهل فاتقوا الفاجر من العلماء والجاهل من المتعبدين وعن عمر أيضا وقد رويناه مسندا اتقوا كل منافق عليم اللسان يقول ماتعرفون و يعمل ماتنكرون وروينا عنه أيضا تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون وليتواضع لكم من يتعلم منكم ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم وروينا عن على وابن عباس رضى الله عنهما وعن كعب الاحبار يكون فى آخر الزمان علماء يزهدون الناس فى الدنيا ولا يزهدون ويخوفون ولايخافون وينهون عن غشيان الولاة ولا ينتهون و يؤثرون الدنيا على الآخرة ويأكلون الدنيا بألسنتهم أكلا يقربون الأغنياء ويباعدون الفقراء يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال يغضب أحدهم على جليسه اذا جالس غيره ذلك حظهم من العلم وفى حديث على رضى الله عنه علماؤهم شر الخليقة منهم بدت الفتنة وفيهم تعود وفى حديث ابن عباس أولئك الجبارون أعداء الرحمن وروينا عن على عليه السلام ماقطع ظهرى فى الاسلام الا رجلان عالم فاجر ومبتدع ناسك فالعالم الفاجر يزهد الناس فى علمه لما يرون من فجوره والمبتدع الناسك يرغب الناس فى بدعته لما يرون من نسكه وقال صالح بن حسان البصرى أدركت المشيخة وهم يتعوذون بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنة وقال الفضيل بن عياض انما هما عالمان عالم دنيا وعالم آخرة فعالم الدنيا علمه منشور وعالم الآخرة علمه مستور فاطلب عالم الآخرة واحذر عالم الدنيا لا يصدنك بسكره ثم قرأ أن كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال

الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله قال فالاحبار العلماء والرهبان الزهاد وقال سهل بن عبد الله طلاب العلم ثلاثة فواحد يطلب علم الورع مخافة دخول الشبهة عليه فيدع الحلال خوف الحرام فهذا زاهد تقي وآخر يطلب علم الاختلاف والاقاويل فيدع ماعليه ويدخل فيما أباح الله تعالى بالسعة ويأخذ للرخصة وآخر يسأل عن شيء فيقال هذا لايجوز فيقول كيف أصنع حتى يجوز لي فيسأل العلماء فيخبرونه بالاختلاف والشبهة فهذا يكون هلاك الخلق على يديه وقد أهلك نفسه وهم علماء السوء واعلم ان كل محب للدنيا ناطق بعلم فانه آكل للمال بالباطل وكل من أكل أموال الناس بالباطل فانه يصد عن سبيل الله لامحالة وانلم يظهر ذلك فى مقاله ولكنك تعرفه فى لحن معناه بدقائق الصد عن مجالسة غيره وبلطائف المنع من طرقات الآخرة لان حب الدنيا وغلبة الهوى يحكمان عليه بذلك شاء أم أبى وقال بعض العلماء ان الله عز وجل يحب العالم المتواضع ويبغض الجبار من العلماء ومن تواضع لله تعالى ورثه الله تعالى الحكمة وفى الخبر عن ابن مسعود ان الله تعالى ليمقت الحبر السمين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمالك بن الصيف حبر من أحبار اليهود فقال صلى الله عليه وسلم نشدتك الله تعالى ألم تجد فيما أنزل تعالى على موسى عليه السلام ان الله تعالى يبغض الحبر السمين وكان ابن الصيف سمينا فغضب عندها فقال ما أنزل الله على بشر من شيء ففيه نزلت هذه الآية تعريفا لبهته قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا فقال له أصحابه ويحك ماذا قلت جحدت كتاب موسى فقال انه محكني فقلت ذلك ويقال ما آتى الله تعالى عبدا علما الا آتاه معه حلما وتواضعا وحسن خلق ورفقا فذلك علامة العلم النافع وقد روينا معناه فى الأثر من آتاه عز وجل زهدا وتواضعا وحسن خلق فهو امام المتقين وكان الحسن يقول الحلم وزير العلم والرفق أبوه والتواضع سرباله وفى أخبار داود عليه السلام ان الله تعالى أوحى اليه ياداود لاتسألن عنى عالما قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتى أولئك قطاع طريق عبادى المريدين ياداود ان أدنى ماأصنع بالعلم اذا آثر شهوته على محبتى ان أحرمه لذيذ مناجاتى يا داود اذا رأيت لى طالبا فكن له خادما يا داود من رد الى هاربا كتبته عندي جهبذا ومن كتبته جهبذا لم أعذبه أبدا وروينا عن عيسى عليه السلام مثل علماء السوء مثل صخرة وقعت على فم النهر لاهى تشرب ولاتترك الماء يخلص الى الزرع وكذلك علماء الدنيا قعدوا على طريق الآخرة فلاهم نفذوا ولاتركوا العباد يسلكون الى الله عز وجل قال ومثل علماء السوء كمثل قناة الحش ظاهرها حسن و باطنها نتن ومثل القبور المشيدة ظاهرها عامر و باطنها عظام الموتى وقال بشر بن الحارث من طلب الرياسة من العلماء فتقرب الى الله تعالى ببغضه فانه مقيت الله فى السماء والأرض وكان الأوزاعى يروى عن بلال بن سعد أنه كان يقول ينظر أحدكم الى الشرطي والعون فيستعيذ بالله تعالى من حاله و يمقته و ينظر

الى عالم الدنيا وقد تصنع للخلق وتشوف للطمع والرياسة فلا يمقته هذا العالم أحق بالمقت من ذلك الشرطى وقد كان أبو محمد يقول لاتقطعوا أمرا من الدين والدنيا الا بمشورة العلماء تحمدوا العاقبة عند الله قيل يا أبا محمد من العلماء قال الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا و يؤثرون الله تعالى على نفوسهم وقد قال عمر رضى الله عنه فى وصيته وشاور فى أمورك الذين يخشون الله تعالى وروينا فى الاسرائيليات أن حكيما من الحكماء صنف ثلثمائة وستين مصحفا فى الحكمة حتى وصف بالحكم فأوحى الله تعالى الى نبيهم قل لفلان قد ملأت الأرض نفاقا ولم تردنى بشىء من ذلك وانى لا أقبل شيأ من نفاقك قال فأسقط فى يديه وحزن وترك ذلك وخالط العامة ومشى فى الأسواق ووا كل بنى اسرائيل وتواضع فى نفسه فأوحى الله تعالى الى النبى عليه السلام قل له الآن وافقت رضاى وقال بعض العلماء كان أهل العلم على ضربين عالم عامة وعالم خاصة فاما عالم العامة فهو المفتى فى الحلال والحرام وهؤلاء أصحاب الاساطين وأما عالم الخاصة فهو العالم بعلم التوحيد والمعرفة وهؤلاء أهل الزوايا وهم المنفردون وقد كانوا يقولون مثل الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه مثل دجلة كل أحد يعرفها ومثل بشر بن الحارث مثل بئر عذبة مغطاة لا يقصدها الا واحد بعد واحد وقال حماد بن زيد قيل لأيوب العلم اليوم أكثر أو فيما مضى فقال العلم فيما مضى كان أكثر والكلام اليوم أكثر ففرق بين العلم والكلام وقد كانوا يقولون فلان عالم وفلان متكلم وفلان أكثر كلاما وفلان أكثر علما وكان أبو سليمان يقول المعرفة الى السكوت أقرب منها الى الكلام وقال بعض العارفين هذا العلم على قسمين نصفه صمت ونصفه تدرى أين تضعه وزاد آخر ونصفه وجد ونصفه نظر يعنى تفكرا واعتبارا وسئل سفيان عن العالم من هو فقال من يضع العلم فى مواضعه و يؤتى كل شىء حقه وقال بعض الحكماء اذا كثر العلم قل الكلام وقد كان ابراهيم الخواص رحمه الله يقول الصوفى كلما ازداد علما نقصت طينته وقال بعض شيوخنا قلت للجنيد يا أبا القاسم يكون لسان بلا قلب قال كثير قلت فيكون قلب بلا لسان فقال نعم قد يكون ولكن لسان بلا قلب بلاء وقلب بلا لسان نعمة قلت فاذا كان لسان وقلب قال فذاك الزبد بالنرسيان يعنى العسل وقد روينا حديثا مقطوعا عن سفيان عن مالك بن مغول قال قيل يارسول الله أى العمل أفضل قال اجتناب المحارم ولايزال فوك رطبا من ذكر الله تعالى قيل يارسول الله فاى الاصحاب خير قال صاحب ان ذكرت أعانك وان نسيت ذكرك قيل فاى الاصحاب شر قال صاحب ان سكت لم يذكرك وان ذكرت لم يعنك قال فاى الناس أعلم قال أشدهم لله تعالى خشية قال فاخبرنا بخيارنا نجالسهم قال الذين اذا رؤا ذكر الله تعالى قالوا فاى الناس شر يارسول الله قال اللهم اغفر قالوا اخبرنا يارسول الله قال العلماء اذا فسدوا وقد وصف على عليه

السلام علماء الدنيا الناطقين عن الرأى والهوى بوصف غريب رويناه عن خالد بن طليق عن أبيه عن جده وجده عمران بن حصين قال خطبنا على بن أبى طالب عليه السلام ورضى عنه فقال ذمتى رهينة وأنا زعيم لا يهيج على التقوى زرع قوم ولا يظمأ على الهدى شح أصل وان أجهل الناس من لا يعرف قدره وكفى بالمرء جهلا ان لا يعرف قدره وان أبغض الخلق الى الله تعالى رجل قمش علما أغار فى أغباش الفتنة عمى عما فى غيب الهدنة سماه أشباه الناس وارذالهم عالما ولم يغن فى العلم يوما سالما بكر فاستكثر مما قل منه خير مما كثر حتى اذا ارتوى من آجن وأكثر من غير طائل جلس للناس مفتيا لتخليص ما التبس على غيره فان نزلت به احدى المبهمات هيا لها عشو الرأى من رأيه فهو من قطع الشبهات فى مثل غزل العنكبوت لا يدرى أخطأ أم صاب ركاب الجهالات خباط عشوات ظلمة لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم ولا يعض على العلم بضرس قاطع فيغنم تبكى منه الدماء وتصرخ منه المواريث وتستحل بقضائه الفروج الحرام لاملى والله باصدار ماورد عليه ولا هو أهل لما قرظ به أولئك الذين حلت عليهم النياحة والبكاء أيام حياة الدنيا ووصف على عليه السلام علماء الآخرة فى حديث كميل بن زياد الذى يقول فيه الناس ثلاثة عالم ربانى يعنى عالما بالربوبية فنسبه الى رب كما سماهم الله فى قوله كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب الآية فسمى العالم بكتابه ربانيا والدارس له ربانيا فهذا قد جمع العلم والعمل وكذلك يقال العالم الربانى هو الذى يعلم ويعمل ويعلم الناس الخير قال فذاك الذى يدعى عظيما فى ملكوت السماء وقال تعالى فى فى تقدمتهم لولا ينهاهم الربانيون والاحبار فقدم الربانيون على الأحبار وهم علماء الكتب وكذلك رويناه عن مجاهد قال الربانيون فوق الأحبار درجة وقال غيره والأحبار فوق الرهبان يعنى علماء القلوب أرفع من علماء الألسنة والعلماء بالكتب أفضل من العباد بدرجة وقد ضمهم الله تعالى الى أنبيائه فى النصرة والصبر معه فى قوله تعالى وكأين من نبى قتل معه ربيون كثير ثم وصفهم بالثبات لأمره والقوة فى دينه والصبر لحكمه فى تمام الآية وربيون جمع ربى يقال ربى وربانى فجمع ربى ربيون وجمع ربانى ربانيون وكذلك جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشفع يوم القيامة الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء فقدم العلماء على الشهداء لان العالم امام أمة فله مثل اجور أمته والشهيد عمله لنفسه وفى خبر آخر حبر العلماء يوزن بدم الشهداء فاعلى حال الشهيد دمه وأدنى وصف العالم حبره فسوى بينهما وزاد العالم على الشهيد بأعلى مقامه وكان على عليه السلام يقول العالم أفضل من الصائم القائم والمجاهد فى سبيل الله واذا مات العالم ثلم فى الاسلام ثلمة لا يسدها الا خلف منه وقد روينا معناه مسندا اذا مات العالم ثلم فى الاسلام ثلمة لا يسدها شىء ماطرد الليل والنهار الا

موت العالم نجم طمس وموت قبيلة أيسر من موت عالم ثم قال علي عليه السلام في حديث كميل ومتعلم على سبيل النجاة يعني مريدا طالبا للعلم متعلما من العلماء بالله تعالى على طريق معاملة واخلاص لطلب السلامة وان ينجو من الجهل في الدنيا ومن العذاب في الآخرة ثم قال وهمج رعاع الهمج الفراش الذي يتهافت في النار لجهله واحدته همجة رعاع خفيف طياش لاعقل له يستفزه الطمع و يستخفه الغضب و يزدهيه العجب ويستطيله الكبر ثم بكى علي عليه السلام وقال هكذا يموت العلم بموت حامليه ثم تنفس عند وصف الربانيين فقال واشوقاه الى رؤيتهم يعني الربانيين من العلماء وقد ذكرنا هذا الحديث بطوله في الباب الذي قبل هذا فهؤلاء الذين بكى عليهم شوقاهم الذين اشتاق رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم قبله فقال واشوقاه الى لقاء اخواني وودت اني قد رأيت اخواني ثم قال هم قوم يجيؤن بعدكم ثم وصفهم فانما كانوا اخوانه لانقلوبهم على قلوب الانبياء عليهم السلام وأخلاقهم بمعاني صفات الايمان وهم ابدال هذه الأمة جاء في وصفهم مايجل عن الوصف هم على ثلاث طبقات صديقون وشهداء وصالحون وان منهم من قلبه على قلب ابراهيم الخليل ومنهم من قلبه على قلب موسى الكليم وعيسى الروح ومحمد الحبيب صلوات الله عليهم وسلم أجمعين ومنهم قلبه على قلب جبريل وميكائيل واسرافيل والاخوة تقع بين الاثنين في المجانسة وقرب الشبه في الافعال والاخلاق كما قال الله عزوجل ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا لما كانوا على أوصافهم في القلوب من اسرار الكفر واعتقاد الشك جعلهم اخوانا و كذلك قال ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وهؤلاء ليسوا أمثالهم في الخلقة ولابينهم أبوة ولا أمومة لان الشياطين من ولد ابليس والمبذرين أولاد آدم عليه السلام ولكن تشابهت قلوبهم بالمواجيد والأخلاق والأفعال فآخى بينهم للتشابه فمن كان من علماء الآخرة فعقله يستضيء من أنوار قلبه وفهمه ينبيء عن استنباط علمه ومشاهدته وأخلاقه على معاني يقينه وقوته وطريقه وسلوكه في منهاج سنته وسبيله فهو من اخوانه واخوان النبيين الذين اشتاق الى رؤيتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الغرباء بين الملا الذين قال بدا الاسلام غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء قيل ومن الغرباء قال الذين يصلحون اذا فسد الناس وفي لفظ آخر الذين يصلحون ما أفسده الناس من سنتي والذين يحيون ما أمات الناس من سنتي يعني أنهم يظهرون طريقته التي تركها الناس وجهلوها وفي خبر آخر هم المتمسكون بسنتي وما أنتم عليه اليوم وفي حديث آخر الغرباء ناس قليلون صالحون بين ناس سوء كثيرين من يبغضهم أكثر ممن يحبهم فهؤلاء الغرباء الذين قد أنعم الله عليهم بمرافقة النبيين في أعلى عليين فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين الى قوله رفيقا وقد كان الثوري يقول اذا رأيت العالم كثير الاصدقاء فاعلم أنه مخلط وقال أيضا اذا رأيت الرجل محببا الى اخوانه محمودا في جيرانه فاعلم انه مراء وقد وصف

الله تعالى علماء السوء با كل الدنيا بالعلم ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد فقال تعالى فى علماء الدنيا واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه الى قوله ثمنا قليلا وقال فى نعت علماء الآخرة وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم الى قوله لهم أجرهم عند ربهم وقد روينا عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم علماء هذه الأمة رجلان فرجل آتاه الله علما فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعا ولم يشتر به ثمنا فذاك يصلى عليه طير السماء وحيتان الماء ودواب الارض والكرام الكاتبون يقدم على الله تعالى يوم القيامة سيدا شريفا حتى يرافق المرسلين ورجل آتاه الله تعالى علما فى الدنيا فضن به عن عباد الله عزوجل وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا يأتى يوم القيامة ملجما بلجام من نار ينادى مناد على رؤس الخلائق هذا فلان بن فلان آتاه الله تعالى علما فى الدنيا فضن به على عباد الله تعالى وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا يعذب حتى يفرغ من حساب الناس ومن أغلظ ماسمعت فيمن أكل الدنيا بالعلم ماحدثونا عن عتبة بن واقد عن عثمان بن أبى سليمان قال كان رجل يخدم موسى صلى الله عليه وسلم فجعل يقول حدثنى موسى صلى الله عليه وسلم وحدثنى موسى نجى الله حدثنى موسى كليم الله حتى أثرى وكثر ماله ففقده موسى صلى الله فجعل يسأل عنه فلا يحس له أثرا حتى جاءه رجل ذات يوم وفى يده خنزير وفى عنقه حبل أسود فقال له موسى عليه السلام أتعرف فلانا قال الرجل نعم هوذا الخنزير فقال موسى يارب أسألك أن ترده الى حاله حتى أسأله فيما أصابه هذا فأوحى الله تعالى اليه ياموسى لودعوتنى بما دعانى به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه ولكنى أخبرك لم صنعت به هذا لانه كان يطلب الدنيا بالدين وروينا عن الحسن انه انصرف يوما من مجلسه فاستأذن عليه رجل من أهل خراسان فوضع بين يديه كيسا فيه خمسة آلاف درهم وأخرج من حقيبته رزمة فيها عشرة أثواب مزرقيق خزخراسان فقال الحسن ماهذا فقال ياأباسعيد هذه نفقة وهذه كسوة فقال له عافاك الله ضم اليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك انه من جلس مثل مجلسى هذا وقبل من الناس مثل هذا لقى الله تعالى يوم القيامة لاخلاق له وفى خبر ان العبد لينشر له من الثناء مابين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة وعلماء الدنيا الطالبون لها بالعلم الآكلون لها بالدين المتخذون الاصدقاء والاخلاء من أبنائها المكرمون المحبون لهم المقبلون بالبشر والبشاشة عليهم هم معروفون فى كل زمان بأوصافهم ولحن قولهم وسيماهم وقد روينا فى مقامات علماء السوء حديثا شديدا نعوذ بالله من أهله ونسأله أن لايبلونا بمقام منه فرويناه مرة مسندا من طريق ورويناه موقوفا على معاذ بن جبل رضى الله عنه وأناأذكره موقوفا أحب الى حدثونا عن منذر بن على عن أبى نعيم الشامى عن محمد بن زياد عن معاذ بن جبل

يقول فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم و وافقته أنا على معاذ قال من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب اليه من الاستماع وفى الكلام تنميق و زيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطأ وفى الصمت سلامة وعلم ومن العلماء من يخزن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره فذلك فى الدرك الاول من النار ومن العلماء من يكون فى علمه بمنزلة السلطان فان رد عليه شيء من علمه أو تهاون بشيء من حقه فغضب فذلك فى الدرك الثانى من النار ومن العلماء من يجعل حديثه وغرائب علمه لاهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلا فذلك فى الدرك الثالث من النار ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا فيفتى بالخطأ والله عز وجل يبغض المتكلفين فذلك فى الدرك الرابع من النار ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى ليغزر به علمه فذلك فى الدرك الخامس من النار ومن العلماء من يتخذ علمه مروأة ونبلا وذكرا فى الناس فذلك فى الدرك السادس من النار ومن العلماء من يستفزه الزهو والعجب فان وعظ عنف وان وعظ أنف فذلك فى الدرك السابع من النار عليك بالصمت فبه تغلب الشيطان واياك أن تضحك من غير عجب أو تمشى فى غير أرب وقد روينا حديثا يدل على أوصاف علماء الآخرة وفيه أصول ما يدعون الخلق اليه من مقامات الايمان وأسباب الدين والايقان رويناه عن شقيق بن ابراهيم البلخى عن عباد ابن كثير عن أبى الزبير عن جابر ذكره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووافقته أنا على جابر بن عبد الله قال لاتجلسوا عند كل عالم الا عالم يدعوكم من خمس الى خمس من الشك الى اليقين ومن الرياء الى الاخلاص ومن الرغبة الى الزهد ومن الكبر الى التواضع ومن العداوة الى النصيحة ومما يدلك على أن علم اليقين والتقوى وعلم المعرفة والهدى هو العلم المذكور المقصود عند السلف أن الصحابة والتابعين كانوا يشفقون من فقد ذلك و يخافون عدمه و يخبرون عن رفعه وقلته فى آخر الزمان وانما يعنون بذلك علم القلوب والمشاهدات الذى هو نتيجة التقوى علم المعرفة واليقين الذى هو من مزيد الايمان وثمرة الهدى فاذا فقد المتقون وقل الخائفون وعدم الزاهدون ذهبت هذه العلوم لأنها قائمة بهم موجودة عندهم هم أربابها والناطقون بها وهى أحوالهم وطرائقهم هم السالكون لها والقائمون بها فلاجل معرفة الصحابة والتابعين عزة ذلك كانوا يبكون على فقده وقد وصف الله العلماء بالزهد فى الدنيا والاستصغار لها وبعمل الصالحات والايمان بها كما وصف أبناء الدنيا بالرغبة فيها والاستعظام لها قال تعالى فى معنى ذلك فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ثم قال عز وجل ولا يلقاها الا الصابرون أى لا يلقى هذه الحكمة الا الصابرون عن زينة الدنيا التى خرج فيها قارون وروينا عن جندب بن عبد الله البجلى قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم

غلمانا حزاورة فيعلمنا الايمان قبل القرآن ثم تعلمنا القرآن فازددنا ايمانا وعن ابن مسعود قال أنزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملا وسيأتى قوم يثقفونه تثقيف الغناء ليسوا بخياركم وفى لفظ آخر يقيمونه أقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه وروينا عن ابن عمر وغيره لقدعشنابرهة من دهرنا وان أحدنا يؤتى الايمان قبل القرآن وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وماينبغى أن يتوقف عنده منها كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن ولقدرأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الايمان فيقرأ مابين فاتحته الى خاتمته لايدرى ما آمره ولا زاجره وما ينبغى أن يقف عنده و ينثره نثر الدقل وفى الخبر الآخر بمعناه كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتينا الايمان قبل القرآن وسيأتى بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الايمان يقيمون حروفه ويضيعون حدوده ويقولون قرأنا فمن أقرأ منا وعلمنا فمن أعلم منا فذلك حظهم منه وفى لفظ آخر أولئك شرار هذه الامة فاما العلم المأثور الذى نقله خلف عن سلف والخبر المرسوم فى الكتب المستودع فى الصحف الذى يسمعه من غبر عمن قدم فهذا علم الاحكام والفتيا وعلم الاسلام والقضايا طريقه السمع ومفتاحه الاستدلال وخزانته العقل وهو مدون فى الكتب ومحبر فى الورق يتلقاه الصغير عن الكبير بالالسنة وهو باق بقاء الاسلام وموجود بوجود المسلمين لأنه حجة الله تعالى على عباده ومحجة العموم من خلقه فضمن اظهاره فلم يكن ليظهر الا بحملة تظهره ونقلة تحمله فقال تعالى ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم بمعناه وعلم ظاهر على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه وقال صلى الله عليه وسلم لاصحابه تسمعون و يسمع منكم و يسمع ممن سمع منكم فأخبر صلى الله عليه وسلم بالعلم العتيد المستودع ظهور الكتب الذى هو ظاهر الدين وفى جهله وعدمه وجود الشرك كما ضمن الله تعالى تبقية الاسلام على كره المشركين وقال صلى الله عليه وسلم رحم الله من سمع منا حديثا فبلغه كما سمعه فرب حامل فقه غير فقيه و رب حامل فقه الى من هو أفقه منه وقد أخبر أن حامل الفقه قد يكون غير فقيه القلب اذا لم يعمل بعلمه وأنه قد يحمله الى من هو أفقه منه اذا عمل به اذا وعاه كما قال فى الخبر الآخر رب مبلغ أوعى من سامع فمدحه بالعمل به اذا وعاه فتذكر به وتفكر فيه وان لم يكن سمعه منه صلى الله عليه وسلم وقال الله سبحانه وتعالى وتعيها اذن واعية يعنى اذن القلب الحافظة ماسمعت الذاكرة لما وعت كما قال تعالى ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد يعنى أصغى بسمعه الى سامعه وشهد بقلبه ما سمعه من شاهده وقد جاء فى تفسير قوله تعالى وتعيها اذن واعية قال أذن عقلت عن الله تعالى أمره ونهيه فوعته وعملت به كما وصف سبحانه وتعالى المؤمنين الذين نعتهم بقوله فى تمام وصفهم والحافظون لحدود الله تعالى وقد روينا عن على رضى الله عنه اطلبوا العلم تعرفوا به

واعملوا به تكونوا من أهله وقال أيضا رضى الله عنه اذا سمعتم العلم فا كظموا عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب وقال بعض السلف من ضحك ضحكة مج مجة من العلم وقال الخليل بن احمد رحمه الله ليس العلم ماحواه القمطر انما العلم ماوعاه الصدر واذا جمع العالم ثلاثا تمت النعمة به على المتعلم الصبر والتواضع وحسن الخلق واذا جمع المتعلم ثلاثا تمت النعمة به على العالم العقل والأدب وحسن الفهم والله أعلم

باب وصف العلم وطريقة السلف وذم ما أحدث المتأخرون من القصص والكلام

لا بد للعالم بالله تعالى من خمس هى علامة علماء الآخرة الخشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق والزهد قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقال تعالى خاشعين لله الآية فلا بد له من التواضع وحسن الخلق قال الله عز وجل واخفض جناحك للمؤمنين وقل انى أنا النذير المبين وقال تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم الآية والزهد فى الدنيا قال الله تعالى قال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير فمن وجد فيه هذه الخلال فهو من العلماء بالله عزوجل واعلم أنه انما يستبين العالم عند المشكلات فى الدين ويحتاج الى العارف عند شبهات حاكت الصدور كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لاتزالون بخير ماإذا حاك فى صدر أحدكم شىء وجد من يخبره به ويشفيه منه وأيم الله أوشك أن لا تجدوا ذلك وكما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الناس أعلم فقال الله ورسوله أعلم فقال أعلمهم بالحق اذا اشتبهت الامور ووقعت المشكلات وان كان يزحف على أسته فكذلك اذا اختلف الناس وان كان فى عمله تقصير وكما قال فى حديث عمران بن حصين ان الله تعالى يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات ويحب السخاء ولو على تمرات ويحب الشجاعة ولو على قتل الحيات وقد حصانا فى زماننا هذا فى مثل ما خافه ابن مسعود لان مشكلة لو وردت فى معانى التوحيد وشبهة لو اختلجت فى صدر مؤمن من معانى صفات الموحد وأردت كشف ذلك على حقيقة الأمر بما يشهده القلب الموفق ويثلج له الصدر المشروح بالهدى كان ذلك عزيزا فى وقتك هذا ولكنت فى استكشاف ذلك بين خمسة نفر مبتدع ضال يخبرك برأيه عن هواه فيزيدك حيرة أو متكلم يفتيك بقصور علمه عن شهادة الموفنين وبقياس معقوله على ظاهر الدين وهذا شبهة فكيف تنكشف به شبهة أو صوفى شاطح تائه غالط يجاوز بك الكتاب والسنة لا يباليهما ويخالف بقوله الأئمة لا يتحاشاها فيجيبك بالظن والوسواس والحدس والتمويه ويمحو الكون والمكان ويسقط العلم والاحكام ويذهب الاسماء والرسوم وهؤلاء تائهون فى مفازة التيه لم يقفوا على الحجة قد غرقوا فى بحر التوحيد لم يجعلوا أئمة المتقين ولا حجة للموقنين وهذا ساقط القول اذ ليس معه حجة ولا هو على سنن المحجة أو مفت عالم عند نفسه موسوم بالفقه عند أصحابه يقول لك هذا من أحكام الآخرة

ومن علم الغيب لاتتكلم فيه لانالم نكلفه وهوفى أكثر مناظرته يتكلم فيما لم يكاف و يجالد فيما لم ينطق به السلف ويتعلم ويعلم ماعلمه بتكلف ولايعلم المسكين انه كلف علم يقين الايمان وحقيقة التوحيد ومعرفة اخلاص المعاملة وعلم مايقدح فى الاخلاص ويخرج من جملته قبل ماهو فيه لانه متكلف لبعض ماهو يبتغيه لان علم الايمـان وصحة التوحيد واخلاص العبودية للربوبية واخلاص الأعمال من الهوى الدنيوية وما يتعلق بها من أعمال القلوب هو من الفقه فى الدين ونعت أوصاف المؤمنين اذ مقتضاه الانذار والتحذير لقوله تعالى ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم الآية ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم تعلموا اليقين فانى متعلم معكم ولقول الصحابة رضى الله عنهم تعلمنا الايمـان ثم تعلمنا القرآن فازددنا ايمـانا فهذا مزيد الهداية بالايقان وهو زيادة المؤمنين فى الايمان كما قال تعالى فزادهم ايمـانا وقال عز وجل و يزيد الله الذين اهتدوا هـدى ولا يشعر أن حسن الأدب فى المعاملة بمعرفة و يقين هو من صفات الموقنين وذلك هو حال العبد فى مقامه بينه و بين ربه عز وجل ونصيبه من ربه تعالى وحظه من مزيد آخرته وذلك معقود بشهادة التوحيد الخالصة المقترنة بالايمـان من خفايا الشرك وشعب النفاق وهو مقترن بالفرائض وفرض فرضها الاخلاص بالمعاملة وان علم ماسوى هذا ممـا قد أشرب قلبه وحبب اليه من فضول العلوم وغرائب الفهوم انمـا هو حوائج الناس ونوازلهم فهو حجاب عن هـذا واشتغال عنه فآثرها هذا الغافل لقلة معرفته بحقيقة العلم النافع ما زين له طلبه وحبب اليه قصده آثر حوائج الناس وأحوالهم على حاجته وحاله وعمل فى أنصبتهم منـه فى عاجل دنياهم من نوازل طوارقهم وفتياهم ولم يعمل فى نصيبه الاوفر من ربه الاعلى لاجل آخرته التى هى خير وأبقى اذ مرجعه اليها ومثواه المؤبد فيها فآثر التقرب منهم على القربة من ربه عز وجـــل وترك للشغل بهم حظه من الله تعالى الاجزل وقدم التفرغ لهم على فراغ قلبه لمـا قدم لغده من تقواه بالشـغل بخدمة مولاه وطلب رضاه واشتغل بصلاح ألسنتهم عن صلاح قلبه وظواهر أحوالهم عن باطن حاله وكان سبب ما بلى به حب الرياسة وطلب الجاه عند الناس والمنزلة بموجب السياسة والرغبة فى عاجل الدنيا وعزها بقلة الهمة وضعف النية فى عاجل الآخرة وذخره فافنى أيامه لايامهم وأذهب عمره فى شهواتهم ليسميه الجاهلون بالعلم عالمـا وليكون فى قلوب البطالين عندهم فاضلا فورد القيامة مفلسا وعنـد ما يراه من أنصبة المقربين مبلسا اذ فاز بالقرب العاملون وربح الرضا العالمون ولكن أنى له وكيف بنصيب غيره وقد جعل الله تعالى لكل عمل عاملا ولكل علم عالما أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب كل ميسر لمـا خلق له هذا فصل الخطاب بينهما فان الامة لم تختلف ان علم التوحيد فريضة سيما اذا وقعت الشبهات وأدخلت فيه المشكلات وانما اختلفوا فى مسئلتين أى شىء هو التوحيد وفى كيفية طلبه والتوصل اليه فمنهم من

قال بالبحث والطلب ومنهم من يقول بالاستدلال والنظر ومنهم من قال بالسمع والاثر وقال بعضهم بالتوقيف والتسليم وقال بعض الناس يدرك دركه بالعجز والتقصير عن بلوغ دركه والرجل الخامس من العلماء هو صاحب حديث وآثار وناقل رواية الأخبار يقول لك اذا سألته اعتقد التسليم وأمر الحديث كما جاء ولا تفتش وهذا يتلو المفتى فى السلامة وهو أحسنهم طريقة وأشبههم بسلف العامة خليقة ليس عنده شهادة يقين ولا معرفة بحقيقة ما رآه ولا هو شاهد واصف لمعنى ما نقله انما هو للعلم راوية وللاثر والخبر ناقلة عن غير خبر يخبره ولا فقه فى نقله فهو على بينة من ربه وليس يتلوه شاهد منه وقد كان الزهرى يقول حدثنى فلان وكان من أوعية العلم ولا يقول وكان عالما وكان مالك ابن أنس رحمه الله يقول ادركت سبعين شيخا من التابعين منهم عباد ومنهم مستجاب الدعاء ومنهم من يستسقى به ما حملت عنهم علما قط قيل ولم ذاك قال لم يكونوا من أهل هذا الشأن وفى رواية لم يكونوا يدرون مايحدثون به ولم يكن لهم فقه فيما يسألون عنه قال مالك وتقدم علينا ابن شهاب الزهرى وهو حديث السن فنزدحم عليه حتى لا نصل اليه لانه كان عالما بما يحدث به فهذا بمعنى ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه وقال بعض السلف ما كانوا يعدون علم من لا يعرف اختلاف العلماء علما وقال آخر من لم يعرف اختلاف العلماء لم يحل له أن يفتى ولم يسم عالما وقال قتادة وسعيد بن جبير أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس وقيل للامام أحمد رضى الله عنه اذا كتب الرجل مائة ألف حديث له أن يفتى قال لاقيل فمائتى ألف حديث قال لاقيل فثلاثمائة ألف حديث قال أرجو وفى التوراة مكتوب الطبيب الحاذق للعلة الباطنة يصلح وكتب سلمان الفارسى من المدائن الى أبى الدرداء وكان قد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فيمن آخى يا أخى بلغنى انك أقعدت طبيبا تداوى المرضى فانظر فان كنت طبيبا فتكلم فان كلامك شفاء وان كنت متطببا فالله الله لا تقتل مسلما قال فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك اذا سئل عن شىء وسأله انسان عن شىء فأجابه ثم قال ردوه فقال له أعد على فأعاد فقال متطبب والله فرجع فى جوابه ولعمرى انه قد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من تطبب ولم يعلم منه طب فقتل فهو ضامن وقد كان ابن عباس رضى الله عنه يقول سلوا جابر بن زيد فلو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم وكان من صالحى التابعين وكان ابن عمر رضى الله عنهما اذا سئل عن شىء يقول سلوا سعيد بن المسيب وكان أنس بن مالك رضى الله عنه يقولوا سلوا مولانا الحسن فانه قد حفظ ونسينا وقال بعض البصريين قدم علينا رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتينا الحسن فقلنا ألا نذهب الى هذا الصحابى فنسأله عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجىء معنا قال نعم فاذهبوا قال

فجعلنا نسأله عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يحدثنا حتى حدثنا عشرين حديثا قال والحسن ينصت يستمع اليه ثم جثا الحسن على ركبتيه فقال ياصاحب رسول الله اخبرنا بتفسير ما رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نفقه فيه فسكت الصحابى وقال ما عندى الا ما سمعت قال فابتدأ الحسن رحمه الله يفسر ما رواه فقال أما الحديث الأول الذى حدثتنا به فان تفسيره كيت وكيت والحديث الثانى تفسيره كذا وكذا حتى سرد عليه الأحاديث كلها التى حدثنا بها وأخبرنا بتفسيرها قال فلا ندرى نعجب من حسن حفظه اياه وأدائه الحديث أو من علمه وتفسيره قال فأخذ الصحابى كفا من حصى وحصبنا به ثم قال تسألونى عن العلم وهذا الحبر بين أظهركم فهؤلاء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يردون الأمور فى الفتيا وعلم اللسان الى من هو دونهم فى القدر والمنزلة وهو فى علم التوحيد والمعرفة والايمان فوقهم درجات ولا يرجعون اليهم فى الشبهات ولا يردون اليهم فى علم المعرفة واليقين فهذا كما قيل انما العلم نور يقذفه الله تبارك وتعالى فى قلوب أوليائه فقد يكون ذلك تفضيلا للنظراء بعضهم على بعض وقد يكون تخصيصا للشباب على الشيوخ ولمن جاء بعد السلف من التابعين وربما كان تكرمة للخاملين المتواضعين لينبه عليهم و يعرفون شأنهم ليعظموا و يرفعوا كما قال الله تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة والنور اذا جعل فى الصدر انشرح القلب بالعلم ونظر باليقين فنطق اللسان بحقيقة البيان وهو الحكمة التى يودعها الله تعالى فى قلوب أوليائه كما جاء فى تفسير قوله عز وجل وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب قيل الاصابة فى القول فكأنه يوفقه للحقيقة وقوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا قيل الفهم والفطنة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وصف الهداية حين تلا قوله عز وجل فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام فقيل يارسول الله ما هذا الشرح فقال ان النور اذا قذف فى القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل فهل لذلك من علامة قال نعم التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله فذكر سببه الزهد فى الدنيا والاقبال على خدمة المولى وحسن التوفيق والاصابة فى العلم مواهب من الله عز وجل واثرة يختص بها من يشاء كما سئل أبوموسى الاشعرى وهو أمير الكوفة عن رجل قتل فى سبيل الله مقبلا غير مدبر أين هو فقال أبو موسى فى الجنة فقال ابن مسعود للسائل أعد على الامير فتياك فلعله لم يفهم قال السائل قلت أيها الأمير ماقولك فى رجل قاتل فى سبيل الله فقتل مقبلا غير مدبر أين هو فقال أبو موسى فى الجنة فقال ابن مسعود رضى الله عنه أعد على الأمير فلعله لم يفهم فأعاد عليه ثلاثا كل ذلك يقول أبوموسى فى الجنة ثم قال ما عندي غير هذا فما تقول أنت فقال ابن مسعود لكني لا أقول هكذا قال فما قولك فقال أقول ان قتل

فى سبيل الله فأصاب الحق فهو فى الجنة فقال أبو موسى صدق لاتسألونى عن شىء مادام هذا الحبر بين أظهركم والقول فى تسليم اخبار الصفات والسكوت عن تفسيرها كما قال أصحاب الحديث الا ان بمعرفة معانى الأسماء والصفات وشهودها ينفى الظن والوسواس فيها وترك التشبيه والتمثيل بها والطمأنينة الى اليقين بالمعرفة بمشاهدتها هو مقام الموقنين واعتقاداتها صفات لله تعالى يتجلى بها وبماشاء من غيره بلاحد ولا عدد يظهر بصفة صفة كيف شاء غير موقوف على صفة ولا محكوم عليه بصور قبلا أظهار غيريه بل هو كيف ظهر وبأى وصف تجلى مع نفى الكيفية والمثلية لفقد الجنس والجوهرية هو مقام المقربين من الشهداء وهؤلاء هم الصديقون وخصوص للموقنين فمن عدل به عن وجهة هؤلاء ولم يواجه بشهادتهم عدل الى التسليم والتصديق فوقف عند مكان معقله واستراحته وليس بعد هؤلاء مقام يمدح ولا وصف يذكر فمن فتش ذلك بعقله وفسر برأيه دخل عليه التشبيه أوخرج الى النفى والابطال ومن الدليل على فضل هذا العلم على سائر العلوم ماجاء فى الاخبار المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين فى فضل مجالس الذكر وفضل الذاكرين انما يريدون به علم الايمان والمعرفة وعلوم المعاملات والتفقه فى بصائر القلوب والنظر بعين اليقين الى سرائر الغيوب وليس يريدون به مجالس القصص ولا يعنون بذلك القصاص لانهم كانوا يرون القصص بدعة و يقولون لم يقص فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبى بكر وعمر حتى ظهرت الفتنة فلما وقعت الفتنة ظهر القصاص ولما دخل على رضى الله عنه البصرة جعل يخرج القصاص من المسجد و يقول لا يقص فى مسجدنا حتى انتهى الى الحسن وهو يتكلم فى هذا العلم فاستمع اليه ثم انصرف ولم يخرجه وجاء ابن عمر الى مجلسه من المسجد فوجد قاصا يقص فوجه اليه صاحب الشرطة ان أخرجه من المسجد فأخرجه فلو كان القصص من مجالس الذكر والقصاص علماء لما أخرجهم ابن عمر من المسجد هذا مع ورعه وزهده وقد روينا عن ابن شوذب عن أبى التياح قال قلت للحسن امامنا يقص فيجتمع الرجال والنساء فيرفعون أصواتهم بالدعاء ويمدون أيديهم فقال الحسن رفع الصوت بالدعاء بدعة ومد الايدى بالدعاء بدعة وروى أبو الأشهب عن الحسن القصص بدعة وقيل لابن سيرين لو قصصت على اخوانك فقال قد قيل لايتكلم على الناس الا أحد ثلاثة أمير أومأمور أوأحمق فلست بأمير ولا مأمور وأكره ان أكون الثالث وروينا عن عون بن موسى عن معاوية بن قرة قال سألت الحسن البصرى قلت أعود مريضا أحب اليك أو أجلس الى قاص فقال عد مريضك فقلت أشيع جنازة أحب اليك أو أجلس الى قاص قال شيع جنازتك قلت وان استعان بى رجل فى حاجة أعينه أو أجلس الى قاص قال اذهب فى حاجتك حتى جعله خيرا من مجالس الفراغ فلو كانت مجالس الذكر عندهم هى مجالس القصاص ولو كان القصص هو الذكر لما وسع الحسن أن يثبط عنه ولا يؤثر عليه كثيرا

من الاعمال لانه قد كان يدعو الى الله تعالى بالتوحيد ويتكلم فى علم المعرفة واليقين والذاكرين لله تعالى وحضور مجالس الذكر من مزيد الايمان وقد رفع الله تعالى مقام الذاكرين فوق مقام المؤمنين فى قوله تعالى ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات فجعل الذاكرين والذاكرات أعلى المقامات وقد روينا فى خبر أبى ذر حضور مجالس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة وحضور مجلس علم أفضل من عيادة الف مريض وحضور مجالس علم أفضل من شهود ألف جنازة قيل يارسول الله ومن قراءة القرآن فقال وهل تنفع قراءة القرآن الا بعلم وقال بعض السلف حضور مجالس ذكر يكفر عشرة من مجالس الباطل وأما عطاء فانه قال مجالس ذكر يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو وحدثونا عن معاذ الاعلم قال رآنى يونس ابن عبيد وأنا فى حلقة المعتزلة فقال تعال جئت فقال ان كنت لابد فاعلا فعليك بحلقة القصاص وقد كان الحسن البصرى أحد المذكرين وكانت مجالسه مجالس الذكر يخلو فيها مع اخوانه وأتباعه من النساك والعباد فى بيته مثل مالك بن دينار وثابت البنانى وأيوب السختيانى ومحمد بن واسع وفرقد السنجى وعبد الواحد بن زيد فيقول هاتوا انشروا النور فيتكلم عليهم فى هذا العلم من علم اليقين والقدرة وفى خواطر القلوب وفساد الاعمال ووسواس النفوس وربما قنع بعض أصحاب الحديث رأسه فاختفى من ورائهم ليسمع ذلك فاذا رآه الحسن قال له يالكع وأنت ما تصنع ههنا انما خلونا مع اخواننا نتذاكر والحسن رحمه الله هو امامنا فى هذا العلم الذى نتكلم به أثره نقفو وسبيله نتبع ومن مشكاته نستضىء أخذنا ذلك باذن الله تعالى اماما عن امام الى أن ينتهى ذلك اليه وكان من خيار التابعين باحسان قيل مازال يعى الحكمة أربعين سنة حتى نطق بها وقد لقى سبعين بدريا ورأى ثلثمائة صحابى وولد لليلتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة عشرين من التاريخ ولد بالمدينة وكانت أمه مولاة لام سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ويقال انها ألقمته ثديها تعلله حين بكى فدر ثديها عليه وكان كلامه يشبه بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأى عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ومن بقى فى وقته من العشرة ثم رأى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من عهد عثمان ومن سنة نيف وعشرين من الهجرة الى سنة نيف وتسعين ومن آخر من مات من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبصرة أنس بن مالك وبالمدينة سهل بن سعد الساعدى وبمكة أبو الطفيل وباليمن أبيض بن جمال المازنى وبالكوفة عبدالله بن أبى أوفى وبالشام أبو قرصافة وبخراسان بريدة الاسلمى ودخلت سنة مائة من التاريخ ولم يبق على وجه الارض عين تطرف رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع أطراف الارض ثم توفى الحسن فى سنة عشر ومائة وكان أبو قتادة العدوى يقول عليكم بهذا الشيخ فوالله ما رأينا أحدا لم يصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منه وكانوا يقولون كنا

تشبهه بهدى ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم فى حلمه وخشوعه ووقاره وسكينته فكان على شمائله ونذرت امرأة بالبصرة نذرا ان فعل الله تعالى ذلك بها أن تنسج ثوبا من غزلها وصفته وتكسوه خير أهل البصرة فرأت تمام نذرها فوفت بما نذرت ثم سألت من خير أهل البصرة فقالوا الحسن وكان الحسن رضى الله عنه أول من أنهج سبيل هذا العلم وفتق الألسنة به ونطق بمعانيه وأظهر أنواره وكشف به قناعه وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعوه من أحد من اخوانه فقيل له ياأبا سعيد انك تتكلم فى هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك فمن أخذت هذا فقال من حذيفة بن اليمان قيل وقالوا لحذيفة بن اليمان نراك تتكلم فى هذا العلم بكلام لانسمعه من أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أين أخذته فقال خصنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه وعلمت ان الخير لايسبقنى وقال مرة فعلمت ان من لايعرف الشر لايعرف الخير وفى لفظ آخر كان الناس يقولون يارسول الله مالمن عمل كذا وكذا يسألونه عن فضائل الاعمال وكنت أقول يارسول الله مايفسد كذا وكذا فلما رآنى أسأل عن آفات الاعمال خصنى بهذا العلم وكان حذيفة قد خص بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وبسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين من بين الصحابة فكان عمر وعثمان وأكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن الفتن العامة والفتن الخاصة ويرجعون اليه فى العلم الذى خص به ويسألونه عن المنافقين وهل بقى منهم ممن ذكر الله تعالى وأخبر عنهم أحد فكان يخبر باعدادهم ولا يذكر أسماءهم وكان عمر يستكشفه عن نفسه هل يعلم فيه شيأ من النفاق فبرأه منه ثم يسأله عن علامات النفاق وآية المنافق فيخبر من ذلك بما يصلح مما أذن له فيه ويستعفى مما لايجوز له ان يخبر به فيعذر فى ذلك وكان عمر رضى الله عنه اذا دعى الى جنازة ليصلى عليها نظر فان حضر حذيفة صلى عليها وان لم ير حذيفة لم يصل عليها وكان حذيفة يسمى صاحب السر وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سئلوا عن علم يقول أحدهم تسألونى عن هذا وصاحب السر فيكم يعنى حذيفة وروينا عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه لما حدث عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فضل مجلس الذكر لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة الى طلوع الشمس أحب الى من أن أعتق أربع رقاب قال فالتفت الى يزيد الرقاشى وزياد النميرى فقال لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص أحدكم ويخطب على أصحابه ويسرد الحديث سردا انما كنا نقعد فنذكر الايمان ونتدبر القرآن ونتفقه فى الدين ونعد نعم الله تعالى علينا وقد كان عبدالله بن رواحة يقول لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تعالوا حتى نؤمن ساعة فيجلسون اليه فيذكرهم العلم بالله تعالى والتوحيد والآخرة وكان يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قيامه فيجتمع اليه الناس يذكرهم الله تعالى وأيامه

وبفقههم فيما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فربما خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم مجتمعون عنده فيسكتون فيجلس اليهم و يأمرهم أن يأخذوا فيما كانوا فيه ويقول صلى الله عليه وسلم بهذا أمرت والى هذا دعوت و روى نحو هذا عن معاذ بن جبل رضى الله عنه وقد كان يتكلم بهذا العلم وقد روينا هذا مفسرا فى حديث جندب كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلمنا الايمان قبل أن نتعلم القرآن فسمى علم الايمان إيمانا كما سماه ابن رواحة لان علم الايمان وصف الايمان والعرب تسمى الشيء بوصفه وتسميه بأصله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثله تعلموا اليقين أى علم اليقين وكما قال تعالى وابيضت عيناه من الحزن أى من البكاء فسماه بأصله لان الحزن أصل البكاء و روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خرج ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله تعالى ويرغبون اليه والآخر يتفقهون فى الدين و يعلمون الناس فوقف بينهما ثم قال أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فان شاء أعطاهم وان شاء منعهم وأما هؤلاء فيعلمون الناس و يفقهون فى الدين و إنما بعثت معلما ثم عدل الى الذين يفقهون الناس فى الدين و يذكرون الله تعالى فجلس معهم و يحكى عن بعض السلف قال دخلت المسجد ذات يوم فاذا بحلقتين احداهما يقصون و يدعون والأخرى يتكلمون فى العلم وفقه الأعمال قال فملت الى حلقة الدعاء فجلست اليهم فحملتنى عيناى فنمت فهتف بى هاتف أوقال لى شخص جلست الى هؤلاء وتركت مجلس العلم أما لو جلست اليهم لوجدت جبريل صلى الله عليه وسلم عندهم فحقيقة الذكر هو العلم بالله تعالى ألا تسمع الى ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الذكر قول لااله الاالله وقال سبحانه وتعالى فى تصديقه فاعلم أنه لا اله الا الله وقال فى مثله فاعلموا انما أنزل بعلم الله وأن لااله الاهو ثم ان العلم من الذكر علم المشاهدة والمشاهدة صفة عين اليقين فاذا كشف غطاء العين شهدت معانى الصفات بأنوارها وهو مزيد نور اليقين الذى هو كمال الايمان وحقيقته فهنالك ذكرت الموصوف بمشاهدة المذكور بنور وصفه ألم تر الى قوله تعالى كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى فمن كانت عينه فى كشف من ذكره شهد المذكور فعندها ذكر ثم توجد حقيقة العلم بعد نسيان الخلق كقوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت فحق الذكر نسيان ما سواه كما ان حقيقة الايمان الكفر بكل اله سواه كقوله تعالى فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله وقال بعض أهل الحديث جاءنى رجل من اخوانى من أهل المعرفة فقال قد وجدت من قلبي غفلة فأريد أن تحملنى الى مجلس من مجالس الذكر فقلت نعم فسمى له مذكرا يتكلم فى علوم العامة قال فحضرنا عنده واجتمع الخلق فاخذ فى شيء من القصص وذكر الجنة والنار فنظر الى صاحبي فقال أليس زعمت ان هذا يذكر الله ويذكر ربه عز وجل ويذكر أيامه فقلت نعم هكذا

هو عندنا فقال ما أسمع الا ذكر الخلق فأين ذكر الله تعالى ثم توقف ساعة ينتظر منه ما يريد من علم المعرفة ومما سمعه من شيوخه الصوفية قال فليس الا القصص والحكايات فالتفت الى وقال قم بنا فانه لا يسعنى الجلوس لانه لانية لى فى ذلك فقلت اما أنا فاستحيي أن أتخطى الناس فاصنع أنت ماترى فقام يتخطى الناس حتى خرج وقد روى الزهرى عن سالم عن ابن عمر أنه خرج من المسجد وقال ما أخرجنى الا القصاص ولولا ما خرجت وقال ضمرة قلت للثورى رحمه الله نستقبل القاص بوجهنا فقال ولوا البدع ظهوركم وقال ابن عون دخلت على ابن سيرين فقال ما كان اليوم من خبر فقلت نهى الأمير القصاص أن يقصوا وحدثنا عن أبى معمر عن خلف بن خليفة قال رأيت سيارا أبا الحكم يستاك على باب المسجد وقاص يقص فى المسجد فجاء رجل فقال يا أبا الحكم ان الناس ينظرونك فقال انى فى خير مما هم فيه أنا فى سنة وهم فى بدعة وقد فعل الاعمش أبلغ من ذلك دخل البصرة وكان فيها غريبا فنظر الى قاص فى الجامع وهو يقول حدثنا الأعمش عن أبى اسحق وحدثنا الأعمش عن أبى وائل قال فتوسط الأعمش الحلقة ورفع يده وجعل ينتف شعر ابطه فبصر به القاص فقال ياشيخ ألا تستحى نحن فى علم وأنت تفعل هذا فقال له الأعمش الذى أنا فيه أفضل من الذى أنت فيه قال كيف قال لأنى فى سنة وأنت فى كذب أنا الأعمش وماحدثتك مما تقول شيأ فلما سمع الناس ذكر الأعمش انفضوا عن القاص واجتمعوا حوله وقالوا حدثنا يا أبا محمد وأخبرونا عن محمد بن أبى هرون ان اسحق حدثه قال صليت مع الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه صلاة العيد فاذا قاص يقص يلعن المبتدعة ويذكر السنة فلما قضينا الصلاة وصرنا ببعض الطريق ذكر أبو عبد الله القاص فقال ما أنفعهم للعامة وان كان عامتما يحدثون به كذبا وأخبرت عن محمد بن جعفر ان أبا الحرث حدثه انه سمع الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول أكذب الناس القصاص والسؤال وحدثونا عنه أيضا انه قال ما أحوج الناس الى قاص صدوق لانهم يذكرون الميزان وعذاب القبر قلت له أنت تحضر مجالسهم قال لا وروينا عن حبيب بن أبى ثابت عن زياد النميرى قال أتيت أنس بن مالك وهو بالزاوية فقال لى قص فقلت كيف والناس يزعمون انه بدعة فقال ليس شىء من ذكر الله تعالى بدعة قال فقصصت وجعلت أكثر قصصى ودعائى رجاء أن يؤمن قال فجعلت أقص وهو يؤمن وقد كانوا يجعلون الدعاء قصصا وحدث يوسف بن عطية عن محمد بن عبد الرحمن الخراز قال فقد الحسن عامر بن عبد الله العنبرى فقال اذهبوا بنا الى أبى عبد الله فأتاه الحسن فاذا عامر فى بيت قد لف رأسه وليس فى البيت الا رمل فقال له الحسن يا أبا عبد الله لم نرك منذ أيام فقال انى كنت أجلس هذه المجالس فاسمع تخليطا وتغليطا وانى كنت أسمع مشيختنا فيما يروون عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه كان يقول ان أصفى الناس ايمانا يوم القيامة أكثرهم

فكرة فى الدنيا وأكثر الناس ضحكا فى الجنة أكثرهم بكاء فى الدنيا وأشدالناس فرحافى الآخرة أطولهم حزنا فى الدنيا فوجدت البيت أخلى لقلبي وأقدر لى من نفسى على ما أريد منها قال الحسن اما أنه لم يعن مجالسنا هذه انما عنى مجالس القصاص فى الطرق الذين يخلطون و يغلطون و يقدمون ويؤخرون وقد قسم بعض العلماء المتكلمين ثلاثة أقسام فوصفهم باما كنهم فقال المتكلمون ثلاثة أصحاب الكراسى وهم القصاص وأصحاب الاساطين وهم المفتون وأصحاب الزوايا وهم أهل المعرفة فمجالس أهل العلم بالله تعالى وأهل التوحيد والمعرفة هى مجالس الذكر وهى التى جاءت فيها الآثار وفى الخبر اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها قيل ومارياض الجنة قال مجالس الذكر وفى الحديث ان لله تعالى ملائكة سياحين فى الهواء فضلا عن كتاب الخلق اذا رأوا مجالس الذكر ينادى بعضهم بعضا ألا هلموا الى بغيتكم فيأتوهم حتى يجلسوا اليهم فيحفون بهم و يستمعون منهم ألا فاذكروا الله واذكروا أيامه وقال وهب بن منبه اليمانى مجلس يتنازع فيه العلم أحب الى من قدره صلاة لعل أحدهم يسمع الكلمة فينتفع بها السنة أومابقى من عمره وسئل أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن مجالس الذكر وفضلها فرغب فيها وقال رحمه الله وأى شىء أحسن من أن يجتمع الناس فيذكرون الله عز وجل ويعددون نعمه عليهم كما قالت الأنصار وروينا عن على كرم الله وجهه مايسرنى أن الله تعالى أماتنى طفلا وأدخلنى الدرجات العلى من الجنة قيل ولم قال لأنه أحيانى حتى عرفته وقال مالك بن دينار خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا طيب شىء فيها قيل وما هو قال المعرفة ثم أنشأ يقول

ان عرفان ذى الجلال لعز وضياء وبهجة وسرور
وعلى العارفين أيضا بهاء وعليهم من المحبة نور
فهنيئا لمن عرفك الهى هو والله دهره مسرور

وقال يحيى بن معاذ الرازى فى الدنيا جنة من دخلها لم يشتق الى شىء ولم يستوحش قيل وماهى قال معرفة الله تعالى وقال آخر لم يخطئك من العارف احدى ثلاث خلال تدل عليه هيبة أو حلاوة أو أنس وقال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله خرج العلماء والزهاد والعباد وقلوبهم مقفلة ولم يفتح الاقلوب الصديقين والشهداء ثم تلا وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو يعنى مقفلة عن مفاتح المعرفة وشهادة عين التوحيد فمجالس الذكر هذه قديما كانت لأهل المعرفة وأصحاب معاملات القلوب وعلم الباطن وهم علماء الآخرة وأهل الفقه فى الدين وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين الآية فذكر الفقه الذى هو من صفة القلب والخوف الذى هو سبب الفقه وعلم العقل داخل فى علم الظاهر والعلم بالله داخل فى اليقين كما روى فى الخبر اليقين الايمان كله وقال الله تعالى ومايعقلها

الا العالمون فجعل العقل وصفا من العلم وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعليم اليقين كما أمر بطلب العلم فكان هذا الحديث مخصوصا من ذاك فيكون قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا اليقين للخصوص لان اليقين مقام فوق العلم ويكون قوله طلب العلم فريضة للعموم وفى قوله تعلموا اليقين أمر بمجالسة الموقنين لان اليقين لايظهر بذاته وانما يوجد عند الموقنين فقد أمرهم ولم يقل تعلموا علم المعقول ولاعلم الفتاوى وكان علماء الظاهر قديما يسمون المفتين ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم استفت قلبك وان أفتاك المفتون فرده الى فقه القلب وصرفه عن فتيا المفتين فلولا أن القلب فقيه لم يجز أن يدله صلى الله عليه وسلم على غير فقيه ولولا أن علم الباطن حاكم على علم الظاهر مادفعه من علوم أهل الظاهر وهم علماء الالسنة الى علم الباطن وهو علم أهل القلوب مارده اليه ولايجوز أن يرده من فقيه الى فقيه دونه كيف وقد جاء هذا الحديث بلفظة مؤكدة بالتكرير والمبالغة فقال استفت قلبك وان أفتوك وأفتوك وهذا مخصوص لمن كان له قلب وألقى سمعه وشهد قيام شاهده وعرى عن شهواته ومعهوده لان الفقه ليس من وصف اللسان ألم تسمع قوله تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها فمن كان له قلب سميع بسميع شهيد بشهيد فقه به الخطاب فاستجاب لما سمع وأناب وذكر فى قوله تعالى ليتفقهوا فى الدين وصفين ظهرا عن الفقه أحدهما النذارة وهو مقام فى الدعوة الى الله عز وجل ولا يكون النذير الامخوفا ولا يكون المخوف الاخائف والخائف عالم والثانى الحذر وهوحال من المعرفة بالله عز وجل وهو الخشية له والفقه والفهم اسمان لمعنى واحد والعرب تقول فقهت بمعنى فهمت وقد فضل الله تعالى الفهم عنه على العلم والحكمة ورفع الأفهام على انقضاء والأحكام فقال تعالى ففهمناها سليمان فأفرده بالفهم عنه وهو الذى فضله به على حكم أبيه فى القضية بعد أن أشركهما فى الحكم والعلم وقدفضل الحسن بن على رضى الله عنهما علماء الهداية الى الله سبحانه وتعالى الدالين عليه عز وجل وسماهم العلماء وحققهم بالعلم فى كلام روى لنا عنه منظوما وقد رويناه عن على كرم الله وجهه ورضى عنه

ما الفخر الا لاهل العلم انهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
ووزن كل امرىء ماكان يحسنه ... والجاهلون لاهل العلم أعداء

فمن كان عالما يعلم معلومه الله سبحانه وتعالى فمن أفضل منه وأى قيمة تعرف له اذ كل علم قيمته معلومه ووزن كل عالم علمه وقدقال عبد الواحد بن زيد امام الزاهدين كلاما فى هذا المعنى ويفرد به العلماء بالله تعالى ويرفع طريقهم فوق كل طريق أنشدونا عنه رحمه الله تعالى

الطرق شتى وطرق الحق مفردة ... والسالكون طريق الحق أفراد

لايعرفون ولاتسلك مقاصدهم فهم على مهل يمشون قصاد
والناس فى غفلة عما يراد بهم فجلهم عن سبيل الحق رقاد

وروينا عن ابن مسعود رضى الله عنه انه قال لما مات عمر رضى الله عنه انى لاحسب هذا الرجل قد ذهب بتسعة أعشار العلم فقيل له تقول هذا وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون فقال انى لست أعنى العلم الذى تذهبون اليه انما اعنى العلم بالله عز وجل وكان ابن مسعود يقول المتقون متوارون وكذلك كان يقول المتقون سادة والعلماء قادة ومجالستهم زيادة يعنى ان المتقين سادة الناس كما قال الله عز وجل ان أكرمكم عند الله أتقاكم والعلماء قادة المتقين أى أئمتهم يقتفون آثارهم لانه قال تعالى واجعلنا للمتقين اماما ففضل العلماء على المتقين وجعلهم أئمة لهم فصار المتقون أصحابهم وأخبر بالمزيد فى مجالستهم أى مجالستهم زيادة على مجالسة المتقين غير العلماء لان كل عالم تقى وليس كل تقى عالم كما روى بمعناه العلماء كثير والحكماء من العلماء قليل والصالحون كثير والصادقون من الصالحين قليل وسئل ابن المبارك من الناس قال العلماء قيل فمن الملوك قال الزهاد قيل فمن السفلة قال من يأكل بدينه وقال مرة فى رواية الذين يتلبسون ويطلبون ويتعرضون للشهادات وقال فرقد السنجى للحسن رحمهما الله تعالى فى شىء سأله عنه فأجابه يا أبا سعيد ان الفقهاء يخالفونك فقال ثكلتك أمك فريقد وهل رأيت بعينيك فقهاء انما الفقيه الزاهد فى الدنيا الراغب فى الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكاف عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم جمعنا قوله هذا فى ثلاث روايات عنه مختلفة فهذه صفات العالم بالله تعالى وهم العارفون وحدثنا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال قلت لابى بلغنا انك كنت تختلف الى معروف أكان عنده حديث فقال يابنى كان عنده رأس الأمر تقوى الله عز وجل وقيل للامام أحمد رضى الله عنه بأى شىء ذكر هؤلاء الأئمة ووصفوا فقال ما هو الا الصدق الذى كان فيهم قيل له وما الصدق قال هو الاخلاص قيل له فالاخلاص ما هو قال الزهد قيل وما الزهد فأطرق ثم قال سلوا الزهاد سلوا بشر بن الحرث وقد حدثت عن بشر فى منصور بن عمار رحمهما الله حكايات ظريفة كان منصور بن عمار من الواعظين المذكرين ولم يكن العلماء فى وقته مثل بشر وأحمد وأبى ثور يعدونه عالما كان عندهم من القصاص وكانت العامة تسميه عالما فحدثت عن نصر بن على الجهضمى أنه مزح يوم مزاحا أفرط فيه فقيل له تقول هذا وأنت من العلماء فقال ما رأيت أحدا من العلماء الا وهو يمزح فقيل له قد رأيت بشر بن الحرث فهل سمعته يمزح قال نعم كنت جالسا معه ذات يوم فى بعض الدروب فجاء منصور بن عمار يعدو فقال يا أبا نصر الامير قد أمر بجمع العلماء والصالحين فترى لى أن أختفى فدفعه بشر وقال تنح عنا لايمر حمل شوك فياقيك

علينا فنحترق فهذا كان محل القصاص عند العلماء فيما سلف حتى ذهب أهل هذا العلم وجهلت مجالس الذكر وعلوم اليقين والمعاملات الا من عرف سيرة المتقدمين وطريقة السالفين الذين كانوا يفرقون بين مجالس الذكر و بين القصاص و يميزون بين العلماء وبين المتكلمين و بين علم اللسان وفقه القلب و بين علم اليقين وعلم العقل لان الفرق بين العالم والقاص ان العالم يسكت حتى يسئل فاذا سئل أجاب فيما يعلم بما هيأ الله تعالى له وكشف و ينطق فيما أجراه الله عز وجل عليه وعرف فان كان الصمت أفضل آثر السكوت لعلمه بالافضل فان لم ير أهله تربص حتى يضعه فى أهله وأهله من عرفه وكان له نصيب من مشاهدته و وجده وقال الله سبحانه وتعالى فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ففى ذلك معنيان أحدهما ان أهل الذكر هم العلماء بالله تعالى لقوله ان كنتم لا تعلمون فلا يجوز أن يقول سلوا من لا يعلم وهم جاهلون فيزدادوا جهلا والمعنى الثانى يدل على أن العلماء سكوت حتى يسالوا فاذا سئلوا وجب عليهم أن يجيبوا لقوله تعالى لمن لا يعلم فاسئلوا فدل أن مجالس الذكر هى مجالس العلماء التى وردت الأخبار بفضائلها وفى تدبره أن أهل الذكر هؤلاء المسؤلون هم الذين وصل لهم القول لعلهم يتذكرون فلما وصل لهم المفصل تذكروا عما وعد تعالى فلما تذكروا علموا فعندها أمر أن يسألوا ولذلك روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغى للجاهل أن يستقر على جهله ولا ينبغى للعالم أن يسكت على علمه وقد قال الله تعالى فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخبر الذى رويناه من طريق أهل البيت العلم خزائن مفتاحها السؤال فاسألوا فانه يؤجر فيه أربعة السائل والعالم والمستمع والمحب لهم وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول ان من يفتى الناس فى كل ما يستفتونه لمجنون وقال الأعمش من الكلام كلام جوابه السكوت وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى حسن سؤال الصادقين مفتاح قلوب العارفين فاما القاص فهو الذى يبتدىء فيقص الأخبار ويذكر القصص والآثار ولذلك سمى قاصا أى يتبع قصة من سلف ومنه قوله تعالى وقالت لأخته قصيه أى تتبعى أثر موسى تعرفى قصته وأخبرينى خبره وقال مالك بن أنس رحمه الله تعالى من اذالة العلم أن ينطق به قبل أن يسأل عنه وقال مرة من اذالة العلم أن يجيب عن كل ما يسأل عنه أى من اهانته و وضعه يقال أشل هذا وأذل هذا أى ارفع وضع يقال اذا تكلم بالعلم قبل أن يسأل عنه ذهب ثلثا نوره وقد قال ابراهيم بن أدهم وغيره سكوت العالم أشد على الشياطين من كلامه لانه يسكت بحلم و ينطق بعلم فيقول الشيطان انظروا الى هذا سكوته أشد على من كلامه ولذلك يقال الصمت زين العالم وستر الجاهل وعن القاسم بن محمد أنه قال من اكرام المرء نفسه أن يسكت على ما عنده حتى يسأل عنه وكذلك هو لعمرى لانه اذا تكلم بعد السؤال فهو صاحبها وربما كان فرضا

وليس الحاجة الا القيام بالفرض من الشهوات ولقوله تعالى فاسئلوا أهل الذكر فأوجب أن يجيبوا من حيث أمر أن يسألوا وقال صلى الله عليه وسلم من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار فتوعد عليه العقاب وقد يكون الابتداء بالشيء من خفايا الشهوات والشهوات من الدنيا وصف رجل لمالك ابن أنس فقال لا بأس به لولا أنه يتكلم بالشيء قبل أن يسأل عنه وقال مرة لا بأس به الا أنه يتكلم بكلام شهر فى يوم وقد قيل فى معنى ماذكر أن الكلام من الشهوات قال هو الذى يبتدىء به قبل أن يسأل عنه و وصف بعضهم الابدال فقال فى وصفهم أكلهم فاقة وكلامهم ضرورة وكانوا لا يتكلمون حتى يسألوا عن شيء فيجيبوا ومن لم يتكلم حتى يسأل فليس يعــد لاغيا ولا متكلما فيما لا يعنيه لان الجواب بعد السؤال كالفرض بمنزلة رد السلام وكما قال ابن عباس رضى الله عنهما انى لأرى رد الجواب واجبا كرد السلام وقد قال أبو موسى وابن مسعود رضى الله عنهما من سئل عن علم فليقل به ومن لا فليسكت والا كتب من المتكلفين ومرق من الدين ورويناه عن ابن عباس أيضا وقد كانوا يخافون من دخول التكلف عليهم فى كل شيء و يعد بعضهم الابتداء بالكلام من غير حاجة تدعو اليه أو قبل سؤال عنه من غير أن يرى له موضعا أو يجد له أهلا يعدونه من التكلف وفى وصية ابن عباس لمجاهد لا تتكلم فيما لا يعنيك فانه أفضل ولا آمن عليك الخطأ ولا تتكلم فيما يعنيك حتى ترى له موضعا فرب متكلم فيما يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فعنت وروى فى حديث الانصارى الذى قالت له أمه عند موته هنيأ لك الجنة جاهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت فى سبيل الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريك أنه فى الجنة ولعله كان يتكلم فيما لا يعنيه و يبخل بما لا يغنيه ومن أظهر علما من غير أن يسأل عنه ونشره فى غير أهله فأنكر عليه سئل عنه وكان عليه فيه مطالبة لأنه قد تكلف اظهاره فان كان سئل عنه ثم تكلم فيه لم يكن عليه فيه مطالبة فيمن أنكر لأنه خرج جوابا على سؤال ومن هذا كان السلف المتكلمون فى هذا العلم يسكتون حتى يسألوا عنه وكان أبو محمد يقول العالم بقصد فيسكت ويرفع قلبه الى مولاه فيفتقر اليه فى حسن توفيقه ويسأله أن يلهمه الصواب فأى شيء سئل عنه تكلم بما فتح له مولاه فجعل العالم فى حالة سكوته ونظره الى سيده محتاجا الى التوكل ومنتظرا للوكيل فى أى شيء يجريه وقال بعضهم انما العالم الذى اذا سئل عن المسئلة كانما تقلع ضرسه وقال رقبة بن مصقلة وغيره ليس العالم الذى يجمع الناس فيقص عليهم انما العالم الذى اذا سئل عن العلم كأنما يسعط الخردل وقد روينا أنه قاله الأعمش وقد كان محمد بن سوقة يسأله عن الحديث فيعرض عنه ولا يجيبه فالتفت الأعمش الى رقبة فقال له هو اذا أحمق مثلك ان كان يدع فائدته لسوء خلقى فقال محمد بن سوقة ويحك انما أجعله بمنزلة الدواء أصبر على مرارته لما أرجو من

منفعته وقد روينا عن علي وابن مسعود رضى الله عنهما أنه مر برجل يتكلم على الناس فقال هذا يقول اعرفونى وحدثنى بعض علماء خراسان عن شيخ له عن أبي حفص النيسابورى الكبير وكان هذا هناك نظير الجنيد ههنا أنه قال انما العالم الذى يسأل عن مسئلة فى الدين فيغتم حتى لو جرح لم يخرج منه دم من الفزع يخاف أن يسئل فى الآخرة عما سئل عنه فى الدنيا ويفزع أن لا يتخلص من السؤال الا أن يرى أنه قد افترض عليه الجواب لفقد العلماء ومن ههنا كان ابن عمر رضى الله عنهما يسكت عن تسع مسائل ويجيب عن واحدة ويقول تريدون أن تجعلونا جسرا تعبرون عليه فى جهنم تقولون أفتانا ابن عمر بهذا وكان ابراهيم التيمى اذا سئل عن مسئلة يبكى ويقول لم تجد من تسأله غيرى أو احتجتم الى قال وجهدنا بابراهيم النخعى أن نسنده الى سارية فابى وكان اذا سئل عن شيء بكى وقال قد احتاج الناس الى وقد كان سفيان بن عيينة تفرد فى زمانه بعلوم انفرد بها فى وقته وكان مع ذلك يضرب المثل لنفسه ويقول

خلت الديار فسدت غير مسود ومن الشقاء تفردى بالسودد

وأما أبو العالية الرياحى فكان يتكلم على الاثنين والثلاثة فاذا صاروا أربعة قام وكذلك كان ابراهيم والثورى وابن أدهم رحمهم الله تعالى يتكلمون على النفر فاذا كثر الناس انصرفوا وكان أبو محمد سهل رحمه الله يجلس اليه خمسة أو ستة الى العشرة وقال لى بعض الشيوخ كان الجنيد رحمه الله يتكلم على بضع عشرة قال وما تم أهل الجلسة عشرون وقد حدثت عن أبي الحسن بن سالم شيخنا رحمه الله ان قوما اجتمعوا فى مسجده فارسلوا اليه بعضهم ان اخوانك قد حضروا ويحبون لقاءك والسماع منك فان رأيت أن تخرج اليهم فذاك وكان المسجد على باب بيته ولم يكن يدخل عليه فى منزله فقال للرسول بعد أن خرج اليهم من هم فقال فلان وفلان وسماهم فقال ليس هؤلاء من أصحابى هؤلاء أصحاب المجلس ولم يخرج كأنه رآهم عموما لا يصلحون لتخصيص علمه فلم يذهب وقته لوقتهم وكذلك العالم خلوته تعز عليه فان وافق خصوص أصحاب آثرهم على خلوته فكان ذلك مزيدا لهم وان هو لم يوافق لم يؤثر على خلواته غيره فيكون مناخا للبطالين وقد كان ابن سالم أبو الحسن يخرج الى اخوانه ممن يراه موضعا لعلمه فيجلس اليهم ويذاكرهم وربما أدخلهم اليه نهارا أو ليلا ولعمرى ان المذاكرة تكون بين النظراء والمحادثة تكون مع الاخوان والجلوس للعلم يكون للاصحاب والجواب عن السؤال نصيب العموم وكان عند أهل هذا العلم ان علمهم مخصوص لا يصلح الا للخصوص والخصوص قليل ولم يكونوا ينطقون به الا عند أهله ويرون ان ذلك من حقه وأنه واجب عليهم كما وصفهم على كرم الله وجهه فى قوله حتى يودعوه أمثالهم ويزرعوه فى قلوب أشكالهم وكذلك جاءت الآثار

بذلك عن نبينا صلى الله عليه وسلم وعن عيسى عليه السلام لاتضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم كونوا كالطبيب الرفيق الذى يضع الدواء فى موضع الداء وفى لفظ آخر من وضع الحكمة فى غير أهلها جهل ومن منعها أهلها ظلم ان للحكمة حقا وان لها أهلا وان لأهلها حقا فاعط كل ذى حق حقه وفى حديث عيسى صلاة الله وسلامه عليه لاتعلقوا الجوهر فى أعناق الخنازير فان الحكمة خير من الجوهر ومن كرهها فهو شر من الخنزير وكان بعض هذه الطائفة يقول نصف هذا العلم سكوت ونصفه تدرى أين تضعه وقد قال بعض العارفين من كلم الناس بمبلغ علمه وبمقدار عقله ولم يخاطبهم بقدر حدودهم فقد بخسهم حقهم ولم يقم بحق الله عز وجل فيهم وكان يحيي ابن معاذ يقول اغرف لكل واحد من نهره واسقه بكأسه ونحن نقول بمعناه كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان علمه حتى تسلم منه وينتفع بك والاوقع الانكار لتفاوت المعيار وحدثنى بعض أشياخنا من هذه الطائفة عن أبى عمران وهو المزين الكبير المكى قال سمعته يقول لأبى بكر الكتانى وكان سمحا بهذا العلم بذولا له لجميع الفقراء فجعل أبو عمران يعاتبه وينهاه عن بذله له وكثرة كلامه فيه الى أن قال أنا منذ عشرين سنة أسأل الله تعالى أن ينسينى هذا العلم قال ولم قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فسمعته يقول ان لكل شىء عند الله تعالى حرمة ومن أعظم الأشياء حرمة الحكمة فمن وضعها فى غير أهلها طالبه الله تعالى بحقها ومن طالبه خصمه وقد كان بعض السلف يقول اذا استند الرجل الى سارية أو أحب ان يسأل فلاتجلس اليه ولاينبغى أن يسأل ولم ير فى مجالس أهل هذا العلم فيما سلف ثلاثون رجلا ولا عشرون الا نادرا غير لزام ولا دوام انما كانوا من الاربعة الى العشرة وبضعة عشرة وقد كان يجتمع فى مجلس القصاص والمذكرين والواعظين مئون من عهد الحسن الى وقتنا هذا فهذا أيضا من الفرق بينهما ان العلم مخصوص لقليل وان القصص عام لكثير وقال بعض علمائنا كان فى البصرة مائة وعشرون متكلما فى الذكر والوعظ ولم يكن من يتكلم فى علم المعرفة واليقين والمقامات والاحوال الا ستة منهم أبو محمد سهل والصبيحى وعبد الرحيم وقد قيل من لم ينتفع بسكوت العالم لم ينتفع بكلامه أى ينبغى ان يتأدب بصمته وخشوعه وورعه ويقتدى بيقينه فى ذلك كما يتأدب بنطقه ويقتدى بكلامه على انهم كانوا يقولون علم الظاهر من علم الملك وعلم الباطن من علم الملكوت يعنون ان ذلك من علم الدنيا لانه يحتاج اليه فى أمور الدنيا وهذا من علم الآخرة لانه من زادها وهذا كما قالوه لان اللسان ظاهر فهو من الملك وهو خزانة علم الظاهر والقلب خزانة الملكوت وهو باب العلم الباطن فقد صار فضل العلم الباطن على الظاهر كفضل الملكوت على الملك وهو الملك الباطن الخفى وكفضل القلب على اللسان وهو الظاهر الجلى وقد كان بشر بن الحرث رحمه الله يقول حدثنا

وأخبرنا باب من أبواب الدنيا وقال مرة الحديث ليس من زاد الآخرة وحدثنا بعض أشياخنا عن بعض أصحابه قال دفناله بضعة عشر مابين قمطر وقوصرة كتبا لم يحدث منها بشيء الا ماسمع منه نادرا في الفردوس وكان رحمه الله تعالى يقول اني أشتهي أن أحدث ولو ذهب عني شهوة الحديث لحدثت ثم قال أنا أجاهد نفسي منذ أربعين سنة وقال اذا سمعت الرجل يقول حدثنا وأخبرنا فانما يقول أوسعوا لي وكان زاهدا عالما وقال هو وغيره اذا اشتهيت أن تحدث فلا تحدث واذا لم تشته ان تحدث فحدث وقد كانت رابعة العدوية رحمها الله تعالى قبله تقول للثوري رضي الله عنه نعم الرجل سفيان لولا أنه يحب الحديث وكانت تقول لفتنة الحديث أشد من فتنة المال والولد وقالت مرة لولا انه يحب الدنيا يعني اجتماع الناس حوله للحديث وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول من تزوج أو كتب الحديث أو طلب معاشا فقد ركن الى الدنيا وقال بعض هذه الطائفة كل من أدرك العلوم غير العلم بالله عز وجل فقد استدرك والذي أدرك العلم بالله فقد تدورك ثم تلا قوله تعالى لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء أي تدورك بعلم المعرفة لطرح في بعد الهوى والعراء البعد وعلم المعقول بعد الى جنب علم اليقين وقال أيضا في فهم قوله تعالى ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم أي ثبتناك بالمعرفة لقد كدت تسكن الى علوم العقل وقال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى في قوله عز وجل واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا قال لسانا ينطق عنك لا عن سواك وفضل العلم بالله عز وجل والعلم بالايمان وعلم اليقين على العلم بالاحكام والقضايا كفضل المشاهدة على الخبر وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم ليس الخبر كالمعاينة وفي لفظ آخر ليس المخبر كالمعاين وقد روى عياض بن غنم عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير قوله عز وجل ألهاكم التكاثر علم اليقين كرأى العين وفي هذا الخبر ان من خيار أمتي قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويبكون سرا من خوف عذابه أقدامهم في الارض وقلوبهم في السماء أرواحهم في الدنيا وعقولهم في الآخرة يمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة فالفتيا هي الاخبار والاستفتاء هو الاستخبار ومنه قوله تعالى فاستفتهم وقوله تعالى ويستفتونك أي يستخبرونك فعلم الخبر قد يدخله الظن والشك والمشاهدة ترفع الظن وتزيل الشك كما قال تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى فاثبت الرؤية للقلب بالعين فرؤية القلب هو اليقين وذو القلب هو الموقن وقال النبي صلى الله عليه وسلم كفى باليقين غنى ففي علم اليقين غنية عن جميع العلوم لانه حقيقة العلم وخالصه وليس في جميع العلوم غنى عن علم اليقين ولان الفقر بالشك والحاجة الى اليقين في علم التوحيد وعلم الايمان أشد من الفقر بالحاجة الى علوم الفتيا وغيرها فلذلك صار الغنى باليقين أعظم من الاستغناء بسائر العلوم ففي هذا العلم مثل من فاتحة الكتاب الى سائر القرآن كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب تجزى من كل القرآن وليس القرآن كله يجزى

من فاتحة الكتاب فكذلك مثل العلم بالله عز وجل الى العلم بما سواه ففى العلم بالله تعالى عوض من كل العلوم وليس فى سائر العلوم عوض من العلم بالله عز وجل من حيث كان فى الله تعالى عوض به عن كل ما سواه وكل علم موقوف على معلومه فعلم اليقين معلومه الله تعالى ففضله كفضل الله تعالى على ما سواه وقد قال بعض الحكماء فى معنى ما ذكرناه من عرف الله تعالى فماذا جهل ومن جهل الله تعالى فماذا عرف فالعلماء بالله تعالى هم ورثة الانبياء لانهم ورثوا عنهم الدلالة على الله تعالى والدعوة اليه والاقتداء بهم فى أعمال القلوب وقد قال الله تعالى ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وكما قال تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة وكما أمره بالدعاء وأشرك معه اتباعه فى الدعاء الى الله تعالى لا فى البصيرة فقال تعالى قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ويحشرون يوم القيامة مع الانبياء كما قال تعالى فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين وكما قال تعالى وجىء بالنبيين والشهداء ثم فسره فقال بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء وقد روينا معناه عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم وأهل الجهاد أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الأنبياء وأما أهل الجهاد فجاهدوا باسيافهم على ما جاءت به الرسل وعلماء الدنيا يحشرون مع الولاة والسلاطين وقد قال بعض السلف العلماء يحشرون فى زمرة الانبياء والقضاة يحشرون فى زمرة السلاطين وكان اسمعيل بن اسحاق القاضى من علماء أهل الدنيا ومن سادة القضاة وعقلائهم وكان مؤاخيا لابى الحسن بن أبى الورد وكان هذا من أهل المعرفة فلما ولى اسمعيل القضاء هجره ابن أبى الورد ثم انه اضطر الى ان دخل عليه فى شهادة فضرب ابن أبى الورد يده على كتف اسمعيل القاضى وقال يا اسمعيل علم أجلسك هذا المجلس لقد كان الجهل خيرا منه فوضع اسمعيل رداءه على وجهه وجعل يبكى حتى بله وعلماء الظاهر هم زينة الارض والملك وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت وعلماء الظاهر أهل الخبر واللسان وعلماء الباطن أرباب القلوب والعيان وقال بعض العلماء لما خلق الله تعالى اللسان قال هذا معقل خبرى ان صدقنى نجيته ولما خلق الله تعالى القلب قال هذا موضع نظرى ان صفالى صافيته وقال بعض الخلف الجاهل ينجو بالعلم والعالم ينجو بالحجة والعارف ينجو بالجاه وقال بعض العارفين علم الظاهر حكم وعلم الباطن حاكم والحكم موقوف حتى يجىء الحاكم يحكم فيه وقد كان علماء الظاهر اذا أشكل عليهم العلم فى مسئلة لاختلاف الادلة سألوا أهل العلم بالله لانهم أقرب الى التوفيق عندهم وأبعد من الهوى والمعصية منهم الشافعى رحمه الله تعالى كان اذا اشتبهت عليه المسئلة لاختلاف أقوال العلماء فيها وتكافؤ الاستدلال عليها رجع الى العلماء أهل المعرفة فسألهم قال وكان يجلس بين يدى شيبان الراعى كما يجلس الصبي بين يدى المكتب ويسأله

كيف يفعل فى كذا وكيف يصنع فى كذا فيقال له مثلك يا أبا عبد الله فى علمك وفقهك تسأل هذا البدوى فيقول ان هذا وفق لما علمناه وكان الشافعى رحمه الله قد اعتل علة شديدة وكان يقول اللهم ان كان فى هذا رضاك فزدنى منه فكتب اليه المعافرى من سواد مصر ياأبا عبد الله لست واياك من رجال البلاء فنسأل الرضا الاولى بنا أن نسأل الرفق والعافية فرجع الشافعى رحمه الله عن قوله هذا وقال أستغفر الله تعالى وأتوب اليه فكان بعد ذلك رحمه الله يقول اللهم اجعل خيرتى فيما أحب وقد كان أحمد بن حنبل ويحيى بن معين رضى الله عنهما يختلفان الى معروف بن فيروز الكرخى رحمهم الله ولم يكن يحسن من العلم والسنن ما يحسنانه فكانا يسألانه وقد روى فى الخبر قيل يا رسول الله كيف نصنع اذا جاءنا أمر لم نجده فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سلوا الصالحين واجعلوه شورى بينهم ولا تقضوا فيه أمرا دونهم وفى حديث معاذ رضى الله عنه فان جاءك ما ليس فى كتاب الله تعالى ولا سنة رسول الله قال أقضى فيه بما قضى الصالحون فقال الحمد لله الذى وفق رسول رسوله وفى بعضها أجتهد رأيى وحدثونا عن الجنيد قال كنت اذا قمت من عند سرى السقطى قال لى اذا فارقتنى من تجالس فقلت الحارث المحاسبى فقال نعم خذ من علمه وأدبه ودع عنك تشقيقه للكلام ورده على المتكلمين قال فلما وليت سمعته يقول جعلك الله صاحب حديث صوفيا ولاجعلك صوفيا صاحب حديث يعنى انك اذا ابتدأت بعلم الحديث والاثر ومعرفة الاصول والسنن ثم تزهدت وتعبدت تقدمت فى علم الصوفية وكنت صوفيا عارفا واذا ابتدأت بالتعبد والتقوى والحال شغلت به عن العلم والسنن فخرجت اما شاطحا أوغالطا لجهلك بالأصول والسنن فاحسن أحوالك ان ترجع الى العلم الظاهر وكتب الحديث لانه هو الأصل الذى تفرع عليه العبادة والعلم وأنت قد بودئت بالفرع قبل الاصل وقد قيل انما حرموا الوصول بتضييع الاصول هو كتب الحديث ومعرفة الآثار والسنن فاذا أنت رددت الى الاصل فقد انحططت عن مرتبة الناقدين ونزلت من درجة العارفين وفاتك مزيد اليقين والايمان وقال سفيان الثورى رضى الله عنه كان الناس اذا طلبوا العلم عملوا فاذا عملوا أخلصوا فاذا أخلصوا هربوا وقال آخر العالم اذا هرب من الناس فاطلبه واذا طلب الناس فاهرب منه وقال أبو محمد سهل العلم يهتف بالعمل فان أجابه والا ارتحل وكان ذوالنون يقول اجلس الى من تكلمك صفته ولاتجلس الى من يكلمك لسانه وقد كان الحسن قبله يقول جالس من تكلمك أعماله ولاتجالس من يخاطبك مقاله وقد كان طائفة يصحبون كثيرا من أهل المعرفة للتأدب بهم والنظر الى هديهم واخلاقهم ان لم يكونوا علماء لأن التأديب يكون بالافعال والتعلم يكون بالمقال ومن أبلغ ما سمعت منهم فى هذا المعنى ما قال بعض الحكماء وعظ واحد لألف بفعل انجح فيهم وأوقع من وعظ ألف لواحد بقول وكان سهل

يقول العلم كله دنيا والآخرة منه العمل به والعمل هباء الا الاخلاص وقال مرة الناس موتى الا العلماء والعلماء سكارى الا العاملين والعاملون مغرورون الا المخلصين والمخلص على وجل حتى يختم له به ولم يكن العالم عند العلماء من كان عالما بعلم غيره ولا حافظا لفقه سواه هذا كان اسمه راوية وواعيا وحاملا وناقلا وقد كان أبو حازم الزاهد يقول ذهب العلماء وبقيت علوم فى أوعية سود وقد كان الزهرى يقول كان فلان وعاء للعلم وحدثنى فلان وكان من أوعية العلم ولا يقول كان عالما وكذلك جاء الخبر رب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه وكانوا يقولون حماد الراوية يعنون انه كان راويا ودخول الهاء فى الاسم للمبالغة فى الوصف كما يقال علامة ونسابة وانما كان العالم عندهم الغنى بعلمه لا بعلم غيره وكان الفقيه فيهم هو الفقيه بفقه علمه وقلبه لا بحديث سواه كما جاء فى الأثر أى الناس أغنى قال العالم الغنى بعلمه ان احتيج اليه نفع والا اكتفى عن الناس بعلمه لأن كل عالم بعلم غيره فانما صار عالما بمجموعه فمجموعه هم العلماء وكل فاضل بوصف سواه فموصوفه هم الفضلاء فاذا تركهم وانفرد سكت فلم يرجع الى علم لنفسه يختص به فصار فى الحقيقة موصوفا بالجهل واصفا لطرائق أهل الفضل موسوما بعلم السمع والنقل فمثل العالم بعلم غيره مثل الواصف لأحوال الصالحين العارف بمقامات الصديقين ولا حال له ولا مقام فليس يعود عليه من وصفه الا الحجة بالعلم والكلام وسبق العارفون بالله فى الحجة بالأعمال والمقام فمثله كما قال الله تعالى ولكم الويل مما تصفون وكقوله عزوجل كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا لا يرجع الى بصيرة فيه بما اشتبه من ظلمات الشبه عليه مما اختلف العلماء فيه ولا يتحقق بوجد منه فيه يجده عن حال ألبسها بوجده وانما هو متواجد بوجد غيره فغيره هو الواجد وشاهد على شهادة سواه فالسوى هو الشاهد وقد كان الحسن يقول ان الله تبارك وتعالى لا يعبأ بصاحب رواية انما يعبأ بذى فهم ودراية وقال أيضا من لم يكن له عقل يسوسه لم تنفعه كثرة مروياته للحديث وقد أنشدنا لبعض الحكماء فى معنى ذلك

رأيت العلم علمين ... فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مسموع ... اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

وكان الجنيد رحمه الله كثيرا ينشد

علم التصوف علم ليس يعرفه ... إلا أخو فطنة بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده ... وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

لان الكتب والمجموعات محدثة والقول بمقالات الناس والفتيا بمذهب الواحد من الناس وانتحاء

قوله والحكاية له في كل شيء والتفقه على مذهبه محدث لم يكن الناس قديما على ذلك في القرن الأول والثاني وهذه المصنفات من الكتب حادثة بعد سنة عشرين ومائة من التاريخ وبعد وفاة كل الصحابة وعلية التابعين يقال ان أول كتاب صنف في الاسلام كتاب ابن جريج في الآثار وحروف من التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس بمكة ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني باليمن جمع فيه سننا منثورة مبوبة ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك ابن أنس رضي الله عنه في الفقه ثم جمع ابن عيينة كتاب الجوامع في السنن والابواب وكتاب التفسير في أحرف من علم القرآن وجامع سفيان الثوري الكبير رضي الله عنه في الفقه والأحاديث فهذه من أول ما صنف ووضع من الكتب بعد وفاة سعيد بن المسيب وخيار التابعين وبعد سنة عشرين أو أكثر ومائة من التاريخ فكان العلماء الذين هم أئمة هؤلاء العلماء من طبقات الصحابة الاربعة ومن بعد موت الطبقة الأولى من خيار التابعين هم الذين انقرضوا قبل تصنيف الكتب وكانوا يكرهون كتب الحديث ووضع الناس الكتب لئلا يشتغل بها عن القرآن وعن الذكر والفكر وقالوا احفظوا كما حفظنا ولئلا يشتغل الناس عن الله تعالى برسم ولا وسم كما كره أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعلية الصحابة تصحيف القرآن في مصحف وقالوا كيف نفعل شيأ لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وخشوا اشتغال الناس بالصحف واتكالهم على المصاحف فقالوا نترك القرآن يتلقاه الناس بعضهم من بعض تلقنا بالتلقين والاقراء ليكون هو شغلهم وهمتهم وذكرهم حتى أشار عليه عمر رضي الله عنه وبقية الصحابة أن يجمع القرآن في المصاحف لأنه أحفظ له وليرجع الناس الى المصحف لما لا يؤمن من الاشتغال بأسباب الدنيا عنه فشرح الله تعالى صدر أبي بكر رضي الله عنه لذلك فجمع القرآن في الصحف المتفرقة في المصحف الواحد وكذلك كانوا يتلقون العلم بعضهم عن بعض ويحفظونه حفظا هذا لطهارة القلوب من الريب وفراغها من أسباب الدنيا وصفائها من الهوى وعلو الهمة وقوة العزيمة وحسن النية ثم ظهرت بعد سنة مائتين وبعد تقضي ثلاثة قرون في القرن الرابع المرفوض مصنفات الكلام وكتب المتكلمين بالرأي والمعقول والقياس وذهب علم المتقين وغابت معرفة الموقنين من علم التقوى والهام الرشد واليقين فخلف من بعدهم خلف فلم نزل في الخلوف الى هذا الوقت ثم اختلط الأمر بعد هذا التفصيل في زماننا هذا فصار المتكلمون يدعون علماء والقصاص يسمون عارفين والرواة والنقلة يقال علماء من غير فقه في دين ولا بصيرة في يقين وروينا عن ابن أبي عبلة قال كنا نجلس الى عطاء الخراساني بعد الصبح فيتكلم علينا فاحتبس ذات غداة فتكلم رجل من المؤذنين لابأس به بمثل ما كان يتكلم به عطاء فأنكر صوته رجاء ابن أبي حيوة فقال من هذا المتكلم فقال أنا فلان فقال اسكت فانه يكره أن يسمع العلم الا من أهله

وكذلك كانوا يقولون أبى أهل العلم بالله تعالى أن يسمعوا هذا العلم الا من أهله الزاهدين فى الدنيا وكرهوا أن يسمعوه من أبناء الدنيا وزعموا انه لايليق بهم واعلم أن العبد اذا كان يذكر الله تعالى بالمعرفة وعلم اليقين لم يسعه تقليد أحد من العلماء وكذلك كان المتقدمون اذا افتتحوا هذا المقام خالفوا من حملوا عنه العلم لمزيد اليقين والافهام وقال ابن عباس رضى الله عنهما ليس أحد الا يؤخذ من قوله و يترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه وقرأ على أبى بن كعب ثم خالف زيدا فى الفقه وأبيا فى القراءة وقال بعض الفقهاء من السلف ماجاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه على الرأس والعين وما جاءنا عن الصحابة فنأخذ به و نترك وماجاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال قالوا ونقول ولأجل ذلك كان الفقهاء يكرهون التقليد ويقولون لاينبغى للرجل أن يفتى حتى يعرف اختلاف الفقهاء أى فيختار منها على عمله الأحوط للدين والأقوى باليقين فلو كانوا يستحبون أن يفتى العالم بمذهب غيره لم يحتج أن يعرف الاختلاف ولكان اذا عرف مذهب صاحبه كفاه ومن ثم قيل ان العبد يسأل غدا فيقال ماذا عملت فيما علمت ولا يقال له فيما علم غيرك وقد قال الله تعالى وقال الذين أوتوا العلم والايمان ففرق بينهما بما يدل به ان من أوتى ايمانا ويقينا أوتى علما كما ان من أوتى علما نافعا أوتى ايمانا وهذا أحد الوجوه فى معنى قوله سبحانه كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه أى قواهم بعلم الايمان فعلم الايمان هو روحه وتكون الهاء عائدة الى الايمان وكذا العالم الذى هو من أهل الاستنباط والاستدلال من الكتاب والسنة فانه اداة الصنعة وآلة الصنع لانه ذو تمييز و بصيرة ومن أهل التدبر والعبرة فأما الجاهل والعامى الغافل فله أن يقلد العلماء ولعالم عموم أيضا أن يقلد عالم خصوص وللعالم بالعلم الظاهر ان يقلد من فوقه ممن جعل على علم باطن من أهل القلوب لأن النبى صلى الله عليه وسلم رد من علم الألسنة والفتيا الى علم القلوب ولم يرد أهل القلوب فى علمهم الذين يختصون به الى المفتين لانهم يأخذون من المفتين فتياهم ثم يجدون فى قلوبهم حيكا وحزازة فيلزمهم فتيا القلب لقوله استفت قلبك بعد قوله وان أفتاك المفتون مع قوله الاثم حزاز القلوب الى قوله ما حاك فى صدرك فدعه وان أفتوك وأفتوك ثم درس معرفة هذا لجهل فصار كل من نطق بكلام وصنعه غرب على السامعين لا يعرف حقه من باطله سمى عالما وكل كلام مستحسن زخرف رونقه لا أصل له يسمى عالما لجهل العامة بالعلم أى شىء هو ولقلة معرفة السامع بوصف من سلف من العلماء كيف كانوا فصار كثير من متكلمى الزمان فتنة المفتون وصار كثير من الكلام والرأى والمعقول الذى حقيقته جهل كأنه علم عند الجاهلين فلا يفرقون بين المتكلمين والعلماء ولا يميزون بين العلم والكلام وقد قلنا ان خصوص الجهال يشبهون بالعلماء

فيشتبهون على مجالسيهم فى الحال فأعلم الناس فى زمانك هذا أعرفهم بسيرة المتقدمين وأعلمهم بطرائق السالفين ثم أعلمهم بالعلم أى شىء هو وبالعلم من هو من المتعلم والمتعالم وهذا كالفرض على طالبى العلم أن يعرفوه لانه لما قال صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة وجب عليهم أن يعرفوا أى شىء هو العلم حتى يطلبوه اذ لا يصح طلب ما لا يعرف ثم وجب عليهم من هذا أن يعرفوا العالم من هو ليطلبوا عنده العلم اذ العلم عرض ولا يقوم الا بجسم فلا يوجد الا عند أهله كما قيل لعلى كرم الله وجهه وقيل له انك خالفت فلانا فى كذا فقال خيرنا أتبعنا لهذا الدين وكما قيل لسعد ان ابن المسيب يقرأ ما ننسخ من آية أو ننسأها فقال ان القرآن لم ينزل على ابن المسيب ولا على أبيه ثم قرأ أو ننسها فأعلم الناس فى هذا الوقت وأقربهم من التوفيق والرشد أتبعهم لمن سلف وأشبههم بشمائل صالحى الخلف كيف وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل من أعلم الناس فقال أعرفهم بالحق اذا اشتبهت الأمور وقال بعض السلف أعلم الناس أعرفهم باختلاف الناس وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول محدثان أحدثا فى الاسلام رجل ذو رأى سوء زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه ومعترف يعبد الدنيا لها يغضب ولها يرضى واياها يطلب فارفضوهما الى النار اعرفوا انكارهم تربهم بأعمالهم ان رجلا أصبح فى هذه الدنيا بين مترف يدعو الى دنياه وصاحب هوى يدعو الى هواه قد عصمه الله تعالى منهما يجىء الى السلف الصالح يسأل عن فعالهم ويقتص آثارهم لتعرض لأجر عظيم فكذلك فكونوا وكما روينا عن ابن مسعود رضى الله عنه وقد جاء مسندا انما هما اثنان الكلام والهدى فاحسن الكلام كلام الله تعالى وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ألا واياكم ومحدثات الأمور فان شر الأمور محدثاتها ان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ألا لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم ألا كل ماهو آت قريب ألا ان البعيد ماليس بآت وفى خطبة النبى صلى الله عليه وسلم التى رويناها عن أبان عن أنس طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية وخالط أهل الفقه والحكمة وجانب أهل الذل والمعصية طوبى لمن ذل فى نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته وعزل عن الناس شره طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدها الى بدعة وقال بعض الادباء كلاما منظوما فى وصف زماننا هذا كانه شاهده

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم ... والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت فى خلف يزكى بعضهم ... بعضا ليدفع معور عن معور
أبنى ان من الرجال بهيمة ... فى صورة الرجل السميع المبصر
فطنا بكل مصيبة فى ماله ... فاذا أصيب بدينه لم يشعر

فسل الفقيه تكن فقيها مثله من يسع فى أمر بفقه يظفر

وقد كان ابن مسعود رضى الله عنه يقول حسن الهدى فى آخر الزمان خير من كثير من العمل وقال فى وصف زمانه باليقين وفى وصف زماننا بالشك فقال انكم فى زمان خيركم فيه المسارع فى الأمور وسيأتى بعدكم زمان يكون خيرهم فيه المتثبت المتوقف يعنى لكثرة الشبهات وقال حذيفة رضى الله عنه أعجب من هذا قال ان معروفكم هذا منكر زمان قد مضى وان منكركم معروف زمان قد يأتى وانكم لن تزالوا بخير ما عرفتم الحق وكان العالم فيكم غير مستخف وكان يقول أيضا يأتى فى آخر الزمان قوم يكون العالم فيهم بمنزلة الحمار الميت لايلتفتون اليه و يستخفى المؤمن فيهم كما يستخفى المنافق فينا اليوم المؤمن فيهم أذل من الامة وفى حديث على كرم الله وجهه يأتى على الناس زمان ينكر الحق تسعة أعشارهم لا ينجو منهم يومئذ الا كل مؤمن نومة يعنى صموتا متغافلا أولئك مصابيح العلم وأئمة الهدى وليسوا بالمذاييع البذر يعنى المتكلمين كثيرا المتظاهرين بالكلام افتخارا وفى خبر يأتى على الناس زمان من عرف فيه الحق نجا قيل فأين العمل قال لا عمل يومئذ لا ينجو فيه الا من هرب بدينه من شاهق الى شاهق وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه يأتى على الناس زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا وفى بعضها بعشر مايعلم وعن بعض الصحابة أنتم اليوم فى زمان من ترك منكم عشر ما يعلم هلك ويأتى عليكم زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا وقال بعض الخلفاء يأتى عليكم زمان يكون أفضل العلم الصمت وأفضل العمل النوم يعنى لكثرة المنافقين بالشبهات فصار الصمت للجاهل علما ولكثرة العاملين بالشهوات فصار النوم عبادة البطال ولعمرى ان الصمت والنوم أدنى أحوال العالم وهما أعلى أحوال الجاهل وكان يونس بن عبيد يقول أصبح اليوم من يعرف السنة غريبا وأغرب منه من يعرفه يعنى طريقة السلف يقول فمن يعرفه عرف طريق من مضى وهو غريب أيضا لأنه قد عرف غريبا وقال حذيفة المرعشى كتب الى يوسف بن اسباط ذهبت الطاعة ومن يعرفها وكان أيضا يقول ما بقى من يؤنس به وقال ماظنك بزمان مذاكرة العلم فيه معصية قيل ولم ذلك قال لانه لا يجد أهله وقد كان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول انكم لن تزالوا بخير ما أحببتم خياركم وقيل فيكم الحق فعرف ويل لكم اذا كان العالم فيكم كالشاة النطيح وقد كان للمتقدمين علوم يجتمعون عليها و يتفاوضونها بينهم وقد درست فى زماننا وكان للصالحين معان وطرائق يسلكونها و يسألون عنها قد ذهبت فى وقتنا وكان لليقين والمعرفة مقامات وأحوال يتذاكرها أهلها و يطلبون أربابها قد عفت آثارها عندنا لقلة الطالبين لها ولعدم الراغبين فيها وفقد العلماء بها وذهاب السالكين فى طرقها منها طلب الحلال وعلم الورع فى المكاسب والمعاملات وعلم الاخلاص وعلم آفات النفوس وفساد

الأعمال وعلم نفاق العلم والعمل والفرق بين نفاق العلم والعمل والفرق بين نفاق القلب ونفاق النفس و بين اظهار النفس شهوتها واخفائها ذلك والفرق بين سكون القلب بالله وسكون النفس بالاسباب والفرق بين خواطر الروح والنفس وبين خاطر الايمان واليقين والعقل وعلم خلائق الأحوال وأحوال طرائق العمال وتفاوت مشاهدات العارفين وتلوينات الشواهد على المريدين وعلم القبض والبسط والتحقيق بصفات العبودية والتخلق بأخلاق الربوبية وتباين مقامات العلماء الى غير ذلك مما لا نذكره من علم التوحيد ومعرفة معانى الصفات وعلوم المكاشفة بتجلى الذات واظهار الافعال الدالة على معانى الصفات الباطنة وظهور المعانى الدالة على النظر والاعراض والتقريب والابعاد والنقص والمزيد والمثوبة والعقوبة والاجتباء والاختيار وقد ذكرنا من جميع هذه المعانى فصولا ورسمنا جملا وأصولا تنبه على فروعها وتدل على أشكالها لمن وفق لتدبرها وأريد بتذكرها وجعل له نصيب منها وقال بعض علمائنا أعرف للمتقدمين سبعين علما كانوا يتحاورونها و يتعارفونها فى هذا العلم لم يبق منها اليوم علم واحد يعرف قال وأعرف فى زماننا هذا علوما كثيرة من الأباطيل والدعاوى والغرور وقد ظهرت وسميت علوما لم تكن فيما مضى تعرف فهذا كالسراب الذى وصفه الله تعالى فقال يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ وكان الجنيد رحمه الله تعالى من قبله يقول علمنا هذا الذى تتكلم فيه قد طوى بساطه منذ عشرين سنة وانما تتكلم فى حواشيه وكان يقول أيضا قد كنت أجالس قوما سنين يتحاورون فى علوم لا أفهمها ولا أدرى ما هى وما بليت بالانكار قط كنت أتقبلها وأحبها من غير أن أعرفها. وكان أيضا يقول كنا نتجارى مع اخواننا قديما فى علوم كثيرة ما تعرف فى وقتنا هذا ولا سألنى عنها أحد وهذا باب قد أغلق وردم ولما صنف شيخنا أبو سعيد ابن الاعرابى كتاب طبقات النساك ووصف أول من تكلم فى هذا العلم وأظهره ثم من بعده من البصريين والشاميين وأهل خراسان الى ان كان آخرهم البغداديين وقال آخر من تكلم فى هذا العلم صاحبنا جنيد القواريرى وكانت له بصيرة فيه وحقيقة وحسن عبارة وما بقى بعده الا من مجالسته غيظ وقال مرة أخرى ما بقى بعد جنيد الا من يستحي من ذكره وقد كان امامنا أبو محمد سهل رحمه الله يقول بعد سنة ثلثمائة لا يحل أن يتكلم بعلمنا هذا لانه يحدث قوم يتصنعون للخلق و يتزينون بالكلام لتكون مواجيدهم لباسهم وحليتهم كلامهم ومعبودهم بطونهم وقد كان حذيفة رضى الله عنه اذا سئل أى الفتن أشد فقال ان يعرض عليك الخير والشر فلا تدرى أيهما تأخذ لكثرة الشبهات كما كان سهل يقول بعد سنة ثلثمائة لايصح لاحد توبة لانه يفسد خبزهم وهم لا يصبرون عن الخبز يعنى ان أول التوبة أكل الحلال وقد روينا فى خبر يأتى على الناس زمان يضلون فيه دينهم فلا يعرفونه

يصبح الرجل على دين ويمسى على دين يضل أمره على غير يقين وتسلب عقول أكثر أهل ذلك الزمان وأول ما يرفع عنهم الخشوع ثم الاجابة ثم الورع ويقال أول ما يرفع من الناس الالفة

ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف

كان الناس قديما اذا التقوا يقول أحدهم لصاحبه ما خبرك وما حالك يعنون بذلك ما خبر نفسك فى مجاهدتها وصبرها وما حال قلبك من مزيد الايمان وعلم اليقين ويريدون أيضا ما خبرك فى المعاملة لمولاك وما حالك فى أمور الدنيا والآخرة هل ازددت أم انتقصت فيتذاكرون أحوال قلوبهم ويصفون أعمال علومهم ويذكرون ما وهب الله تعالى لهم من حسن المعاملة وما فتح لهم من غرائب الفهوم فكان هذا من تذديد نعم الله تعالى عليهم ومن جميل شكرهم ويكون مزيدا لهم فى المعرفة والمعاملة وقد كان بعضهم يقول أكثر علومنا ومواجيدنا ما يعرفه بعضنا من بعض وما يخبر به أحدنا أخاه اذا التقينا فقد جهل هذا اليوم فترك فهم اذا تساءلوا عن الخبر والحال انما يريدون به أمور الدنيا وأسباب الهوى ثم يشكو كل واحد مولاه الجليل سبحانه وتعالى الى عبده الذليل ويتسخط أحكامه ويتبرم بقضائه وينسى نفسه وما قدمت يداه فمثله كما قال تعالى ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه وكما قال تعالى ان الانسان لربه لكنود قيل كفور بنعمته يعدد المصائب وينسى النعم كل ذلك جهالة بالله تعالى وغفلة عنه ومنه قولهم الآن كيف أصبحت وكيف أمسيت هذا محدث انما كانوا اذا التقوا قالوا السلام عليكم ورحمة الله وفى الخبر من بدأكم بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه وانما حدث هذا فى زمان الطاعون الذى كان يدعى طاعون عمواس بالشام من الموت الذريع كان الرجل يلقى أخاه غدوة فيقول كيف أصبحت من الطاعون ويلقاه عشية فيقول كيف أمسيت منه لان أحدهم كان اذا أصبح لم يمس واذا أمسى لم يصبح فبقى هذا الى اليوم ونسى سببه وكان من عرف حدوثه من المتقدمين يكرهه حدثونا عن أحمد بن أبى الحوارى قال قال رجل لابى بكر بن عياش كيف أصبحت أو كيف أمسيت فلم يكلمه وقال دعونا من هذه البدعة قال وقلت لبعض السلف كيف أصبحت فاعرض عنى وقال ما كيف أصبحت قل بالسلام وروى أبو معشر عن الحسن رضى الله عنه انما كانوا يقولون السلام عليكم سلمت والله القلوب فأما اليوم كيف أصبحت أصلحك الله كيف أمسيت عافاك الله فان أخذنا بقولهم كانت بدعة ألا ولا كرامة فان شاؤا غضبوا علينا ومن ذلك ابتدأ الرجل فى عنوان الكتاب باسم المكتوب اليه وانما السنة أن يبتدئ بنفسه فيكتب من فلان الى فلان قال ابن سيرين رحمه الله تعالى غبت غيبة فكتبت الى أبى فابتدأت باسمه فكتب الى يا بنى اذا كتبت الى فابدأ باسمك فى الكتاب فان ابتدأت باسمى قبل اسمك لا قرأت لك كتابا ولا رددت

اليك جوابا وكتب العلاء بن الحضرمى رضى الله عنه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدأ بنفسه وكتب من العلاء بن الحضرمى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقال أول من أحدثه زياد فعابه العلماء عليه وعدوه من احداث بنى أمية وقد بقى سنة هذا فى كتب الخلفاء والأمراء الى اليوم على نحو ما مضى فهم يقدمون أسماءهم فى كتبهم ومن الأحداث قول الرجل اذا جاء منزل أخيه ياغلام ياجارية فيه مخالفة لأمر الله عز وجل وأمر رسوله عليه السلام قال الله عز وجل لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها قال أهل التفسير الاستئناس الدق أو التنحنح أو الحركة حتى يؤذن بذلك ان وراءها انسانا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جاء أحدكم منزل أخيه فليسلم ثلاثا فان أذن له فليدخل وإلا فليرجع وكان السلف يقرع أحدهم باب اخيه ثم يسلم ثلاثا يقف بعد كل تسليمة هنيهة فان أذن له دخل وقد لايحب صاحب المنزل أن تدخل عليه فى ذلك الوقت لسبب عذر له فيقول وعليكم السلام ورحمة الله ارجع عافاك الله فانى على شغل فيرجع عنه غير كاره لرجوعه ولا يؤثر ذلك عليه فى نفسه وقد يكون قوله ارجع أحب اليه لأنه أفضل له رجاء الاجابة والتزكية لقوله تعالى وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم فربما رجع فى اليوم مرتين أو ثلاثا بعد رد صاحبه له وهو يعود لأن ذلك لم يؤثر فى قلبه شيأ وهذا لو فعل ببعض الناس من أهل عصرنا هذا لكرهه ولعل أن لا يعود يومه ذلك فأما العلماء فقد كان بعض الناس لا يستأذن عليهم الا لمهم لابد منه بل كانوا يقعدون على أبوابهم وفى مساجدهم ينتظرون خروجهم لأوقات الصلاة اجلالا للعلم وهيبة للعلماء وحدثونا عن أبى عبيد قال ماقرعت على عالم قط بابه كنت أجىء الى منزله فأقعد على بابه أنتظر خروجه من قبل نفسه أتأول قول الله عز وجل ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم وقد روينا مثل هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما فى موضعه من العلم والشرف ان المار كان يمر به وهو قائم على باب منزل الرجل من الانصار تسفى عليه الرياح فيقول مايجلسك ههنا ياابن عم رسول الله فيقول أنتظر خروج صاحب المنزل فيخرج الرجل فيقول ابن عم رسول الله لوأرسلت الى لجئتك فيقول لاأنا كنت أحق أن آتيك فيسأله عما يريد من حديث بلغه انه يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن هو سمعه منه ومن ذلك استقصاء الرجل فى المسألة عن حال أخيه وخبره وقد كره ذلك تزوج سلمان الفارسى رضى الله عنه فلما دخل على أهله خرج الى الناس من الغد فقال له رجل كيف أنت ياأبا عبدالله قال بخير أحمد الله تعالى قال كيف حالك وكيف بت البارحة وفى لفظ آخر كيف وجدت أهلك فغضب سلمان وقال لم يسأل أحدكم فيحفى المسألة وليسأل عما وراء البيوت يكفى أحدكم أن يسأل عن ظاهر الامر وأما سليمان بن مهران الأعمش فان رجلا قال له فى منزله كيف أنت ياأبا محمد

قال بخير قال كيف حالك قال فى عافية قال كيف بت البارحة فصاح ياجارية انزلى بالفراش والمخاد فأنزلت بذلك فقال افرشى واضطجعى حتى أضطجع الى جنبك انبئ أخانا كيف بت البارحة وكان يقول يلقى أحدهم أخاه فيسأله عن كل شىء حتى عن الدجاج فى البيت ولو سأله درهما ما أعطاه وكان من مضى من السلف اذا لقى أخاه لايزيد على قوله كيف أنتم أو حياكم الله بالسلام ولو سأله شطر ماله قاسمه ومن ذلك قول الرجل لأخيه اذا لقيه ذاهبا فى الطريق الى أين تريد أو من أين جئت فقد كره هذا و ليس من السنة ولا الأدب وهو داخل فى التجسس والتحسس لأن التحسس فى الآثار والتجسس فى الأخبار وهذا السؤال عن ذلك يجمعهما وقد لا يحب الرجل أن يعلم صاحبه أين يذهب ولا من أين جاء وقد كره ذلك مجاهد وعطاء قالا اذا لقيت أخاك فى طريق فلا تسأله من أين جئت ولا أين يذهب فلعله أن يصدقك فتكره ذلك و لعله أن يكذبك فتكون قد حملته عليه وقد كانوا يكرهون بيع المصاحف وشراءها وكان بعضهم لبيعها أكره منه لشرائها وقد ابتدع الناس علوما لم تكن تعرف فيما سلف منها علم الكلام و الجدل وعلوم المقاييس و النظر و الاستدلال على سنن الرسول صلى الله عليه و سلم بأدلة الرأى و المعقول و منها إيثار علم العقل و الرأى والقياس على ظواهر القرآن و على الأخبار و منها اظهار الاشارات بالمواجيد من غير علومها ولا بيان تفصيلها و فى ذلك تحيير للسامعين و اضلال للعاملين و انما كان العلماء بهذا العلم يظهرون علوم المواجيد ويخفون الاشارة بالوجد فيظهرون للناس ما ينفع ويخفون ما يضر ولان المواجيد أحوال لقلوبهم فكتمها أفضل وعلومها أنصبة المريدين والعاملين فاظهارها هو البغية لهم فاظهروه وأخفوا وجدهم لأنه سر لهم فسلموا من التصنع والدعوى وأعطوا السامعين نصيبهم ومنعوهم ماليس لهم فعدلوا فى الوصفين معا فعضلوا فى الحالين جميعاً فجهل هذا الآن فأظهر ضده وكان الى الضرر أقرب ومن السلامة أبعد فمن لم يحسن التفصيل ولم يرزق العبارة فانه يحسن الصمت فهو واسع ان من لم يتكلم بعلم على سنة فسكوته أقرب له الى الله تعالى فله فى ذلك كما قال الله عز وجل و من قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها ومما ظهر إظهار علوم المعرفة بمعانى الرغبة ليتميزوا عن الفقراء تكبراً منهم فلا يجعلون مجعلهم فليصرف اليهم من الأسباب على قدر أنسهم وأحوالهم وهذا من أكبر أبواب الدنيا وأضره على مريدى الآخرة وألطفه تمويها فى الدين ومنها الكلام فى التوحيد بمخالفة علم الشرع وأن الحقيقة تخالف العلم والحقيقة هى علم وهى أحد طرقات الشريعة وعلم الشرع عنها فكيف تنافيها وهى التى أوجبته وانما هى عزيمة وضيقة وعلم الظاهر هو الرخصة و السعة فمن تكلم فى علم الباطن على غير قواعد العلم الظاهر وأصوله فذلك من الالحاد فى الشريعة والوليجة بين الكتاب والسنة وقد قال بعض العارفين نظرت الى هؤلاء الشاطحين فما وجدت الا جاهلا مغرورا أو خاسئا حبورا أو مستظهرا بلا شىء ومنها الكلام فى

الدين بالوساوس والخطرات عن غير رد مواجيدها الى الكتاب والسنة والواجب معرفة تفصيلها ونفى مالم يشهد له الكتاب والسنة منها اذفى المواجيد ضلال وغرور وفى المشاهدات باطل وزور مع دعواهم المحبة وانكارهم الصفة التى جاءت بها السنة وعن غير شهادة موصوف وادعائهم المعرفة من غير تعرف معروف ومما أحدثوا السجع فى الدعاء والتغريب فيه ولم يرد الكتاب به ولا نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الصحابة بل كانوا ينهون عن الاعتداء فى الدعاء ويجتنبون مجاوزة ماأخبر الله تعالى عن أوليائه من الأدعية الجامعة المختصرة المعروفة وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم والسجع فى الدعاء حسب أحدكم أن يقول اللهم انى أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل وفى الخبر سيأتى قوم يعتدون فى الدعاء والطهور وسمع عبد الله بن مغفل ابنه يدعو بدعاء يعمق فيه فقال يابنى اياك والحدث والاعتداء فى الدعاء وفى قوله عز وجل ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين قيل فى الدعاء فالاعتداء فى الدعاء هو ترك ماأخبر الله عز وجل عن أوليائه الصالحين من الدعاء بالمغفرة والرحمة والتوبة ومعنى ذلك من الدعاء المعروف والقول المشهور الى التنطع والتعميق والتغريب والتدقيق ويقال أن العلماء والابدال لايزيد أحدهم على سبع كلمات فى الدعاء ووجدت تصديق ذلك فى الكتاب ان الله تعالى ماأخبر عن عباده فى الدعاء فى مكان واحد أكثر من سبع دعوات وهى التى فى آخر سورة البقرة والا انما يخبر عنهم بالدعوتين والثلاث والاربع الى الخمس فى مواضع من الكتاب متفرقة ومر بعض السلف بقاص يدعو يسجع فى دعائه ويتعمق فقال له ويلك على الله تبالغ أشهد لقد رأيت حبيبا العجمى يدعو ومايزيد على قوله اللهم اجعلنا جيدين اللهم لا تفضحنا يوم القيامة اللهم وفقنا للخير قال والناس يبكون من كل ناحية وكنا نتعرف اجابة دعائه وبركته وكان أبو يزيد البسطامى يقول سله بلسان الحاجة لا بلسان الحكمة وقال الحسن ادع بلسان الاستكانة والافتقار لا بالفصاحة والانطلاق ومما أحدثوه أخذ القرآن بالادارة وتنازع الاثنين الآية أو تلقى الرجلين للآيتين فى مكان واحد بمنزلة الاختلاس والنهبة من غير خشوع للقرآن ولاهيبة وقراءة القرآن تحتاج الى حزن وسكون وخشوع ومن ذلك أخذ المقرىء على الاثنين وليته قام بقراءة الواحد لسهو القلب كما قيل لابراهيم الحربى ان فلانا يأخذ على الاثنين فقال هاه يحتاج اثنان أن يأخذا على واحد ومن البدع التلحين فى القراءة حتى لا تفهم التلاوة وحتى يجاوز اعراب الكلمة بمد المقصور وقصر الممدود وادغام المظهر واظهار المدغم ليستوى بذلك التلاحن ولا يبالى باعوجاج الكلم واحالته عن حقيقته فهو بدعة ومكروه استماعه قال بشر بن الحرث سألت ابن داود الحربى أمر بالرجل يقرأ فاجلس اليه قال يقول يطرب قلت نعم قال لا هذا قد أظهر بدعته

ومن ذلك التلحين فى الاذان وهو من البغى والاعتداء فيه قال رجل من المؤذنين لابن عمر رضى الله عنهما انى لأحبك فى الله تعالى فقال له لكنى أبغضك فى الله تعالى قال يا أبا عبد الرحمن لم قال لانك تبغى فى أذانك وتأخذ عليه أجرا وكان أبو بكر الآجرى رحمه الله يقول خرجت من بغداد وما يحل لى المقام بها قد ابتدعوا فى كل شيء حتى فى قراءة القرآن وفى الأذان وكان يعنى بذلك قراءة الادارة والتلحين وقدم علينا مكة فى سنة ثلاثين ومن جمل ما أحدث الخلف فخالفوا به سنن السلف انهم شددوا فى أشياء كان السلف يسهلون فيها وسهلوا أشياء كان السلف يشددون فيها فمثلهم فى ذلك كالخوارج شددوا فى الصغائر من الذنوب وسهلوا فى الآثار والسنة وفى ترك مذهب الجماعة حتى فارقوهم فما شدد فيه الخلف مما كان السلف يسهلونه كتب الاحاديث من أنواع طرقها وتتبع الغرائب من طرقاتها وتحرى الألفاظ فيها وقد قال ابن عون أدركت ثلاثة يرخصون فى المعانى ابراهيم والشعبى والحسن رحمهم الله تعالى وعن جماعة من علماء السلف والصحابة التوسعة فى معانى الأحاديث وان لم يؤد ألفاظها ومن ذلك تجريد الحروف وتحرى المقرىء الواحد فى جميع اختياره حتى كأنه فرض عليه ومن ذلك التدقيق فى القياس والنظر والتبحر فى علوم النحو والعربية كما قال ابراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى أعربنا فى الكلام فلم نلحن ولحنا فى الأعمال فياليتنا لحنا فى الكلام وأعربنا فى الأعمال وذكرت العربية عند القاسم بن المخيمرة فقال أولها كبر وآخرها بغى وقد قال بعض السلف النحو يذهب الخشوع من القلب وقال آخر من أحب أن يزدرى الناس كلهم فليتعلم العربية وشددوا فى الطهارة بالماء وتنظيف الثياب وكثرة غسلها من عرق الجنب ولبس الحائض ومن أرواث ما يؤكل لحمه وأبواله وغسل اليسير من الدم ونحو ذلك وكان السلف يرخصون فى هذا كله ومما سهلوه مما كان السلف يشددون فيه أمر المكاسب وترك التحرى فيها والكلام فيما لا يعنى والخوض فى الباطل والغيبة والنميمة والاستماع اليهما والعقد على البلاغات وسوء الظن لأجلها وهو اشتراك فى الغيبة والنميمة وكل بلاغة تزيد وتنقص ان كان شرا ازددت فيه وان كان خيرا نقصت منه وسهلوا فى النظر الى الزور واللهو ومجالسة البطالين والمشى فى أسباب الهوى والتعصب وشدة الحرص على الدنيا وهذا كله كان السلف يشددون فيه ومما أحدثوا دخول النساء الحمام من غير ضرورة ودخول الرجل بغير مئزر وهو فسق وسئل ابراهيم الحربى رحمه الله تعالى عمن يشرب النبيذ ولا يسكر أيصلى خلفه قال نعم قيل فمن دخل الحمام بغير مئزر فقال لا يصلى خلفه هذا لان شرب النبيذ يختلف فيه اذا لم يسكر ودخول الحمام بغير مئزر محرم باجماع وكان بعض العلماء يقول يحتاج داخل الحمام الى مئزرين مئزر لوجهه ومئزر لعورته والا لم يسلم فى دخوله وكان ابن عمر يقول الحمام من النعيم الذى أحدثوه ومن المنكر فى الحمام تولى

القيم لعورة الرجل المسلم فى الاطلاء بالنورة وقدكان من هدى العلماء فى قعودهم أن يجتمع أحدهم فى جلسته فينصب ركبتيه ومنهم من يقعد على قدميه ويضع مرفقيه على ركبتيه كذلك كان شمائل كل من تكلم فى هذا العلم خاصة من عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن زمن الحسن البصرى وهو أول من أظهر هذا العلم وفتق الألسن به الى وقت أبى القاسم الجنيد قبل أن تظهر الكراسى وكذلك روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقعدالقرفصاء و يحتبي بيديه وفى رواية أخرى أنه كان يقعد على قدميه ويجعل مرفقيه على ركبتيه وأول من قعد على كرسى من أهل هذا العلم يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى بمصر وتبعه أبوحمزة ببغداد فعاب الأشياخ عليهما ذلك ولم يكن ذلك من سيرة العارفين الذين يتكلمون فى علم المعرفة واليقين انما كان يجلس متربعا النحويون واللغويون وأبناء الدنيا من العلماء المفتين وهى جلسة المتكبرين ومن التواضع الاجتماع فى الجلسة

ذكر تفصيل العلوم معروفها وقديمها ومحدثها ومنكرها

اعلم أن العلوم تسعةأربعةمنهاسنةمعروفةمن الصحابةوالتابعين وخمسةمحدثةلم تكن تعرف فيما سلف فأما الأربعة المعروفةفعلم الايمان وعلم القرآن وعلم السنن والآثار وعلم الفتاوى والأحكام وأما الخمسة المحدثة فالنحو والعروض وعلم المقاييس والجدل فى الفقه وعلم المعقول بالنظر وعلم علل الحديث وتطريق الطرقات فيه وتعليل الضعفاء وتضعيف النقلة للآثار فهذا العلم من المحدث الا أنه علم لا أهله نيسمعه أصحابه منهم وقدكانوا يرون القصص بدعة وينهون عنه ويكرهون مجالسة القصاص وقال بعض العلماء نعم الرجل فلان لولا انه يقص وقال بعض هذه الطائفة مثل أصحاب الحكايات فى أهل المعرفة مثل القصاص فى الفقهاء وقال آخر مثل القصاص فى العلماء مثل أهل السواد فى أهل المدن فأما أكل الدنيا بالدين وأخذها على الصلاح وبيع العلم بالدنيا والتصنع والتزين للعموم فمن قبيح ما أحدث وهو أظهر من أن يدل على فساده عند من عرف ظاهر العلم وقد سمى هؤلاء فى زماننا الجاهلون بالعلم علماء وجعلهم الناقصون عن الفضل فضلاء لقلة معرفتهم بطريق المتقدمين وعدم بصيرتهم بحقيقة علم الدين واعلم أن الكلام ينقسم عندنا سبعة أقسام العلم منه قسم واحد وسائر الستة لغو مطرح يلتقطه من لا يعرفه ولا يفرق بين العلم والجهل والعرب تقول لكل ساقطة لاقطة ولكل قائلة ناقلة فالستة إفك وسفه وخطأ وظن وزخرف ووسوسة فهذه أسماؤها عند العلماء يفصلون ذلك بما فصل الله تعالى لهم من بيانه واستحفظهم من كتابه وجعلهم شهداء على دينه وعباده فالقسم السابع من الكلام هو ما عدا هذه الستة ولم يقع عليه اسم منها مذموم فهو علم وهو نص القرآن والسنة أو ما دلا عليه واستنبط منهما أو وجد فيهما اسمه ومعناه من قول وفعل والتأويل اذا لم يخرج عن الاجماع داخل فى العلم والاستنباط اذا كان مستودعا

فى الكتاب يشهد له المجمل ولا ينافيه النص فهو علم وقد كان ابن مسعود رضى الله عنه يقول أنتم اليوم فى زمان الهوى فيه تابع للعلم وسيأتى عليكم زمان يكون العلم فيه تابعا للهوى وقد جمع الله تعالى بين رونق العقل ومتعة الدنيا بتسمية الزخرف فقال تعالى ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وكما قال زخرفا من القول غرورا فذهاب الجاهل بالاستحسان لزخرف القول من المموه من غل الدنيا كمتعة الجاهل من أبناء الدنيا بزخرف الذهب ذاهبا عن حقيقة الامر والزخرف ما يموه على الذهب فيشبه به يحسبه الجاهل والصبي عين الذهب كذلك الزخرف من القول ما يموه ويشبه على العلم يحسبه المستمع من الجهال علما فكذلك جمع بينهما فى التسمية الزخرف وقد قيل ان الزخرف هو الذهب فعلى هذا شبه قول الغرور بالذهب الذى يذهب بقاؤه وتقل حقيقته عند الربانيين وأهل الحقيقة الزاهدين اذ شبهه الانبياء والصديقون كالحجر والمدر وكان الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول تركوا العلم واقبلوا على الغراس ما أقل العلم فيهم والله المستعان وقال الامام مالك بن أنس رضى الله عنه لم يكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الامور كما يسأل الناس اليوم ولم يكن العلماء يقولون حرام ولا حلال فى أكثر الامور أدركتهم يقولون مستحب ومكروه وكان مالك كثير التوقف فى الاجوبة اذا سئل ويكثر أن يقول لا أدرى سل غيرى وقال رجل لعبد الرحمن بن مهدى ألا ترى الى قول فلان فى العلم حلال وحرام وقطعه فى الامور بعلمه يعنى رجلا من أهل الرأى والى قول مالك اذا سئل أحسب أحسب فقال عبد الرحمن ويلك قول مالك أحسب أحسب أحب الى من قول فلان أشهد اشهد وكان هشام بن عروة يقول لا تسألوهم اليوم عما أحدثوا فانهم قد أعدوا له جوابا ولكن اسألوهم عن السنن فانهم لا يعرفونها وكان الشعبي رحمه الله تعالى اذا نظر الى ما أحدث الناس من الرأى والهوى يقول لقد كان القعود فى هذا المسجد أحب الى مما يعدل به فقد صار فيه هؤلاء المراؤن فقد بغضوا الى الجلوس فيه ولأن أقعد على مزبلة أحب الى من أن أجلس فيه وكان يقول ما حدثوك عن السنن والآثار فخذ به وما حدثوك عما أحدثوا من رأيهم فالخط عليه وقد قال مرة فبل عليه وقد كان السلف يستحبون العى والبله عن علوم المعقول وقد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من الايمان اذ قرنه بالحياء فقال الحياء والعى شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق وقال عليه السلام أبغض الخلق الى الله عز وجل البليغ الذى يتخلل الكلام بلسانه كما يتخلل الباقر الخلا بلسانها يعنى الحشيش الرطب وقال فى حديث آخر العى عى اللسان لا عى القلب وقال ان الله عز وجل كره لكم البيان كل البيان فصار الفقه انما هو فقه القلب عن الرب سبحانه وتعالى وصار فقه اللسان بالبيان انما هو عى القلب عن الشهادة والايقان وعى اللسان وطول الصمت الذى كان يستحبه السلف هو

اليوم عيب ومن المتكلمين من لا يعرف من كلام البدع وعلم المنافقين الذى ذمه القـدماء هو اليوم سـنة وأهل النطق به هم العلماء اليوم ولقد صار المعروف منكرا والمنكر معروفا وصارت السنة بدعة والبدعة سنة وكذلك جاءت به الاخبار فى وصف علماء آخر الزمان وفى الخبر المشهور ان الله تعالى يبغض الثرثارين المتشدقين فمن غلب عليه هـذا الوصف فكان متشدقا بليغا فى علم الرأى والمعقول عيي القلب عن مشاهدة اليقين وعلم الايمان كان الى النفاق أقرب ومن حقيقة الايمان أبعد وقد كان أبو سليمان الدارانى يقول لا ينبغى لمن ألهم شيأ من الخيرات أن يعمله حتى يسمع به فى الاثر فيحمد الله تعالى اذا وافق ما فى نفسه وقال بعض العارفين ما قبلت خاطرا من قلبي حتى يقيم لى شاهدى عدل من كتاب وسنة وكان امامنا أبو محمد سهل رحمه الله تعالى يقول لا يبلغ العبد حقيقة الايمان حتى يكون فيه هذه الاربع أداء الفرائض بالسنة وأكل الحلال بالورع واجتناب النهى من الظاهر والباطن والصبر على ذلك حتى الممات وقد كانوا يعيبون على من تكلم بعد طلوع الفجر الى طلوع الشمس بغير ذكر الله تعالى وكانوا يخرجون المتحدثين من المساجد فلا يبقى فيه الا مصل أو ذاكر لله تعالى وقد كان السلف يستعظمون يسير الحديث فى الدين ودقائق البدع فى الاسلام لعظم الايمان والسنة فى قلوبهم ولمعرفتهم بحقيقة المعروف قال عبد الله بن مغفل لابنه وقد سمعه يقرأ خلف الامام يا بنى اياك والحدث اياك والحدث وقال سعد بن أبي وقاص رضى الله عنـه لابنه عمر وقد سمعه يسجع فى كلامه هذا الذى يبغضك الى لا قضيت حاجتك أبدا وكان قد جاءه يسأله حاجة له وقال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوتى امرؤ شرا من طلاقة فى لسانه وقال صلى الله عليه وسلم لابن رواحة حين سجع سمعه فوالى بين ثلاث وقال اياك والسجع يا ابن رواحة فكان السجع ما زاد على كلمتين وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى أمره بدية الجنين لما قال كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل فمثل هـذا بطل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسجع كسجع الاعراب وروينا أن مروان لما أحدث المنبر فى صلاة العيد عند المصلى قام اليه أبو سعيد الخدرى فقال يا مروان ما هذه البدعة فقال انها ليست بدعة هى خير مما تعلم ان الناس قد كثروا فاردت أن يبلغهم الصوت قال أبو سعيد رضى الله عنـه ولا تأتون بخير مما أعلم أبدا والله لا صليت وراءك اليوم فانصرف ولم يصل معه صلاة العيد فالخطبة على منبر فى صلاة العيـد وخطبة الاستسقاء بدعة وكان عليـه السلام يخطب فيهما على الأرض متوكئا على قوس أو عصا وروى ان عمر رضى الله عنه أخر صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم فأعتق رقبة وفعله عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أيضا فأعتق رقبـة استنانا بعمر وهو جده لأمه و روينا عن ابن عمر رضى الله عنهما انه أخر صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق

رقبتين وفى الخبر لا تزال أمتى على مسكة من دينها ما لم يؤخروا صلاة المغرب الى اشتباك النجوم تشبها باليهودية ولم يؤخروا صلاة الصبح الى افتراق النجوم تشبها بالنصرانية وقال سفيان الثورى رحمه الله ويوسف بن أسباط لا تقلد دينك من لا دين له وقال وكيع لان أزنى أحب الى من أن أسال مبتدعا عن دينى وكان الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قد أكثر عن عبيد الله بن موسى العبسى ثم بلغه عنه أدنى بدعة قيل انه كان يقدم عليا على عثمان وقيل بل ذكر معاوية بسوء فانصرف أحمد ومزق جميع ما حمل عنه ولم يحدث عنه شيأ وقيل له مرة يا أبا عبدالله أوكيع أشبه بالسلف أم عبيدالله فقال وكيع وازرنى وحدثونا عن ابراهيم الحربى قال كتبت عن على بن المدينى رضى الله عنه جملا لله تعالى على أن لا أحدث عنه بحرف قيل ولم يا أبا اسحق فذكر صلاته خلف مبتدع وكان رحمه الله تعالى يقول صحبت الفقهاء واصحاب الحديث وأهل العربية واللغة سبعين سنة ما سمعت هذه المسائل التى أحدثت فى هذا الوقت من أحد منهم قط يعنى الاسم والمسمى ونحو ذلك وقال وأحرج على من كان من أهل الكلام والجدل أن يحضر مجاسى أو يسألنى عن شىء فانه لا علم لى بالكلام ولا أنا أحسنه ولا أقول باهله ولو عرفت أحدا منهم ما كلمته ولا أجبته عن شىء وهجر الامام احمد بن حنبل رحمه الله تعالى أبا ثور صاحب الشافعى لما سئل عن معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى خلق آدم على صورته قال ان الهاء عائدة على آدم فغضب وقال ويله وأى صورة كانت لآدم يخلقه عليها ويله يقول ان الله تعالى خلق على مثال فأى شىء يعمل فى الحديث المفسر ان الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن فبلغ ذلك أبا ثور فجاءه واعتذر وحلف أنه ما قلت عن اعتقاد وانما هو رأى رأيته والقول ماقلت وهو مذهبى وهجر أيضا حارثا المحاسبى رحمه الله تعالى فى رده على المبتدعة وكان من أهل السنة فقال أين ترد عليهم وقد حكيت قولهم وأيضا فانك تحملهم على التفكر والرأى فيما قلت فيكون سببا لرد الحق بالباطل وهجر أيضا يحيى بن معين فى كلمة تكلم بها وهو قوله لو أعطانى الشيطان شيأ أخذته وقال مالك بن أنس رضى الله عنه ليس من السنة أن تجادل عن السنة ولكن تخبر بها فان قبل منك والا فاسكت وقيل لعبد الرحمن بن مهدى رضى الله عنه ان فلانا يرد على المبتدعة فقال بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قالوا لا بل بالمعقول قال بئسما صنع رد بدعة ببدعة وحدث زيد بن أحزم عن وهب بن جرير قال سمعت شعبة رحمه الله تعالى يقول أتيت الحرث العكلى فقلت مامعنى قول النبى صلى الله عليه وسلم اذا اتبع أحدكم جنازة فلا يجلس حتى توضع قال أرأيت ان جئنا ولم يحفر له ينبغى لنا أن نقوم قياما فحيث قال لى أرأيت تركته وروى محمود بن غيلان أيضا عن وهب أيضا عن شعبة قال أتيت المنهال بن عمرو وأسأله عن حديث فسمعت من منزله صوت طنبور فرجعت ولم أسأله ثم ندمت بعد ذلك فقلت

هلا سألته فعسى كان لا يعلم به ومما أحدثوا البيع والشراء على الطريق وكان الورعون لا يشترون شيأ ممن قعد يبيعه على طريق وكذلك اخراج الرواشن من البيوت وتقديم العضايد بين يدى الحوانيت الى الطريق مكروه ومما كرهه أهل الورع البيع والشراء من الصبيان لأنهم لا يملكون وكلامهم غير مقبول وحدثت عن أبى بكر المروزى أن شيخا كان يجالس الامام احمد بن حنبل رحمه الله تعالى ذا هيبة فكان أحمد يقبل عليه ويكرمه فبلغه عنه انه طين حائط داره من خارج قال فاعرض عنه فى المجلس فاستنكر الشيخ ذلك فقال يا أبا عبد الله هل بلغك عنى حدث أحدثته قال نعم طينت حائطك من خارج قال أو لا يجوز قال لا لانك قد أخذت من طريق المسلمين أنملة قال فكيف أصنع قال اما أن تكشط ما طينته واما أن تهدم الحائط وتؤخره الى وراء مقدار أصبع ثم تطينه من خارج قال فهدم الرجل الحائط وأخره أصبعا ثم طينه من خارج قال فاقبل عليه أبو عبد الله كما كان ومما كرهه السلف طرح السنور والدابة على المزابل فى الطرقات فيتاذى المسلمون بروائح ذلك وكان شريح وغيره اذا ماتت لهم سنور دفنوها فى دورهم ومثله اخراج الميازيب وصبها الى الطرقات وكان الامام احمد بن حنبل رحمه الله وأهل الورع يجعلون ميازيبهم الى داخل دورهم وقال ابراهيم النخعى رحمه الله كان أحدهم يكذب مرتين ولا يشعر يقول لاشىء الاشىء ليس بشىء معنى قول الناس للشىء اليسير الذى لا يوصف بكثير لاشىء فاستعظم هذا ورآه كذبا مرتين وروينا عن عمر رضى الله عنه انه قال لعوانة كنت أرثى لك من العمى فصرت الآن أغبطك به قال وكيف قال صرت لا ترى أبا الصغرى بعينيك «مبتدع كان بالمدينة» وقيل لقتادة تود لو انك بصير فقال لا على من كنت أفتح عينى بل لو كان فى وقت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت أنظر اليهم وحدثونا عن الفضل بن مهران قال قلت ليحيى بن معين أخ لى يقعد الى القصاص فقال انهه فقلت لا يقبل قال عظه قلت لا يقبل أأهجره قال نعم قال فأتيت الامام أحمد بن حنبل فذكرت له نحو ذلك فقال قل له يقرأ فى المصحف ويذكر الله تعالى فى نفسه ويطلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت فان لم يفعل قال بلى ان شاء الله تعالى فان هذا الاجتماع محدث قلت فان لم يقبل أأهجره فتبسم وسكت وسأل بشر بن الحرث رحمه الله تعالى عن مسئلة من علم القلوب فتوقف ثم أجابه ثم سأله مسئلة أخرى من علم المعاملات فسكت ونظر اليه ثم قال من تجالس من الناس فقال منصور بن عمار وابن السماك فقال ألا تستحى تسألنا عن علم القلوب ثم تجالس القصاص قال وأعرض عنه حتى قلنا يا أبا نصر انه لا بأس به انه من أهل السنة وقد كانوا يكرهون الصلاة فى المقصورة ويرونها انها أول بدعة أحدثت فى المساجد ويكرهون تزويق المساجد وكذا القبلة بالزخرف وتحلية المصاحف وهذا من البدع وفى الخبر اذا مازخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدبار عليكم وقد كانوا يكرهون

كثرة المساجد فى المحلة الواحدة روى أن أنس بن مالك رضى الله عنهما لما دخل البصرة جعل كلما خطا خطوتين ، أى مسجدا فقال ماهذه البدعة لما كثرت المساجد قل المصلون أشهد لقد كانت القبيلة بأسرها ليس فيها الامسجد واحد وكان أهل القبائل يتباينون المسجد الواحد فى الحى من الاحياء واختلفوا فى أيهما يصلى اذا اتفق مسجدان فى محلة فنهم من قال فى أقدمهما واليه ذهب أنس بن مالك وغيره من الصحابة قال وكانوا يجاوزون المساجد المحدثة الى المساجد العتق وكان الحسن يقول يصلى فى أقربهما منه ويقال أول ماحدث من البدع أربع الموائد والمناخل والاشنان والشبع وكانوا يكرهون أن تكون أوانى البيت غير الخزف ولا يتوضأ أهل الورع فى آنية الصفر والنحاس قال الجنيد قال لى سرى السقطى اجتهد أن لاتستعمل من آنية بيتك الاجنسك يعنى من الطين ويقال لاحساب عليه ومما كرهه السلف تشييد البناء بالجص والآجر يقال أول من طبخ الطين هامان أمره به فرعون ويقال هو بناء الجبابرة وكرهوا النقوش والتزويق فى السقوف والأبواب وكانوا يغضون من النظر الى ذلك وغاب الأحنف بن قيس غيبة فرجع وقد خضروا سقف بيته وصفروه فلما نظر اليه خرج من منزله وحلف ان لايدخله حتى يقلعوا ذلك منه ويعيدوه كما كان وقال يحيى بن معاذ من أصحاب الثورى رحمه الله كنت أمشى مع الثورى فى طريق فمررنا بباب منقوش مزوق فنظرت اليه فجذبنى سفيان حتى جزت فقلت ماتكره من النظر الى هذا فقال انما بنوه لينظر اليه ولو كان كل من مر به لاينظر اليه مابنوه فكأنه خشى أن يكون بنظره اليه معاونا على بنائه ومما أحدث الناس مما كانوا يكرهونه الثياب الرقاق مثل القصب ورقيق بز مصر للنساء والرجال وهو للنساء أكره وأغلظ وكانوا يقولون الثياب الرقاق لباس الفساق ومن رق ثوبه رق دينه ويقولون أول النسك الزى وقال ابن مسعود رضى الله عنه لايشبه الزى الزى حتى يشبه القلب القلب وخطب بشر بن مروان وعليه ثوب رقيق فجعل رافع بن خديج رضى الله عنه يهز أبه ويقول انظروا الى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق ولما جاء عبدالله بن عامر بن ربيعة فى بزته الى أبى ذر رضى الله عنه وسأله عن الزهد وأخذ يتكلم فيه فجعل أبو ذر يضرط به فى كفه ثم أعرض عنه ولم يكلمه فغضب ابن عامر وكان قرشيا شريفا وشكاه الى ابن عمر رضى الله عنهما فقال له أنت فعلت بنفسك تأتى أبا ذر فى هذه الثياب وتسأله عن الزهد وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وصف نساء يكن فى آخر الزمان فقال كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤسهن أمثال أسنمة البقر يعنى المعاجر والاكوار لا يجدن رائحة الجنة كان ابن عباس يفسر التبرج أنه منه لبس مارق من الثياب وقال فى قوله تعالى ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى قال كانت المرأة تلبس ثيابا قيمتها كذا وكذا لا توارى لها عورة مما لا يجوز فيه الصلاة لأنه يصف أو يشف فكره لبسه وانما كانت ثياب السلف السنبلانى

والقطوانى وعصب اليمن ومعافرى مصر والقباطى مثل كسوة الكعبة والثياب السحولية اليمانية والكرابيس الحضرمية وهذه كلها غلاظ كثيفة وكانت الاثمان من خمسة دراهم الى ثلاثين درهما وما بين ذلك ثم أحدث الناس الثياب الرقاق من كتان مصر وقطن خراسان وكان طول مئزر رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع ونصفا وثمنه الى الأربعة والخمسة وكانت أثمان ثيابهم القمص من الخمسة الى العشرة فيما بينهما من الثمن ولكن قد جاء فى الخبر لا تقوم الساعة حتى يصير المعروف منكرا والمنكر معروفا وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول لايأتى على الناس عام الا أماتوا فيه سنة وأحيوا فيه بدعة حتى تموت السنن وتحيا البدع وانما قيل منكر لانه لا يعرف فاذا خفى الحق فلم يعرف وقع عليه اسم منكر وكذلك قيل معروف لأنه مشهور مألوف فاذا نشأ الباطل وكثر الجهل حتى ألف وعرف وقع عليه اسم المعروف وكذلك قيل يكثر الجور حتى يولد فيه من لا يعرف العدل وكان الشعبي رحمه الله يقول يأتى على الناس زمان يصلون فيه على الحجاج وهذا قد أتى منذ زمان لان الحجاج قد ابتدع أشياء أنكرها الناس عليه فى زمان هى اليوم سنن معروفة وأعمال مستحسنة يترحم الناس ويغبطون من أحدثها ويحسبون أنه مأجور عليها مشكور له سعيه فيها لانهم لايعرفون انه أحدثها فهم وان لم يفوهوا بالصلاة عليه قولا فان استعمالهم لما أحدث واستحسانهم لما ابتدع ترحم منهم عليه والترحم هو الصلاة وأيضا فانه ابتدع أشياء من الخير وداخلة فى أبواب الآخرة ثم ظهرت ولاة بعده أحدثوا احداثا من الجور وابتدعوا بدعا من الفسوق فصارت سننا بعدهم فوجب بذلك الصلاة على الحجاج الى جنب ما أظهر بعده فما أحدث هذه المحامل والقباب التى خالف بها هدى السلف بالتنعم والرفاهية وانما كان الناس يخرجون على الرواحل والزوامل فيضحون للشمس وينصبون فى سبيل الله تعالى ويشعثون ويغبرون ويقل أكلهم ونومهم وتكثر رفاهة الابل وتقل المشقة والحمل عليها فيكون ذلك أثوب لهم وأزكى لحجهم وأدنى الى السلامة لابلهم ويوافقون بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم فاخرجهم من جميع ذلك بما أدخلهم فيه من بدعته فصاروا يخرجون فى بيوت مخيلة مع الحمل على الابل مالا تطيق فيكون سبب تلفها فيشركونه فيه ويشركهم بسنته وابتدع أيضا هذه الاخماس والعواشر ورؤس الآى وحمر السواد وخضره وصفره فادخل فى المصحف ما ليس فيه من الزخرف وكان السلف يقولون جردوا القرآن كما أنزله الله تعالى ولاتخلطوا به غيره فانكر العلماء ذلك عليه حتى قال أبو رزين يأتى على الناس زمان ينشأ فيه نشء يحسبون ان ما أحدث الحجاج فى المصاحف هكذا أنزله الله تعالى يذمه بذلك وحتى نقل الاختلاف وان بعضهم كان لا يقرأ فى مصحف منقوط بحمرة لان بعضهم كان لا يرى القراءة فى مصحف منقوط كما نقل أن بعضهم كان يرى شراء المصحف ويكره بيعه أى

وكذلك اذا لم تنقطه انت فلا بأس ان تقرأ فيما نقطه غيرك وقد كانوا يكرهون أخذ الاجر على تنقيط القرآن لأجل انه مبتدع وقال أبو بكر الهذلى سألت الحسن رحمه الله عن تنقيط المصاحف بالاجر قال وما تنقيطها قلت يعربون الكلم بالعربية فقال أما اعراب القرآن فلا بأس به وقال خالد الحذاء دخلت على ابن سيرين فرأيته يقرأ فى مصحف منقوط وقد كان يكره النقط وقال فراس بن يحيى وجدت ورقا منقوطا بالنحو فى سجن الحجاج فعجبت منه وكان أول نقط رأيته فاتيت به الشعبي فاخبرته فقال لى اقرأ عليه ولا تنقطه أنت بيدك ومنها انه جمع من القراء ثلاثين رجلا فكانوا يعدون حروف المصحف و يعدون كلمه شهرا ولو رآهم عمر أوعثمان أوعلى يصنعون هذا بالقرآن أى يعدون حروفه وكلمه لاوجع رؤسهم ضربا وهذا الذى كرهته الصحابة ووصفوا به قراء آخر الزمان انهم يحفظون حروفه و يضيعون حدوده وكان الحجاج أقرأ القراء واحفظهم لحروف القرآن كان يختم القرآن فى كل ثلاث وكان أضيع الناس لحدوده ومنها انه ابتدع اخراج الحصى والرمل من المساجد وفرشها بالبوارى كما روى أن قتادة سجد فدخلت فى عينه قصبة وكان ضريرا فقال لعن الله الحجاج ابتدع هذه البوارى يؤذى بها المصلين وقد كانوا يستحبون السجود على الأرض والتراب تواضعا لله تعالى وتخشعا وذلا الى غير ذلك من بدعه التى لم نقصد تعديدها عليه ولا جمعها فهى اليوم سنن معروفة وشرائع مألوفة مع ما أحدث غيره مما يكثر تعداده منكر كله عند من عرف المعروف من سيرة المتقدمين وشمائل الصالحين وقد قال ابن مسعود رضى الله عنه يظهر المنكر والبدع حتى اذا غير منها شىء قيل غيرت السنة وقال فى آخر حديثه أكيسهم فى ذلك الزمان الذى يروغ بدينه روغان الثعالب وقد كان أنس بن مالك رضى الله عنه فى سنة ثمانين و أيام الحجاج يقول ما أعرف اليوم شيأ كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا قد غير الا شهادة ان لا اله الا الله قيل فالصلاة يا أبا حمزة قال أو ليس قد أحدثوا فى الصلاة ما علمتم يعنى تأخيرها والتثويب قبلها وتعيين السلام حتى انهم يضاهون به الاقامة فجعلوه كالسنة وكان يقول للقراء اذا دخلوا عليه مثل يزيد الرقاشى و زياد النميرى وفرقد السنجى ما أشبهكم باصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فيفرحون فيقول نعم رؤسكم ولحاكم فهذا كما قال المجنون

أما الخيام فانها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

وعن جماعة من الصحابة لو نشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأوكم لما عرفوا شيأ مما أنتم عليه الآن الا الصلاة فى جماعة وفى لفظ آخر الا انكم تصلون جميعا وكان الحسن يقول صحبت طوائف لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو رأوا اخياركم لقالوا ما لهؤلاء من خلاق وقال أبو حازم أدركت القراء وهم القراء حقا ولو كان حامل القرآن فى مائة رجل لعرف بشدة تواضعه وحسن

سمته وخشوعه وقد وقره القرآن فى سمتــه وقد خضعه القرآن وأخشعه فاما هؤلاء فوالله ماهم بالقراء ولـكنهم الجراء وقد قال بعضهم كنا نشهد الجنازة فلا نعرف صاحب المصيبة ولا ندرى من نعزى من شدة حزن القوم قال وكان أحدهم يبقى بعد شهود الجنازة ثلاثا لا ينتفع به وكان الفضـيل رحمه الله يحذر من قراء زمانه فقال اياك وصحبة هؤلاء القراء فانك ان خالفتهم فى شىء كفروك وقال سفيان الثورى رحمه الله ما شىء أحب الى من صحبة فتى ولا شىء أبغض الى من صحبة قارىء وكان كثيرا يقول من لم يحسن يتغنى لم يحسن يتقرى وكان بشر بن الحارث يقول لان أصحب فتى أحب الى من أن أصحب قارئا فاياك وصحبة القراء فانهم يذمون غير مذموم وان تركت الصلاة معهم فى جماعة تشاهدوا عليك كل ذاك لأنهم يجاوزون الحد فى الشىء ويسرعون الانكار الى كل شىء لغلبـة الجهل عليهم وقلة مجالستهم للعلماء ومعاناتهم للعـلم وانهم موصوفون بدقائق الرياء والتصنع للعامة فينكرون غير منكر ويتعصبون بالبغضة والهجر فى الشىء اليسير الذى قد يغتفر مثله وهم غير موصوفين بمحاسن الأخلاق ولا موسومين بالبشاشة والانطلاق اذ فيهم كزازة وتغليظ على الناس ولزازة وحنق على الأغنياء حتى كأنهم يأكلون أرزاقهم وكأنهم يعملون العبادة لهم وفيهم كثرة مقت لاهل البشر والطلاقة فلذلك قال بعضهم الشريف اذا تقرى تواضع والوضيع ان تقرى تكبر وقال آخر السفلة اذا تقرى أكثر الأمر بالمعروف واعترض على جيرانه فى كل شىء يعنى أكثر الأمر بالمعروف ليعرف به فمن أجـل ذلك رفضهم العلماء وذمهم الحكماء لان العلم يبسط ويوسع وتكون معه الأخلاق الحسنة والآداب والمروآت الواسعة والعالم يضع الأشياء فى مواضعها من الناس ولا يجاوزها ولا يبهم المقادير ويستخرج لهم المعاذير ومن صفة العلماء الانقباض فى بسط خلق وقد قال الامام الشافعى رحمه الله الانقباض على الناس مكسبة لعداوتهم فكن بين المنقبض والمنبسط وفى الخبر انكم لا تسعون الناس باموالكم فليسعهم منكم وجه طلق وخلق حسن وفى لفظ آخر وبشر وبشاشة وهذا كله معدوم من القراء ولا يعرفونه وقد جعل الله تعالى لكل شىء قدرا فمن تعدى حد الشىء فقد أفسده وقال بعض السلف قليل التواضع يكفى من كثير العمل وقليل الورع يكفى من كثير العلم ومن أخلاق السلف مما تهاون به الخلف انهم كانوا يعدون من النفاق أن يتكلم الرجل فيمن يكلمه أو يكلم من تكلم فيه لانهم كانوا اذا كلموا أحدا أو سلموا عليه سلمت له قلوبهم ولم يتكلموا فيه واذا تـكلموا فى أحد لبدعته أو ظهور فسقه لم يكلموه وكانوا اذا مدحوا أحدا بقول لم يذموه بفعل واذا ذموا واحدا بفعـل لم يمدحوه بقول لان فى ذلك لسانين واختلاف وجهين واختـلاف سر وعلانية وكانوا يقولون معنى سلام عليـك اذا لقيته أى سلمت منى ان اغتابك وأذمك فكان اختلاف هـذا عندهم من أبواب النفاق وروينا عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وفى حديث آخر من كان ذالسانين فى الدنيا جعل الله له يوم القيامة لسانين من نار وكان بعضهم يقول ما ذكر عندى انسان قط الامثلته جالسا فقلت فى غيبته بما يحب أن يسمع وقال آخر ما ذكر عندى رجل الا تصورت فى نفسى مثاله فكل ما أحب أن يقل لى قلته له وقال بعض السلف قليل التواضع يكفى عن كثير العمل وقليل الورع يكفى عن كثير العلم فهذه كانت صفات المسلمين الذين يسلم الناس على أيديهم وقلوبهم كان أحدهم اذا ذكر عنده غيره بسوء وقف وتفكر فى شأن نفسه فان كان فيه مثل ذلك السوء قطعه الحياء عن الكلام فى أخيه فسكت وان لم يكن ذلك فيه حمد الله عز وجل ورحم أخاه فشغله الشكر لمولاه اذ عافاه فهذه كانت سيرة السلف ويقال فى بعض كتب الله تعالى عجبا لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ولمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب وأعجب من ذلك من أحب نفسه على اليقين وأبغض الناس على الشك ومن طريقة السلف مما كانوا يشددون فيه حب المدح وطلب الحمد حتى قال بعضهم من أحب المدح وكره الذم فهو منافق وقال عمر رضى الله عنه لرجل من سيد قومك قال انا قال لوكنت كذلك لم تقل وكتب محمد بن كعب فانتسب فقال القرظى قيل له قل الانصارى قال أكره ان أمن على الله عز وجل بما لم أفعل وقال الثورى رضى الله عنه اذا قيل لك بئس الرجل أنت تغضب فانت بئس الرجل وقال آخر لا يزال فيك خير ما لم تر أن فيك خيرا وسئل بعض العلماء ما علامة النفاق قال الذى اذا مدح بما ليس فيه ارتاح لذلك قلبه وكان سفيان رضى الله عنه يقول اذا رأيت الرجل يحب أن يحبه الناس كلهم ويكره أن يذكره أحد بسوء فاعلم أنه منافق فهذا داخل فى وصف الله تعالى المنافقين بقوله تعالى ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم فينبغى لمن أمن فى أهل السنة أن يخاف فى أهل البدع وهذا مما دخل على القراء الذين ذمهم العلماء مداخل الليل فى النهار ولعل مغرورا جاهلا يتأول الحديث الذى جاء اذا مدح المؤمن ربا الايمان فى قلبه على غير تأويله ويحمله على غير محمله فانما قال ربا الايمان ولم يقل ربا المؤمن فربو الايمان زيادته وزيادته بالخوف والاشفاق من المكر به والاستدراج وفيه طريق للعارفين بأن يعلو الايمان العلى الى المؤمن الاعلى فيفرح بذلك لمولاه ويضيفه الى سيده الذى به تولاه فيرد الصنعة الى صانعها ويشهد فى الفطرة فاطرها فيكون ذلك مدحا للصانع ووصفا للفاطر لا ينظر الى نفسه ولا يعجب بوصفه وهذه طرقات قد درست وانقطع سلاكها الاءن رحم ربك

باب تفضيل علم الايمان واليقين على سائر العلوم والتحذير من الزلل فيه وبيان ما ذكرناه

اعلم ان كل علم من العلوم قد يتأتى حفظه ونشره لمنافق أو مبتدع أو مشرك اذا رغب فيه وحرص

عليه لانه نتيجة الذهن وثمرة العقل الا علم الايمان واليقين فانه لايتأتى ظهوره بشاهدته والكلام فى حقائقه الا لمؤمن موقن من قبل ان ذلك تقرير مزيد الايمان وحقيقة العلم والايقان فهو آيات الله تعالى وعهده عن مكاشفة قدرته وعظمته وآيات الله تعالى لا تكون للفاسقين وعهده لا ينال الظالمين وعظمته وقدرته لاتكون شهادة للزائغين ولا وجد للبطلين اذ فى ذلك توهين لآيات الله وحججه وانتقاص لبراهينه وقدرته ودخول الشك فى اليقين الذى هو محجة المخاصين والذين هم بقية الله تعالى من عباده واشتباه الباطل بالحق الذى هو وصف أهل الصدق الذين هم أدلته عليه من أهل وداده وهذا من أدل دليل على فضل علم المعرفة على غيره قال الله عزوجل أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل وقال تعالى بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتو العلم وقال سبحانه وتعالى ان فى ذلك لآيات للمتوسمين وقال قد بينا الآيات لقوم يوقنون وقال عز وجل ولنبينه لقوم يعلمون فهؤلاء العلماء بالله تعالى الناطقون عن الله عز وجل جعل لهم أنصبة منه ومكانا عنده ولايكون ذلك لمن ليس أهلا له ولا حقيقا به لانهم آيات الله تعالى وبيناته وشهوده وبصائره كاشفو طريقه ومظهرو بيانه اذ يقول تعالى ثم ان علينا بيانه ثم قال تعالى خلق الانسان علمه البيان بعد قوله وكان حقا علينا نصر المؤمنين مع قوله تعالى وكانوا أحق بها وأهلها فنصروه بما نصرهم به وتحققوا بما حققهم منه وشهدوا له ما شهد لهم عنه فكانوا للمتقين اماما والى الهداية أعلاما وقال بعض أهل المعرفة من لم تكن له مشاهدة من هذا العلم لم يعر من شرك أو نفاق لأنه عار من علم اليقين ومن عرا من اليقين وجد فيه دقائق الشك وقال بعض العارفين من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لاهله وقال آخرون من كان فيه خصلتان لم يفتح له من هذا العلم شيء بدعة أو كبر وقال طائفة من أهله من كان محبا للدنيا أو مصرا على هوى لم يتحقق به وقال أبو محمد سهل أقل عقوبة من أنكر هذا العلم ان لايرزق منه شيئا أبدا واتفقوا على أنه علم الصديقين وان من كان له منه نصيب فهو من المقربين وينال درجة أصحاب اليمين واعلم ان علم التوحيد ومعرفة الصفات مباين لسائر العلوم فالاختلاف فى سائر العلوم الظاهرة رحمة والاختلاف فى علم التوحيد ضلال وبدعة والخطأ فى علم الظاهر مغفور وربما كانت حسنة اذا اجتهد والخطأ فى علم التوحيد وشهادة اليقين كفر من قبل ان العباد لم يكلفوا حقيقة العلم عند الله تعالى فى طلب العلم الظاهر وعليهم واجب طلب موافقة الحقيقة عند الله فى التوحيد ومن ابتدع شيئا ردت عليه بدعته وكان مسؤلا عنه ولم يكن حجة لله تعالى على عباده ولا غيثا نافعا فى بلاده بل كان موصوفا بالدنيا وفيها من الراغبين ولم يكن دليلا على الله عز وجل ولا من دعاة الدين ولا اماما للمتقين وقدجاء فى الخبر العلماء أمناء الرسل

ما لم يدخلوا فى الدنيا فاذا دخلوا فى الدنيا فاحذروهم على دينكم والخبر المشهور من أحدث فى ديننا ما ليس فيه فهو رد وقد روينا عن عيسى عليه السلام وقيل له من أشد الناس فتنة فقال زلة عالم اذا زل زل بزلته عالم وقد روينا معناه عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مما أخاف على أمتى زلة عالم وجدال منافق فى القرآن وكان بعض السلف يقول مثل العالم اذا زل مثل سفينة اذا غرقت غرق معها خلق كثير ومثل كسوف الشمس يصيح الناس يا غافلون الصلاة وانها عند العامة آية يفزع منها ويروى فى خبر غريب من غش أمتى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين قيل يارسول وما غش أمتك قال ان يبتدع بدعة فى الاسلام يحمل الناس عليها وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول ويل للعالم من الاتباع وويل للاتباع من العالم يزل العالم بزلة فيتبعه عليها فئام من الناس وتبلغ الآفاق وما أعلم أحدا أعظم جرما ممن ابتدع فى دين الله عز وجل فنطق فى كتاب الله تعالى وفى علم المعرفة بما لم يأذن به الله ثم لم يعبأ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى هو حجة الله تعالى على جميع خلقه وطريق مقربيه من عباده فاضل بذلك عباد الله عزوجل فان مثل من ابتدع فى الدين واتخذ وليجة دون الكتاب والسنة وبين طريق المؤمنين الى جنب من يكاثر فى أمور الدنيا وارتكب فيها شهوات الاهواء كمثل من اجترح المظالم بين الناس فى الأموال والدماء الى جنب من ظلم نفسه بكسب الذنوب بينه وبين ربه ان مظالم العباد أعظم وهو الديوان الذى لا يترك كذلك التمويه فى الدين أعظم لأنه مظالم الآخرة وقطع طرقات المؤمنين ومحو شريعة المرسلين ومثله أيضا مثل من أذنب وجحد ذنبه واحتج لنفسه الى من أذنب واعترف بذنبه واعتذر من نفسه فهو أقرب للعفو وأرجى للرحمة من الآخر كذلك من اعتل بالتقصير والتفريط فى العمل ولم ينصح لنفسه الا أنه أظهر حقيقة العلم ونصح لله تعالى ولرسوله ببيان كتابه وذكر سنته أقرب الى حسن الاخلاص وأولى بالتدارك فى العافية ممن شرع فى دين الله تعالى وابتدع فى الامة ما يخالف به الكتاب والسنة هكذا كأنه قد قلب ملة وبدل شريعة فهذا يولد النفاق فى قلبه حتى يختم له به ومثل من ابتدع فى الملة مخالفا للسنة الى من أساء الى نفسه بالذنوب مثل من عصى الملك فى قلب دولته وتظاهر عليه فى ملكه بالازالة الى جنب من عصى أمره وقصر فى حقه من الرعية وقد قال بعض الحكماء ثلاث لايحسن من الملك أن يغفرها من قلب دولة من رعيته أو عمل فيما يوهن الملك أو أفسد حرمة من حرمه وروينا عن النبى صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى ملكا ينادى كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنله شفاعته وقال على كرم الله وجهه الهوى شريك العمى وقال الله تعالى ومن أصدق من الله قيلا ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ثم قال تعالى أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله فسوى بين الكذاب فى

الفرية على الله تعالى و بين المشتبه المضاهى للربوبية و كذلك من أعظم المنكر بعد هذا انكار الحق من أهله و رده عليهم بالتكذيب وقد سوى الله تعالى أيضا بين التكذيب بالحق و بين ابتداء الكذب على الخالق فى قوله عز وجل ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه وقال تعالى فى مثله فمن أظلم ممن كذب على الله و كذب بالصدق اذ جاءه كذلك أيضا فى ضده سوى كما سوى عز وجل بين الصادق بالصدق والمصدق به فقال تعالى والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم العالم والمتعلم شريكان فى العلم وقال أبو عيسى عليه السلام بمعناه المستمع شريك القائل ولكن الله تعالى قد جعل هذه الطائفة من أهل العلم بالله تعالى ترد على جميع الطوائف من الشاطحين والمبتدعين أهل الجهالة بالدين والحيدة عن سبيل المؤمنين بما أراهم الله تعالى من علم اليقين وبما شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم والتعديل فى قوله يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين فالغالون هم الشاطحون لانهم قد جاوزوا العلم ومحوا الرسم فاسقطوا الحكم والمبطلون هم المدعون المبتدعون لانهم جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق وافتروا بالدعوى وابتدعوا بالرأى والهوى والجاهلون هم المنكرون لغرائب العلم المفترون لما عرفوا من ظاهر العقل كما روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم ان من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه الا أهل المعرفة بالله عز وجل فاذا نطقوا به لم يجهله الا أهل الاغترار بالله تعالى ولا تحقروا عالما آتاه الله تعالى علما فان الله عز وجل لم يحقره اذ آتاه وكل من تأول السنن بالرأى أو المعقول أو نطق بما لم يسبق اليه السلف من القول أو بمعناه فهو متكلف مبطل فأهل العلم بالله تعالى يردون علوم المعقول بعلم اليقين وعلم الرأى بعلم السنة و يثبتون أهل الآثار و يؤيدون نقلة الاخبار بما يفصلون من أخبارهم ويفسرون من حديثهم مما لم يجعل للنقلة طريق اليه ولم يهتد الرواة الى كشف منه بما أشهدهم الله عز وجل واستودعهم ونور به قلوبهم ونصقهم فهم ينطقون عن الله سبحانه وتعالى فيما يخبرون عنه ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وجعلنا منهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون وقد قال بعض العلماء ما تكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء وما سكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف وقال آخر الحق ثقيل من جاوزه ظلم ومن قصر عنه عجز ومن وقف معه اكتفى وقال على رضى الله عنه عليكم بالنمط الاوسط الذى يرجع اليه العالى ويرتفع عنه القالى وهكذا سيرة السلف أنه لا يستمع الى مبتدع لانه منكر ولا يرد عليه بالجدال والنظر لانه بدعة ولكن يخبر بالسنن ويحتج بالاثر فان قبل فهو أخوك فى الله عز وجل ووجبت عليك موالاته وان لم يرجع وأنكر نقض بانكاره وعرف ببدعته وحقت عداوته وهجر فى الله تعالى وهذا طريق لا يسلكه في وقتنا هذا الا من عرف فضله وطريقة السلف فيه

وحدثت عن ابليس لعنه الله انه بث جنوده فى وقت الصحابة فرجعوا اليه محسورين فقال ما شأنكم قالوا ما رأينا مثل هؤلاء القوم ما نصيب منهم شيأ قد أتعبونا فيقول انكم لا تقدرون عليهم قد صحبوا نبيهم وشهدوا تنزيل ربهم ولكن سيأتى بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم فلما جاء التابعون بث جنوده فيهم فرجعوا اليه منكسرين منكوسين فقال ما شأنكم قالوا ما رأينا أعجب من هؤلاء القوم نصيب منهم الشيء بعد الشيء من الخطايا فاذا كان من آخر النهار أخذوا فى الاستغفار فتبدل سيآتهم حسنات فقال انكم لن تنالوا من هؤلاء شيأ لصحة توحيدهم واتباعهم سنة نبيهم ولكن سيأتى بعد هؤلاء قوم تقر أعينكم بهم تلعبون بهم لعبا وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم ان استغفروا لم يغفر لهم ولايتوبون فتبدل حسناتهم سيئات قال فجاء قوم بعد القرن الاول فبعث فيهم الاهواء وزين لهم البدع فاستحلوها واتخذوها دينا لايستغفرون منها ولا يتوبون الى الله قال فتسلطت عليهم الاعداء وقادتهم أين شاؤا وقد قال ابن عباس رضى الله عنه ان للضلالة حلاوة فى قلوب أهلها وقد قال الله تعالى اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وقال تعالى أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا كما قال تعالى أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه فالعلم رحمك الله هو الذى كان عليه السلف الصالح المقتفى آثارهم والخلف التابع المقتدى بهديهم وهم الصحابة أهل السكينة والرضا ثم التابعون لهم باحسان من أهل الزهد والنهى والعالم هو الذى يدعو الناس الى مثل حاله حتى يكونوا مثله فاذا نظروا اليه زهدوا فى الدنيا لزهده فيها كما كان ذو النون رحمه الله يقول جالس من يكلمك علمه لامن يكلمك لسانه وقد قال الحسن رضى الله عنه قبله عظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك وقال سهل رحمه الله العلم يهتف بالعمل فان أجابه والا ارتحل وقد روينا معنى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قيل له أى جلسائنا خير فقال من ذكركم بالله تعالى رؤيته وزاد فى علمكم منطقه وذكركم بالآخرة عمله فأما الذى يطلب دنياهم حتى يكون مثلهم فاذا رأوه اغتبطوا بحالهم فهذا شر منهم لانه يدعو الى نفسه لا الى مولاه ولانه طامع فيهم وهم زاهدون فيه فالعلماء الذين هم ورثة الانبياء هم الورعون فى دين الله عز وجل الزاهدون فى فضول الدنيا الناطقون بعلم اليقين والقدرة لا علم الرأى والهوى الصامتون عن الشبهات والآراء لايختلف هذا الى يوم القيامة عند العلماء الشهداء على الله تعالى برأى قائل ولا بقول مبطل جاهل كما روى عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم صلح أول هذه الامة بالزهد واليقين ويهلك آخرها بالبخل والامل وقال يوسف بن اسباط كتب الى حذيفة المرعشى ما ظنك بمن قد بقى لايجد أحدا يذكر الله تعالى معه الا كان آثما وكانت مذاكرته معصية وذلك أنه لا يجد أهله قلت ليوسف يا أبا محمد وتعرفهم قال لا يخفون علينا ويقال ان الابدال انما انقطعوا فى أطراف الارض واستتروا

عن أعين الجمهور لانهم لا يطيقون النظر الى علماء هذا الوقت ولا يصبرون على الاستماع لكلامهم لانهم عندهم جهال بالله تعالى وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء فقد صاروا من أهل الجهل وأهل الجهل بالجهل على الوصف الذى قال سهل رحمه الله ان من أعظم المعاصى الجهل بالجهل والنظر الى العامة واستماع كلام أهل الغفلة أيسر عندهم لانهم لا يدعون ذلك حيث كانوا من أطراف الامصار لان العامة لا يموهون فى الدين ولا يغرون المؤمنين ولا يدعون أنهم علماء لانهم يتعلمون و بالجهل معترفون فهم الى الرحمة أقرب ومن المقت أبعد وكان أبو محمد أيضا يقول قسوة القلب بالجهل بالعلم أشد من القسوة بالمعاصى لان الجاهل بالعلم تارك ومدع والعاصى بالفعل مقر بالعلم ويقول أيضا لان العلم دواء به تصلح الادواء فهو يزيل فساد الأعمال بالتدارك والجهل داء يفسد الأعمال بعد صلاحها فهو يزيل الحسنات فيجعلها سيئات فكم بين ما يصلح الفاسد و بين ما يفسد الصالحات وقد قال الله تعالى ان الله لا يصلح عمل المفسدين وقال تعالى انا لا نضيع أجر المصلحين فهذا من أدل دليل على فضل العالم المقصر على العابد المجتهد واعلم ان العبد اذا باين الناس فى كل شيء من أحوالهم انفرد عن جمعهم ولم يألف أحدا منهم وان باينهم فى أكثر أحوالهم اعتزل عن الاكثر منهم فان فارقهم فى بعض الأحوال ووافقهم فى بعض حاله خالط أهل الخير وفارق أهل الشر

باب تفضيل الاخبار و بيان طريق الارشاد وذكر الرخصة والسعة فى النقل والرواية

جميع ما ذكرناه فى هذا الكتاب من الاخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم عن الصحابة وعن التابعين وتابعيهم رسمناه حفظا وسقناه على المعنى الا يسيرا اتفق وجوده فى أيدينا وقرب تناوله منا من أخبار فيها طول فانا نقلناها من مواضعها وما بعد عنا فلم نفقه ولم نشغل همتنا به فما كان فيه من صواب وبيان وتثبت فمن الله تعالى بحسن توفيقه وقوة تأييده وما كان فيه من خطأ وعجلة وهوى فمنا بالسهو والغفلة ومن عمل الشيطان بالعجلة والنسيان كذلك روينا عن ابن مسعود رضى الله عنه فى قضيته التى قضاها برأيه وقولنا لرأيه تبع وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم البيان والتثبت من الله عز وجل والعجلة والنسيان من الشيطان يعنى بواسطته وبقلة التوفيق ولم أعتبر ألفاظ الاخبار فى أكثره ولم آل عن سياق المعنى فى كله اذ ليس تحرير الالفاظ عندى واجبا اذا أتيت بالمعنى بعد أن تكون عالما بتصريف الكلام وبتفاوت وجوه المعانى مجتنبا لما يكون به تحريف أو احالة بين اللفظين وقد رخص فى سوق الحديث على المعنى دون سياقه على اللفظ جماعة من الصحابة منهم على وابن عباس وأنس بن مالك وواثلة بن الاسقع وأبو هريرة ثم جماعة من التابعين يكثر عددهم منهم امام الأئمة الحسن البصرى ثم الشعبي وعمرو بن دينار وابراهيم النخعى ومجاهد وعكرمة رضي الله

عنهم نقلنا ذلك عنهم فى كتب سيرهم بأخبار مختلفة الالفاظ وقال ابن سيرين كنت أسمع الحديث من عشرة المعنى واحد والالفاظ مختلفة ولذلك اختلف الصحابة فى رواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنهم من يرويه تاما ومنهم من يجيء به مختصرا ومنهم من يرويه على المعنى وبعضهم يغاير بين اللفظتين و يراه واسعا اذا لم يخالف المعنى ولم يحل البغية وكلهم لا يتعمد الكذب وجميعهم يقصد الصدق ومعنى ما سمع ولا يحل البغية فلذلك وسعهم وكانوا يقولون انما الكذب على من تعمده وقد روينا عن عمران ابن مسلم قال قال رجل للحسن يا أبا سعيد انك تحدث بالحديث أنت أحسن له سياقا وأجود تحبيرا وأفصح به لسانا منا اذا حدثتنا به فقال اذا أصبت المعنى فلا بأس بذلك وقد قال النضر بن شميل كان هشام لحانا فكسوت لكم حديثه كسوة حسنة يعنى بالاعراب و كان النضر نحويا ونحن قائلون فى جميع ما رويناه أو كما قيل ونحوه وشبهه وبمعناه كذلك قال ابن مسعود فى حديثه وكان سليمان التيمى يقوله فى كل مايحدث به وقد كان سفيان رحمه الله يقول اذا رأيت الرجل يشدد فى ألفاظ الحديث فى المجلس فاعلم أنه يقول اعرفونى قال وجعل رجل يسأل يحيى بن سعيد القطان عن حرف فى الحديث على لفظه فقال له يحيى ياهذا ليس فى أيدينا أجل من كتاب الله تعالى وقد رخص بالقراءة فيه بالكلمة على سبعة أحرف فلا تشدد وفى بعض ما رويناه مراسيل ومقاطيع ومنها مافى سنده مقال و ربما كان المقطوع والمرسل أصح من بعض المسند اذ رواه الأئمة وجاز لنا رسم ذلك لمعان أحدها انا لسنا على يقين من باطلها والثانى ان معنا حجة بذلك وهو روايتنا له وانا قد سمعنا فان أخطأنا الحقيقة عند الله تعالى فذلك ساقط عنا كما قال الاسباط وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين فى قولهم ان ابنك سرق فاخطؤا الحقيقة عند الله تعالى الا انهم كانوا معذورين لوجود الدليل وهو شهادتهم للصاع مستخرج من رحل أخيهم والثالث أن الأخبار الضعاف غير مخالفة الكتاب والسنة لا يلزمنا ردها بل فيهما ما يدل عليها والرابع انا متعبدون بحسن الظن منهيون عن كثير من الظن مذمومون بظن السوء والخامس أنه لا يتوصل الى حقيقة ذلك الا من طريق المعاينة ولا سبيل اليها فاضطررنا الى التقليد والتصديق بحسن الظن بالنقلة مع ما تسكن اليه قلوبنا وتلين له أبشارنا ونرى أنه حق كما جاء فى الخبر وأيضا فانه ينبغى أن نعتقد فى سلفنا المؤمنين انهم خير منا ثم نحن لا نكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا على التابعين فكيف نظن بهم أن يكذبوا وهم فوقنا على أنه قدجاءت أحاديث ضعاف بأسانيد صحاح فكذلك يصلح أن نورد أحاديث صحاحا بسند ضعيف لاحتمال أن يكون قد روى من وجه صحيح اذ لم نحط بجملة العلم أو لان بعض من يضعفه أهل الحديث يقويه بعضهم وبعض من يجرحه ويذمه أحد يعدله و يمدحه آخر فصار مختلفا فيه فلم يرد حديثه بقول واحد دون من فوقه أو مثله

أو لأن بعض ما يضعف به رواة الحديث وتعلل به أحاديثهم لا يكون تعليلا ولا جرحا عند الفقهاء ولا عند العلماء بالله تعالى مثل أن يكون الراوى مجهولا لايثاره الخمول وقد ندب اليه أو لقلة الاتباع له اذ لم يقم لهم الاثرة عنه أو ينفرد بلفظ أو حديث حفظه أو خص به دون غيره من الثقات أو يكون غير سائق للحديث على لفظه أولا يكون معتنيا بحفظه ودرسه وقد يتكلم بعض الحفاظ بالاقدام والجراة فيجاوز الحد فى الجرح ويتعدى فى اللفظ ويكون المتكلم فيه أفضل منه وعند العلماء بالله تعالى أعلى درجة فيعود الجرح على الجارح أو يكون رأى عليه لباسا أو سمع منه كلاما يجرحه عند الفقهاء عاله به بعض القراء من الرواة وأن بعض من يضعفه أصحاب الحديث هو من علماء الآخرة ومن أهل المعرفة بالله تعالى وله فى الرواية والحديث مذاهب غير طريقة بعض أصحاب الحديث فيعمل فى روايته بمذهبه فلا يكون أصحاب الحديث حجة عليه الا كان هو حجة عليهم اذ ليس هو عند أصحابه من العلماء دون أصحاب الحديث ممن ضعفه اذ رأى غير رأى مذهبه وقال بعض العلماء الحديث وان كان شهادة فقد وسع فيه بحسن الظن كما جوز فيه قبول شهادة واحد أى للضرورة كشهادة القابلة ونحوها وروينا معناه عن الامام احمد بن حنبل رضى الله عنه والحديث اذا لم ينافه كتاب أو سنة وان لم يشهد اله ان لم يخرج تأويله عن اجماع الأمة فانه يوجب القبول والعمل بقوله صلى الله عليه وسلم كيف وقد قيل والحديث الضعيف عندى آثر من الرأى والقياس وهذا مذهب الامام أبى عبد الله احمد بن حنبل رضى الله عنه والحديث اذا تداوله عصران أو رواه القرون الثلاثة أودار فى العصر الواحد فلم ينكره علماؤه وكان مشهورا لا ينكره الطبقة من المسلمين احتمل ووقع به حجة وان كان فى سنده قول الاما خالف الكتاب والسنن الصحيحة أو اجماع الأمة أو ظهر كذب ناقليه بشهادة الصادقين من الأئمة وقال وكيع بن الجراح ما ينبغى لأحد أن يقول هذا الحديث باطل لأن الحديث أكثر من ذلك وقال أبو داود قال أبو زرعة الرازى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألف عين تطرف كل واحد قد روى عنه ولو حديثا ولو كلمة أو رواية لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من أن يحصى وذكر رجل عند الزهرى حديثا فقال ماسمعنا بهذا فقال أكل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعت قال لا قال فثلثاه قال لا قال فنصفه فسكت وقال عد هذا من النصف الذى لم تسمعه وقال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه كان يزيد بن هرون يكتب عن الرجل وهو يعلم أنه ضعيف وكان له ذكاء وعلم بالحديث وقال اسحق بن راهويه قيل للامام أحمد بن حنبل هذه الفوائد التى فيها المناكير ترى أن نكتب الجيد منها فقال المنكر أبدا منكر قيل له فالضعفاء قال قد يحتاج اليهم فى وقت كأنه لم ير بالكتابة عنهم بأسا وقال أبو بكر المروزى عنه ان

الحديث عن الضعفاء قد يحتاج اليه ومما يدلك على مذهبه فى التوسعة أنه أخرج حديثه كله فى المسند المأثور عنه الذى رويناه عن أشياخنا عن ابنه عبد الله عنه ولم يعتبر الصحيح منه وفيه أحاديث كثيرة يعلم الثقات أنها ضعيفة وهو أعلم بضعفها منهم ثم أدخلها فى مسنده لانه أراد تخريج المسند ولم يقصد تصحيح السند فاستجاز رواياتها كما سمعها وقد كان قطع أن يحدث الناس فى سنة ثمان وعشرين وتوفى فى سنة احدى وأربعين فلم يسمع أحد منه فى هذه المدة الا ابنه عبد الله وابن منيع جزأ واحدا بشفاعة جده أحمد بن منيع وحدثونا عنه أعنى الامام أحمد قال كان عبد الرحمن ينكر الحديث ثم يخرج الينا بعد وقت فيقول هو صحيح قد وجدته قال وأما وكيع فلم ينكر ولكن يقول اذا سئل عنه لا أحفظه وحدثونا عن ابن أخت عبد الرحمن بن مهدى قال كان خالى قد خط على أحاديث ثم صحح عليها بعد ذلك وقرأتها عليه فقلت قد كنت خططت عليها قال نعم ثم تفكرت فاذا انى ان ضعفتها أسقطت عدالة ناقليها فان حاجنى بين يدى الله تعالى وقال لم أسقطت عدالتى رأيتنى سمعت كلامى لم يكن لى حجة هذا كان مذهب الورعين من السلف وقد كان بعضهم يقول كنا نترك مجالسة شعبة لانه كان يدخلنا فى الغيبة وانما كان كلامه فى التضعيف وقال بعضهم فى تضعيف الرواة ان خلصت نيتك يعنى ان أردت الله عز وجل والدين بذلك لم يكن لك ولا عليك فهذه الفصول التى ذكرناها هى أصول معرفة الحديث وهو علم لاهله وطريق هم سالكوه ثم حدث قوم لم يكن لهم علم يختصون به ولا حال من علم يوصفون به ولا شغل من عبادة تقطعهم فجلوا لنفوسهم علما تشاغلوا به وشغلوا من استمع اليهم فصنفوا كتبا وأخذوا يتكلمون فى نقلة الاخبار بالتعليل وتتبع العثار فطرقوا لاهل البدع الى رد السنن وايثار الرأى والمعقول عليها لما يرون من طعنهم فيها واغتبطوا بالقياس والنظر لما وجدوا من زهدهم فى السنة والخبر سيما فى زمانك هذا والأحاديث فى الترغيب فى الآخرة والتزهيد فى الدنيا والترهيب لوعيد الله تعالى وفى فضائل الأعمال وتفضيل الأصحاب متقبلة محتملة على كل حال مقاطيعها ومراسيلها لا تعارض ولا ترد وكذلك فى أهوال القيامة ووصف زلازلها وعظائمها لا تنكر بعقل بل تتقبل بالتصديق والتسليم كذلك كان السلف يفعلون لان العلم قد دل على ذلك والأصول قد وردت به وقد روينا من بلغه عن الله فضيلة أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل بها أعطاه الله ثواب ذلك وان لم يكن ماقيل والخبر الآخر من روى عنى حقا فأنا أقوله وان لم أكن قلته ومن روى باطلا فانى لاأقول بالباطل وفى كل ما رسمناه من هذا الكتاب نقول الله أعلم وأحكم وعلمه المقدم وعنده حقائق العلوم واليه ترجع الأمور وما شاء كان والله المستعان ولا حول ولا قوة الا بالله وهذا آخر كتاب العلم وتفصيل العلوم و وصف طريق السلف ونشر ما أحدث بعدهم الخلف

الفصل الثانى والثلاثون

فيه شرح مقامات اليقين وأحوال الموقنين

أصول مقامات اليقين التى ترد اليها فروع أحوال المتقين تسعة أولها التوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والزهد والتوكل والرضا والمحبة وهذه محبة الخصوص وهى محبة المحبوب

ذكر فروض التوبة وشرح فضائلها ووصف التوابين

قال الله تعالى فى البيان الأول من خطاب العموم وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون معناه ارجعوا اليه من هوى نفوسكم ومن وقوفكم مع شهواتكم عسى أن تظفروا ببغيتكم فى المعاد وكى تبقوا ببقاء الله عز وجل فى نعيم لا زوال له ولا نفاد ولكى تفوزوا وتسعدوا بدخول الجنة وتنجوا من النار فهذا هو الفلاح وقال فى البيان الثانى من مخاطبته الخصوص يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيآتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فنصوحا من النصح جاء على وزن فعول للمبالغة فى النصح وقد قرئت نصوحا بضم النون فتكون حينئذ مصدر نصحت له نصحا ونصوحا فمعناه خالصة لله تعالى وقيل اشتقاقه من النصاح وهو الخيط أى مجردة لا تتعلق بشىء ولا يتعلق بها شىء وهو الاستقامة على الطاعة من غير روغان الى معصية كما تروغ الثعالب وأن لا يحدث نفسه بعود الى ذنب متى قدر عليه وأن يترك الذنب لاجل الله تعالى خالصا لوجهه كما ارتكبه لاجل هواه مجمعا عليه بقلبه وشهوته فمتى أتى الله عز وجل بقلب سليم من الهوى وعمل خالص مستقيم على السنة فقد ختم له بحسن الخاتمة فحينئذ أدركته الحسنى السابقة وهذا هو التوبة النصوح وهذا العبد هو التواب المتطهر الحبيب وهذا اخبار عمن سبقت له من الله الحسنى ومن تداركه نعمة من ربه رحمه بها من تلوث السوأى وهو وصف لمن قصده بخطابه اذ يقول فى كتابه ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له وسئل الحسن عن التوبة النصوح فقال هى ندم بالقلب واستغفار باللسان وترك بالجوارح واضمار أن لا يعود اليه وقال أبو محمد سهل رحمه الله ليس من الأشياء أوجب على هذا الخلق من التوبة ولا عقوبة أشد عليهم من فقد علم التوبة وقد جهل الناس علم التوبة وقال من يقول ان التوبة ليست بفرض فهو كافر ومن رضى بقوله فهو كافر وقال التائب الذى يتوب من غفلته فى الطاعات فى كل طرفة ونفس وقد جعل على كرم الله وجهه ترك التوبة مقاما فى العمى وقرنه باتباع الظن ونسيان الذكر فقال

فى الحديث الطويل ومن عمى نسى الذكر واتبع الظن وطلب المغفرة بلا توبة ولا استكانة ففرض التوبة الذى لا بد للتائب منه ولا يكون محقا صادقا الا به الاقرار بالذنب والاعتراف بالظلم ومقت النفس على الهوى وحل الاصرار الذى كان عقده على أعمال السيآت واطابة الغذاء بغاية مايقدر عليه لأن الطعمة أساس الصالحين ثم الندم على مافات من الجنايات وحقيقة الندم ان كان حقا اذ لكل حق حقيقة أن لا يعاود الى مثل ما وقع الندم عليه ثم اعتقاد الاستقامة على الأمر ومجانبة النهى وحقيقة الاستقامة أن لا يقابل مااستقبل من عمره بمثل ما وقع الاعوجاج به وان يتبع سبيل من أناب الى الله وأن لا يصحب جاهلا فيرديه ثم الاشتغال باصلاح ما أفسد فى أيام بطالته ليكون من المصلحين الذين تابوا وأصلحوا ما أفسدوا فان الله عز وجل لا يصلح عمل المفسدين كما لا يضيع أجر المحسنين ثم الاستبدال بالصالحات من السيآت والصالحات من الحسنات ليكون ممن تبدل سيآته حسنات لتحققه بالتوبة وحسن الانابة لأن التبديل يكون فى الدنيا يبدل بالاعمال السوأى أعمالا حسنى بدليل قوله تعالى ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فاذا غير مابهم من سيء حسنا بدل سيآتهم حسنات ثم الندم ودوام الحزن وحقيقة الندم والحزن على الفوت أن لا يفرط ولا ينى فى وقت دركه ولا يرجع ولا يتثنى فى حيز استبداله فيفوت نفسه وقتا ثانيا اذ كان يعمل فى درك مافات ولا يفوت ماأدرك فى حال تيقظه فتكون يقظته شبيها بما مضى من غفلته اذ كان فى درك مافات شبيها بما مضى من غفلته اذ لا يدرك الفوت بالفوت ولا ينال النعيم بالنعيم ليكون كما وصف الله تعالى وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا قيل الاعتراف والندم وقال أبو سليمان الدارانى لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره الا على فوت ما مضى منه فى غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك الى الممات فكيف بمن يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله وقال سهل بن عبد الله التائب لا يقلقه شيء يكون قلبه متعلقا بالعرش حتى يفارق النفس ولا عيش له الا الضرورة للقوام ويغتم على ما مضى والجد فى الأمر ومباينة النهى فيما بقى ولا يتم له ذلك الا باستعمال علم اليقين فى كل شيء ثم المتابعة باعمال الصالحات ليكون ممن قال الله تعالى ويدرؤن بالحسنة السيئة الآية أى يدفعون ما سلف من السيآت بمايعملون من الحسنات وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى ذر فاذا عملت سيئة فاعمل بعدها حسنة السر بالسر والعلانية بالعلانيه وفى وصية معاذ أتبع السيئة الحسنة تمحها وليدخل فى الصالحين كما قال الله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ثم المسارعة فى الخيرات اذا قدر عليها ليدرك بها ما ضيع وفات ليكون من الصالحين وفى هذا المقام يصلح لمولاه فيحفظه ويتولاه كما قال الله وهو يتولى الصالحين وجمل ما على العبد فى التوبة وما تعلق بها عشر خصال أولها فرض عليه أن لا يعصى

الله تعالى والثانية اذا ابتلى بمعصية لا يصر عليها والخصلة الثالثة التوبة الى الله تعالى منها والرابعة الندم على ما فرط منه والخامسة عقد الاستقامة على الطاعة الى الموت والسادسة خوف العقوبة والسابعة رجاء المغفرة والثامنة الاعتراف بالذنب والتاسعة اعتقاد ان الله تعالى قدر ذلك عليه وانه عدل منه والعاشرة المتابعة بالعمل الصالح ليعمل فى الكفارات لقوله صلى الله عليه وسلم وأتبع السيئة الحسنة تمحها وفى جميع هذه الخصال جمل آثار رويناها عن الصحابة والتابعين يكثر ذكرها و يقال ان ملك الموت اذا ظهر للعبد أعلمه انه قد بقى من عمرك ساعة وانك لا تستأخر عنها طرفة عين قال فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لوكانت له الدنيا من أولها الى آخرها لخرج منها على أن يضم الى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها أو يستبدل بها فلا يجد الى ذلك سبيلا وهذا تأويل قوله عز وجل وحيل بينهم و بين ما يشتهون قيل التوبة وقيل الزيادة فى العمر وقيل حسن الخاتمة حيل بينهم و بين ذلك كما فعل بأشياعهم من قبل أى بنظرائهم وأهل فرقتهم قال فاذا كل ساعة تمضى على العبد فهى بمنزلة هذه الساعة قيمتها الدنيا كلها اذا عرف قيمة ذلك فلذلك قيل ليس لما بقى من عمر العبد قيمة اذا عرف وجه التقدير من الله تعالى بالتصريف والحكمة وقيل فى معنى قوله تعالى من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب قال الوقت القريب أن يقول العبد عند كشف الغطاء يا ملك الموت أخرنى يوما أعبد فيه ربى وأعتب فيه ذنبى وأتزود صالحا لنفسى فيقول فنيت الايام فلا يوم فيقول أخرنى ساعة فيقول فنيت الساعات فلا ساعة قال فتبلغ الروح الحلقوم فيؤخذ بكظمه عند الغرغرة فيغلق باب التوبة ويحجب عنه وتنقطع الأعمال وتذهب الاوقات وتتصاعد الانفاس يشهد فيها المعاينة عند كشف الغطاء فيحتد بصره فاذا كان فى آخر نفس زهقت نفسه فيدركه ماسبق له من السعادة فتخرج روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة أو يدركه ماسبق له من الشقوة فتخرج روحه على الشك فهذا الذى قال الله عز وجل وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن فهذا سوء الخاتمة نعوذ بالله منه وقيل هذا هو المنافق و يقال المدمن على المعاصى المصر عليها وقد قال الله تعالى انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب قيل قبل الموت وقبل ظهور آيات الآخرة وقبل الغرغرة أى تغرغر النفس فى الحلقوم لانه تعالى قد حكم أن التوبة بعد ظهور أعلام الآخرة لاتقبل ومنه قوله عز وجل يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل يعنى من قبل معاينة الآيات أو كسبت فى ايمانها خيرا قيل التوبة هى كسب الايمان وأصول الخيرات وقيل الأعمال الصالحة هى مزيد الايمان وعلامة الايقان وقد قيل ثم يتوبون من قريب أى عن قريب عهد بالخطيئة لا يتمادى فيها ولا يتباعد عن التوبة وتوبته من قريب أن يعقب

الذنب عملا صالحا ولا يردفه ذنبا آخر وأن يخرج من السيئة الى الحسنة ولا يدخل في سيئة أخرى وقيل أول من يسأل الرجعة من هذه الامة من لم يكن أدى زكاة ماله أو لم يكن حج بيت ربه فذلك تأويل قول الله تعالى فاصدق وأكن من الصالحين وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول هذه الآية من أشد شيء على أهل التوحيد هذا لقوله تعالى فى أولها ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله وقد قيل لا يسأل عبد الرجعة عند الموت وله عند الله عز وجل مثقال ذرة من خير ورويناه بمعناه من كان له فى الآخرة مثقال ذرة من خير لو أن له الدنيا بما فيها من أولها الى آخرها لم يحب أن يعود الى الدنيا وقال بعض العارفين ان لله تعالى الى عبده سرين يسرهما اليه يوجده ذلك بالهام يلهمه أحدهما اذا ولد وخرج من بطن أمه يقول له عبدى قد أخرجتك الى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك ائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الامانة وانظر كيف تلقانى كما أخرجتك وسر عند خروج روحه يقول عبدى ماذا صنعت فى أمانتى عندك هل حفظتها حتى تلقانى على العهد والرعاية فألقاك بالوفاء والجزاء أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب فهذا داخل فى قوله عز وجل والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون وفى قوله تعالى وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم عمر العبد أمانة عنده ان حفظه فقد أدى الامانة وان ضيعه فقد خان الله ان الله لا يحب الخائنين وفى خبر ابن عباس رضى الله عنه من ضيع فرائض الله عز وجل خرج من أمانة الله وعند التوبة النصوح تكفير السيآت ودخول الجنات وكان بعضهم يقول قد علمت متى يغفر الله لى قيل ومتى قال اذا تاب علي وقال آخر أنا من أن أحرم التوبة أخوف منى من أن أحرم المغفرة وقال الله تعالى ومن أصدق من الله حديثا فتاب عليكم وعفا عنكم وقال تعالى فى مثله وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت وقال بعض العلماء لا تصح التوبة لعبد حتى ينسى شهواته ويكون ذاكرا للحزن لا يفارق قلبه ذاهبا عن الذنب لا يخالج سره وقال بعض علماء الشام لا يكون المريد تائبا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال معصية عشرين سنة وقال بعض السلف من علامة صدق التائب فى توبته أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة الطاعة ويفرح ركوب الذنب الحزن عليه والسرور بحسن الانابة وقال بعض العلماء فى معناه لا يكون العبد تائبا حتى يدخل مرارة مخالفة النفس مكان حلاوة موافقتها وحدثنا فى الاسرائيليات ان الله عز وجل قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبول توبة عبد بعد ان اجتهد سنين فى العبادة ولم ير قبول توبته فقال له وعزتى وجلالى لو شفع فيه أهل السموات والارض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه فى قلبه ومن بقيت حلاوة المعصية فى قلبه أو نظر اليها اذا ذكرها بفكرة خيف عليه العود فيها الا بشدة مجاهدة وكراهة لها ونفي خاطرها عن سره اذا ذكرها بالخوف والاشفاق منها وقال أبو محمد سهل أول ما يؤمر

به المبتدىء المريد التوبة وهو تحويل الحركات المذمومة الى حركات محمودة، ويلزم نفسه الخلوة والصمت ولا تصح له توبة الا بأكل الحلال ولا يقدر على الحلال حتى يؤدى حق الله تعالى فى الخلق وحق الله تعالى فى نفسه ولا يصح له هذا حتى يبرأ من حركته وسكونه الا بالله تعالى وحتى لا يأمن الاستدراج بأعمال الصالحات وحقيقة التوبة أن يدع ماله حتى لا يدخل فيما عليه ولا يكون يسوف أبدا انما يلزم نفسه الحال فى الوقت . وحدثونا عن سرى السقطى أنه قال من شرط التوبة أنه ينبغى للتائب المنيب أنه يبدأ بمباينة أهل المعاصى ثم بنفسه التى كان يعصى الله تعالى لها ولا ينيلها الا مالا بد منه ثم الاعتزام على أن لا يعود فى معصية أبدا ويلقى عن الناس مؤنته ويدع كل ما يضطره الى جريرة ولا يتبع هوى ويتبع من مضى من السلف وينبغى لاهل التوبة أن يحاسبوا نفوسهم فى كل طرفة ويدعوا كل شهوة ويتركوا الفضول وهى ستة أشياء ترك فضول الكلام وترك فضول النظر وترك فضول المشى وترك فضول الطعام والشراب واللباس قال ولا يقوى على ترك الشبهات الا من ترك الشهوات وسئل يحيى بن معاذ رحمه الله كيف يصنع التائب فقال هو من عمره بين يومين يوم مضى ويوم بقى فيصلحهما بثلاث أما ما مضى فبالندم والاستغفار وأما ما بقى فبترك التخليط وأهله ولزوم المريدين ومجالسة الذاكرين والثالثة لزوم تصفية الغذاء والدؤب على العمل ومن علامة صدق التوبة رقة القلب وغزارة الدمع وفى الخبر جالسوا التوابين فانهم أرق شىء أفئدة ومن التحقق بالتوبة أن يستعظم ذنوبه فانه يقال ان الذنب كلما استعظمه العبد صغر عند الله تعالى ويقال ان استصغار الذنب كبيرة كما جاء فى الخبر المؤمن الذى يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق الذى يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره وقد رويناه فى خبر مرسل ليتق أحدكم أن يؤخذ عند أدنى ذنوبه فى نفسه وقال بعضهم الذنب الذى لا يغفر قول العبد ليت كل شىء عملته مثل هذا فهذا كما قال بلال بن سعد لا تنظر الى صغر الخطيئة ولكن انظر الى من عصيت وقد حدثنا عن الله تعالى انه أوحى الى بعض أوليائه لا تنظر الى قلة الهدية وانظر الى عظمة مهديها ولا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من واجهته بها فانما عظمت الذنوب عن تعظيم المواجه بها وكبرت فى القلوب لمشاهدة ذى الكبرياء ومخالفة أمره اليها فلم يصغر ذنب عند ذلك وكانت الصغائر عند الخائفين كبائر وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب قيل الحرمات تعظم فى قلبه فلا ينتهكها ومن هذا قول الصحابة للتابعين انكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم من الموبقات ليسوا يعنون أن الكبائر التى كانت على عهد النبى صلى الله عليه وسلم صارت بعده صغائر ولكن كانوا

يستعظمون الصغائر لعظمة الله تعالى فى قلوبهم لعظيم نور الايمان ولم يكن ذلك فى قلوب من بعدهم وأوحى الله تعالى الى بعض أوليائه كم من ذنب رأيته منك قد أهلكت بدونه أمة من الامم وقد روينا عن أبان بن اسمعيل عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه أهلك الله تعالى أمة من الامم كانوا يعبثون بذكورهم فاما نسيانه الذنوب وذكرها فقد اختلف قول العارفين فى ذلك فقال بعضهم حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك وقال آخر حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك وهذان طريقان لطائفتين وحالان لاهل مقامين فاما ذكر الذنوب فطريق المريدين وحال الخائفين يستخرج منهم بتذكرها الحزن الدائم والخوف اللازم وأما نسيان الذنوب شغلا عنها بالاذكار وما يستقبل من مزيد الاعمال فطريق العارفين وحال المحبين ووجهة هؤلاء شهادة التوحيد وهى مقام فى التعرف ووجهة الاولين مشاهدة التوقيف والتحديد وهى مقام فى التعريف فنى أى المقامين أقيم عبد قام بشاهدة وجهته وعمل بحكم حالته ومقام شهادة التوحيد أفضل عند العارفين من مقام مشاهدة التعريف وان كانت هذه أوسع وأكثر الا أنها فى أصحاب اليمين وفى عموم المقربين وشهادة التوحيد أضيق وأقل وأهلها أعلى وأفضل وهى فى المقربين وخصوص العارفين وقد يعترض المريد بقصة داود عليه السلام فى تذكره ونوحه على خطيئته فان الأنبياء لا يقاس عليهم لمجاوزتهم حدود من دونهم وقد يقامون فى أحوال المريدين ويسلك بهم سبيل المتعلمين وذلك لاجل الأمة ليكون طريقا للعالمين واعلم أنه لا يؤمن على ضعيف اليقين قوى النفس عند تذكر الذنوب نظر القلب اليها بشهوة أو ميل نفس معها بحلاوة فيكون ذلك سبب فتنته فيفسد من حيث صلح كما لا يؤمن على معتاد خطيئة بالنظر الى سببها حركة النفس اليها وان كان الأفضل الاتفاق معها ما لم يكن الاتفاق معصية لمجاهدة النفس بالصبر عنها الا أن ذلك غرور وفيه خطر فترك الاجتماع وقطع الاسباب حينئذ أسلم وما كان أسلم للمريد فهو أفضل وفى نسيان الذنوب الذكر لما يستقبل والانكماش على ما يفوت من الوقت خوف فوت الثانى وقد كان بعض أهل المعرفة يكره للمريد أن يكون وسواسه الجنة أو تذكر ما فيها من النعيم واللباس والازواج وقال واستحب للمريد أن يكون وسواسه ذكر الله تعالى وخواطره وهممه متعلقة بالله تعالى لاسواه قال لان المريد حديث عهد بتوبة غير معتاد لطول الاستقامة والعصمة فاذا تذكر نعيم الجنة لم آمن عليه لضعف قلبه أن يشتهى مثله مما يشاهد فى الدنيا من اللباس والطيبات والنكاح لان هذا عاجل وذلك آجل فتطالب نفسه مثل ما تذكرت من نعيم الآخرة معجلا فى الدنيا قال فاذا كان همه الله تعالى كان أبعد له من زينة الدنيا وشهواتها ولم يجتر العدو بتمثيل ذلك له من العاجل الى أن يقوى يقينه وتنتقل عادته وتدوم عصمته وقد اختلف أهل العلم أيضا فى عبد ترك ذنبا وعمل فى الاستقامة ونفسه تنازعه اليه وهو يجاهدها وفى آخر ترك الذنب وانكمش فى

الاصلاح فلم تكن نفسه تطالبه فلاتنازعه الى الذنب ولم يكن على قلبه منه ثقل ولا مجاهدة أى هذين أفضل فقال بعض علماء أهل الشام الذى تنازعه نفسه الى الذنب وهو يجاهدها أفضل لان عليه منازعة وله فضل مجاهدة ومال الى هذا القول احمد بن أبى الحوارى وأصحاب أبى سليمان الدارانى وقال علماء البصرة الذى سكنت نفسه عن المنازعة بشاهد من شواهد اليقين والطمانينة فلم يبق فيه فضل لعود ولا طلب لعتاد أفضل ومال الى هذا رباح بن عمر والقيسى وهو من كبار علماء البصريين وقال لو فتر هذا لكان هذا أقرب الى السلامة ولم يؤمن على الآخر الرجوع وهذا كما قال وقد اختلف العلماء أيضا فى عبدين سئل أحدهما شيئا من بذل ماله فى سبيل الله فأبت نفسه عليه وثقل عليها ذلك فجاهدها وأخرج ماله وسئل آخر بذل ماله فبذله مع السؤال طوعا من غير منازعة النفس ولا ثقل عليها ولا مجاهدة منه لها أيهما أفضل فقال قوم المجاهد لنفسه أفضل لأنه اجتمع له الاكراه والمجاهدة فحصل له عملان وذهب الى هذا القول ابن عطاء وأصحابه وقال آخرون الذى سمحت نفسه بالبذل طوعا من غير اكراه ولا اعتراض أفضل قال لان مقام هذا فى سخاوة النفس والتحقق بالزهد أفضل من جميع أعمال الاول من الاكراه والمجاهدة ومن بذل ماله على ذلك ولان الاول وان غلب نفسه فى هذه الكرة لا يأمن غلبتها له فى كرة ثانية أو ثالثة اذ ليس السخاء من مقامها لانها كانت محمولة عليه والى هذا ذهب الجنيد رحمه الله وهو عندى كما قال اللفظ لنا وسئل أبو محمد سهل عن الرجل يتوب من الشىء ويتركه ثم يخطر ذلك الشىء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوة فقال الحلاوة طبع البشرية ولا بد من الطبع وليس له حيلة الا أن يرفع قلبه الى مولاه بالشكوى وينكره بقلبه ويلزم نفسه الانكار ولا يفارقه ويدعو الله تعالى أن ينسيه ذكر ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته وقال فان هو غفل عن الانكار طرفة عين أخاف عليه أن لا يسلم وتعمل الحلاوة فى قلبه ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الانكار والحزن فانه لا يضره وهذا عندى هكذا لان التوبة لا تصح مع بقاء الشهوة ويكون العبد مرادا بالمجاهدة وهذا حال المريدين ومحو الشهوات من القلب بدوام التولى وصف العارفين وربما تعلق بالذنب ذنوب كثيرة هى أعظم منه مثل الاصرار عليه والاغتباط به وتسويف التوبة بعده ووجد حلاوة الظفر بمثاله أو وجد الحزن والكراهة على فوته والسرور بعمله أو حمل غيره عليه ان كان ذنبا بين اثنين أو انفاق مال الله سبحانه وتعالى فيه فهو كفر النعمة به وقد قيل من أنفق درهما فى حرام فهو مسرف ومن ذلك أن يستصغر الذنب ويحتقره فيكون أعظم من اجترامه أو يتهاون بستر الله تعالى عليه ويستخف بحلم الله تعالى عنه فيكون ذلك من الاغترار والامن أو يجهل نعمة الله تعالى عليه فى ستره واظهار ضده كما قال فى الدعاء المأثور الذى يمدح الله سبحانه وتعالى به يامن

أظهر الجميل وستر على القبيح ولم يؤاخذ بالجريرة ولم يهتك الستر ويقال كل عاص تحت كنف الرحمن فاذا رفع يديه عنه انهتك ستره ومن ذلك المجاهرة بالذنب والصول به والتظاهر وهذا من الطغيان وفى الخبر كل الناس معافى الا المجاهرين يبيت أحدهم على الذنب قد ستره الله تعالى عليه فيصبح فيكشف ستر الله تعالى ويتحدث بذنبه وربما سن المعاصى بالذنب سنة اتبع عليها فتبقى سيآت ذنبه عليه ما دام يعمل به وقد قيل طوبى لمن اذا مات ماتت ذنوبه معه ولم يؤاخذ بها بعده وطوبى لمن لم يعدد ذنبه غيره وقال بعضهم لا تذنب فان كان لا بد فلا تحمل غيرك على الذنب فتكسب ذنبين وقد جعل الله تعالى هذا المعنى وصفا من أوصاف المنافقين فى قوله تعالى المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف فمن حمل أخاه على ذنب معه فقد أمر بالمنكر ونهى عن المعروف وقال بعض السلف ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصيته ثم يهونها عليه وقد يعيش العبد أربعين سنة ثم يموت فتبقى ذنوبه بعده مائة سنة يعاقب عليها فى قبره اذا كان قد سنها واتبع عليها الى أن تندرس أو يموت من كان يعمل بها ثم تسقط عنه ويستريح منها ويقال أعظم الذنوب من ظلم من لا يعرفه ولم يره من المتقدمين مثل أن يتكلم فيمن سلف من أهل الدين وأئمة المتقين فهذه المعانى كلها تدخل على الذنب الواحد وهى أعظم منه ومن ذلك قوله تعالى ونكتب ما قدموا وآثارهم قيل سننهم التى عمل بها بعدهم وفى الخبر من سن سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه مثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيأ وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول ويل للعالم من الاتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحتملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق وقال بعض أهل الأدب مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق الخلق معها وفى الخبر الاسرائيلى أن عالما كان يضل الناس بالبدع ثم أدركته توبة فرجع الى الله تعالى وعمل فى الاصلاح دهرا فاوحى الله تعالى الى نبيهم قل له ان ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك بالغا ما بلغ ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فادخلتهم النار فاما استحلال المعصية أو احلالها للغير فليس من هذه الأبواب فى شىء انما ذلك خروج عن الملة وتبديل للشريعة وهو الكفر بالله تعالى كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ما آمن بالقرآن من استحل محارمه وقد سمى الله تعالى عملة السوء جهلة فقال تعالى انه من عمل منكم سوأ بجهالة وقال تعالى بل أنتم قوم تجهلون وقال بل أنتم قوم مسرفون ويقال ان العرش يهتز ويغضب الرب تعالى لثلاثة أعمال اقتل النفس بغير نفس واتيان الذكر الذكر وركوب الأنثى الأنثى وفى خبر لو اغتسل اللوطى بالبحار لم يطهره الا التوبة ولو لم يكن فى يسير المعصية من الشؤم الا حرمان الطاعة وفقد حلاوة الخدمة ومقت المولى لكان هذا من أعظم العقوبات كما قال وهيب بن الورد وقد سئل

هل يجد العاصى حلاوة الطاعة قال لا ولا من هم بمعصية ولذلك سمى الله تعالى يحيى سيدا لأنه لم يهم بمعصية فصار علامة السيد بقدر سودد من لا يهم بالمعاصى فصار من لا يهم بالمعاصى سيدا وفى خبر من لبس ثوب شهرة وفى بعضها من نظر الى عطفيه فاختال أعرض الله تعالى عنه وان كان عنده حبيبا كيف وفى المخالفة وجود البعد والوحشة والانقطاع من المعاملة وروينا فى خبر ان آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته قال فاستحيا التاج والاكليل من وجهه ان يرتفعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام فاخذ التاج عن رأسه وحل ميكائيل الاكليل عن جبينه ونوديا من فوق العرش اهبطا من جوارى فانه لا يجاورنى من عصانى فالتفت آدم الى حواء باكيا وقال هذا أول شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب وروينا أن سليمان نبى الله صلى الله عليه وسلم لما عوقب على خطيئته من أجل التمثال الذى عبد فى داره أربعين يوما وقيل ان المرأة سألته أن يحكم لابيها على خصمه فقال نعم ولم يفعل وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها فسلب ملكه أربعين يوما فهرب تائها على وجهه وكان يسأل بكفه فلا يطعم فاذا قال أطعمونى فانى سليمان ابن داود شج وضرب ولقد بلغنى أنه استطعم من بيت فطرد وبزقت امرأة فى وجهه وفى رواية قال فاخرجت اليه عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه الى أن خرج له الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الاربعين وهى أيام العقوبة قال فجاءت الطير فعكفت عليه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فلما عرفه الصيادون عقروا بين يديه واعتذروا اليه مما كانوا طردوه وشجوه فقال لا ألومكم فيما صنعتم قبل ولا أحمدكم فيما تصنعون الآن هذا أمر من السماء فلا بد منه ولقد بلغنى أنه كان فى مسيره والريح تحمله فى جنوده اذ نظر الى قميصه نظرة وكان عليه قميص جديد فكانه أعجبه فوضعته الريح بالارض فقال لها لم فعلت ولم آمرك قالت انما نطيعك اذا أطعت الله تعالى. وقد قال بعض العلماء فى معنى هذا من خاف الله تعالى خافه كل شىء ومن خاف غير الله تعالى أخافه الله تعالى من كل شىء فكذلك أيضا من أطاع الله تعالى سخر له كل شىء ومن عصاه سخره لكل شىء أو سلط عليه كل شىء ولو لم يكن فى الاصرار على المعصية من الشؤم الا أن كل ما يصيب العبد يكون له عقوبة ان كان سعة عوقب بذلك ولم يأمن بها الاستدراج وان كان ضيقا كان عقوبة له وفى الخبر ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وقد قيل الرزق من الحرام من قلة التوفيق للاعمال الصالحة وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول انى لاحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه ولو لم يكن من بركة التوبة والعلم والاستقامة على الطاعة الا أن كل ما يصيب العبد فهو خير له ان كان سعة فهو رفق من الله تعالى به عليه ولطف له منه وان كان ضيقا فهو اختبار من الله تعالى وخيرة للعبد ويجد حلاوة ذلك ولذته لانه

فى سبيله وقد أصابه وهو مقيم على طاعته ولو لم يكن من شؤم الناس و وجد النقص لخ لطتهم الا أن المعصية معهم أشد وهى بهم أعظم لتعلق المظالم فى أمر الدنيا وشأن الدين وكل من قلت معارفه قلت معهم خطاياه وقال بعض السلف ليست اللعنة سوادا فى الوجه ونقصان فى المال انما اللعنة أن لا يخرج من ذنب الاوقع فى مثله أوشر منه وذلك أن اللعنة هى الطرد والبعد فاذا طرد من الطاعة فلم تيسر له بعد عن القربات فلم يوفق لها نقد لعن وقد قيل فى معنى الخبر الذى رويناه آنفا ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه قيل أن يحرم الحلال ولا يوفق له بوقوعه فى المعصية وقيل يحرم مجالس العلماء ولا ينشرح قلبه لصحبة أهل الخير وقيل يمقته الصالحون وأهل العلم بالله تعالى فيعرضون عنه وقيل يحرم العلم الذى لاصلاح للعمل الا به لأجل اقامته على الجهل ولا تنكشف له الشبهات باقامته على الشهوات بل تلتبس عليه الامور فيتحير فيها بغير عصمة من الله تعالى ولا يوفق للاصوب والافضل وقد كان الفضيل يقول ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الاخوان فذنوبك أورثتك ذلك ويقال نسيان القرآن بعد حفظه من أشد العقوبات والمنع من تلاوته وضيق الصدر بقراءته والاشتغال عنه بضده عقوبة الاصرار وقال بعض صوفية أهل الشام نظرت الى غلام نصرانى حسن الوجه فوقفت أنظر اليه فمر بى ابن الجلاء الدمشقى فأخذ بيدى فاستحييت منه فقلت يا أبا عبد الله سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار فغمز يدى وقال لتجدن عقوبته بعد حين قال فعوقبت بعد ثلاثين سنة وقال بعضهم انى لاعرف عقوبة ذنبى فى سوء خلق حمارى وقال آخر أعرف العقوبة حتى فى ناربيتى وحدثونا عن منصور الفقيه قال رأيت أبا عبد الله السكرى فى النوم فقلت ما فعل الله بك قال أوقفنى بين يديه فى العرق حتى سقط لحم خدى قلت ولم ذاك قال نظرت الى غلام مقبلا ومدبرا والعقوبة موضعها الشدة والمشقة فعقوبة كل عبد من حيث يشتد عليه فأهل الدنيا يعاقبون بحرمان رزق الدنيا من تعذر الاكتساب واتلاف الاموال وأهل الآخرة يعاقبون بحرمان رزق الآخرة من قلة التوفيق للاعمال الصالحات وتعذر فتوح العلوم الصادقة ذلك تقدير العزيز العليم وكان أبو سليمان الدارانى يقول الاحتلام عقوبة وقال لا يفوت أحدا صلاة فى جماعة الا بذنب يحدثه فدقائق العقوبات على قدر ترافع الدرجات وقد جاء فى الاخبار ما أنكرتم من زمانكم فيما غيرتم من أعمالكم وفى الخبر يقول الله عز وجل ان أدنى ما أصنع بالعبد اذا آثر شهوته على طاعتى ان أحرمه لذيذ مناجاتى فهذه عقوبة أهل المعاملات ولو ظهر تغير القلب عند المعصية على وجه العاصى لاسود وجهه ولكن الله تعالى سلم بحلمه وستره فغطى ذلك فى القلب مع تأثيره فيه وحجابه لصاحبه وقسوته عن الذكر وعن طلب الخير والبر والمسارعة الى الخير وهو من أكبر العقوبات ويقال ان العبد

اذا عصى أظلم قلبه ظلمة يثور على القلب منها دخان يشهده الايمان فهو مكان حزن العبد الذى تسوءه سيئته و يكون ذلك الدخان حجابا له عن العلم والبيان كما تحجب السحابة للشمس فلا ترى و يكون غلفا يجده فى نفسه للخالق فاذا تاب العبد وأصلح انكشف الحجاب فيظهر الايمان فيأمر بالعلم كما تبرز الشمس من تحت الحجاب ومن هذا قوله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون قيل هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب و يصير الايمان تحت الحجاب فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا وعندها ينكس أعلاه أسفله اذا استكمل سواده فحينئذ مرد على النفاق فأملس فيه واطمأن به وثبت الى أن ينظر الله تعالى اليه فيعطف بفضله عليه وقد كان الحسن رضى الله عنه يقول ان بين العبد و بين ربه عز وجل حدا من المعاصى معلوما اذا بلغه العبد طبع على قلبه فلم يوفقه بعدها للخير وفى حديث ابن عمر الطابع معلق بقائمة العرش فاذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله تعالى الطابع فطبع على القلوب بما فيها وفى حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة فكلما أذنب ذنبا انقبضت أصبع حتى تنقبض الاصابع كلها فتشد على القلب فذلك هو القفل ويقال لكل ذنب نبات ينبت على القلب فاذا كثرت الذنوب قام النبات حول القلب مثل الكم للثمرة فانضم على القلب فذلك هو الغلاف و يقال انه الكنان أحد الأكنة التى ذكر الله تعالى ان القلب لا يسمع معها ولا يفقه وقد حدثنى بعض هذه الطائفة عن أبى عمرو بن علوان فى قصة تطول قال فيها فكنت قائما أصلى ذات يوم فخامر قلبى هوى طاولته بفكرى حتى تولد منه شهوة الرجل قال فوقعت الى الأرض واسود جسدى كله فاستترت فى البيت ثلاثه أيام فلم أخرج وقد كنت أعالج غسله فى الحمام بالصابون والالوان الغاسلة فلا يزداد الا سوادا قال ثم انكشف عنى بعد ثلاث فرجعت الى لونى البياض قال فلقيت أبا القاسم الجنيد رحمه الله وكان وجه الى فاشخصنى من الرقة فلما أتيته قال لى أما استحيت من الله تعالى كنت قائما بين يديه فسامرت نفسك شهوة حتى استولت عليك برقة فأخرجتك من بين يدى الله تعالى لولا انى دعوت الله عز وجل لك وتبت اليه عنك للقيت الله تعالى بذلك اللون قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة ولم يطلع عليه الا الله عزوجل فذكرت هذه الحكايات لبعض العلماء فقال كان هذا رفقا من الله تعالى به وخيرة له اذ لم يسود قلبه وظهر السواد على جسده ولو بطن فى قلبه لا هلك ثم قال ما من ذنب يرتكبه العبد يصر عليه الا اسود القلب منه مثل سواد الجسم الذى ذكره لا يجلوه الا التوبة ولكن ليس كل عبد يصنع له صنع ابن علوان ولا يجد من يلطف له به مثل أبى القاسم الجنيد رحمه الله ولكل ذنب عقوبة الا أن يغفر الله والعقوبة ليست على قدر الذنب ولا من حيث يعلم العبد لكنها على تقدير المشيئة وعن سابق علم الربوبية فربما كانت فى قلب

وهى من أمراض القلوب وربما كانت فى الجسد وقد تكون فى الأموال والاهل وتكون فى سقوط الجاه والمنزلة من عيون علماء الأسلام والمؤمنين وقد تكون مؤجلة فى الآخرة وهذه أعظم العقوبات وهى لأهل الكبائر من الموبقات الذين ماتوا عن غير توبه ولأهل الاصرار والعزة والاستكبار لأنها اذا كانت فى الدنيا كانت يسيرة على قدر الدنيا واذا تأخرت كانت عظيمة على قدر الآخرة وفى الخبر اذا أراد الله تعالى بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه واذا أراد به شرا أخره حتى يوافى به الآخرة واعلم أن الغم على ما يفوت من الدنيا والهم بالحرص عليها من العقوبات والفرح والسرور بما نال من الدنيا مع مالا يبالى ما خرج من دينه من العقوبات وقد يكون دوام العوافى واتساع الغنى من عقوبات الذنوب اذا كانا سببين الى المعاصى وقد تكون عقوبة الذنب ذنبا مثله أو أعظم منه كما يكون مثوبة الطاعة طاعة مثلها أو أفضل منها وفى أحد الوجوه من معنى قوله تعالى وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون قال الغنى والعافية كما يكون الفقر والسقم برحمة من الله تعالى اذا كانا سببا للعصمة وهما أمهات المعاصى اذا كانا سببين لها ومطرقين اليها واعلم ان الحلم لا يرفع العقوبة ولكن يؤخرها ومن شأن الحليم أن لا يعجل بالعقوبة وقد يعاقب بعد حين وروينا فى معنى قوله تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء أى الرخص والرغد حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة قيل بعد ستين سنة وفى الخبر من الذنوب ذنوب لايكفرها الا الهم بطلب المعيشة وفى لفظ آخر لا يكفرها الا الهموم والاحزان والاهتمام بالمباحات من حاجات الدنيا للفقراء كفارات وهو على ما يفوت من قربات الآخرة للمؤمنين درجات وهو على حب الدنيا والجمع منها والحرص عقوبات وقال بعض السلف كفى به ذنبا لايستغفر منه حب الدنيا وقال آخر لو لم يكن للعبد من الذنوب الا أنه يقيم بمصائب الدنيا بما لا يقيم بما لايفوته فيها من نصيب الآخرة والتزود لها وفى حديث عائشة رضى الله عنها اذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له من الاعمال ما يكفرها أدخل الله عز وجل عليه الغموم والهموم فتكون كفارة لذنوبه ويقال ان الهم الذى يعرض للقلب فى وقت لايعرف العبد سبب ذلك فهو كفارات الهم بالخطايا ويقال هو حزن العقل عند تذكره الوقوف والمحاسبة لاجل جنايات الجسد فيلزم العقل ذلك الهم فيظهر على العبد منه كأنه لايعرف سبب غمه ومن أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى اليه لولا ما سبق لك فى على من عنايتى بك لجعلت نفسى عندك أبخل الباخلين لكثرة ترددك الى بطول سؤالك لى وتأخيرى اجابتك ولكن من عنايتى بك أن جعلت نفسى فى قلبك أنى أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وقد سبق لك عندى منزلة لم تكن تنالها بشىء من عملك الابحزنك على يوسف فأردت أن أبلغك تلك المنزلة وكذلك ما روينا أن جبريل عليه السلام لما دخل على يوسف عليه السلام فى السجن قال له كيف تركت الشيخ الكئيب قال قد حزن

عليك حزن مائة ثكلى قال فاذا له عند الله تعالى قال أجر مائة شهيد. وفى خبر رويناه عن السلف ما من عبد يعصى الا استأذن مكانه من الارض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا فيقول الله عز وجل للارض والسماء كفا عن عبدى وأمهلاه فانكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه لعله يتوب الى فاغفر له لعله يستبدل صالحا فأبدله حسنات فذلك معنى قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا أى من معاصى العباد ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما أى عن معاصيهم غفورا لمساويهم وقيل فى تفسير ذلك ان الله عز وجل اذا نظر الى معاصى العباد غضب فترجف الارض وتضطرب السماء فتنزل ملائكة السماء فتمسك أطراف الارضين وتصعد ملائكة الأرضين فتمسك على أطراف السموات ولا يزالون يقرؤن قل هو الله أحد حتى يسكن غضبه سبحانه وتعالى فذلك قوله تعالى ان الله يمسك السموات الآية وقال بعض العلماء اذا ضرب الناقوس فى الأرض ودعى بدعوة الجاهلية اشتد غضب الرب سبحانه وتعالى فاذا نظر الى صبيان المكاتب ورأى عمار المساجد وقيل اذا نظر الى المتحابين فى الله أو المتزاورين له وسمع أصوات المؤذنين حلم وغفر فذلك قوله تعالى انه كان حليما غفورا فاذا أتبع العبد الذنب بالذنب ولم يجعل بين الذنبين توبة خيف عليه الهلكة لان هذا حال المصر ولانه قد شرد عن مولاه بترك رجوعه اليه ودوام مقامه مع النفس على هواه وهذا مقام المقت فى البعد وأفضل ما يعمله العبد قطع شهوات النفس أحلى ما يكون عنده الهوى اذ ليس لشهواتها آخر ينتظر كما ليس لبدايتها أول يرتسم فان لم يقطع ذلك لم يكن له نهاية فان شغل بما يستأنف من مزيد الطاعة ووجد حلاوة العبادة والا أخذ نفسه بالصبر والمجاهدة فهذا طريق الصادقين من المريدين وقيل فى قوله تعالى استعينوا بالله واصبروا أى استعينوا به على الطاعة واصبروا على المجاهدة فى المعصية وقال على كرم الله وجهه أعمال البر كلها الى جنب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كتفلة الى جنب البحر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الى جنب الجهاد فى سبيل الله تعالى كتفلة فى جنب بحر والجهاد فى سبيل الله تعالى الى مجاهدة النفس عن هواها فى اجتناب النهى كتفلة فى جنب بحر لجى وعلى هذا معنى الخبر اذ قال رجعتم من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر مجاهدة النفس وكان سهل بن عبد الله يقول الصبر تصديق الصدق وأفضل منازل الطاعة صبر على معصية ثم الصبر على الطاعة وقد روينا فى الاسرائيليات أن رجلا تزوج امرأة فى بلدة وأرسل عبده يحملها اليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم بالله قال فنبأه الله تعالى فكان نبيا فى بنى اسرائيل وفى بعض قصص موسى عليه السلام انه قال للخضر عليه السلام بأى شىء أطلعك الله تعالى على علم الغيب فقال بترك المعاصى لاجل الله تعالى فالجزاء من الله تعالى يجعله غاية

العطاء لا على قدر العمل لكن اذا عمل له عبد شيأ لاجله أعطاه أجره بغير حساب ثم انه لا يتخذ التائب عادة من ذنب فيتعذر بها توبته فان العادة جند من جنود الله تعالى لولاها لكان الناس كلهم تائبين ولولا الابتلاء لكان التائبون مستقيمين ثم ان يعمل فى قطع معتادان كان ثم ليصبر على مجاهدة النفس فى هوى ان بلى به فهذه الخصال من أفضل أعمال المريدين وأزكاها ومعها تلهم النفس المطمئنة رشدها وتقواها وبها تخرج من وصف الامارة بالسوء الى وصف المطمئنة الى أخلاق الايمان وهذا أحد المعانى فى الخبر الذى روى أفضل الاعمال ما أكرهتم عليه النفوس لان النفس تكره خلاف الهوى والهوى هو ضد الحق والله تعالى يحب الحق فصار جبار النفس على خلاف الهوى وعلى وفاق الحق لان محبة الحق من أفضل الاعمال كما قال تعالى والوزن يومئذ الحق الآية واستثنى من أهل الخسر الذين تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وهذا أول اليقين وحدثت عن بعض أهل الاعتبار انه كان يمشى فى الوحل فكان يتقى و يشمر ثيابه عن ساقيه و يمشى فى جوانب الطريق الى أن زلقت رجله فى الوحل فادخل رجليه فى وسط الوحل وجعل يمشى فى المحجة قال فبكى فقيل له ما يبكيك فقال هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع فى ذنب منها وذنبين فعندها يخوض الذنوب خوضا وعلى العبد أن يتوب من الغفلة التى هى كائنة فاذا عرف هذا لم تقطع أبدا توبته وقد جعل الله تعالى أهل الغفلة فى الدنيا هم أهل الخسران فى العقبى فقال عز من قائل وأولئك هم الغافلون لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ولكن غفلة دون غفلة وخسران دون خسران ولا تستحقرن الغفلة فانها أول المعاصى وهى عند الموقنين أصل الكبائر وقد جعل على كرم الله وجهه الغفلة احدى مقامات الكفر وقرنها بالعمى والشك وأمال صاحبها عن الرشد ووصفها بالحسرة فقال فى الحديث الذى يروى من طريق أهل البيت فقام عمار بن ياسر فقال ياأمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ما بنى فقال على أربع دعائم على الجفاء والعمى والغفلة والشك فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ومن عمى نسى الذكر ومن غفل حاد عن الرشد وغرته الامانى فأخذته الحسرة والندامة وبداله من الله مالم يكن يحتسب ومن شك تاه فى الضلالة وقال بعض العلماء من صدق فى ترك شهوة وجاهد نفسه لله تعالى سبع مرات لم يبتل بها وقال آخر من تاب عن ذنب واستقام سبع سنين لم يرجع اليه أبدا وقال بعض العلماء كفارة الذنب المعتاد أن تقدر عليه عند ما تأتيه ثم لا تقع فيه ويكون كل ترك كفارة لفعل وهذا حال الاقوياء من التوابين وليس هو طريق الضعفاء من المريدين بل حال الضعفاء الهرب والبعد ومن حدث نفسه بمعصية فى عدمها لم يملك نفسه عند وجدها فليعمل المريد فى قطع وساوس النفس بالخطايا والا وقع فيها لان الخواطر تقرى فتكون وسوسة فاذا كثرت الوساوس صارت طرقا للعدو بالتزيين والتسويل

وأضر شيء على التائب تمكينه خاطر السوء من قلبه بالاصغاء اليه فانه يدب فى هلكته وكل سبب يدعو الى معصية أو يذكر بمعصية فهو معصية وكل سبب يؤل الى ذنب و يؤدى اليه فهو ذنب وان كان مباحا وقطعه طاعة وهذا من دقائق الاعمال وكان يقال من أتى عليه أربعون وهو العمر وكان مقيما على الذنب لم يكد يتب منه الا القليل من المتداركين وقد روى فى الخبر المؤمن كل مفتن تواب وان للمؤمن ذنبا قد اعتاده الفينة بعد الفينة يعنى حينا بعد حين وفى الحديث كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون وفى الخبر الآخر المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه أى واه بالذنوب راقع بالتوبة والاستغفار وقد وصف الله تعالى المؤمنين بترك متابعة الذنوب وترادف السيئة بالحسنة فى قوله تعالى ويدرؤن بالحسنة السيئة وقد جعل هذا من وصف العاملين الذين صبروا فقال تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة فجعل تعالى لهم صبرين عن الذنب وعلى التوبة فآتاهم به أجرين وقد اشترط الله تعالى على التائبين من المؤمنين ثلاث شرائط وشرط على التائبين من المنافقين أربعة لانهم اعتلوا بالخلق فى الاعمال فاشركوهم بالخالق فى الاخلاص فزاد عليهم الشرط تشديداً لشدة دخولهم فى المقت واعتل غيرهم بوصفه فخفف عنهم شرطين فقال عز وجل الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا قوله تعالى تابوا أى رجعوا الى الحق من أهوائهم وأصلحوا يعنى ما أفسدوا بنفوسهم و بينوا فيها وجهان أحدهما بينوا ما كانوا كتموا من الحق وأخفوا من حقيقة العلم وهذا لمن عصى بكتم العلم ولبس الحق بالباطل وقيل بينوا توبتهم حتى تبين ذلك فيهم فظهرت أحكام التوبة عليهم وقال فى الشرط الآخر ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله لانهم كانوا يعتصمون بالناس وبالاموال وكانوا يراؤن بالاعمال فلذلك اشترط عليهم الاعتصام بالله والاخلاص لله عز وجل فينبغى أن تكون توبة كل عبد عن ضد معاصيه قليلا بقليل أو كثيرا بكثير ويكون التائب على ضد ما كان أفسد ليكون كما قال الله تعالى انا لا نضيع أجر المصلحين ولا يكون العبد تائبا حتى يكون مصلحا ولا يكون مصلحا حتى يعمل الصالحات ثم يدخل فى الصالحين وقد قال الله تعالى وهو يتولى الصالحين وهذا وصف للتواب وهو المتحقق بالتوبة والحبيب لله تعالى كما قال الله تعالى ان الله يحب التوابين أى يتولى الراجعين اليه من أهوائهم المتطهرين له من المكاره وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب الله وسئل أبو محمد سهل متى يكون العبد التائب حبيب الله تعالى فقال حتى يكون كما قال الله تعالى التائبون العابدون الآية ثم قال الحبيب لا يدخل فى شيء لا يحبه الحبيب وقال لا تصح التوبة حتى يتوب من الحسنات وقد قال غيره من العارفين العامة يتوبون من سيئاتهم والصوفية يتوبون

من حسناتهم يعنى من تقصيرهم فى أدائها لعظيم ما يشهدون من حق الملك العزيز سبحانه وتعالى المقابل بها ومن نظرهم اليها أو نظرهم الى نفوسهم بها وهى منة الله تعالى اليهم واصلة وكان سهل يقول التوبة من أفضل الاعمال لان الاعمال لا تصح الا بها ولا تصح التوبة الا بترك كثير من الحلال مخافة أن يخرجهم الى غيره والاستغفار قوت التوابين ومفزع الخطائين قال الله تعالى وهو أصدق القائلين استغفروا ربكم ثم توبوا اليه وقال تعالى أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه فابتدىء التوبة بالاستغفار وعقب الاستغفار بالتوبة فالاستغفار مع الذنب سؤال الستر من الله تعالى ومغفرة الله تعالى لعبده فى حال ذنبه ستره عليه وحلمه عنه ويقال ما من ذنب ستره الله تعالى على عبده فى الدنيا الا غفره له فى الآخرة ان الله تعالى أكرم من أن يكشف ذنبا كان قد ستره وما من ذنب كشفه الله فى الدنيا الا جعل ذلك عقوبة عبده فى الآخرة فالله أكرم من أن يثنى عقوبته على عبده وروى عن على وابن عباس رضى الله عنهما نحو ذلك وقد أسنداه من طريق الاستغفار بعد التوبة وهو سؤال العبد مولاه العفو عن المؤاخذة ومغفرة الله تعالى لعبده بعد التوبة تكفيره لسيآته وتجاوزه عنها بالعفو الكريم وهو تبديل السيآت حسنات كما جاء فى الخبر ان تفسير قول العبد يا كريم العفو قال هو ان عفا برحمته عن السيآت ثم بدلها بكرمه حسنات وقد أحكم الله تعالى ذلك بقوله فاستقيموا اليه واستغفروه بعد قوله تعالى ان الذين قالوا ربنا ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا أى وحدوا الله تعالى ثم استقاموا على التوحيد فلم يشركوا وقيل استقاموا على السنة فلم يحدثوا وقيل استقاموا على التوبة فلم يروغوا معها أن لا تخافوا عقاب الذنوب فقد كفرها عنكم بالتوحيد ولا تحزنوا على ما فاتكم من الاعمال فقد تداركها الله تعالى لكم بالتوبة وبلغكم منازل المحسنين بالاستقامة ثم قال تعالى وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون فى السابق نحن أولياؤكم أى نليكم ونقرب منكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة بالتثبيت لكم على الايمان ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم أى أجسامكم من النعيم المقيم ولكم فيها ما تدعون أى ماتمنون بقلوبكم من النظر الى الملك الرحيم وفى الخبر التائب من الذنب كمن لا ذنب له والمستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله تعالى وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولى أستغفر الله باللسان عن غير توبة وندم بالقلب وفى خبر الاستغفار باللسان من غير توبة وندم بالقلب توبة الكذابين وكانت رابعة تقول استغفارنا هذا يحتاج الى استغفار فكم من توبة تحتاج الى توبة فى تصحيحها والاخلاص من النظر اليها والسكون والادلال بها فمن عقب السيئات بحسنات وخلط الصالحات بالطالحات طمع له فى النجاة ورجى له الاستقامة قبل الوفاة قال الله تعالى خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم أى يعطف عليهم وينظر اليهم وقيل خلطوا عملا

صالحا هو الاعتراف بالذنوب والتوبة المستأنفة وآخر سيأما سلف من الغفلة والجهالة وقد كان ابن عباس يقول غفور لمن تاب رحيم حيث رخص فى التوبة وقد قال الله تعالى وانى لغفار لمن تاب أى من الشرك وآمن بالتوحيد وعمل صالحا أدى الفرائض واجتنب المحارم ثم اهتدى كان على السنة وقيل استقام على التوبة فهذه صفات المؤمنين فلم يرد الله تعالى المخلصين الى ما رد اليه المنافقين وهو التوبة وكذلك رد اليها المشركين اذلا طريق للكل الا منها ولا وصول الى المحبة والرضا الابها وقال تعالى فى وصف المنافقين وآخرون مرجون لامر الله اما يعذبهم أى مع الاصرار واما يتوب عليهم أى بالاستغفار وأحكم ذلك وفصله بما شرط له كما قال فى شأن الكافرين فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم وقد قرن الله تعالى الاستغفار للعبادة ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فى الامة ورفع العذاب عنهم بوجوده فضلا منه ونعمة وقال تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون وكان بعض السلف يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وبقى الآخر فان ذهب الآخر هلكنا يعنى الذى ذهب الرسول صلى الله عليه وسلم والذى بقى الاستغفار وسئل سهل رحمه الله عن الاستغفار الذى يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ثم الانابة ثم التوبة فالاستجابة أعمال الجوارح والانابة أعمال القلوب والتوبة اقباله على مولاه وترك الخلق ثم يستغفر من تقصيره الذى هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم ينقل الى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم القرب ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاه ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتفويض مراده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله تعالى اليه فيرفعه الى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش وكان يقول العبد لابد له من مولاه على كل حال وأحسن حاله أن يرجع اليه فى كل شىء اذا عصى يقول يارب استر على فاذا فرغ من المعصية قال يارب تب على فاذا تاب قال يارب ارزقنى العصمة فاذا عمل قال يارب تقبل منى ومن أحسن ما يتعقب الذنب من الاعمال بعد التوبة وحل الاصرار مما يرجى به كفارة الخطيئة ثمانية أعمال أربعة من أعمال الجوارح وأربعة من أعمال القلوب فأعمال الجوارح أن يصلى العبد ركعتين ثم يستغفر سبعين مرة ويقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ثم يتصدق بصدقة ويصوم يوما وأعمال القلوب هى اعتقاد التوبة منه وحب الاقلاع عنه وخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له ثم يحتسب على الله تعالى بحسن ظنه وصدق يقينه كفارة ذنبه فهذه الاعمال قد وردت بها الآثار انها المكفرة للزلل والعثار وقد يشترط فى بعضها فيتوضأ ويسبغ الوضوء ويدخل المسجد فيصلى ركعتين وفى بعض الاخبار فيصلى أربع ركعات قال ويقال اذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين

صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبها عليه وان لم يستغفر كتبها ويقال صدقة الليل تكفر ذنوب النهار وصدقةالسر تكفر ذنوب الليل وفى بعض الاخبار اذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية وفى أخبار متفرقة جمعناها مامن يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها الا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ويقول الآخر وياليتهم اذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فيقول الآخر ياليتهم اذ علموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا وفى بعضها تجالسوا فتذاكروا ما علموا فيقول الآخر وياليتهم اذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا فأول مايجب لله عز وجل على عبده أن لا يعصيه بنعمه لئلا تكون معصيته كفرانا لنعمته وجوارح العبد وماله من نعم الله تعالى عليه لان قوام الانسان بجوارحه وثبات جوارحه بالحركة ومنافع الحركة بالعافية فاذا عصاه بالنعمة فقد بدلها كفرا كما قال تعالى بدلوا نعمة الله كفرا قيل استعانوا بها على معاصيه ثم توعد على التبديل بالعقاب الشديد فقال ومن يبدل نعمة الله من بعد ماجاءته فان الله شديد العقاب فقد يكون العقاب على تبديل النعمة بالمعصية معجلا فى الدنيا ويكون مؤجلا فى الآخرة وقد يكون العقاب فى أسباب الدنيا وقد يكون فى حرمان أسباب الآخرة لأنها مآله ومثواه وقد يكون فيهما معا وقد تكون نفس المعصية بالنعمة عقوبة والجهل بالنعمة وتضييع الشكر عليها واستصغارها والسكون اليها والتطاول والتفاخر والتكاثر بها كل هذه الاسباب عقوبات ثم يفترض على العبد اذا عصاه الرجوع الى مولاه وهو التوبة عقيب وقوفه مع نفسه وهو موافقة الهوى بالخطيئة فتأخيره بالتوبة واصراره على الذنب ذنبان مضافان الى الخطيئة فاذا تاب من ذنبه وأحكم التوبة منه اعتقد الاستقامة على الطاعة ودوام الافتقار الى الله تعالى فى العصمة ثم يتوب أبدا من الصغائر الى الهم والتمنى ومن الخوف والطمع فى المخلوق وهى ذنوب الخصوص الى الطرفة والنفس والسكون الى شىء والراحة بشىء وهذه ذنوب المقربين حتى لا يبقى على العبد فيما يعلم مخالفة وحتى يشهد له العلم بالوفاء فتبقى حينئذ ذنوبه من مطالعة علم الله تعالى فيه لما استأثر به عنه من علم غيبه يكاشفه به ومن معنى نفس العبودية وكون الخلقة عن تسليط الربوبية بوصفها وكبرها فيكون هذا الخوف مشوبة له لما فزع من علم نفسه الى مالايمكن ذكره ولايعرف نشره من ذنوب المقربين التى هى صالحات أصحاب اليمين لعقد مشاهدتها وللجهل بمعرفة مقاماتها عند العموم فيكون حال هذا المقرب الاشفاق من البعد فى كل طرفة ونفس الى وقت اللقاء والخوف من الاعراض والحجب فى كل حركة وهم فى هذه الدار الى دار البقاء وقد روينا فى خبر غريب ان الله عز وجل أوحى الى يعقوب عليه السلام أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف قال لاقال لقولك

لاخوته وأخاف أن يأكله الذئب لم خفت عليه الذئب ولم ترجنى له ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظى له فهذا معنى قول يوسف للساقى اذكرنى عند ربك قال الله تعالى فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين فهذا مما يعتب على الخصوص من خفى سكونهم ولمح نظرهم الى ماسوى الله تعالى وانما حرم بعض التابعين ذلك المزيد ولم يجدوا حلاوة التوبة لتهاونهم بحال الرعاية وتسامحهم بترك حسن القيام بشاهد المراقبة وذلك يكون من قلة احكام أمر التوبة ولو قاموا بحكم التوبة من الذنب الواحد وأحكموا حال تواب من الصادقين فى التوبة لمزيده وامن الله تعالى المزيد لأنهم محسنون فهم فى تجديد قال الله تعالى سنزيد المحسنين فاذا رآك مستقيما على التوبة عاملا بالصالحات ولم تجدك على مزيد من ميراث بوجد حلاوة أوحسن خليقة أو عروض زهد أو خاصية معروفة فارجع الى باب المراقبة أو موقف الرعاية فتفقدها وأحكم حالها فمن قبلهما أتيت وقال بعض العلماء من تاب من تسعة وتسعين ذنبا ولم يتب من ذنب واحد لم يكن عندنا من التائبين ولا تغفلن عن التفقد وتجديد التوبة أدبار الصلوات فانما دخل الخسران على العمال من حيث لا يعلمون من تركهم التفقد ومحاسبة النفس وبمسامحتها مما يعملون واعلم أن حقيقة كل ذنب عشرة أعمال لا يكون العبد توابا يحبه الله تعالى ولا تكون توبته نصوحا التى شرطها الله تعالى وفسرتها النبوة الا أن يحكم العبد عشر توبات من كل ذنب أولها ترك العود الى فعل الذنب ثم يتوب من القول به ثم يتوب من الاجتماع مع سبب الذنب ثم التوبة من السعى فى مثله ثم التوبة من النظر اليه ثم التوبة من الاستماع الى القائلين به ثم التوبة من الهمة ثم التوبة من التقصير فى حق التوبة ثم التوبة من أن لا يكون أراد وجه الله تعالى خالصا بجميع ما تركه لاجله ثم التوبة من النظر الى التوبة والسكون اليها والادلال بها ثم يشهد بعد ذلك تقصيره عن القيام بحق الربوبية لعظيم ما يشهد بالمزيد من الاشراف على التوحيد من كبير جلال الله تعالى وعظم كبريائه فتكون توبته بعد ذلك من تقصيره عن القيام بحقيقة مشاهدته و يكون استغفاره لما ضعف قلبه ونقص همه عن معاينة مشاهدة لعلو مقامه ودوام مزيده واعلامه ولانهاية لتوبة العارف ولا لغاية وصفه لما هو عليه عاكف ولا وصف محتمل ذكر دقيق بلائه ولا يكبر عن التوبة نبي فمن دونه ولكل مقام توبة ولكل حال من مقام توبة ولكل مشاهدة ومكاشفة توبة فهذا حال التائب المنيب الذى هو من الله تعالى مقرب وعنده حبيب وهذا مقام مفتن تواب أى مختبر بالاشياء مبتلى بها تواب الى الله تعالى منها لينظر مولاه أينظر بقلبه اليه أواليها أو يعتكف بهمته عليه أو عليها أو يطمئن اليه بوجودها أو اليها أو يطلب اياه هربا منها أو اياها فعليه لكل مشاهدة لسواه ذنب وعليه فى كل سكون الى سواه عتب كماله فى كل شهادة علم ومن كل اظهار فى الكون حكم

فذنوبه لا تحصى وتوباته الى الله تعالى لا تستقصى فهذه حقيقة التوبة النصوح وصاحبها مسلم وجهه لله تعالى محسن من نفسه مستريح ودينه عند الله تعالى مستقيم ومقامه وحاله من الله تعالى سليم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يحب كل مفتن تواب واعلم أن الذنوب على سبعة ضروب بعضها أعظم من بعض كل ضرب منها مراتب فى كل مرتبة من المذنبين طبقة منها معاص يعتل بها العبد من معانى صفات الربوبية مثل الكبر والفخر والجبرية وحب الحمد والمدح ووصف العز والغنى فهذه مهلكات وفيها من العموم طبقات ومعاص تكون من معانى أخلاق الشياطين مثل الحسد والبغى والحيلة والخداع والامر بالفساد فهذه موبقة وفيها من أهل الدنيا طبقات ومعاص تكون من ضد السنة وهو ما خالفها الى بدعة والاحداث المبتدعة وهى كبائر منها ما يذهب الايمان وينبت النفاق وست من كبائر البدع وهى تنقل عن الملة وهى القدريه والمرجئة والرافضية والاباضية والجهمية والشاطحون من المغالطين وهم الذين لا يقولون بخلق ولا رسم ولا حكم فى تعدى الحدود ومجاوزات العلم فهم زنادقة هذه الامة ومعاص متعلقة بالخلق من طريق المظالم فى الدين والالحاد بهم عن طريق المؤمنين وهو ما أضل به عن الهدى وأزاغ به عن السنن وحرفه من الكتاب وتأوله من السنة ثم أظهر ذلك ودعا اليه فقبل منه واتبع عليه وقد قال بعض العلماء لا توبة لهذه المعاصى كما قال بعضهم فى القاتل لا توبة له للاخبار بثبوت الوعيد وحق القول عليه والضرب الخامس من المعاصى ما تعلق بمظالم العباد فى أمر الدنيا مثل ضرب الانسان وشتم الاعراض وأخذ الاموال والكذب والبهتان فهذه موبقات ولا بد فيها من القصاص للموافقة بين يدى الحاكم العادل والقطع منه بقضاء فاصل الا أن يقع استحلال أو يستوهبها الله عز وجل من أربابها فى المآل بكرمه ويعوض المظلومين عليها من جنابه بجوده وقد جاء فى الخبر الدواوين ثلاثة ديوان يغفر وديوان لا يغفر وديوان لا يترك فاما الديوان الذى يغفر فذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى وأما الديوان الذى لا يغفر فالشرك بالله تعالى وأما الديوان الذى لا يترك فمظالم العباد أى لا يترك المطالبة والمؤاخذة عليه والضرب السادس من الذنوب ما كان بين العبد وبين مولاه من نفسه الى نفسه متعلق بالشهوات والجرى فى العادات وهذه أخفها والى العفو أقربها وهذه على ضربين كبائر وصغائر فالكبائر ما نص عليه بالوعيد وما وجبت فيه الحدود والصغائر دون ذلك الى نظرة وخطرة والتوبة النصوح تأتى على جميع ذلك بعموم قوله تعالى فتاب عليكم وعفا عنكم وباخباره عز وجل عن حكمه اذ يقول ثم تاب عليهم ليتوبوا وبظاهر قوله تعالى ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا ومثله ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا الى قوله ان ربك من بعدها لغفور رحيم هكذا قراءة أهل الشام بنصب الفاء والتاء

ولان البغية من التوبة اذا كانت غفران الذنب والزحزحة عن النار ونحن لا نرى أبدية الوعيد على أهل الكبائر بل نجعلهم فى مشيئة الله ونجوز تجاوز الله تعالى عنهم فى أصحاب الجنة كما جاء فى الخبر فى تفسير قوله تعالى فجزاؤه جهنم خالدا فيها أى ان جازاه وكما روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم من وعده الله تعالى على عمل ثوابا فهو منجزه له ومن وعده على عمل عقابا فهو فيه بالخيار ان شاء عذبه وان شاء عفا عنه وكما قال ابن عباس رضى الله عنه يغفر لمن يشاء الذنب العظيم ويعذب من يشاء على الذنب الصغير وقد قال الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فلم يجد للمغفرة ذنبا غير الشرك وترك المسلمين مع سائر الذنوب فى مشيئته فقد يحتج محتج بالخبر المأثور فى ترك قبول توبة المبتدع ان الله تعالى احتجر التوبة على كل صاحب بدعة فهذا مخصوص لمن لم يتب ممن حكم عليه بدرك الشقاء ألا ترى انه لم يقل ان الله تعالى احتجر قبول التوبة عمن تاب انما أخبر عن حكم الله تعالى فيمن لم يتب بان الله تعالى حجب التوبة عنه فهكذا نقول أيضا ان القاتل اذا كان قد سبق له سوء الخاتمة بانه يموت على غير توحيد وكذلك المبتدع ان جعل اسمه فى أصحاب النار ثم كان القتل والبدعة علامة ذلك وسببه أنهما جميعا ممنوعات من التوبة فانها محتجرة عنهما وكذلك القول فيمن حقت عليه كلمة العذاب بسبق سوء الخاتمة فلو أنه تاب سبعين توبة لم تنقذه من النار وليست توبته بأكثر من قوله صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس انه من أهلها ولا يبق بينه وبينها الا شبر ثم يدركه الشقاء وفى لفظ آخر ثم يسبق عليه الكتاب بعمل أهل النار فيدخلها فقد دخلت التوبات فى صالح أعماله الحسنات ثم أحبطها عنه فى جملة عمله بسبق الكتاب بالشقاء له وأما من لم يسبق له سوء الخاتمة ووهب له التوبة النصوح ولم يدركه الشقاء فانها لم تحتجر عنه وان الله تعالى يعفو عنه بما وهب له من التوبة كقوله تعالى فى المنافقين اما يعذبهم واما يتوب عليهم وليس النفاق دون البدعة ولا كل المنافقين تاب عليهم ولا جميعهم ختم لهم به ولعموم قوله تعالى فتاب عليكم وعفا عنكم فهذا يحمل فيمن تاب والخبر مخصوص فيمن لم يتب ولقوله تعالى ثم تاب عليهم ليتوبوا ولقوله تعالى عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم ثم ان الناس فى التوبة على أربعة أقسام فى كل قسم طائفة لكل طائفة مقام منهم تائب من الذنب مستقيم على التوبة والانابة لا يحدث نفسه بالعود الى معصية أيام حياته مستبدل بعمل سيآته صالح حسناته فهذا هو السابق بالخيرات وهذه هى التوبة النصوح ونفس هذا هى المطمئنة المرضية والخبر المروى فى مثل هذا سيروا سبق المفردون المستهترون بذكر الله وضع الذكر أوزارهم فوردوا القيامة خفافا والذى يلى هذا فى القرب عبد عقده التوبة ونيته الاستقامة لا يسعى فى ذنب ولا يقصده ولا ينحوه ولا يهتم به وقد يبتلى بدخول الخطايا عليه من غير قصد منه ويمتحن بالهم

واللمم فهذا من صفات المؤمنين يرجى له الاستقامة لانه فى طريقها وهو ممن قال الله تعالى يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة وداخل فى وصف المتقين الذين قال الله تعالى فيهم والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم الآية ونفس هذا هى اللوامة التى أقسم الله تعالى بها وهو من المقتصدين وهذه الذنوب تدخل على النفوس من معانى صفاتها وغرائز جبلاتها وأوائل أنسابها من نبات الأرض وتركيب الاطوار فى الارحام خلقا من بعد خلق ومن اختلاط الامشاج بعضها ببعض ولذلك عقبه تعالى بقوله هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الأرض واذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم الآية فلذلك نهى عن تزكية النفس المنشأة من الأرض والمركبة فى الارحام بالامشاج للاعوجاج فقال تعالى فلا تزكوا أنفسكم أى فهذا وصفها عن بدء انشائها وكذلك وصف مشيج خليقته بالابتلاء فى قوله انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا وشرح هذا يطول ويخرج الى علم تركيبات النفوس ومجبول فطرتها وقد ذكرنا أصوله فى بعض الأبواب من هذا الكتاب وفى مثل هذا العبد معنى الخبر الذى جاء المؤمن مفتن تواب والمؤمن كالسنبلة تفيء أحيانا وتميل أحيانا فازراء هذا العبد على نفسه ومقته لها عن معرفته بها وترك نظره اليه وسكونه الى خير ان ظهر عليها يكون من كفارات ذنوبه لانه من تدبر الخطاب فى قوله تعالى فلا تزكوا أنفسكم . هو أعلم بكم والعبد الثالث هو الذى يقرب من هذا الثانى فى الحال عبد يذنب ثم يتوب ثم يعود الى الذنب ثم يحزن عليه بقصد له وسعى فيه وايثاره اياه على الطاعة الا انه يسوف بالتوبة ويحدث نفسه بالاستقامة ويحب منازل التوابين ويرتاح قلبه الى مقامات الصديقين ولم يأن حينه ولا ظهر مقامه لأن الهوى يحركه والعادة تجذبه والغفلة تغمره الا أنه يتوب خلال الذنوب ويعاود لتقدم المعتاد فتوبته هذا فوت من وقت الى وقت ومثله ترجى له الاستقامة لمحاسن عمله وتكفيرها لسالف سيئته وقد يخاف عليه الانقلاب لمداومة خطئه ونفس هذا هى المسولة وهو ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليه فيستقيم فيلحق بالسابقين فهذا بين حالين بين أن يغلب عليه وصف النفس فيحق عليه ما سبق من القول وبين أن ينظر اليه مولاه نظرة تجبر له كل كسر ويغنى له كل فقر فيتداركه بمنة سابقة فتلحقه بمنازل المقربين لانه قد سلك طريقهم بفضله ورحمته ونيته الآخرة والعبد الرابع أسوأ العبيد حالا وأعظمهم على نفسه وبالا وأقلهم من الله نوالا عبد يذنب ثم يتبع الذنب مثله أو أعظم منه ويقيم على الاصرار ويحدث نفسه به متى قدر عليه ولا ينوى توبة ولا يعقد استقامة ولا يرجو وعدا بحسن ظنه ولا يخاف وعيدا لتمكن أمنه فهذا هو حقيقة الاصرار ومقام بين العتو والاستكبار وفى مثل هذا جاء الخبر هلك المصرون قدما الى النار ونفس هذا هي الامارة وروحه أبدا من الخير فرارة

و يخاف على مثله سوء الخاتمة لانه فى مقدماتها وسالك طريقتها ولا يبعدمنه سوء القضاء ودرك الشقاء ولمثل هذا قيل من سوف الله تعالى بالتوبة أكذبه وان اللعنة خروج من ذنب الى أعظم منه وهذه الطائفة فى عموم المسلمين وهم فى مشيئة الله من الفاسقين كما قال تعالى مرجون لامر الله أى مؤخرون لحكمه اما يعذبهم بالاصرار واما يتوب عليهم بما سبق من حسن الاختيار نعوذ بالله تعالى من عذابه ونسأله نعيما من ثوابه وهذا آخر كتاب التوبة

شرح مقام الصبر ووصف الصابرين وهو الثانى من مقامات اليقين

قد جعل الله عز وجل الصابرين أئمة المتقين وتمم كلمته الحسنى عليهم فى الدين فقال تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وقال تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا وقال المسيح عليه السلام انكم لا تدركون ماتحبون الا بصبركم على ما تكرهون وقال بعض الصحابة ماذا جعل الله تعالى من الشفاء والفضل فى التقى والصبر وقال ابن مسعود الصبر نصف الايمان وقد جعل على كرم الله وجهه الصبر ركنا من أركان الايمان وقرنه بالجهاد والعدل والايقان فقال بنى الاسلام على أربع دعائم على اليقين والصبر والجهاد والعدل وقال على كرم الله وجهه الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد لاجسد لمن لا رأس له ولا ايمان لمن لاصبر له ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبر فى العلو والفضل الى مقام اليقين وقرنه به وكذلك قال الله تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان من أوتى نصيبه منهما لم يسأل ما فاته وأخبر عليه السلام ان الصبر كمال العمل والاجر فقال فى حديث يرويه شهر بن حوشب الأشعرى عن أبى أمامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من أقل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال مافاته من قيام الليل وصيام النهار ولأن تصبروا على مثل ماأنتم عليه أحب الى من أن يوافينى كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ثم قرأ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون وفى حديث ابن المنكدر عن جابر قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال الصبر والسماحة وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا وقال عز وجل انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب فضاعف أجر الصابرين على كل عمل ثم رفع جزاء الصبر فوق كل جزاء فجعله بلا نهاية ولا حد فدل ذلك انه أفضل المقامات وجمع للصابرين ثلاثا فرقها على جمل أهل العبادات

الصلاة والرحمة والهدى بعد البشارة فى الآخرة والعقبى وكان عمر رضى الله عنه يقول نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة وبالعلاوة الهدى والعلاوة ما يعلى به فوق الحملين على البعير فيكون كعدل ثالث وقد أخبر الله تعالى انه مع الصابرين ومن كان الله تعالى معه غلب كما أن من كان معه علا فقال تعالى واصبروا ان الله مع الصابرين كما قال الله عز وجل وانتم الأعلون والله معكم واشترط الصبر لامداده بجنده ولنصرة تأييده بقوله تعالى بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وكان سهل يقول الصبر تصديق الصدق وأفضل منازل الطاعة الصبر على المعصية ثم الصبر على الطاعة وقال فى معنى قوله عز وجل استعينوا بالله واصبروا أى استعينوا بالله على أمر الله واصبروا على أدب الله وقال لم يمدح الله تعالى أحدا الا من صبر للبلاء والشدة فبذلك يثنى عليه وكان يقول الصالحون فى المؤمنين قليل والصادقون فى الصالحين قليل والصابرون فى الصادقين قليل فجعل الصبر خاصية الصدق وجعل الصابرين خصوص الصادقين وكذلك الله تعالى وهو أصدق القائلين قد رفع الصابرين على الصادقين فى ترتيب المقامات فجعل الصبر مقاما فى الصدق ان كانت الاوصاف المنسوقة نعتا واحدا للمسلمين وكانت الواو للمدح وان كانت مقامات فالواو للترتيب فقد جعل الله الصابرين فوق الصادقين والقانتين أعنى فى قوله تعالى ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الآية وفى حديث عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانصار فقال أمؤمنون أنتم فسكتوا فقال عمر رضى الله عنه نعم يارسول الله قال وما علامة ايمانكم قال نشكر فى الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال مؤمنون ورب الكعبة والصبر ينقسم على عملين أحدهما لا صلاح للدين الا به والثانى هو أصل فساد الدين ثم يتنوع الصبر فيكون صابرا على الذى فيه صلاح الدين فيكمل به ايمانه ويكون صابرا عن الذى فيه فساد الدين فيحسن به يقينه روينا فى معنى هذا عن على رضى الله عنه انه لما دخل البصرة واستقام له الأمر دخل جامعها فجعل يخرج القصاص ويقول القصص بدعة فانتهى إلى حلقة شاب يتكلم على جماعة فاستمع اليه فأعجبه كلامه فقال يافتى أسألك عن شيئين فان خرجت منهما تركتك تتكلم على الناس والا أخرجتك كما أخرجت أصحابك فقال سل ياامير المؤمنين فقال أخبرنى ماصلاح الدين وما فساده قال صلاحه الورع وفساده الطمع قال صدقت تكلم فمثلك يصلح ان يتكلم على الناس يقال ان هذا الشاب هو امامنا فى هذا العلم وهو امام الأئمة الحسن بن يسار مولى الانصار البصرى وكان ميمون بن مهران يقول الايمان والتصديق والمعرفة والصبر واحد وقال أبو الدرداء رضى الله عنه ذروة الايمان الصبر للحكم والرضا بالقدر واعلم ان الورع أول الزهد

وهو أول باب من ابواب الآخرة والطمع أول الرغبة وهو باب كبير من ابواب الدنيا وهو استشعار الطمع من حب الدنيا وحب الدنيا رأس كل خطيئة ويقال أول معصية عصى الله تعالى بها الطمع وهو ان آدم عليه السلام طمع فى الخلود فأكل من الشجرة التى نهى عنها وابليس طمع فى اخراج آدم عليه السلام من الجنة فوسوس اليه فاتفقا فى اسم المعصية لربهما تعالى بالطمع ثم افترقا فى المطموع فيه و فى الحكم فتدورك آدم عليه السلام بحسن سابقته من الله تعالى وهلك ابليس بما سبق عليه من الشقوة والطمع هو تصديق الظن ولذلك وصف الله تعالى به عدوه فى قوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه والظن ضد اليقين ولا يغنى من الحق شيأ وقال الله تعالى فى وصف المشركين ان نظن الاظنا وما نحن بمستيقنين فمن صبر عن الطمع فى الخلق أخرجه الصبر الى الورع ومن صبر عن الورع فى الدين أدخله الصبر فى الزهد ومن طمع فى تصديق الظن الكاذب أدخله الطمع فى حب الدنيا ومن استشعر حب الدنيا اخرجه حبها من حقيقة الدين وقد قال بعض العلماء ما كنا نعد ايمان من لم يؤذ فيحتمل الاذى و يصبر عليه ايمانا وقد فعل الله تعالى ذلك بالمؤمنين اختبارا و اخبر ان ذلك ليس منه عذابا وانما هو فتنة لمن أراد فتنته و بلاء من الناس فصار ذلك فتنة عليهم وابتلاء لهم وصار رحمة للمؤذى وخير افى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله له يعنى فتنه الناس به كعذاب الله تعالى يعنى اياه أى ليس ذلك عذابا منى انما هو رحمة باطنة فهو كقوله تعالى وأما اذا ماابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلا أى لم أهنك بالفقر كما لم أكرم الآخر بالاكرام والتنعيم وعلى معنى هذا خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر الذى أمره به فقال تعالى واصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود فسلاه به وفضله عليه وقد روينا فى خبر يؤتى بأشكر أهل الارض فيجزيه الله تعالى جزاء الشاكرين ويؤتى باصبر أهل الارض فيقال له أترضى ان نجزيك كما جزينا هذا الشاكر فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى كلا أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لاضعفن لك الاجر عليه فيعطى اضعاف جزاء الشاكرين وكتب ابن أبى نجيح يعزى بعض الخلفاء فقال فى كتابه ان أحق من عرف حق الله فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقى واعلم أن الماضى قبلك هو الباقى لك والباقى بعدك هو المأجور فيك واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون فيه أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون به وفى الاخبار مامن عبد الا يعطى أجره بحساب وحد الا الصابرين فانهم يجازفون مجازفة بغير ميزان ولاحد وجاء فى الخبر ان ابواب الجنة مصراعان يأتى عليها زحام كثير الا باب الصبر فانه مصراع واحد لايدخل منه الا الصابرون أهل البلاء فى الدنيا واحدا بعد واحد وقد قال الله تعالى فى جزاء المخلصين أولئك لهم رزق معلوم وقال تعالى فى

جزاء الصابرين انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب قيل فى التفسير يغرف لهم غرفا والمعنى فى ذلك أن الصبر أشق شيء على النفس وا كرهه وأمره على الطبع وأصعبه فيه الالم والكظم عند الذل والحلم ومنه التواضع والكتم وفيه الادب وحسن الخلق وبه يكون كف الاذى عن الخلق واحتمال الاذى من الخلق وهذه من عزائم الامور التى يضيق منها أكثر الصدور وفيه اكراه النفوس وحملها على الشدة والبؤس وقد جاء أفضل الأعمال ماا كرهت عليه النفوس ولاجل ذلك اشترط الله تعالى على المتقين والصادقين الصبر فى الشدائد والمكاره وحقق بالصبر صدقهم وتقواهم وأكمل به وصفهم وأعمال برهم فقال تعالى والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون فمعنى الصبر حبس النفس عن السعى فى هواها وحبسها أيضاً عن مجاهدتها لمرضات مولاها بمثل مايوجب المجاهدة على قدر مايبتلى به العبد لأن المجاهدة على قدر البلاء والحبس عن نحو الشرود وحبسها على دوام الطاعة وصبرها عن شره الطبع الذى يظهر سوء الأدب بين يدى الرب سبحانه وتعالى وصبرها على حسن الأدب فى المعاملة ثم يتفرع الصبر الى معان شتى من الصبر عن تفاوت الأهواء والصبر على الثبات فى خدمة المولى فمن ذلك مايوجب المجاهدة صرف الهمة عنه وتطهير القلب منه من خطرات الهوى ونزغات الأعداء وتزيين الدنيا ومن الآفات مايوجب الصبر كف الجوارح عنها وحبس النفس عن المشى فيها ومن الصبر حبس النفس على الحق وعكوفها عليه بمعاملة اللسان والقلب والجسم وبذلك وصف الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحات واشترط لصلاح اعمالهم الصبر وأخبر ان الناس كلهم فى خسران الا من كان من أهل الحق والصبر وعظم الصبر فأفرده باعادة التواصى به ومن الصبر حبس النفس على عبادة الخالق سبحانه وتعالى وصبرها على القناعة وعلى صنع الرازق ومن الصبر كف الاذى عن الخلق وهو مقام العادلين يدخل فى قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل ثم احتمال الاذى عن الخلق وهو مقام المحسنين يدخل فى قوله والاحسان ومن الصبر الصبر على الانفاق واعطاء أهل الحقوق حقوقهم الاقرب فالاقرب وهذا مقام المنفقين يدخل فى قوله تعالى وايتاء ذى القربى ومنه الصبر على الفحشاء وهو الامر الفاحش فى العلم والايمان والصبر عن المنكر وهو ماأنكره العلماء والصبر عن البغى وهو التطاول والغلو ومجاوزة الحد بالكبر والاسراف فى أمور الدنيا فهذه الآية كلها جامعة لمعنى الصبر وهى قطب القرآن ثلاث منها وهى الاول الصبر على العدل والاحسان والاعطاء وثلاث منها الصبر عن الفحشاء والمنكر والبغى وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول أجمع آية فى كتاب الله عز وجل لامر ونهى هذه الآية وقال الله تعالى نعم أجر العاملين الذين صبروا فما أنعم أجرهم حتى وصفهم بالصبر وما أكرم رزقهم ووصفهم حتى

مدحهم بالصبر والصبر يحتاج اليه قبل العمل ومعه و بعده يحتاج فى أول العمل أن يصبر على تصحيح النية وعزم العقود والوفاء بها حتى تصح الاعمال لان النبي صلى الله عليه وسلم قال انما الاعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى وقال الله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وحقيقة النية الاخلاص ولأن الله تعالى قدم الصبر على العمل فقال تعالى الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير والصبر التأنى فى العمل حتى يتم ويعمل لقوله تعالى نعم أجر العاملين الذين صبروا والصبر بعد العمل هو الصبر على كتمه وترك التظاهر به والنظر اليه ليخلص من السمعة والعجب فيكمل ثوابه كما خلص من الرياء كما قال الله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم وقال تعالى فى مثله لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى وقال بعض السلف لا يتم المعروف الا بثلاث تعجيله وتصغيره و كتمه ومن الصبر حبس النفس عن المكافأة والصبر على الاذى توكلا على المولى عز و جل ومنه قوله تعالى ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون وهذا صبر الخصوص ومنه قال بعض أهل المعرفة لا يثبت للعبد مقام فى التوكل حتى يؤذى و يصبر على الأذى وقد ذكر الله تعالى ذلك فى قوله عز وجل ودع أذاهم وتوكل على الله وفى قوله تعالى فاتخذه وكيلا واصبر على مايقولون وهذا هو أول الرضا والمقام الثانى من الرضا هو الصبر على الأحكام وهو صبر أهل البلاء الأمثل فالامثل بالانبياء لقوله صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء أشد الناس بلاء ثم الامثل فالامثل ولقوله تعالى فى المجمل ولربك فاصبر ثم فسره فى الكلام المفسر واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا ومن الصبر حبس النفس على التقوى والتقوى اسم جامع لكل خير فالصبر معنى داخل فى كل بر فاذا جمعهما العبد فهو من المحسنين وما على المحسنين من سبيل ومنه قوله تعالى انه من يتق و يصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين وقال تعالى لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور أى ان تصبروا على الأذى عن المكافاة وتتقوا عند الابتلاء والمكاره ولا تجاوزوا فانه أفضل كما قال تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وقوله تعالى ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل ثم قال عز وجل و لمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور قال فالأول أعنى المكافأة والانتصار بالحق من العدل و العدل حسن والثانى أعنى العفو والصبر من الفضل وهو الاحسان وهذا مجاز قوله تعالى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب فاستماع القول هو العدل والعدل حسن وهو الانتصار والعفو أحسن وفيه المدح بالهدى والعقل وهذا هو مقام المخبتين قيل هم الذين لا يظلمون واذا ظلموا لم ينتصروا فالمدح بالوصف لأهل هذا المقام هو

الاخبات وهو الخشوع والطمأنينة بحسن الجزاء من الله سبحانه وتعالى فى الآخرة لقرب اللقاء وسرعة فناء الدنيا أمدح كما قال تعالى وان الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل والتقوى والصبر معنيان أحدهما منوط بالآخر لا يتم كل واحد منهما الا بصاحبه فمن كانت التقوى مقامه كان الصبر حاله فصار الصبر أفضل الاحوال من حيث كان التقوى أعلى المقامات اذ الاتقى هو الأكرم عند الله تعالى والأكرم على الله تعالى هو الأفضل وقد شرف الله تعالى الصبر بأن أضافه اليه بعد الأمر به فقال واصبر وما صبرك الا بالله وقال تعالى ولربك فاصبر وان كان كل شىء به وكل عمل صالح له ولا يصف الله تعالى عبدا ولا يثنى عليه حتى يبتليه فان صبر وخرج من البلاء سليما مدحه ووصفه والا بين له كذبه ودعواه وقيل لسفيان الثورى رضى الله عنه ما أفضل الأعمال قال الصبر عند الابتلاء وقال بعض العلماء وأى شىء أفضل من الصبر وقد ذكره الله تعالى فى كتابه فى نيف وتسعين موضعا ولا نعلم شيأ ذكره الله تعالى هذا العدد الا الصبر فلا يطمعن طامع فى مدح الله له وحسن ثنائه عليه قبل أن يبتليه فيصبر له ولا يطمعن أحد فى حقيقة الايمان وحسن اليقين قبل أن يمدحه الله تعالى ويثنى عليه ولو أظهر الله تعالى على جوارحه سائر الأعمال ثم لم يمدحه بوصف ولم يثن عليه بخير لم يؤمن عليه سوء الخاتمة وذلك ان من أخلاق الله تعالى انه اذا أحب عبدا ورضى عمله مدحه ووصفه فمن ابتلاه بكراهة ومشقة أو بهوى وشهوة فصبر لذلك أو صبر عن ذلك فان الله تعالى يمدحه ويثنى عليه بكرمه وجوده فيدخل هذا العبد فى أسماء الموصوفين ويصير واحدا من الممدوحين فعندها يثبت قدمه من الزلل ويختم له بما سبق من صالح العمل ومن الصبر صبر على العوافى ان لا يجريها فى المخالفة والصبر على الغنى ان لا يبذله فى الهوى والصبر على النعمة ان لا يستعين بها على معصية فحاجة المؤمن الى الصبر فى هذه المعانى ومطالبته بالصبر عليها كحاجته ومطالبته بالصبر على المكاره والفقر وعلى الشدائد والضر ويقال ان البلاء والفقر يصبر عليهما المؤمن والعوافى لا يصبر فيها الا صديق وكان سهل يقول الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء وكذلك قالت الصحابة رضى الله عنهم لما فتحت الدنيا فنالوا من العيش واتسعوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر فعظموا الاختبار بالسراء وهو ما سر على الاختبار بالضراء وهو ماضر وقد قال تعالى الذين ينفقون فى السراء والضراء فمدحهم بوصف واحد فى الحالين المختلفين لحسن يقينهم وسخاوة نفوسهم وحقيقة زهدهم ومن هذا المعنى قول الله تعالى ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله لان فيهما ما يسر و يشغل عن الذكر ثم قال عز وجل ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم لان فى الازواج والاولاد ما يفرح به فيوافق فيه الهوى و يخالف بوجودهما المولى فصارا عدوين

فى العقبى لما يؤول اليه من شأنهما ومن هذا الخبر الذى روى عن النبي صلى الله عليه وسلم لما نظر الى ابنه الحسن يتعثر فى قميصه فنزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله انما أموالكم وأولادكم فتنة أى لما رأيت ابنى هذا لم أملك نفسى أن أخذته ففى هذا عبرة لأولى الابصار وروى عنه فى الحديث أيضا الولد محزنة مبخلة مجبنة فهذه مصادر الحزن والبخل والجبن أى يحمل حب الأولاد والأموال على ذلك فمن صبر على السراء وهى العوافى والغنى والأولاد وغير ذلك وأخذ الأشياء من حقها ووضعها فى حقها فهو من الصابرين الشاكرين لا يزيد عليه أهل البلاء والفقر الا بحقيقة الرضا والشكر وقد جمع الله تعالى بين ما سر وضر وجعلهما من وصف المتقين ومدحهم بالاحسان معهما فقال تعالى أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ومن الصبر كتمان المصائب والاوجاع وترك الاستراحة الى الشكوى بهما فذلك هو الصبر الجميل قيل هو الذى لا شكوى فيه ولا اظهار وروينا عن ابن عباس رضى الله عنهما الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه صبر على أداء الفرائض لله تعالى وصبر عن محارم الله تعالى وصبر فى المصيبة عند الصدمة الاولى فمن صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة ومن صبر على محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ومن صبر فى المصيبة عند الصدمة الاولى فله تسعمائة درجة وهذا يحتاج الى تفسير ولم يفضل ابن عباس الصبر على المصيبة لانه أفضل من الصبر عن المحارم وعلى الفرائض بل لان الصبر على ذلك من أحوال المسلمين والصبر على المصيبة من مقامات اليقين وانما فضل المقام فى اليقين على مقام الاسلام ومن ذلك ماروى من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أسألك من اليقين ماتهون به على مصائب الدنيا فاحسن الناس صبرا عند المصائب أكثرهم يقينا وأكثر الناس جزعا وسخطا فى المصائب أقلهم يقينا ومثل هذا الخبر الذى رويناه عن سلمة بن وردان عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له فى وسط الجنة ومن ترك الكذب بنى له فى ربض الجنة فقد علمت ان ترك الكذب وترك المراء مبطلا أفرض وأوجب فينبغى أن يكونا أفضل ولكن المعنى فيه ان الكذب والمراء بالباطل يتركه المسلمون فأما المراء والعبد محق صادق ثم لا يمارى زهدا فى التظاهر ورغبة فى الصمت والسلامة فلا يصبر على هذا الا الموقنون وهم خصوص المؤمنين فمقامه من اليقين والزهد وايثار الخمول والصمت على الكلام والشهوة به أفضل وهو من اليقين فصار هذا المؤمن بمقامه أفضل من عموم المؤمنين الذين يتركون الكذب والمماراة وان كانا أفرض وأوجب فهذا بيان ذلك ومعناه ومن الصبر اخفاء أعمال البر ومنع النفس الفكاهة والتمتع بذكرها واخفاء المعروف والصدقات

فان كتمه من الادب مع السلامة فى الاعلان وبرء الساحة فى الاخبار ولكن اخفاؤه أفضل وأزكى وأحب الى الله تعالى بل هى من كنوز البر أعنى هذه الثلاثة اخفاء الاوجاع والمصائب والصدقة أى من الذخائر النفيسة عند الله تبارك وتعالى ومن الصبر صون الفقر واخفاؤه والصبر على بلاء الله تعالى فى طوارق الفاقات وهذا حال الزاهدين الراضين وأفضل الصبر الصبر على الله تعالى بالمجالسة له والاصغاء اليه وعكوف الهم عليه وقوة الوجد به وهذا خصوص للمقربين أو حياء منه أو حبا له أو تسليما أو تفويضا اليه وهو السكون تحت جريان الاقدار وشهودها من الانعام ومن حسن تدبير الاقسام فى شهود المسئلة له والحكمة فيها والقصد بالابتلاء بها وهو داخل فى قوله تعالى ولربك فاصبر وفى قوله تعالى واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وغيره من الائمة أصبحت ومالى سرور الا فى مواضع القدر وروى أيضا الا انتظارا لقضاء ويقال من علامة اليقين تسليم القضاء بحسن الصبر والرضا وهو مقام العارفين وقال سهل فى تأويل قول على رضى الله عنه ان الله تعالى يحب كل عبد نومة قال هو الساكن تحت جريان الاحكام يعنى من غير كراهة ولا اعتراض فأما اشتراط الصبر فى المصيبة عند الصدمة الاولى فى قول النبي صلى الله عليه وسلم انما الصبر عند الصدمة الاولى فلانه يقال ان كل شىء يبدو صغيرا ثم يكبر الا المصيبة فانها تبدو كبيرة ثم تصغر فاشترط لعظم الثواب لها عند أول كبرها قبل صغرها وهى فى صدمة القلب أول ما يبغته الشىء فينظر الى نظر الله تعالى فيستحى فيحسن الصبر كما قال فانك بأعيننا وهذا مقام المتوكلين على الله تعالى والصبر أيضا عند اظهار الكرامات وعن الاخبار بكشف القدرة والآيات داخل فى حسن الادب من المعاملات وهو من معنى الحياء من الله تعالى وهذا طريق المحبين لله تعالى وهو حقيقة الزهد ومن فضائل الصبر حبس النفس عن حب المدح والحمد والرياسة وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا مقطوعا الصبر فى ثلاث الصبر عن تزكية النفس والصبر عن شكوى المصيبة والصبر على الرضا بقضاء الله تعالى على خيره وشره ومن الصبر حبس النفس عن الخمول والتواضع والذلة ايثارا للآخرة على الدنيا وهربا الى الله تعالى وتحققا بوصف العبودية وترك المنازعة والتشبه بمعانى أوصاف الربوبية تسليما للالهية واستسلاما للاحدية فلا يخرجك قلة الصبر عن ذلك الى الطلب بشىء منه فتزل قدم بعد ثبوتها نعوذ بالله من ذلك ومن الصبر صبر على العيال فى الكسب لهم والانفاق عليهم والاحتمال للاذى عنهم فان العيال طرقات الى الله تعالى أدناها الاهتمام بهم وأعلاها الرضا عن الله تعالى والتوكل عليه فيهم وأوسطها الانفاق وحبس النفس عليهم واعلم ان أكثر معاصى العباد فى شيئين قلة الصبر عما يحبون أو قلة الصبر على ما يكرهون وقد قرن الله تعالى الكراهة بالخير والمحبة بالشر فى قوله تعالى

وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيأ وهو شر لكم وحد الصبر وهو أوله فريضة بمثل أول الاخلاص والصبر أيضا حيلة من لا حيلة له لان الامر اذا كان بيد غيرك لم يكن الا الصبر عليه ولان الشيء اذا كان لا يأتيك الا قليلا قليلا وأنت محتاج اليه لم يكن الا الصبر عليه والا انقطع ذلك القليل وأصل قلة الصبر ضعف اليقين بحسن جزاء من صبرت له لانه لو قوى يقينه كان الاجل من الوعد عاجلا اذا كان الواعد صادقا فيحسن صبره لقوة الثقة بالعطاء ولا يصبر العبد الا بأحد معنيين مشاهدة العوض وهو أدناهما وهذا حال المؤمنين ومقام أصحاب اليمين أو النظر الى المعوض وهو حال الموقنين ومقام المقربين فمن شهد العوض عنى بالصبر ومن نظر الى المعوض حمله النظر وقد جعل بعض العارفين الصبر على ثلاثة معان وانه فى أهل مقامات ثلاث فقال أوله ترك الشكوى قال وهذه درجة التائبين والثانية الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين والثالثة المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصادقين وقد نوع القدماء من السلف الصبر على ثلاثة أنواع وروينا عن الحسن وغيره الصبر على ثلاثة معان صبر عن المعصية وهو أفضلها وصبر على الطاعة وصبر فى المصائب وهذا داخل فى جمل ما فرقناه من معانى الصبر ومجمل ذلك ان الصبر فرض وفضل يعرف ذلك بمعرفة الأحكام فما كان أمرا أو ايجابا فالصبر عليه أو عنه فرض وما كان حثا وندبا فالصبر عليه أو عنه فضل والتصبر غير الصبر وهو مجاهدة النفس وحملها على الصبر وترغيبها فيه وهو التعمل للصبر والتصنع للصبور بمنزلة التزهد وهو أن يعمل فى أسباب الزهد ليحصل الزهد والصبر هو التحقق بالوصف وذلك هو المقام ولا يخرج العبد من الصبر كراهة النفس ولا وجدان المرارة والالم بل يكون مع ذلك صابرا لان هذا وصف البشرية لما ينافى طبعها ولكن يكون حاله الكظم عن الشكوى ونفى السخط لحكم المولى لان عدم ذلك وفقده هو الرضا وحقيقة التوكل وهذان من أعلى مقامات اليقين وفقد مراتب اليقين لايخرج عن حد الصبر والذى يخرج عن حد الصبر ضده وهو الجزع ومجاوزة الحد من العلم واظهار السخط وكثرة الشكوى وظهور الذم والتبرم ومن رياضة النفس على التصبر وهو مقام المتصبرين وحال ضعفاء المريدين ان النفس الامارة اذا جنحت بك الى فضول الشهوات أو نازعتك الى مطالبة متقدم العادات أن تمنعها حاجتها من كل شيء فيشغلها منع الحاجة ووجود الفاقة مما لا بدمنه عن طلب فضول الشهوات فاذا رضتها بالمنع ومنعتها محبوبها بالتصبر عن الحلال انقادت لك بالصبر عن فضول الشهوات فتكون تاركة لشهوة بعوض عاجل من مباح وتكون صابرة عن فضول شهوة لما منعتها من منال الفاقة وتاركة للهوى طمعا فى نوال الحاجة من الغذاء وهذا من أكبر أبواب الرياضات للنفوس الطامحات وفيه فضل الاقوياء من المتصبرين الذين

لم تستجب لهم نفوسهم بالصبر والصلاة ولم تنقد بالجوع والظمأ فأما الضعفاء من أهل الطبقة الثالثة لا من الأولين أهل الصوم والصلاة ولا من هؤلاء فانهم لا يصبرون على تصبر النفس عن الحاجة كما لاتصبر نفوسهم عن الشهوة فرياضة هؤلاء لنفوسهم ان يقطعوها من كل حرام معناه من الحلال ومن كل شهوة مهلكة وصفها من شهوة مقتصدة لتسكن نفوسهم بذلك فى حبسها عن المحرمات وتنقطع شهوتها عما وراء ذلك من الموبقات فهذا تطمئن نفوس الضعفاء وقد اختلف الناس فى الصبر والشكر أيهما أفضل وليس يمكن الترجيح بين مقامين لأن فى كل مقام طبقة متفاوتين والمحققون من أهل المعرفة يقولون انه لا يجتمع عبدان فى مقام بالسواء بل لا بد من أن يكون أحدهما أعلى بعلم أو عمل أو وجد أو مشاهدة وان كان الصواب والقصد والأصل واحداً وأعلى التفاوت مشاهدات الوجه وقد قال الله تعالى ومن أصدق من الله حديثا ولكل وجهة هو موليها وقال تعالى قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا قيل أقصد وأقرب طريقا وظاهر الكتاب والسنة يدلان على تفضيل الصبر لقوله تعالى يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا فالشاكر يؤتى أجره مرة فأشبه مقام الصبر مقام الخوف وأشبه مقام الشكر مقام الرجاء وقد قال الله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقد اتفق أهل المعرفة على تفضيل الخوف على الرجاء من حيث اتفقوا على فضل العلم على العمل فالصبر حال من مقام الخوف فقرب حال الصابر فى الفضل من مقامه والشكر حال من مقام الرجاء كذلك يقرب حال الشاكر من مقامه ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم فى الخبر الذى ذكرناه من قبل من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته وذكر الحديث المتقدم فقرن الصبر باليقين الذى لا شىء أعز منه ولا أجل وارتفاع الأعمال وعلو اليقين به وفى مناجاة أيوب عليه السلام ان الله سبحانه وتعالى أوحى اليه ياأيوب انى آليت على نفسى لانشرت للصابرين ديوان توبيخ ولا نظروا الى حد الصراط ولا أروعهم نقص الميزان دارهم دار السلام

بيان آخر من تفضيل الصبر

الصبر حال البلاء والشكر حال النعمة والبلاء أفضل لأنه على النفس أشق لقول الله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب فالشاكر يوفى أجره بحساب لان انما تحقيق للوصف ونفى ماعداه

بيان آخر من فضل الصبر

قد رفع على كرم الله وجهه الصبر على أربع مقامات اليقين وجعلها دعائمه التى بها يستبين وجعله فيه فوقها فقال فى حديثه الطويل الذى وصف فيه شعب الايمان والصبر على أربع دعائم على الشوق والشفقة والزهد والترقب فمن أشفق من النار رجع عن المحرمات ومن اشتاق الى الجنة سلا عن

الشهوات ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات ومن ارتقب الموت سارع الى الخيرات فجعل هذه المقامات أركان الصبر لانها توجد عنه وتحتاج اليه فى جيعها وجعل الزهد أحد أركانه وقد جعل الله تعالى الصبر حال التقوى و رفع للمتقين فى الاكرام درجات فقال عز وعلا انه من يتق ويصبر وقال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم فأكرم وأتقى فوق أن يقال كرامكم المتقون لان اكرم وأتقى يدل على تفاوت فمن كان أتقى كان أكرم عند الله سبحانه وتعالى ومن كان أصبر على ما يوجب التقوى كان أتقى واعلم أن الصبر سبب دخول الجنة وسبب النجاة من النار لانه جاء فى الخبر حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات فيحتاج المؤمن الى صبر على المكاره ليدخل الجنة و يحتاج الى صبر عن الشهوات لينجو من النار فأما تفصيل التفضيل فعلى ثلاثة أوجه أحدها ان المقامات أعلى من الاحوال وقد يكون الصبر والشكر حالين وقد يكونان مقامين فمن كان مقامه الصبر كان حاله الشكر عليه فهو أفضل لأنه صاحب مقام ومن كان مقامه الشكر كان حاله الصبر عليه فحاله مزيد لمقامه فقد صار الصبر مزيدا للشاكر فى مقامه

الوجه الثانى من التفضيل

المقربون أعلى من أصحاب اليمين فالصابرون من المقربين أفضل من الشاكرين من أصحاب اليمين والشاكرون من المقربين أفضل من الصابرين من أصحاب اليمين فان قيل فان كان الشاكر والصابر من المقربين فأيهما أفضل قيل فقد قلنا ان اثنين لا يتفقان فى مقام من كل وجه لانفراد الوجه بمعانى لطائف اللطيف بمثل ما انفردت الوجوه بلطيف الصنعة مع تشابه الصفات واستواء الادوات فافضلهما حينئذ أعرفهما لانه أحبهما الى الله تعالى وأقربهما منه وأحسنهما يقينا لان اليقين أعز ما أنزل الله تعالى

وجه آخر من بيان التفضيل

نقول ان الصبر عما يوجب الشكر أفضل وان الشكر على ما يوجب الصبر أفضل فقد يختلف باختلاف الاحوال تفسيره ان الصبر عن حظ النفس وعن التنعم والترفه أفضل ان كان عبدا حاله النعمة فالصبر عن النعيم والغنى مقام فى المعرفة وهو أفضل لأن فيه الزهد المجمع على تفضيله ونقول ان الشكر على الفقر والبلاء والمصائب أفضل ان كان عبدا حاله الجهد والبلاء فالشكر عليه مقام له فى المعرفة فهو حينئذ أفضل لأن فيه الرضا المتفق على فضله

نوع آخر من الاستدلال على فضل الصابر وتفضيل الصبر جملة

الصابر العارف أفضل من الشاكر العارف لأن الصبر حال الفقر والشكر حال الغنى فمن فضل الشكر على الصبر فى المعنى فكأنه قد فضل الغنى على الفقر وليس هذا مذهب أحد من القدماء انما هذه طريقة علماء الدنيا طرقوا

لنفوسهم بذلك وطرقوا الخلق الى نفوسهم من ذلك فان من فضل الغنى على الفقر فقد فضل الرغبة على الزهد والعز على الذل والكبر على التواضع وفى هذا تفضيل الراغبين والأغنياء على الزاهدين والفقراء ويخرج ذلك الى تفضيل أبناء الدنيا على أبناء الآخرة وانما فضلنا الصبر على الشكر فى الجملة والمعنى لأن الصبر حال من مقامه البلاء وأهل البلاء هم الأمثل فالأمثل بالأنبياء ولأن الصبر أبعد من أهواء النفوس وأقرب الى الضر والبؤس وأشد فى مكاره النفوس وأنفر لطباعها وأشد مباينة لما يلائمها فاذا سكنت معه ووجد عندها كان أعجز لوصفها وأعجب فى طمأنينتها فمدحت بالسكون والطمأنينة وكانت راضية مرضية وأيضا فان الله تعالى أمر بالصبر وبالغ فيه بالمصابرة ووكدهما بالمرابطة فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا قيل فى أحد الوجوه رابطوا عليهما فهذه ثلاثة أمور فى مكان واحد بمعنى الصبر فهذا يدل على تعظيمه للصبر ومحبته تعالى له فمن وجد منه ذلك كان أشد تعظيما لشعائر الله عز وجل ومن عظم شعائر الله فهو أتقى لله تعالى ومن كان أتقى لله كان أكرم على الله لقوله تعالى ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ثم قال الله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم والصبر أيضا مقام أولى العزم من الرسل الذين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالقدوة بهم وباهى الله تعالى بهم عبده فقال تعالى فاصبر كما صبر أولى العزم من الرسل وأيضا فان العزائم فى الدين أولى من الرخص روينا عن سفيان الثورى رضى الله عنه عن حبيب بن أبى ثابت قال سئل مسلم البطين أيما أفضل الصبر أم الشكر فقال الصبر والشكر والعافية أحب الينا وقد قيل فى معنى قوله تعالى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه قيل شدائده وعزائمه لان اباحة حلال الدنيا حسن والزهد فيه أحسن وقد جعل الله تعالى الصبر من العزائم فى قوله وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور وقد شرك الله تعالى عباده فى الشكر وأفرد عز وجل لنفسه تعالى الصبر فينبغى أن يكون المفرد للمفرد أعلى من المشترك بالعبد فقال تعالى أن اشكر لى ولوالديك وقال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل ولم يشرك فى الصبر من خلقه أحدا فقال تعالى ولربك فاصبر وقال واصبر لحكم ربك واعلم ان الشكر داخل فى الصبر والصبر جامع للشكر لأن من صبر ان لا يعصى الله بنعمة فقد شكرها ومن أطاع الله فصبر نفسه على طاعته فقد شكر نعمته وقد سئل الجنيد رحمه الله عن غنى شاكر وفقير صابر أيهما أفضل فقال ليس مدح الغنى للوجود ولا مدح الفقير للعدم انما المدح فى الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذها والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تؤلم صفته وتقبضها وتزعجها فاذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشروط ما عليهما كان الذى آلم صفته وأزعجها

أتم حالا ممن متع صفته ونعمها هذا نقل كلام الجنيد رحمه الله تعالى وكان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك فيقال ان الجنيد دعا عليه فلحقه ما أصابه من البلا منه قتل أولاده واتلاف ماله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول دعوة الجنيد أصابتني ورجع عن قوله في تفضيل الغني على الفقر فصار يفضل الفقر ويشرفه وأيضا فقد روينا في الخبر أعرفكم بنفسه أعرفكم بما ابتلاه به منها وما ابتلاها به منه فاعظم ما ابتلانا به محبتنا بها وابتلاها بعداوتنا فمن أفضل ممن صبر على مجاهدة عدوه على أنه مع ذلك عدو الله تعالى منازع لصفات الربوبية ومن أشد بلاء ممن ابتلى بعداوتك وابتليت بمحبته وأنت في ذلك تترك محبته لمحبة الله تعالى وتصبر على عداوته بدوام مجاهدته لمرضاة الله تعالى فهذا أعدل العدل وأفضل الفضل ولا سبيل الى ذلك الا بفضل اثر من الله تعالى وحسن عنايته ودوام نظره اذ لا توفيق ولا قوة ولا صبر الا به سبحانه وتعالى فاما المسئلة التي سئل عنها بعض القدماء عن عبدين ابتلى أحدهما فصبر وأنعم على الآخر فشكر فقال كلاهما سواء قال لأن الله تعالى أثنى على عبدين أحدهما صابر والآخر شاكر بثناء واحد فقال تعالى في وصف أيوب عليه السلام نعم العبد انه أواب وقال في وصف سليمان عليه السلام نعم العبد انه أواب ففي قول هذا رحمه الله غفلة عن لطائف الافهام وذهاب عن حقيقة تدبر الكلام اذ عندنا بين ثناء الله عز وجل على أيوب في الفضل على ثنائه على سليمان عليهما السلام ثلاثة عشر معنى وشركه سليمان عليه السلام بعد ذلك في وصفين آخرين وافراد أيوب عليه السلام بفضل ثناء ثلاثة عشر معنى أول ذلك قوله عز وجل في أول مدحه واذكر فهذه كلمة مباهاة باهى بأيوب عند رسوله المصطفى عليه السلام وشرفه وفضله بقوله تعالى واذكر يا محمد فأمره بذكره والاقتداء به كقوله تعالى فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل قيل هم أهل الشدائد والبلاء منهم أيوب عليه السلام قرضوا بالمقاريض ونشروا بالمناشير وكانوا سبعين نبيا وقيل هم ابراهيم واسحق ويعقوب وهؤلاء آباء الانبياء وأفاضلهم لقوله تعالى واذكر في الكتاب ابراهيم ولقوله تعالى واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الايدي والابصار يعني أصحاب القوة والتمكن وأهل البصائر واليقين ثم رفع أيوب الى مقامهم فضمه اليهم وجعله سلوة له صلى الله عليه وسلم ثم ذكره اياه وذكره به ثم قال تعالى عبدنا فاضافه اليه عز وجل اضافة تخصيص وتقريب ولم يدخل بينه وبينه لام الملك فيقول عبدا لنا فالحقه بنظرائه من أهل البلاء في قوله تعالى واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب وهم أهل الابتلاء الذين باهى بهم الأنبياء وجعل من ذرياتهم الاصفياء فاضاف أيوب اليهم في حسن الثناء وفي لفظ التذكرة به في الثناء ثم قال اذ نادى ربه فافرده بنفسه لنفسه وانفرد له في الخطاب بوصفه وقال مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فوصفه بمواجهة التملق

له ولطيف المناجاة وظهر له بوصفه الرحمة فاستراح اليه به فناداه فشكا اليه واستغاث به فاشبه مقامه مقام موسى ويونس عليهما السلام فى قولهما سبحانك تبت اليك وفى قول الآخر لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين وهذا خطاب المشاهدة ونظر المواجهة ثم وصفه بالاستجابة لمو أهله لكشف الضر عنه وجعل كلامه سببا لتنفيذ قدرته ومكانا لمجارى حكمته ومفتاحا لفتح اجابته ثم قال بعد ذلك كله ووهبنا له أهله فزاد على سليمان فى الوصف اذ كان بين من وهب لأهله و بين من وهب له أهله فضل فى المدح لأنه قال فى وصف سليمان ووهبنا لداود سليمان فاشبه فضل أيوب فى ذلك على سليمان كفضل موسى على هرون لأنه قال عز وجل فى مدح موسى عليه السلام وتفضيله على هرون ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا وكذلك قال فى مدح داود ووهبنا لداود سليمان فوهب لموسى أخاه كما وهب لداود ابنه وأشبه مقام أيوب فى المباهاة والتذكرة به مقام داود عليه السلام لأنه قال تعالى فى وصف داود لنبيه عليه السلام فاصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود وكذلك قال تعالى فى نعت أيوب واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه فقد شبه أيوب بداود وموسى عليهما السلام فى المعنى ورفعه اليهما فى المقام وهما فى نفوسنا أفضل من سليمان عليهم السلام فاشبه أن يكون حال أيوب أعلى من حال سليمان وعلم الله تعالى المقدم ولكن هكذا ألقى فى قلوبنا والله أعلم ثم قال تعالى بعد ذلك كله رحمة منا فذكر نفسه ووصفه عند عبده تشريفا له وتعظيما ثم قال عز وجل وذكرى لأولى الألباب فجعله اماما للعقلاء وقدوة لأهل الصبر والبلاء وتذكرة وسلوة من الكروب للاصفياء ثم قال تعالى انا وجدناه صابرا فذكر نفسه سبحانه وتعالى ذكرا ثانيا لعبده ووصل اسمه باسمه حباً له وقربا منه لأن النون والألف فى وجدنا اسمه تبارك وتعالى والهاء اسم عبده أيوب صلى الله عليه وسلم ثم قال صابرا فوصفه بالصبر فاظهر مكانه فى القوة وخلقه بخلقه ثم قال تعالى فى آخر أوصافه نعم العبد انه أواب فهذان أول وصف سليمان وآخره ههنا شركه فى الثناء وزاد أيوب بما تقدم من المدح والوصف الذى لا يقوم له شىء فمن قوله عز وجل واذكر عبدنا أيوب الى قوله نعم العبد انه أواب عظيم من الفرقان عند أهل الفهم والتبيان وجعل فى أول وصف سليمان انه وهبه لأبيه داود عليهما السلام فصارت حسنة من حسنات داود عليه السلام واشتمل قوله تعالى نعم العبد انه أواب على أول وصفه وأوسطه وهو آخر وصف أيوب عليه السلام وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام وقد روينا فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه وفى لفظ آخر يدخل سليمان بن داود الجنة بعد الانبياء بأربعين خريفا وقد جاء فى الآثار ان أول من يدخل الجنة أهل

البلاء امامهم أيوب وهو امام أهل البلاء وان أبواب الجنة كلها مصراعان الا باب الصبر فانه مصراع واحد وأول من يدخله أهل البلاء فقد زاد أيوب على سليمان عليهما السلام بعموم هذه الاخبار لأنه سيد أهل البلاء وتذكرة وعبرة لأولى النهى وامام أهل الصبر والضر والابتلاء ولم نقصد بماذكرناه التفضيل بين الانبياء لانا قد نهينا عن ذلك فيما روينا عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم انه قال لا تفضلوا بين الانبياء ولكن الله تعالى قد أخبرنا أن بعضهم مفضل على بعض فى قوله ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وانما أظهرنا فضل الثناء المستودع فى الكتاب فاستنبطنا باطن الوصف المكرر فى الخطاب فى قصة أيوب على قصة سليمان عليهما السلام بما ظهر لنا من فهم فصل الخطاب وتدبر معانى الكلام وعلم الله تعالى المقدم وهو عز وجل أعلم وأحكم وقد ندبنا الى الاستنباط فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم اقرؤا القرآن والتمسوا غرائبه ولان فى ذلك عزا لاهل الصبر والبلاء وتقوية لقلوبهم وتعريفا لسوابغ نعم الله تعالى عليهم واظهارا لبواطن النعم وتنبيها على لطائف الكلم وتزهيدا فى الدنيا والنفس وترغيبا فى الآخرة والصبر وتفضيلا لطريق أهل البلاء الذين هم الامثل فالأمثل بالانبياء فجاء من ذلك تفضيل المبتلى الصابر على بلائه ورضاه بحكم مولاه وتسليما لمرضاته على المنعم عليه الشاكرين على نعمائه اذ النعم ملائمة للطبع موافقة للنفس لا يحتاج معها الى كد النفس بالصبر عليها ولا حملها على المشقة فيها بالرضا بها والبلاء مباين للطبع نافرة منه النفس يحتاج الى حمل عليه ومشقة فيه وما كرهته النفس فهو خير وأفضل ولا سبيل اليه الا بسكينة من الله تعالى وتصبر عليه بقوة به عز وجل وعناية منه واصبر وما صبرك الا بالله وهذا آخر شرح مقامات الصبر

شرح مقام الشكر ووصف الشاكرين

وهو الثالث من مقامات اليقين قال الله تعالى ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم فقرن الشكر بالايمان ورفع بوجودهما العذاب وقال تعالى وسنجزى الشاكرين وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر وقال ابن مسعود رضى الله عنه الشكر نصف الايمان وقد أمر الله تعالى بالشكر وقرنه بالذكر فى قوله تعالى فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون وقد عظم الذكر بقوله ولذكر الله أكبر فصار الشكر أكبر لاقترانه به ورضا الله تعالى بالشكر مجازاة من عباده لفرط كرمه لان قوله تعالى فاذكرونى أذكركم واشكروا لى خروج من لفظ المجازاة لتحقيق الأمر وتعظيم الشكر لان الفاء للشرط والجزاء والكاف المتقدمة للتمثيل فقوله تعالى فاذكرونى متصل بقوله كما أرسلنا فيكم رسولا منكم فاذكرونى واشكروا لى والمعنى كمثل ما أرسلت فيكم رسولا منكم فاشكروا لى والعرب تكتفى من مثل بالكاف كما اكتفت من سوف بالسين فى

قوله تعالى سنؤتيهم وسنستدرجهم وهذا تفضيل للشكر عظيم لا يعلمه الا العلماء بالله تعالى وقد روينا فى أخبار أيوب عليه السلام ان الله تعالى أوحى اليه انى رضيت بالشكر مكافأة من أوليائى فى كلام طويل وفى أحد الوجوه من قوله عز وجل لأقعدن لهم صراطك المستقيم قال طريق الشكر فلولا أن الشكر طريق يوصل الى الله تعالى لما عول العدو على قطعه ولولا أن الشاكر حبيب رب العالمين ما نقصه ابليس اللعين فى قوله تعالى ولا تجد أكثرهم شاكرين وكذلك قال الله تعالى وقليل من عبادى الشكور كما قال تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فيه واستثنى فى خمسة أشياء فى الاغناء والاجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء وقال تعالى فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وقال تعالى يرزق من يشاء ويغفر لمن يشاء وقال عز وجل ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء وختم بالمزيد عند الشكر من غير استثناء فقال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم فالشاكر على مزيد والشكور فى نهاية المزيد وهو الذى يكثر شكره على القليل من العطاء ويتكرر منه الشكر والثناء على الشىء الواحد من النعم وهذا خلق من أخلاق الربوبية لأنه سماه باسم من أسمائه والمزيد هو الى المنعم يجعله ماشاء فأفضل المزيد حسن اليقين ومشاهدة الاوصاف وأول المزيد شهود النعم أنها من المنعم بها من غير حول ولا قوة الا به عز وجل وأوسط المزيد دوام الحال ومتابعة الخدمة والاستعمال وقد يكون المزيد أخلاقا وقد يكون علوما وقد يكون فى الآخرة وتثبيتا عند فراق العاجلة وقد جعل الله تعالى الشكر مفتاح كلام أهل الجنة وختام تمنيهم فى قوله تعالى الحمد لله الذى صدقنا وعده وقال تعالى وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين فلولا أنه أحب الأعمال اليه ما أبقاه عليهم لديه وروينا فى مناجاة أيوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى اليه فى صفة الصابرين دارهم دار السلام اذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر أستزيدهم وبالنظر الى أزيدهم وهذا غاية الفضل فأول الشكر معرفة النعم انها من المولى وحده لا شريك له فيها ولا ظهير له عليها اذ قد نفى ذلك عن نفسه لانه هو الاول فى كل شىء لا شىء معه ولا ظهير له فى شىء اذ قد جعل الضراء والسراء منه واليه جاريين على عباده فقال تعالى وماله فيهما من شرك وماله منهم من ظهير الشرك الخلط والظهير المعين ثم قال تعالى وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون وقال تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير وقال تعالى فى جمل النعم بعد اضافتها اليه وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه وقال تعالى وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة فالاسباب مع صحتها والاواسط مع ثبوتها انما هى حكمه وأحكامه فظروف العطاء وآثار المعطى لا تؤثر فى الحكم

بها والجعل لها حكما ولا جعلا يعنى لا تحكم ولا تجعل لانها محكومات فكيف تحكم ومجعولات فكيف تجعل لا حاكم الا الله وحده ولا يشرك فى حكمه أحدا وهذا الحرف فى مقرأ أهل الشام أبلغ وأوكد لانه يخرج على الامر لانهم قرؤه بالتاء وجزم الكاف ولا تشرك فى حكمه أحدا فالاسباب أحكام حق وأواسط حكمه فمشاهدة المنعم فى النعمة وظهور المعطى عند العطاء حتى ترى النعمة منه والعطاء عنه هو شكر القلب لان الشكر عند الشاكرين معرفة القلب ووصفه لا وصف اللسان وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وأمر باقتناء الشكر واتخاذه مالا فى الآخرة عوضا من اقتناء الاموال فى الدنيا فقال في حديث ثوبان وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما حين نزل فى الكنوز ما نزل سأله عمر أى المال نتخذ فقال ليتخذن أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وروينا فى أخبار موسى عليه السلام وداود عليه السلام يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك الا بنعمة ثانية من نعمك وفى لفظ آخر وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك فأوحى الله تعالى اليه اذا عرفت هذا فقد شكرتنى وفى خبر آخر اذا عرفت أن النعم منى فقد رضيت منك بذلك شكرا وشكر اللسان حسن الثناء على الله تعالى وكثرة الحمد والمدح له واظهار انعامه واكرامه ونشر أياديه واحسانه وأن لا يشكو المالك الى المملوك ولا المعبود الجليل الى العبد الذليل وفى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لرجل كيف أصبحت قال بخير فأعاد عليه النبى عليه السلام السؤال الثانية كيف أنت فقال بخير فأعاد عليه الثالثة كيف أنت فقال بخير أحمد الله تعالى وأشكره فقال هذا الذى أردت منك يعنى اظهار الحمد والشكر والثناء وانما كان السلف يتساءلون عن أحوالهم اذا التقوا ليستخرجوا بذلك حمد الله تعالى وشكره فيكونوا شركاءه فى ذلك لانهم سبب ذكره لله تعالى فمن علمت أنه يشكو مولاه ويتكره عندك قضاءه اذا سألته عن حاله فلا تسأله فتكون أنت سبب شكواه وشريكه فى جهله وما أقبح بالعبد أن يشكو المولى الذى ليس كمثله شىء والذى بيده ملكوت كل شىء الى عبد مملوك لا يقدر على شىء ومن الشكر أن يشكر الله تعالى على اليسير لان القليل من الحبيب كثير ولان الله تعالى حكيم فمنعه حكمة وقدرة فاذا عرف وجه الحكمة فى المنع مع القدرة على العطاء علم انه منعه ليعطيه فثم صار المنع عطاء واليسير منه كثيرا و يعلم أن الذل والصبر عند المنع عز وشرف وهو أفضل وأنفس عند العلماء من التعزز بالعبيد والشرف بهم وان الطمع والتذلل اليهم والاستشراف الى عبد مملوك مثلك ذل ذليل وحسن الذل للعزيز كحسن الذل للحبيب وقبح الذل للذليل كقبح الذل للعدو وقد قال الله تعالى ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه وقال تعالى فى معناه ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم والعبادة هى الخدمة والطاعة

بذل ولا يحسن للعبد المقبل أن يظهر فقره وفاقته الى غير مولاه الذى يلى تدبيره ويتولاه لانه عليم خبير بحاله يسمعه ويراه فهو أعلم بما يصلحه منه وقد قال الله تعالى فى معناه ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض فعلى الموقن أن يشكر فى القبض والمنع كما يشكر فى العطاء والبسط ثم يشهد الشاكر بقلبه شهادة يقين ويعلم أن وصفه وصف العبودية وحكمه أحكام العبيد محكوم عليه بأحكام الربوبية وانه لا يستحق على الله شيأ وان الله عز وجل يستحق عليه كل شيء فالعبد خلقه وصنعته والرب صانعه ومالكه فاذا شهد العبد هذه الشهادة رأى لله عز وجل عليه كل شيء فرضى منه بأدنى شيء ولم ير له على الله تعالى شيأ فلم يقنع لله تعالى منه بشيء ولم يطالب مولاه بشيء فكثرة الذكر وحسن الثناء وجميل النشر للنعماء وتعديد النعم والآلاء هو شكر اللسان لان معنى الشكر فى اللغة هو الكشف والاظهار يقال كثر وشكر بمعنى اذا كشف عن ثغره فأظهره فيكون اظهار الشكر وكشفه باللسان ما ذكرناه كما جاء فى الخبر ليس شيء من الاذكار يضاعف ما يضاعف الحمد وفى الحديث من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لااله الا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله كتبت له ثلاثون حسنة ليس ان الحمد أعلى من التوحيد ولكن لفضل مقام الشاكرين ولان الله تعالى افتتح به كلامه فى كتابه وفى الخبر الحمد رداء الرحمن عز وجل وفى الخبر أفضل الذكر لااله الا الله وأفضل الدعاء الحمد لله رب العالمين ويكون أيضا ظهور الشكر وغلبته فى القلب شكر القلب ويكون شكر الله تعالى لعبده كشفه له ماستره عنه واظهاره له ما حجبه منه من العلوم والقدر وهو المزيد فيفيده ذلك حسن معرفته به سبحانه وتعالى وعلو مشاهدته منه وكله يرجع الى معنى الكشف والاظهار وأما شكر الجوارح للنعم المفضل سبحانه وتعالى فهو أن لا يعصيه بنعمة من نعمه وانه يستعين بنعمته على طاعته ولا يستعين بها على معاصيه فيكون قد كفرها كما قال تعالى ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا قيل استعانوا بنعمه على معاصيه فالخلق لا يقدرون على تبديل نعمة الله عز وجل ولكن معناه بدلوا شكر نعمة الله كفرا وهذا من المضمر معناه لظهور دليله عليه لانه أمرهم بالطاعة بالنعم فخالفوه فعصوه بها فكان ذلك تبديلهم لما أمروا ومثله قوله تعالى وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون المعنى شكر رزقكم تجعلونه تكذيبكم برسل الله تعالى وهذا من المحذوف أيضا وهى فى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم مظهرة مفسرة روينا عنه عليه السلام انه قرأ وتجعلون شكركم فهذا ظاهر وبمعناه ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب أى يعاقب من كفر بالنعمة فضيع شكرها بمعصيته بها يعاقبه بزوالها وكذلك قوله تعالى ولئن كفرتم ان عذابي لشديد قيل ان كفرتم النعمة فقد يكون العذاب فى الدنيا تبديل النعمة عقوبات وتغييرها هوان ومذلات وقد يكون العذاب مؤجلا كقوله

تعالى ان عذابها كان غراما قال طالبهم على النعم بالشكر فلم يكن عندهم فاغرمهم ثمن النعمة فحبسهم فى جهنم وقد قال الله تعالى وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ثم قال وذروا ظاهر الاثم وباطنه ففيه تنبيه لذوى الالباب الذين وصل لهم القول ليتذكروا أن يذروا ظاهر الاثم شكرا لظاهر النعم ويذروا باطن الاثم شكرا لباطن النعم وظاهر النعم عوافى الاجساد ووجود الكفايات من الاموال وظاهر الاثم أعمال الجوارح من معانى حظوظ النفس وباطن النعم معافاة القلوب وسلامة العقود وباطن الاثم أعمال القلوب السيئة مثل الاصرار وسوء الظن ونيات السوء وقال مطرف بن عبد الله لان اعافى فاشكر أحب الى من أن أبتلى فاصبر لان مقام العوافى أقرب الى السلامة فلذلك أختار حال الشكر على الصبر لان الصبر حال أهل البلاء وقد روينا عن الحسن البصرى معنى ذلك الخير الذى لا شر فيه العافية مع الشكر والصبر عند المصيبة فكم من منعم عليه غير شاكر وكم من مبتلى غير صابر وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم معنى هذا فى قوله وعافيتك أحب الى وقال لعلى رضى الله عنه حين سمعه يقول فى مرضه اللهم انى أسألك الصبر قال لقد سألت الله تعالى البلاء فسله العافية ومن الشكر الاعمال الصالحة وبالعمل فسر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم الشكر للمنعم فقال تعالى اعملوا آل داود شكرا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عوتب فى اجتهاده وقيامه حتى تورمت قدماه أفلا أكون عبدا شكورا فأخبر أن المجاهدة وحسن المعاملة شكر المستعمل وجزاء المنعم وقد قال بعض العلماء شكر القلب المعرفة بأن النعم من المنعم لاغير وشكر العمل كلما وهب الله عزوجل لك عملا أحدثت له عملا ثانيا شكرا منك للعمل الأول وعلى هذا يتصل الشكر بدوام المعاملة وأول الشكر عند العارفين أن لا تعصيه بنعمة من نعمه فتجعلها فى طاعة الهوى فأما شكر الشاكرين فهو أن تطيعه بكل نعمة فتجعلها فى سبيل المولى وهذا شكر جملة العبد وحقيقة الشكر التقوى وهو اسم يستوعب جمل العبادة التى أمر الله تعالى بها عباده فى قوله تعالى ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ثم عبر عن حقيقة الشكر بتقواه وأخبر سبحانه وتعالى ان التقوى هو الشكر فقال سبحانه وتعالى فاتقوا الله لعلكم تشكرون وفى الشكر مقامان عن مشاهدتين أعلاهما مقام شكور وهو الذى يشكر على المكاره والبلاء والشدائد واللاواء ولايكون كذلك حتى يشهد ذلك نعما توجب عليه الشكر بصدق يقينه وحقيقة زهده وهذا مقام فى الرضا وحال من المحبة وبهذا الوصف ذكر الله تعالى نبيه نوحا عليه السلام فى قوله تعالى انه كان عبدا شكورا فى التفسير انه كان يشكر الله تعالى على كل حال من خير أو شر أو نفع أو ضر وروينا فى الخبر ينادى مناد يوم القيامة ليقم الحامدون فيقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن الحمادون قال الذين

يشكرون الله تعالى على كل حال وفى لفظ آخر على السراء والضراء وقد قال بعض العلماء فى قوله تعالى وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة قال ظاهرة العوافى والغنى وباطنة البلوى والفقر فهذه نعم الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عيش الاعيش الآخرة والمقام الثانى من الشكر أن ينظر العبد الى من هو دونه ممن فضل هو عليه فى أمور الدنيا وأحوال الدين فيعظم نعمة الله تعالى عليه بسلامة قلبه ودينه وعافيته مما ابتلى الآخر به ويعظم نعمة الدنيا عليه لما آتاه الله تعالى وكفاه فيما أحوج الآخر وألجأه اليه فيشكر على ذلك ثم ينظر الى من هو فوقه فى الدين ممن فضل عليه بعلم الايمان وبحسن يقين فيمقت نفسه ويزرى عليها وينافس فى مثل ما رأى من أحوال من هو فوقه ويرغب فيها فاذا كان كذلك كان من الشاكرين ودخل تحت اسم الممدوحين وقد روينا معنى ذلك فى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من نظر فى الدنيا الى من هو دونه ونظر فى الدين الى من هو فوقه كتبه الله تعالى صابرا شاكرا ومن نظر فى الدنيا الى من هو فوقه ونظر فى الدين الى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا وقد شرحنا هذا فى مقام الرضا فكرهنا اعادته ههنا وكل وصف يكون العبد شاكرا به يكون الشكر مقاما له فيه فان كفر النعمة يلزمه بضده لان الكفر ضد الشكر ومن كبائر النعم ثلاث من جهلها أضاع الشكر عليها ومعرفتها شكر العارفين أولها استتار الله تعالى بقدرته وعزته عن الابصار ولو ظهر للعباد لكانت معاصيهم كفرا لانهم لم يكونوا ينقصون من المعاصى المكتوبة عليهم جناح بعوضة ولانه تبارك وتعالى كان يظهر بوصف لا يمتنعون معه عن المعاصى ووراء هذا سرائر الغيوب الا انهم كانوا يكفرون بالمواجهة لانتهاك حرمة المشاهدة وأيضا لما كان لهم فى الايمان به من عظيم الدرجات ما لهم الآن لانهم حينئذ يؤمنون بالشهادة وهم اليوم يؤمنون بالغيب فرفعت لهم الدرجات بحسن اليقين ولذلك مدحهم الله تعالى ووصفهم والنعمة الثانية اخفاء القدر والآيات عن عموم الخلق لانها من سر الغيب وصلاح العبيد واستقامة الدنيا والدين ولو ظهرت لهم لكانت خطاياهم الصغائر كبائر مع معاينة الآيات ولما ضوعفت لهم على أعمالهم الحسنات كمضاعفتها الآن للايمان بالغيب والنعمة الثالثة تغيب الآجال عنهم اذ لو علموا بها لما كانوا يزدادون ولا ينقصون من أعمالهم الخير والشر ذرة فكان مع علمهم بالاجل أشد مطالبة لهم وأوقع للحجة عليهم فأخفى ذلك عنهم معذرة لهم من حيث لا يعلمون ولطفا بهم ونظرا لهم من حيث لا يحتسبون ثم بعد ذلك من لطائف النعم شمول ستره لهم فيحجب بعضهم من بعض وسترهم عند العلماء والصالحين ولولا ذلك لما نظروا اليهم ثم حجب الصالحين والاولياء عنهم ولو أظهر عليهم آيات يعرفون بها حتى يكون الجاهلون على يقين من ولاية الله تعالى لهم وقربهم منه لبطل

ثواب المحسنين اليهم ولحرم قبول عملهم ولحبطت أعمال المسيئين اليهم ففى حجب ذلك وستره ماعمل العاملون لهم فى الخير والشر على الرجاءوحسن الظن بالغيب من وراءحجاب اليقين وتأخرت عقوبات المؤذيين لهم عن المعاجلة لما ستر عليهم من عظيم شأنهم عند الله تعالى وجليل قدرهم ففى ستر هذا نعم عظيمة على الصالحين فى نفوسهم من سلامة دينهم وقلة فتنتهم ونعم جليلة عن المتهكين لحرمتهم المصغرين لشعائر الله تعالى من أجلهم اذ كانوا أساؤا اليهم من وراء حجاب فهذا هو لطف خفى من لطف المنعم الوهاب سبحانه وتعالى كما جاء فى الخبر يقول الله عز وجل من آذى وليا من أوليائى فقد بارزنى بالمحاربة ثم انا الثائر لوليي لا أكل نصرته الى غيرى وعن جعفر الصادق رضى الله عنه فى معنى هذه النعم التى أوجبنا الشكر فى اخفائها قال ان الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث رضاه فى طاعته فلا تحتقروا منها شيأ لعل رضاه فيه وخبأ غضبه فى معاصيه فلا تحتقروا منها شيأ لعل غضبه فيه وخبأ ولايته فى عباده المؤمنين فلا تحتقروا منهم أحدا لعله ولى الله تعالى ويكون مثل ذلك مثل من آذى نبيا وهو لا يعلم بنبوته وان الله تعالى نبأه قبل أن يخبره أنه نبي الله عز وجل ورسوله اليه فلا يكون وزره وزر من انتهك حرمة نبي قد أعلمه أنه نبي الله تعالى لعظيم حرمة النبوة وللشاكرين طريقان أحدهما أعلى من الآخر أولها شكر الراجين وهو حسن المعاملة لما أملوه ورجوه من ظواهر النعم فعملوا رجاء اتمامها فكان حالهم المسارعة والمسابقة الى الأعمال الصالحة شكرا لما ابتدأهم به وخصهم دون سائر خلقه وأعلاها شكر الخائفين وهو خوف سوء الخاتمة والاشفاق من درك الشقاء بحكم السابقة نعوذ بالله تعالى منه فكان خوفهم دليلا على اغتباطهم بموهبة الايمان وكان اغتباطهم يدل على عظيم قدر الاسلام فى قلوبهم ونفيس مكانه عندهم فعظمت النعمة به عليهم فمعرفتهم بذلك هو شكرهم فصار الخوف والاشفاق طريقا لهم فى الشكر للرازق وقد جعل الله تعالى ذلك نعمة وكل نعمة تقتضى شكرا فى قوله تبارك وتعالى قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما قال بعض المفسرين أنعم الله عليهما بالخوف وهذا أحد وجهى الكلام ولو لم يشكر العبد مولاه الا أنه تبارك وتعالى على هذه الاوصاف والاخلاق التى هى صفاته وأخلاقه من نهاية الكرم والجود الذى لا غاية له ومن غاية التفضل والحلم الذى لا نهاية له فلما كان تبارك وتعالى بهذه الأخلاق المرجوة والصفات الحسنى وجب أن يشكره العبيد لاجله تعالى لا لأجل نعمه وأفعاله وهذا ذكر المحبين اذ لو كان الله تعالى على غير هذه الصفات والأخلاق التى عرفه بها العارفون ولا بد لهم منه أى شيء كان يصنع العباد وأى حيلة كانت لهم فله الحمد كله وله الشكر كله كما هو مستحقه وأهله بحمده لنفسه ولا ينبغى الا له سبحانه وتعالى كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله اذ كان ولم يزل على ما هو الآن ولا يزال أبدا على

ما كان من الأوصاف والنعوت التامات والاسماء الحسنى والامثال العلى ومعرفةهذا هوشكر العارفين ومشاهدته هو مقام المقربين فشكر هؤلاء لله تعالى لأجل الله تعالى ودعاء هؤلاء التحميد والتقديس وأعمالهم الاجلال والتعظيم للاجل العظيم وسؤالهم تجلى الصفات والنصيب من مشاهدةمعانى الذات ووصف هذا لا يوصف وشرحه بالمعقول لا يعرف وهذا داخل فى مشاهدة قوله لمن شهد سر الكلام اذ يقول عز وجل ليس كمثله شىء وعن هذه المشاهدة اغتبط موسى عليه السلام بالربوبية وأنس بالتقريب فانبسط بالتمكين فقال لى ما ليس لك فقال الله تعالى وما هو فقال لى مثلك وليس لك مثل نفسك فقال عز وجل صدقت يعنى لى أنت على هذه الأوصاف التى هى غاية الطالبين ولا مزيد عليها للراغبين وليس لك كأنت اذ ليس كمثلك شىء وأن لا اله الا أنت فمن غامض النعم الشكر على هذه المعانى ما زوى عنك وصرفه من فضول الدنيا فانه أقل للشغل والاهتمام وأيسر للحساب ثم ابتلى به غيرك من الدنيا مما شغله به عنه وقطعه دونه ففى صرف الدنيا عنك وابتلاء غيرك بها نعمتان عليهما شكران وكذلك اذا رأيت مبتلى فى دينه بصفات المنافقين أو مبتلى بنفسه باخلاق المتكبرين أو منهما فيما عليه من أفعال الفاسقين عددت جميع ذلك نعما من الله تعالى عليك اذ لم يجعلك كذلك لانك قد كنت أنت ذاك لولا فضل الله عليك ورحمته فتحسب كل ما وجه الى غيرك من الشر أو صرفه عنك من الخير ان تعده نعما عليك بمثل ما وجه اليك من الخير وصرف عنك من الشر لان النفوس كنفس واحدة فى الأمر بالسوء والمشيئة والقدرة واحدة فقد رحمك بما صرف عنك من السوء فذلك من فضل الله تعالى عليك فمعرفته بذلك شكر منك لله تعالى وأكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم وأصل قلة الشكر الجهل بالنعمة وسبب الجهل بالنعمة قصور العلم بالله تعالى وطول الغفلة عن المنعم وترك التفكر فى نعمه والتذكر لآلائه ومنته سبحانه وتعالى فقد أمر بذلك فى قوله تعالى واذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون قيل نعمه وقال المفسرون واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به وبمعناه قوله تعالى ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون يعنى على نعمة الهداية وتوفيق الطاعة فاذا جهل العبد النعمة لم يعرفها واذا لم يعرفها لم يشكر عليها واذا لم يشكر عليها انقطع مزيده ومن انقطع عنه المزيد فهو فى نقصان ما ادعى وأيضا فان من لم يشكر النعم لجهله بها لم يؤمن عليه كفرها فان كفرها أدركه العذاب الشديد للوعيد الا أن تداركه نعمة من ربه وأصول نعم المرافق للاحراث أربعة أولها النطفة التى أخرجت من خزانة الأرحام جميع البهائم والانام ثم الحرث الذى أخرج من خزانة الارض جميع الثمر ثم الماء الذى لنا منه شراب ومنه شجر ثم النار التى فيها ضياء ومصالح الاطعمة وبها لأهل

البصائر تذكرة وهذه النعم هى التى ذكرها المنعم فى آخر سورة الواقعة وأضافها الى نفسه عز وجل ولم يجعل فيها شريكا معه وفتح للعباد العمال أبوابها ومن أفضل النعم وأجلها نعمة الايمان به سبحانه وتعالى ثم نعمة الرسول ثم نعمة القرآن ثم ان جعلنا من خير أمة أخرجت للناس وقبل ذلك أول نعمة عقلناها ان جعلنا موجودين دون سائر المعدومات ثم جعلنا حيوانا دون سائر الموات ثم جعلنا بشرا دون سائر الحيوان ثم ان جعلنا ذكورا دون الاناث ثم صورنا فى أحسن تقويم ثم عوافى القلوب من الزيغ عن السنة ومن الميل الى دواعى النفس الامارة ثم صحة الاجسام ثم كشف الستر ثم حسن الكفاية للحاجة ثم صنوف ما أظهر من الازواج للاقوات ثم تسخير الصنعة لنا مما بين السماء والارض فهذه أمهات النعم فكلما كثرت هذه المعانى وحسنت كثر الشكر عليهما لعظيم النعم بها وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وكان أبو محمد سهل رحمه الله يقول خص بمعرفة النعم وبمعرفة عظيم حلم الله تعالى وستره الصديقون وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين وأحسن الواصفين وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم فتمت النعمة بوصفيه اللذين هو لهما أهل من المغفرة والرحمة ثم قال أيضا فى مثله ان الانسان لظلوم كفار فكان أعظم للنعمة وأوسع فى الكرم والمنة على وصفى الانسان اللذين هو أهل لهما من الظلم والكفر فهو سبحانه وتعالى أهل التقوى وأهل المغفرة والعبد أهل لما وصفه به مولاه عز وجل الى أن يجود عليه بقديم ما به تولاه فبنعمته أطاعه العاملون ومن نعمته جازاهم وبنعمته عصاه الجاهلون ومن نعمته ستر وحلم عنهم ومن النعم اظهار الجميل وستر القبيح فلا ندرى أى النعمتين أعظم جميل ما أظهر أو قبيح ما ستر وقد يمدح الله تعالى بالوصفين معا فى الدعاء المأثور يامن أظهر الجميل وستر القبيح ومن النعمة الصحة والفراغ هما أول نعيم الدنيا وأصول أعمال الآخرة وبهما تكون المغابنات كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ وقال الفضيل بن عياض عليكم بمداومة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت اليهم وقال بعض السلف النعم وحشية فقيدوها بالشكر وقد روى فى خبر ماعظمت نعمة الله تعالى على عبد الا كثرت حوائج الناس اليه فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال وقد قال الله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم قيل لا يغير نعمه عليهم حتى يغيروها بتضييع الشكر فيعاقبهم بالتغيير والوجه الآخر لا يغير ما بهم من عقوبة حتى يغيروا معاصيهم بالتوبة فذكر بذلك السبب الأول من حكمه ثم ذكر السبب الثانى من حكمته وهو مسبب الأسباب للحكمة والمشيئة ويقال ان تحت كل شعرة من جسم العبد نعمة وبكل عرق فى جسده نعمتان فى تسكينه وتحريكه وفى كل عظم أربع نعم وبكل مفصل سبع نعم وفى جسم الانسان ثلاثمائة وستون مفصلا ومثل ذلك من العظام وفى

كل طرفة نعمتان وبكل نفس نعمتان وفى كل دقيقة تأتى عليه من عمره نعم لاتحصى والدقيقة جزء من اثنى عشر جزأمن شعيرة والشعيرة جزء من اثنى عشر جزأ من ساعة والأنفاس أربعة وعشرون ألف نفس فى اليوم والليلة وفى أخبار موسى عليه السلام يارب كيف أشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان أن لينت أصلها وأن طمنت رأسها وقد روينا فى الأثر من لم يعرف نعم الله تعالى عليه الا فى مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه هذا مع سوابغ العوافى والكفايات والوقايات ويقال ان فى باطن الجسم من النعم سبعة أضعاف النعم التى فى ظاهره وان فى القلب من النعم أضعاف مافى الجسم كله من النعم وان نعم الايمان بالله تعالى والعلم واليقين أضعاف نعم الأجسام والقلوب فهذه كلها نعم مضاعفة على نعم مترادفة لايحصيها الا من أنعم بها ولا يعلمها الا من خلقها ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير سوى نعم المطعم والمشرب والملبس والمنكح من دخول ذلك وخروجه وكثرة تكرره وتزايده بأن أدخل مهناه وأخرج أذاه وبأن طيب مدخله ويسر مخرجه وبقى منفعته وما أحال من صورته وغير من صفته فللتزهيد والذلة والاعتبار والتذكرة وتلك أيضا نعم قال يقال ان الرغيف لايستدير حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صنعة من السماء والأرض ومابينهما من الأجسام والاعراض والأفلاك والرياح والليل والنهار وبنى آدم وصنائعهم والبهائم ومعادن الأرض أولها ميكائيل الذى يكيل الماء من الخزائن فيفرغه على السحاب ثم السحاب التى تحمله فيرسله ثم الرياح التى تحمل السحاب والرعد والبرق والملكان اللذان يسوقان السحاب وآخرها الخباز فاذا استدار رغيفا طلبه سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع فهذه كلها نعم فى حضور رغيف فكيف بما زاد عليه بما وراءه فعلى العبد بكل نعمة شكر ان طولب بشكر نعمة واحدة على حقيقتها هلك الا أن تغمده رحمة من ربه فتغمره لتمام النعمة وروينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول اللهم انى أسألك تمام النعمة فقال هل تدرى ماتمام النعمة قال لا قال دخول الجنة وقيل لبعض الحكماء ما النعم قال الغنى فانى رأيت الفقير لاعيش له قيل زدنا قال العافية فانى رأيت السقيم لاعيش له قيل زدنا قال الأمن فانى رأيت الخائف لاعيش له قيل زدنا قال الشباب فانى رأيت الهرم لاعيش له قيل زدنا قال لاأجد مزيدا وبعض ماذكره هو أحد الوجوه فى قوله تعالى أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا قيل الشباب وقيل الفراغ وقيل الامن والصحة وفى قوله تعالى وعصيتم من بعد ماأراكم ماتحبون قيل العوافى والغنى وبمعناه فى قوله تعالى وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة قيل ظاهرة العوافى وباطنة البلاوى لأنها سبب نعيم الآخرة ومزيدها لقوله تعالى ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين وقد جاء الخبر من أصبح معافى فى بدنه آمنا فى سربه وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها وأنشدت فى معناه لبعض أهل القناعة

اذا القوت تأتى لك ٭ والصحة والأمن وأصبحت أخاحزن ٭ فلا فارقك الحزن

وأنشد الآخر

كن وفلقة خبز ٭ وكوز ماء وأمن ألذ من كل عيش ٭ يحويه سحب وسجن

وحدثونا أن عابدا عبدالله تعالى سبعين عاما فأرسل الله تعالى اليه ملكا يبشره بدخول الجنة برحمة الله تعالى فهجس فى نفسه بل بعملى فاطلع الله تعالى على ذلك منه فأوحى الى عرق ما كن من عروقه أن تحرك عليه قال فاضطرب لذلك وقلق وانقطعت عبادته وذهبت أعماله شغلا منه بنفسه وقلق بنفسه ثم أوحى الله تعالى الى العرق أن اسكن فسكن فرجع العبد الى عبادته فأوحى الله تعالى اليه انما قيمة عبادتك عرق واحد سكن من عروقك فاعترف وروينا معناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بوصف آخر أن رجلا عبد الله سبعين عاما قال فيأمر الله عز وجل به الى الجنة برحمته فيقول بلى بعملى فيقول الله عز وجل أدخلوا عبدى الجنة بعمله قال فيمكث فى الجنة سبعين عاما فيأمر الله تعالى به أن يخرج ويقال له قد استوفيت ثواب عملك فيسقط فى يديه ويندم فينظر أقوى شىء كان فى نفسه بينه وبين ربه فاذا هو الرجاء وحسن الظن فيقول يارب اتركنى فى الجنة برحمتك لا بعملى قال فيقول الله عز وجل دعوا عبدى فى جنتى برحمتى وحدثت عن رجل شكا الى بعض أهل المدينة فقره وأظهر لذلك غمه فقال له الرجل أيسرك انك أعمى ولك عشرة آلاف قال لا قال فيسرك انك أخرس ولك عشرة آلاف قال لا قال فيسرك انك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرة آلاف قال لا قال فيسرك انك مجنون ولك عشرة آلاف قال لا قال أفما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا وهذا كما قال لان فى الانسان قيم هذه الاشياء من الجوارح وزيادة من المال لانها ديات جوارحه لو قطعت وحدثنى بعض الشيوخ فى معناه ان بعض القراء المقربين اشتد به الفقر حتى أحزنه وضاق به ذرعا قال فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك سورة الأنعام وان لك ألف دينار قال لا قال فسورة هود قال لا قال فسورة يوسف قال لا قال فمعك قيم مائة ألف وأنت تشكو الفقر فأصبح وقد سرى عنه همه وهكذا جاء فى الخبر تغنوا بالقرآن أى استغنوا به ومن لم يستغن بآيات الله تعالى فلا أغناه الله عز وجل وان القرآن هو الغنى الذى لا فقر معه ولا غنى بعده ومن آتاه الله القرآن فظن ان أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله تعالى وفى لفظ آخر فقد استخف بما أنزل الله عز وجل وفى الخبر من لم يتغن بالقرآن فليس منا وفى الخبر المجمل كفى باليقين غنى والقرآن هو حق اليقين وروينا عن بعض السلف يقول الله عز وجل ان عبدا أغنيته عن ثلاث فقد أتممت عليه نعمتى عن سلطان يأتيه وطبيب يداويه وعما فى يد أخيه وروينا فى مناجاة أيوب عليه السلام

ان الله تبارك وتعالى أوحى اليه ما من عبد لى من الآدميين الا ومعه ملكان فاذا شكر على نعمائى قال الملكان اللهم زده نعما على نعمه فانك أهل الشكر والحمد فكن من الشاكرين قريبا وزدهم شكرا وزدهم من النعماء وكفى بالشاكرين يا أيوب علو الرتبة عندى وعند ملائكتى فأنا أشكر شكرهم وملائكتى تدعو لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكى عليهم فكن لى ياأيوب شاكرا ولآلائى ذاكرا ولا تذكرنى حتى أذكرك ولا تشكرنى حتى أشكر أعمالك أنا أوفق أوليائى لصالح الأعمال واشكرهم على ما وفقتهم واقتضيهم الشكر ورضيت به مكافأة فرضيت بالقليل عن الكثير وتقبلت القليل وجازيت عليه بالجزيل وشر العبيد عندى من لم يشكرنى الا فى وقت حاجته ولم يتضرع بين يدى الا فى وقت عقوبته وذكر الكلام وقد جعل الله تعالى الشاكرين بوصف الصالحين والمقربين والعالمين وهذه الاوصاف الثلاث من أعالى مقامات الموقنين فقال عز وجل وقليل من عبادى الشكور كما قال الله تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وكما قال فى وصف المقربين ثلة من الأولين وقليل من الآخرين وكما قال عز وجل ما يعلمهم الا قليل وفى حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم سلوا الله العافية وما أعطى عبد أفضل من العافية الا اليقين ففضل العافية على كل عطاء ورفع اليقين فوق العافية لان بالعافية يتم نعيم الدنيا واليقين معه وجود نعيم الآخرة فلليقين فضل على العافية كفضل الدوام على الانتقال والعافية سلامة الأبدان من الاسقام والعلل واليقين سلامة الأديان من الزيغ والاهواء فهاتان نعمتان تستوعبان عظيم الشكر من العبد كما استوعب القلب والجسم جسيم النعم من الملك ومن أقوى المعانى فى قوله تعالى يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم قيل سالم من الشك والشرك والسالم الصحيح المعافى وبوجود عافية اليقين فى القلوب عدم الشك والنفاق وهى أمراض القلوب كما قال تعالى فى قلوبهم مرض قيل شك ونفاق وعافية القلب أيضا من الكبائر كما قال تعالى فيطمع الذى فى قلبه مرض يعنى الرياء ويقال ما من مصيبة الا ولله تعالى فيها خمس نعم أولها انها لم تكن فى الدين ويقال كل مصيبة فى غير الدين فهى طريق من الدين ، الثانية انها لم تكن أكبر منها والثالثة انها كانت مكتوبة عليه لامحالة فقد نفدت واستراح منها والرابعة انها عجلت فى الدنيا ولم تؤجل فى الآخرة فتعظم على مقدار عذاب الآخرة والخامسة ان ثوابها خير منها فان المصيبة اذا كانت فى أمر الدنيا فانها طريق الى الآخرة وعندنا فى قوله تعالى ان الانسان لظلوم كفار قيل ظلوم بالتسخط كفار بالمعاصى وبالنعم وحدثت ان العباس رضى الله عنه لما توفى قعد ابنه عبد الله رضى الله عنه للتعزية فدخل الناس أفواجا يعزونه فكان فيمن دخل اعرابى فانشده

اصبر نكن بك صابرين فانما　　صبر الرعية بعد صبر الراس
خير من العباس أجرك بعده　　والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس ماعزاني أحد تعزية الاعرابي واستحسن ذلك وفي قوله تعالى ان الانسان لربه لكنود قيل هو الذي يشكو المصائب وينسى النعم ولو علم ان مع كل مصيبة عشر نعم بحذائها وزيادة قلت شكواه وبدلها شكرا ثم ان المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام كلها نعم من الله تعالى اما أن تكون درجة وهذا للمقربين والمحسنين واما أن تكون كفارة وهذا لخصوص أصحاب اليمين وللابرار أو تكون عقوبة وهذا للكافة من المسلمين فتعجيل العقوبة فى الدنيا رحمة ونعمة ومعرفة هذه النعم طريق الشاكرين ومن أفضل النعم عند العلماء نعمة الايمان ثم دوامه لأن دوام الشيء نعمة ثانية لأنه بحكم ثان عن مشيئة ثانية لأن الارادة منه تعالى بحكم الاظهار لا توجب دوام المظهر فكان الشيء يظهر بارادته ثم يتلاشى كان لم يكن الا أن يحكم سبحانه وتعالى حكما ثانيا بنعمة ثانية بالثبات والدوام اذ لو لم يرد دوام السموات والارض ماداما ولو لم يرد دوام ثبات الجبال ما ثبتت كذلك لو لم يرد دوام الايمان وثباته فى القلوب بعد الكتب لظهر بالكتب ثم انمحى ورجع القلب الى الكفر لكنه أنعم نعما لا تحصى بدوامه وثباته فى القلب ومنه قوله تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت أى يمحو مالا يشاء ثبوته ويثبت ما يحب ولا يستطيع العبد شكر نعمة الايمان ومعرفة بداية التفضل به وقديم الاحسان من غير قدم من العبد ولا استحقاق بل بفضل الله وبرحمته وهذا أحد الوجوه فى قوله تعالى كلا لما يقض ماأمره أى لا يقضى العبد أبدا شكر ما أمره الله تعالى من نعمة الاسلام التى هى أصول النعم فى الدنيا والآخرة وهى سبب النجاة من النار ومفتاح دخول الجنة ولا أول للعبد فيها ولا شفيع كان له الى الله تعالى بها ثم دوام ذلك وثباته مع الطرف والانفاس بمددمنه نعم مترادفة ومن هذا قوله تعالى كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه أى قواهم بمدد يثبته ويقويه وهو معنى قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم يامقلب القلوب أى عن الايمان ومقلبها فى الشك والشرك ثبت قلبي على طاعتك ومعرفة هذه النعمة اللطيفة العظيمة تستخرج من القلب خوف سوء الخاتمة لمشاهدة سرعة تقليب القلب بالمشيئة وذلك مزيد شكرها وهذا داخل فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم أحبوا الله تعالى لما أسدى اليكم من نعمه ولما يغذوكم به أيضا فمن أفضل ما غذانا به نعمة الايمان له والمعرفة به وغذاؤه لنا منه دوام ذلك ومدده بروح منه وتثبيتنا عليه فى تصريف الأحوال اذ هو أصل الأعمال التى هى مكان النوال فلو قلب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا فى الذنوب ولو قلب قلوبنا فى الشك والضلال كما يقلب نياتنا فى الأعمال أى شيء كنا نصنع وعلى أى شيء كنا نعول وبأى شيء كنا

نطمئن ونرجو فهذا من كبائر النعم ومعرفته هو من شكر نعمة الايمان والجهل بهذا غفلة عن نعمة الايمان يوجب العقوبة وادعاء الايمان انه عن كسب معقول أو استطاعة بقوتوحولهو كفر نعمة الايمان وأخاف على من توهم ذلك أن يسلب الايمان لانه بدل شكر نعمة الله كفرا وقد جعل الله تعالى الخيرات من كسب الايمان وليس لنا فيما يكسبنا الخيرات مكان بل الله تعالى من علينا أزهدا ما للايمان وجعله سببا يكسب لنا باحسانه الاحسان كما قال تعالى أو كسبت فى ايمانها خيرا قيل التوبة وقيل الصالحات كلها كسب الايمان ومن النعم بعد الايمان توفيقنا للحسنى وتيسيرنا لليسرى ثم صرف الكفر وأخلاق الكفرة وأعمالهم ثم تزيين الايمان وتحبيبه الينا وتكريه الفسوق والعصيان فضلا منه ونعمة الى مالا يحصى من نعمه فشكر ذلك لا يقام به الا بما وهب أيضا وأنعم به من المعرفة بذلك والمعونة عليه والحياء من تتابع النعم هو من الشكر والمعرفة بالتقصير عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظيم الحلم وكشف الستر شكر والاعتراف بما أعطى من حسن الثناء وجميل النشر انه من النعم من غير استحقاق من العبد بل هو مضاف الى نعمه بل هو من الشكر وحسن التواضع بالنعم والتذلل فيها شكر وشكر الخلق بالدعاء لهم وحسن الثناء عليهم لانهم ظروف العطاء وأسباب المعطى تخلقا باخلاق المولى جل وعلا هو من الشكر وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدى المنعم شكر وتلقى النعم بحسن القبول وتكثير صغيرها وتعظيم حقيرها من الشكر لأن طائفة هلكت باستصغار الاشياء واستحقار وجود المنافع بها جهلا بحكمة الله تعالى واستصغاراً لنعمه فكان ذلك كفرا بالنعم ومن الناس من يقول ان الصبر أفضل من الشكر وليس يمكن التفضيل بينهما عند أهل التحصيل من قبل ان الشكر مقام لجلة من المؤمنين والترجيح بين جماعة على جماعة لا يصح من قبل تفاوتهم فى اليقين فى المشاهدات لأن بعض الصابرين أفضل من بعض الشاكرين لفضل معرفته وحسن صبره وخصوص الشاكرين أفضل من عموم الصابرين لحسن يقينه وعلو مشاهدته ولكن تفضيل ذلك من طريق الأحوال والمقامات انا نقول والله أعلم ان الصبر عن النعيم أفضل لأن فيه الزهد والخوف وهما أعلى المقامات وان الشكر على المكاره أفضل لأن فيه البلاء والرضا وان الصبر على الشدائد والضراء أفضل من الشكر على النعم والسراء من قبل انه أشق على النفس وان الصبر مع حال الغنى والمقدرة ان يعصى بذلك أفضل من الشكر على النعم من قبل ان الصبر عن المعاصى بالنعم أفضل من الطاعة بها لمن جاهد نفسه فيها فاذا شكر على ما يصبر عليه فقد صار البلاء عنده نعمة وهذا أفضل لأنها مشاهدة المقربين واذا صبر عما يشكر عليه من النعم كان أفضل لأنها حال المجاهدة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء أشد الناس بلاء ثم الامثل فالأمثل يعنى الأقرب شبها بنا

فالاقرب فرفع أهل البلاء اليه و وصف نفسه به وجعلهم الامثل فالامثل منه فمن كان برسول الله صلى الله عليه وسلم أمثل كان هو الافضل وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم شاكرا على شدة بلائه كذلك الشاكر من الصابرين يكون أفضل لشكره على البلاء اذ هو الاقرب والامثل بالانبياء وكل مقام من مقامات المقربين يحتاج الى صبر وشكر وأحدهما لا يتم الا بالآخر لان الصبر يحتاج الى شكر عليه ليكمل والشكر يحتاج الى صبر عليه ليستوجب المزيد وقد قرن الله تعالى بينهما ووصف المؤمنين بهما فقال ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور فذكر الشكر بلفظ المبالغة فى الوصف على وزن فعول كما ذكر الصبر على وزن فعال وهو وصف للمبالغة أيضا ولذلك اقتسما الايمان نصفين كما جاء فى الخبر الصبر نصف الايمان والشكر نصف الايمان واليقين الايمان كله لان اليقين أصلهما وهما ثمرتاه عنه يوجدان لان الشاكر أيقن بالنعمة انها من المنعم وأيقن بانجازما وعده من المزيد فشكر كما أيقن الصابر بمسه بالبلاء لانه هو المبتلى وأيقن بثواب المبلى وحسن ثنائه على الصابرين فصبر فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فهما حالا الموقن اذ لا يخلو فى أدنى وقت من أحد اثنين بلية وتحية اذ فى كل شيء له آية فحاله فى البلية الصبر وحاله فى التحية الشكر والله يحب الصابرين ويحب الشاكرين وهذا آخر شرح مقام الشكر والحمد لله رب العالمين

شرح مقام الرجاء و وصف الراجين وهو الرابع من مقامات اليقين

قال الله تعالى الله لطيف بعباده يرزق من يشاء و قال جلت قدرته وكان بالمؤمنين رحيما وقال تعالى ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا وروينا فى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ولا يبالى انه هو الغفور الرحيم وفى الأخبار المشهورة فقبض قبضة فقال هؤلاء فى الجنة ولا أبالى المعنى والله أعلم ان رحمتى وسعت كل شيء فليس يضيق هؤلاء عنها ولا أبالى بدخولهم فيها ويكون هؤلاء أيضا فى الجنة ولا أبالى بأعمالهم السيئة كلها وقال سبحانه وتعالى فى وصف المتقين والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله وقال عز وجل فى وصف المتوكلين الا اللمم ان ربك واسع المغفرة وقال تعالى مخبرا عن الملائكة الحافين حول عرشه والملائكة يسبحون بحمد ربهم و يستغفرون لمن فى الارض وأخبر عز وجل ان النار أعدها لاعدائه وانه خوف بها أولياءه فقال تعالى لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ومثله قوله عز وجل واتقوا النار التى أعدت للكافرين وقال فانذرتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الأشقى الذى كذب وتولى وقال تعالى فى عفوه عن الظالمين وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وروينا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل فى أمته حتى قيل له أما ترضى

وقد أنزلت عليك هذه الآية وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وفى تفسير قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى قال لا يرضى محمد صلى الله عليه وسلم ان يدخل واحد من أمته النار وكان أبو جعفر محمد بن على رضى الله عنه يقول أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية فى كتاب الله تعالى قوله تعالى ياعبادى الذى أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية ونحن أهل البيت نقول أرجى آية فى كتاب الله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى وعده ربه عز وجل ان يرضيه فى أمته وروينا فى حديث أبى بردة عن أبيه عن أبى موسى أمتى أمة مرحومة لا عذاب عليها فى الآخرة جعل عقابها فى الدنيا الزلازل والفتن فاذا كان يوم القيامة دفع الى كل رجل من أمتى رجلا من أهل الكتاب فيقال هذا فداؤك من النار وروينا فى لفظ آخر يأتى كل رجل من هذه الأمة بيهودى أو نصرانى الى جهنم فيقول هذا فدائى من النار فيلقى فيها وفى الخبر ان الحمى من فيح جهنم وهى حظ المؤمنين من النار وروينا فى تفسير قوله تعالى يوم لايخزى الله النبي والذين آمنوا معه ان الله تبارك وتعالى أوحى الى نبيه صلى الله عليه وسلم تريد أن أجعل حساب أمتك اليك فقال لا يا رب أنت خير لهم منى قال اذاً لانخزيك فيهم وقال سفيان الثورى رضى الله عنه ماأحب أن يجعل حسابى الى أبوى لانى أعلم أن الله تبارك وتعالى أرحم بى منهما وروينا فى خبر سلمة بن وردان عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه تعالى فى ذنوب أمته فقال يا رب اجعل حسابهم الى لئلا يطلع على مساويهم غيرى فأوحى الله تعالى اليه هم أمتك وهم عبادى وأنا أرحم بهم منك لا أجعل حسابهم الى غيرى كيلا تنظر فى مساويهم أنت ولا غيرك وقد روينا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال حياتى خير لكم وموتى خير لكم أما حياتى فانى أبين لكم السنن وأشرع الشرائع وأما موتى فاعمالكم تعرض على فما رأيت منها حسنا حمدت الله عز وجل وما رأيت منها سيأ استغفرت الله عز وجل لكم وروينا فى الأثر اذا تاب العبد من ذنوبه أنسى الله عز وجل ملائكته وبقاع الارض معاصيه وبدلها حسنات حتى يرد القيامة وليس شىء يشهد عليه وكذلك يقال ان المؤمن اذا عصاه ستره الله تعالى عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يا كريم العفو فقال له جبريل عليه السلام تدرى ماتفسير يا كريم العفو هو أنه عفا عن السيآت برحمته ثم بدلها حسنات بكرمه وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يقول اللهم انى أسألك تمام النعمة فقال هل تدرى ماتمام النعمة قال لا قال دخول الجنة وقد أخبرنا الله تعالى أنه قد أتم نعمته علينا برضاه الاسلام لنا فهذا دليل على دخول الجنة فقال عز وجل اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا وقد اشتركنا فى ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن نرجو المغفرة لذنوبنا بفضله فقال عز من قائل ليغفر لك الله

ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك وفى خبر على رضى الله عنه من أذنب ذنبا فستره الله تعالى عليه فى الدنيا فالله تبارك وتعالى أكرم من أن يكشف ستره فى الآخرة ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه فى الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده فى الآخرة وفى لفظ آخر لا يذنب عبد فى الدنيا فيستره الله تعالى عليه الا غفر له فى الآخرة وعن بعض السلف كل عاص فانه يعصى تحت كنف الرحمن والكنف من الانسان حضنه مابين يديه وصدره قال فمن القى عليه كنفه ستر عورته ومن رفع عنه كنفه افتضح ويقال ان من نضح فى الدنيا بذنب فهو كفارته ولا يفضح به فى الآخرة وفى الخبر اذا أذنب العبد فاستغفر الله يقول الله سبحانه وتعالى للملائكة انظروا الى عبدى أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب أشهدكم انى قد غفرت له وحدثت عن محمد بن مصعب قال كتب الى أسود بن سالم بخطه ان العبد اذا كان مسرفا على نفسه يرفع يديه يدعو يقول يارب فاذا قال يارب حجبت الملائكة صوته فاذا قال الثانية يارب حجبت الملائكة صوته فاذا قال الثالثة يارب حجبت الملائكة صوته فاذا قال الرابعة يقول الله تعالى حتى متى تحجبوا صوت عبدى عنى قد علم عبدى انه ليس له رب يغفر الذنوب غيرى أشهدكم أنى قد غفرت له وفى الحديث اذا أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له مااستغفرنى ورجانى وفى حديث آخر لو لقينى عبدى بقراب الأرض ذنوبا لقيته بقرابها مغفرة مالم يشرك بى شيئا وفى الخبر ان الملك ليرفع القلم عن العبد اذا أذنب ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه والا كتبها سيئة وفى لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال لصاحب الشمال وهو أمير عليه الق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشرة وارفع تسع حسنات فيلقى عنه هذه السيئة ويقال ان الله تعالى جعل فى قلب صاحب اليمين من الرحمة للعبد أضعاف ما جعل فى قلب صاحب الشمال مع أنه أمره عليه فاذا عمل العبد حسنة فرح بها ملك اليمين ويقال فرح بها الملائكة فيكتب للعبد بفرحه الحسنات وروينا فى حديث أنس بن مالك الطويل اذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه فقال الأعرابى فان تاب قال محى من صحيفته قال فان عاد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب عليه قال الاعرابى فان تاب قال محى من صحيفته قال الى متى يا رسول الله قال الى أن يستغفر ويتوب الى الله تعالى وان الله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار فاذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها فاذا عملها كتبها عشر حسنات ثم ضاعفها الله عز وجل الى سبعمائة ضعف واذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فان عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله تعالى وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انى لا أصوم الا الشهر لا أزيد عليه ولا أصلى الا الخمس لا أزيد عليهن وليس لله تبارك وتعالى فى مالى صدقة ولا حج ولا أتطوع أين أنا اذا مت فقال النبي صلى الله عليه وسلم فى الجنة قال يا رسول

الله معك فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم معى ان حفظت قلبك من اثنين الغل والحسد ولسانك من اثنين الغيبة والكذب وعينك من اثنين النظر الى ما حرم الله تعالى وان تزدرى بهما مسلما دخلت معى الجنة على راحتى هاتين وروينا فى الخبر الطويل عن أنس رضى الله عنه ان الاعرابى قال يا رسول الله من يلى حساب الخلق قال الله عز وجل قال هو بنفسه قال نعم قال فتبسم الاعرابى فقال النبى صلى الله عليه وسلم مم ضحكت يا أعرابى فقال ان الكريم اذا قدر عفا وروى تجاوز واذا حاسب سامح فقال النبى صلى الله عليه وسلم صدق ألا ولا كريم أكرم من الله عز وجل هو أكرم الاكرمين ثم قال عليه السلام فقه الاعرابى وفيه أيضا ان الله تبارك وتعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبدا هدمها حجرا حجرا ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولى من أولياء الله تعالى قال الاعرابى من أولياء الله قال المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى أما سمعت الله تعالى يقول الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور وفى الخبر المفرد عن النبى صلى الله عليه وسلم المؤمن أفضل من الكعبة والمؤمن طيب طاهر والمؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة وفى الخبر المشهور عن عبد الله بن عمرو وأبى هريرة رضى الله عنهما وكعب الاحبار انه نظر الى الكعبة فقال ما أشرفك وما أعظمك وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك وقد أمر الله سبحانه وتعالى أنبياءه بتطهير بيته لاوليائه اجلالا لهم فشرف البيت بهم وفى الخبر عن الله تعالى من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة وأنا الثائر لوليى فى الدنيا والآخرة وفى أخبار يعقوب عليه السلام ان الله تعالى أوحى اليه تدرى لم فرقت بينك وبين يوسف عليه السلام هذه المدة قال لا قال لقولك لاخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب عليه ولم ترجنى له ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظى له ومن سبق عنايتى بك انى جعلت نفسى عندك أرحم الراحمين فرجوتنى ولولا ذلك لكنت أجعل نفسى عندك أبخل الباخلين فالرجاء هو اسم لقوة الطمع فى الشىء بمنزلة الخوف اسم لقوة الحذر من الشىء ولذلك أقام الله تعالى الطمع مقام الرجاء فى التسمية وأقام الحذر مقام الخوف فقال علت كلمته يدعون ربهم خوفا وطمعا وقال تعالى يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه وهو وصف من أوصاف المؤمنين وخلق من أخلاق الايمان لايصح الا به كما لايصح الايمان الا بالخوف فالرجاء بمنزلة أحد جناحى الطير لايطير الا بجناحيه كذلك لايؤمن من لايرجو من آمن به ويخافه وهو أيضا مقام من حسن الظن بالله تعالى وجميل التأميل له فلذلك أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لايموتن أحدكم الا وهو حسن الظن بالله تعالى لانه قال عن الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء . كان ابن مسعود رضى الله عنه يحلف بالله تعالى ماأحسن عبد بالله تعالى ظنه الا أعطاه الله تعالى ذلك لان الخير كله بيده أى فاذا

أعطاه حسن الظن بالله تعالى فقد أعطاه ما يظنه لان الذى حسن ظنه به هو الذى أراد أن يحققه له وروينا عن يوسف بن أسباط قال سمعت سفيان الثورى رضى الله عنه يقول فى قوله تعالى وأحسنوا ان الله يحب المحسنين قال أى احسنوا بالله تعالى الظن وكذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرجل وهو فى سياق الموت فقال كيف تجدك فقال أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى فقال عليه السلام ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن الا أعطاه الله تعالى ما رجا وأمنه مما يخاف ولذلك قال على كرم الله وجهه للرجل الذى أطار الخوف عقله حتى أخرجه القنوط فقال له ياهذا اياسك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنبك صدق رضى الله عنه لان الاياس من روح الله تعالى الذى يستريح اليه المكروب من الذنوب والقنوط من رحمة الله تعالى التى يرجوها المبتلى بالذنوب أعظم من ذنوبه وهو أشد من جميع ذنوبه لانه قطع بهواه على صفات الله تعالى المرجوة وحكم على كرم الله وجهه بصفته المذمومة فكان ذلك من أكبر الكبائر وان كانت ذنوبه كبائر وهكذا جاء فى التفسير ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة قال هو العبد يذنب الكبائر ويلقى بيديه ولا يتوب ويقول قد هلكت لا ينفعنى عمل فنهوا عن ذلك الا أن الرجا مقام جليل وحال شريف نبيل لا يصلح الا للكرماء من أهل العلم والحياء وهو حال يحول عليهم بعد مقام الخوف يروحون به من الكرب ويستريحون اليه من مقارفة الذنب ومن لم يعرف الخوف لم يعرف الرجاء ومن لم يقم فى مقام الخوف لم يرفع الى مقامات أهل الرجاء على صحة وصفاء ورجاء كل عبد من حيث خوفه ومكاشفته عن أخلاق مرجوة من معنى ما كان كوشف به من صفات مخوفة فان كان أقيم مقام المخوفات من المخلوقات مثل الذنوب والعيوب والاسباب رفع من حيث تلك المقامات الى مقامات الرجاء بتحقيق الوعد وغفران الذنب وتشويق الجنان ومافيها من الاوصاف الحسان وهذه مواجهات أصحاب اليمين وان كان أقيم مقام مخاوف الصفات عن مشاهدة معانى الذات مثل سابق العلم وسوء الخاتمة وخفى المكر وباطن الاستدراج وبطش القدرة وحكم الكبر والجبروت رفع من هذه المقامات الى مقام المحبة والرضا فرجا من معانى الاخلاق وأسماء الكرم والاحسان والفضل والعطف واللطف والامتنان وليس يصح أن نخبر بكل ما نعلم من شهادة أهل الرجاء فى مقامات الرجاء من قبل انه لا يصلح لعموم المؤمنين وهو يفسد من لم يرزقه أشد الفساد فليس يصلح الا بخصوصه ولا يجديه ولا يستجيب له ولا يستخرج الامن المحبة ولا محبة الا بعد نصح القلب من الخوف وأكثر النفوس لا يصلح الا على الخوف كعبيد السوء لا يستقيمون الا بالسوط والعصا ثم يواجهون بالسيوف صلتا ومن علامة صحة الرجاء فى العبد كون الخوف باطنا فى رجائه لانه لما تحقق برجاء شىء خاف فوته لعظم المرجو فى قلبه وشدة اغتباطه به فهو لا ينفك فى حال رجائه من خوف فوت الرجاء والرجاء هو ترويحات الخائفين ولذلك سمت العرب الرجاء خوفا لانهما وصفان لا ينفك أحدهما عن الآخر ومن مذهبهم

أن الشيء اذا كان لازما لشيء أو وصفا له أوسيبا منه أن يعبروا عنه به فقالوا مالك لاترجو كذا وهم يريدون مالك لاتخاف وعلى هذه اللغة جاء قول الله تعالى مالكم لاترجون لله وقارا أجمعوا على تفسيره مالكم لاتخافون لله عظمة وهو أيضا أحد وجهى تفسير قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه أى يخاف من لقائه ومثل الخوف من الرجاء مثل اليوم من الليلة لما لم ينفك أحدهما عن الآخر جاز أن يعبر عن المدة بأحدهما فيقال ثلاثة أيام وثلاث ليال ومنه قول الله تعالى مخبرا عن قصة واحدة فقال عزوجل آيتك أن لاتكلم الناس ثلاث ليال سويا ثم قال تعالى ثلاثة أيام الا رمزا فلما لم يكن اليوم ينفك عن ليلته والليلة لاتنفك عن يومها أخبر عن أحدهما بالآخر لان أحدهما يشبه الآخر مندرج فيه ولا يظهر الا أحدهما بحكمة الله تعالى وقدرته لتفاوت أحكامه فيهما وافتراق انعامه بهما فاذا ظهر النهار اندرج الليل فيه بقدرته تعالى واذا ظهر الليل استتر النهار بحكمة الله تعالى وهو حقيقة ايلاجه أحدهما فى الآخر وتحقيق تكويره أحدهما على صاحبه فكذلك حقيقة الرجاء والخوف فى معانى الملكوت اذا ظهر الخوف كان العبد خائفا وظهرت عليه أحكام الخوف عن مشاهدة التجلى بوصف مخوف فسمى العبد خائفا لغلبته عليه وبطن الرجاء فى خوفه واذا ظهر الرجاء كان العبد راجيا وظهرت منه أحكام الرجاء عن مشاهدة تجلى الربوبية بوصف مرجو فوصف العبد به لانه هو الاغلب عليه وبطن الخوف فى رجائه لانهما وصفان للايمان كالجناحين للطير فالمؤمن بين الخوف والرجاء كالطائر بين جناحيه وكلسان الميزان بين كفتيه ومنه قول مطرف لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا فهذا أصل فى معرفة حقيقة الرجاء وصدق الطمع فى المرجو فللمؤمنين فى اعتدال الخوف والرجاء مقامان أعلاهما مقام المقربين وهو ماحال عليهم من مقام مشاهدة الصفات المخوفة والاخلاق المرجوة والثانى مقام أصحاب اليمين وهو ماعرفوه من بدائع الاحكام وتفاوت الأقسام من ذلك أنه أنعم سبحانه وتعالى على الخلق بفضله عن كرمه اختيار الا اجبارا فلما أعلمهم ذلك رجوا تمام النعمة من حيث ابتداؤها ومن ههنا طمع السحرة فى المغفرة لما ابتدؤا بالايمان فقالوا انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين أى من حيث جعلنا أول المؤمنين من هذا المكان نرجو أن يغفر لنا بأن جعلنا مؤمنين به فرجوه منه وقد ذم الله تعالى عبدا أوجده نعمة ثم سلبها فأيس من عودها عليه فقال تعالى ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور ثم استثنى عباده الصابرين عليه الصالحين له فقال تعالى الا الذين صبروا وعملوا الصالحات وروى أن لقمان عليه السلام قال لابنه خف الله تعالى خوفا لا تأمن فيه مكره وارجه رجاء أشد من خوفك قال وكيف أستطيع ذلك وانما لى قلب واحد قال أما علمت أن المؤمن كذى قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر والمعنى أن الخوف والرجاء وصف الايمان لايخلو منهما قلب مؤمن فصار كذى قلبين حينئذ ثم ان الخلق خلقوا على أربع طبقات فى كل طبقة طائفة

فمنهم من يعيش مؤمنا و يموت مؤمنا فمن ههنا رجاؤهم لانفسهم و لغيرهم من المؤمنين اذ قد أعطاهم فرجوا أن يتم عليهم نعمته و أن لا يسلبهم بفضله ما به بدأهم ومن الناس من يعيش مؤمنا و يموت كافرا فهذا موضع خوفهم عليهم وعلى غيرهم لمكان عليهم بهذا الحكم ولغيب حكم الله تعالى بعلمه السابق فيهم ومن الناس من من يعيش كافرا ويموت مؤمنا ومنهم من يعيش كافرا و يموت كافرا فهذان الحكمان أوجبا رجاءهم الثانى للشرك اذا رأوه فلم يقنطوا بظاهره أيضا خوف هذا الرجاء خوفا ثانيا أن يموت على تلك الحال وأن يكون ذلك هو حقيقة عند الله تعالى فعلم المؤمن بهذه الأحكام الأربعة ورثه الخوف والرجاء معا فاعتدل حاله بذلك لاعتدال ايمانه به وحكم على الخلق بالظاهر ووكل الى علام الغيوب السرائر ولم يقطع على عبد بظاهره من الشر بل يرجو له ما بطن عند الله تعالى من الخير ولم يشهد لنفسه ولا لغيره بظاهر الخير بل يخاف أن يكون قد استسر عند الله تعالى باطن شر الا أن حال التمام أن يخاف العبد على نفسه و يرجو لغيره لأن ذلك هو وجد المؤمنين من قبل أنهم متعبدون بحسن الظن فهم يحسنون الظن بالناس و يخرجون لهم المعاذير بسلامة الصدور وتسليم ما غاب الى من اليه تصير الامور ثم هم فى ذلك يسيؤن الظن بنفوسهم لمعرفتهم بصفاتها و يوقعون الملاوم عليها و لا يحتجون لها لباطن الاشفاق منهم عليهم ولخوف التزكية منهم لهم فمن قلب عليه هذان المعنيان فقد مكر به حتى يحسن الظن بنفسه و يسىء ظنه بغيره فيكون خائفا على الناس راجيا لنفسه عاذرا لنفسه محتجا لها لائما للناس ذاما لهم فهذه أخلاق المنافقين ثم ان للراجى حالا من مقامه ولحاله علامة من رجائه فمن علامة الرجاء عن مشاهدة المرجو دوام المعاملة وحسن التقرب اليه وكثرة التقرب بالنوافل لحسن ظنه به وجميل أمله منه وانه يتقبل صالح ما أمر به تفضلا منه من حيث كرمه لا من حيث الواجب عليه ولا الاستحقاق منا وانه أيضا يكفر سيء ما عمله احسانا منه ورحمة من حيث لطفه بنا وعطفه علينا لاخلاقه السنية وألطافه الخفية لا من حيث اللزوم له بل من حيث حسن الظن به كما قال سفيان الثورى رضى الله عنه من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله عز وجل له ذنبه قال لأن الله تعالى عير قوما فقال تعالى وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم وقد قال سبحانه وتعالى فى مثله وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا أى هلكى فنى دليل خطابه عز وجل ان من ظن حسنا كان من أهل النجاة وقد جاء فى الأثر ان من أذنب ذنبا فأحزنه ذلك غفر له ذنبه وان لم يستغفر ومقام الرجاء كسائر مقامات اليقين منها فرض وفضل فعلى العبد فرض أن يرجو مولاه وخالقه ومعبوده ورازقه من حيث كرمه وفضله لا من حيث نظره الى صفات نفسه ولؤمه وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول من سأل الله تبارك وتعالى شيأ فنظر الى نفسه والى أعماله لا يرى الاجابة حتى يكون ناظرا الى الله تبارك وتعالى وحده والى

لطفه وكرمه ويكون موقنا بالاجابة ولعمرى ان من سأل الله تعالى ورغب اليه فى شيء ورجاه ناظرا الى نفسه وعمله فانه غير مخلص فى الرجاء له تعالى لشركه فى النظر اليه واذا لم يكن مخلصا لم يكن موقنا ولا يقبل الله تعالى عملا ولا دعاء الا من موقن بالاجابة مخلص فاذا شهد التوحيد ونظر الى الوحدانية فقد أخلص وأيقن وهكذا جاء فى الخبر اذا دعوتم فكونوا موقنين بالاجابة فان الله تعالى لا يقبل الا من موقن ومن داع دعا بينا من قلبه لأن من استعمله الله تعالى بالدعاء له فقد فتح له بابا من العبادة وفى الخبر الدعاء نصف العبادة ولا يقبل الله تعالى من الدعاء الا الناخلة بمعنى المنخول وهو الخالص فأقل ما يعطيه من دعائه أن يكون ذلك حسنة منه يضعفه له عشرا الى سبعمائة ضعف وأعلاه أن يدخر له فى الآخرة ما هو خير له من جميع الدنيا وما فيها مما لم يخطر على قلبه قط ويكون ذلك حسن نظر من الله تعالى له واختيارا وأوسط ذلك أن يصرف عنه من البلاء الذى هو لو كان علمه كان صرفه أهم عليه وأحب اليه مما سأل فيه وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من داع دعا موقنا بالاجابة فى غير معصية ولا قطيعة رحم الا أعطاه الله تعالى احدى ثلاث اما أن يجيب دعوته فيما سأل أو يصرف عنه من السوء مثله أو يدخر له فى الآخرة ماهو خير له وفى أخبار موسى عليه السلام يارب أى خلقك أنت عليه أشد تسخطا فقال تعالى من لم يرض بقضائى ومن يستخيرنى فى أمر فاذا قضيت له كره ذلك وفى الخبر الآخر أنه قال يارب أى الاشياء أحب اليك وأيها أبغض فقال سبحانه وتعالى أحب الاشياء الى الرضا بقضائى وأبغضها الى أن تطوى نفسك وروينا عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال للرجل الذى قال أوصنى فقال لا تتهم الله تعالى فى شيء قضاه عليك وفى الخبر الآخر أنه نظر الى السماء وضحك صلى الله عليه وسلم فسئل عن ذلك فقال عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن فى كل قضائه له خير ان قضى له بالسراء رضى وكان خيرا له وان قضى عليه بالضراء رضى به وكان خيرا له ومن حسن الظن بالله تعالى لطف التملق له سبحانه وتعالى وهو من قوة الطمع فيه وفى الخبر حسن الظن بالله عز وجل من حسن عبادة الله عز وجل كما روينا فى تفسير قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ان الكلمات هى قوله عليه السلام يارب هذا الذنب الذى أصبته كان من قبل نفسى أو من شيء سبق فى علمك قبل أن تخلقنى تضيته على فقال بل شيء سبق فى علمى كتبته عليك قال يارب فكما قضيته على فاغفره لى قال فهى الكلمات التى لقاه الله تعالى اياها وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة ما منعك اذ رأيت المنكر أن تنكره قال فان لقن الله تعالى العبد حجته قال يارب رجوتك وخفت الناس قال لقد غفرت له وفى الخبر المشهور أن رجلا كان يداين الناس فيسمح لهم ويتجاوز عن المعسر فلقى الله تعالى ولم يعمل خيرا قط فقال الله سبحانه وتعالى نحن أحق بذلك منك قال فغفر

له برجائه وظنه ثم يتفاوت الراجون فى فضائل الرجاء فالمقربون منهم رجوا النصيب الأعلى من القرب والمجالسة والتجلى بمعانى الصفات بما عرفوه وهذا عن علمهم به وأصحاب اليمين من الراجين رجوا النصيب الأوفر من مزيده والفضل الأجزل من عطائه يقينا بما وعد ومن الرجاء انشراح الصدر بأعمال البر وسرعة السبق والمبادرة بها خوف فوتها ورجاء قبولها ثم مهاجرة السوء ومجاهدة النفس رجاء انتجاز الموعود وتقربا الى الرحيم الودود ومنه قول أصدق القائلين ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله وفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرة والمجاهدة فقال المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد نفسه فى الله تعالى وأقام الصلاة التى هى خدمة المعبود وبذل المال سرا وعلانية وقليلا وكثيرا وان لا يشتغل عن ذلك بتجارة الدنيا كما وصف الله سبحانه وتعالى المحققين من الراجين اذ يقول عز من قائل ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ومن الرجاء القنوت فى ساعات الليل وهو طول القيام للتهجد والدعاء عند تجافى الجنوب عن المضاجع لما وقر فى القلوب من المخاوف ولذلك وصف الله الراجين بهذا فى قوله تعالى أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فسمى أهل الرجاء والحذر وأهل التهجد آناء الليل علماء وحصل من دليل الكلام ان من لم يخف ولم يرج غير عالم لنفيه المساواة بينهما وهذا مما يحذف خبره اكتفاء بأحد وصفيه اذ فى الكلام دليل عليه فالرجاء هو أول مقام من اليقين عند المقربين وهو ظاهر أوصاف الصديقين ولا يكمل فى قلب عبد ولا يتحقق به صاحبه حتى يجتمع فيه هذه الأوصاف الايمان بالله تعالى والمهاجرة اليه سبحانه وتعالى والمجاهدة فيه وتلاوة القرآن واقام الصلاة والانفاق فى سبيل الله تعالى ثم السجود آناء الليل والقيام والحذر مع ذلك كله فهذه جملة صفات الراجين وهو أول أحوال الموقنين ثم تتزايد الأعمال فى ذلك ظاهرا وباطنا بالجوارح والقلوب عن تزايد الأنوار والعلوم ومكاشفات الغيوب بالاوصاف الموجودة وفصل الخطاب ان الخوف والرجاء طريقان الى مقامين فالخوف طريق العلماء الى مقام العلم والرجاء طريق العمال الى مقام العاملين وقد وصف الله عز وجل الراجين مع الأعمال الصالحة لقوة رجائهم بالخوف تكملة لصدق الرجاء وتتمة لعظيم الغبطة به فقال تعالى وتقدس والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة وقال عز وجل مخبرا عنهم فى حال وفائهم وأعمال برهم انا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا وقال عز وجل يوفون بالنذر ويخافون يوما من قبل أن الخوف مرتبط بالرجاء فمن تحقق بالرجاء صارعه الخوف أن يقطع به دون ما رجا وقال أهل العربية فى معنى قوله تعالى قل للذين آمنوا

يغفروا للذين لا يرجون أيام الله أي للذين لا يخافون عقوبات الله تعالى فاذا كان هذا أمرا بالمغفرة لمن لا يرجو فكيف يكون غفره وفضله على من يرجوه بعضهم يقول في معنى قوله تعالى وترجون من الله مالا يرجون أي تخافون منه مالا يخافون فلولا انهما عند العلماء كشيء واحد ما فسر أحدهما بالآخر ومن الرجاء الانس بالله تعالى في الخلوات ومن الانس به الانس بالعلماء والتقرب من الاولياء وارتفاع الوحشة بمجالسة أهل الخير وسعة الصدر والروح عندهم ومن الرجا سقوط ثقل المعاونة على البر والتقوى لوجود حلاوة الأعمال والمسارعة اليها والحث لأهلها عليها والحزن على فوتها والفرح بدركها ومن ذلك الخبر المأثور من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن والخبر المأثور خيار أمتي الذين اذا أحسنوا استبشروا واذا أساؤا استغفروا لأن المؤمن على يقين من أمره وبصيرة من دينه والخوف والرجاء وصف الموقن بالله تعالى فهو اذا عمل حسنة أيقن بثوابها لصدق الوعد وكرم الموعد واذا عمل سيئة أيقن بالكراهة لها وخاف المقت عليها لخوف الوعيد وعظمة المتوعد من قبل أن دخوله في الطاعة دخول في محبة الله تعالى ومرضاته لما دل العلم عليه فهذا رضا الله سبحانه وتعالى في الدنيا فكيف لايسره رضاه ومن قبل أن دخوله في المعصية دخول في غضب الله تعالى ومكارهه بما دل العلم عليه فذلك الذي يسوؤه لان مقت الله تعالى اليوم معاصيه وسخطه غدا تعذيبه ومن هذا قول الله عز وجل وهو أصدق القائلين ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم قال لما نظروا الى أنفسهم بتشويه خلقهم في النار مقتوها فنودوا لمقت الله في الدنيا على معاصيه أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم في العذاب كما أن رضاه غدا تنعيمهم في جنته كذلك رضاه اليوم عملهم بطاعته ومرضاته وهذا وصف عبد مراد مكاشف بعلم اليقين ومن هذا حديث زيد الخيل اذ قال للنبي صلى الله عليه وسلم جئتك أسألك عن علامة الله تعالى فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال كيف أصبحت فقال أصبحت أحب الخير وأهله واذا قدرت على شيء منه سارعت اليه وأيقنت بثوابه واذا فاتني شيء منه حزنت عليه وحننت اليه فقال صلى الله عليه وسلم هذه علامة الله تعالى فيمن يريد ولو أرادك للاخرى هيأك لها ثم لم يبال في أي أوديتها هلكت ومن الرجاء التلذذ بدوام حسن الاقبال والتنعم بمناجاة ذي الجلال وحسن الاصغاء الى محادثة القريب والتلطف في التملق للحبيب وحسن الظن به في العفو الجميل ومنال الفضل الجزيل وقال بعض العارفين للتوحيد نور وللشرك نار ونور التوحيد أحرق لسيئات المؤمن من نار الشرك لحسنات المشرك ولما احتضر سليمان التيمي قال لابنه يابني حدثني بالرخص واذكر لي الرجا حتى ألقى الله تعالى على حسن الظن به وكذلك لما حضر سفيان الثوري رضي الله عنه الوفاة جعل العلماء حوله يرجونه وحدثنا عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه انه قال لابنه عند الموت اذكر لي الاخبار التي فيها الرجاء

وحسن الظن فلولا أن الرجاء وحسن الظن من فواضل المقامات ماطلبه العلماء فى آخر الاوقات عند فراق العمر ولقاء المولى لتكون الخاتمة به وهم يسألون الله حسن الخاتمة طول الحياة ولذلك قيل ان الخوف أفضل مادام حيا فاذا حضر الموت فالرجاء أفضل وقد كان يحى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول فى مقامات الرجاء اذا كان توحيد ساعة يحبط ذنوب خمسين سنة فتوحيد خمسين سنة ماذا يصنع بالذنوب وقال أبو محمد سهل رضى الله عنه لا يصح الخوف الا لاهل الرجاء وقال مرة العلماء مقطوعون الا الخائفين والخائفون مقطوعون الا الراجين وكان يجعل الرجاء مقاما فى المحبة وهو عند العلماء أول مقامات المحبة ثم يعلو فى الحب على قدر ارتفاعه فى الرجاء وحسن الظن وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث فى الرجاء لا يصلح ذكرها لعموم الناس ولكن نذكر من ذلك ماظهر خلق الله تعالى لجهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله عز وجل به عباده الى الجنة وخبر آخر يقول الله تعالى انما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لاربح عليهم وفى حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ماخلق الله تعالى شيأ الا جعل له مايغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه والخبر المشهور ان الله تعالى كتب على نفسه قبل أن يخلق الخلق ان رحمتى تغلب غضبى والاخبار المشهورة عن معاذ بن جبل وأنس بن مالك رضى الله عنهما من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ومن كان آخر كلامه قول لا إله إلا الله لم تمسه النار ومن لقى الله تعالى لا يشرك به شيأ حرمت عليه النار ولا يدخل النار من فى قلبه وزن ذرة من ايمان وقد قال فى خبر آخر لو يعلم الكافر سعة رحمة الله تعالى ما أيس من رحمته وقد قال الله تعالى فى حسن عفوه عن أكبر الكبائر بعد ظهور الآيات ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وقال فى خطاب لطيف لاوليائه يعرفهم نفاذ أحكامه فيهم وجريان مشيئته عليهم فان زللتم من بعد ماجاءتكم البينات فاعلموا ان الله عزيز حكيم عزيز لا يوصل اليه الا به حكيم حكم بمشيئته على عباده ثم يغفر الذنوب جميعا فلا يبالى كما أجرى على من فضله على العالمين مقالة الكافرين فلم يضرهم مع تفضيله لهم اذ قالوا لموسى عليه السلام اجعل لنا الها كما لهم آلهة فقال أغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم على العالمين وبهذا المعنى عارض على كرم الله وجهه رأس الجالوت لما قال له لم تلبثوا بعد نبيكم عليه السلام الا ثلاثين سنة حتى ضرب بعضكم وجه بعض بالسيف فقال على كرم الله وجهه أنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما يفزعهم وينفرهم وقال فى حديث آخر بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا ولما وعظهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال لو تعلمون ماأعلم لضحكتم

قليلا ولبكيتم كثيرا الحديث فهبط جبريل عليه السلام فقال ان الله تعالى يقول لم تقنط عبادى فخرج اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجاهم وشوقهم ولما تلا الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الآية ان زلزلة الساعة شيء عظيم قال أتدرون أي يوم هذا يوم يقال لآدم عليه السلام قم فابعث نصيب النار من ذريتك فقال كم قيل من كل الف تسعمائة و تسعة و تسعين الى النار و واحد الى الجنة قال فبكوا يومهم ذلك وتركوا الأشغال و العمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما بالكم أنتم فى الأمم مثل شعرة بيضاء فى جلد ثور اسود و الخبر المشهور لو لم تذنبوا لخلق الله تعالى خلقا يذنبون ليغفر لهم و فى لفظ آخر لذهب بكم و جاء بقوم يذنبون فيغفر لهم انه هو الغفور الرحيم أى ان وصفه سبحانه وتعالى المغفرة و الرحمة فلابد أن يخلق مقتضى و صفه حتى يحق و صفه عليه هذا كما يقول فى علم المعرفة ان له سبحانه وتعالى من كل اسم وصفا و من كل وصف فعلا و فى هذا سر المعرفة و منه معرفة الخصوص وحكى لنا معناه عن ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه قال خلا لى الطواف ذات ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت فى الملتزم عند الباب فقلت يارب اعصمنى حتى لا أعصيك أبدا فهتف بى هاتف من البيت ياابراهيم أنت تسألنى العصمة وكل عبادى المؤمنين يطلبون ذلك فاذا عصمتهم فعلى من أتفضل ولمن أغفر وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول لولم يذنب المؤمن لكان يطير طيرا ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب وفى الخبر مثله لولم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو شر من الذنوب قيل وماهو قال العجب ولعمرى ان العجب من صفات النفس المتكبرة وهو يحبط الاعمال وهو من كبائر أعمال القلوب والذنوب من أخلاق النفس الشهوانية ولان يبتلى العبد الشهوانى بعشر شهوات من شهوات النفس خير له من أن يبتلى بصفة من صفات النفس مثل الكبر والعجب والبغى والحسد وحب المدح وطلب الذكر لان هذه منها معانى صفات الربوبية ومنها أخلاق الابالسة وبها هلك ابليس وشهوات النفس من وصف الخلقة وبها عصى آدم ربه فاجتباه بعدها وتاب عليه وهدى وقد قال بشر بن الحرث سكون النفس الى المدح أضر عليها من المعاصى ورأى يوسف بن الحسين مخنثا فأعرض عنه ازراء عليه فالتفت اليه المخنث وقال وأنت أيضا يكفيك مابك ففزع من قوله فقال وأى شيء تعلم قال لان عندك انك خير منى فاعترف يوسف بقوله فتاب واستغفر وكان بعض الراجين من العارفين اذا تلا هذه الآية آية الدين التى فى سورة البقرة يسر بذلك و يستبشر لها و يعظم رجاؤه عندها فقيل له فى ذلك انها ليس فيها رجاء ولا ما يوجب الاستبشار فقال بلى فيها رجاء عظيم قيل وكيف ذلك فقال ان الدنيا كلها قليل ورزق الانسان فيها قليل من قليل وهذا الدين من رزقه قليل ثم ان الله تبارك وتعالى احتاط فى ذلك ورفق النظر لى بان وكد دينى بالشهود والكتاب وأنزل فيه أطول آية فى كتابه

ولو فاتنى ذلك لم أبال به فكيف يكون فعله بى فى الآخرة التى لاعوض لى من نفسى فيها ، وكذلك كان بعض الراجين يفهم من قوله تعالى اذا تلا وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون يرجو من ذلك بوادى الجود والكرم والاحسان بما لم يحسبه فى الدنيا قط وقد كان الجنيد رحمه الله يقول ان بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين وعلى ذلك جاء فى الخبر ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد حتى ان ابليس يتطاول لرجاء أن تصيبه وفى الخبر ان لله تعالى تسعا وتسعين رحمة أظهر منها فى الدنيا رحمة واحدة بها يتراحم الخلائق فتحن الوالدة الى ولدها وتعطف البهيمة على ولدها فاذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة الى تلك التسعة والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والأرضين قال فلا يهلك على الله تعالى الا هالك وقد قال بعض العلماء ان الله تعالى اذا غفر لعبد فى موقف القيامة ذنبا غفر ذلك الذنب لكل من عمله وقال النبى صلى الله عليه وسلم اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحداً لن ينجيه عمله وفى الحديث الآخر مامنكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدنى الله تعالى برحمة وفضل وروى عنه صلى الله عليه وسلم انى اختبأت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى وفى لفظ آخر أترونها للمصفين المتقين بل هى للمخلصين المتلوثين وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ وأبى موسى رضى الله عنهما وقد بعثهما واليين على اليمن فأوصاهما فيما أمرهما به فقال يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا فعلم المؤمنين بكرم الله تعالى وخفى لطفه ولطيف منه لايقعدهم عن تأميله ولا يقصر بهم عن رجائه ولا حسن ظنهم به ولا يقوى الخوف فيخرجهم الى الاياس من رحمته لاجل علمهم بجبريته وكبريائه من قبل أن المهوب هو المحبوب فحبته تؤنسهم وترجيهم وهيبته تزعجهم وتخيفهم تخوفهم فى المهابة فى لذاذة ونعيمهم بالحب فى مهابة فهم فى مقام الخوف والمحبة معتدلون وبقوة العلم بهما متمكنون وفى مشاهدة المخوف والمحبوب مستقيمون وهذا المقام هو وصف العارفين من الموقنين وهم أهل كمال الايمان وصفوة خصوص ذوى الايقان اذ قد عرفوا أن الله تبارك وتعالى كامل فى صفاته لا يعتريه نقصان فى وصف دون وصف وانما الرحمة لسعة العلم كما العلم لسعة القدرة لما شهدوا من وصفه بما سمعوا من كلامه انه كان عليما قديرا كذلك قال تعالى وسعت كل شيء رحمة وعلما وكذلك فهموا من قوله تعالى ورحمتى وسعت كل شيء فدخلت جهنم وغيرها فى توسعة الرحمة من حيث كن شيأ وقوله عز وجل فسأكتبها للذين يتقون معناه خصوص الرحمة وصفها لا كنهها اذ لانهاية للرحمة لانها صفة الراحم الذى لاحد له ولانه لم يخرج من رحمته شيء كما لم يخرج من حكمته وقدرته شيء لان جهنم والنار الكبرى وغيرهما ليس كنه عذابه ولا كلية تعذيبه فمن ظن ذلك به لم يعرفه ولانه

لما أظهر من عذابه مقدار طاقة الخلق كما انه أظهر من ملكه ونعمه مقدارمصالح الخلق ومالا يصلح للخلق ولايطيقون اظهاره أكثر مما أظهر من النعيم والعذاب بل لا ينبغي لهم أن يعرفوا فوق ماأبدى لان نهاية تعذيبه وتنعيمه من نهاية ملكه الذى هو قائم به وملكه عن غاية قدرته وسلطانه ولا نهاية لذلك ولا يطيق الخلق كله اظهار ذلك وذلك أيضا عن تعالى صفاته وبهاء أسمائه المتناهيات ولاسبيل الى كشف ذلك من الغيوب فسبحان من لانهاية لقدرته ولاحد لعظمته ولاأمد لسلطانه وكذلك شهدوا ماسمعوا من قوله عزوجل انه كان حليما غفورا وكان الله عليما حليما فعلموا ان المغفرة على سعة الحلم كما ان الحلم سعة العلم فلما رأوا عظيم حلمه رجوا عظيم مغفرته ولما شهدوا كشيف ستره أملوا جميل عفوه وكذلك يقال ان حملة العرش يتجاوبون بأصوات سبحانك على حلمك بعد علمك سبحانك على عفوك بعد قدرتك فللراجين من العارفين فهوم من السمع للكلام نحو علو نظرهم عن سمو علومهم بمعانى الصفات وكل صاحب مقام يشهد من مقامه ويسمع من حيث شهادته فأعلاهم شهادة الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون ثم خصوص المؤمنين فبه تبارك وتعالى استدلوا عليه ومنه اليه نظروا هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون وكان سهل رضى الله عنه يقول المحسن يعيش فى سعة الرحمة والمسىء يعيش فى سعة الحلم وصفاته تبارك وتعالى كاملات فمن شهد ترجيح بعضها على بعض دخل عليه النقص من مشاهدته لقصور علمه عن تمام علم من فوقه من الشهداء ولاجل مقامه المرادبه دون طريق الصديقين من الأقوياء فعاد ذلك على العبد فصار ذلك مقاما له فى القرب والبعد تعالى وصف المشهود عن النقصان و الحد ومثل الرجاء من الخوف مثل الرخصة فى الدين من العزائم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه و فى لفظ آخر أبلغ من هذا وأوكد ان الله يحب أن يقبل رخصه كما يكره أن يؤتى معاصيه وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق و لا تبغض الى نفسك عبادة الله تعالى وخير الدين أيسره وقال هلك المتعمقون هلك المتنطعون وقال عليه الصلاة و السلام بعثت بالحنيفية السهلة السمحة وقال صلى الله عليه وسلم أحب أن يعلم أهل الكتاب ان فى ديننا سماحة و قال الله عز وجل ويضع عنهم إصرهم و الأغلال التى كانت عليهم واستجاب للمؤمنين فى قولهم ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا فقال عز و جل قد فعلت فهذه العلوم هى أسباب قوة الرجاء فى أولى الألباب كيف وقد جاء مايغلب حكم الرجاء من غير اغترار ماروى عن الله تعالى أنا الى الرحمة و العفو أقرب منى الى العقوبة وفى الخبر اذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما يفزعهم ويشق عليهم و فى كلام لعلى رضى الله عنه انما العالم الذى لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم مكر الله تعالى وأوحى

الله سبحانه و تعالى الى داود عليه السلام مالك وحدانيا قال عاديت الخلق فيك قال أما علمت أن محبتي أن تعطف على عبادي وتأخذ عليهم بالفضل هنالك أكتبك من أوليائي وأحبابي و لا تنظر الى عبيدي نظرة جفاء و لا قسوة فاذا أنت قد أبطلت أجرك فاحفظ عني ثلاثا خالص حبيبي مخالصة وخالف أهل الدنيا مخالفة ودينك فقلدنيه وعن داود وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحبني وأحب من يحبني وحببني الى خلقي قال يارب هذا أحبك وأحب من يحبك فكيف أحبك الى خلقك فقال عز وجل اذكرني بالحسن الجميل و اذكر آلائي واحساني و ذكرهم ذلك فانهم لايعرفون مني الا الجميل وروى عن يزيد الرقاشي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ألا أخبركم عن أقوام ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمنازلهم من الله تعالى على منابر من نور يعرفون عليها قالوا من هم قال الذين يحببون عباد الله الى الله تعالى ويحببون الله عز وجل الى عباده ويمشون فى الأرض نصحاء فقلنا هذا حببوا الله الى عباده فكيف يحببون عباد الله الى الله قال يأمرونهم بما يحب الله وينهونهم عما حرم الله فاذا أطاعوهم أحبهم الله و رؤى أبان بن عياش فى النوم بعد موته وكان من أكثر الناس حديثا بالرخص وأبواب الرجاء فقال أوقفني ربي عز وجل بين يديه فقال ما حملك على ان حدثت عنى بما حدثت به من الرخص قال فقلت يارب أردت أن أحببك الى خلقك قال قد غفرت لك وحدثت عن مالك بن دينار انه لقي أبان فقال الى كم تحدث للناس بالرخص فقال ياأبا يحيى انى لأرجو أن ترى من عفو الله تعالى يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح وفى حديث ربعي بن حراش عن أخيه وكان من خيار التابعين وهو ممن تكلم بعد الموت قال لما مات أخي سجي بثوبه وألقيناه على نعشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا وقال انى لقيت ربي عزوجل فحياني بروح و ريحان ورب غير غضبان وانى رأيت الأمر أيسر مما تظنون ولا تغتروا فان محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرني وأصحابه حتى أرجع اليهم قال ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت فى طست فحملناه فدفناه وقال بكر بن سليمان دخلنا على مالك رحمه الله تعالى فى العشية التى قبض فيها فقلنا كيف تجدك قال ما أدرى ما أقول لكم الا أنكم ستعاينون غدا من عفو الله تعالى ما لم يكن لكم فى حساب قال فما برحنا حتى أغمضناه ودفناه ورؤى يحيى بن أكثم فى النوم فقيل ما فعل الله تعالى بك فقال أوقفني بين يديه وقال يا شيخ السوء فعلت وفعلت قال فأخذني من الرعب والفزع مايعلم الله تعالى ثم قلت يارب ما هكذا حدثت عنك فقال وما حدثت عني فقلت حدثنا عبدالرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس بن مالك عن نبيك صلى الله عليه وسلم عنك انك قلت تباركت وتعاليت أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء وقد كنت أظن بك أن لاتعذبني فقال عزوجل صدق نبيي وصدق أنس وصدق الزهري وصدق معمر

وصدق عبد الرزاق وصدقت قال فخلفت وخلع علي وألبست ومشى بين يدى الولدان الى الجنة فقلت يالهامن فرحة وفى الخبر أن رجلامن بنى اسرائيل كان يشدد على الناس ويقنطهم من رحمة الله تعالى فيقول الله تعالى له يوم القيامة اليوم اؤيسك من رحمتى كما كنت تقنط عبادى منها وفى الحديث ان رجلين تواخيا فى الله تعالى من بنى اسرائيل فكان أحدهما عابدا والآخر مسرفا على نفسه فكان هذا العابد ينهاه ويزجره فيقول له دعنى وربى أبعثت على رقيبا حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال لايغفر الله لك قال فيقول الله تعالى له يوم القيامة أتستطيع أن تحظر رحمتى على عبادى اذهب فقد غفرت لك ثم قال للعابد وأنت فقد أوجبت لك النار قال فوالذى نفسى بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته وروينا فى معناه أن لصا كان يقطع الطريق أربعين سنة فى بنى اسرائيل فمر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بنى اسرائيل من الحواريين فقال اللص فى نفسه هذا نبى الله يمر والى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثا قال فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحوارى ويزدرى نفسه تعظيما للحوارى ويقول فى نفسه مثلى لايمشى الى جنب هذا العابد قال وأحس به الحوارى فقال فى نفسه هذا يمشى الى جانبى قال فضم نفسه وتقدم الى عيسى عليه السلام فمشى الى جانبه فبقى اللص خلفه قال فأوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام قل لهما يستأنفان العمل فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما أما الحوارى فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه وأما الآخر فقد أحبطت سيآته بما ازدرى على نفسه قال فاخبرهما بذلك وضم اللص اليه فى سياحته وجعله من حواريه وروينا عن مسروق بن الاجدع ان نبيا من الأنبياء كان ساجدا فوطىء بعض العتاة على عنقه حتى ألزق الحصى بجبهته قال فرفع النبى صلى الله عليه وسلم رأسه مغضبا فقال اذهب فلن يغفر الله لك قال فأوحى الله تعالى اليه تتألى على فى عبادى انى قد غفرت له قال ابن عباس رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقنت يدعو على المشركين ويلعنهم فى صلاته فنزلت ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم الى قوله ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم قال فترك الدعاء عليهم قال فهدى الله تعالى عامة أولئك الى الاسلام والأخبار فيما يوجب الرجاء وحسن الظن أكثر من أن تجمع ولم نقصد جمعها وانما دللنا بقليل على كثير ونبهنا عقول ذوى التبصير وقد قال الله سبحانه وتعالى يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم فنبه العبد مع غرته على كرمه وذكره مع جهله حسن تسويته اياه بتعديله يدل على نعمته وروينا عن الضحاك ان العبد ليدنو من ربه تبارك وتعالى عند العرش فيقول عبدى أتحصى عملك فيقول الهى كيف أحصيه من دونك وأنت الحافظ للاشياء فيذكره الله تعالى جميع ذنوبه فى الدنيا فى ساعاتها فيقول أنت عبدى فقر بما عرفتك وذكرتك فيقول نعم سيدى فيقول الله سبحانه

أنا الذى سترتها عليك فى الدنيا فلم أجعل للذنوب رائحة توجد منك ولم أجعل فى وجهك شينها وأنا أغفرها لك اليوم على ما كان منك بايمانك بى وتصديقك المرسلين وروينا عن محمد بن الحنفية عن أبيه على كرم الله وجهه قال لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصفح الصفح الجميل قال ياجبريل وما الصفح الجميل قال يامحمد اذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياجبريل فالله مع كرمه تعالى أولى أن لا يعاتب من عفا عنه قال فبكى جبريل وبكى النبى صلى الله عليه وسلم فبعث الله عز وجل اليهما ميكائيل فقال ان ربكما يقرئكما السلام ويقول لكما كيف اعاتب من عفوت عنه هذا مالا يشبه كرمى ومن الرجاء شدة الشوق الى ما شوق اليه الكريم وسرعة التنافس فى كل نفيس ندب اليه الرحيم فأما الرجاء الذى هو همة جملة الناس من الاقامة فى المعاصى والانهماك فى الخطايا وهو يرجو المغفرة وينتظر الكرامة فليس هذا برجاء عند العلماء لأن الرجاء مقام من اليقين وليس هذا وصف الموقنين لأن هذا اسمه هو اغترار بالله تعالى وغفلة عن الله تعالى وجهل بأحكام الله تعالى وقد تهدد الله تعالى قوما ظنوا مثل هذا وأصروا على حب الدنيا والرضا بها وتمنوا المغفرة على ذلك فسماهم خلفا والخلف الردىء من الناس وتوعدهم بشديد البأس فى قوله عز وجل فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا والاخبار فى حقيقة الرجاء تزيد المغترين اغترارا وتزيد المستدرجين بالستر والنعيم خسارا وهى مزيد للتوابين الصادقين وقرة عين المحبين المخلصين وسرور لأهل الكرم والحياء وروح ارتياح لذوى العصمة والوفاء ينتفع به ويشتد عنده حياؤه ويروح به كروبهم وترتاح اليه عقولهم فهؤلاء يستخرج منهم الرجاء وحسن الظن من العبادات مالا يستروحه الخوف اذ المخاوف تقطع عن أكثر المعاملات فصار الرجاء طريقا لأهله وصاروا راجين به كما قال عمر رضى الله عنه رحم الله صهيبا لو لم يخف الله تعالى لم يعصه أى يترك المعاصى للرجاء لا للخوف فصار الرجاء طريقه فهؤلاء هم الراجون حقا وهذه علامتهم ولمثل هذا ذكرنا الأسباب التى توجب الرجاء وتولد حسن الظن فى قلوب أهل الصفاء ومن الرجاء تحسين الاخلاق مع الخلق وجميل الصبر عليهم وحسن الصفح ولطيف المداراة لهم تقربا الى الله عز وجل بذلك وتخلقا باخلاقه رجاء ثوابه وطمعا فى تنجيز وعده واتباعا لسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن الرجاء ترك الاهواء الرديئة والشهوات المطغية ويحتسب فى ذلك على الله نفيس الذخائر العالية فقد روينا عن حميد عن أنس قال مقابل عرش الرحمن غرفة يرسل اليها جبريل عليه السلام فاذا انتهى اليها خر لله ساجدا ثم يقول يارب لمن خلقت هذه لاى نبى لأى صديق لأى شهيد قال فيرد عليه عز وجل لمن آثر هواى على هواه ومن الرجاء افتعال الطاعات وحسن الموافقات

ينوى بها ويسأل مولاه الكريم عظيم الرغائب وجليل المواهب لما وهب له من حسن الظن به كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم اذا سألتم الله تعالى فاعظموا الرغبة وسلوه الفردوس الاعلى فان الله عز وجل لا يتعاظمه شيء وفى حديث آخر فاكثروا وسلوا الدرجات العلى فانما تسألون جوادا كريما وفى الآثار ان رجلين كانا من العابدين متساويين فى العبادة فاذا دخلا الجنة رفع أحدهما فى الدرجات العلى على صاحبه فيقول الآخر يارب ماكان هذا فى الدنيا أكثر عبادة لك منى فرفعته على فى عليين فيقول الله سبحانه وتعالى انه كان يسألنى فى الدنيا الدرجات العلى وكنت أنت تسألنى النجاة من النار فأعطيت كل عبد سؤله وروينا فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رجلا يخرج من النار فيوقف بين يدى الله تعالى فيقول له كيف وجدت مكانك فيقول يارب شر مكان فيقول ردوه الى مكانه قال فيمشى ويلتفت الى ورائه فيقول الله عز وجل الى أى معنى تلفت فيقول له يارب قد رجوت أن لا تعيدنى اليها بعد اذ أخرجتنى منها فيقول تعالى اذهبوا به الى الجنة فقد صار الرجاء طريقة الى الجنة كما كان الخوف طريق صاحبه فى الدنيا اليها كما روينا ان الآخر سعى مبادرا الى النار لما قال ردوه فقيل له فى ذلك فقال لقد ذقت من وبال معصيتك فى الدنيا ماخفت من عذابه فى الآخرة فقيل اصرفوه الى الجنة وقال الله سبحانه فى وصف قوم أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه فطرق لاوليائه من القرب والوسيلة الرجاء كما طرق الخوف منه اليها وهذا أحد الوجهين فى الآية لمن لم يجعله وصفا للاصنام لأنها قرئت بالتاء تدعون قرأها طلحة بن مصرف فكذلك ندب المؤمنين الى طلب القرب منه فى قوله عزوجل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة فهذه جملة أحكام الرجاء وأوصاف الراجين فمن تحقق بجميعها فقد استحق درجات أهل الرجاء وهو عند الله تعالى من المقربين ومن كان فيه وصف من هذه الأوصاف فله مقام من الرجاء واعلم ان مقامات اليقين لا يزيل بعضها بعضا ولكن يندرج بعضها فى بعض فمن غلب عليه حال مشاهدته وصف بما غلب عليه واستمر بما سوى ذلك من المقامات فيه ومن عمل بشرط مقام منها وقام بحكم الله تعالى فيه نقل الى ما سواه وكان المقام الاول له علما والثانى الذى أقيم فيه له وجدا فكتم الوجد لانه سره وعبر عن العلم لانه قد جاوزه فصار له علانية ومقام الرجاء هو جند من جنود الله عز وجل يستخرج من بعض العباد مالا يستخرج غيره لان بعض القلوب تلين وتستجيب عن مشاهدة الكرم والاحسان وتقبل وتطمئن بمعاملة النعم والاحسان مالا يوجد ذلك منها عند التخويف والترهيب بل قد يقطعها ذلك ويوحشها اذ قد جعل الرجاء طريقها فوجدت فيه قلوبها ومثل الرجاء فى الاحوال مثل العوافى والغنى فى الانسان من الناس من يقبل قلبه

ويجتمع همه عندهما و يو جد نشاطه وتحسن معاملته بهما كما روينا عن الله سبحانه وتعالى انه من عبادى من لا يصلحه الا الغنى و لو أفقرته لافسده ذلك ومن عبادى من لا يصلحه الا الصحة ولو أسقمته لافسده ذلك انى أدبر عبادى بعلمى انى بهم خبير فكذلك من عبادى من لا يصلحه الا الرجاء ولا يستقيم قلبه الا عليه ولا تحسن معاملته الا بوجود حسن الظن فهو طريقه اليه ومقامه منه ومنه عمله به وعنده يجد قلبه معه الا أنه وان كان طريقا يخرج الى الله عز وجل فان الخوف أقرب منه وما كان أقرب فهو أعلى كما أن الغنى والعوافى طريقان الى الله تعالى الا أن الفقر والبلاء عندى أقرب منهما وأعلى والله غالب على أمره وقد روينا عن معمر عن الحسن انه قال انما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم فأما المؤمن فأحسن بالله الظن وأحسن العمل وأما الكافر والمنافق فأساء بالله الظن ولكن أكثر الناس لا يعلمون

شرح مقام الخوف ووصف الخائفين وهو الخامس من مقامات اليقين

قال الله عز وجل وما يعقلها الا العالمون فرفع العلم على العقل وجعله مقاما فيه وقد قال سبحانه وتعالى انما يخشى الله من عباده العلماء فجعل الخشية مقاما فى العلم حققه بها والخشية حال من مقام الخوف والخوف اسم لحقيقة التقوى والتقوى معنى جامع للعبادة وهى رحمة الله تعالى للاولين والآخرين ينظم هذين المعنيين قوله تعالى ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون وقوله تعالى ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله وهذه الآية قطب القرآن مداره عليها والتقوى سبب أضافه تعالى اليه تشريفا له ومعنى وصله به واكرم عباده عليه تعظيما له فقال لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وقال ان أكرمكم عند الله أتقاكم وفى الخبر اذا جمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم يقول ياأيها الناس انى قد انصت لكم منذ خلقتكم الى يومكم هذا فأنصتوا الى اليوم فانما هى أعمالكم ترد عليكم أيها الناس انى جعلت نسبا وجعلتم نسبا فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم قلت ان أكرمكم عند الله أتقاكم وأبيتم الا فلان ابن فلان أغنى من فلان فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي أين المتقون قال فينصب للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم الى منازلهم فيدخلهم الجنة بغير حساب والخوف حال من مقام العلم وقد جمع الله تعالى للخائفين ما فرقه على المؤمنين وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهذه جمل مقامات أهل الجنان فقال تعالى هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون وقال انما يخشى الله من عباده العلماء وقال جل ذكره رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى به وفى خبر موسى عليه السلام وأما الخائفون فلهم الرفيق الاعلى لا يشاركون فيه فافردهم من غير مشاركة

بالرفيق الاعلى كما حققهم اليوم بشهادة التصديق وهذا مقام من النبوة فهم مع الانبياء فى المزية من قبل انهم ورثة الانبياء لانهم هم العلماء قال تعالى فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ثم قال تعالى فى وصف منازلهم وحسن أولئك رفيقا بمعنى رفقا عبر عن جماعتهم بالواحد لانهم كانوا كانهم واحد وقد يكون رفيقا مقاما فى الجنة من أعلى عليين لقول الرسول صلى الله عليه وسلم عند الموت وقد خير بين البقاء فى الدنيا و بين القدوم على الله تعالى فقال اسألك الرفيق الاعلى وفى خبر موسى عليه السلام فاولئك لهم الرفيق الاعلى فدل انهم مع الانبياء بتفسير النبي صلى الله عليه وسلم لذلك وشرف مقامهم فوق كل مقام لطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فالخوف اسم جامع لحقيقة الايمان وهو علم الوجود والايقان وهو سبب اجتناب كل نهى ومفتاح كل أمر وليس شيء يحرق شهوات النفوس فيزيل آثار آفاتها الا مقام الخوف وقال أبو محمد سهل رحمه الله تعالى كمال الايمان العلم وكمال العلم الخوف وقال مرة العلم كسب الايمان والخوف كسب المعرفة وقال أبو الفيض المصرى لا يسقى المحب كاس المحبة الا من بعد أن ينضج الخوف قلبه وقال خوف النار عند خوف الفراق بمنزلة قطرة قطرت فى بحر لجى وكل مؤمن بالله تعالى خائف منه ولكن خوفه على قدر قربه فخوف الاسلام اعتقاد العزة والجبرية لله تعالى وتسليم القدرة والسطوة له والتصديق لما أخبر به من عذابه وما تهدد به من عقابه وقال الفضيل بن عياض اذا قيل لك تخاف الله فاسكت لانك ان قلت لا كفرت وان قلت نعم فليس وصفك وصف من يخاف وشكا واعظ الى بعض الحكماء فقال ألا ترى الى هؤلاء أعظهم واذكرهم فلا يرقون فقال وكيف تنفع الموعظة من لم يكن فى قلبه لله تعالى مخافة وقد قال الله تعالى فى تصديق ذلك سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى أى يتجنب التذكرة الشقى فجعل من عدم الخوف شقيا وحرمه التذكرة فخوف عموم المؤمنين بظاهر القلب عن باطن العلم بالعقد وخوف خصوصهم وهم الموقنون بباطن القلب عن باطن العلم بالوجد فأما خوف اليقين فهو للصديقين من شهداء العارفين عن مشاهدة ما آمن به من الصفات المخوفة وقد جاء فى خبر اذا دخل العبد فى قبره لم يبق شيء كان يخافه دون الله عز وجل الامثل له يفزعه ويرعبه الى يوم القيامة فاول خوف اليقين الموصوف الذى هو نعت الموصوفين من المؤمنين المحاسبة للنفس فى كل وقت والمراقبة للرب فى كل حين والورع عن الاقدام على الشبهات من كل شيء من العلوم بغير يقين بها ومن الأعمال بغير فقه فيها وفى خبر موسى عليه السلام وأما الورعون فانه لا يبقى أحد الا ناقشته بالحساب وفتشته عما فى يديه الا الورعين فانى استحييهم وأجلهم ان أوقفهم للحساب فالورع حال من الخوف ثم كف الجوارح عن الشبهات وفضول الحلال من كل شيء بخشوع قلب ووجود اخبات

وقال على كرم الله وجهه ومن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ثم سجن اللسان وخزن الكلام لئلا يدخل فى دين الله عز وجل ولا فى العلم ما لم يشرعه الله فى كتابه أو لم يذكره رسوله صلى الله عليه وسلم فى سنته أو لم ينطق به الأئمة من السلف فى سيرهم مما لم يكن أصله موجودا فى الكتاب والسنة وتسميته واضحة فى العلم فيجتنب ذلك كله ولا تقف ما ليس لك به علم خوفا من المسائلة ولا يدخل فيه لدقيق هوى يدخل عليه ولا لعظيم حظ دنيا يدخل فيه وان ينصح نفسه لله تعالى لانها أولى الخلق ثم ينصح الخلق فى الله تعالى فيبتدىء بالنصح فى أمور الدين والآخرة ثم يعقبه فى أسباب الدنيا لأن أمور الآخرة أهم والغش فى الدين أعظم والتزود للمنقلب آثر رُوينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من غش أمتى فعليه لعنة الله قيل وما غش أمتك يارسول الله قال ان يبتدع لهم بدعة فيتبع عليها فاذا فعل ذلك فقد غشهم وثمرة الخوف العلم بالله عز وجل والحياء من الله عز وجل وهو أعلى سريرات أهل المزيد يستبين أحكام ذلك فى معنيين هما جملة العبدان يحفظ رأسه وما حواه من السمع والبصر واللسان وأن يحفظ بطنه وماوعاه وهو القلب والفرج واليد والرجل وهذا خوف العموم وهو أول الحياء فأما خوف الخصوص فهو أن لايجمع مالايأكل ولا يبنى مالا يسكن ولا يكاثر فيما عنه ينتقل ولا يغفل ولا يفرط عما اليه يرتحل وهذا هو الزهد وهو حياء مزيد أهل الحياء من تقوى أصحاب اليمين وقدروينا معنى ماذكرناه فى حديثين أحدهما عام والآخر خاص وكل من لم يستعمل قلبه فى بدايته ويجعل الخوف حشو ارادته لم ينجب فى خاتمته ولم يكن اماما للمتقين عند علو معرفته وأعلى الخوف أن يكون قلبه معلقا بخوف الخاتمة لا يسكن الى علم ولا عمل ولا يقطع على النجاة بشىء من العلوم وان علت ولا لسبب من اعماله وان جلت لعدم علمه تحقيق الخواتم فقد قيل انما يوزن من الاعمال خواتمها وعن النبى صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى يقال انه من أهل الجنة وفى خبر حتى ما يبقى بينه وبين الجنة الا شبر ثم يسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار ولا يتأتى فى هذا المقدار من الوقت شىء من عمل الجسم بالجوارح انما هو من أعمال القلوب بمشاهدة العقول وهو شرك التوحيد الذى لم يكن متحققا به وشك فى اليقين الذى لم يكن فى الحياة الدنيا مشاهدا له فظهر له بيان ذلك عند كشف الغطاء فغلب عليه وصفه وبدت فيه حاله كما يظهر له أعماله السيئة فيستحليها قلبه أو ينطق بها لسانه أو يخامرها وجده فتكون هى خاتمته التى تخرج عليها روحه وذلك فى سابقته التى سبقت له من الكتاب كما قال تعالى أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب تكون عند مفارقة الروح من الجسد وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص وقد جاء فى خبر حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا فواق

ناقة فيختم له بعمل أهل النار وهذا يكون عند بلوغ الروح التراقى وتكون النفس قد خرجت من جميع الجسد واجتمعت فى القلب الى الحلقوم فهذا هو شبر وفواق ناقة هو ما بين الحلبتين وقيل هو شوط من عدوها بين سيرين وهذا من تقلبات القلوب عند حقيقة وجهة التوحيد الى وجهة الضلال والشرك عند ما يبدو له من زوال عقل الدنيا وذهاب علم المعقول فيبدو له من الله ما لم يكن يحتسب وأكثر ما يقع سوء الخاتمة لثلاث طوائف من الناس أهل البدع والزيغ فى الدين لأن ايمانهم مرتبط بالمعقول فأول آية تظهر لهم من قدرة الله تعالى أن يطيح عقله عند شهودها فيذهب ايمانه ولا يثبت لمعاينتها كما تحترق الفتيلة فيسقط المصباح والطبقة الثانية أهل الكبر والانكار لآيات الله عز وجل وكراماته لاوليائه فى الحياة الدنيا لانهم لم يكن لهم يقين يحمل القدرة و يمده الايمان فيعتورهم الشك و يقوى عليهم لفقد اليقين والطبقة الثالثة ثلاثة أصناف متفرقون متفاوتون فى سوء الخاتمة وجميعهم دون تينك الطائفتين فى سوء الخاتمة لان سوء الختم على مقامات أيضا كمقامات اليقين والشرك فى عمر الحياة منهم المدعى المتظاهر الذى لم يزل الى نفسه وعمله ناظرا والفاسق المعلن والمصر المدمن يتصل بهم المعاصى الى آخر العمر و يدوم تقلبهم فيها الى كشف الغطاء فاذا رأوا الآيات تابوا الى الله تعالى بقلوبهم وقد انقطعت أعمال الجوارح فليس يتأتى منهم فلا تقبل توبتهم ولا تقال عثرتهم ولا ترحم عبرتهم وهم من أهل هذه الآية وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن فهم مقصودون بقوله عز وجل وحيل بينهم و بين ما يشتهون وهم معنيون بمعنى قوله تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده فنصوص الآية للكفار ومعناها ومقام منها لأهل الكبائر وذوى الأصرار من الفاسقين الزائغين من حيث اشتركوا فى سوء الخاتمة ثم تفاوتوا فى مقامات منها تظهر لهم شهوات معاصيهم و يعاد عليهم تذكرها لخلو قلبهم من الذكر والخوف حتى يختم لهم بشهادتها فهذه الاسباب تجلب الخوف وتقطع قلوب ذوى الألباب وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر وكذلك قال أبو يزيد رحمه الله تعالى قبله اذا توجهت الى المسجد كان فى وسطى زنار أخاف أن يذهب بى الى البيعة و بيت النار حتى أدخل المسجد فيقطع عنى الزنار فهذا لى فى كل يوم خمس مرات هذا لعلمهم بسرعة تقلب القلوب فى قدرة علام الغيوب وقد روينا معنى ذلك عن عيسى عليه السلام أنه قال يا معشر الحواريين أنتم تخافون المعاصى ونحن معشر الانبياء نخاف الكفر وروينا فى أخبار الانبياء أن نبيا شكا الى الله تعالى الجوع والقمل والعرى سنين فأوحى الله تعالى اليه أما رضيت ان عصمت قلبك أن تكفر بى حتى تسألنى الدنيا فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال بلى قد رضيت يارب فاعصمنى من الكفر

فلم يذكر له نعمته عليه بنبوته وعرضه للكفر وجوز دخوله عليه بعد النبوة فاعترف النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ورضى به واستعصم وقد كان عبد الواحد بن زيد امام الزاهدين قبلهما يقول ما صدق خائف قط ظن انه لا يدخل النار وما ظن أن يدخل النار الاخاف أن لا يخرج منها أبداوقد قال الحسن البصري رحمه الله تعالى امام العلماء قبلهم يخرج من النار رجل بعد ألف عام وياليتني ذلك الرجل هذا لشدة خوفه من الخلود فى الأبدية قال فبعد أن أخرج منها بوقت لاأبالى والعدو يدخل على العارفين من طريق الالحاد فى التوحيد والتشبيه فى اليقين والوسوسة فى صفات الذات ويدخل على المريدين من طريق الآفات والشهوات فلذلك كان خوف العارفين أعظم ومن قبل أن العدو يدخل على كل عبد من معنى همه فيشككه فى اليقين كما يزين له الشهوات فأرواحهم معلقة بالسابقة ماذا سبق لهم من الكلمة هناك مشاهدتهم ومن ثم فزعهم لا يدرون أسبق لهم قدم صدق عند ربهم فيختم لهم بمقعد صدق فيكونون ممن قال تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ويخافون أن يكونوا قد حقت عليهم الكلمة فيكونون ممن قال فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم يقول الله سبحانه وتعالى هؤلاء فى النار ولا أبالى فلا ينفعهم شفاعة شافع ولاينقذهم من النار دافع كما قال مولاهم الحق أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار وكقوله تعالى ولكن حق القول منى لأملأن جهنم فهذه الآية ومعناها تخويف لاولى الابصار وقال عالمنا رحمه الله فى قوله تعالى واياى فاتقون عموم أى فيما نهيت عنه وقوله تعالى واياى فارهبون أى فى السابقة وهذا خصوص وقد نوع بعض العارفين خوف المؤمنين على مقامين فقال قلوب الابرار معلقة بالخاتمة يقولون ليت شعرى ماذا يختم لنا به وقلوب المقربين معلقة بالسابقة يقولون ليت شعرى ماذا سبق لنا به وهذان المقامان عن مشاهدتين احداهما أعلى وأنفذ من الاخرى لحالين أحدهما أتم وأكمل فهذا كما قيل ذنوب المقربين حسنات الابرار أى مايرغب فيه الابرار فهو عندهم فضائل قد زهد فيه المقربون فهو عندهم حجاب ومن حقت عليه كلمة العذاب وسبق له من مولاه الختم بسوء الاكتساب لم ينفعه شىء فهو يعمل فى بطالة لاأجر له ولا عاقبة قد نظر اليه نظرة بعد فهو يزداد بأعماله بعدا من قبل أن سوء الخاتمة قد تكون فى وسط العمر فلا ينتظر بها آخره يوافق معصية تكون سببها كعند الخاتمة اذهما فى سبق العلم سواء فالخاتمة حينئذ فاتحة والوقتان واحد فاذا انقطعت الآجال وانتهت الأعمال تناهى فى الابعاد فحل فى دار البعد وقد روينا فى الخبر والله لا يقبل الله تعالى من مبتدع عملا انه رد على الله تعالى سننه فرد عليه عمله كلما ازداد اجتهادا ازداد من الله تعالى بعدا كما قال الحكيم

من غص داوى بشرب الماء غصته فكيف يصنع من قد غص بالماء
بل كيف يصنع من أقصاه مالكه فليس ينفعه طب الاطباء

وعن مشاهدة هذا المعنى كان خوف الحسن البصرى رحمه الله تعالى وحزنه لعلمه بأنه عز وجل لايبالى ما فعل نخاف أن يقع بوصف الجبرية فى ترك المبالاة وأن يجعله نكالا لاصحابه وموعظة لاهل طبقته يقال انه ما ضحك أربعين سنة وكنت اذا رأيته قاعدا كانه أسير قدم ليضرب عنقه واذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها واذا سكت كان النار تسعر بين عينيه وعوتب فى شدة حزنه فقال ما يؤمننى أن يكون قد اطلع على فى بعض ما يكره فمقتنى فقال اذهب فلا غفرت لك فأنا أعمل فى غير معمل فنحن أحق بهذا من الحسن رحمه الله ولكن ليس الخوف يكون لكثرة الذنوب فلو كان كذلك لكنا أكثر خوفا منه انما يكون لصفاء القلب وشدة التعظيم لله تعالى وقد بشر العلاء ابن زياد العدوى بالجنة وكان من العباد فغلق عليه بابه سبعا ولم يذق طعاما وجعل يبكى ويقول أنا أنا فى قصة طويلة حتى دخل عليه الحسن فجعل يعذله فى شدة خوفه وكثرة بكائه. فقال يا أخى من أهل الجنة ان شاء الله تعالى أقاتل نفسك فما ظنك برجل يعذله الحسن فى الخوف وقد كان من فوقهم من علية الصحابة يتمنون انهم لم يخلقوا بشرا وقد بشروا بالجنة يقينا فى غير خبر من ذلك قول أبى بكر رضى الله عنه ليتنى مثلك ياطير وانى لم أخلق بشرا وقول عمر رضى الله عنه وددت انى كنت كبشا ذبحنى أهلى لضيفهم وأبو ذر رضى الله عنه يقول وددت انى شجرة تعضد وطلحة والزبير رضى الله عنهما يقولان وددنا انا لم نخلق وعثمان رضى الله عنه يقول وددت انى اذا مت لا ابعث وعائشة رضى الله عنها تقول وددت انى كنت نسيا منسيا وابن مسعود رضى الله عنه تقول ليتنى انى أكون رمادا وفى رواية عنه ليتنى كنت بعرة ليتنى لم أك شيأ فى طبقة يكثر عددهم ونحن فى ارتكاب الكبائر ونحدث نفوسنا بالدرجات العلى والقرب من سدرة المنتهى ونسينا ان أبانا آدم صلوات الله عليه أخرج من الجنة بعد ان دخلها بذنب واحد ونحن لم نرها بعد فانما نضرب فى حديد بارد وروينا فى خبر أن رجلا من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيأ لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت فى سبيل الله تعالى فقال النبى صلى الله عليه وسلم وما يدريك فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره وفى حديث آخر بمثل هذه القصة انه دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع أمه تقول هنيأ لك الجنة فقال من هذه المتألية على الله عز وجل فقال الرجل هى أمى يارسول الله فقال وما يدريك لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه وروينا بمثل معنى هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى على طفل منفوس فى رواية انه سمع يقول له فى

دعائه اللهم قه عذاب القبر وعذاب جهنم وفى رواية ثانية انه سمع قائلة تقول هنيأ لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال ما يدريك انه كذلك والله انى رسول الله وما أدرى ما يصنع بى ان الله عز وجل خلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم وقد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الاول واستشهد لما قالت أم سلمة رضى الله عنها ذلك وكانت تقول والله لا أزكى أحدا بعد عثمان رضى الله عنه وأعجب من ذلك أنا روينا عن محمد بن الحنفية رضى الله عنه انه قال والله لا أزكى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبى الذى ولدنى قال فتكلمت الشيعة فأخذ يذكر من فضائل على كرم الله وجهه ومناقبه فهذه المعانى أحرقت قلوب الخائفين ولعل ذكر البعد فى الابعاد الذى شيب الحبيب القريب فى قوله صلى الله عليه وسلم شيبتنى هود وأخواتها سورة الواقعة واذا الشمس كورت وعم يتساءلون لان فى سورة هود ألا بعدا لثمود ألا بعدا لعاد قوم هود ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود وفى سورة الواقعة ليس لوقعتها كاذبة يعنى وقعت السابقة لمن سبقت له وحقت الحاقة بمن حقت عليه خافضة رافعة خفضت قوما فى الآخرة كانوا مرفوعين فى الدنيا حين ظهرت الحقائق وكشفت عواقب الخلائق وأما سورة التكوير ففيها خواتم المصير وهى صفة القيامة لمن أيقن وفيها تجلى معانى الغضب لمن عاين آخر ذلك واذا الجحيم سعرت واذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت هذا فصل الخطاب أى عند تسعير النيران واقتراب الجنان حينئذ يتبين للنفس ما أحضرت من شر يصلح له الجحيم أو خير يصلح له النعيم وتعلم اذ ذاك من أى أهل الدارين تكون وفى أى المنزلين تحل فكم من قلوب قد تقطعت حسرات على الابعاد من الجنان بعد اقترابها وكم من نفوس تصاعدت زفرات عن يقينها بمعاينة النيران انها تصيبها وكم من أبصار ذليلة خاشعة لمشاهدة الأهوال وكم من عقول طائشة لمعاينة الزلزال وحدثنا عن أبى محمد سهل رحمه الله تعالى قال رأيت كأنى أدخل الجنة فلقيت فيها ثلثمائة نبى فسألتهم ما أخوف ما كنتم تخافون فى الدنيا فقالوا لى سوء الخاتمة فالخاتمة هى من مكر الله تعالى الذى لا يوصف ولا يفطن له ولا عليه يوقف ولا نهاية لمكره لان مشيئته وأحكامه لا غاية لها ومن ذلك الخبر المشهور أن النبى صلى الله عليه وسلم وجبريل بكيا خوفا من الله تعالى فأوحى الله اليهما لم تبكيان وقد أمنتكما فقالا ومن يأمن مكرك فلولا انهما علما ان مكره لا نهاية له لان حكمه لا غاية له لم يقولا ومن يأمن مكرك مع قوله قد أمنتكما ولكان قد انتهى مكره بقوله ولكانا قد وقفا على آخر مكره ولكن خافا من بقية المكر الذى هو غيب عنهما وعلما انهما لا يقفان على غيب الله تعالى اذ هو علام الغيوب فلا نهاية للعلام فى علم ولا غاية للغيوب بوصف فلم يحكم عليهما القول

لعنايته بهما وفضل نظره اليهما ولانهما على مزيد من معرفة الصفات اذ المكر عن الوصف واظهار القول لا يقضى على باطن الوصف فكأنهما خافا أن يكون قوله تعالى قد أمنتكما مكرى مكرا منه أيضا بالقول على وصف مخصوص عن حكمة قد استأثر بعلمها يختبر بذلك حالهما وينظر كيف يعملان تعبدا منه لهما به اذ الابتلاء وصفه من قبل أن المبتلى اسمه فلا يترك مقتضى وصفه لتحقق اسمه ولا تبدل سنته التى قد خلت فى عباده كما اختبر خليله عليه السلام لما هوى به المنجنيق فى الهواء فقال حسبي الله ربى فعارضه جبريل عليه السلام فقال ألك حاجة قال لا وفاء بقوله حسبي الله فصدق القول بالعمل فقال الله تعالى وابراهيم الذى وفى أى بقوله حسبي الله ولان الله تعالى لا يدخل تحت الأحكام ولا يلزمه ما حكم به على الأنام ولا يختبر صدقه سبحانه وتعالى ولا يجوز أن يوصف بضد الصدق وان بدل الكلم هو بتبديل منه لان كلامه قائم به فله أن يبدل به ما شاء وهو الصادق فى الكلامين العادل فى الحكمين الحاكم فى الحالين لانه لاحاكم عليه ولاحكم يلزمه فيه لانه قد جاوز العلوم والعقول التى هى أماكن للحدود من الأمر والنهى وفات الرسوم والمعقول التى هى أواسط الأحكام والاقدار وفى مشاهدة ما ذكرناه علم دقيق من علوم التوحيد ومقام رفيع من أحوال التوحيد وبمثل هذا المعنى وصف صفيه موسى فى قوله تعالى فأوجس فى نفسه خيفة موسى بعد قوله تعالى لا تخافا اننى معكما الآية فلم يأمن موسى أن يكون قد أسر عنه فى غيبه واستثنى فى نفسه سبحانه ما لم يظهره له فى القول لمعرفة موسى عليه السلام بخفى المكر وباطن الوصف ولعله أنه لم يعطه الحكم اذ هو محكوم عليه مقهور فخاف خوفا ثانيا حتى أمنه أمنا ثانيا بحكم ثان فقال لا تخف انك أنت الأعلى فاطمأن الى القائل ولم يسكن الى الاظهار الأول لعلمه بسعة علمه انه هو علام الغيوب التى لا نهاية لها ولان القول أحكام والحاكم لا تحكم عليه الاحكام كما لا تعود عليه الاحكام وانما تفصل الاحكام من الحاكم العلام ثم تعود على المحكومات أبدا ولانه جلت قدرته لا يلزمه ما لزم الخلق الذين هم تحت الحكم ولا يدخل تحت معيار العقل والعلم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا عند من عرفه فأجله وعظمه عن معارف من جهله ومن هذا قول عيسى عليه السلام ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولاأعلم مافى نفسك لما قال له أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ومثل هذا قوله فى يوم القيامة ان تعذبهم فانهم عبادك الآية فجعلهم فى مشيئته لعزته وحكمته ولا يصلح أن نكشف حقيقة ما فصلناه فى كتاب ولا ينبغى أن نرسم ما رمزناه من الخطاب خشية الانكار وكراهة تفاوت علم أهل المعقول والمعيار الا أن يسأل عنه من أقيم فيه وأريد به من ذوى القوة والابصار فينقل من قلب الى قلب فحينئذ يتلوه شاهد منه أو يكشفه علام الغيوب فى سرائر القلوب بوحي الالهام ويقذفه بنور الهدى

للاعلام والله الموفق لمن شاء من العباد لما شاء من الحيطة بالعلم وهو الفتاح العليم اذا فتح القلب علمه واذا نوره باليقين ألهمه ومن خوف العارفين علمهم بأن الله تعالى يخوف عباده بمن شاء من عباده الاعلين بجعلهم نكالا للادنين وتخوف العموم من خلقه بالتنكيل ببعض الخصوص من عباده حكمة له وحكما منه فعند الخائفين فى علمهم ان الله تعالى قد أخرج طائفة من الصالحين نكالا خوف بهم المؤمنين ونكل طائفة من الشهداء خوف بهم الصالحين وأخرج جماعة من الصديقين خوف بهم الشهداء والله تعالى أعلم بما وراء ذلك وقد أخرج جماعة من الملائكة وعظ بهم النبيين وخوف بهم الملائكة المقربين فصار من أهل كل مقام عبرة لمن دونهم وموعظة لمن فوقهم وتخويفا وتهديدا لاولى الابصار وهذا داخل فى بعض تفسير قوله عز وجل آتيناه آياتنا فانسلخ منها قال بعض أهل التفسير فى أخبار بلعم بن باعوراء انه أوتى النبوة والمشهور أنه أوتى الاسم الاكبر فكان سبب هلاكه وهو مقتضى وصف من أوصافه وهو ترك المبالاة بما أظهر من العلوم والاعمال فلم يسكن عند ذلك أحد من أهل المقامات فى مقام ولا نظر أحد وأهل الاحوال الى حال ولا أمن مكر الله تعالى عالم به فى كل حال كيف وقد سمعوه تبارك وتعالى يقول ان عذاب ربهم غير مأمون فأجهل الناس من أمن غير مأمون وأعلمهم من خاف فى الامن حتى يخرج من دار الخوف الى مقام أمين وهذا خوف لا يقوم له شىء وكرب لا يوازيه مقام ولا عمل لولا ان الله تعالى عدله بالرجاء لاخرج الى القنوط ولولا انه روحه بروح الانس بحسن الظن لادخل فى الاياس ولكن اذا كان هو المعدل وهو المروح كيف لا يعتدل الخوف والرجاء ولا يمتزج الكرب بالروح والرضا حكمة بالغة وحكم نافذ لعلم سابق وقدر جار ما شاء الله تعالى لاقوة الا بالله وفى شهود ماذكرناه علم عن مشاهدة توحيد لمن أشهده فأقل ما يفيد علم هذا الخائفين ترك النظر الى أعمالهم ورفع السكون الى علومهم وصدق الافتقار فى كل حال ودوام الانقطاع بكل هم والازراء على النفس فى كل وصف وهذه مقامات لقوم فيكون هذا الخوف سبب نجاتهم من هذه الوقائع اذ قد جعل الله تعالى التخويف أمنة من الاخذ بالمفاجاة وسببا للرأفة والرحمة لمن ألبسه اياه وهو أحد الوجهين فى قوله تعالى أفأمن الذين مكروا السيآت أن يخسف الله بهم الارض الآية ثم قال تعالى أو يأخذهم على تخوف فان ربكم لرؤف رحيم وليس يصلح أيضا أن نكشف سر المخاوف من الخاتمة والسابقة لان ذلك يكون عن حقائق معانى الصفات التى ظهرت عن حقيقة الذات فأظهرت بدائع الأفعال وغرائب المآل واعادت الاحكام على من أظهر بها وجعل لها ممن حقت عليه الكلمات وجعل نصيبه من معانى هذه السريرة من الصفات فيؤدى ذلك منا الى كشف باطن الأوصاف وهذا غير مأمور به ولا مأذون فيه لانه لا يجب فلم يؤمر به ولأنه لم يبح فلم يؤذن فيه وهو من سر القدر وقد نهى عن

افشائه فى غير خبر ولو لم يطلع الأولياء عليه لما قيل فلا تفشوه فان أقام الله تعالى عبدا مقام هذه المشاهدة أغناه بالمعاينة عن الخبر وآنسه بالمحادثة عن الأثر وذلك هو العلم النافع الذى يكون العلام معلمه وذلك هو الاثر اللازم الذى يكون الجاعل مؤثره ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه فالكتب الذى لا يمحى ما كان من نوره والعين التى لا تخفى لانها بحضوره والنور الذى لا يطفأ لانه من روحه والروح الذى لا كرب فيه لانه من ريحانه والمدد الذى لا ينقطع فمن روحه وقد كتب وأيد وكل كتاب بيد مخلوق فغير محفوظ وقد يضيع وكل أيد بغير روحه فمقطوع وما كتبه الصانع بصنعه فى قلب حفيظ فمثبت عتيد وقد روينا عن زيد بن أسلم فى قوله تعالى فى لوح محفوظ قال قلب المؤمن وقال آخر فى قوله والبيت المعمور قلب العارف وقال بعض أهل المعرفة فى بيوت أذن الله أن ترفع قلوب المقربين رفعت الى وصف الخالق عن ذكر المخلوقين ويذكر فيها اسمه بالتوحيد على تجريد الوحدانية عن شهادة الاحدية وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله تعالى يقول الصدر هو الكرسى والقلب هو العرش والله تبارك وتعالى واضع عليه عظمته وجلاله وهو مشهود بلطفه وقربه فصدر المؤمن أوله صمدية وآخره روحانية وأوسطه ربوبية فهو صمدى روحانى ربانى وقلبه أوله قدرة وآخره بر وأوسطه لطف فاذا كان كذلك فهو مشكاة فيها مصباح يرى به الزجاج كأنها كوكب درى تشهد به الآلاء فهو مرآة جسدى يرى فيرى به الوجه ويجده عنده كما يراه به من وراء مرآة مشاهدة من قلب موقن بعين يقين يشهد الصدر الكرسى والقلب العرش والله تعالى عليه ولا يحل للعلماء أيضا كشف علامات سوء الخاتمة فيمن رأوها فيه من العمال لأن لها علامات جلية عند المكاشفين بها وأدلة خفية عند العارفين المشرف بهم عليها ولكنها من سر المعبود فى العبد خبيئة وخبأة فى خزائن النفوس لم يطلع عليها الا الافراد وقد ستر ذلك وغطاه بسعة رحمته وحلمه وكثيف ستره وفضله وسيخرج ذلك الخبء يوم تبلى السرائر عند غضبه وعظيم سطوته فماله من قوة من عمل ولا ناصر من علم لا قوة له فينتصر بها لأن النصرة عزة وهو ذليل ولا ناصر لان الناصر هو الخاذل والمقوى هو المضعف فما أسوأ حال من لا ينصر نفسه وليست له من مولاه صحبة ولو صحبه لنصره ولو نصره لأعزه ولو وليه لهرب منه عدوه قال تعالى لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون وقال تعالى قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض الآية فمن حكمته غفره ومن رحمته ستره وقال تعالى يخرج الخبء فى السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون فهذه العلوم التى ذكرناها توجب حقائق المخاوف وهى من سر الملك وخباء الملكوت على أن للعبد عند الموت علامات ليس يخفى على العارف بسوء الخاتمة بها لمشاهدته لها

وللاحياء علامات عند المكاشفين على الاطلاع يعرفون بها سوء الخاتمة منهم وهذا علم مخصوص به من أقيم مقام مقامات المكاشفات عن مشاهدة حقيقة من ذات وهو سر علام الغيوب عندمن أطلعه عليه من أهل القلوب لان الكشف يتنوع أنواعا من المعانى فمنه كشف معانى الآخرة ومنه كشف بواطن الدنيا ومنه الاطلاع على حقائق الاشياء المستورة لظواهر الاحكام فهذا من سر الملكوت ومن معانى كشوف الجبروت وقد جاء فى خبر القدر سر الله فلا تفشوه فهذا خطاب لمن كوشف به وفى خبر آخر ستر الله فلا تكشفوه فهذا خطاب لمن لم يكاشف به وهذا نهى عن السؤال عنه وهو داخل فى قوله تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم أى لا تتبع نفسك علم ما لم تكلف ولا تسأل عما لم يجعل من علمك ولم يوكل اليك ولانه اذا علمه لم ينفعه علمه شيأ وانما ينفعه علم الاحكام والاسباب لانها طرقات وبمثل مخاطبة المؤمنين خاطب أنبياءه عليهم السلام فى هذا المعنى فى قوله تعالى لنوح عليه السلام حين قال ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق لانه قد كان وعده نجاة أهله فقال سبحانه وتعالى انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألنى ما ليس لك به علم أى دعاءك ومسألتك لى مالم أجعله من علمك ولم أكله اليك عمل غير صالح فعندها استغفر ربه واسترحمه وان العبد عند موته فى آخر ساعة من عمره يكشف له عند كشف الغطاء عن بصره وجوه كثيرة قد اتخذت آلهة من دون الله أو أشرك بها مع الله تعالى وكلها تزيين وغرور فان وقف القلب مع أحدها أو زين له بعضها أو تقلب قلبه فى شىء منها عند آخر أنفاسه ختم له بذلك فخرجت روحه على الشك أو الشرك وهذا هو سوء الخاتمة وهو نصيب العبد من الكتاب فى السابقة عند خلق الارواح معدومة لها فى الاشباح فى الآباد والآزال قبل اظهار الاكوار والادوار فشهدتها الارواح هناك غرورا ووقفت معها وقد زادت لها زورا رسوم فى القلب فى التخطيط قبل خلق الاجسام لها وقبل حجبها بكشف الهياكل عند ظهورها فى الوجود وقبل اقامتها بشاهد العقل لكن بشاهد الاولية بدت وبمعنى القيومية وجدت وبوصف الجامع جمعت ثم فرقت ههنا فظهرت الآن عند الفراق لما كانت شهدت فى التلاق واعترفت فى الآخر بما كانت نطقت فى الاول وخرجت الروح على ماشهدت وهذا كان خبر السابقة التى أدركت الارواح المرافقة لها فى الاجسام عند الخاتمة ومن ذلك جاء فى الاثر يأخذ ملك الارحام النطفة فى يده فيقول يارب اذكر أم أنثى أسوى أم معوج ما رزقه وما عمله ما أثره ما خلقه قال ثم يخلق الله تعالى على يديه قال فاذا صوره قال يارب انفخ فيه بالسعادة أو بالشقاوة فلذلك خرجت الروح بما دخلت به فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما ان كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم كما بدأكم تعودون فريقا هدى .

وفريقا حق عليهم الضلالة كما بدأنا أول خلق نعيده ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني وقال سبحانه وتعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين فهذه الآى ونظائرها وردت فى السوابق الاول والخواتم الاخر وفيها سرائر الغيوب وغرائب الفهوم وهى من آى المطلع لاهل الاشراف على شرفات العرش والاعراف وقال بعض العارفين لو علمت أحدا على التوحيد خمسين سنة ثم حالت بيني وبينه اسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد لانى لا أدرى ما ظهر من التقليب وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل حركة وكل خطرة وهمة يخافون البعد من الله تعالى وهم الذين مدح الله تبارك وتعالى وقلوبهم وجلة وقال لا يصح خوفه حتى يخاف من الحسنات كما يخاف من السيآت وقال أيضا أعلى الخوف أن يخاف سابق علم الله تعالى فيه ويحذر أن يكون منه حدث خلاف السنة يجره الى الكفر وقال خوف التعظيم ميزان خوف السابقة وكان بعض العارفين يقول لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الاسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الاسلام قيل ولم قال لانى لا أدرى ما يعرض بقلبي من المشاهدة فيما بين باب الحجرة وباب الدار فيغير التوحيد وروينا عن زهير بن نعيم البانى قال ما أكبر همى ذنوبى انما أخاف ما هو أعظم على من الذنوب وهو ان أسلب التوحيد وأموت على غيره وروى ابن المبارك عن أبى لهيعة عن بكر بن سوادة قال كان رجل يعتزل الناس أينما كان يكون وحده فجاء أبو الدرداء فقال أنشدك الله تعالى ما يحملك على أن تعتزل الناس قال انى أخشى أن أسلب دينى وأنا لا أشعر قال أترى فى الحى مائة يخافون ما تخاف فلم يزل ينقص حتى بلغ عشرة قال فحدثت بذلك رجلا من أهل الشام فقال ذلك شرحبيل بن سمط يعنى من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقد كان أبو الدرداء يحلف بالله تعالى ويقول ما أحد أمن على ايمانه ان يسلبه عند الموت الاسلبه وقد كان بعض علمائنا يقول لمن أعطى التوحيد أعطيه بكماله ومن منعه منعه بكماله اذ كان التوحيد فى نفسه لا يتبعض ولما احتضر سفيان رضى الله عنه جعل يبكى ويجزع فقيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فان عفو الله أعظم من ذنوبك فقال أوعلى ذنوبى أبكى لو علمت انى أموت على التوحيد لم أبال أن ألقى الله تعالى بأمثال الجبال من الخطايا وقال مرة ذنوبى أهون من هذه ورفع حبة من الارض انما أخاف أن أسلب التوحيد فى آخر الوقت وقد كان رحمه الله أحد الخائفين كان يبول الدم من شدة الخوف وكان يمرض المرضة من المخافة وعرض بوله على بعض الكتابيين فقال هذا بول راهب من الرهبان وكان يلتفت الى حماد بن سلمة فيقول يا أبا سلمة ترجو لمثلى العفو

أو يغفر لمثلى فيقول له حماد نعم أرجو له وقد كان بعض العلماء يقول لو انى أيقنت أن يختم لى بالسعادة كان أحب الى مما طلعت عليه الشمس فى حياتى أجعله فى سبيل الله تعالى وحدثنى بعض اخوانى عن بعض الصادقين وكان خائفا أنه أوصى بعض اخوانه فقال اذا حضرتنى الوفاة فاقعد عند رأسى فاذا عاينت فانظر الى فان رأيتنى مت على التوحيد فاعمد الى جميع ما أملكه فاشتر به لوزا وسكرا وانثره على صبيان أهل المدينة وقل هذا عرس المنفلت وان رأيتنى مت على غير التوحيد فاعلم الناس انى قدمت على غير التوحيد حتى لا يغتروا بشهود جنازتى ليحضر جنازتى من أحب على بصيرة لئلا يلحقنى الرياء فاكون قد خدعت المسلمين فقلت ومن أين أعلم انك قدمت على التوحيد فذكر له علامة تظهر من بعض الاموات لم نحب ذكرها قال فكنت عند رأسه أنظر اليه كما أمر حتى أعاين فرأيت علامة حسن الخاتمة وأمارة الموت على التوحيد قد ظهرت وفاضت روحه قال فنفذت وصيته كما أمر ولم أحدث بذلك الاخصوص اخوانى من العلماء وذلك ان العبد مهما عمل فى حياته من سوء أعيد ذكره عليه عند فراق الحياة ووقعت مشاهدته فيه عند آخر ساعة من عمره فان استحلى ذلك بقلبه أو استهواه بنفسه وقف معه فاذا وقف معه حسب عليه عملا له وان قل وكان ذلك خاتمته وكذلك ما عمل من خير أعيد ذكره ومشاهدته عليه فان عقد عليه بقلبه أو أحب ووقف معه فحسب عملا له وكان ذلك حسن خاتمته وقال بعض هذه الطائفة فى قول الله تعالى خلق الموت والحياة ليبلوكم قال يبلوكم بتقليب القلوب فى حال الحياة بخواطر الذنوب وفى حال الموت بالحياد عن التوحيد فمن خرجت روحه على التوحيد وجاوزت البلاوى كلها الى المبلى فهو المؤمن وذلك هو البلاء الحسن كما قال الله تعالى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا فهذه المعانى من العلوم أوجبت خوف الخائفين من علم الله تعالى فيهم فلم ينظروا معها الى محاسن أعمالهم لحقيقة معرفتهم بربهم وهذا الخوف هو الثواب لعلمهم بما يعلمون فلما سلموا من مطالبة بما يعلمون وصحوا على العلم ظهر لهم خوف علم الله تعالى فيهم نعمة من الله تعالى عليهم فكان ذلك مقاما لهم كما قال الله تعالى قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما قيل بالخوف والمقام الآخر لاصحاب اليمين دون هؤلاء خوف الجنايات والاكتساب وخوف الوعيد وسر العقاب وخوف التقصير فى الامر وخوف مجاوزة الحد وخوف سلب المزيد وخوف حجاب اليقظة بالغفلة وخوف حدوث الفترة بعد الاجتهاد عن المعاملة وخوف وهن العزم بعد القوة وخوف نكث العهد بنقض التوبة وخوف الوقوع فى الابتلاء بالسبب الذى وقعت منه التوبة وخوف عود الاعوجاج عن الاستقامة وخوف العادة بالشهوة وخوف الحور بعد الكور وهو الرجوع عن الحجة الى طريق الهوى وحرث الدنيا وخوف اطلاع الله تعالى عليهم عند ما سلف من ذنوبهم ونظره اليهم على قبيح فعلهم فيعرض

عنهم ويمقتهم وبهذه كلها مخاوف وطرقات لأهل المعارف وبعضها أعلى من بعض وبعضهم أشد خوفا من بعض و يقال ان العرش جوهرة يتلألأ ملء الكون فلا يكون للعبد وجد فى حال من الاحوال الاطبع مثاله فى العرش على الصورة التى يكون عليها العبد فاذا كان يوم القيامة ووقف للمحاسبة أظهرت له صورته من العرش فرأى نفسه على هيئته التى كان فى الدنيا فذكر فعله بمشاهدته نفسه فيأخذه من الحياء والرعب مايجل وصفه ويقال ان الله سبحانه اذا أعطى عبدا معرفة ثم لم يعامله بها لم يسلبه اياها بل أبقاها عليه ليحاسبه على مقدارها ولكن يرفع عنه البركة ويقطع عنه المزيد وقد ذم الله تعالى عبدا أوجد له نعمة استعمله بها صالحا بعد ان كان قد ابتلاه بهواه ففخر الآن بعمله ونسى ماقدمت يداه ولم يخف أن يعيده فما قد كان جناه فى قوله تبارك وتعالى ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيآت عنى انه لفرح فخور ومن المخاوف خوف النفاق وقد كان السلف الصالح من الصحابة رضى الله عنهم وخيار التابعين يخافون ذلك كان حذيفة رضى الله عنه يقول ان كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا حتى يلقى الله تعالى انى لاسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات وكان يقول تأتى على القلب ساعة يمتلىء بالايمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز ابرة و يأتى عليه ساعة يمتلىء بالنفاق حتى لا يكون للايمان فيه مغرز ابرة وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون انكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر و فى لفظ آخر من الموبقات وقد كان الحسن رحمه الله يقول لو انى أعلم انى برىء من النفاق كان أحب الى مما طلعت عليه الشمس وقيل لايعرى من النفاق الا ثلاث طبقات من المؤمنين الصديقون والشهداء والصالحون وهؤلاء الذين مدحهم الله تعالى بكمال النعمة عليهم والحقهم بمقامات أنبيائه لكمال الايمان وحقيقة اليقين فيهم وقيل من أمن النفاق فهو منافق وكان بعضهم يقول علامة النفاق أن يكره من الناس ما يأتى مثله وان يحب على شىء من الجور وان يبغض على شىء من الحق ومن النفاق من اذا مدح بما ليس فيه أعجبه ذلك وعلامات النفاق أكثر من أن تحصى يقال هى سبعون علامة والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أربع هن أصولها تتشعب منها الفروع فقال عليه السلام أربع من كن فيه فهو منافق خالص وان صام وصلى و زعم أنه مسلم وان كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من نفاق حتى يدعها من اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان واذا خاصم فجر وفى لفظ آخر اذا عاهد غدر فصارت خمسا وقال رجل لابن عمر رضى الله عنهما انا ندخل على هؤلاء الامراء ونصدقهم بما يقولون فاذا خرجنا تكلمنا فيهم فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروينا عنه من

طريق آخر انه سمع رجلا يذم الحجاج و يقع فيه فقال له أرأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنت تتكلم بما تكلمت به قال لا قال كنا نعدهذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشد من ذلك ان نفرا قعدوا على باب حذيفة رضى الله عنه ينتظرونه فكانوا يتكلمون فى شىء من شأنه فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه فقال تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعظم من هذا ما كان الحسن رحمه الله يذهب اليه كان يقول ان من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب والمدخل والمخرج فدقائق النفاق وخفايا الشرك عن نقصان التوحيد وضعف اليقين أوجبت المخاوف على المؤمنين خشية مقت الله تعالى وخوف حبوط الأعمال من ذلك ما كان ابن مسعود رضى الله عنه يقول ان الرجل ليخرج من منزله ومعه دينه فيرجع الى منزله وليس معه من دينه شىء يلقى الرجل فيقول انك لذيت وذيت ويلقى الآخر فيقول لانت وأنت ولعله لا يخلى منه بشىء وقد سخط الله تعالى عليه يعنى به التزكية لما لا يعلم والمدح لمن يستحق الذم واختلاف قلبه ولسانه فى هذا مقت من الله تعالى وفوق هذه المخاوف خوف سلب الايمان الذى هو عندك فى خزانة المؤمن يظهره كيف شاء و يأخذه متى شاء لا يدرى أهبة وهبه لك فيبقيه عليك لكرمه أو وديعة وعارية أودعك اياه وأعارك هو فيأخذه اذالامحالة لعذله وحكمته وقد أخفى عنك حقيقة ذلك واستأثر بعاقبته وقال بعض العارفين انما قطع بالقوم عند الوصول مع الخاتمة وقال آخر واخطراه كما قال أبو الدرداء وحلف ما أحد أمن من ان يسلب ايمانه الا سلبه أفرأيت الوقت الذى قال حذيفة يأتى على القلب ساعة فيمتلىء نفاقا حتى لا يكون فيه للايمان مغرز ابرة ان صادف الموت ذلك الوقت وكان هو آخر وقت أليس تخرج روحه على النفاق وكذلك تقليبات القلوب فى معانى الشرك وتلويحات الشك ان وافق وقت الوفاة كان خاتمته عند لقاء مولاه وانما سميت الخاتمة لانها آخر عمله وآخر ساعة من العمر وخاتم الشىء آخره ومن ذلك قوله تعالى وخاتم النبيين أى آخرهم ومثله ختامه مسك وخاتمه مسك أى آخر الكأس بدلا من الثفل يكون مسكا ومن المخاوف خوف قطع المزيد من علم الايمان مع بقية المعرفة المبتدأة ليكون مستدرجا بها كما قال بعض العلماء ان الله تبارك وتعالى اذا أعطى عبدا معرفة فلم يعامله بها لم يسلبه تلك المعرفة ولكن بقاؤها فيه حجة عليه ليحاسبه على قدرها وانما يقطع عنه المزيد وقد يقسى قلبه وتجرى عينه وذلك من النقصان الذى لا يعرفه الا أهل التمام لانه يمنعه منه ما ينفعه عنده و يعطيه ما يغتر به و يفتتن عند الخلق لان عين الوجه من الملك للدنيا وعين القلب من الملكوت للآخرة وقال مالك بن دينار قرأت فى التوراة اذا استكمل العبد النفاق ملك عينيه فيبكى متى شاء

وقد كانوا يستعيذون بالله عز وجل من بكاء النفاق وهو أن يفتح للعبد ألوان البكاء ويغلق عنه باب الذل والخشوع وقد قال الله عز وجل وجاؤا أباهم عشاء يبكون وكان السلف أيضا يقولون استعيذوا بالله من خشوع النفاق قيل وما هو قال ان تبكي العين والقلب قاس فلأن يعطى الانسان رقة القلب في جمود عين خير من أن يعطى دموع عين في قسوة قلب ورقة القلب عند أهل القلوب هو خشوعه وخوفه وذله وانكساره واخباته فمن أعطاه هذا في قلبه لم يضره ما منعه من بكاء عينه فان رجح له بفيض العين فهو فضل ومن أعطاه بكاء العين وحرمه خشوع القلب وذله وخضوعه واخباته فهو مكر به وهذا هو حقيقة المنع وعدم النفع وجملة بكاء العين انما هو في علم العقل فاما علم التوحيد بمشاهدة اليقين فلا بكاء فيه لانه يظهر لشاهد الوحدانية فيحمله على علم القدرة فتفيض الدموع بانتشاق القوة وقد وصف الله تعالى الباكين ان البكاء يزيدهم خشوعا في قوله تعالى يبكون ويزيدهم خشوعا فاذا زادنا البكاء كبرا وفخرا علمنا بذلك عدم الخشوع في القلب فكان تصنعا وعجبا لخفايا آفات النفوس فاعلى المخاوف خوف السوابق والخواتم كما كان بعض العارفين يقول ما بكائي وغمي من ذنوبي وشهواتي لانها أخلاقي وصفاتي لا يليق بي غيرها انما حزني وحسرتي كيف كان قسمي منه ونصيبي حين قسم الاقسام وفرق العطاء بين العباد فكيف كان قسمي منه البعد فهذا الذي ذكرناه هو جمل خوف العلماء الذين هم ورثة الانبياء وهم أبدال النبيين وأئمة المتقين أولوا القوة والتمكين وسئل أبو محمد رحمه الله هل يعطى الله أحدا من الخوف مثقالا فقال من المؤمنين من يعطى من الخوف وزن الجبل قيل فكيف يكون حالهم يأكلون وينامون وينكحون قال نعم يفعلون ذلك والمشاهدة لا تفارقهم والمأوى يظلهم قيل فأين الخوف قال يحمله حجاب القدرة بلطيف الحكمة ويستر القلب تحت الحجاب في التصريف بصفات البشرية فيكون مثل هذا العبد مثل المرسلين وهذا كما قال لان مشاهدة التوحيد بالتصريف والحكمة تقيمه بالقيام بالاحكام وذلك ان نور الايمان في القلب عظيم لو ظهر للقلب لاحرق الجسم وما اتصل به من الملك الا انه مستور بالفضل مغطى بالعلم لايقاع الاحكام وايجاب التصريف فيها والقيام يجري مجرى الغايات من معاني القدر والصفات لان الانوار محجوبة بالاسماء والاسماء محجوبة بالافعال والافعال محجوبة بالحركات فتظهر الحركة بالقدرة وهي غيب من ورائها كذلك يظهر التصريف بالحكمة عن نور الايمان وأنوار الايمان مستورة من ورائه وقال بعض العارفين لو كشف وجه المؤمن للخلق عند الله تعالى لعبدوه من دون الله تعالى ولو ظهر نور قلبه للدنيا لم يثبت له شيء على وجه الارض فسبحان من ستر القدرة ومعانيها بالحكمة وأسبابها جعلها منه ورحمة وتطريقا للخلق اليه للمنفعة وفي قراءة أبي بن كعب مثل نور المؤمن فلو لا أن نوره

من نوره ما استجاز ابدال حرف بغير معناه وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول الخوف مباينة للنهى والخشية الورع والاشفاق الزهد وكان يقول دخول الخوف على الجاهل يدعوه الى العلم ودخوله على العالم يدعوه الى الزهد ودخوله على العامل يدعوه الى الاخلاص وقال أيضا الإخلاص فريضة لاتنال الا بالخوف ولا ينال الخوف الا بالزهد فقد صار الخوف يصلح للكافة اذ دخوله على العامة يخرجهم عن الحرام ودخوله على الخاصة يدخلهم فى الورع والزهد لان من خاف ترك وقال أيضا من أحب أن يرى خوف الله تعالى فى قلبه فلا يأكل الا حلالا ولا يصلح علم الرجاء الا للخائف وقال الخوف ذكر والمحبة أنثى ألا ترى ان أكثر النساء يدعون المحبة يريد بهذا ان فضل الخوف على الرجاء كفضل الذكر على الانثى وهذا كما قال لان الخوف حال العلماء والرجاء حال الجهال وفضل العالم على العابد كفضل القمر على الكواكب وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل من علم أحب الى من فضل من عمل وخير دينكم الورع واعلم ان الخوف عند العلماء على غير ما يتصور فى أوهام العامة وخلاف ما يعدونه من القلق والاحتراق أوالوله والانزعاج لأن هذه خطرات وأحوال ومواجيد للوالهين وليست من حقيقة العلم فى شىء بمنزلة مواجيد بعض الصوفية من العارفين فى أحوال المحبة من احتراقهم وولهم والخوف عند العلماء انما هو اسم لصحيح العلم وصدق المشاهدة فاذا أعطى عبد حقيقة العلم وصدق اليقين سمى هذا خائفا فلذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم من أخوف الخلق لأنه كان على حقيقة العلم ومن أشدهم حبا لله تعالى لأنه كان فى نهاية القرب وقد كان حاله السكينة والوقار فى المقامين معا والتمكين والتثبيت فى الاحوال كلها ولم يكن وصفه القلق والانزعاج ولا الوله والاستهتار قد أعطى أضعاف عقول الخليقة وعلومهم ووسع قلبه لهم وشرح صدره للصبر عليهم فكان صلى الله عليه وسلم مع الأعرابى كانه اعرابى ومع الصبي بمعناه ومع المرأة فى نحوها يقاربهم فى علومهم ويخاطبهم بعقولهم ويظهر منه مثل وجدهم ليعطيهم نصيبهم من الانس به ويوفيهم حقوقهم من الدرك منه ولئلا تعظم هيبته فى صدورهم فينقطعون عن السؤال له والانس به حكمة منه لا يفطنون لها ورحمة منه قد جبل عليها قد ألبس مواجيدهم لبسة وأدخل ذلك عليه صبغة بغير تكلف ولا تصنع تعلم ذلك من الحكيم العليم فلذلك وصفه عز وجل بخلقه وتعجب من وصفه فقال تعالى وانك لعلى خلق عظيم قيل على أخلاق الربوبية وقرئت بالاضافة ليكون عظم اسم الله سبحانه لا يظهر من حاله ونصيبه شيأ لقوة التمكين وفضل العقلاء ولا يبخس من نصيبهم منه شيأ لحقيقة العدل ولا يتظاهر بشىء لحقيقة الزهد ونهاية الخشوع والتواضع ولا يظهر عليه شىء لمكانة القوة ورسوخ العلم والحكمة وعلى منهاجه وسنته وصف العارفين من أهل البلاء الذين هم الأمثل فالأمثل بالانبياء وقال بعض أهل

المعرفة من طالب الخلق بعلمه وخاطبهم بعقله فقد بخسهم حقوقهم منه ولم يقم بحق الله تعالى فيهم وقال بعض العلماء لا يكون اماما من حدث الناس بكل ما علمه وأظهر لهم نصيبه وكان يحيى بن معاذ يقول لا تخرج أحدا من طريقه ولا تخاطبه بغير علمه فتتعب ولكن اغرف له من نهره واسقه بكاسه وسئل بعض العلماء عن العارف هل يستوحش من الخلق قال لا يستوحش ولكن قد يكون نفورا قيل فهل يستوحش منه فقال العارف لا يستوحش منه ولكن قد يهاب ومما يدلك ان الخوف اسم لحقيقة العلم أن فى قراءة أبى بن كعب فى قوله تعالى فخشينا أن يرهقهما فخاف ربك أن يرهقهما وقال يحيى بن زياد النحوى ومعناه فعلم ربك وقال الخوف من أسماء العلم والله أعلم . بيان آخر فى معنى الخوف والخوف أيضا من أسماء المعانى فوجوده بانتفاء ضده فاذا عدم من القلب الامن من كل وجه من أحوال الدنيا وأمور الآخرة فلم يأمن مكر الله تعالى فى كل الأحوال فى تصريف أحكام الدنيا وتقليب حركات القلوب والنفوس وجواذب الشهوات واثارة طبائع العادات ولم يسكن الى عرف ولا اعتياد ولم يقطع بسلامته و براءته فى شيء كان هذا خوفا وسمى العبد بفقد الامن من جميع ذلك خائفا فهذا مستعمل فاش فى كلام العرب ومذهبهم يقول أحدهم أخاف من كذا اذا لم يأمنه أو أخاف أن يكون ذا اذا تحقق عليه وقيل لبعض العلماء ما بال العارف يخاف فى كل حال فقال لعلمه ان الله تعالى قد يأخذ فى جميع الأحوال ثم ان للخائفين بعد هذا طرقا ووجهة من قبل الخوف المقلق والاشفاق المزعج والوجل المحرق وهى مجاوزات للطرق السابلة التى هى محاج للائمة المختارة الفاضلة وفيها متاوه ومهالك نقلت عنها العلماء السادة والصفوة المختارة الا أنه قد سلك ببعض الزهاد والعباد فيها وأريد بعض العارفين بها ليست بمفضلة كل ذلك عن العلماء ولا بمتنافس فيها مغبوط عليها عند العارفين لانها قد تخرج من طرقات المسالك الى مفاوز المهالك وانما أريد ببعضهم التعريف لها والاطلاع عليها ومنهم من أريد منه التيه والوله فيها الا أنها أشهر فى اسماع العامة وأعجب وأهول عند العموم

ذكر تفصيل هذه المخاوف

اعلم أن للخوف سبع مفائض تفيض اليها من القلب فالى أى مفيض فاض من القلب اليه أتلف صاحبه به الا ما يستثنيه قد يفيض الخوف من القلب الى المرارة وهى أرق صفات الادمة وهى باطن البشرة فيحرقها فيقتل العبد وهؤلاء هم الذين يموتون من الغشى والصعق وبداوة الوجه وهم ضعفاء العمال وقد يطير الخوف من القلب الى الدماغ فيحرق العقل فيتيه العبد فيذهب الحال و يسقط المقام وقد يحل الخوف السحر وهو الرئة فيقبها فيذهب الأكل والشرب حتى يسل الجسم وينشف الدم وهذا لأهل الجوع والطى والاصفرار وقد يسكن الخوف الكبد فيورث الكمد اللازم والحزن

الدائم ويحدث الفكر الطويل والسهو الذاهب وفى هذا المقام يذهب النوم ويدوم السهر وهذا من أفضلها وفى هذا الخوف العلم والمشاهدة وهو من خوف العاملين وقد يقدح الخوف فى الفرائص والفريصة هى اللحمة التى تكون على الكتف يقال للحمتى الكتفين الفريصتان وجمعها الفرائص ومنه الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفريصتان من اللحم وهو أرق لحم الحيوان وأعذبه فمن هذا الخوف يكون الاضطراب والارتعاش واختلاف الحركة وقد يبدو الخوف من القلب فيغشى العقل فيمحى سلطانه لقهر سلطان القدرة ومحو الشمس اذا برزت ضوء القمر للبادى الذى يبدو على السر من خزائن الملكوت فيضعف لحمله العقل فيضطرب لضعفه الجسم فلا يتمكن العبد من القرار لضعف صفته وذلك أن أجزاء الانسان وان كانت متفرقة فى البنيان للحكمة والاتقان فهى كشىء واحد يجمعها لطيف القدرة باظهار المشيئة فاسفل البنية منوط باعلاها فاذا اضطرب أعلاها مال أسفلها واذا وصل الداء أو الدواء الى عضو منها تداعى له سائرها وهذه الطائفة أشبه بالفضل وأدخل فى وصف العلم وقد سلك فى هذا الطريق أكابر العلماء وأفاضل أهل القلوب وقد كان هؤلاء فى التابعين كثير منهم الربيع بن خيثم وأويس القرنى وزرارة بن أوفى ونظراؤهم من الأخيار رضى الله عنهم ولم ينكر هذا علية الصحابة مثل عمر وابن مسعود رضى الله عنهم وقد كان عمر رضى الله عنه يغشى عليه حتى يضطرب مثل البعير ويسقط من قيام وقد كان ذلك يلحق سعيد بن جذيم وكان من زهاد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أمراء الأجناد بعثه عمر رضى الله عنه واليا على أهل الشام وكان يوصف له من زهده وشدة فاقته ما يعاتبه عمر فى ذلك ويبعث اليه بالمائة دينار وبأربعمائة دينار ليستنفقها على أهله فيفرق ذلك على الغزاة فى قصة طويلة فكتب اليه أهل الشام يذكرون شأنه وكان يغشى عليه فى مجلسه فخشوا عليه من دخيلة فى عقله ولم يعرف ذلك أهل الشام فسأله عمر لما لقيه عن الذى يصيبه اذا تحدث فاخبره بما يجد من مشاهدته وهو وجد الصوفية من أهل الأحوال فعرف عمر ذلك وعذره وما زاده ذلك عنده الا خيرا فكان يكرمه ويعرف له فضله وكتب الى أهل الشام ان لا تعنفوا فى أمره ودعوه وقد كان اقوى الاقوياء وهادى الهداة رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم يغشى عليه عند نزول الوحى اذا لبسه أزال ترتيب العقل منه ورفع مكان الكون عنه ويغط ويتربد وجهه وينحدر منه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى الا أن هذا كان يصيبه فى ضرب من الوحى اذا تغشاه وينزل عليه روح القدس فى روحه واستبطن باطن قلبه لان الوحى على أربعة أضرب ضربان متصلان هذا أحدهما وضربان منفصلان ومن كل واحد يلحق العلماء بالله تعالى أهل القلوب الناظرة والشهادة الحاضرة وشرح هذا يطول وليس يعرفه علم يقين الا من

سلك طريقه ولا يشهده شهادة تحقيق الا من ذاق حقيقته ومن آمن به تصديق تسليم فله منه نصيب الا أن هذا فى أهل مقامات ثلاث من المقربين مقام المعرفة والمحبة والخوف وكل ضروب الوحى بعد هذه الأربعة وهى عشرة لأهل هذه المقامات الثلاث منه نصيب خواطر أو وجد أو شهادة أو حال أو مقام وهو وصف التمام الانوعين من أنواع الوحى فانهما ممتنع ومخصوص بهما المرسلون أحدهما ظهور الملك فى صورته وسمع كلام الله بصفته ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جبريل عليه السلام فى صورته بالابطح فصعق وروى حمزة عن حمران بن أعين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ آية فى سورة الحاقة فصعق وقال الله تعالى وخر موسى صعقا وقد يفيض الخوف من القلب الى النفس فيحرق الشهوات ويمحو العادات ويخمد الطبع ويطفىء شعل الهوى وهذا أحد المخاوف وأعلاها عند أهل المعارف وهؤلاء أفضل الخائفين وأرفعهم مقاما وهو خوف الانبياء والصديقين وخصوص الشهداء وليس فوق هذا وصف يغبط عليه الخائف ولا يفرح به عارف فان جاوز الخوف هذه الأوصاف فقد خرج عن حده وجاوز قدره لأنه اذا أحرق الشهوات ومحا الاهواء فلم يترك شهوة ولا هوى ثم ان لم يعصم العبد من مجاوزة حد الخوف خرج به الخوف الى أحد ثلاثة معان خيرها أن يسرى الى النفس فيحرقها فيتلف العبد فتكون له شهادة وليس هذا محمودا عند علماء الخائفين من أرباب العلوم والمشاهدات الا أنه قد قال بعض العلماء ما شهداء بدر بأعظم أجرا ممن مات وجدا وهذه أوصاف ضعاف المريدين إذ للعلماء الموقنين بكل شهادة من اليقين أجر شهيد وأوسطها أن يعلو الى الدماغ فيدنيه فتنحل عقدة العقل لذويه فتضطرب الطبائع لانحلال عقدة العقل ثم تختلط المزاجات لاضطرابها فتحترق الصفراء فتحول سوداء فيكون من ذلك الوسواس والهذيان والتوه والوله وذلك أن الدماغ جامد وهو مكان للعقل هو مركب عليه معقود به فاذا اختلطت المزاجات اشتعلت فتلهب شعلها الى الدماغ فأحرقه وأذابه فخل محل العقل الذى مكانه مخ الدماغ وسلطانه صقال القلب الظاهر كصقال الرقعة وهو بمنزلة الشمس الطالعة محلها الفلك العلوى وشعاعها على الأرض كذلك العقل محله المخ وسلطانه فى القلب وفى هذا المقام الطيش والهيمان وهذا مكروه عند العلماء وقد أصاب ذلك بعض المحبين فى مقام المحبة فانطبق عليهم فولهوا بوجده ومنهم من فزع ذلك عن قلوبهم فسرى عنهم فنطقوا بعلمه وقد كان أبو محمد رحمه الله تعالى يقول لأهل التقلل الطاوين المتقشفين احفظوا عقولكم فانه لم يكن ولى الله ناقص العقل والمعنى الثالث وهو شرها فى مجاوزة الخوف هو أن يعظم الخوف ويقوى فيذهب الرجاء اذا لم يواجه بعلم الاخلاق من الجود والكرم

والاحسان التى تعدل المقام فتروح كروب الحال فيخرجه ذلك الى القنوط من رحمة الله والاياس من روح الله تعالى دخلت عليهم هذه المشاهدة من قبل العدل والانصاف بمعيار العقل فجاوزت بهم علم وصفه بالكرم وخفى الألطاف فتعدت بهم الحدود من قبل قوة نظرهم الى الاكتساب وتمكن تحكم شهادة الاسباب ورجوعهم الى أنفسهم فى الحول والاستطاعة وابتليهم لتحقيق الوعيد عليهم خاصة لا محالة والحكم على الحاكم الراحم بعقولهم وعلومهم من غير تفويض منهم الى مشيئته ولا استسلام لقدرته ولا تأميل لاحد معانى صفاته الحسنى التى تعم جميع صفاتهم السوأى فظهرت سيآتهم الثوانى أمامهم فحجبتهم عن المحسن الاول ولم يعلموا انهم باحسانه اليهم أساؤا وبسبق علمه فيهم تعدوا وان قلمه لم يكن بأيديهم اذ جرى بما عليهم وان قهر قدرته وسلطان جبره أظهر منهم من خزائنه مافيهم يدلك على صحة ماذكرناه ان أكثر هذه المخاوف كانت فى البصريين وأهل عبادان والعسكريين فكان مذهبهم القدر والقول باللطف وتفويض المشيئة وتقديم الاستطاعة منهم العمرية أصحاب عمرو والعبادية شيعة عباد والفوطية والعطوية أصحاب هشام الفوطى وابن عطاء الغزالى ومنهم التيمية نفوا نصف القدر ومنهم المنازلية أصحاب المنزلة بين المنزلتين والقول بمقدور من قادرين وفعل من فاعلين فابتلوا بالاعتماد على الاسباب وبالنظر الى أولية الاكتساب فحجبهم ذلك عن المقدر الوهاب فهرب هؤلاء من الامن والاغترار فوقعوا فى أعظم منهما من القنوط والاياس فصاروا فى كبائر المعاطى من خوفهم منها فمثلهم مثل الخوارج خرجوا على الأئمة بالسيف لانكار المنكر فوقعوا فى أنكر المنكر من تكفير الأئمة وانكارهم للسلطان وتكفيرهم الامة بالصغائر وهذا من أبدع البدع وهؤلاء كلاب أهل النار ومثلهم أيضا مثل المعتزلة هربوا من طريق المرجئة ان الموحدين لا يدخلون النار فحققوا الوعيد على الموحدين وخلدوا الفاسقين فى النار فجاوزوا حد المرجئة وزادوا عليهم كما جاوزت المرجئة طريق أهل السنة وقصرت عنهم وكان شيخنا أبو محمد رحمه الله تعالى يقول أهل البدع كلهم يرون الخروج على السلطان ويرون السيف على الآمة ويكفرون الأئمة فهذا أضر الوجوه فى مجاوزة الخوف عن قدره وهو من التعدى لحدود الله تعالى وأمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه فصدق الرجاء واعتدال الخوف به من حقيقة العلم بالله تعالى ومجاوزة الشىء كالتقصير عنه والمؤمن حقا هو المعتدل بين الخوف والرجاء فالخوف المتلف للنفس بالموت أو المزيل للعقل بالفوت خير من هذا الوصف الذى هو القنوط لأن هذا مزيل للعلم ومسقط للمقام موقع فى الكبائر على أن هذين المقامين من الخوف ليس فيهما علم ولا مشاهدة على الكشف وانما هو قوة وجد تصطلم مرارته فتوجد اتلاف النفس ومحو العقل من عبد بمنزلة خوف الكرو بين خاصة من الاملاك

أهل الكرب والتمكن لأنهم لا ينقلون فى المقامات التى يعدلون بها كمقربى الروحانيين وبلغنى أن منهم جيلا يخرج كل يوم من تحت العرش بعدد البشر قد أقلقه الشوق وحقره الكرب يريد النظر الى وجه العلى الأعلى فيحرقهم شعاع سبحات وجهه الكريم سبحانه وتعالى فيحترقون احتراق الفراش فى المصباح ثم يعود مثلهم من الغد فهذا دأبهم الى يوم القيامة كل ملك لوجمع السموات والأرضين فى كفة غابت فى قبضته ولعمرى ان سائر الملائكة لا ينقلون فى المقامات كالمؤمنين بل لكل ملك مقام معلوم لا ينتقل منه الى غيره انما يمدون من ذلك المقام بمدد لا نهاية له الى يوم القيامة بأكثر ما يزاد جمع البشر ولكن أولئك يحمل خوفهم قواهم ويثبت بمشاهدة وصف المخوف خوفهم وصفاتهم فلا يؤودهم ولا يقتلهم لأنهم يمدون بالقوى و يعصمون من الموت بحفظ آجالهم الى وقتها فى الآخر على أن منهم من يطيش عقله و يتوله قلبه ومنهم من يصبح فى تيه ومنهم من يتيه فلا يرد وجهه شيء الى يوم القيامة ومنهم من يفزع الفزعة فلا يرتد اليه طرفه ولا يرجع اليه عقله الى يوم الحشر ومنهم من يصعق صعقة فلا يزال فى صرخة واحدة الى نفخ الصور وكثير منهم يصعقون عند سماع الكلام من الملك الجبار حتى اذا فزع عن قلوبهم سألوا الروحانيين من المقربين ذوى الحجب القريبة والرتب العلية منهم جبريل واسرافيل وميكائيل ماذا قال ربكم فهؤلاء الحاضرون من الناظرين والمتمكنون من الشاهدين حجبة القدس أولو المحبة والانس قالوا الحق وهو العلى الكبير فمثل هؤلاء الخائفين مثل المخلصين من المؤمنين الذين قال الله أولئك لهم رزق معلوم ومثل الأقوياء من العالمين أولى البصائر والتمكين مثل الصابرين الذين يؤتون أجرهم بغير حساب وعلماء الموقنين ينقلون فى مقامات اليقين بمقتضى أحكامها من مقام خوف الى مقام رجاء مثله فاذا عملوا فى هذه المقامات بما يقتضيهم رفعوا الى ما فوقها من مقام رجاء الى مقام رجاء هو خير منه ومن حال خوف الى حال خوف أشرف منه ثم ينتقلون من مقامات الاشفاق الى حال الاشتياق ومن أحوال الوجل والاحتراق الى مقام التملق والطمأنينة ومن حال الفزع الى مقام الانس ومن الابعاد والوحشة والتهويل الى الرضا والمحبة والتأميل فهذا مكان فضلهم على من وقف فى مقامه لم يجاوزه من العموم ومن استتر بحاله وقام فى ظله فلم يقطعه الى ظل ممدود فوقه ولم يرفع منه الى محل رفيع أعلاه ومثل الخائفين من المؤمنين مثل الكروبيين من الملائكة ومثل الراجين من المحبين كمثل الروحانيين من المقربين وأصل الرجاء وتفضيله ان عند العلماء بالله تعالى من عظيم الرجاء ما يضاهى عظيم الخوف فيعدل النية ويحكم بين المقامين بالسوية فلا يبدو على قلوبهم باد من الخوف عن مشاهدة وصف من الصفات المخوفة تكربهم الاطلع طالع وراء من عظيم الرجاء أشهد خلقا من الاخلاق اللطيفة

تروحهم ولا يطرأ على قلوبهم طارىء من الخوف يهربون منه الابدا عليهم باد من الرجاء يأنسون به اليه فتعتدل صفاتهم وتستوى مقاماتهم عن معاينة معنى من معانى صفاته لاستواء كمال ذاته فتكون قلوبهم كلسان الميزان بين الخوف والرجاء وتكون كالطائر مقوما بين جناحيه عن شهود وصف وخلق اقتضاء ظهور البلاء والنعماء فيحمل الخوف الرجاء ويستولى الرجاء على الخوف ويفيضان معا فى سعة القلب وقوته فيغيبان فيه لانه قوى بقوى ووسع بواسع وقادر بمقتدر وينفرد الهم عن المعنيين فيقف بمشاهدة منفرد فيحكم عليه مابه أفرد ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم بك أحول وبك أقول وبك أصول ومن ذلك قوله فى علو شهادته ونفاذ علمه من كونه بشاهده أعوذ بك منك ومثله قوله

ألا كل شيء ما خلا الله باطل فهذا نطق عن وجد فى مقام البقاء بعد فقد حال الفناء هنالك سمع قول الباقى المغنى كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ومن ذلك الأثر المشهور عن الله سبحانه وتعالى لم تسعنى سمائى ولا أرضى ووسعنى قلب عبدى المؤمن الشاكر اللين الوادع ولا يصلح تفصيل ما أجملناه ولاشرح مارمزناه وقال بعض علماء السلف ما ألبس المؤمن لبسة أحسن من سكينة فى خشوع وذلة فى خضوع فهذا حالان من الخوف وهى لبسة الأنبياء وسيما علماء الاولياء وقال لقمان لابنه يابنى خف الله تعالى خوفا لا تيأس فيه من رحمته وارجه رجاء لا تأمن فيه مكره ثم فسره مجملا فقال المؤمن كذى قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر ومعنى ذلك أن المؤمن ذو وصفين عن مشاهدتين لان المؤمن الأول والشاهد الأعلى ذو وصف مخوف مثل البطش والسطوة والعزة والنقمة فاذا شهد العبد ما آمن به من هذه الصفات خاف اذ عرفه بها وتجلى له بشاهدها والمعروف أيضا هو المألوف ذو أخلاق مرجوة من الكرم والرفق والرحمة واللطف فاذا شهد القلب ما آمن به من هذه الاخلاق رجا من شهده بها فصار العبد لوصفيه الرجاء والخوف عن معنى شهادتيه المخوفة والمرجوة عن وصفى مخوفه ومرجوه صار كذى قلبين كانه يرجو بقلب ويخاف بآخر وانما هما شهادتان فى قلب واحد لانهما مقامان لقلب واحد عن شهود مخوف ومرجو واحد فهذا تفسير قول لقمان وهو صفة المؤمن ذى الايقان الا ان الخائف يوصف بما غلب عليه من الحال عما قوى عليه من المشاهدة ويندرج الرجاء فى مقامه ويوصف الراجى بما قوى عليه من الحال عن غلبة شهادته وينطوى الخوف فى مقامه ولا كنه للمخوف تعالى وعلا ولا نهاية للمرجو عز وجل سبحانه وتعالى فأما الشهيد الموقن العالم المقرب فبالحالين جميعا يوصف مع اعتدالهما وبالوصفين جميعا يعرف مع استوائهما ثم يغلب عليه الوصف التام والحال الكامل فاذا عرف به أدرج الوصفان فيه فيقال صديق لانه قد تحقق بالصدق فاغنى عن أن يقال مخلص ثم يقال عارف لانه قد رسخ فى العلم فكفى أن يقال صادق ثم

يقال مقرب لانه قد أشهد القرب فاقترب و لم يحتج الى أن يقال عامل وهذه أسماء الكمال وأحوال التمام لا يفتقر الى ذكر حال دونها ولا يوصف بوصف كوصف خائف أوراج لوجودهما فيه واعتدالها عنده لأن الخوف والرجاقد فاضا عليه ثم غاضافيه فاذا قلت عارف أو مقرب أو صديق فقد دخل فيه وصف محب خائف راج عامل لا محالة كما اذا قلت فلان هاشمى استغنيت أن تقول قرشى أو عربى لان كل هاشمى يكون عربيا قرشيا لا محالة ثم تصفه بوصف التمام أيضافيندرج الوصفان فيه فتقول فلان حسنى أو حسينى فا كتفيت أن تقول هاشمى أو قرشى أو علوى وان كان هاشميا قرشيا علويا لانه قد عرف ان كل حسينى فهو هاشمى قرشى علوى لا محالة فأما أن تقول فلان عربى أو هاشمى أو قرشى أو علوى فلا يعرف الا بما وسمته به لانه قد يكون علويا وهو الغاية فى النسب ولا يكون حسينيا وقد يكون هاشميا غير علوى و يكون قرشيا غير هاشمى ويكون عربيا غير قرشى فيلزمه وصف ما عرفته حسب فكذلك قولك عارف أو محب أو مقرب أو صديق هى اسم التمام والكمال فى المقامات التى تحتوى على جميع الاسباب كقولك حسنى هو اسم التمام وشرف الكمال الذى يفوق على كل الانساب ولا يصح مقام المعرفة الا بعين اليقين وشاهد التوحيد بعد أن لا يبقى من النفس بقية فى مقام اليقين ولا من الخلق رؤية فى شاهد التوحيد فيكون روحانيا بعدفناء النفس باليقين ربانيا عند شهود الخالق سبق منه التوحيد لأن العارف لا يوسم بحال دون حال وقد استغرق الاحوال ولا يوسم بمقام دون مقام اذ قد جاوز المقامات لحقيقة معناه عارف بالمعروف الذى هو بكل نهاية وفضل موصوف وغموض غريبة عند غير أبناء جنسه أن ينكروه فان تعرف اليهم أو عرفوه فليس بعارف وقال بعضهم فى وصف العارف أن يعرف كل شىء ولا يتعرف الى شىء وقيل حقيقته أن يعرف ولا يعرف عن مقتضى وصف من أوصاف الربوبية لانه روحانى ربانى وثلاث مقامات لا يقاس عليها ولا يتمثل بها فمن قاس عليها أخطأ ومن تمثل بها ادعى مقام النبوة ومقام المعرفة ومقام محبوب وقد ذكرنا وصفه فى شرح مقام المحبة فى كتاب المحبين فهذه طرائق الخائفين وجمل صفات العارفين لانهم متفاوتون فى القرب والاقتراب متعالون فى التقرب والتقريب مترافعون فى للتعرف والتعريف فالموقنون من الشهداء وهم المقربون من الصديقين بشهاداتهم قائمون لهم من القرب الاقتراب ومن التقرب التقريب ومن التعريف التعرف ومن الايلاف التأليف لان مقامهم من القريب العالى الطريق الأقرب والوجهة العليا وهم السابقون لأهل مقامات اليمين أول القرب التقرب وأول الحب التحبب ولهم التألف والتأليف والتعريف وهؤلاء الابرار ومن أفضل طرقات الخائفين ماسرى خوفه الى النفس قاطعا شغل الهوى وأخمد نار الشهوات فسقطت له أثقال المجاهدة

وخفت عنده مؤنة المكابدة ووجدت معه حلاوة الطاعة لفقد حلاوة المعصية واجتمع لهم بالحق عند زوال التشتت بالهوى والخلق وسكنت النفس بالطمأنينة لمعاينة القلب للشهادة وظهر نعيم الزهد والرضا لباطن الصدق والاخلاص ثم سكن الخوف فى القلب بعد ذلك ولم يجاوزه فيتعدى الحد الى بعض المفائض التى ذكرناها بل كان منه الحزن الدائم والهم اللازم والخشوع القائم وهذا هو وصف القلب المنكسر وحال العبد المنجبر الذى يوجد عنده الجبار لجبره بعد كسره فصلح له بعد ان عطل من غيره وصار مزيد العالم الخائف من الله تعالى كشوف اليقين وتنقيله لديه فى شهادة المقربين فكان القريب لديه موجودا وصار الحبيب عنده مطلوبا لانه من المنكسرة قلوبهم من أجله وبأنه صار عنده من أهله واعلم أن الذى قطع الخلق عن هذه حلاوة الهوى ولا يخرجها الا أحد كأسين تجرع مرارة الخوف فيغلب حلاوة الهوى فيخرجه أو غلبة حلاوة المحبة فيستغرق حلاوة الهوى فيغمره فان عدم أحد هذين فهو من المذبذبين بين ذلك وروينا أن عليا رضى الله عنه قال لبعض الخائفين وقد تاه عقله فأخرجه الخوف الى القنوط ماأصارك الى ما أرى فقال ذنوبى العظيمة فقال ويحك ان رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك فقال ان ذنوبى أعظم من أن يكفرها شىء فقال ان قنوطك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك والخوف جند من جنود الله تعالى قد يستخرج من قلوب المريدين والعابدين مالا يستخرجه الرجاء فتستجيب له القلوب المرادة به بنهايات الزهد وحقائق التوبة وشدة المراقبة وقد يفعل الله تعالى جميع ذلك بأهل الرجاء فى المحبة ومقام الرجاء يستخرج منهم الكرم والحياء والخوف اسم جامع لمقامات الخائفين ثم يشتمل على خمس طبقات فى كل طبقة ثلاث مقامات فالمقام الاول من الخوف هو التقوى وفى هذا المقام المتقون والصالحون والعاملون والمقام الثانى من الخوف هو الحذر وفى هذا المقام الزاهدون والورعون والخاشعون والمقام الثالث هو الخشية وفى هذا طبقات العالمين والعابدين والمحسنين والمقام الرابع هو الوجل وهذا للذاكرين والمخبتين والعارفين والمقام الخامس هو الاشفاق وهو للصديقين وهم الشهداء والمحبون وخصوص المقربين وخوف هؤلاء عن معرفة الصفات لأجل الموصوف لا عن مشاهدة الاكتساب لاجل العقوبات كما جاء فى الخبر أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ياداود خفنى كما تخاف السبع الضارى فالسبع انما يخاف لوصفه بالبطاش والسطوة ولما ألبس وجهه من الهيبة والكبر لالاجل ذنب كان من الانسان اليه وكذلك لهؤلاء من الرجاء العظيم والنصيب الاوفر على معنى خوفهم مالا يسع للعموم أن يذكر فطلبهم برجائهم وحسن ظنهم بما هو لهم لا يصفه الاهم ولا يعرفه سواهم جمل ذلك أنصبة القرب ونعيم الانس وروح اللقاء وسرور التملق وحلاوة الخدمة وفرح المناجاة وروح الخلوة وارتياح

المحاورة فلهم منه تجلى معانى الصفات وظهور معانى محاسن الاوصاف فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ولاصحاب اليمين اظهار نعيم الافعال ومواهب العطاء والافضال وقد كان يحيى بن معاذ يقول من عبد الله تعالى بالخوف دون الرجاء غرق فى بحار الاذكار ومن عبده بالرجاء دون الخوف تاه فى مفاوز الاغترار ومن عبده بالخوف والرجاء معا استقام فى محجة الاذكار وقال مكحول النسفى رحمه الله تعالى فى معناه الا أنه جاوز فيه الحد فقال من عبد الله تعالى بالخوف فهو حرورى ومن عبده بالرجاء فهو مرجىء ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد والله سبحانه وتعالى أعلم

شرح مقام الزهد ووصف أحوال الزاهدين

وهو المقام السادس من مقامات اليقين . قد سمى الله تعالى أهل الزهد علماء بقوله تعالى اذ وصف قارون فخرج على قومه فى زينته الى قوله تعالى وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن قيل هم الزاهدون فى الدنيا وقال عز وجل أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا جاء فى التفسير صبروا على الزهد فى الدنيا وقال جل وعلا والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم قيل على الفقر ويشهد للصبر عن الدنيا فى هاتين الآيتين قوله عز وجل فى وصف العلماء الزاهدين لما قال وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير قال عقيب ذلك فى بقية ثنائه عليهم ولا يلقاها الا الصابرون أى عن زينة الدنيا ثم قال فى مدحهم بوصف آخر يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا فقد حصل للزاهد أجران بصبره على الفقر وبوجود زهده وللفقير المعدم أجر واحد على الغنى لوجود فقره وعدم زهده وعلى ذلك تأويل الخبرين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى أحدهما يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا وقال فى الخبر الآخر يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام لان الفقير الزاهد يدخل الجنة قبل الغنى المصلح بخمسمائة عام وهؤلاء خصوص الفقراء وان الفقير غير الزاهد يدخل الجنة قبل الاغنياء بأربعين خريفا لاجل فقره فقط وهم عموم الفقراء فصار الاغنياء مفضولين فى الحالين معا وان جملة الفقراء يدخلون الجنة قبلهم لمكان غناهم فى الدنيا وان عموم الاغنياء من أهل الدنيا وابنائها موقوفون للحساب ومطالبون بالانفاق والاكتساب بالخبر الثالث اطلعت فى الجنة فاذا أكثر أهلها الفقراء واطلعت فى النار فاذا أكثر أهلها الاغنياء وفى معناه الخبر الآخر فقلت أين الاغنياء فقال حبسهم الجد اى الحظ وقد سمى الله تعالى الفقراء الزاهدين محسنين ووضع عنهم السبيل فقال تعالى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ثم قال ما على المحسنين من سبيل ثم نص على ذكر من عليه الحجة والمطالبة فقال جل وعلا انما السبيل على الذين

يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف يعنى النساء وعلى هذا المعنى جاء تأويل قوله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا قيل أزهد فى الدنيا فصار الاحسان مقام الزاهدين وهو وصف اليقين كذلك فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل ما الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه يعنى على اليقين وهو المشاهدة ولعمرى ان الزهد حال الموقن لانه مقتضى يقينه وقد يحتج متوهم بفضل الاغنياء على الفقراء عنده لقوله تعالى مخبرا عن الفقراء تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ان لا يجدوا ما ينفقون ولا يعلم ان هذا عند أهل التدبر للقرآن مزيدا للفقراء لتمام حالهم لما كانوا محسنين كما قال سبحانه وتعالى وسنزيد المحسنين فكان مزيدهم الحزن والاشفاق وخوف التقصير لمشاهدة عظم حق الربوبية عليهم حتى كانهم مسيؤن حتى بشرهم الله تعالى بأنهم محسنون لما قال عز وجل ما على المحسنين من سبيل لانه ضمهم اليهم فى الوصف وعطفهم عليهم فى المعنى وأيضا فلم يكن بكاؤهم على فوت الدنيا ولا على طلب الغنى والله تعالى يمدحهم بصبرهم عن الدنيا و يذم الدنيا اليهم بل حزنهم على طلب المزيد من الفقر ليجدوا الانفاق فيخرجوه فيفتقروا منه فيزدادون فقرا ابيذله الى فقرهم فعلى كثرة الانفاق وحقيقة الفقر من الدنيا كان حزنهم فهذا فضل ثان للفقراء لا على الجمع والادخار والموضع الاعلى الذى فضل الفقراء من هذه الآية عند أهل الاستنباط والتفكر وهو مشاركتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى حاله ووصف الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمثل حالهم فى قوله تعالى قلت لا أجد ما أحملكم عليه ثم نعتهم بمثله لانهم هم الأمثل فالأمثل به فقال تعالى أن لا يجدوا ما ينفقون فمن كان برسول الله صلى الله عليه وسلم أمثل فهو أفضل كيف وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم تحية المؤمن فى الدنيا الفقر فجعل الفقر تحية له من ذى التحيات المباركات مع الخبر المشهور الفقر على المؤمن أزين من العذار على خد الفرس الجواد والفقر اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم وشعار الأنبياء وطريقة علية الصحابة والأصفياء وروينا فى الخبر آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لاجل غناه فى الدنيا وفى الخبر الآخر رأيته يدخل الجنة زحفا ولا نعلم فى الأمة أفضل من طائفتين المهاجرون وأهل الصفة وجميعا مدح الله تعالى بالفقر فقال للفقراء المهاجرين الذين أحصروا فى سبيل الله فقدم وصفهم بالفقر على أعمالهم الهجرة والحصر والله تعالى لا يمدح من يحب الا بما يحب ولا يصفه حتى يحبه وروينا فى قوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا قيل عن الدنيا وفى خبر العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا فى الدنيا فاذا دخلوا فى الدنيا فاحذروهم على دينكم وجاء فى الأثر لا يزال لا اله الا الله ترفع عن العباد سخط الله تعالى ما لم ينالوا ما نقص من دنياهم وفى خبر آخر مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فاذا فعلوا

ذلك وقالوا لا إله الا الله قال الله عز وجل كذبتم لستم بها صادقين وقد رويناً فى خبر عن أهل البيت اذا أحب الله تعالى عبدا ابتلاه فاذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناؤه قال لم يترك له أهلا ولا مالا وفى أخبار أهل الكتب أوحى الله تعالى الى بعض أوليائه احذر اذا مقتك فتسقط من عيني فأصب عليك الدنيا صبا ويقال ليس عمل من أعمال البر يجمع الطاعات كلها الا الزهد فى الدنيا وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم تابعنا الأعمال كلها فلم نر أبلغ فى أمر الآخرة من زهد فى الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر التابعين أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك قال كانوا أزهد منكم فى الدنيا وفى وصية لقمان لابنه واعلم أن أعون الأشياء على الدين زهادة فى الدنيا ويقال من زهد فى الدنيا أربعين يوما أجرى الله تعالى ينابيع الحكمة فى قلبه وأنطق بها لسانه وفى خبر آخر اذا رأيتم العبد قد أعطى صمتا وزهدا فى الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة وقد قال الله تعالى ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وروينا فى الآثار جمل هذه الأخبار من أصبح وهمه الدنيا شتت الله تعالى عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم ينل من الدنيا الا ما كتب له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة وقال الله تعالى فى معنى ذلك من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب وقد روينا فى خبر قلنا يارسول الله أى الناس خير قال مخموم القلب صدوق اللسان قلنا يارسول الله وما مخموم القلب قال التقى النقى الذى لاغل فيه ولاغش ولاحسد ولابغى قيل يارسول الله فمن على أثره قال الذى يشنأ الدنيا ويحب الآخرة والشىء يعرف بضده كما يعرف بمثله وضد الشنآن المحبة وضد الزهد الرغبة وفى دليل خطابه ان شر الناس الذى يحب الدنيا وأن الراغب فيها هو المحب لها والاقتناء لها والاستكثار منها علامة الرغبة فيها كيف وقد جاء أيضا ان أردت أن يحبك الله تعالى فازهد فى الدنيا فجعل الزهد سبب محبة الله تعالى فصار الزاهد حبيب الله تعالى فينبغى أن يكون الزهد من أفضل الاحوال اذ المحبة أعلى المقامات وفى دليل الكلام أن من رغب فى الدنيا فقد تعرض لبغض الله تعالى الذى لاشىء أعظم منه وأن المحب للدنيا بغيض الله تعالى وكان أبو محمد رحمه الله تعالى يقول اجعلوا أعمال البر كلها فى موازين الزهاد ويكون ثواب زهدهم زيادة لهم وقال أيضا العباد فى موازين العلماء والعلماء فى موازين الزهاد يوم القيامة فلا يطمعن طامع فى محبة الله تعالى وهو محب للدنيا لان الله تعالى يمقتها وفى خبر مانظر اليها منذ خلقها يقول لها اسكنى يالاشىء أنت وأهلك الى النار وفى الخبر يقول الله تعالى يوم القيامة للدنيا ميزوا ما كان منها لى وألقوا سائرها فى النار وكذلك روينا فى الأثر

الدنيا ملعونة ملعون مافيها الا ذكر الله تعالى وما والاه وفى لفظ آخر فمثل الدنيا مثل ابليس خلقه الله تعالى للبعد واللعنة ليبتليه ويبتلى به ويهلكه ويهلك به وقد شهدذلك بعض المكاشفين فقال رأيت الدنيا فى صورة جيفة ورأيت ابليس فى صورة كلب وهو جاثم عليها ومناد ينادى من فوق أنت كلب من كلابى وهذه جيفة من خلقى وقد جعلتها نصيبك منى فمن نازعك شيأ منها فقد سلطتك عليه فجاء من هذا أنها مكانة فمن تمكن فى شيء منها تسلط العدو بالمكانة منه بقدر ما أصاب منها وقد كوشف بها بعض الأولياء فى صورة امرأة ورأى أكف الخلق ممدودة اليها وهى تجعل فى أيديهم شيأ قال فقلت له ماهو قال شيء يلتذ وطائفة تمر عليها مكتوفى الايدى لا تعطيهم شيأ وكوشف بها مورق العجلى فى صورة عجوز شمطاء دندانية مسمجة عليها ألوان المصبغات وأنواع الزينة قال فقلت أعوذ بالله منك فقالت ان أردت أن يعيذك الله تعالى منى فابغض الدرهم وكذلك جاء فى الخبر الدنيا موقوفة منذ خلقها الله تعالى بين السماء والارض لاينظر اليها فتقول يوم القيامة يارب اجعلنى لادنى أوليائك نصيبا اليوم فيقول اسكتى بالاشيء أنا لم أرضك لهم فى الدنيا أرضاك لهم اليوم وقال بعض السلف الدنيا دنيئة وأدنى منها قلب من يحبها وروى عن على كرم الله وجهه الدنيا جيفة فمن أرادها فليصبر على مزاحمة الكلاب وفى أخبار موسى عليه السلام ان لم تلق الفقير بمثل ماتلقى به الغنى فاجعل كل علم علمتك تحت التراب واذا رأيت الفقير مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين واذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته وقال امامنا ابو محمد رحمه الله تعالى وروينا عن بعض علمائنا فى أخبار داود عليه السلام انى خلقت محمدا لاجلى وخلقت آدم لاجل محمد وخلقت ماخلقت لاجل ولد آدم فمن اشتغل منهم بما خلقته لاجله حجبته عنى ومن اشتغل منهم بى سقت اليه ما خلقته لأجله وكان يقول الصديقون فى بداياتهم طلبوا الدنيا من الله تعالى فمنعهم فلما تمكنوا من أحوالهم عرضها عليهم فامتنعوا منها وكان عيسى عليه السلام يقول للدنيا اليك عنى ياخنزيرة وقد روينا هذا القول عن يزيد بن ميسرة وكان من علماء الشام قال كان أشياخنا يسمون الدنيا خنزيرة ولو وجدوا لها اسما شرا من هذا سموها به قال وكانت اذا أقبلت على أحدهم الدنيا قال لها اليك عنا ياخنزيرة لاحاجة لنا بك انا قد عرفنا الهنا عز وجل معناه قد عرفنا بالابتلاء بك لينظر كيف نعمل فى الزهد فيك والأثرة له سبحانه وتعالى وعرفناه أيضا بالمقت لك فوافقناه فى ذلك وعرفناه أيضا فتألهت قلوبنا اليه وأعرضنا عما سواه وكذلك كان الحسن رحمه الله تعالى يصف أشياخه كان أحدهم يعرض عليه المال الحلال فيقال خذه فاستغن به فيقول لاحاجة لى فيه أخاف أن يفسد على قلبى فهذا كان له قلب صالح وراعاه فخاف تغيره كذلك روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه مر بجدى ميت أجرب فقال

أترون هذا هان على أهله قلنا يا رسول الله من هوانه القوه فقال للدنيا أهون على الله تعالى من هذا على أهله وفى لفظ آخر أنه قال أيكم يحب أن هذا له بدرهم قلنا لا أينا وأى شيء يساوى هذا قال صلى الله عليه وسلم الدنيا أهون على الله تعالى من هذا عليكم وكذلك أخبرنا بالغاية فى قلتها وعدم قيمتها بقوله لوكانت الدنيا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء وضرب المثل فى نتنها وانقلابها على أهلها بقوله للاعرابى أرأيت ماتأكلون وتشربون ألستم تتغوطون وتبولون قال بلى قال فالى أى شيء يصير قال الى ماعلمت يارسول الله قال أفليس يقعد أحدكم خلف بيته فيجعل يده على أنفه من نتن ريحه قال نعم قال فان الله تعالى جعل الدنيا مثلا لما يخرج من ابن آدم وكذلك روينا فى تأويل قوله تعالى وفى أنفسكم أفلا تبصرون قيل مواضع الغائط والبول وقال سبحانه وتعالى وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع قال بعض أهل اللغة متاع أى جيفة سمعت عن الأصمعى قال بعض العرب يقول متع اللحم اذا تغير وأنتن وقد كان الحسن رحمه الله تعالى يقول لما هبط آدم عليه السلام الى الدنيا كان أول شيء عمل فيها أنه أحدث وروينا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال انه نظر الى ما خرج منه فآذاه ريحه فاغتم لذلك فقال له جبريل هذه رائحة خطيئتك فشهد العقلاء عن الله تعالى الدنيا فى صورة كنيف فلم يدخلوا فيها الا ضرورة فكلما استغنيت عن دخولك الكنيف كان أفضل وشهدها بعضهم جيفة فلم ينالوا منها الا بلغة فكلما تقللت من الجيفة كان خيرا وقال وهب بن منبه قرأت فى بعض الكتب يا ابن آدم ان تردنى اترك الدنيا وان ترد الدنيا طال عناك وفى بعض كتب الله تعالى يا ابن آدم أنا بدك اللازم فلا تؤثر على ما منه بد وقال بعض المخبرين عن الله سبحانه وتعالى أنه أوحى الى الدنيا اخدمى من خدمنى واتعبى من خدمك وقال آخر وقد روينا مسندا ان الله تعالى أوحى الى الدنيا تمررى لاوليائى حتى تكون رغبتهم فيما عندى واحلولى لاعدائى حتى يكرهوا لقائى وفى حديث عائشة رضى الله عنها من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله تعالى كره الله لقاءه فهذه الآثار كلها قاصمة لظهر أبناء الدنيا مسخنة لعين محبيها واضدادها من الاخبار الحسنى فى فضل الزهد وشرف الفقر رافعة لرؤس الفقراء الصادقين وقرة عين الصالحين لله عز وجل الزاهدين فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون وأصل الرغبة فى الدنيا من ضعف اليقين لان العبد لو قوى يقينه نظر بنوره الى الآجل فغاب فى نظره العاجل فزهد فيما غاب وأحب الحاضر فآثر ما هو أعود عليه وأبقى وأنفع له ولمولاه أرضى وقدم ما يفنى وينقطع الى ما يدوم ويتصل وهذا هو صورة الزهد وشهادة الموقن وان الحاضر لا يحب ماغاب وانتقل ألم تر الى وصفه عز وجل لابراهيم وليكون من الموقنين قال لا أحب الآفلين والموقن مأمور باتباع ملة

ابراهيم بقوله تعالى ملة أبيكم ابراهيم أى عليكم ملة أبيكم ابراهيم واتبعوا ملته وليس يشهد الوعد والوعيد الآجل بنور العقل انما يشهد بنور اليقين على انا نقول ان الانوار أربعة والقلب موجه جهات أربع الى الملك والملكوت والى العز والجبروت فبنور العقل يشهد الملك وبنور الايمان يشهد الملكوت وهو الآخرة وبنور اليقين يشهد العزة وهى الصفات وبنور المعرفة يشهد الجبروت وهو الوحدانية والجبار تعالى فوق القلب محيط به يكاشفه بما شاء فيغلب عليه وجد ما أشهده وضعف اليقين قد يدخل فى كل شيء وقوة اليقين تحتاج اليه فى كل عمل والا فهو دنيا يهدى اليه بنور العقل فمن لم يعط نور اليقين لم ير الملك الكبير فاستهواه الملك الصغير فأحب لا شيء فلم تكن همته فى العلو ولا عنده الاعلى شيأ

ذكر ماهية الزهد أى شيء هو

ليس يمكن عبد أن يعرف الزهد حتى يعرف الدنيا أى شيء هى فقد قال الناس فى الزهد أشياء كثيرة ونحن غير محتاجين الى ذكر أقوالهم بما بين الله تعالى وأغنى بكتابه الذى جعل فيه الشفاء والغنى وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الحبل المتين والصراط المستقيم من طلب الهدى فى غيره أضله الله وقال سبحانه وتعالى وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله وقال عز وعلا فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه فقد ذكر الله جل اسمه فى كتابه ان الدنيا سبعة أشياء وهو قوله تعالى زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ثم قال تعالى فى آخرها ذلك متاع الحياة الدنيا ووصف حب الشهوات بالتزين ثم نسق الأوصاف السبعة على الحب لها ثم أشار لها بقوله تعالى ذلك فذا اشارة الى الكاف والكاف كناية عن المذكور المتقدم المنسوق واللام بين ذا والكاف للتمكين والتوكيد فحصل من تدبر الخطاب أن هذه السبعة جملة الدنيا وأن هذه الدنيا هذه الأوصاف السبعة وما تفرع من الشهوات رد الى أصل من هذه الجمل فمن أحب جميعها فقد أحب جملة الدنيا نهاية الحب ومن أحب أصلا منها أو فرعا من أصل فقد أحب بعض الدنيا فعلمنا بنص الكلام أن الشهوة دنيا وفهمنا من دليله أن الحاجات ليس بدنيا لانها تقع ضرورات فاذا لم تكن الحاجة دنيا دل أنها لا تسمى شهوة وان كانت قد تشتهى لان الشهوة دنيا ولتفرقة الأسماء لايقاع الاحكام عليها واستند ذلك الى خبر رويناه عن الله سبحانه وتعالى فى الاسرائيليات أن ابراهيم صلوات الله عليه أصابته حاجة فذهب الى صديق يستقرض منه شيا فلم يقرضه فرجع مغموما فأوحى الله تعالى اليه لو سألت خليلك لاعطاك فقال يارب عرفت مقتك للدنيا فخشيت أن أسالك منها فتمقتنى فأوحى الله تعالى اليه ليس الحاجة من الدنيا ثم سمعناه

تعالى وجل قدده هذه السبعة الأوصاف فى مكان آخر الى خمسة معان فقال جل من قائل اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو و زينة و تفاخر بينكم وتكاثر فهذه الخمسة هى وصف من أحب تلك السبعة ثم اختصر الخمسة فى معنيين منها هما جامعان للسبعة فقال انما الحياة الدنيا لعب ولهو ثم رد الاثنين الى وصف واحد وعبر عنه بمعنيين نصارت الدنيا ترجع الى شيئين جامعين مختصرين يصلح أن يكون كل واحد منهما هو الدنيا فالوصف الواحد الذى رد الاثنين اليه اللذان هما اللعب واللهو هو الهوى اندرجت السبعة فيه فقال عز وجل ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى فصارت الدنيا طاعة النفس للهوى بدليل قوله تعالى فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى فلما كانت الجنة ضد الجحيم كان الهوى هو الدنيا لان النهى عنه ضد الايثار له فمن نهى نفسه عن الهوى فانه لم يؤثر الدنيا واذا لم يؤثر الدنيا فهذا هو الزهد كانت له الجنة التى هى ضد الجحيم التى هى لم ينه نفسه عن الهوى بايثاره الدنيا فصارت الدنيا هى طاعة الهوى وايثاره فى كل شيء فينبغي أن يكون الزهد مخالفة الهوى من كل شيء وأما المعنى الآخر الذى عبر به عن هذا الوصف الذى هو الهوى لجعله دنيا أيضا وهو حب البقاء لمتعة النفس استنبطنا ذلك من قوله تعالى وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب فالقتال هو فراق الحياة الدنيا لأنه المشى بالسيف الى السيف والفناء بين السيفين فقالوا هلا بقيتنا الى وقت آخر وهو أجلنا بالموت لا بالقتل وهذا هو حب البقاء ففسر حب البقاء بانه هو الدنيا فقال تعالى قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى فانكشف الناس وافتضح المنافقون وابتلى المؤمنون عند فرض القتال وظهر المحبون الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وعندها ربح الذين هم لأنفسهم وأموالهم بائعون وخسر الذين هم للحياة الدنيا بالآخرة مشترون لما قال الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة فلما اشتراها باعوها وقال فى المشترين الخاسرين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة يعنى رغبوا فى البقاء الأدنى لما اشتروه ببيع البقاء الآخر اذ باعوه فمن اشترى ثلاثين سنة وأربعين سنة بألف ألف وبأبد الأبد فما ربحت تجارته ولاهدى سبيله فهذه تجارة من رغب فى حياة دنياه فاشتراها ببقاء الأبد فقد صار بائعا للحياة العالية بما استبدل به من اشتراء ضدها فهذا تدبر قوله تعالى اشتروا الحياة الدنيا أى باعوا الحياة العليا وذلك الأول تجارته من باع حياة نفسه وفرق بمجموع ماله فاشتراها الله تعالى منه وعوضه داره وأسكنه عنده جواره فقد ربحت تجارته واهتدى سبيله لما باع حياة عشرين سنة وثلاثين سنة بحياة الأبد الآبد فهذا ربح تجار الآخرة الزاهدين فى الدنيا وذلك خسر تجار الدنيا الراغبين فى الهوى فشتان بين التجارتين فما أعظم حسرة الفوت على من خسر ماربحه الزاهدون بعد الموت وقد كانت

الناس مستورين باظهار الزهد فى البقاء ومظنونا بهم حب الباقى الأعلى حتى نزلت ألم ترالى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية الآية وحتى نزل يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالاتفعلون كانوا قالوا انا نحب ربنا ولو علمنا فى أى شيء محبته لفعلناه فلذلك قال تعالى كبر مقتا عند الله ان تقولوا على الله مالاتفعلون ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه ما كنت أحسب أن فينا أحدا يريد الدنيا حتى نزلت منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة وكذلك قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه الا قليل منهم قال ابن مسعود قال لى رسول الله عليه السلام قيل لى أنت منهم أى من القليل الذى كان يفعل ذلك فاذا كان حب البقاء هو الدنيا فينبغى أن يكون حب بقاء الباقى هو الزهد فصار الزهد فى الدنيا هو الزهد فى البقاء فمن زهد فى الحياة الفانية وفى ماله المجموع بالجهاد للنفس والانفاق فى سبيل الله فقد زهد فى الدنيا ومن زهد فى الدنيا أحبه الله تعالى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك صار الجهاد أفضل الاعمال لانه حقيقة الزهد فى الدنيا ولان الله تعالى يحب من زهد فى الدنيا ثم كان مخالفة الهوى أفضل الجهاد لانه هو حقيقة الرغبة فى الدنيا وقد عبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فى الدنيا اذ قال فى الحديث الاول ازهد فى الدنيا يحبك الله تعالى ثم قال فى الخبر الثانى بمعناه اجتنب المحارم يحبك الله تعالى واجتنابها زهد فى الدنيا فالزاهد فى الدنيا حبيب ربه تعالى والراغب فى حب البقاء لنفسه منافق فى دين ربه تعالى ومنه الخبر الذى جاء من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق وبه كشف الله تعالى الكاذبين ووصفهم بمرض القلوب فقال سبحانه وتعالى فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض يعنى نفاقا ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت فاولى لهم تهدد ووعيد أى وليهم العذاب وقرب منهم ثم قال طاعة وقول معروف أى يظهر منهم طاعة وقول معروف فاذا عزم الأمر وحققت الحقائق كذبوا ونكثوا فلو صدقوا الله أى فى الوفاء لكان خيرا لهم وهذا من الكلام المضمر فلذلك أشكل والبقاء والحياة اسمان لمعنى ولذلك جعل الله تعالى الدنيا وصفا للحياة فتكون الدنيا هى الحياة ونعتها بالدنيا نعت مؤنث لدخول الهاء فى الاسم التى هى احدى علامات التأنيث فصارت الحياة هى الدنيا وصار قوله الدنيا نعتها بالدناءة ولو كان الاسم مذكرا مثل البقاء نعته بمذكر فقال الأدنى وقد قال فى مثله يأخذون عرض هذا الادنى فالادنى تذكير الدنيا والدنيا تأنيث أدنى كالاعين والاقنى والأشعث تذكير عيناء وقنواء وشعثاء والعرض اسم لما يعرض ويقل بقاؤه فمن أحب ذلك فقد أحب الدنيا بحبه الأدنى وهذا

يرجع الى حب حياة الاصل لانه انما يريدالعرض الادنى لاجل الحياة فصارحبالبقاء الذى لاجله يريدعرض الادنى هو الدنيا وصارحب العرض لاجل البقاء من الدنيا فجاء من هذا الذى ذكرناه أن حقيقة الدنيا حبالبقاء لطاعة الهوى وموافقةالهوى فىحبالعرضلاجلالبقاء فدخل أحدهذين فى الآخر لان حب البقاءلاجل المتعة هومنالهوىالذىهوصفة النفسالامارة بالسوء وطاعة الهوى الذى هو عيش النفس انما يكون لحب البقاء لان العبد لوأيقن بالموت ساعته لآثر الحق على الهوى ولو أيس من البقاء لما رغب فى العرض الادنى فصارحب البقاء من الهوىوصار ايثارالهوىانما هو لحب البقاء فكان ذلك حقيقة الدنيا وكان أقصر الناس أملا للبقاء أزهدهم فىالدنيا حتى لا يدخر شيأ لغد لانه عنده غير باقالى غد وصار أرغبالناس فىالدنيا أطولهم أملالأنرغبته اشتدت فيهاوحرصه كثرعليها لامتداد أمله للحياة فيها اذ لو قصر أمله لغد لاختار الفقر حينئذ واختيار الفقر هو الزهد بيان آخر من الزهد أى شيء هو قال الله سبحانه وتعالى وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه الزاهدين فهذه تسمية لهم بالزهد لتحققهم بالمعنى نحتاج أن نكشفه ليكون من يتحقق بمعنى ذلك زاهدا قوله تعالى وشروه باعوه العرب تقول شريت بمعنى بعت لانهم يقولون ابتعت بمعنى اشتريت فلما باعوه وخرج من أيديهم صاروا زاهدين كذلك العبد اذا باع نفسه وماله من الله تعالىوخرج من هواه الى سبيل مولاه فهو من الزاهدين وكذلك قال المولى عز وعلا ان الله اشترىمنالمؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة كما قال عز من قائل ونهى النفس عن الهوى فان الجنةهى المأوىفاذا كان العوض واحدا وهو الجنة ذكر فى المعنيين كان بيع النفس والمال واخراجهما لله تعالى بمعنى النهى عن الهوى فيهما الذى هو الحياة الدنيا وهو اقتناؤه النفس وحبس النفس عليه أعنى المال فاستبدال ذلك بضده من اخراج الهوى من النفس وادخال الفقر على المالهو الزهد فىالدنياوليس ذلك منأمر النفس الامارة بالسوء لأن هذا نهاية الخير فصار نهيا لها من الهوى الذى هو اقتناء المال للجمع والمنع وهذا هو الدنيا بوصف النفس الامارة بالسوء لأن هذا حينئذ سوء كله فمن كان بهذا الوصف فنفسه غير مرحومة لامرها بالسوء واذا لم تكن مرحومة لم يكن صاحبها بائعها واذا لم يبعها لم تكن مشتراة فلا يكون صاحب هذه النفس الا جامعا للمال مانعا له راغبا فى الدنيا محبا لها وليس هذا من صفة المؤمن والله أعلم. وصف آخر من البيان والتفصيل لما حقق الله تعالى الزهد بنفى النفس واخراج المال فىذكر المبيع والمشترى فى قوله تعالىيقاتلون فىسبيل اللهفيقتلون ويقتلون وكان الزهد هو ترك طاعة الهوى وبيع النفس بنهيها عنه من المولى وكان العوض من ذلك الجنة كان الزاهد هو الخائف مقام ربه البائع نفسه طوعا قبل أن يخرجنفسهاليه كرهاوكاناللهتبارك

وتعالى هو المحبوب له القريب منه فصار العبد محبا له فجعله من المقربين عنده تعالى وإذا كانت الدنيا هو طاعة الهوى وحب الحياة الدنية لمتعة النفس الشهوانية كان الراغب فى ذلك آمنا لمكر الله تعالى مشتريا للحياة الدنيا بائعا بذلك الحياة العليا فلم يكن محبا له وكان من المبعدين عنه بسوء اختياره وحق عليه الخسران والجحيم فى الآخرة لانه ضد الزاهد المقرب الظافر بدار القرب فى جوار الحبيب القريب

ذكر بيان حقيقة الزهد وتفصيل أحكامه ووصف الزاهد

اعلم ان الزهد يكون بمعنيين ان كان الشيء موجودا فالزاهد فيه اخراجه وخروج القلب منه ولا يصح الزهد فيه مع تبقيته للنفس لأن ذلك دليل الرغبة فيه وهذا زهد الأغنياء وان لم يكن موجودا وكان العدم هو الحال فالزهد هو الغبطة به والرضا بالفقد وهذا هو زهد الفقراء وكذلك القول فى الزهد فى ترك الهوى لا يصح الا بعد الابتلاء به والقدرة عليه ألم تر أن اخوة يوسف عليهم السلام هموا بالزهد فيه بقولهم ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ولم يسمهم الله تعالى زاهدين وتكلموا بالزهد فيه بقولهم اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم ولم يسموا زاهدين وأرادوا الزهد فيه بقولهم أرسله معنا غدا نرتع ونلعب ولم يتحققوا بالزهد فيه وعزموا على الزهد فيه وأجمعوا عليه ولم يسمهم الله تعالى زاهدين مع قوله تعالى مخبرا عنهم فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب لأن هذا كله من أسباب الزهد ومقاماته قد يلتبس ويشكل على من لا يعرف حقيقة الزهد فيظنه زهدا وليس هو زهدا لأنه فى أيديهم فلما خرج من أيديهم واعتاضوا منه سواه حق زهدهم فيه فقال تعالى مخبرا عن حقيقتهم وشروه أى باعوه وكانوا فيه من الزاهدين وكذلك الثوب تهم ببيعه وتريد بيعه ويغلب عليك بيعه ولا تكون زاهدا ولكن تكون موصوفا بالارادة للزهد حتى تبيعه وتعتاض منه فحينئذ حق زهدك فيه ففى تدبر الخطاب من قوله وكانوا فيه من الزاهدين ان من اخرج الشيء من يده طوعا ونفسه تتبعه فله مقام فى الزهد بالمجاهدة ومن أمسك الشيء وأظهرت نفسه الزهد فيه بالارادة والهمة فلا مقام له فى الزهد لان الامساك علامة الرغبة والرغبة ضد الزهد فكيف يوصف بالشيء وضده فى حال قائمة فالممسك للشيء المتوهم للزهد فيه باظهار نفسه ذلك بأحد وصفين اما ان لا يعرف الزهد أولا يعرف خفى شهوة النفس هذا ان لم يموه على الراغبين والمخرج لقلبه عنه هو المتحقق بالزهد فيه وهذا هو الذى وصف الله تعالى به اخوة يوسف والممسك للشيء المغتبط به الذى همه فيه وقلبه عاكف عليه هو المتحقق بالرغبة فيه وهذا وصف عزيز مصر فى يوسف لما اشتراه فحققه الله تبارك وتعالى بالرغبة فيه لاقتنائه له فقال مخبرا عنه بعد ما اشتراه أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك وصف امرأة فرعون فى رغبها فى موسى عليه السلام بقولها قرة عين لى ولك

لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا فكذلك كل من أمل شيأ ادخره لنفسه لا يكون زاهدا فيه حتى يخرجه عن يده وقلبه اذا لم يكن ذلك وصف اخوة يوسف الزاهدين فيه الا بعد أن أخرجوه استصغارا له وتعوضوا منه

بيان آخر مستنبط من الكتاب

اعلم ان زهد اخوة يوسف عليهم السلام فى أخيهم قد كان يقارب زهدهم فى يوسف عليه السلام لأنه كان نظيره عند أبيه وقد كانوا هموا بالزهد فيه أيضا ليخلو لهم وجه أبيهم منهما ألم تسمع الى قولهم ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا وكذلك جاء فى الخبر انهم أرادوا أن يلقوا أخاه معه فى الجب حتى ألقى نفسه عليه يهوذا فشفع فيه فرحمه ومنعهم منه وكان شديدا منهم منيعا مهيبا فيهم وقد قيل انه استوهبه منهم وقال دعوه يكون فيه سلوة للشيخ الكبير لا تفجعوه بهما ولا تفقدوه اياهما معا فوهبوه له ثم ان الله تعالى لم يقل مع ارادتهم لذلك وهمهم به وكانوا فيهما من الزاهدين من قبل انهم لم يتحققوا بالزهد فيه كالزهد فى أخيه لأنه كان فى أيديهم لم يخرجوه فكذلك أنت اذا كان الشيء موجودا عندك وأنت ممسكه لنفسك ثم توهمت انك زاهد فيه لخواطر الارادة أو لارادة الزهد فقد كذبت على نفسك بتمسكك إياها زاهدا وكذبتك نفسك بوجودها جهلا منها بالعلم زهدا أو كذب وجدك على العلم جهلا منك بربك عز وجل أو موهت على نفس غيرك ممن لا يعرف الزهد وهذا زهد منك فى الزهد و رغبة منك أيضا فى الدنيا حتى يخرج الشيء الذى تظن أنك زهدت فيه وتعتاض منه محبة الله تعالى وطلب مرضاته تبارك وتعالى أو ماعنده من ثوابه فحينئذ يصح زهدك فيه على العلم وعند العلماء فتكون صادقا فهنك وصفك الزاهد بالزهد وسماك الزاهدون زاهدا فأما اذا لم يكن الشيء موجودا لك فان زهدك فيما لا تملك لا يصح والزهد فى معدوم باطل من قبل ان تصرفك لا يصح فيما لا تملك فكذلك لا يصح زهدك فيه ولعله لو كان موجودا تغير قلبك به وتقلب فيه إذ ليس الخبر كالمعاينة لأن الخبر قد يشتبه ويوهم والمعاينة تكشف الحقيقة وتحكم على الخلقة ولأن النفس ذات بدوات لما طبعت عليه من حب المتعة بالرفاهية فكذلك لا يجعل ظنا معدوما كيقين موجود إذ لو كان كيف كان الأمر ولكن قد يكون لك مقام من الزهد فى المعدوم بقيامك بشرطه وهو أن لا تحب وجود الشيء ولا تأسى على فقده أو تكون مغتبطا بعدمك مسرورا بفقرك يعلم الله تعالى ذلك من غيبك ويطلع على سرك انك لا تفرح بوجوده لو وجدته وتخرجه إن دخل عليك وإن قلبك قانع بالله سبحانه وتعالى راض عن الله تعالى بحالك التى هى العدم من الدنيا غير محب للاستبدال بها من الغنى بصدق يقينك بفضيلة الزهد فاذا كنت بهذا الوصف حسب لك

جميع ذلك زهدا وكان لك بأحد هذه المعانى ثواب الزاهدين وان لم تكن للدنيا واجدا وهذا زهد الفقراء الصادقين وهو التحقق بالفقر وقد قال بعضهم حقيقة الفقير أن يكون مغتبطا بفقره خائفا أن يسلب الفقر كما يكون الغنى مغتبطا بغناه يخاف الفقر وقد كان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول اذا قيل له انك زاهد قال انما الزاهد عمر بن عبد العزيز جاءته الدنيا وملكها فزهدفيها فأما أنا ففي أى شيء زهدت وقد يصح الزهد للعارف فى الشيء مع وجوده عنده اذا لم يقتنيه لمتعة نفسه ولم يتملكه ويسكن اليه بل كان موقوفا فى خزانة الله سبحانه وتعالى التى هى يده منتظرا حكم الله تعالى فيه ومحنة ذلك استواء وجوده وعدمه والمسارعة اذا رأى حكم الله تعالى الى تنفيذه فيكون فى ذلك كأنه لغيره ممن عليته أو اخوانه أوسبيل من سبيل الله تعالى وهذا المقام زائد على الزهد فكذلك لم يخرج منه بل كان مخصوصا فيه بخصوص وهو أيضا مقام من التوكل وبيان آخر مستنبط من السنة فى ماهية الزهد أى شيء هو الزهد أيضا تقليل الدنيا وتقريبها واحتقارها بالقلب واستصغارها من ذلك الخبر الذى جاء فى ساعة يوم الجمعة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال هى فى آخر ساعة قال وجعل يزهدها يقللها أى يقرب وقتها ويدنيه من الغروب والمعنى الآخر فى الخبر الثانى من قول النبى صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه لما نزلت آية الأمر بالصدقة لمناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له كم ترى أن يجعل عليهم من الصدقة مقدمة للمناجاة فقال شعيرة من ذهب قال انك لزهيد أى مقلل مصغر للدنيا ولكن يجعل عليهم دينارا وزهيد كأنه معدول من زاهد للمبالغة فى الوصف بالزهد كما عدل شهيد من شاهد ومجيد من ماجد وكما عدل عليم وقدير ورحيم من عالم وقادر وراحم للمبالغة فى العلم والقدرة والرحمة

ذكر وصف الزاهد وفضل الزهد

قوت الزهد الذى لابد منه وبه تظهر صفة الزاهد وينفصل به عن الراغب هو أن لا يفرح بعاجل موجود من حظ النفس ولا يحزن على مفقود من ذلك وأن يأخذ الحاجة من كل شيء عند الحاجة الى الشيء ولا يتناول عند الحاجة الاسد الفاقة ولا يطلب الشيء قبل الحاجة وأول الزهد دخول غم الآخرة فى القلب ثم وجود حلاوة المعاملة لله تعالى ولا يدخل غم الآخرة حتى يخرج هم الدنيا ولا تدخل حلاوة المعاملة حتى تخرج حلاوة الهوى وكل من تاب من ذنب ولم يجد حلاوة الطاعة لم يؤمن عليه الرجوع فيه وكل من ترك الدنيا ولم يذق حلاوة الزهد رجع فى الدنيا ولا يدخل حلاوة المعاملة حتى يخرج حلاوة الهوى وخالص الزهد اخراج الموجود من القلب ثم اخراج ماخرج من القلب عن اليد وهو عدم الموجود على الاستصغار له والاحتقار والتقالل لهوان الدنيا عنده وصغرها

فى عينه فبهذا يتم الزهد ثم ينسى زهده فى زهده فيكون حينئذ زاهدا فى زهده لرغبته فى مزهده وبهذا يكمل الزهد وهذا لبه وحقيقته وهو أعز الأحوال فى مقامات اليقين وهو الزهد فى النفس لا الزهد لأجل النفس ولا للرغبة فى الزهد للزهد وهذه مشاهدة الصديقين وزهد المقربين عند وجد عين اليقين ودون هذا مقامات اخراج المرغوب فيه عن اليد مع نظره اليه وعلى مجاهدة النفس فيه وهو زهد المؤمنين وذلك العمل بالزهد عقد وعمل إذ كان الزهد عن الايمان والايمان قول وعمل وكذلك الزهد عقد وعمل فعقده خروج حب الدنيا من القلب بدخول حب الآخرة فى القلب والعمل بالزهد اخراج المحبوب من اليد فى سبيل الله تعالى معتاضا منه ما عنده سبحانه وتعالى من وجهه الكريم جل وتعالى أو قرب جواره فى داره وان لم تكن الدنيا موجودة فان ترك الأسف عليها وقلة الحرص فيها وترك الطلب والتمنى لها وسكون القلب مع العدم ورضاه بيسير القسم يحسب للعبد زهدا لأن ذلك حال الفقير فاذا قام بحكمه لم يجب عليه أكثر من القيام به والورع هو من الزهد كما الزهد من الايمان والحياء والايمان فى قرن واحد كما جاء فى الخبر اذا نزع أحدهما تبعه الآخر وروينا فى ذلك حديثا من طريق أهل البيت الزهد والورع يجولان فى القلب كل ليلة فان صادفا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه والا ارتحلا والقناعة باب من الزهد أيضا والرضا باليسير من الأشياء حال من الزهد والتقلل فى الأشياء مفتاح الزهد وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب الفرح بالموجود والحزن على المفقود والسرور بالمدح فاذا فرحت بالموجود فانت حريص والحريص محروم واذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب واذا سررت بالمدح فانت معجب والعجب يحبط العمل وقال الله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم أى منها وهذان الوصفان هما أتم حال فى الزهد من أعطى أحدهما تبعه الآخر لأن الذى لا يأسى على ما فاته من الدنيا هو الذى لا يفرح بما أتاه منها لانه مثله والذى لا يفرح بما أتاه منها هو الذى لا يحزن على ما فاته وهذا وصف عبد غير متملك للملك وسيما عبد قائم بحكم رب ونعت عبد موقن محب قد شغلته مشاهدة الآخرة عن التفرغ لمتعة الدنيا وقد فرغته معاينة الآخرة من الاشتغال بما يعنى وفى أحد الوجوه من قوله تعالى وانه هو أغنى وأقنى قيل أغنى أهل الآخرة بالله سبحانه وتعالى وأغناهم عن الدنيا بالآخرة وأقنى أهل الدنيا من الدنيا أى جعل لهم قنية ومدخرا وعدة كما وصف من ذمه من قوله تعالى جمع مالا وعدده أى قال هذا عدة لكذا وهذه عدة لكذا فهدده بالويل فحصل من ذلك أن الزاهد فى المال هدته الله تعالى فى كل الاحوال وكنزه وذخره وطوبى له وحسن مآب وروينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كفى باليقين غنى وكفى بالعبادة شغلا وكفى بالموت واعظا وهذا جملة وصف الزاهد الموقن الذى

هو للموت مرتقب مع الخبر المشهور ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الزهد فى الدنيا علما لحقيقة الايمان وقربه بمشاهدة الايقان فى قوله عليه الصلاة والسلام لحارثة عرفت فالزم عبد نور الله قلبه لما قال أنا مؤمن حقا قال وما حقيقة إيمانك فابتدأ بالزهد فقال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وذهبها وكأنى بالجنة والنار وكأنى بعرش ربى بارزا وأشد من هذا الخبر الآخر الذى جعل النبي صلى الله عليه وسلم الزهد من علامة شرح الصدر بالنور وهو نور التصديق الذى هو عموم وصف المؤمنين لانه هو فى التحقيق الاسلام ففسر قوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام قيل يارسول الله ماهذا الشرح قال ان النور اذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفتح قيل يارسول الله هل لذلك من علامة قال نعم التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله فهذا هو الزهد جعله شرطا لحقيقة الاسلام وأشد من هذين الخبرين الخبر الثالث الذى فسر الحياء من الله تعالى بالزهد فى الدنيا فقال استحيوا من الله تعالى حق الحياء قلنا انا لنستحى قال تبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون وبمعنى هذا تم ايمان الوفد الذين سألهم ما أنتم فقالوا مؤمنون قال وما علامة ايمانكم فذكروا الصبر على البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشماتة بالمصيبة اذا نزلت بالاعداء فقال عليه الصلاة والسلام ان كنتم كذلك فلا تجمعوا مالا تأكلون ولا تبنوا مالا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون فهذا هو الزهد جعله تكملة ايمانهم وعلو مقامهم وتماما على احسانهم وأعظم من هذه كلها الخبر الرابع الذى جعل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الزهد من شرط اخلاص التوحيد فى حديث رويناه عن ابن المنكدر عن جابر قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من جاء بلااله الا الله لا يخلط معها غيرها وجبت له الجنة فقام اليه على كرم الله وجهه فقال بأبى أنت وأمى يارسول الله مالا يخلط بها غيرها صفه لنا نسره لنا فقال حب الدنيا وطلبها واتباعها وقوم يقولون قول الانبياء ويعملون أعمال الجبابرة فمن جاء بلااله الا الله ليس شىء فيها من هذا وجبت له الجنة ولذلك كان على رضى الله عنه يجعل الزهد مقاما فى الصبر ويجعل الصبر عمدة الايمان فى حديثين رويناهما عنه أولها قوله فى الحديث الطويل الذى رواه عكرمة وعتبة بن حميد والحرث الأعور وقبيصة بن جابر الاسدى فى مبانى الايمان انه قال الايمان على أربع دعائم على الصبر واليقين والعدل والجهاد ثم قال فيه والصبر منها على أربع شعب على الشوق والشفق والزهادة والترقب فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات ومن ترقب الموت سارع فى الخيرات والخبر الآخر فى الصبر الذى جعله عمود الايمان ينهدم الايمان بهدمه هو قوله والصبر من الايمان

بمنزلة الرأس من الجسد لا جسد لمن لا رأس له ولا ايمان لمن لا صبر له وروينا فى خبر مقطوع السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك فكان هذا الحديث مفسرا للخبر المجمل السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار فسر فى ذلك الخبر بأى معنى يكون السخى قريبا من الله تعالى قريبا من الجنة لان السخاء من اليقين وبأى معنى يكون البخيل بعيدا من الله تعالى قريبا من النار لأن البخل من الشك فالسخاء وصف الزاهد ولا يكون الزاهد الا سخيا والبخل وصف الراغب ولا يكون الحريص الا بخيلا ولا يكون البخيل زاهدا لأن الزهد يدعو الى اخراج الشىء والبخل يدعو الى امساكه فنفس السخاء زهد فلذلك ذم البخل لأنه رغبة فى الدنيا ثم ان الحرص علامة البخل لأنه دليل الرغبة والقناعة علامة السخاء لانها باب الزهد فلذلك قيل سخاء النفس عما فى أيدى النفس أفضل من سخاء البذل ثم يفترقان فى الحكم بعد اجتماعهما فى الاسم فمن جاد بملكه لله تعالى كان زاهدا فيه لله تعالى ووقع أجره على الله ومن جاد بماله لأجل الناس كان أيضا زاهدا فى ذلك موصوفا بالسخاء ولكن ذلك لنفسه ولاجل هواه ولا أجر له عند الله تعالى اذ لم يكن من عمال الله تعالى فبطل أجره لانه عمل لنفسه وحصل شكره وذكره فى الدنيا لانه عمل لاجل الناس كما قال ابن المبارك رحمه الله ما رأيت بين الفتوة والقراءة فرقا الا فى شىء واحد ما حظرت القراءة شيأ الا قبحته الفتوة وانما يفترقان فى ان القراءة يراد بها وجه الله تعالى والفتوة يراد بها وجوه الناس ومدحهم وقد كان أستاذ سفيان الثورى رحمه الله يقول من لم يحسن يتفتى لم يحسن يتقرى أى من لم يعرف أحكام التفتى فيقوم بها حتى يستحق وصف فتى لم يحكم أوصاف التقرى حتى يوصف بأنه قارىء ثم ان العبد قد يجاهد نفسه على الزهد كما يجاهدها على مخالفة الهوى وكما يجاهدها بالصبر على الحق بأن يخرج المرغوب وينفق المحبوب على كراهة من النفس وحمل بالزهد عليها فيكون له مقام فى الزهد ينال البر ويستوجب مدحا من البر والمتزهد غير الزاهد وهو الذى يتصنع للزهد ويعمل فى أسبابه من التقلل ورثاثة الحال فى كل شىء فمثله مثل المتصبرين من الصابر الذى يحمل على نفسه بالصبر ويصابرها على الحلم فيكون له مقام من الصبر وصفوة الزهد انتظار الموت وقصر الامل لان فيهما ترك الادخار وتحسين الاعمال وقال ابن عيينة حد الزاهد أن يكون شاكرا عند الرخاء صابرا عند البلاء وقال بشر بن الحرث رحمه الله الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس من زهد فيهم فقد زهد فى الدنيا وكذلك قال بعض الحكماء اذا طلب الزاهد الناس فاهرب منه واذا هرب من الناس فاطلبه وقيل ليحيى بن معاذ رحمه الله متى يكون الرجل زاهدا فقال اذا بلغ حرصه فى ترك الدنيا حرص الطالب لها كان زاهدا وقال قاسم الجوعى الزهد فى الدنيا

هو الزهد فى الجوف بقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد فكانت الدنيا عنده الشبع وأكل الشهوات وقال فضيل بن عياض رحمه الله الزهد هو القناعة فكانت الدنيا عنده هو الحرص والشره وقال الثورى الزهد هو قصر الامل فكانت الدنيا عنده طول الامل وكان أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى يقول الدنيا كل ما يشغلك عن الله تعالى فكان الزهد عنده التفرغ لله تعالى وقد قال انما الزاهد من تخلى عن الدنيا واشتغل بالعبادة والاجتهاد فأما من تركها وتبطل فانما طلب الراحة لنفسه وكان داود الطائى رحمه الله تعالى يقول كلما شغلك عن الله تعالى من أهل أو مال فهو عليك شؤم وقال أبو سليمان من تزوج أو كتب الحديث أو طلب معاشا فقد ركن الى الدنيا وقرأ قوله تعالى الا من أتى الله بقلب سليم قال هو القلب الذى ليس فيه غير الله تعالى وقال انما زهدوا فى الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة وقد قال أويس القرنى رحمه الله تعالى اذا خرج يطلب ذهب الزهد وكان امامنا وشيخ شيخنا أبو محمد سهل بن عبد الله رحمه الله يقول أول الزهد التوكل وأوسطه اظهار القدرة وقال لا يزهد العبد زهدا حقيقيا لا رجعة بعده الا بعد مشاهدة قدرة فان أول القدرة عندى أن يشهد ما سمع من كلام القادر المزهد اذ يقول تبارك وتعالى ومما توقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله فالحلية الذهب والفضة وهما قيم الاشياء اللذان ملكا النفوس ونكسا الرؤس فالمتاع ما سواهما من معادن الأرض فاذا شهد العبد الذهب الذى هو سبب الدنيا ولاجله أشرك من أشرك وبحبائله ارتبك من ارتبك ولوقوع حلاوته فى القلب وقع من وقع فاذا شهد جوهر الذهب والفضة زبدا طافيا على وجه الماء لا نفع فيه ولا غنية به ولا قيمة له زهد فيه حينئذ زهدا صادقا فكان زهده معاينة لا خبرا وكان من المؤمنين حقا الذين وصفهم الحق بالحق فى قوله تعالى اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا فالزهد مزيد الايمان ثم قال وعلى ربهم يتوكلون فالزهد يدخل فى التوكل ثم قال فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون فالتوكل يوقف على الصبر وكان هذا قد سمع من كلام الله تعالى فعقله فابلغه الله تعالى مأمنه فى المقام الأمين فى جنات وعيون واستحق وصف الله تعالى بالايمان اذا تلا القرآن بحقيقة الايقان فقال عز وجل الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به وذلك أن هذا الزبد تشبيه من الله تعالى لمثل ضربه للحق والباطل فالمثل هو الماء والزبد فمثل الحق فى نفعه وبقائه بالماء ومثل الباطل فى ذهابه وقلة نفعه بالزبد ثم شبه الذهب لذهابه عن الحقيقة بالزبد تشبيه مماثلة لا تشبيه مجاز لقوله زبد مثله والمماثلة مستقصاة ثم قال كذلك يضرب الله الامثال للذين استجابوا لربهم الحسنى أى الجنة والبقاء وقال تعالى للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء هم المريدون للحياة الدنيا وزينتها الراضون المطمئنون بها ليس لهم فى الآخرة الا

النار فسبحان من نفد بصره الابصار وسبحان مقلب الليل والنهار وسبحان من كل شيء عنده بمقدار يبصر مالا نبصر كما يقدر على مالا نقدر خص المشاهدين بمعنى مشاهدته كما خصهم بالاحاطة بشيء من علمه فاحاط عليهم بما شاء لما أحاط لهم ما شاء فكان الذهب والفضة عندهم زبدا طافيا تفرقه الرياح فيكون فوق الماء متجافيا وهما من معادن الجبال فكانت الجبال عندهم امواجا ثابتة باثبات وساكنة بتسكين تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيء وصارت الارض بحرا عجاجا يضرب بالامواج فيظهر بينهما من المدن والقفار للاستواء والاعوجاج وصار الانام يسبحون فى الاسراب يدبون بين المناكب والاحداب أظهر فيهما من كل شيء موزون بمقدار كتنفس النهار فى الليل وكالغثاء على السيل ذلك لظهور حكمته وخفى قدرته ولطيف صنعه ودقيق صنعته ذلك لشهود نعمته من القيام بشكره وجعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وهم من كل حدب ينسلون اذ ربى لطيف لما يشاء فاجتمع الفرق وارتتق الفتق وغاب كل متفرق ونطق وكان عرشه على الماء ليبلوكم فهذه مشاهدة أبناء الآخرة هى أعلى من زهدهم فى الدنيا وافترق الجمع وافتتق الرتق وظهر من الماء كل شيء حى ظاهر واتسع الفضاء واستتر الغطاء ووجد التفصيل وحكم الحسبان بالتحصيل كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون هذه مشاهدة أبناء الدنيا هى أعظم عليهم اذا تيقظوا من غيبهم وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا هذه مشاهدة العموم عند الموت فيعظمه عليهم بالحسرة الفوت وقد فرغ الخصوص من نصيبهم لمشاهدته فهم ناظرون الى مستقبل المزيد مشغولون به عن العبيد قائمون بشاهد الحق لهم متصرفون باشهاده إياهم ظاهرا وباطنا ولطيفا ومستترا ومعروفا ومنكرا والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون فما غلب عليه لايظهر وما غلبه عليهم إياهم قهر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق كلمة قالها الشاعر * ألا كل شيء ماخلا الله باطل * وقال فالحق والحق أقول خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول لو فسرت لكم هذه الآية لكفرتم قيل وكيف قال كنتم تنكرونها وانكاركم لها كفر بها وفى لفظ آخر لو فسرت الآية التى فى سورة النساء القصرى لرجمتمونى بالحجارة معناه لكفرتمونى لأنهم لايقتلون إلا كافرا عندهم وروينا عنه فى قوله تعالى جميعا منه قال فى كل شيء اسم حرف من أسمائه فاسم كل شيء من اسمه فانما أنت بين أسمائه وصفاته وأفعاله ناطقا بقدرته وظاهرا بحكمته وبمعناه كان أبو محمد رحمه الله تعالى يتأول قوله مانزل من السماء

أعز من اليقين فغابت السبع فى السبع العلى والسبع السفلى لما طوى نفس الهوى وغابت العليا والسفلى فى ملكوت العرش والثرى لما طوى طى النفس وغاب العرش والثرى فى جبروت الأعلى لما محى طى الطى وحضر الأزلى الأول اذا غاب الحدثان الثانى وظهر الباطن الاخير حين بطن الظاهر الساتر فصار العبد شهيدا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم ألا كل شىء ماخلا الله باطل وأراه الآيات فى الآفاق فتبين الحق بقول الحق سبحانه وتعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ألا انهم فى مرية من لقاء ربهم ألا انه بكل شىء محيط وكذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم للرجل الذى قال اللهم أرنى الدنيا كما تراها فقال لا تقل هكذا فان الله تعالى لا يرى الدنيا كما تراها ولكن قل أرنى الدنيا كما يراها الصالح من عبادك وهذه شهادة أهل الله تعالى وغابت فيه الشهادة الأولى كما غيبت تلك الأولى مشاهدة أهل الدنيا فكشف هذا المقام وإظهار هذه الشهادة لا تحل الا لشهيد ذى مقام فى الصديقين عتيد وقال الحكيم لقد عزت معانيه فغابت عن الأبصار الا الشهيد وهم أولو المطلع فى القرآن الذين سلموا من هول المطلع فى العيان وافشاء سر الربوبية معصية واعلان سر السر كفر ولكن يحتاج هذا الزاهد أن يشهد المزهود بمنزلة الزبدان لم يبلغ نظره شهادة المزهد الأحد ليكون من أهل السمع والشهادة فينسى بذكر قلبه معارفه والعادة ويكون عند الله شهيدا له أجره ونوره كما قال الشاهد الأعلى والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم فكيف يكون شهيدا من لم يشهد بشهادته بل كيف يشهد وصف الأولية بغير نورها أم كيف يقوم بشهادته من لم يشهد قيوميته بل كيف يرى قيوميته بغير نور وحدانيته فان لم يقرب فى هذا المكان فكما قال أو ألقى السمع وهو شهيد فيسمع من مكان هو الى جنب القرب بعيد ويكون من أهل البيان والفكر كقول الحق المبين كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة أى تتفكرون فى فناء الدنيا وزوالها وبقاء الآخرة ودوامها فتؤثرون الباقى الدائم وترغبون فيه على الزائل الفانى وتزهدون فيه لأن مايكون آخره فناء يشبه آخره أول أمره وأوله لم يكن ومايكون آخره بقاء فكأنه لم يزل فاشبه أوله آخره فى البقاء وكذلك قال العليم الحكيم والآخرة خير وأبقى فوصفها البقائها فى المآل بوصفين من صفاته كما قال تعالى والله خير وأبقى ولانه قال تعالى ماعندكم ينفد وماعند الله باق فنسب الدنيا الينا ليذلنا بها لانا أهل الفناء وليزهدنا فيها وأضاف الآخرة اليه ليعزها به لانه أهل البقاء وليرغبنا فيها فاذا شهد العبد بعين قلبه ويقين ايمانه ماصدق به مما عقله الذى هو فهم سمعه وادراك خبره مايفنى آخره كأنه لم يكن ومايبقى آخره كأنه لم يزل كان من المتفكرين فى هذه الآية المشاهدين لها وممن تلاها حق تلاوتها فآمن حقيقة الايمان وزهد فى الدنيا حقيقة الزهد ورغب فى الآخرة حق الرغبة وكان من أولى

الايدى والأبصار أى من ذوى القوى فى الدين والبصائر فى اليقين فلما أبصر بقواه عبر الدنيا الى الله تعالى وكان زاده تقواه كما قال تعالى ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون أى تذكرون الفرد ففروا الى الله أى من الاشكال والاضداد وكما قال فاعتبروا ياأولى الابصار فعبر لما أبصر معه عندها كان ممن أخذ الكتاب بقوة قيل بعمل فيه وقيل بيقين فيه ويقال بجد واجتهاد فكان من المحسنين الذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض الآية وقال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ويل لمن تلاها ومسح بها سبلته وذلك أن السموات والأرض عبر بهما عما وراءهما من درجات الجنان ودركات النيران وهو الملكوت الى الملك الباطن والملك الكبير فكشف هذان عما علا وسفل وأحاط بهما من العرش والثرى لمن تفكر فيهما ثم كشف ذلك له ورآه من العزة وجاوزت الافكار الملكوت لما شرحت القلوب بأنوار اليقين الى الأفق الأعلى والجبروت فنفذت أبصار المتفكرين بقواها الى مشاهدة ذلك وبقيت أنوار يقينهم معاينة ما أحاط بذلك وهو ماقدمناذكره آنفا مالم يظهر كشفه كنحو مانبه الله تعالى العباد بما يشهدون الى ماوراءه مما به أيقنوا وللمؤمنين مشاهدة للدنيا قريبة دون هذه من طريق العقول يشهدون انها عقوبة كما قيل مافتحت الدنيا على عبد الا مكرا به ولا زويت عنه الا نظرا له وسمعنا فى أخبار داود عليه السلام ان الله تعالى أوحى اليه تدرى لم ابتليت آدم بأكل الشجرة لانى جعلت معصيته سببا لعمارة الدنيا فينبغى فى دليل الخطاب أن تكون الطاعة سبب خرابها وهو الزهد فيها فصح بذلك الخبر المشهور حب الدنيا رأس كل خطيئة لانه كان أساسها ولكن لا يسع ذلك العامة لأنهم مرادون بالعمارة وصلح لنفر من الخاصة لان نقصان عددهم من الكافة لا ينقص عمارة الدنيا اذ المراد عمارتها بأهلها ويقال عن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الثفل ولم يكن ذلك مجعولا فى شىء من أطعمة الجنة الا فى هذه الشجرة فلذلك نهيا عن أكلها قال فجعل يدور فى الجنة فأمر الله تعالى ملكا يخاطبه فقال له أى شىء تريد فقال آدم عليه السلام أريد أن أضع مافى بطنى من أذى فقيل للملك قل له فى أى مكان تضعه على الفرش أم على السرر أم على الانهار أم تحت ظلال الاشجار هل ترى ههنا موضعا يصلح لذلك ولكن اهبط الى الدنيا قال وتلطف الله تعالى له بهذا المعنى فاهبطه الى الارض وقد نغص الله تعالى فاكهة الدنيا وغيرها بحشو العجم والثفل ليزهد فيها وأخبر انها مقطوعة ممنوعة ليرغب فى الدائم الموهوب وكان بعض العلماء يقول ماسطع لى زينة من زخرف الدنيا الا كشف لى باطنه فظهر لى عزوف عنه فهذه عناية من الله تعالى بمن وليه من أوليائه المقربين منه فمن شهد الدنيا بأول وصفها لم يغتر بآخره ومن عرفها باطن حقيقتها لم يعجب بظاهرها ومن كوشف بعاقبتها لم

يشتهوه زخرفها وكان عيسى عليه السلام يقول ويلكم علماء السوء مثلكم مثل قناة حش ظاهرها جص وباطنها نتن وقال مالك بن دينار رحمه الله اتقوا السحارة فانها تسحر قلوب العلماء يعني الدنيا فمن حرص على الدنيا بالباطل فقد قتل نفسه فان قوى حرصه عليها واشتد عشقه لها قتل غيره قال الله تعالى ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ولا تقتلوا أنفسكم وقال في قتل غيره بصده اياه عن سبيل الله ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله وروينا في أخبار عيسى عليه السلام أنه مر في سياحته ومعه طائفة من الحواريين بذهب مصبوب في الأرض فوقف عليه ثم قال هذا القاتول فاحذروه ثم عبر وأصحابه فتخلف ثلاثة لأجل الذهب فأقام اثنان ودفعا الى واحد شيأ منه يشتري لهم من الطيبات من أقرب الامصار اليهم فوسوس اليهما العدو ترضيان أن يكون هذا المال بينكم أثلاثا اقتلوا هذا فيكون المال بينكم نصفين فاجمعا على قتله اذا رجع اليهما قال وجاء الشيطان الى الثالث فوسوس اليه أرضيت لنفسك أن تأخذ ثلث المال اقتلهما فيكون المال كله لك قال فاشترى سما فجعله في الطعام فلما جاءهما به وثبا عليه فقتلاه ثم قعدا يأكلان الطعام فلما فرغا ماتا فرجع عيسى عليه السلام من سياحته فنظر اليهم حول الذهب صرعى والذهب بحاله فعجب أصحابه وقالوا ماشأن هؤلاء فأخبرهم بهذه القصة وقيل لابن المبارك من الناس قال العلماء قيل فمن الملوك قال الزاهدون وروينا عن ابن المسيب عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من زهد في الدنيا أدخل الله تبارك وتعالى الحكمة قلبه وأنطق بها لسانه وبصره داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما الى دار السلام وروينا في الخبر الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول رأيت سبعين بدريا كانوا والله فيما أحل الله تعالى لهم أزهد منكم فيما حرم الله تعالى عليكم وفي حديث آخر كانوا بالبلاء والشدة تصيبهم أشد فرحا منكم بالخصب والرخاء لو رأيتموهم قلتم مجانين ولو رأوا خياركم قالوا مالهؤلاء من خلاق ولو رأوا شراركم قالوا مايؤمن هؤلاء بيوم الحساب قال وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف أن يفسد على قلبي فمن كان له قلب حفظه من فساده وخاف من تغيره وابعاده وعمل في صلاحه وارشاده ومن لم يكن له قلب فهو يتقلب في ظلمات الهوى فربما انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة أو يكون من أهل الرضا بالدنيا وأهل الغفلة عن آيات الله تعالى فيكون قد رضى بلا شيء وآثره على من ليس كمثله شيء كوصف من أخبر الله تعالى عنه في قوله تعالى ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون فيستحق الاعراض من الحبيب ويستوجب المقت من القريب كمثل من أمر الله تعالى بالاعراض عنهم وترك القبول منهم اذ يقول عز من قائل فأعرض عمن تولى عن ذكرنا

ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم وقال عز وجل ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا أى مجاوزا لما نهى عنه مقصرا عما أمر به وقيل مقدما الى الهلاك وقد نهى الله تعالى رسوله أن يوسع نظره الى أهل الدنيا مقتا لهم وأخبر أن ما أظهره من زهرة الدنيا فتنة لهم وأعلمه أن القناعة والزهد خير وأبقى تنتظم هذه المعانى فى قوله تعالى ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى قيل القناعة وقيل قوت يوم بيوم ويقال الزهد فى الدنيا وهذا الوجه أشبه بكتاب الله تعالى بدليل قوله تعالى والآخرة خير وأبقى وكذلك قوله تعالى ورزق ربك خير وأبقى يعنى الزهد فى الدنيا وقال أيضا فى مثله بقية الله خير لكم يعنى القناعة وقيل الحلال وفى خبر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر فى أصحابه بعشار من النوق حفل وهى الحوامل وكانت من أحب أموالهم اليهم وأنفسه عندهم لانها تجمع الظهر واللحم واللبن والولد والوبر وهى الرواحل من الابل التى ضرب النبى صلى الله عليه وسلم بها مثل خيار الناس فقال عليه السلام الناس كابل مائة لاتكاد تجد فيها راحلة أى الابل كثيرة والراحلة التى تجمع هذه الاوصاف الخمسة من الابل قليل وهى العشار التى ذكر الله تعالى فى قوله واذا العشار عطلت أى تركها أهلها وهربوا لهول قيام الساعة شغلا بنفوسهم عنها قال فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له يارسول الله هذه أنفس أموالنا لم لاتنظر اليها فقال قد نهانى الله تعالى عن ذلك ثم تلا هذه الآية ولا تمدن عينيك الآية وفى حديث عمر رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية والذين يكنزون الذهب والفضة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تبا للدنيار والدرهم فقلنا نهانا الله تعالى عن كنز الذهب والفضة فأى شىء ندخره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة صالحة تعينه على أمر الآخرة وفى حديث حذيفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله تعالى بثلاث هما لا يفارق قلبه أبدا وفقرا لا يستغنى أبدا وحرصا لا يشبع أبدا وروينا حديثا مرسلا عن على بن معبد عن على بن أبى طلحة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون أن لا يعرف أحب اليه من أن يعرف وحتى يكون قلة الشىء أحب اليه من كثرة الشىء وروينا عن عيسى عليه السلام الدنيا قنطرة خلقت يعبر عليها الى الآخرة فاعبروها ولا تعمروها وقال له رجل احملنى معك فى سياحتك فقال أخرج مالك والحقنى قال لا أستطيع فقال عيسى عليه السلام بشدة يدخل الغنى الجنة أو قال بعجب وقالوا له لو أمرتنا يانبى الله أن نبنى بيتا نعبد الله فيه فقال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء قالوا كيف يستقيم بنيان على الماء قال فكيف تستقيم عبادة على حب الدنيا وقال لا يبلغ أحدكم حقيقة الايمان

حتى لا يحب أن يحمد بعبادة الله تعالى ولا يبالى من أكل الدنيا وكان بشر بن الحرث يقول لاتحسن التقوى الا بزهد وقال مرة العبادة لا تليق بالأغنياء مثل العبادة على الغنى مثل روضة على المزبلة ومثل العبادة على الفقير مثل عقد الجوهر فى جيد الحسناء وقد استنبطنا ذلك من كتاب الله تعالى فمعنى وصف الفقراء فى العبادة فى قوله سبحانه وتعالى للفقراء المهاجرين الذين أحصروا فى سبيل الله ثم قال تراهم ركعا سجدا فحسنت لبسة العبادة عليهم لحسن سيماهم بالفقر وروينا فى وصية لقمان لابنه وهو يحذره مداخل العدو قال واذا جاءك من قبل الفقر فاخبره أن الغنى من أطاع الله تعالى والفقير من انتهك معصيته واذا شهى اليك الغنى فاخبره أنه لا يحسن جمع الغنى والقراءة وقال بعض السلف أبى أهل العلم بالله تعالى أن يسمعوا الحكمة والوعظ الا من الزاهدين فى الدنيا وقالوا ليس أهل الدنيا لذلك أهلا ولا يليق بهم وروينا عن عيسى عليه السلام فيما أوحى الله تعالى اليه يا ابن آدم ابك أيام الحياة بكاء من ودع الدنيا وارتفعت رغبته الى ما عند الله تعالى اكتف بالبلغة من الدنيا ليكفك منها الجشب والخشن بحق أقول لك ما أنت الا بيومك وساعتك مكتوب عليك ما أخذت من الدنيا وفيما أنفقته فاعمل على حسب هذا فانك مسؤل عنه لو رأيت ما وعدت الصالحين لزهقت نفسك فكان عيسى عليه السلام يقول حلاوة الدنيا مرارة الآخرة وجودة الثياب خيلاء القلب يعنى اعجابه وكبره وملء البطن جمام النفس يعنى قوتها واجتماعها بحق أقول لكم كما لا يلذ المريض بطيب الطعام كذلك لا يجد حلاوة العبادة من أحب الدنيا ومن الزهد فى الدنيا ترك الملبس الناعم والمنظور اليه المرتفع واجتناب النزهات من لطائف الطعام والتفتق فى الشهوات التى يرغب فيها المتنعمون وترك الزينة والمفاخر من الآلة والاثاث الذى يستأنس فيه المترفون ومن الزهد أن يكون الشىء الواحد يستعمل فى أشياء كثيرة كذلك كان سيرة السلف فى الاثاث وهو التقلل كما ان أبناء الدنيا يستعملون للشىء الواحد أشياء كثيرة وهو وصف من التكاثر وذلك من أبواب الدنيا وقال بعض السلف أول النسك الزى وقال بعض العلماء من رق ثوبه رق دينه وقال ابن مسعود رضى الله عنه لا يشبه الزى الزى حتى يشبه القلب القلب وفى الخبر المشهور البذاذة من الايمان قيل هو التقارب فى اللباس والحديث المفسر من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى خيره الله تعالى من حلل الايمان أيها شاء وفى لفظ آخر من ترك زينة لله تعالى ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله تعالى وابتغاء وجهه كان حقا على الله تعالى أن يدخر له من عبقرى الجنة فى تخات الياقوت ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل قبا أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح من يده قال أما انى لست أحرمه ولكنى أتركه تواضعا لله تعالى وأتى عمر رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يوم صائف فقال اعزلوا عنى حسابها وحى

الله تعالى الى نبي من أنبيائه قل لاوليائى لا تلبسوا ملابس أعدائى ولاتدخلوامداخل أعدائى فتكونوا أعدائى كماهم أعدائى ولما خطب بشر بن مروان على منبر الكوفة قال بعض الصحابة انظروا الى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق قلت وما كان عليه قال ثياب رقاق وجاء عامر بن عبدالله بن ربيعة الى أبي ذر رضي الله عنه فى بزته فجعل يتكلم فى الزهد فوضع أبو ذر راحته على فيه وجعل يضرط به فغضب عامر فأتى ابن عمر رضى الله عنهما فقال ألم ترمالقيت من أخيك أبى ذر قال وماذاك قال جعلت أقول فى الزهد فأخذ يهزأبى فقال ابن عمر أنت صنعت بنفسك تأتى أباذر فى هذه البزة وتتكلم فى الزهد وقال على كرم الله وجهه ان الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوال الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره وقد عوتب عمر رضى الله عنه فى لباسه وكان يلبس الخشن من القطن قيمة قيصه ثلاثة دراهم وخمسة دراهم ويقطع مافضل عن أطراف أصابعه وقال هذا أدنى الى التواضع وأجدر أن يقتدى بى المسلم وأتت برود من اليمن الى عمر رضى الله عنه فقسمها على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بردا بردا ثم صعد المنبر يوم الجمعة فخطب الناس فى حلة منها والحلة عند العرب ثوبان من جنس واحد وكان ذلك من أحسن زيهم فقال ألا اسمعوا ألا اسمعوا ثم وعظ فقام سلمان فقال والله لانسمع والله لانسمع قال وما ذاك قال لأنك قد أعطيتنا ثوبا ثوبا ورحت فى حلة فقد تفضلت علينا بالدنيا فتبسم ثم قال عجلت ياأبا عبدالله رحمك الله انى كنت غسلت ثوبى الخلق فاستعرت برد عبدالله بن عمر فلبسته مع بردى فقال سلمان قل الآن حتى نسمع ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التنعم وقال ان عبادالله تعالى ليسوا بالمتنعمين ورؤى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافيا فقيل له أنت الامير وأنت هكذا فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الارفاه وأمرنا أن نحتفى أحيانا وروينا أن عمر رضى الله عنه خطب الناس فقال أنشد الله رجلا علم فى عيبا الا أخبرنى به فقام شاب فقال فيك عيبان اثنان قال وما هما رحمك الله قال تذيل بين البردين وتجمع بين الادمين قال فما أذال بين البردين وماجمع بين الادمين حتى لقى الله تعالى هكذا حدثنا به قال الشيخ باسناده يذيل بالذال فمعناه تجمع بين ذيليهما فيتفق ذيل الاعلى على ذيل الاسفل من طول البرد الاعلى وأنا أحسب أن معناه تديل بالدال أى تبدل أحدهما بآخر دولة ذا ودولة ذا ويصلح أن يكون بالذال من الاذالة أى الوضع يقال أشل هذا وأذل هذا مثل قول الناس من اذالة العلم ان يجيب العالم عن كل مايسأل عنه كأنه أراد تضعهما عندك معا وهو راجع الى معنى تديل من الدولة وقال على لعمر رضى الله تعالى عنهما ان أردت أن تلحق بصاحبيك فارقع القميص ونكس الازار واخصف النعل وكل دون الشبع وكان عمر رضى الله تعالى عنه يقول اخلولقوا واخشوشنوا وتمعددوا واياكم وزى العجم

كسرى وقيصر وقال علي رضي الله تعالى عنه من تزيا بزي قوم فهو منهم وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من هذا ان من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم الذين يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدقون في الكلام ولما قدم عمير بن سعد أمير حمص على عمر رضي الله عنه قال له مامعك من الدنيا ياعمير قال معي عصاي أتوكأ عليها وأقتل بها حية ان لقيتها ومعي جرابي أحمل فيه طعامي ومعي قصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي ووضوأ للصلاة يعني السطيحة فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي فقال له عمر صدقت رحمك الله وكان عمر رضي الله عنه قد كتب الى أهل حمص أن عدوا لي فقراءكم فسموا له في الكتاب نفرا وذكروا فيهم سعيد بن جذيم ويقال بل عمير بن سعد فقال عمر من سعيد بن جذيم فقالوا أميرنا ياأمير المؤمنين قال أوفقير هو قالوا نعم مافينا أفقر منه قال فما فعل عطاؤه قالوا يخرجه كله لايترك لنفسه ولا لاهله شيأ منه فوجه اليه عمر رضي الله عنه باربعمائة دينار وسأله أن ينفقها على نفسه وأهله فلما وصلت اليه دخل على زوجته وهو يبكي فقالت له ماشأنك مات أمير المؤمنين قال أعظم من ذلك قالت فتق فتق في المسلمين قال أشد من ذلك قالت فما هو قال أتاني الدنيا قد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تفتح الدنيا علي وكنت في أيام أبي بكر رضي الله عنه فلم تفتح الدنيا علي وخلفت الى أيام عمر رضي الله عنه ألا وشر أيامي أيام عمر ثم حدثها فقالت نفسي فداؤك فاصنع بها مابدالك فقال أوتساعديني على ما أريد قالت نعم قال اعطيني خلق ذلك البرد قال فجعل يمزقه ويصرها فيه صررا مابين العشرة والخمسة والثلاثة حتى أفناها ثم جعلها في مخلاة وتأبطها وخرج فاعترض جيشا من المسلمين يريدون الغزو فجعل يدفع اليهم صرة صرة على نحو مايرى من حالهم ثم رجع ولم يترك لاهله منها دينارا فهذه كانت شمائل جملة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم باحسان رضي الله تعالى عنهم وروينا في حديث عياض بن غنم عن النبي صلى الله عليه وسلم في وصف الاخيار ان من خيار أمتي فيما أنبأني الملأ الأعلى قوم يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويبكون سرا من خوف عذابه مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان أجسامهم في الارض وأفئدتهم عند العرش وفي حديث ابي الدرداء رضي الله عنه لما وصف الابدال قال فقلت له فكيف لي أن أكون بهذا الوصف وأنى لي أن أكون مثلهم فقال ياابن أخي ماينك وبين أن تكون في أول ذلك وأوسطه الا أن تزهد في الدنيا فتعاين الآخرة بقلبك فتعمل لها وروينا في الخبر أن الله تعالى يحب المتبذل الذي لايبالي مالبس وقال الثوري وفضيل رحمهما الله تعالى جعل الشر كله في بيت وجعل مفتاحه الرغبة في الدنيا وجعل الخير

كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا ومثل يوسف بن أسباط وسفيان الثوري رحمهما الله تعالى أي الأعمال أفضل فقالا الزهد في الدنيا وهذا موجود في ظاهر الخبر المنقول عن عيسى عليه السلام ورويناه عن نبينا صلى الله عليه وسلم حب الدنيا رأس كل خطيئة ففي تدبره أن بغضها رأس كل طاعة كذلك كان بعض السلف يقول كفى به ذنبا لا يستغفر منه حب الدنيا وأشد من ذلك مارواه سفيان عن يحيى بن سليم الطائفي رفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن عبدا عبد الله تعالى عبادة أهل السموات والأرض ولقيه محبا للدنيا لاقامه الله تعالى في الموقف مقاما شهره فيه بين الخلائق ألا ان فلان بن فلان قد أحب ماأبغض الله تعالى وقال يحيى بن جابر الطائي قال عمرو بن الأسود العنسي لا ألبس مشهورا أبدا ولا أنام بليل على دثار أبدا ولا أركب على مابور أبدا ولا أملأ جوفي من طعام أبدا فقال عمر رضي الله عنه من سره أن ينظر الى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر الى عمرو بن الأسود وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة رضي الله تعالى عنها فرأى على بابها سترا وفي يديها قلبين من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال من أجل الستر والسوارين فهتكت الستر ونزعت السوارين فارسلت بهما بلالا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت به نضعه حيث ترى فقال اذهب فبعه وادفعه الى أهل الصفة فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق به عليهم فدخل عليها وقال بأبي أنت قد أحسنت وفي الخبر مامن عبد لبس ثوب شهرة الا أعرض الله تعالى عنه حتى ينزعه ولئن كان عنده حبيبا وقال سفيان الثوري وغيره البس من الثياب مالم يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال وكان يقول ان الفقير ليمر بي وأنا أصلي فادعه يجوز ويمر بعض هؤلاء من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته فلا أدعه يجوز قال بعضهم مارأيت الغني في مجلس قط أذل منه في مجلس الثوري رحمه الله تعالى ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري وقال آخر كنا اذا جلسنا الى سفيان تمنينا انا كنا فقراء لما نرى من اقباله عليهم واعظامه لهم وقال بعضهم انما العالم هو الذي يقوم الفقير من عنده غنيا والغني من عنده فقيرا وقال بعضهم قومت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق وقال ابن شبرمة خير الثياب ماخدمني وشرها ماخدمته وقال بعض السلف أحب الثياب الى مالا يستخدمني وأحب الطعام الى مالا أغسل يدي منه وقال بعض العلماء البس من الثياب مايخلطك بالسوقة ولا تلبس منها مايشهرك فينظر اليك قال وعددنا في قميص عمر رضي الله عنه أربعة عشر رقعة بعضها من أدم وكان بعض العلماء يقول كثرة الثياب على ظهر ابن ادم عقوبة من الله تعالى له وكان الخواص رحمه الله تعالى لا يلبس أكثر من قطعتين ازارين او قميص ومئزر

تحته ويعطف ذيل قميصه على رأسه ويحله فى وسطه فيغطى به رأسه وكذلك استحب للفقير وهو حد اللباس وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى الثياب ثلاثة ثوب لله تعالى وثوب للنفس وثوب للناس فالذى لله تعالى ماستر العورة وأديت فيه الفريضة والذى للنفس ما طلبت لينه ونقاءه والذى للناس ما طلبت جوهره وحسنه ثم قال وقد يكون الثوب الواحد لله تعالى وللنفس وقد كان بعض العلماء يكره أن يكون على الرجل من الثياب ما يجاوز قيمته أربعين درهما وبعضهم يقول الى المائة و يعده سرفا فيما جاوزها وكان جمهور العلماء وخيار التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين الى الثلاثين وكان المتقدمون من الصحابة أثمان ازارهم اثنا عشر درهما فكانوا يلبسون ثوبين قيمة نيف وعشرين درهما واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم وكان قيمة ثوبيه عشرة الى دينار وكان طول ازاره أربعة أذرع ونصف واشترى سراويل بثلاثة دراهم وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما لبس ثوبين من جنس واحد وربما لبس بردتين يمانيين أوسحوليين من هذه الغلاظ وفى الخبر كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كانه قميص زيات وقد لبس عليه السلام يوما واحدا ثوب سيراء من سندس قيمته مائتادرهم فكان أصحابه يلمسون و يقولون أنزل عليك هذا من الجنة تعجبا منه وكان قد أهداه اليه المقوقس ملك الاسكندرية فأراد أن يكرمه بقبول هديته و يلبسه ثم نزعه وأرسل به الى رجل من المشركين وصله به ثم حرم لبس الحرير والديباج وقد يكون لبسه اياه توكيدا للتحريم بعده كما لبس خاتما من ذهب يوما واحدا ثم نزعه فحرم لبسه على الرجال وكما قال لعائشة رضى الله عنها فى شأن بريرة اشترطى لأهلها الولاء فلما اشترطه صعد المنبر فحرمه فهذا يكون مؤكدا للتحريم وكما أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها لتوكيد أمر النكاح وقد يحتج بمثل هذا علماء الدنيا ويطرقون به لنفوسهم ويدعون الناس منه اليهم و يظهرون الدعوة الى الله تعالى تاولا بمتشابه القرآن على اهوائهم ابتغاء الفتنة وطلبا للدنيا لأن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على معانى كلام الله تعالى فيه ناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه وخاص وعام وعدل علماء الدنيا وأهل الأهواء عن المحكم السائر من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله الى ما ذكرناه وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خميصة لها علم فلما سلم قال شغلنى النظر الى هذه اذهبوا بها الى أبى جهم وأتونى بانبجانيته يعنى كساءه فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم ورأى على باب عائشة رضى الله عنها سترا فهتكه وقال كلما رأيته ذكرت الدنيا أرسلى به الى آل فلان وفرشت له عائشة رضى الله عنها ذات ليلة فراشا جديدا وكان ينام على عباءة مثنية فما زال يتقلب ليلته فلما أصبح قال أعيدى العباءة الخلقة ونحى هذا الفراش عنى قد أسهرنى الليلة وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة عشاء فبيتها فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل قالت عائشة فنام حينئذ حتى

سمعت غطيطه ثم قال ماظن محمد بربه لو لقى الله تعالى وهذه عنده وكان شراك نعله العربى قد أخلق فابدل بسير جديد فصلى فيه فلما سلم قال أعيدوا الشراك الخلق وانزعوا هذا الجديد فانى نظرت اليه فى الصلاة ولبس خاتما فنظر اليه وهو على المنبر بنظرة فرمى به وقال شغلنى هذا عنكم نظرة اليه ونظرة اليكم وقد قال الله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحبنى فليستن بسنتى وقال فى الخبر المشهور عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول من علامة حب الله تعالى حب النبى عليه السلام ومن علامة حب النبى صلى الله عليه وسلم حب السنة ومن علامة حب السنة بغض الدنيا وعلامة بغضها أن لا يأخذ منها الا زادا وبلغة وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها ان أردت اللحوق بى فاياك ومجالسة الاغنياء ولا تنزعى ثوبا حتى ترقعيه وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى نعلين جديدتين فاعجبه حسنهما فخر ساجدا وقال أعجبنى حسنهما فتواضعت لربى خشية أن يمقتنى ثم خرج بهما فدفعهما الى أول مسكين رآه وأمر عليا رضى الله عنه فاحتذى له نعلين سنديتين قال فرأيته وقد لبسهما يعنى جرداوين أى معطوفتين وقال صلى الله عليه وسلم ان أقرب الناس منى مجلسا يوم القيامة من كان على مثل ما أنا عليه من الدنيا وكان صلى الله عليه وسلم يقول اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا وقال عليه السلام لايعذب الله عبدا جعل رزقه فى الدنيا قوت يوم بيوم وقال عليه السلام طوبى لمن هدى الى الاسلام وكان رزقه فى الدنيا قوتا وقنع به وفى لفظ آخر وصبر عليه وقال عليه السلام مامن أحد غنى ولا فقير الاود يوم القيامة أن رزقه كان فى الدنيا قوتا وروينا عنه صلى الله عليه وسلم اللهم من أحبنى وأجاب دعوتى فاقلل ماله وولده ومن أبغضنى ولم يجب دعوتى فأكثر ماله وولده واوطىء عقبيه يعنى كثرة الأتباع وكانت هذه دعوة الصحابة على من مقتوه وروينا فى الخبر نقصان الدنيا زيادة الآخرة وزيادة الدنيا نقصان الآخرة وفى الأثر ما من أحد أعطى من الدنيا شيأ الانقص من درجته وان كان على الله تعالى كريما وقال ابراهيم بن أحمد الخواص رحمه الله فى وصف المدعين وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من الثياب يموهون بذلك على الناس ليهدوا اليهم مثل لباسهم ولئلا ينظر اليهم بالعين التى ينظر بها الى الفقراء فيحتقرون فيعطون كما يعطى المساكين ويحتجون لنفوسهم باتساع العلم وانهم على السنة وان الأشياء داخلة عليهم وهم خارجون منها وانما يأخذون بعلة غيرهم هذا اذا طلبوا بالحقائق والجؤا الى المضايق وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوا حالا لهم مائلون الى الدنيا متبعون الهوى وكان الخواص رحمه الله تعالى لا يلبس أكثر من قطعتين

ازارين وقميص ومئزر تحته و يعطف ذيل قميصه على رأسه و يغطى به رأسه وكذلك استحب للفقير هذا اللباس والأخبار فى فضائل الفقر وفضل الفقراء وفى ذم الدنيا ونقص الأغنياء أكثر من أن تذكر ولم نقصد جمعها ولا كثرة الاستدلال بها ومن الزهد ترك فضول البنيان وأن لا يبنى عاليا ولامشيدا ولا من الطين الا مايحتاج اليه وقيل أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المناخل والموائد وأول شىء ظهر من طول الامل التدريز والتشييد يعنى دروز الثياب وانما كانت تشل شلا والبنيان بالجص والآجر وهو التشييد وانما كانوا يبنون بالسعف والجريد وقد جاء فى الأثر يأتى على الناس زمان يوشون بنيانهم كما توشى البرود اليمانية ونظر عمر رضى الله عنه فى طريق الشام الى صرح قد بنى بجص وآجر فكبر وقال ما كنت أظن أن فى هذه الأمة من يبنى بنيان هامان لفرعون يعنى قول فرعون فأوقدلى ياهامان على الطين يعنى به الآجر يقال أول من بنى بالجص والآجر فرعون وأول من عمله هامان ثم تبعهما الجبابرة فهذا هو الزخرف وذكر بعض السلف جامعا فى بعض الأمصار فقال أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ثم رأيته مبنيا من رهوص ثم رأيته الآن مبنيا باللبن فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهوص وكان أصحاب الرهوص خيرا من أصحاب اللبن وقد كان فى السلف من يبنى داره مرارا فى مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله ولزهده فى اتقان البنيان وكان منهم من اذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه فاذا رجع أعاده وكانت بيوتهم من الحشيش والثمام والجلود وعلى ذلك العرب ببلاد اليمن الى اليوم وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس رضى الله عنه أن يهدم علية كان قد علا بها ومر عليه السلام بجنبذة معلاة فقال لمن هذه قالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروه فرجع فهدمها فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فسأل عنها فأخبر أنه هدمها فدعا له بخير وكان سمك بناء السلف قامة و بسطة وقال الحسن كنت اذا دخلت بيوت أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ضربت يدى الى السقف وقال عمرو ابن دينار اذا اعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك الى أين يا فاسق الفاسقين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة ومر عمر رضى الله عنه ببيت عال فقال أبت الدراهم الا أن تخرج رؤسها ومر بعامل له فرآه قد على وشيد فقال لى على كل خائن أمينان الماء والطين ثم شاطره ماله فجعله فى بيت المال وفى الخبر كل نفقة يؤجر عليها العبد الاما أنفقه على الماء والطين وقد روينا عن بعض السلف اذا مقت الله تعالى مال عبد سلط عليه الماء والطين وقال يحى بن يمان رحمه الله كنت أمشى مع الثورى رحمه الله فى طريق فنظرت الى

باب مشيد قال لا تنظر اليه فقلت يا أبا عبد الله ما تكره من النظر قال اذا نظرت اليه كنت عونا له على بنائه لأنه انما بناه لينظر اليه ولو كان كل من مر به لم ينظر اليه ماعمله وقد قال بعض السلف قبله ولا تنظر الى بنيانهم فانهم انما زخرفوه لاجلكم وفى قول الله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا قيل حب الكثرة والرياسة والتطاول فى البنيان وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة الا ما أكن من حر أو برد وقال للرجل الذى شكا اليه ضيق منزله اتسع فى السماء أى فى الجنة وهذا أحد التأويلين والثانى اتسع فى المعرفة ولا تطلب اتساع المكان واعلم أن الزهد لا ينقص من الرزق ولكنه يزيد فى الصبر ويديم الجوع والفقر فيكون هذا رزقا للزاهد من الآخرة على هذا الوصف من حرمان نصيبه من الدنيا وحمايته عن التكاثر منها والتوسع فيها ويكون الزهد سببه فيكون ماصرفه عنه ومنعه من الغنى والتوسع رزقه من الآخرة والدرجات العلى بحسن اختيار من الله تعالى وحيطة نظر كما حدثنا عن بعض العلماء أن بقالا جاءه فقال انى كنت أبيع فى محلة لابقال فيها غيرى فكنت أبيع الكثير ثم قد فتح على بقال آخر فهل ينقص ذلك من رزقى شيأ فقال لا ولكن يزيد فى بطالتك عن البيع فلعل بطالا لاعبا يحتج لتوسعه وهواه ويموه على أبناء الدنيا ممن يتولاه فيقول بأن الزهد فى الدنيا لما لم ينقص من رزقى شيأ قد صح مقاما لى مع التوسع والاستكثار وعلى التنعم والرفاهية والاستئثار لانى انما آكل رزقى وآخذ قسمى فلى فى الزهد مقام ومن الرضا والتوكل حال أو يقول ان الزهد قد يصح مع التكاثر والزينة يزخرف بقوله على من لايعرف الزهد ويغر بمقالته من لايعرف طريق الزاهدين ولعله ممن يأكل الدنيا بالدين أو يزخرف القول ويشبه العلم على الغافلين فمثله كما قال على رضى الله عنه للخوارج حين قالوا لاحكم الا لله فقال كلمة حق أريد بها باطل وصدق رضوان الله عليه لانهم أرادوا بذلك اسقاط حكم الأئمة وترك الطاعة للامام العادل كما أراد القائل انما آكل رزقى وآخذ من الاشياء قسمى الاحتجاج لنفسه بهواه والاعتذار عند الجاهلين خيفة لومهم اياه ولايعلم المغرور بداء الغرور انه وان كان يأكل رزقه من الدنيا ويأخذ قسمه من العطاء فبحكم النقص والبعد وبوصف الرغبة والحرص لان السارق والغاصب أيضا يأكل رزقه ويأخذ قسمه ولكن بحكم المقت وسوء الاختيار اذ كان الله سبحانه وتعالى يرزق الحرام للظالمين كما يرزق الحلال للمتقين وانما بينهما سوء القضاء ودرك الشقاء للاعداء وحسن التوفيق والاختيار بالسعادة للاولياء من المولى الكريم فقد حرم المدعى لذلك رزقه من الزهد وبخس نصيبه الاوفر من حب الفقر ونقص حظه الافضل من الآخرة اذ كانت الدنيا ضدها وجعل ماصرف فيه وماصرف اليه سيئاء

لنقصان مرتبته من طرائق الزاهدين وانه قد اختبر بالدنيا و بما فتح عليه من السراء ليظهر صدقه من كذبه فوقع فى الفتنة ولم يفطن للابتلاء وصارت مشاهدته هذه اذا كان صادقا فيها غير كاذب على وجده حجابا له عن علوم العارفين المعصومين واستدرج بعلمه هذا لانه علم من علوم الدنيا يفنى بفنائها لاثمرة له فى الباقية مكر به فيه وعدل به اليه عن علوم الخائفين ومشاهدة الورعين الزاهدين الذين نظروا من الحلال فى الدقيق وصدقوا القول فى ترك الرغبة بالعمل بالزهد للتحقيق وان كان كاذبا فى مشاهدته ظالما لنفسه بما ادعاه من وجده فهو من أولياء الشياطين ومن أئمة المضلين قيض للاعبين وسيق اليهم فتنة لهم ليس اماما للمتقين بل من الأئمة المضلين المحرومين أبناء الدنيا الغافلين رغبة فى الدنيا و زهداً فى طرائق السلف لوجود الطمع وعدم اليقين فقد مكر بهذا المعدول به عن علوم الموقنين وحقائق مشاهدتهم على هذا الوصف الذى أريد به بالذى تقلب فيه وهو لايشعر بالمكر ولايعرف الاستدراج بالنعم وأنى له بعلم ذلك والله تبارك وتعالى يقول سنستدرجهم من حيث لايعلمون وقال تعالى ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون فهيهات هيهات أن يفطن الممكور لما مكر به أو يعلم المستدرج مادرج فيه لان الماكر ألطف الماكرين والمدرج أحكم الحاكمين نعوذ بالله تعالى من الاغترار بعلم الاظهار ونسأله الصلاة على نبيه محمد وآله أجمعين وحسن التوفيق لمشاهدة علم التحقيق و بمثل ماقلناه جاءت الآثار وكثرت الاخبار ان مثل الدنيا والآخرة كضرتين رضا احداهما فى سخط الاخرى وانهما بمنزلة المشرق والمغرب من استقبل احدهما استدبر الآخر وانهما بمنزلة كفتى الميزان رجحان احداهما بنقصان الاخرى وكان عمر رضى الله عنه يقول والله ان هما الا بمنزلة قدحين لك ملء أحدهما فما هو الا ان تفرغ أحدهما فى الآخر يعنى أنك ان امتلأت من الدنيا تفرغت من الآخرة وان امتلأت من الآخرة تفرغت من الدنيا وان كان لك ثلث قدح الآخرة أدركت ثلثى قدح الدنيا وان كان لك ثلثا قدح الآخرة يكون لك ثلث قدح الدنيا وهذا تمثيل حسن الا أن فيه شدة وتدقيقا وقال بعض السلف مثل من زهد فى الدنيا مع التنعم فيها كمثل من يغسل يديه من الغمر بسمك وقال آخر مثل من زهد وهو يطلب الدنيا مثل من يطفىء النار بالحلفاء وكان بعض الزاهدين من أهل الشام يتكلم عليهم فكان رجاء بن حيوة فقيه أهل الشام يحضر مجلسه فاحتبس يوما عنهم وقد اجتمعوا فتكلم عليهم مؤذن الجامع فانكر صوته رجاء ابن حيوة فقال من هذا فقال أنا فلان فقال اسكت عافاك الله انا نكره ان نسمع الزهد الا من أهله وفى لفظ آخر انا نكره ان نسمع الوعظ الا من أهل الزهد وقال عيسى عليه السلام لا تنظروا الى أموال أهل الدنيا فان بريق أموالهم يذهب بنور ايمانكم وقال بعض العلماء تقليب الاموال يمص

حلاوة الايمان وروينا فى الخبر لكل أمة عجل وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم وكان أصل العجل من الحلية وقال عز وجل ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله نكان فهم هذه السنة عن سمع هذه الآية يقال مامن يوم ذى شارقة الا وأربعة أملاك ينادون فى الآفاق بأربعة أصوات ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب يقول أحدهما من المشرق ياباغى الخير هلم وياباغى الشر أقصر ويقول الآخر اللهم أعط منفقا خلفا واعط ممسكا تلفا ويقول أحد اللذين فى المغرب لدوا للموت وابنوا للخراب ويقول الآخر كلوا وتمتعوا لطول الحساب وقال بعض العلماء ان الله تعالى وسم الدنيا بالوحشة ليجعل أنس المطيعين به وبلغنا أن من دعاء أبي بكر الصديق رضى الله عنه اللهم انى أسألك الذل عند النصف من نفسى والزهد فيما جاوز الكفاف وقال بعض العارفين ما من شىء الا وهو مطروح فى الخزائن الا الفقر مع المعرفة فانه مخزوم مختوم عليه لا يعطاه الا من طبع بطابع الشهداء وقد يحتج بعض علماء الدنيا لانفسهم بتفضيل الغنى على الفقر بتأويل الخبر من قوله تعالى ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا عند أولى الالباب فى تدبر الخطاب معنى به الفقراء لانه قيل لهم فى أول الكلام ان فعلتم كذا لم يسبقكم أحد قبلكم ولم يدرككم أحد بعدكم فثبت هذا القول من رسول الله صلى الله عليه وسلم فصح لانه معصوم فى قوله كما هو معصوم فى فعله فلا ينبغى أن ينقض أول الكلام آخره فما جاء بعده محمول عليه ولم يصلح أن ينقلب لأنه اخبار عن شىء فلا يجوز الرجوع عنه ولما فعل الأغنياء ما أمر به الفقراء وقف الفقراء فى نظر الرسول صلى الله عليه وسلم لمنظرهم الى مزيد الأغنياء عليهم بالقول فرجعوا اليه يستفتون منه ما أخبر به فقال لا تعجلوا فان الذى قلت لكم كما قلت هو فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء وأنتم ممن شاء أن يؤتيه فضله فصح تأويلنا هذا وبطل تأويلهم بدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم الأول فكان قوله الثانى بالآخر مواطئا لقوله الأول ولم يناقض الأول بالآخر كيف وقد جاء دليل ما قلنا مكشوفا فى الحديث المفسر الذى رويناه عن زيد بن أسلم عن أنس رضى الله عنه قال بعث الفقراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا فقال انى رسول الفقراء اليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم من عند قوم أحبهم قال قالوا يا رسول الله ان الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا نقدر عليه ويعتمرون ولا نقدر عليه واذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبلغ عنى الفقراء انه لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للاغنياء أما خصلة واحدة فان فى الجنة غرفا ينظر اليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض الى نجوم السماء لا يدخلها الا نبي فقير أوشهيد فقير أو مؤمن فقير والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام والثالثة اذا قال الغني سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وقال الفقير مثل

ذلك لم يلحق الغنى الفقير وان أنفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك أعمال البر كلها فرجع اليهم فقالوا رضينا رضينا فهذا يدل على صحة تأويلنا وقد روينا معنى هذا مجملا فى الخبر الذى رويناه عن اسمعيل بن عياش عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أى الناس خير قالوا موسر من المال يعطى حق الله فى نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس قال مؤمن فقير يعطى جهده فذهب القوم الى علم العقل فردهم الرسول صلى الله عليه وسلم الى علم اليقين فكذلك من فضل حال الغنى على حال الفقر فانه ينظر فى العلم بعين العقل وانما يشهد الآخرة والحقيقة بعين اليقين وهذا نص فى تفضيل حال الفقر فمن فضل الغنى بعده فقد عاند السنة ان كان عالما فأحسن حاله الجهل بالآثار وان كان جاهلا فمقامه فى الجهل أضر عليه من نطقه بالعلم بهوى وفى الخبر الآخر خير هذه الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعا فى الجنة ضعفاؤها وقال صلى الله عليه وسلم لبلال الق الله تعالى فقيرا ولا تلقه غنيا قال وكيف لى بذلك قال اذا سئلت فلا تمنع واذا أعطيت فلا تخبأ أفتراه كان يأمر بلالا بأدنى الحالين فكيف وهو من أعلى الصحابة فأشبه الفقر فى الاحوال اليقين فى الايمان كما قال لابن عمر اعمل لله بالرضا واليقين فان لم يكن فان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا فرفعه الى اليقين لفضله كما رفع بلالا الى الفقر لشرفه فى الاحوال فلم يكن صلى الله عليه وسلم يرضى لبلال الا ما يرضاه لنفسه فصار الفقر حال الموقن لانه يكشف الآخرة وصار الشكر فى الغنى حال المؤمن لانه يوجد الدنيا ففضل الفقير الزاهد على الغنى الشاكر كفضل الموقن الشاهد على الموقن المجاهد وكذلك روينا فى حديث عطاء عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم توفنى فقيرا ولا توفنى غنيا ولم يكن ليأمر بلالا بأدنى الحالين فيقول الق الله تعالى فقيرا كما لم يندب ابن عمر الى أخفض المقامين لقوله اعمل لله تعالى بالرضا فى اليقين وكذلك جاء فى الخبر المشهور الذى دعا فيه صلى الله عليه وسلم لنفسه أن يحييه الله تعالى مسكينا ويتوفاه مسكينا ويحشره فى زمرة المساكين كل ذلك لتفضيل الفقر وتشريف الفقراء مع قوله صلى الله عليه وسلم يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام وروينا عن عيسى عليه السلام انه قال انى لاحب المسكنة وأبغض المال للغنى وان فى المال داء كثيرا قيل ياروح الله وان كان يكتسبه من حلال قال يشغله كسبه عن ذكر الله تعالى قال وهب بن منبه لابن عباس انا نجد فى التوراة ان الفقير المصلح خير من الغنى المصلح قال ابن عباس أما علمت انه لاشىء أحب الى الله تعالى من الفقير اذا كان صالحا وقيل كان أحب الاسماء الى عيسى عليه السلام أن يدعى به أن يقال له يامسكين وكان يقول من شر الغنى أن العبد يعصى ليستغني ولايعصى ليفتقر وقد قال بعض حكمائنا فى كلام منظوم

ياعائبا للفقر تبغى الغنى عيب الغنى أعظم لو تعتبر
انك تعصى لتنال الغنى ولست تعصى الله كى تفتقر

وروينا فى حديث عطاء عن أبى سعيد الخدرى ياأيها الناس لاتحملنكم العسرة والفاقة على أن تطلبوا الرزق من غير حله فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم توفنى فقيرا ولاتوفنى غنيا واحشرنى فى زمرة المساكين وقال لقمان لابنه يابنى ان من أعون الاخلاق على صلاح الدين زهدا فى الدنيا من يزهد فى الدنيا يرغب فيما عند الله تعالى ومن يرغب فيما عند الله تعالى يعمل لله تعالى ومن يعمل لله تعالى يأجره الله تعالى وقال الحواريون ياروح الله نحن نصلى كما تصلى ونصوم كما تصوم ونذكر الله تعالى كما أمرتنا ولا نقدر نمشى على الماء كما تمشى أنت فقال أخبرونى كيف حبكم للدنيا قالوا انا لنحبها فقال ان حبها يفسد الدين لكنها عندى بمنزلة الحجر والمدر وفى خبر آخر انه رفع حجرا فقال أيهما أحب اليكم هذا أوالدينار والدرهم قالوا الدينار قال فانهما عندى سواء ويقال ان من صح زهده فى الدنيا حتى يستوى عنده الذهب والحجر مشى على الماء وقد اشتهر ذلك فى العامة حتى قال الشاعر

لو كان زهدك فى الدنيا كزهدك فى وصلى مشيت بلا شك على الماء

وروينا أن عيسى عليه السلام مر فى سياحته برجل نائم ملتف فى عباءة فأيقظه وقال قم يانائم فاذكر الله تعالى فقال ماتريد منى انى قد تركت الدنيا لاهلها فقال له عيسى عليه السلام نم حبيبى اذا نم وروينا عن موسى عليه السلام انه مر برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته فى التراب وهو متزر بشمل عباءة فقال يارب عبدك هذا فى الدنيا ضائع فأوحى الله تعالى اليه ياموسى أما علمت انى اذا نظرت الى عبدى بوجهى كله زويت عنه الدنيا كلها وأوحى الله سبحانه وتعالى الى نبيه اسمعيل عليه السلام اطلبنى عند المنكسرة قلوبهم قال يارب ومن هم قال الفقراء الصادقون فهذا كأنه مفسر لخبر موسى عليه السلام فى قوله أين أجدك قال عند المنكسرة قلوبهم وقد كان أحمد ابن عطاء وهو من المتأخرين يفضل حال الغنى على الفقر لشبهة دخلت عليه وهو أن بعض الشيوخ ساله عن الوصفين أيهما أفضل قال الغنى لانه صفة الحق فقال له الشيخ فالله غنى بالاعراض والاسباب فانقطع ولم ينطق بحرف وهذا كما قال الشيخ لان الله تعالى غنى بوصفه فالفقير أحق بهذا المعنى لانه غنى بوصفه بالايمان لابالاسباب لانفرادها عنه فهو الافضل فاما الغنى فانه مشتت مجتمع بالاسباب فهو مفضول بالارتياب وقد خالفه الخواص فوفق للصواب وكان فوقه فى المعرفة فقال فى كتاب شرف الفقر والفقر صفة الحق أى صفة منه يصف به الفقراء فوافقنا فى التأويل

يعنى انه تعالى متخل عن الاشياء منفرد عنها ووجه آخر من الغلط الذى دخل عليه من جهة الغنى الذى ذكره لانه ان كان فضل الغنى على الفقر لانه صفة الحق فينبغى أن يفضل المتكبر الجبار ومن أحب المدح والعز والحمد لان ذلك كله صفة الحق فلما أجمع أهل القبلة على ذم من كان هذا وصفه كان من وصفه الغنى فى معناه لان وصف الغنى صفة الحق مقترن بالعز والكبر وينبغى أن يسلم صفات الحق للحق ولاينازع اياها ولا يشارك فيها فبطل قول ابن عطاء لصحة قول الرسول صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى العز ازارى والكبرياء ردائى من نازعنى أحدهما قصمته فى النار وقد خالفه أيضا ووافقنا من لايشك الخاص والعام فى فضل معرفته عليه أبو محمد سهل بن عبد الله فقال من أحب الغنى والبقاء والعز فقد نازع الله تعالى صفاته وهذه صفات الربوبية يخاف عليه الهلكة فاذا ثبت ذلك كان الفقر أفضل لانه وصف العبودية فمن جعل وصفه فقد تحقق بالعبودية وأوصاف العبودية هى أخلاق الايمان وهى التى أحبها الله تعالى من المؤمنين مثل الخوف والذل والتواضع والفقر مضاف اليها وأوصاف الربوبية ابتلى به قلوب أعدائه الجبارين والمتكبرين مثل العز والكبر والبقاء والغنى. مضموم اليها وكان الحسن رحمه الله يقول مارأيت الله تعالى جعل البقاء الا لابغض خلقه اليه وهو ابليس وكذلك كان العلماء يقولون لاترغبوا فى البقاء فى هذه الدنيا فان شرار الخلق أطولهم بقاء وهم الشياطين والغنى انما يراد للبقاء ويقال ان الجنيد رحمه الله تعالى باهل ابن عطاء فى هذه المسئلة ودعا عليه لانه أنكر قوله أشد الانكار وكان يقول الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر وان تساويا فى القيام بحكم حالهما لان الغنى التقى يمتع نفسه وينعم صفته والفقير الصابر قد أدخل على صفته الآلام والمكاره فقد زاد عليه بذلك وهذا كما قال وكذلك كان أحمد بن حنبل يقول ماأعدل بالفقر شيأ وكان يفضل حال الفقر ويعظم شأن الفقير الصابر وقال المروزى وذكر بعض الفقراء فجعل يمجده ويكثر السؤال عنه قال فقلت له يحتاج الى علم فقال ويحك اسكت صبره على الفقر ومقاساته للضر فيه خير من كثير من العلم ثم قال هؤلاء خير منا بكثير وأقول ان من فضل حال الغنى على الفقر فانه لم يذق مرارة الفقر ولا حلاوته فهو غر بشدته فاقد لحلاوته لانه لوذاق مرارته من الضر والهم لفضله ولو أذيق حلاوته من الزهد والرضا لما فضل عليه وقد روينا فى الخبر يقول ابليس لم ينج الغنى منى من احدى ثلاث خصال اذ أحبب اليه المال فيكتسبه من غير حقه أو يضعه فى غير حقه أو يمنعه من حقه فلو لم يعلم العدو ان الفقر من أفضل الاحوال ما قعد على طريقه وقد قال لاقعدن لهم صراطك المستقيم فأخبر الخبر عنه فقال الشيطان يعدكم الفقر أى يخوفكم به فجاء الفقير الصادق فسلك الطريق المستقيم الى الآخرة واطرح تخويف العدو بحول الله وقوته وقيل الأغنياء المغتبطون بغناهم تخويف العدو فجاء بنو الفقر فحاق بهم مثل السوء من ذلك قوله انما ذلكم

الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون فقبلوا تخويف الشيطان وخالفوا ندب الرحمن فكانوا كمن قيل فيهم ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه الآية فلو لم يكن من فضل الزاهدين الا أنهم توسطوا الطريق الذى هرب الناس منه وأمنوا بالتوكل على الله والرضا عنه ما خافه أبناء الدنيا لكفاهم

ذكر ماهية الدنيا وكيفية الزهد فيها وتفاوت الزهاد فى مقاماتهم

ثم ان الدنيا هى نصيب كل عبد من الهوى وما دنا من قلبه من الشهوات فمن زهد فى نصيبه وملكه من هواه المذموم فهذا هو الزهد المفترض ومن زهد فى نصيبه من المباح وهو فضول الحاجة من كل شىء فهذا هو الزهد المفضل يرجع ذلك الى حظوظ جوارحه التى هى أبوابّ الدنيا منه وطرقها اليه فالزهد فى محرماتها هو زهد المسلمين به يحسن اسلامهم والزهد فى شبهاتها هو زهد الورعين به يكمل ايمانهم والزهد فى حلالها من فضل حاجات النفس هو زهد الزاهدين به يصفو يقينهم وروينا فى حديث عمرو بن ميمون عن الزبير بن العوام أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له يا زبير اجهد نفسك عند نزول الشهوات والشبهات بالورع الصادق عن محارم الله عز وجل وتدخل الجنة بغير حساب وكان سهل يقول فى فضائل الزهد وأعلى مقاماته لا يتم زهد عبد حتى يزهد فى هذه الثلاث فى الدرهم الذى يريد أن ينفقه فى أبواب البر يتقرب بذلك الى الله تعالى ويزهد فى الثياب التى تستر بدنه فى الطاعات ويزهد فى قوته الذى يستعين به على العبادة وانما قال هذا لأن عنده حقيقة الزهد من أفضل المقامات كلها لأنه كان يقول يعطى الزاهد جميع ثواب العلماء والعباد ثم يقسم على المؤمنين ثواب أعماله وقال لا يوافى القيامة أحد أفضل من ذى زهد وعالم ورع وقال أيضا لا ينال الزهد الا بالخوف لأن من خاف ترك فجعل الزهد مقاما فى الخوف رفعه مزيدا لهم عليه وقد روى مسروق عن ابن مسعود ركعتان من زاهد قلبه خير له وأحب الى الله تعالى من عبادة المتعبدين المجتهدين الى آخر الدهر أبدا سرمدا ولا نهاية للزهد عند طائفة من العارفين لانه يقع عن نهاية معارفهم بدقائق أبواب الدنيا وخفايا لوائح الهوى وقال بعضهم نهاية الزهد أن تزهد فى كل شىء وتتورع عن كل شىء للنفس فيه متعة وبه راحة فهذا كما روى عن عيسى عليه السلام انه وضع تحت رأسه حجرا فكأنه لما ارتفع رأسه عن الارض استراح بذلك فعارضه ابليس فقال يا ابن مريم ألست تزعم انك قد زهدت فى الدنيا قال نعم قال فهذا الذى وطأته تحت رأسك من أى شىء هو قال فرمى عيسى عليه السلام بالحجر وقال هذا لك مع ما تركت ومثله روينا عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس المسوح حتى نقب جلده فسألته أمه أن ينزع مدرعته الشعر ويلبس مكانها جبة من صوف ففعل فأوحى الله تعالى اليه يا يحيى آثرت على الدنيا قال فبكى ونزع الصوف ورد مدرعته الشعر على جسده وكان الحسن يقول أدركت

سبعين من الاخيار مالاحدهم الا ثوبه وما وضع أحدهم الاثوبه وماوضع أحدهم بينه وبين الارض ثوبا قط كان اذا أراد النوم باشر الارض بجسمه وجعل ثوبه فوقه واعلم انى رأيت جمل النعم ثلاثا. وتمامها بالزهد وذلك ان أصل النعم كلها الاسلام لان من و رائه مقامات كثيرة أخطئوا فيها حقيقة التوحيد ثم النعمة الثانية السنة اذ من ورائها بدع كثيرة كلهم أخطئوا حقيقة السنة والنعمة الثالثة العلم بالله تعالى لان من و رائه جهلا كثيرا بعظمة الله تعالى وقدرته ثم الزهد فى الدنيا فمن أعطيه مع الثلاث تمت عليه النعم فكان مع الذين أنعم الله تعالى عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين أى تمت نعمة الله عليهم لأن من ورائه حرصا كثيرا على الشبهات ورغبة عظيمة فى الشهوات وقد كان سهل رحمه الله تعالى يجعل الزهد من شرط السنة والاتباع لقوله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى قال فمن السنة اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وكان زاهدا ثم تفاوت الزاهدون لاى شيء زهدوا مقامات على نحو علو المشاهدات فنهم من زهد اجلالا لله تعالى ومنهم من زهد حياءمن الله تعالى ومنهم من زهد خوفا من الله تعالى ومنهم من زهدرجاءموعود الله تعالى ومنهم من زهد مسارعة منه لأمر الله تعالى ومنهم من زهد حبا لله تعالى وهو أعلاهم وأدناهم من زهد مخافة طول الوقوف ومناقشة الحساب كما قيل ذو الدرهمين أشد حسابا يوم القيامة من ذى الدرهم ولأن طريق المتقين لايسلكه من ملك فى الدنيا زوجين من شيء وما أحد يعطى من الدنياشيأ الاقيل خذه على ثلاثة أثلاث ثلث هم وثلث شغل وثلث حساب وان الرجل من الاغنياء ليوقف للحساب مالو وردمائة بعير عطاش على عرقه لصدرن رواء وانه ليرى منازله من الجنة فلما وقر هذا فى قلوب الورعين أشفقوا من طول الحساب فزهدوا فى الجمع والمنع وفارقوا فضول الآمال طلبا لخفة السؤال وسرعة الوقوف فى الاهوال ومن الزهد فى الدنيا حب الفقر وأهله ومجالسة المساكين فى أوطانهم والتذلل لهم كما كان مطرف رحمه الله تعالى يجالس المساكين فى بزته يتقرب بذلك الى ربه وكان محمد بن يوسف الاصفهانى عالما زاهدا ومن الناس من كان يفضله على الثورى رحمهما الله تعالى الا أنه كان يؤثر الخمول فلم يكن يعرفه الا العلماء وكان من حسن رعايته وشدة يقظته يعمل فى كل وقت أفضل ما يقدر عليه فى ذلك الوقت فلما طلبه ابن المبارك بالمصيصة قال له بعض من يعرف حاله ان ذلك لا يكون فى المصر الا فى أفضل موضع فيه قال فهو اذا فى الجامع فطلبه فقيل له انه لا يقعد الا فى أفضل مكان قال فطلبه عند الفقراء فاذا هو دس رأسه وأخمل نفسه مع المساكين فكان عنده ان أفضل وطن فى المصر الجامع لانه يقال ان الصلاة فيه بخمسين صلاة وان أفضل الاماكن موضع الفقراء من الجامع وان أفضل الاحوال الخمول فلذلك أخمل نفسه فيما بين الفقراء فى الجامع ليحوز فواضل الأعمال ومن

الزهد أن يكون بفقره مغتبطا مشاهدا لعظيم نعمة الله تعالى عليه به يخاف أن يسلب فقره ويحول عن زهده كما يكون الغنى مغتبطا بغناه يخاف الفقر ثم وجود حلاوة الزهد حتى يعلم الله تعالى من قلبه ان القلة أحب اليه من الكثرة وان الذل أحب اليه من العز وان الوحدة آثر عنده من الجماعة وان الخمول أعجب اليه من الاشتهار فهذا من اخلاصه فى زهده وروينا عن عيسى عليه السلام وعن نبينا عليه السلام أربع لا يدركن الا بعجب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشيء وقال الثورى رحمه الله تعالى لا يكون الرجل عالما حتى يعد البلاء نعمة والرخاء عقوبة وقال بعض السلف لا يفقه العبد كل الفقه حتى يكون الفقر أحب اليه من الغنى والذل آثر عنده من العز وقد روينا خبرا مقطوعا لا يبلغ العبد حقيقة الايمان حتى يكون أن لا يعرف أحب اليه من أن يعرف وحتى يكون قلة الشيء أحب اليه من كثرته وكان السلف الصالح يقولون نعمة الله علينا فيما صرف عنا من الدنيا أعظم من نعمته فيما صرف الينا وكان الثورى رحمه الله تعالى يقول الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترح لا منزل فرح من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء وكان سهل بن عبدالله رحمه الله يقول لا يصح التعبد لأحد ولا يخلص له عمل حتى لا يجزع ولا يفر من أربعة أشياء الجوع والعرى والفقر والذل كما روينا أن ابراهيم التيمى رحمه الله تعالى دفع اليه خمسون ألف درهم فردها فقيل له لم رددتها فقال أكره أن أمحو اسمى من ديوان الفقراء بخمسين ألفا ومن الزهد عند الزاهدين ترك فضول العلوم التى معلوماتها تؤل الى الدنيا وتدعو الى الجاه والمنزلة عند أبنائها وفيما لا نفع فيه فى الآخرة ولا قربة به عند الله تعالى وقد تشغل عن عبادة الله تعالى وتفرق الهم عن اجتماعه بين يدى الله تعالى وتقسى القلب عن ذكر الله تعالى وتحجب عن التفكر فى آلائه وعظمته وقد أحدثت علوم كثيرة لم تكن تعرف فيما سلف اتخذها الغافلون علما وجعلها البطالون شغلا انقطعوا بها عن الله تعالى وحجبوا بها عن مشاهدة علم الحقيقة لا نستطيع ذكرها لكثرة أهلها الا أن نسئل عن شيء منها أعلم هو أم كلام أم حق أو تشبيه أوصدق وحكمة أم زخرف وغرور أم سنة هو عتيق أو محدث وتشديق فحينئذ نخبر بصواب ذلك ومن أفضل الزهد الزهد فى الرياسة على الناس وفى المنزلة والجاه عندهم والزهد فى حب الثناء والمدح منهم لأن هذه المعانى هى من أكبر أبواب الدنيا عند العلماء فالزهد فيها هو زهد العلماء كان الثورى رحمه الله تعالى يقول الزهد فى الرياسة ومدح الخلق أشد من الزهد فى الدينار والدرهم قال لأن الدينار والدرهم قد يبذلان فى طلب ذلك وكان يقول هذا باب غامض لا يبصره الا سماسرة العلماء وقال الفضيل رحمه الله تعالى نقل الصخور من الجبال أيسر من ازالة رياسة قد ثبتت فى قلب جاهل وذهب أويس القرنى رحمه الله تعالى الى أن الزهد هو ترك الطلب للمضمون

قال هرم بن حبان لقيته على شاطىء الفرات يغسل كسرا وخرقا قد التقطها من المنبوذ وكان ذلك أكله ولباسه قال فسألته عن الزهد أى شىء هو فقال فى أى شىء خرجت قلت أطلب المعاش فقال اذا وقع الطلب ذهب الزهد وكان أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول لا زهد الا زهد أويس بلغ به العرى حتى قعد فى قوصرة وكان أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى يقول الزهد فى النساء أن تختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والمرأة الشريفة وذهب الى هذا مالك بن دينار وقال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى لا يصح الزهد فى النساء لانهن قد حببن الى سيد الزاهدين ووافقه ابن عيينة فقال ليس فى كثرة النساء ذنب لان أزهد الصحابة على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان له أربع نسوة و بضعة عشر سرية وكان الجنيد يقول أحب للمريد المبتدى أن لا يشغل قلبه بهذه الثلاث والا تغير حاله التكسب وطلب الحديث والتزوج وقال أحب للصوفى أن لا يقرأ ولا يكتب لانه أجمع لهمه وفى الخبر انما الزهد أن تكون بما فى يد الله سبحانه وتعالى أوثق منك بما فى يديك فهذا مقام التوكل وذهب قوم الى أن الزهد ترك الادخار وكانت الدنيا عندهم هو الجمع وقال بعضهم الدنيا هو ما شغل القلب واهتم به فجعلوا الزهد ترك الاهتمام وطرح النفس تحت تصريف الاحكام وهذا هو التفويض والرضا وقال أحمد بن أبى الحوارى قلت لأبى سليمان الدارانى ان مالك بن دينار قال للمغيرة اذهب الى البيت فخذ الركوة التى كنت أهديتها لى فان العدو يوسوس الى ان اللص قد أخذها فقال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفيين هو قد زهد فى الدنيا ما عليه من أخذها فأراد أبو سليمان منه حقيقة الرضا بجريان الأحكام وأراد مالك من نفسه حقيقة الزهد بأن يصرف عن قلبه الاهتمام وقال بعض العلماء الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول والزهد انما هو اتباع العلم ولزوم السنة وهذه طريقة أهل الحديث وهذا القول من الظواهر يشبه قول علماء الظاهر كما روينا عن سفيان قال قالوا للزهرى ما الزهد قال مالا يغلب الحرام صبره ولا يمنع الحلال شكره يعنى أن يكون العبد صابرا عن الحرام حتى لا تغلبه شهوة الحرام ويكون شاكرا فى الحلال حتى لا يغلبه الحلال فيشغله عن الشكر وأما الحسن فانه قال الزاهد هو الذى اذا رأى أحدا قال هذا أفضل منى فذهب الى أن الزهد هو التواضع وكان الفضيل يقول القناعة هو الزهد وقال أبو سليمان الورع هو أول الزهد وقال أحمد ابن ابى الحوارى قلت لأبى هشام المغازلى أى شىء الزهد قال قطع الآمال واعطاء المجهود وخلع الراحة وكان يوسف ابن أسباط يقول من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من حلاله فقد أخذ باصل الزهد وقال أحمد قلت لأبى صفوان الرعينى ما الدنيا التى ذمها الله تعالى فى القرآن وينبغى للعاقل أن يجتنبها قال كل ما عملت فى الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم وكل ما أصبت فيها تريد به الآخرة فليس

منها لحدثت به مروان فقال الفقه ما قال أبو صفوان انمـا قال ذلك لأن الدنيا كل شيء الا الاخلاص فمـا وافق العلم فهو مباح وما خالفه فهوى والهوى حظ النفس والاخلاص حظ الرب عز وجل فالمخلصون بينة الله عز وجل من عباده على عدوه وهم أهل الآخرة فى الدنيا وكان ابن السماك يقول الزاهد قد خرجت الافراح والاحزان من قلبه فهو لا يفرح بشيء من الدنيا أتاه ولا يحزن على شيء منها فانه لا يبالى على عسر أصبح أم على يسر وقال أبو سعيد بن الاعرابى عن أشياخه الصوفية انمـا الزهد عندهم خروج قدر الدنيا من القلب اذ هى لا شيء ولا يكون فى نفسه زاهدا لانه لم يترك شيأ اذ كانت لاشيء وهذا لعمرى هو الزهد فى الزهد لانه زهد ثم لم ينظر الى زهده فزهـده اذ لم ير شيأ لانه زهد فى لاشيء وهذا يشبه ما تقول ان حقيقة الزهد هو الزهد فى النفس لانه قد يزهد فى الدنيا لنفسه طلبا للعوض فيكون ذلك رغبة على صفة فاذا زهد فى النفس التى يريدلها الاعواض على الزهد فهو حقيقة الزهد وهذا يشبه قول من قال ان حقيقة الزهد فى الفناء هو الزهد فى البقاء لأن العبد ربمـا زهد فى الفناء فلم يزهد فى البقاء فيكون فيه بقية من الرغبة فاذا زهد فى البقاء فهو حقيقة الزهد فى الفناء اذ كان الفناء يراد للبقاء

﴿فصل آخر﴾ ان الرغبة فى الهوى حقيقة الدنيا وان كان العبد زاهدا فى المـال من قبل أنه يعطى الزهد فى شيء دون شيء كما يزهد فى الثناء ولا يزهد فى المال ولا يعطى الزهـد فى الأطعمة وقد يعطى الزهد فى المال ولا يعطى الزهد فى منصبه لغلبة الهوى فاذا أعطى الزهد فى الهوى كائنا ما كان فقـد أعطى حقيقة الزهد فى الدنيا وهذا هو الزهد فى النفس لأن النفس عين الرغبة والهوى روح النفس فاعرف هذا وكان يونس بن ميسرة الجيلانى يقول ليس الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا اضاعة المـال ولكن الزهادة فى الدنيا أن تكون بمـا فى يد الله تعالى أوثق منك بمـا فى يديك وأن يكون حالك فى المصيبة وحالك اذا لم تصب بها سواء وأن يكون ذامك ومادحك فى الحق سواء وقال سلام ابن أبى مطيع رحمهما الله الزهد على ثلاثة أوجه واحد أن تخلص العمل لله عز وجل والقول فلا يراد بشيء منه الدنيا والثانى ترك مالا يصلح والعمل بمـا يصلح والثالث الحلال أن يزهد فيه وهو تطوع وكان امامنا فى هذا العلم ابراهيم بن أدهم رحمه الله يقول الزهد ثلاثة أصناف زهد فرض وزهد فضل وزهد سلامة فالزهد الفرض فى الحرام والفضل الزهد فى الحلال والسلامة الزهد فى الشبهات وأما أيوب السختيانى رحمه الله فكان يقول الزهد أن يقعد أحـدكم فى منزله فان كان قعوده لله تعالى رضا والا خرج وان يخرج فان كان خروجـه لله تعالى رضا والا رجع فان كان رجوعـه لله تعالى رضا والا ساح ويخرج درهمه فان كان اخراجه لله رضا والا حبسه ويحبسه فان كان حبسه لله تعالى رضا

والارى به ويتكلم فان كان كلامه لله تعالى رضا والاسكت فان كان سكوته لله تعالى رضا والا تكلم فقيل هذا صعب فقال هذا الطريق الى الله عزوجل والافلا تلعبوا فقدذهب الى أن الزهد هو المراقبة والمراقبة هى الاخلاص وسئل حاتم الاصم صاحب شقيق البلخى رحمهما الله تعالى عن الزهد فقال أوله الثقة وأوسطه الصبر وآخره الاخلاص فاذا كان الاخلاص عندهم هو آخر الزهد فكيف يصح لعبد آخر الزهد قبل أوله أم كيف يجاوز الاخلاص الى مقامات المعرفة فقد صار آخر الزهد عندهم أول المعرفة وذهبت طائفة الى أن الزهد فى الدنيا فريضة على المؤمنين لان حقيقة الاخلاص هو الزهد عندهم فأوجبوه من حيث أوجبوا على المؤمنين الاخلاص ومال الى هذا القول عبد الرحيم ابن يحيى الأسود وقد روينا معناه عن الامام أحمد بن حنبل رحمه الله قيل لاحمد بأى شىء ذكر القوم وصاروا أئمة فقال بالصدق قالوا وما الصدق قال الاخلاص قيل وما الاخلاص قال هو الزهد قيل وما الزهد ياأبا عبد الله فاطرق ثم قال سلوا الزهاد سلوا بشر بن الحرث وقال قوم الزهد فى الدنيا طلب الحلال وانه واجب مفترض فى مثل زماننا هذا لاختلاط الاشياء وغلبة الشبهات قالوا فقد تعين فرض الزهد وهذا مذهب ابراهيم بن أدهم ووهيب بن الورد وسليمان الخواص وجماعة من أهل الشام وقد كان سهل يقول أزهد الناس فى الدنيا أصفاهم مطعما وقال أقصى مقام فى الورع أدنى مقام من الزهد وقد روينا عن يوسف بن أسباط ووكيع رحمهما الله قالا لو زهد عبد فى زماننا هذا حتى يكون كابى ذر وأبى الدرداء ماسميناه زاهدا لان الزهد عندنا انما هو فى الحلال المحض ولانعرف الحلال المحض اليوم وكذلك كان الحسن البصرى رحمه الله امام الأئمة يقول لاشىء أفضل من رفض الدنيا وقال الفضل بن ثور قلت للحسن ياأبا سعيد رجلان يطلب أحدهما الدنيا بحلالها فأصابها فوصل بها رحمه وقدم منها لنفسه ورجل رفض الدنيا قال أحبهما الى الذى رفض الدنيا قلت ياأبا سعيد هذا طلبها بحلالها فأصابها فوصل بها رحمه وقدم منها لنفسه قال أحبهما الى الذى جانب الدنيا وانما شرف الحسن الذى رفض الدنيا لأن مقام الزهد يجمع التوكل والرضا ألا تسمع الى الخبر الذى جاء الزهد أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يديك فهذا هو التوكل ثم قال وأن تكون بثواب المصيبة أفرح منك لو انها بقيت لك وهذا هو الرضا ثم ان المعرفة والمحبة بعد الزهد داخلان عليه فاى مقام أعلى من مقام جمع هذه الأربعة وهى غاية الطالبين ولعمرى انه هكذا لأنه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما حديث فيه شدة قال يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها فتشرف على الخلائق فيقال أتعرفون هذه فيقولون نعوذ بالله تعالى من معرفة هذه فيقال هذه الدنيا التي تفاخرتم عليها بها تقاطعتم الارحام وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم

تقذف فى جهنم فتنادى أى رب أين أتباعى وأشياعى فيقول الله ألحقوا بها اتباعها واشياعها وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا أشد من هذا حدثنا عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيامر بهم الى النار قالوا يارسول الله مصلين قال نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة من الليل فاذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه وكذلك كان الحرث بن أسد المحاسبي رحمه الله يقول انما الزهد اسقاط قيمة الدنيا من القلب وأن لا يكون لشيء عاجل فى القلب وزن فاذا سقطت قيمة الاشياء واستوت فى القلب فهو الزهد فأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله فانه كان يقول ليس الزاهد من لايملك شيأ انما الزاهد من لا يملكه شيء وقال عالم مثله فى معناه الزاهد من لايتملك الأشياء ولم يسكن اليها وكان يقول الزاهد قوته ماوجد وثوبه ماستر وبيته ما آواه وحاله وقته وقال بعض العارفين الزهد انما هو ترك التدبير والاختيار والرضا والتسليم لاختياره شدة كان أو رخاء وهذا طريق الخواص والثورى وذى النون رحمهم الله تعالى وقال أبو يزيد رحمه الله مرة انما الزاهد من لا يملك شيأ ولا يملكه شيء وقال حقيقة الزهد لا يكون الا عند ظهور القدرة والعاجز لا يصح زهده هوان يعطيه كن ويطلعه على الاسم ويقدره على الأشياء باظهار الكون فيزهد فى ذلك حياء من الله تعالى ويتركه حباله وكان يستعيذ بالله من أربعة وعشرين مقاما من اظهار القدرة وقال لأبى موسى عبد الرحيم فى أى شيء تتكلم قلت فى الزهد قال فى أى شيء قلت فى الدنيا قال فنفض يده وقال ظننت انه يتكلم فى الزهد فى شيء الدنيا لا شيء ايش تزهد فيه وذهب الى هذا المعنى سهل وغيره وقال سبعة عشر مقاما فى المعرفة أدناها المشى على الماء وفى الهواء وظهور كنوز الارض وهذا كله من زخرف الدنيا وقد حكى لنا معنى هذا عن الجنيد قال اجتمع أربعة من الابدال فى جامع المنصور ليلة العيد فلما أسحروا قال أحدهم أما أنا فقد نويت أن أصلى العيد فى بيت المقدس وقال الآخر أما أنا فقد نويت أن أصلى العيد بطرسوس وقال الثالث أما أنا فقد نويت أن أصلى العيد بمكة ومكث الرابع وكان أعرفهم فقيل له أنت أى شيء نويت فقال أما أنا فقد نويت اليوم ترك الشهوات لاأصلى الافى هذا المسجد الذى بت فيه فقالوا أنت أعلمنا فقعدوا عنده فصار عند هؤلاء كما ذكرناه آنفا ان هذه الآيات هى من الشهوات اذ ليست حاجات مقامات والشهوة من الدنيا لانها من الهوى وأيضا ففيها تدبير واختيار وعند الزهاد العارفين والمحبين ان هذا مكر وخداع يبتلون به ويقتطعون لينظر كيف يعملون اذ ابتلاء كل عبد على قدر مرتبته وحاله فيلزمه الزهد فيه ويقال هى فى المقام السابع عشر من المعرفة فمن سلك به الطريق رآها فيه وفوقها نيف وسبعون مقاما أفضل من ذلك وقد سئل الجنيد

عن الزهد فقال معنيان ظاهر و باطن فالظاهر بغض ما فى الايدى من الاملاك وترك طلب المفقود والباطن زوال الرغبة عن القلب و وجود العزوف والانصراف عن ذكر ذلك فاذا تحقق بذلك رزقه الله تعالى الاشراف على الآخرة والنظر اليها بقلبه فحينئذ يجد فى العمل بتقصير الامل وتقريب الاجل لأن الاسباب عن قلبه منقطعة والقلب منفرد بالآخرة وحقيقة الزهد قد خلصت الى قلبه فامتلأ من الذكر الخالص لربه سبحانه وتعالى فالزهد عن حقيقة الايمان والمشاهدة للآخرة تكون بعد الزهد واستواء الأشياء فيكون عدمها كوجودها بعد المشاهدة لاستواء القلب ومعه يستوى المدح والذم لسقوط النفس وذهاب رؤية الخلق فعندها خلص الاخلاص الى قلبه لصفاء الزهد وثبت الزهد لسقوط النفس دليل ذلك الخبر الذى رويناه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل هل استويت قال وكيف أستوى قال يستوى عندك المدح والذم وقول حارثة لما سأله عن حقيقة الايمان عزفت نفسى عن الدنيا فابتدأ بالزهد ثم ذكر الاستواء لحجرها وذهبها ثم ذكر المشاهدة بعد ذلك الحديث وهذه كلها مقامات فى الزهد وكل من جعل الدنيا شيأ مبلغ عمله وعلو مشاهدته جعل الزهد ضده وقد نوع أهل المعرفة الايمان فى القلب على مقامين فجعل لهما زهدين فقال اذا تعلق الايمان بظاهر القلب أحب العبد الدنيا وأحب الآخرة وعمل لهما فاذا بطن الايمان فى سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر اليها ولم يعمل لها وقد كان أبو سليمان يقول من شغل بنفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه سبحانه وتعالى شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين ولهذين المقامين دليل من السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أى الناس خير فقال من يشنأ الدنيا ويحب الآخرة فأوقع الشنآن للدنيا لوقوع ضده من حب الآخرة والمقام الاعلى دليله من جعل الهموم هما واحدا كفاه الله تعالى أمر آخرته ودنياه والهم الواحد بوجد واحد لرب واحد هو وصف عبد متوحد لواحد مقاله الى واحد وقد وهب له خلقا من أخلاقه فهو الاحد بوحدانية صفته وعبد متوحد بوجده بين خلقه فهو منفرد الهم مجتمع القلب وانفراد الهم يكون بعد محو الهوى ومحوه بعد امتحان القلب للتقوى واجتماع القلب يكون مع طيب النفس وطمأنينتها بالايمان أو فلاحها بالتزكية والرضا كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم طيب النفس من النعيم وقال الله تعالى قد أفلح من زكاها وقال تعالى راضية مرضية فيكون متوحدا بالروح مخلقة بأخلاق الايمان مواطئة للقلب بمشاهدة اليقين وقال وهب بن منبه وجدت فيما أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام من أحب الدنيا أبغضه الله تعالى ومن أبغضها أحبه الله تعالى ومن أكرم الدنيا أهانه الله تعالى ومن أهانها أكرمه الله تعالى وأما علماء الظاهر فقالوا الزهد فى الدنيا هو موافقة العلم والقيام بأحكام الشرع وأخذ الشيء من وجهه ووضعه فى حقه وما خالف

العلم فهو هوى كله فذكروا فرض الزهد وظاهره ولم يعرفوا دقائقه وبواطنه وقد روينا عن سفيان ابن عيينة والثورى معنى هذا أنهما سئلا أيكون الرجل زاهداوله مال قالا نعم اذا كان اذا ابتلى فصبر واذا أنعم عليه شكر قال ابن أبى الحوارى فقلت له يا أبا محمد يعنى ابن عيينة قد أنعم عليه فشكر وابتلى فصبر وحبس النعمة كيف يكون زاهدا فضربنى بيده وقال اسكت من لم تمنعه النعماء من الشكر ولا البلوى عن الصبر فذلك الزاهد ووافقهما الزهرى فقال كذلك وقد فصل ذلك أبو سليمان فقال ابن أبى الحوارى قلت له أكان داود الطائى رحمه الله تعالى زاهدا قال نعم قلت بلغنى انه ورث من أبيه عشرين دينارا فانفقها فى عشرين سنة فكيف يكون زاهدا وهو يمسك الدنانير فقال أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد ولعمرى انا روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعما بالمال الصالح للمرء الصالح والمال الصالح هو الحلال والمرء الصالح المنفق ماله بالليل والنهار سرا وعلانية فى سبيل الله ابتغاء مرضاته كما وصفه الله تعالى ومدحه وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين الا من يحب والذى يحبه الله تعالى ممن أعطاه الدنيا لا يخالف حبيبه الى هواه ولا يؤثر نفسه على محبة مولاه تبارك وتعالى اذ قد تولاه فيما أعطاه وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر والطاعم الشاكر هو الذى يستعين بطعمته على خدمة مولاه ويعبده شكرا لما أولاه وقد قالوا فى الزهد وصفان جامعان لاحوال القلوب قال مضاء بن عيسى قلت للسباع الموصلى يا أبا محمد الى أى شىء أفضى بهم الزهد قال الى الانس بالله تعالى وقال عثمان بن عمارة كان يقال الورع يبلغ بالعبد الى الزهد والزهد يبلغ به حب الله تعالى فهذان الحالان غاية الطالبين الحب للجليل والانس باللطيف فمن لم يتحقق بالزهد لم يبلغ مقام الحب ولم يدرك حال الانس ثم ان سرائر الغيوب فى مقام الحب والخلة وفى حال الانس والقربة وفقنا الله واياكم لما يحب وبلغنا ما نؤمل بفضله ورحمته ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وهذا آخر كتاب الزهد

تم الجزء الثانى من قوت القلوب ويليه الجزء الثالث
أوله شرح مقام التوكل ووصف أحوال المتوكلين

فهرس

الجزء الثانى من كتاب
قوت القلوب لابى طالب المكى

صفحة